الأعمال الفكرية الكاملة

عمر عبيد حسنه

المجلد الثاني



المكتب الإسلامي

الأعمال الفكرية الكاملة

عمر عبيد حسنه

المجلد الثاني

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب: ١١/٣٧٧١ - هاتف: ٤٥٠٦٣٨(٠١)

عمّان : ص.ب: ١٨٢٠٦٥ - هاتف: ٤٦٥٦٦٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

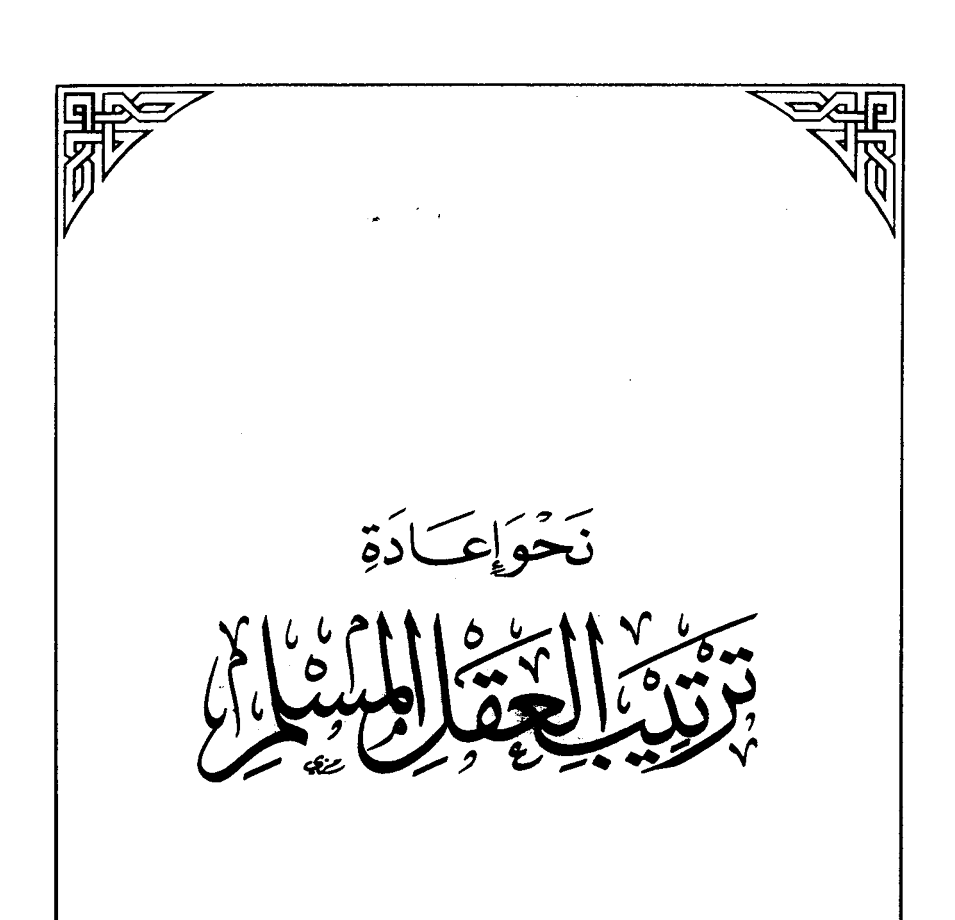
يَقُولُ تَعَالَى:

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

(يُوسُف، ١٠٨)

فهرس المحتويات

□ □ □ □ □ □


نحو إعادة
ترتيب العقل المسلم

مقدمة الناشر

التحيات المباركات الطيبات الزاكيات للّه رب العالمين، الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم.

والصلوات الطاهرات علىٰ مَن فتح الله به أعيناً عمياً، وأسمع آذاناً صمًا، وأنار قلوباً غلفاً، حتىٰ ترك الأُمة علىٰ المحجة البيضاء.

والسلام عليك أيها القارئ ورحمة الله وبركاته، **وَبَعد**،

فيسعدنا أن نسهم في نشر المفيد من كل جيد وجديد، مما يعيد الأُمة إلىٰ وعيها وأصالتها ومكانتها الرائدة والشاهدة علىٰ الناس.

وهٰذا الكتاب الذي نقدّمه بعنوان «**نحو إعادة ترتيب العقل المسلم**» للأخ الأستاذ عمر عبيد حسنه، هو من ذٰلك الجيد الذي يعالج موضوعاً علىٰ غاية من الأهمية، ذٰلك أن العقل المسلم الذي تألق علماً وإبداعاً ومعرفة بالمنهج الرباني في عصور الازدهار السالفة، قد أصابه العجز حينما انحرف عن المنهج، وسار يضرب في التقليد والتبعية.. وهو من أوليات ما ينبغي أن يركز عليه الاهتمام حتىٰ يعود إلىٰ المنهج الذي تميز بالموضوعية والحرية والإبداع.. استجابة لقوله تعالىٰ:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء] وقد عالج الكتاب هٰذا الموضوع، وبيَّن أسباب تألُق العقل المسلم حتىٰ أصبح رائداً للحضارة الإنسانية بجوانبها الثقافية والإبداعية والأخلاقية الإنسانية، فتجاوز العصبيات العرقية واللونية والقومية والطائفية.. وأشاد حضارة عالمية إنسانية، كانت وليدة مشاركات شعوب

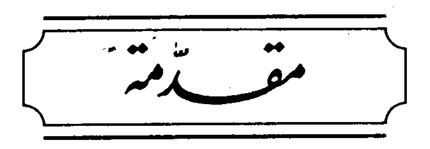
وأمم تأثرت بالمنهج العلمي الإسلامي، وبالمفاهيم العقلية الإنسانية الإسلامية النيّرة.. قال تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣] وقد انتظم هٰذا الكتاب، كذٰلك عقد مجموعة أبحاث تتصل بالموضوع الرئيسي اتصالاً وثيقاً، بما تلقيه من إثارات أمام العقل المسلم، وبما تسلطه من أضواء علىٰ مسائل ومشكلات بعضها قديم يرتبط بالمنهج، وبعضها معاصر يتسم بالإيجابية حيناً وبالسلبية حيناً آخر، وقد أبرز الكاتب التحديات، وجدول الأولويات، وأثار الاهتمامات.

ومعروف عن الكاتب إسهاماته النافعة والجيدة في ميدان الثقافة والدعوة الإسلامية، وقد تهيّأ له بحكم إدارته لتحرير «مجلة الأمة» صلات واسعة مع نخبة من رجال الفكر والدعوة في العالم الإسلامي، فعرف كيف يستخدم هٰذا المنبر في إثارة العقل المسلم، إلىٰ جانب ما تميزت به كتاباته من واقعية وعمق ووعي في افتتاحيات «مجلة الأمة» وعدد من الكتب التي نشرت له.

ويشرّفنا أن ننشر له هٰذا الكتاب، الذي نأمل أن يستفيد منه العامة والخاصة، سائلين الله تعالىٰ أن يعم نفعه وثوابه الكاتب والناشر والقارئ، والله من وراء القصد.





مقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين.. **وبعد**،

فمن الأمور التي أصبحت مسلمات، أن العقل المسلم اليوم افتقد الكثير من فاعليته وتوهجه ومنهجيته وصوابه، على الرغم من رصيده الحضاري، وميراثه الثقافي، وعقيدته الدافعة، وتاريخه الفكري، والتحديات الكبيرة من حوله التي تتمثل في الإنجازات العلمية المذهلة، والأقمار الصناعية التي تجوب الأرض فتقدم مسحاً شاملاً لحركة البشر ورصداً كاملاً لتصرفاتهم، وثورة المعلومات التي تساهم في استكناه أسرار الكون، واستشراف آفاق المستقبل، ووضع الخطط في محاولة للتحكم بالسنن والمسارات وتحديد النتائج مسبقاً، حيث لم يعد هناك مكان للأغبياء في عالم العقلاء والأذكياء.

والذي يحاول التعرف على موقع الأُمة الإسلامية من خلال الخارطة الفكرية والثقافية والعلمية العالمية المعاصرة، يُصاب بكثير من الإحباط والحزن ـ وحتى اليأس، لولا الإيمان الذي يعصمه من ذلك، ويضمن له الصمود والمحاولة أكثر من مرة لاستعادة الفاعلية وإعادة البناء، فـ﴿إِنَّهُ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧] فيستعيد إيمانه، ويجدد وعيه بسنّة التداول الحضاري والمدافعة البشرية، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠]، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج:٤٠]، فيعاوده

الأمل في عملية النهوض، والثقة بأن العمر والإنجاز الحضاري للأمة لا يقاس بعصر واحد من تقلب العصور، ولا يجوز أن ينظر إليه ويحكم عليه من خلال الإصابات والأمراض التي تلحق بالأمة في فترات سقوطها. .

وقد يكون من نعم الله علىٰ هٰذه الأمة، أنه لم يسلّط عليها عدوّها تسليط استئصال وإلغاء، وهي التي حملت الرسالة الخاتمة، ونيطت بها القيادة الدينية للعالم، وإنما هي عقوبات ومؤدبات علىٰ المعاصي الفكرية والسلوكية، ومنبهات حضارية لاستعادة العافية والنهوض من جديد لاستئناف المهمة الرسالية.

لذٰلك، فقد يكون المطلوب اليوم أكثر من أي وقت مضىٰ، من الذين يستشعرون التحدي ويدركون الواقع الذي صارت إليه الأمور من الانهدام الحضاري الذي لحق بالأمة، ومسافة التخلف التي تتسع كل يوم، والاستنقاع والركود الاجتماعي، وتكريس ذٰلك، وحمايته بضروب من الاستبداد السياسي، أن يدركوا أن تجديد أمر هٰذا الدين مرتبط أولاً - وقبل كل شيء - بإعادة ترتيب العقل المسلم، وتجديد مناهج التفكير، وتنقية الموارد الثقافية، وإصلاح عالم الأفكار بعد أن اختلط الأمر، واختلّت النسب، وافتقد التوازن المطلوب، وبددته الجهود بما يفيد وما لا يفيد، وأقيمت المعارك بعيداً عن مجالاتها الحقيقية، وانسحب المسلم من الساحة، ولم يعد يتقن حتىٰ دور المتفرج الذي يدرك حركة الأشياء ويلمح مساراتها، ويسعد بنتائجها.

وقد تكون المشكلة من وجه آخر:

انعدام الإحساس والوعي الحقيقي بحركة الحياة والأحياء، والعيش علىٰ وهم العافية خارج إطار الزمان والمكان بعيداً عن معركة الحياة الحقيقية، وتوهم العبقرية والتميز بالقيادة والريادة. . وهٰذا، من الجهل المركب الذي يُصاب به الإنسان عندما لا يعلم، ولا يعلم أنه لا يعلم، فتنكسر الموازين، وتختل النواميس، وتختلط الأمور، ويُكرس التخلف، ونسعد بالعجز. . وإذا حاول أحد المراجعة وتحديد مواطن القصور خضع لضروب من المحاصرة والإرهاب الفكري وادعاءات العصمة، فما أسهل

الإلقاء بالتبعة علىٰ الأسباب والعوامل الخارجية.. أما نحن فقد أدّينا ما علينا بالتمام والكمال!

إن أية محاولة لإعادة ترتيب العقل المسلم اليوم، وتأهيله لعملية التغيير، وإعادة البناء والتشكيل، لا بد أن تأخذ باعتبارها أن التغيير إنما يبتدئ من داخل النفس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] وإعادة صياغة الشخصية المسلمة، وتصويب مناهج التفكير، ذٰلك أن الأزمة في حقيقتها أزمة فكر، ولا بد لكل مَن يحاول العلاج من:

١ ـ التعرُّف الدقيق علىٰ حركة الأمة التاريخية، وعوامل إنجازها الحضاري، من خلال الظروف والملابسات الكثيرة، سواء منها الداخلية أو الخارجية التي أحاطت بالحادثة التاريخية، ومعرفة حجم التحدي، والتبصر بطرائق المواجهة، والتحقق بالدرس والعبرة.

ومن الأمور التي قد يكون من المفيد الإشارة إليها هنا أن الإسلام لم يرض للمسلم عند النظر إلىٰ الحادثة التاريخية، والتعرف علىٰ أسباب النهوض والانقراض في المسألة الحضارية، أن يقتصر علىٰ التجربة التاريخية الإسلامية، وإنما لا بد أن يتجاوز ذٰلك إلىٰ التاريخ العام للأمم، والدراسة الميدانية لحركة التاريخ العام، يقول تعالىٰ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ ...﴾ [الروم:٤٢].

٢ ـ استقراء الحاضر من جميع جوانبه، والتعرف علىٰ العوامل الأساسية والمؤثرة في هٰذا الواقع، وعلىٰ الأسباب التي أوجدت هٰذه النتائج، إضافة إلىٰ المعرفة الدقيقة للظروف المحيطة والإمكانات المتاحة.. ومن ثمّ تحديد موقع هٰذا الحاضر من حركة التاريخ والحضارة للأمة، وتمييز أوجه التشابه والافتراق، وإلىٰ أي مدًى يمكن الإفادة من الحركة التاريخية في تقويم الحاضر وتصويبه علىٰ ضوء تلك الرؤية التاريخية.. وبالقدر الذي نستطيع المداخلة مع هٰذا الحاضر، وإعادة ترتيبه، والتأثير فيه، نكون قادرين علىٰ صناعة ملامح المستقبل الذي نريد.

٣ ـ استشراف آفاق المستقبل علىٰ ضوء ذٰلك كله، لأن الماضي

والحاضر لا يخرجان عن أن يكونا المقدمة التي سوف تنتج المستقبل وتحدد ملامحه.. إذ لا يمكن أن يكون المستقبل أمراً خارجاً عن مقدماته القائمة.. والذين يحاولون إسقاط الماضي والحاضر من اعتبارات المستقبل، إنما يسعون إلىٰ تحقق السنن الخارقة بعيداً عن السنن الجارية، ويريدون للذي يساهم بصنع المستقبل أن يكون بلا ذاكرة (الماضي)، وبلا حواس (الحاضر).. والعقل الذي يفتقد الحواس سوف يكون عاجزاً عن الإدراك، والحكم الصحيح علىٰ الأشياء، واكتشاف مواطن الخلل والتقصير، وامتلاك إمكانية التصويب.

إن استشراف آفاق المستقبل علىٰ ضوء الماضي والحاضر لم يعد ضرباً من التخمين أو الرجم بالغيب، أو من قبيل التنبؤات؛ بل لقد دخل الموضوع في طور العلم الذي له إحصاءاته واحتمالاته وحساباته، وإلغاء النظرة المستقبلية تحت عنوان لا يعلم الغيب إلا الله فيه الكثير من العجز عن إدراك معنىٰ مصطلح الغيب، ومعنىٰ المستقبل والمجافاة لسنن الحياة وتعامل النبوة معها.

والحقيقة التي لا بد من إضافتها أيضاً، أن العالم اليوم أصبح دولة واحدة من حيث التأثير والتأثر، وأن أي تجاهل لعوامل التأثير الخارجية في صورة المستقبل سوف تقلب النتائج رأساً علىٰ عقب.. فالدراسات والحسابات الإقليمية لم تعد وحدها قادرة علىٰ الإجابة عن صورة المستقبل المنشود بعد أن أصبح العالم دولة واحدة، وأصبحت إرادة التحكم الدولي عاملاً كبيراً في مشروعات التغيير بالقدر نفسه الذي يمنحه هٰذا العامل للعقل المسلم من القدرة علىٰ الإفادة من سنّة المدافعة الدولية، ويفتح له إمكانية التحرك.

ونحن بسبيل الكلام عن إعادة ترتيب العقل المسلم، لا بد أن نعرض لقضية نعتقد أنها أساسية في هٰذا المجال.. فإذا عرّفنا العقل بشكل عام بأنه: تلك الملكة الفطرية في الإنسان التي يستطيع بها أن يرتب محصول الحواس، وأن يدرك ما وراءها من المعاني المجردة، وأن يميز بطرق

ومناهج معينة ما هو حق وما هو باطل، كان لا بد أن نوضح أن غياب ضوابط التفكير، واختلاط مصادر المعرفة، واختلال مناهج الفكر، والخروج بالعقل عن ميدانه، وتحكيمه فيما لا يمتلك مؤهلات الحكم فيه، يؤدي إلىٰ ضرب من التناقض والمفارقة وتمزق رقعة التفكير لدىٰ الإنسان.. فلا بد للعقل من عواصم، ولا بد للتفكير من مناهج، ولا بد للأحكام العقلية من منطق.

وفي اعتقادنا أن في مقدمة الأمور التي يجب التنبُّه لها، والتي تشكل مفترق طريق بين العقل المسلم وغيره، هي تحديد مصادر المعرفة أساساً.. فمن الأمور الثابتة عقلاً وشرعاً وواقعاً، أن مصادر المعرفة بالنسبة للمسلم تتمثل في أمرين:

١ ـ **الوحي**: وطريقه النبوة.

٢ ـ **العقل**: وطريقه الحواس.

ولا شك أن للمعرفة الواردة عن طريق الوحي وسائل وأدوات وشروطاً لاختبار صحتها، ونفي احتمال خطأ الذاكرة عنها.

كما أن للمعرفة الواردة عن طريق العقل، وسائل للفحص والاختبار لنفي خطأ الحواس، أو صوابية مناهج التمييز وصحتها بين ما هو حق وما هو باطل.

وبطبيعة الحال، فإن المعرفة الواردة عن طريق الوحي لا تلغي دور العقل، وليست أمراً مناقضاً له، ذٰلك أن وسائل وشروط الاختبار لهٰذه المعرفة منوط بالعقل، وأن العقل في نهاية المطاف هو وسيلة المعرفة بالنسبة للوحي، وإدراكه، والتدليل عليه.. فهو أساس الإيمان، ومناط التكليف.. لٰكن تبقىٰ المشكلة في عدم التمييز بين وسائل اختبار المعارف الواردة عن طريق الوحي، ووسائل اختبار المعرفة الواردة عن طريق العقل، والخلط بينهما، واستعمال كل منهما في مجال الأخرىٰ.

ذٰلك أن قضية المعرفة الواردة عن طريق الوحي بشكل قطعي، تشكل

بالنسبة للعقل المسلم أساساً ووجوداً، وهي من الثوابت اليقينية غير القابلة للتعديل والتبديل والتغيير، وإنما يقتصر دور العقل إزاءها علىٰ الاجتهاد في فهمها وإدراك مقصدها، ومجالات عملها، وشمولها، علىٰ عكس الفكر الوضعي حيث كل معارفه قابلة للمناقشة، والإلغاء والإبقاء والتغيير والتبديل والتطوير..

من هنا نقول: بأن مناهج التفكير عند المسلم تتمحور حوال هٰذه الثوابت لترسيخها والدفاع عنها، والاجتهاد في إقناع الآخرين بها والدعوة لاعتناقها، ولذٰلك يبدو الفكر الإسلامي دفاعياً، وحماسياً، وتعبوياً، لأنّه يتمحور حول ركائز لا يتطرق إليها الشك.. بينما الفكر الوضعي قد يمتلك من إمكانية الإلغاء والإبقاء والتغيير مدًى أوسع لأن أصل القضية عنده قائمة ـ أساساً ـ علىٰ احتمال الصواب والخطأ، وإذا طرأ الاحتمال بطل الاستدلال كما هو معروف.

فلا يجوز، والحال هٰذه، أن تخضع معارف الفكر الإسلامي إلىٰ نفس وسائل الفكر الوضعي، اللهم إلّا ما كان من معرفة واردة عن طريق العقل بعيداً عن ضوابط الوحي، فهنا قد يستوي الأمران، وإن كان الفكر الإسلامي يبقىٰ متميزاً بقيم ضابطة لمسار التفكير.

فالخلاف في مناهج التفكير قائم ومستمر بين أصحاب الفكر الوضعي العلماني، والفكر الوحيي الإسلامي، المستند أو المنطلق من الوحي في: أصل المنطلقات، والوسائل، والنتائج.. يضاف إلىٰ ذٰلك: قضية الإيمان بالغيب التي لا يمكن أن تتحدد معرفتها إلا من طريق الوحي، ذٰلك أن محاولات الفلاسفة في هٰذه المسألة انتهت إلىٰ صورة محزنة من الناحية العقلية البحتة.

ولم يعانِ الفكر الإسلامي تلك الازدواجية العقلية بين المعارف الواردة عن طريق الوحي ـ والعقل وعاؤها ودليلها ـ والمعارف الواردة عن طريق العقل.. وهٰذا أمر يكاد يكون من البدهيات، ذٰلك أن المصدر بالنسبة للوحي والعقل واحد.. فالذي خلق الإنسان أرسل له النبوة وخصّه بها ﴿أَلَا

يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك]؛ بل لقد أُلِّفت كتب في هٰذا الموضوع للتدليل علىٰ موافقة صحيح المعقول لصريح المنقول.

ولقد استطاعت المعرفة الواردة عن طريق الوحي في الإسلام أن تصمد أمام تقدم العلم وتطور المعرفة، ولم تُسَجَّل إصابة واحدة خلال خمسة عشر قرناً علىٰ معرفة الوحي.. فكل ما جاء به العلم إنما يفتح آفاقاً لفهم معرفة الوحي، فهو يؤكدها ولا يصطدم بها.. ولا نأتي بجديد إذا قلنا بأن مشكلة التناقض هٰذه دخيلة علىٰ الفكر الإسلامي، وأن الذين سقطوا في مناخها، آفتهم أنهم لم يتعرفوا إلىٰ مناهج التفكير عند المسلمين، وكانوا ضحايا الميراث الحضاري غير الإسلامي.. ذٰلك أن النص الديني المعمول به قبل الإسلام، لم يستطع الصمود أمام معارف العقل والتقدم العلمي، لذٰلك حكم علىٰ النص الديني بمجموعه أنه مناقض للعقل والعلم.. ولم يبقَ مجال لعلماء اللاهوت؛ إلّا الارتكاز علىٰ الغيبيات البعيدة عن متناول العقل لإثبات وجودهم، حيث جعلوا الغيب ومعارف الدين مقابلة للعقل والعلم، وأصبح أكثر الناس تديُّناً أكثرهم استسلاماً وإلغاءً لعقله.

ولا بد من الاعتراف، بأن هٰذا المناخ العقلي، أصاب بعض المسلمين بشكل أو بآخر، لأسباب عدة لا يتسع المجال لذكرها هنا، وفاتهم أن من مهمة النص الديني الإسلامي بيان مواطن التحريف والتبديل في النص الديني قبل الإسلام، يقول تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة:٤٨]، ويقول حكاية عن الأمم السابقة: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ [المائدة:٤١]... فالمشكلة أن النص الديني المعمول به قبل الإسلام، هو في الحقيقة نص وضعي تُدّعى له القداسة، ويحتمل من الخطأ ما تحتمله أية معرفة عقلية.

وعلىٰ الرغم من أن الإسلام اعتمد العقل دليل الوحي، وقدّم حضارة لم تمكن هزيمتها علىٰ مستوىٰ الواقع والتاريخ، من الناحية العقلية والعلمية، مع ذٰلك هناك محاولات جديدة تحت اسم العلمانية والعقلية يُخَادع بها بعض المسلمين لمعاملة النص الديني في الإسلام كشأنه في الأديان السابقة،

وفي أحسن الأحوال تبذل محاولات مقنعة للالتفاف علىٰ النص ومحاصرته بضروب من الاجتهاد الجديد وادعاء إعمال روح النص لتحقيق مصالح الناس. ولا شك أن مصالح الناس، لا يمكن ـ عقلاً ـ أن تُتجاهل في النص الخالد المجرد عن حدود الزمان والمكان إذا آمنّا بأن الإسلام هو الرسالة الخاتمة الخالدة ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ومما يلفت النظر هنا، أن أصحاب هٰذه الدعاوىٰ «علمنة المسلمين باسم الإسلام» يركزون في كثير من اجتهاداتهم وتفسيراتهم، علىٰ خلافة سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، لمحاصرة النص والالتفاف عليه، ومن ثمّ لتوقيفه وإلغائه.. ويتخذون من اجتهاده ﷺ وسيلة إيضاح لما يريدون.

ولعل الذي يقوّي عندنا هٰذا المقصد، أن الذين يرتكزون علىٰ هٰذه الفترة دون غيرها من تاريخ الفكر والاجتهاد في الإسلام، يغيّبون كل مواقف سيدنا عمر ﷺ واجتهاداته وإنجازاته للقضية الإسلامية، ومواقفه الحاسمة في الذود عن الإسلام، وتراجعه عن الكثير من اجتهاداته عندما يُظهر له النص؛ إضافة إلىٰ أن بعض اجتهاداته التي ارتكزوا إليها هي في حقيقتها إعمال للنص وفهم له وليس تعطيلاً أو تجاوزاً له، إنهم يحاولون تقطيع الصورة وتبعيضها والقيام بعملية الانتقاء للاستدلال لما يريدون.

وعلىٰ الرغم من أنه لا يجوز التنقيب عن النوايا، فأمرها إلىٰ الله، لكن المؤشرات تدل علىٰ أن القناعات المسبقة هي التي حملتهم إلىٰ هٰذا الانتقاء، وذٰلك الإسقاط.. هٰذا بالنسبة للشريعة، أما بالنسبة للعقيدة، فقضية الإيمان بالغيب، لا بد أن تُطرد من العقل الحديث ـ بمختلف الوسائل عندهم ـ وإن كانت وسائلهم في العالم الإسلامي اليوم تختلف عنها في غيره.. إنهم يمارسون كثيراً من النفاق الاجتماعي الذي لا بد منه للمرور إلىٰ العقل الإسلامي، علماً بأن ذٰلك العقل العلمي المُدعىٰ، لم يستطع التجرد عن الاهتمام بالغيب فآمن بصور من الشعوذة والتخاريف والأباطيل التي لا تُسمن ولا تغني من جوع.

نعود إلىٰ القول: بأن العقل المسلم اليوم، افتقد الكثير من فاعليته، وتوهجه، ومنهجيته، وصوابيته، ولحقت به مجموعة إصابات شكلت له بعض الرضوض والكسور والبعثرة والتمزق والخلل، مما يجعل ضرورة التوجه إليه، وإعادة ترتيبه وبنائه، ووضع المناهج الدقيقة والصارمة للتفكير الإسلامي، في مقدمة الأولويات.

ويمكن أن نعرض لبعض الإصابات التي لحقت بالعقل المسلم علىٰ سبيل الإجمال، لعلها تكون مستقبلاً محل درس وبحث وتحرير، يستعيد بعدها العقل الإسلامي عافيته، إن شاء الله، ويعاود المسلم استئناف دوره ـ بعد أن يكتشف نفسه ـ مستثمراً طاقاته جميعاً، وقادراً علىٰ التخطيط لها ووضعها في المكان المجدي والموقع الفاعل، علىٰ ضوء رؤية دقيقة لسنن الله التي تحكم الحياة والأحياء، ووعي كامل بحركة التاريخ..

وهٰذه بعض الإصابات:

١ ـ عدم التمييز في القبول والرد ووسائل اختبار الصواب والخطأ بدقة، بين معارف الوحي ومعارف العقل.

٢ ـ الاستغراق في بحث الأمور الغيبية، وتجاوز المساحة التي وردت فيها النصوص الصحيحة عن طريق الوحي، ومحاولة إدخال العقل في غير مجاله، علىٰ حساب الكثير من القضايا الحياتية في عالم الشهادة التي نيط بالعقل التفكير بها وإنجازها.

٣ ـ العدول في التعامل عن السنن الجارية وقوانين التسخير، إلىٰ السنن الخارقة وانتظار المنقذ القادم من الغيب ليعالج التخلف والتأخر والتمزق، ويملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جوراً وظلماً، وفي هٰذا ما فيه من مجافاة للعقل المسلم، وللإنجاز الحضاري في عصر النبوة، فترة القدوة.. لٰكنها إفرازات مناخ التخلف، واجتهادات عصر التخلف.

٤ ـ تعطيل قانون السببية، علماً بأنه من أقوىٰ الأدلة التي تبرهن علىٰ وجود خالق الكون، والله سبحانه يقول حكاية عن ذي القرنين الذي حقق

تفوقاً وإنجازاً وتمكناً في الأرض بعد أن ألهمه الله معرفة الأسباب، فاتبعها: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف].

ومشكلة العقل المسلم اليوم، فقدان التوازن في هٰذه القضية، فهو يتردد بين موقفين: بين تأليه الأسباب، وبين تعطيلها.. والجدل النظري حول هٰذا الموضوع أضاع الكثير من الإنجاز، وفوّت الكثير من فرص التصويب والمراجعة واكتشاف الخطأ ومعالجته. ورتّب علىٰ ذٰلك خلط بين التوكل علىٰ الله الذي يعني فعل المقدمات كاملة وتعاطي الأسباب، ثم الاتكال علىٰ الله في إدراك النتائج ـ وذٰلك تعامل مع السنن وقوانين التسخير كما شرعها الله لعباده ـ وبين التواكل الذي يعني القعود عن فعل المقدمات وتعاطي الأسباب، وانتظار النتائج والخوارق

٥ ـ عدم التحديد الشرعي الدقيق لمفهوم البدعة، وأنها منحصرة في الاستحداث لأمور في الدين ليست منه، وإعطائها صفة القداسة، وترتيب الثواب علىٰ فعلها، والعقاب علىٰ تركها ـ أي الإضافات الدينية في العبادات والتشريعات والأخلاق ـ بعد أن أكمل الله الدين، والتداخل بين هٰذا المفهوم وبين مفهوم الإبداع في المجال الحياتي والحضاري الذي يعني قدرة الإسلام علىٰ الاستجابة لمتغيرات العصر بعد المحافظة علىٰ الثوابت الدينية، وقدرة العقل المسلم علىٰ العطاء المستمر، إذ لا يمكن تجميد المجتمع علىٰ صورة واحدة في حركته التاريخية، وأن الإبداع في العلوم والفنون والصناعات من مهام العقل المستهدي بالقيم الدينية.

.. أمّا أن نرمي كل جديد بأنه بدعة، فهٰذا ليس من الفقه والدين في شيء.

٦ ـ القصد إلىٰ مسالك التشدد والحرج والإنذار في أمر الدين والتكليف الشرعي، وتغليبها علىٰ أخلاق اليسر والسماحة والسهولة والبشارة والرخص.. والرسول ﷺ يقول: **«بشّروا ولا تنفّروا»**.

٧ ـ عدم القدرة علىٰ التمييز بين الغزو الثقافي والتبادل المعرفي.. وإقامة هٰذا الحاجز من تخوف الغزو الثقافي حرم العقل المسلم الكثير من

المعارف وارتياد الآفاق التي تمكنه من اختصار فجوة التخلف، والمساهمة في التغيير الحضاري، و«الحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها؛ فهو أحقّ بها».

٨ ـ عدم الإدراك الكامل لمفهوم الفروض الكفائية، وعلاقتها بالاكتفاء الذاتي للأمة، والمعاصي الدينية التي تترتب علىٰ عدم القيام بها والعدول عن الكثير من التخصصات والأعمال المطلوبة للأمة تحت شتّىٰ المعاذير.. وقد تستنكر بعض العقول اليوم عدم الإتيان بمندوب أو مستحب، وتقيم الدنيا ولا تقعدها بسبب ذٰلك، أما ضرورة التخصص بمستلزمات العصر من العلم والتقنية لحماية المجتمع ورقيّه وفك السيطرة الأجنبية التي تتحكم به، فهٰذه قضية لا تخطر لها علىٰ بال وإنها تقاتل من أجل مندوب، ولا تدرك أهمية المفروض.

ومن أغرب ما يسمع الإنسان، أن بعض العقول الإسلامية يصل بها الأمر إلىٰ أن تقرأ الأمر بأبجدية مغلوطة، وهي: أن الله سخّر لنا الأجانب ليكونوا في خدمتنا في الصناعات والزراعات، ونحن عباد الله نتمتع بها، ونعيش مستهلكين لها!

٩ ـ عدم الاقتناع بجدوىٰ النقد والمراجعة والتصويب والاعتبار بالتجارب السابقة، واكتشاف السقطات والحفر والإخفاقات، ودراسة أسبابها، وأخذ الدرس والعبرة منها للمستقبل استجابة لحديث الرسول ﷺ: **«لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين»**، ومحاولة الهروب من المسؤولية عن الفعل، والإلقاء بالتبعة علىٰ العوامل الخارجية، فإن أعيتنا الحيلة، كان القدر هو المسؤول عن هزائمنا.. أما بالنسبة لنا فقد أدّينا واجبنا كاملاً تحت شعار: (ليس بالإمكان أفضل مما كان)، وبذٰلك لا نزال نراوح في مكاننا، ونكرر أخطاءنا، والله سبحانه لم يرد لنا الاعتبار بتاريخنا الخاص فحسب ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] وإنما طلب إلينا أيضاً تحقيق العبرة من التاريخ العام للأمم ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا...﴾ [الروم: ٤٢].

١٠ ـ التردد بين ذهان السهولة ـ وذٰلك بتبسيط الأمور ومن ثم الإقدام

علىٰ فعلها دون روية ودراسة وفهم، وعدم التقدير الدقيق للإمكانات المتاحة والظروف المحيطة، ودون تخطيط مسبق، والإقدام بشكل أعمىٰ ـ، وبين ذُهان الاستحالة وذٰلك بالنظر إلىٰ الأمور والظن باستحالتها، وعدم القدرة علىٰ التعامل معها، وتجاوز الحقائق في ذٰلك إلىٰ الأوهام الموقعة بالعجز واختلاط الممكن بالمستحيل، والانسحاب من الساحة نتيجة رؤية عليلة تؤدي إلىٰ اليأس وتُوقع في العطالة.

١١ ـ الهروب إلىٰ الماضي، وعدم العودة منه للتعامل مع الحاضر والنظر إلىٰ المستقبل.. والعجيب اللافت للنظر أن المسلم اليوم، علىٰ الرغم من شدة تمسكه بتراثه، واعتزازه بإنجازاته الحضارية والتاريخية، نراه عاجزاً عن تعدية الرؤية وحسن الإدرك والوعي لحركة التاريخ التي جعلت منها بعض العقائد قوانين صارمة تحكم الحاضر، وتنبئ بالمستقبل. أما نحن فدخلنا التاريخ ولم نستطع الخروج منه، مما يدل علىٰ أن اعتزازنا بالتراث، وافتخارنا بالتاريخ، هو أقرب للانحياز العاطفي منه إلىٰ امتلاك أهلية إدراك حركة التاريخ. ولا أعتقد أن إنساناً ما، مدركاً للتاريخ تماماً، يبقىٰ بعيداً عن الحاضر ورؤية المستقبل.. وإذا كان للماضي من فائدة، فلأنه ينير الطريق إلىٰ معرفة الحاضر ورؤية المستقبل.. أما الماضي فلا يمكن استعادته والعيش فيه بحال من الأحوال إلاّ إذا سيطرت علينا أحلام اليقظة. ويؤسفنا أن نقول: بأن التاريخ هو الذي استوعبنا، أما نحن فلم نستوعب التاريخ.

١٢ ـ عدم استشراف آفاق المستقبل علىٰ ضوء الماضي والحاضر، وفهم الحركة التاريخية، ومراقبة مجراها، ومن ثَمّ، مصبّها مستقبلاً، وأعتقد أنه لا يجوز الهروب من النظر إلىٰ المستقبل تحت عنوان (المستقبل بيد الله).. فالماضي، والحاضر، والمستقبل، كلها بيد الله... والرسول ﷺ كان يرسل سرايا الاستطلاع ليتعرّف علىٰ أعدائه، ويعد العدة لاستقبالهم في المعركة، وكان ينظر في عدد ما يذبحون ويأكلون ليقدر عددهم ويستعد للقائهم..

فتعطيل النظر إلىٰ المستقبل بعد أن أصبحت له دراساته وعلومه، تحت

شتّىٰ الاعتذارات، ليس من هٰذا الدين بل هو إصابة للعقل ومجافاة للدين، خاصة وأن الإسلام مدّ الحياة إلىٰ ما وراء عالم الدنيا حيث يتوقف الناس ليدخل بهم عن طريق الوحي إلىٰ عالم الغيب. . . فالمستقبل في تصورنا الإسلامي أبعد مدًى.

١٣ ـ تعطيل الحوار الذي يفتح الآفاق، ويساهم برعاية القابليات، ويشحذ الفاعلية، ويحقق الإبداع. . فالقرآن عرض للعقائد السابقة وناقشها من أكثر من وجه، وفي أكثر من موقع، وطرح أكثر من احتمال. فإذا كان الحوار مع الخصوم قائماً، فما بال العقل المسلم اليوم يغلق منافذ الحوار حتىٰ مع القائمين علىٰ الأمر الواحد، المسْتَهمين في السفينة الواحدة؟!

١٤ ـ التراجع إلىٰ مواقع الفكر الدفاعي مما جعل الخصوم وأعداء الدين يتحكمون بالنشاط العقلي للمسلم بإثارة المشكلات والقضايا والاتهامات، وبذٰلك افتقد العقلُ الأصالة والإبداع، واتسم بالعاطفية والحماس، ووقع في دائرة التحكم التي رسمها الخصوم.

١٥ ـ التوقف عن الاجتهاد والمضي في بناء المجتمع والإنجاز الحضاري، والاكتفاء بالتقليد تحت شعار: (ما ترك السابقون للاحقين شيئاً) وذٰلك يعني ـ فيما يعني ـ انقطاع الخير في هٰذه الأمة، وعدم صلاحية الإسلام للأزمنة الحاضرة والمستقبلة، وبذٰلك يتحقق لأعداء الإسلام ما أرادوا من أن الإسلام كان لفترات ماضية ولا يصلح لصناعة الحاضر واستشراف المستقبل.

١٦ ـ العجز عن النظرة الكلية للأمور، وإدراك المقاصد العامة للشريعة، والوقوع في الجزئية وعدم القدرة علىٰ التحقق بالسنن التي تحكم الحياة وترىٰ الأولويات المطلوبة، وتستطيع تحديد الموقع الفاعل والتحرك المناسب من خلال سنن المدافعة التي شرعها الله لحماية القيم التي أنزلها.

وَبَعـد،

فسوف لا يتسع المجال هنا، لو حاولنا استقصاء الإصابات التي لحقت بالعقل المسلم، والتي تقتضي أهمية البدء بمعالجته وتصويبه وإعادة ترتيبه. .

وقد تقتضي كل إصابة بحثاً كاملاً في أسبابها ونتائجها وطرائق معالجتها.

وحسبنا هنا، هٰذه الملامح العامة لعلها تثير اهتمام الباحثين والدارسين فيعكفوا عليها دراسة وبحثاً حيث لا بد من العودة للعكوف علىٰ الذات لتقويمها وتغييرها والاعتكاف حول قضايا الفكر الإسلامي، والنظر المستمر في أزمته، فإذا سلمت مناهج التفكير، فقد سلمت الأمة من السقوط.. وإذا أصيب عالم الأفكار فلا قيمة لكل الأشياء الأخرىٰ لأنها تصبح صورة لا حقيقة لها.

ولعل الأمور التي سوف يثيرها هٰذا الكتاب ـ وهي في أصلها تقديمات لما صدر في سلسلة «كتاب الأمة» التي طرحت مجموعة قضايا في التحصين الثقافي والوعي الحضاري ـ تعتبر محاولة للمساهمة في إعادة ترتيب العقل المسلم، وشحذ فاعليته.. ولقد أبقيت عليها كما وردت، محافظة علىٰ المراحل التاريخية للظروف التي كتب فيها.. وعلىٰ الله قصد السبيل.

الدوحة ـ قطر
ذو الحجة ١٤٠٨هـ
تموز ـ يوليو ـ ١٩٨٨م

عمر عبيد حسنه

□ □ □ □ □ □

في المنهج والأدب والتراث

إعادة بناء عالم الأفكار

إن محاولة إعادة ترتيب العقل المسلم، ومنحه القدرة على التخلص من بعض القيود والأسوار، قضية تجد في طريقها الكثير من الصعوبات والركام، لذلك كان لا بد من المعالجة المنهجية الحكيمة المتأنية الناضجة.

إننا نرىٰ من أولىٰ اهتماماتنا، المساهمة في تحقيق الوعي الثقافي الإسلامي، وإعادة بناء عالم الأفكار، والدعوة إلىٰ وضع ملامح تخطيط ثقافي إسلامي (استراتيجية ثقافية) يعيد بناء التصاميم الذهنية الإسلامية ويوفر الطاقات ويهندسها، ويضعها في المجال المُجدي، لتنتهي بذٰلك مرحلة الرسم بالفراغ، التي ورثناها عن مراحل التخلف، وساهم في تكريسها الغزو الثقافي، الذي لا نزال نُعاني من آثاره علىٰ أكثر المستويات، بالرغم من الدعاوىٰ الكثيرة التي نريد أن تُثبت عكس ذٰلك.

ويبقىٰ المطلوب دائماً مزيداً من إلقاء الأضواء الإضافية علىٰ جوانب المشكلة الثقافية، للوصول إلىٰ إعادة صياغة وتشكيل العقل المسلم، أو إعادة ترتيب العقل العام لمسلم اليوم، وتخليصه من النظرات الجزئية المتناثرة، وعجزه عن مواجهة مشكلاته وتحدياته الداخلية منها والخارجية علىٰ حد سواء، علىٰ ضوء رؤية إسلامية ذات إخلاص وصواب، ودراية وفقه، يتحقق فيها طرفا المعادلة التي استحال علينا حلها طيلة عصر التخلف والسقوط الحضاري والتي استعاذ منها سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، حيث قال:

«اللهم إني أعوذ بك من جلد الفاجر وعجز التقي».

لذلك كان لا بد أن نحل المعادلة فنصل إلىٰ مرحلة جلد التقي وعجز الفاجر.. بعيداً عن المواقف والتصرفات الانفعالية الخطابية، التي تحرك العاطفة ولا ترشد العقل، وتعتمد التهويل والمبالغة، ولا تخدم القضية الإسلامية، بل علىٰ العكس قد تساهم مساهمة سلبية غير مقصودة في تخلف المسلمين.

إن محاولة إعادة ترتيب العقل المسلم، أو إعادة تشكيله أو صياغته، ومنحه القدرة علىٰ التخلص من بعض القيود والأسوار، قضية تجد في طريقها الكثير من الصعوبات والركام الذي قد يلبس الأمور ويغيب الرؤية الصحيحة للأشياء، والقدرة علىٰ إبصارها ومن ثم تصنيفها، إنها تتعلق بصميم المشكلة الثقافية التي نعاني منها بعد أن زرعت في نفوسنا القابلية لها وتواضعت عليها القرون.

لذلك، كان لا بد من المعالجة المنهجية الحكيمة المتأنية الناضجة، ولا بد من تناول القضية من أكثر من طرف وإلقاء أكثر من ضوء إضافي عليها واستعمال أكثر من وسيلة، والصبر والاحتمال لما يمكن أن يحدث من خطأ في المقايسة والموازنة، ومن عجز في الإبصار وعثرات علىٰ الطريق.

ولكن مع ذلك تبقىٰ القضية مُلِحّة بعد هذا الواقع الثقافي الهجين الذي انتهينا إليه، والذي حمل إليها ما يفيد وما لا يفيد، ما لنا وما ليس لنا، واختلطت فيه المفاهيم.

تنقية ثقافية:

لقد أصبحت الحاجة ملحّة لعملية التنقية الثقافية، وأصبحنا أحوج من أي وقت مضىٰ إلىٰ الذين يحملون عقل المهندس، ومبضع الطبيب، وحرقة الوالدة، علىٰ مستوىٰ الفكر والثقافة، ليقوم بعملية الإخلاء والإملاء، أو عملية الهدم المسبوقة بمخطط واضح ومدروس لعملية البناء، لأن بعض الناس يحسنون الهدم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ولأنه يتناسب مع

طبائعهم وانفعالاتهم واستعجالهم؛ لكنهم يعجزون، ولا يحتملون البناء، لأن البناء يستدعي التأني والصبر والزمن والنضج... وكلها متطلبات لا تقتضيها عملية الهدم. وتبقىٰ المشكلة في بناء العقلية القادرة علىٰ البناء وفي تصويب مسار هٰذه القدرة.

ونحن نعترف أن ما أصاب العقل المسلم من صدوع ورضوض وكسور وتقطيع، فصدّه عن المضي إلىٰ غايته، وحال بينه وبين أداء رسالته، لا يمكن أن يعالج بكتاب أو مقال أو محاضرة أو بحث، وإنما يتعلق الموضوع بصميم المشكلة الثقافية، والمناخ الثقافي أو عالم الأفكار، الذي يشكل المحضن الصحي والضروري لإعادة تشكيل العقل وتربيته ومنحه القدرة علىٰ العطاء والحماية من الانكسار.

من هنا نعاود القول:

بأنه لا بدّ من أن تأتي المعالجة طويلة النفس، دائبة ومستمرة، تعطىٰ من الزمن والمحاولة ما تستحقه الأمراض المزمنة من الصبر والأناة وبراعة المعالجة، ورسم المنهج الصحيح وتعميق أبعاده، ومتابعة ذٰلك بأكثر من وسيلة ليتمثله الفرد المسلم فتحصل النقلة المطلوبة ونسترد المواقع المفقودة، ولا نخدع أنفسنا، أو نخادع بالفجر الكاذب الذي يعمي علىٰ كثير منا حقيقة النور، وسلامة الرؤية في تحقيق نصر موهوم.

إن العقل الذي لا يتحقق بالرؤية الشمولية الكاملة لا يمكنه الترتيب لانعدام الرؤية الدقيقة لسلّم المشكلات التي تواجه عالم المسلمين، وبالتالي فلا يمكن له القيام بعملية «البرمجة»، ولا يمتلك القدرة علىٰ التصنيف وإعطاء كل مشكلة علامتها ومكانها الذي تستحق والطاقة التي تحتاج، كما أنه لا يمتلك المقدرة علىٰ التمييز بين آثار المشكلات التي تنجم عنها وأسبابها التي أوجدتها، وأن معالجة الآثار تعني مزيداً من الارتكاس ومزيداً من هدر الطاقات، فلا بد من اكتشاف الأسباب والعلل ومعالجة هٰذه الأسباب، وإلىٰ أي مدًى يمكن أن يكون الكثير من المشكلات الفرعية أو الجزئية مظهراً من مظاهر المشكلة العامة، وأن هٰذه المشكلات الفرعية

سوف تغيب عن عالم المسلمين إذا أحسنّا تحديد أبعاد المشكلة العامة وبالتالي أحسنّا معالجتها.

دعوة مزدوجة:

إن دعوتنا إلىٰ إعادة صياغة العقل المسلم، أو الوصول إلىٰ العقل المرتب لمسلم اليوم هي دعوة مزدوجة في حقيقة الأمر أو ذات بُعدين رئيسين:

١ ـ **تصحيح التصور**: وذٰلك بالقدرة علىٰ رؤية الخطوط الإسلامية والمسارات الإسلامية متواصلة متكاملة متوازية لا يصطدم بعضها بالآخر لتأخذ بعدها بضبط وربط.. والقدرة علىٰ تكوين العقلية التي تمتلك أبجديات الثقافة الإسلامية فتُحسن القراءة الإسلامية التي تستطيع من خلالها أن تفسر الظواهر الاجتماعية تفسيراً إسلامياً، وتصدر عن تصور شامل للكون والحياة والإنسان، ولا تقع فريسة للتفسيرات غير الإسلامية، كما أنها لا تبقىٰ مهوّشة غير قادرة علىٰ التوازن والاعتدال.

٢ ـ **تخليص العقل**: من التركيز علىٰ النظرة الجزئية، لأنّ التركيز عليها يؤدي إلىٰ آفات عقلية ليس أقلها العجز والانحسار، كما يؤدي إلىٰ تضخيم دور بعض الفروع والجزئيات الأمر الذي يقتل الإبداع، ويصيب قدرة العطاء عند الإنسان، ويوقع في التقليد ويحرم صاحبه من الإفادة من جهود الآخرين سواء أكان ذٰلك بالتعامل مع التراث أم بالقدرة علىٰ استلهام الكتاب والسنّة لمواجهة حاجات العصر المتجددة.

ونحن لا نريد هنا بمطاردتنا لأصحاب النظرة الجزئية المولعين بالتبعيض، الملتزمين بالأبعاض، أن ندعو إلىٰ تسطيح المعرفة العلمية وتمديدها في عصر التخصصات الجزئية والعجز الفردي عن الاستيعاب والأداء الفردي الشامل والمجدي.

وإنما الذي نريد له أن يكون واضحاً أن الكلام هنا في مجال البنية الثقافية، وهي أمر آخر لا تشكل المعرفة العلمية الأكاديمية إلا حيزاً بسيطاً منه علىٰ ضرورته وأهميته.

العلم.. والثقافة:

لذٰلك نرىٰ أنه لا بد من ثقافة عامة، ونظرة شمولية وعقل مرتب متوازن قادر علىٰ النظرة العامة إلىٰ جانب التخصص العلمي ببعض الجوانب.. فالعلم شيء والثقافة التي تستطيع توظيف هٰذا العلم والإفادة منه شيء آخر.

ويمكن لنا أن نأتي بمثال علىٰ ذٰلك:

إن العالم اليهودي الذي اخترع مادة متفجرة جاءت كثمرة لتخصصه العلمي، كان إلىٰ جانب هٰذا التخصص العلمي الدقيق يتمتع بثقافة توراتية ورؤية دينية توجه ملكاته وتوظف تخصصاته للعمل علىٰ تحقيقها، وذٰلك في الوصول إلىٰ أرض الميعاد وإعادة بناء الهيكل، إنه لم يكن عاجزاً عن توظيف مخترعه العلمي من خلال تلك الثقافة، لقد فرض علىٰ الحلفاء في الحرب العالمية أنه سوف لا يبوح لهم بسر المخترع الذي يمكنهم من النصر ما لم يأخذ عليهم العهد في تأييد حق يهود في فلسطين.. وهٰذا الذي كان، وقدّم هٰذا العالم لأبناء دينه ما لم يستطع تقديمه جيش من الجهلاء أو العلماء الفاقدين للبصيرة والثقافة، والذين لا تزيد علومهم عن أن تكون نسخاً جديدة مما قرأوا أو معاجم جامدة في المكتبة!!

أين هٰذا من بعض مسلمي اليوم الذين جاءت مكوناتهم الثقافية ثمرة للسقوط الحضاري والتخلف الثقافي والعجز العقلي؟! حيث يرون بأن أمر الدعوة إلىٰ الله يتعارض مع متابعة التخصص العلمي فيدعون الجامعات وقد يكونون في السنوات الأخيرة ليتفرغوا بزعمهم إلىٰ أمور نشر الدعوة الإسلامية، وكأن الجهل وعدم النبوغ العلمي أصبح في نظرهم ضربة لازب لنجاح أمر الدعوة الإسلامية!!!

أليست هٰذه حالة محزنة وثقافة محزنة وواقع أليم؟!..

إن الذي يرىٰ الأمور «من فوق» بشكل عام، قادر علىٰ تحقيق الانسجام وتقدير الحجوم والأبعاد وترتيب الأولويات والتمييز بين الأمراض والأعراض.

أين توهج العقل المسلم وقدراته الهائلة التي ربّاه عليها الإسلام؟! أين العقل القائس القادر علىٰ إدراك علل الأشياء.. المتبصر بأحوال الأمم والجماعات.. القادر علىٰ فهم السنن الاجتماعية والأسباب.. المتتبع للمسار الحضاري في نشوء وسقوط الحضارات.. القادر علىٰ التمييز بين الوسائل والغايات، وحكم التشريع، والعلل التي هي مناط القياس، المتدبر لقوله تعالىٰ:

﴿... فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ...﴾ [الحشر:٢] القادر علىٰ استيعاب الدرس التاريخي الخاص والعام، المخاطب بقوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ ...﴾ [النساء].

إن إعادة النظر من حين لآخر بسلّم المشكلات، وإعادة تصنيف هٰذه المشكلات وترتيب الأولويات حماية للجهد واغتناماً لفرصة العمر، وتوفّر الطاقات، والموازنة الدقيقة بين الحاجات والإمكانات وعدم الخلط بين الأمنيات والإمكانات، وإعادة النظر بالموقع الذي يمكن أن يكون فيه الفرد المسلم، والعاملون للإسلام، وإعادة النظر أيضاً بوسائل الدعوة وتطويرها حسب حاجات العصر ومن خلال مشكلاته، وعدم الضرب في الحديد البارد، وجعل الاختصاص في خدمة العقيدة والتقدم في قضية الدعوة واكتشاف المنابر المؤثرة، والمواقع الجديدة التي أخذت مكاناً ومكانة في المجتمع الحديث، والقدرة علىٰ دراسة شبكة العلاقات الاجتماعية والاقتناع بأن التفوق العلمي والتخصص النادر الذي يتحصن صاحبه بالدين القويم هو المطلوب لهٰذه الأمة، أصبح ضرورة لا غنًى عنها.

عقلية البرمجة والتخطيط:

لا بد من بناء عقلية البرمجة والتخطيط ودراسة الأسباب، واختبار النتائج واكتشاف مواطن الخطأ والعجز، وإعادة المحاولة أكثر من مرة، وقد نخطئ كثيراً ولا نظفر بالمطلوب في أكثر من جولة.. لٰكن علىٰ الأقل نطمئن إلىٰ أننا وقفنا علىٰ الجادة، وبدأنا طريق العودة إلىٰ الإسلام.

إن عطالة العقل المسلم ـ مسلم عصر التخلف ـ وإلغاءه، تجاه مناقشة قضية صحة النتائج ومدىٰ توافقها مع المقدمات بوحي من تصور إسلامي مغلوط، سيبقي العقل يراوح مكانه لا يبرحه ما لم يحرر من هٰذه المعضلة ويدرك أبعادها بشكل دقيق وسليم.

صحيح أن أمر ترتب النتائج علىٰ المقدمات مملوك للّه تعالىٰ ومراد له، ولو لم يكن ذٰلك كذٰلك لانتفت صفة الألوهية، وصحيح أيضاً أن الذي خلق قانون العلل والأسباب والسنن لا يمكن أن يُحكَم به، ومن هنا كانت المعجزات التي أقل ما يقال فيها أنها خرق لقانون السببية وحصول النتائج دون وجود المقدمات، لكن من جانب آخر لا بد من الاعتقاد أن الله يحكم البشرية به ويحاسبهم علىٰ ضوئه؛ وإلا توقفت الحياة وتعطلت وظيفة الإنسان في الأرض القائمة أصلاً علىٰ تعاطي الأسباب وإتقانها وحسن التعامل معها لتوصل إلىٰ النتائج، وبطل التكليف وترتب الثواب والعقاب وسادت العبثية.

إن الله لا يحكم نفسه بالأسباب والسنن التي وضعها، لكنه هو الذي شرعها للمخلوق ليحاكمه علىٰ ضوئها، إن الأمر يتعلق بأصل قضية التكليف، ولو عدل المخلوق عن هٰذه السنن التي شرعها الله إلىٰ غيرها من صناعة البشر لكان محل مساءلة.

إن عدم مناقشة ومراجعة ترتب النتائج علىٰ المقدمات أو المسبّبات علىٰ الأسباب تحت شعار «ليس علينا إدراك النتائج»، والاستسلام لها بهٰذه السهولة يفقدنا عملية الصواب والتصويب التي لا تتحصل؛ إلا بالعودة إلىٰ دراسة الثغرات التي كانت سبباً في تخلف النتائج واستدراكها:

﴿... **قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ** ...﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وإن الإيمان والالتزام.. بقول الرسول ﷺ: «... **وإذا أصابك شيء فقل: قدّر الله وما شاء فعل**...». لا يعني الاستسلام، وإنما يعطي نوعاً من الإيجابية حتىٰ لا تمتد العطالة والإصابة إلىٰ المستقبل، إنه لا يلغي الفاعلية القائمة علىٰ تعاطي السنن أصلاً للتوصل إلىٰ النتائج المطلوبة، وإنما يوفر الطاقة ويحول دون العجز والسقوط والبكاء علىٰ الأطلال.

إن كون النتائج وحصولها أو عدم حصولها من قدر الله، أمر يوازي قضية السببية ولا يصدم بها، لأن الأسباب الموصلة إلىٰ النتائج هي من قدر الله وسننه في الحياة أيضاً.

ومن هنا تأتي ضرورة إعادة ترتيب العقل المسلم اليوم علىٰ ضوء فهم عمر بن الخطاب ﷺ عندما سئل بعد تحوله برعيه من الوادي الجدب إلىٰ الوادي المخصب ليؤمّن لغنمه المرعىٰ الصالح: كيف تفر من قدر الله؟ فيقول: «فررت من قدر الله إلىٰ قدر الله...».

الرؤية النصفية:

أما الفهم النصفي العليل، بأن علينا تعاطي الأسباب وليس علينا مناقشة مدىٰ ترتب النتائج علىٰ هٰذه الأسباب، فقضية خطيرة تزري بالعقل المسلم وتتعارض مع سنن الله في الحياة والأحياء التي أمرنا بالتزامها.

إن تسلل مثل هٰذه القضية الخطيرة إلىٰ حياة المسلمين دفعهم إلىٰ الاستسلام المرفوض شرعاً وعقلاً، ولقد استراح عقل مسلم اليوم إلىٰ هٰذه المقولة التي جاءت ثمرة لعصر التخلف لأنها تعفيه من المسؤولية تجاه القضايا التي يخفق فيها، وتعفيه من إعادة النظر لاكتشاف الثغرات وتسديدها لأن الأمر ليس بمقدوره وإنما هو من قدر الله.

كما أعفىٰ نفسه من الاستشعار بالمسؤولية من وجه آخر بإلقاء التبعة علىٰ الآخرين في تقصيره وأخطائه دون أن يدري أنه نجّىٰ نفسه ظاهراً ليقع بما هو أسوأ، وذٰلك بالحكم علىٰ نفسه أنه دون سوية المرحلة ودون سوية التعامل مع هٰذه المرحلة أيضاً!!

لقد هُزم المسلمون في أُحد، وكان علىٰ رأس الجيش أكرم الخلق رسول الله ﷺ، ومع ذٰلك لا نزال نتلو أسباب الهزيمة النفسية والمادية إلىٰ اليوم منذ خمسة عشر قرناً. أليست هٰذه التلاوة لتحقيق الاعتبار والتعرف علىٰ السنن لئلا نقع بما وقعوا فيه، أم أن بعض مسلمي اليوم يعيشون فوق هٰذا المستوىٰ!!

والرسول ﷺ يقول: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتىٰ يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه؟ وعن جسده فيما أبلاه؟ وعن علمه ماذا عمل به؟ وعن ماله من أين اكتسبه وأين وضعه؟**».

إنه التصرف المبصر بالطاقات التي ملّكنا الله إياها، وحسن الاستفادة من القدرات التي أتىٰ الحديث علىٰ ذكر نماذج منها وحسن التصرف بها مع الاستشعار بالمسؤولية عنها.

إن قضية إدراك الأولويات وحسن قراءة الظروف وتحديد الإمكانات من أهم الأمور التي يجب التنبُّه إليها، ذٰلك أنها من هدي هٰذا الدين حيث نجد في تشريعه الفرض وهو أعلىٰ أنواع التكليف، ونجد الواجب والسنّة والمستحب والمندوب والمباح.. هٰذا في إطار الأمر، ويقابله أيضاً في مجال النهي مراتب متعددة للمنهي عنه، وإن الله تعالىٰ لن يقبل من الفرد نافلة ما لم يؤدِّ الفريضة.

إنّ هٰذه «الجدولة» إن صحّ التعبير، أصبحت غائبة عن حياة كثير من المسلمين وحتىٰ بعض العاملين للإسلام، فنراه يعيش من وراء بعض الجزئيات والفروع وبعض التكاليف الشرعية التي تكون في مرتبة السنن والنوافل أو المستحبات، ويقاتل في سبيلها وقد يقع في الحرام في سبيل الإصرار علىٰ تحصيلها، كما أنه قد يفوت فرضاً أو حقاً لمسلم في سبيل الانتصار لمندوب.

إن الانشغال بالجزئيات ووضعها في غير موضعها من سلم التكاليف الشرعية، بالإضافة إلىٰ أنه دليل علىٰ إصابة العقل وقصوره، ودليل أيضاً علىٰ القابلية لاستمرار التخلف.. الأمر الذي يمكن للخصوم من نجاح عملية الغزو الفكري الذي كان همّه ودأبه دائماً أن يحرضنا ويثيرنا ويوجهنا صوب مشكلات هامشية جزئية يشغلنا بها ليتفرد هو بفعل ما يشاء..

إن ترتيب الشخصية المسلمة وصياغتها وفق معطيات الكتاب والسنّة لتجيء شخصية متفردة متميزة قادرة علىٰ العطاء، ووضع الضوابط الصارمة للتصور والسلوك، كان من القضايا المحورية التي تركز عليها الكثير من

الآداب والأحكام والتدريب عليها من خلال العبادات والطاعات، وكانت عهدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي أنيطت بكل مسلم في المجتمع الإسلامي ليكون حارساً أميناً عليها ضرورة لازمة لحمايتها وضمان استمرارها.

إن مواقيت الصلاة، ومقادير الزكاة، وحساب الأهلّة، وأحكام الأداء والقضاء، والحول، والفوات.. وكل الضوابط دليل علىٰ تنظيم الشخصية أو وضعها ضمن مناخ التنظيم وإدراك الأشياء ومدىٰ أهمية أدائها في وقتها وكيف أن عامل الوقت جزء هام من العملية الحضارية إلىٰ جانب التعرف علىٰ السنن وحسن التصرف بالطاقات. هٰذه الشخصية التي كانت قبل الإسلام تعيش سائبة بلا قيود ولا حدود ولا ضوابط..

لقد طرح الإسلام من خلال القرآن والسنّة، رؤية جديدة للحياة، رؤية تبدأ في داخل الإنسان في عقله وقلبه وروحه ووجدانه وغرائزه وميوله، وتنتهي في خارجه لكي تصوغه إنساناً جديداً متفوقاً قادراً علىٰ التغيير المطلوب في بنية العالم، والتحكم من خلال ما أبصر من السنن التي شرعها الله بالحركة التاريخية لإعادة البشرية إلىٰ المنهج المتوافق مع سنن الله...



تنقية الموارد الثقافية وتأصيل المنهج

إن الأمة التي تتولىٰ أمر الشهادة علىٰ الناس، والقيادة لهم، تحتاج دائماً إلىٰ المراجعة لعالم أفكارها لتنقية مواردها الثقافية، والتأصيل للفكر المنهجي، والتحصين الثقافي، والتمييز الحضاري..

لقد أرسل الله رسوله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدِّين كله، وأنزل القرآن تبياناً لكل شيء وتعهد بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر] بينما وكل أمر حفظ الكتب السماوية السابقة إلىٰ أهلها بقوله: ﴿... بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤] ولعل هٰذا التعهد بالحفظ، من لوازم الرسالة الخاتمة الخالدة؛ حتىٰ يصل خطاب التكليف سليماً لكل إنسان، مجرداً عن حدود الزمان والمكان، ويكون البيان النبوي صحيحاً فيصح التكليف وتتحدد المسؤولية وتتحقق العدالة، ويترتب الثواب والعقاب.

ولقد استشعر المسلمون أهمية الأمانة ـ وهم أوعية النقل ووسائل الحفظ ـ فاشتدت عنايتهم من بدء الوحي بحفظ أسانيد شريعتهم من الكتاب والسنّة بما لم تعنَ به أمة قبلهم، فحفظوا القرآن ورووه عن رسول الله ﷺ متواتراً، آية آية، وكلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، حفظاً في الصدور وإثباتاً في الصحف، حتىٰ رووا أوجه نطقِه بلهجات القبائل، ورووا طرق رسمه في الصحف، لذٰلك اعتبر القرآن من الناحية الوثائقية البحتة أقدم وثيقة تاريخية وردت بالتواتر (إفادة علم اليقين) مما دعا بعض علماء النصرانية إلىٰ محاولة

التعرف على حقيقتها بما ورد في القرآن نظراً لاضطراب أسانيدها.

وحفظ الصحابة أيضاً عن نبيهم ﷺ كل أقواله وأفعاله، وهو المبلّغ عن ربه، والمبين لشرعه، والمأمور بإقامة دينه، فكل أقواله وأفعاله وأحواله تقع في دائرة البيان للقرآن، وهو الرسول المعصوم، والأسوة الحسنة. يقول الله تعالى في بيان مهمته: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤] فجاء حفظ السنّة والعناية بها ثمرة لازمة لحفظ القرآن. وامتازت الأمة المسلمة عن غيرها من الأمم بالرواية والإسناد؛ الأمر الذي لا بد منه للقيام بمهمة البلاغ المبين على الوجه الصحيح، والتي اعتبرها الله تعالى سبيل النجاة بقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن].

وأمر بها الرسول ﷺ المسلمين في حجة الوداع أمراً عامًّا فقال: **«وليبلغ الشاهد الغائب، فإن الشاهد عسىٰ أن يبلغ مَن هو أوعىٰ له منه»** وقال: **«فليبلغ الشاهد الغائب، فرُبّ مبلَّغ أوعىٰ من سامع»** وبذلك لم يقتصر الرسول ﷺ في أمره على أهمية النقل (الرواية) وإنما نبّه أيضاً إلى فقه الرواية ووعيها (الدراية)، وبهذا استحق المسلمون أن يرثوا النبوة ويستلموا القيادة الدينية للعالم بعد نكول بني إسرائيل ونقضهم للميثاق وتحريفهم للكلم.

والأمة التي تتولىٰ أمر الشهادة على الناس والقيادة لهم، تحتاج دائماً إلى المراجعة لعالم أفكارها لتنقية مواردها الثقافية، والتأصيل للفكر المنهجي، والتحصين الثقافي، والتميز الحضاري، وضرورة العودة باستمرار إلى الجذور والينابيع الأساسية، والتمكن من العلوم الأصلية لتراثنا، واستئناف البناء على الأصول الحضارية والثقافية الإسلامية، لتأتي انطلاقة الصحوة من مواقع صحيحة، وتبنىٰ على أصول سليمة، وتحكم حركتها بضوابط شرعية، وتقف على أرض صلبة في مواجهة الأعاصير والكيود والعداوات التي تحاصرها وتطاردها وتقاتلها لتردها عن دينها إن استطاعت؛ فتستأنف دورها في القيادة الدينية متجنبة السقوط في علل وأمراض أصحاب الأديان السابقة، تؤدي رسالتها في البلاغ المبين، وتتحقق بالصلاح المطلوب لعمارة الأرض والقيام بأعباء الاستخلاف الإنساني عن جدارة وأهلية.

الفوضىٰ الفكرية:

ومن الحقائق التي هي محتاجة دائماً إلىٰ التأكيد والتنبيه أن غياب المنهج وفقدان الضوابط الشرعية يؤديان إلىٰ الفوضىٰ الفكرية في الحياة العلمية والثقافية. يتمثل ذٰلك في ضياع المقاييس، وكثرة التكرار والاجترار، والتبعثر وضياع الرؤية الشاملة، وعدم إبصار الأولويات، وتوالي النكسات الفكرية والسياسية، والاجتراء علىٰ دخول الساحة الفكرية ومحاولة المساهمة فيها ممن يحسن ذٰلك ومَن لا يحسنه، والاجتراء علىٰ القول في الدين وتفسير مقولاته ونصوصه بلا فقه ولا علم.

ولم يقتصر ذٰلك علىٰ الذين يتحركون علىٰ الساحة الإسلامية بدون مؤهلات منهجية وعلوم أصولية، يظنون أن القضية الإسلامية يمكن أن تعالج، ومشكلات المسلمين يمكن أن تحل، بمزيد من التوثب الروحي والعاطفة الفوّارة والحركة العشوائية وذُهان السهولة والتبسيط. بل انضم أيضاً إلىٰ ساحة الكتابات الإسلامية وتقويم العمل الإسلامي ووسائل نشر الدعوة إلىٰ جانب أولئك كتّاب من الخارج الإسلامي لبسوا أثواب الجرح والتعديل دون أن يكون لهم أدنىٰ نصيب من علم، أو منهج، أو حتىٰ سلوك إسلامي، وعلماء الحديث اعتبروا الذين يكذبون للرسول ﷺ كالذين يكذبون عليه، وكانوا يقدرون الرجل لصلاحه ويردون حديثه لغفلته وعدم ضبطه، وفقدان أهليته، يقول الإمام مالك رحمه الله: «إن من شيوخي مَن أستسقي بهم، ولٰكن لا أروي عنهم الحديث» فلكل علم منهجه وأهله وضوابطه، لذٰلك تبقىٰ الحاجة ماسة إلىٰ كتابات مكثفة في المنهج، بعد هٰذه الفوضىٰ وبعد أن دخل حياتنا الفكرية كل مَن هبّ ودبّ.

ولا شك أن منهج المحدثين وقواعدهم انعكست علىٰ معظم العلوم والفنون النقلية، فقلّدهم في ذٰلك علماء اللغة، والأدب، وعلماء التاريخ، وغيرهم، فاجتهدوا في رواية كل نقل في علومهم بإسناده كما نراه في كتب المتقدمين، فهٰذا المنهج في الحقيقة أساس لكل العلوم النقلية، وهو كما وصفه أحد العلماء (منطق المنقول وميزان تصحيح الأخبار). ومن البدهيات التي لا بد من إثباتها هنا أن مدرسة الحديث أو أهل الأثر كانوا هم السد

العظيم الذي حال دون تسلل الخرافة وتفشي البدعة في الحياة الإسلامية، وكانوا دائماً وراء حركات التصويب وإعادة الأمة إلىٰ الجادة والوقوف بالمرصاد لكل دارس أو باحث أو عابد تضل به الطريق إلىٰ درجة لم يعد يجرؤ معها أحد أن يقول في الدين دون تحقيق، وإن كنا نعتقد أنه لا بد مع القدرة علىٰ حفظ النصوص الحديثية من أهلية النظر والفقه، والرسول ﷺ يقول: «**فإن الشاهد عسىٰ أن يبلغ مَن هو أوعىٰ له منه**».

لقد اجتهد علماء الحديث في رواية كل ما رواه الرواة - وإن لم يكن صحيحاً - ثم اجتهدوا في الاستيثاق من صحة كل حديث وكل حرف رواه الرواة، ونقدوا أحوالهم ورواياتهم، واحتاطوا أشد الاحتياط، وحكموا بضعف الحديث لأقل شبهة، وقدّموا الجرح علىٰ التعديل، فكانت قواعدهم أصح القواعد للإثبات التاريخي.

ولا خير أمامنا - ونحن نحاول النهوض من جديد - من العودة لتمثل العلوم الأصلية، واكتساب المناهج التي قامت عليها حضارتنا وتراثنا. ذلك أن الذين حاولوا التلفيق، والنهوض بالأمة من الخارج الإسلامي، أخفقوا وساهموا بتكريس التخلف وتنميته، لأنهم أخطأوا المنهج وقاسوا الواقع الحضاري للأمة بغير مقياسه الصحيح، وقوّموا البناء علىٰ غير أسسه، واعتبروا الحضارة الأوروبية وعلومها هي المقياس لكل حضارة، ووسيلة النهوض لكل تقدم، والتاريخ الإسلامي شاهد علىٰ أن أي نهوض لم يتحقق إلا من الداخل الإسلامي.

وعلىٰ الجانب الآخر فقد يكون المطلوب اليوم أكثر من أي وقت مضىٰ - وقد تعاظمت حركة الوعي الإسلامي - أن نقف مع العلوم الأصلية لنصلها بواقع الحياة بعد أن توقفت وأصبحت تجريدات بعيدة عن الواقع، ومقولات نظرية ومنظومات محفوظة لا تلد فقهاً ولا تدخل واقعاً، ولا شك أن هٰذه الدراسات المنهجية ليست مقدسة لذاتها، وإنما تكتسب قيمتها بما تقدمه من نتائج تنعكس حضارياً وثقافياً علىٰ حياة الأمة، لأنها في نهاية المطاف هي من علوم الآلة التي تكتسب للاستخدام، وإن كانت عصور تخلف المسلمين جعلت منها غايات يُتوقف عندها، ومن ثم لا تكون هناك

أية تطلعات لتعدية الرؤية وانسحاب آثارها إلىٰ فروع الحياة الإسلامية، ومع الأسف فإن الكثير من هٰذه العلوم التي تشكل المنهج الأساسي للعقل المسلم لم يبقَ لها في حياتنا؛ إلا القيمة التاريخية، أما القدرة علىٰ تجاوز الماضي وصناعة الحاضر فلا تكاد تذكر.

إن التوقف عند عمليات الفخر والاعتزاز بإنجاز السلف، سوف يشكل عبئاً ومعوقاً ينقلب إلىٰ ضده إذا لم يترجم إلىٰ واقع يدفع الأمة إلىٰ ترسم الخطوات السابقة. ولا بد من الاعتراف أيضاً أن الكثير من علمائنا ودارسينا اليوم يعجزون عن الإتيان بمجرد مثال آخر للقواعد التي أصّلها السلف! فكيف نكون والحالة هٰذه قادرين كأمة علىٰ الإفادة من هٰذه العلوم في حياتنا؟

إعادة كتابة التاريخ:

من نصف قرن أو يزيد، ونحن لا نزال نطرح ونقرأ ونسمع عن ضرورة الإفادة من منهج المحدثين في إعادة كتابة التاريخ، وتدوين الأخبار، وأنه الطريق الوحيد لغربلة الرواية التاريخية وتنقية التراث، وإلىٰ الآن لم تخرج القضية عن طور الأمنيات، ولم نستطع أن نغادر مواقعنا قيد أنملة، والمحاولات التي تمت في هٰذا المجال إنما هي محاولات فردية، مأجورة إن شاء الله بإثارة الموضوع والسير خطوات في الطريق، لٰكنها تبقىٰ عاجزة تنوء بحملها الثقيل.

ومن الأمانة هنا أن نذكر المحاولة العلمية الرائدة التي قام بها أستاذنا الدكتور يوسف العش رحمه الله ـ عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق ـ، في عرض الرواية التاريخية لمرحلة الفتنة الكبرىٰ في التاريخ الإسلامي ورجالها، علىٰ موازين علماء الحديث، والنتائج الهامة التي انتهىٰ إليها بعد أن أسقط رواية الرجال الذين لا يرتضي علماء الحديث روايتهم، وأثبت براءة الصحابة رضي الله عنهم أجمعين مما نسب إليهم الوضّاعون وأعداء الدين.

وجهود الأخ الدكتور عماد الدين خليل في نقد المروي وموازنة الروايات ومقارنتها، الأمر الذي أدىٰ إلىٰ إسقاط الكثير من الروايات التي وردت في الطبري ـ في موضوع البيعة وخلافة الصدّيق رضي الله عنه ـ وترجيح

روايات الطبري الأخرىٰ، خاصة وأن الطبري وهو يعتبر الكتاب الأم للتاريخ الإسلامي، لم يعن بنقد الروايات التاريخية وإنما اكتفىٰ بتسجيلها وحفظها وتقديمها للدارسين.

ومن الجدير بالتسجيل في هٰذا المجال أيضاً المنهج المحكم الذي أصّله عبد الرحمٰن بن خلدون ـ في القرن الثامن ـ في علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط، وذكر شيء من أسبابها ونقد المروي لاعتماد المؤرخين علىٰ مجرد النقل وعدم عرض الروايات علىٰ أصولها، وقياسها بأشباهها، وسبرها بمعيار الحكمة، والوقوف علىٰ طبائع الكائنات، وتحكيم النظرة والبصيرة بالأخبار، وكيف ضلّوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط وأتىٰ لذلك بالأمثلة الموضحة.

ويبقىٰ المطلوب دائماً، إشاعة علوم المنهج في الأمة بشكل عام، واستمرار تناولها بالبحث والدرس والنقد والموازنة والترجيح حتىٰ يشكل البحث في المنهج مناخاً يُنشَّأ عليه عقل الأمة.

لقد استطاعت أوروبة هضم المنهج الإسلامي في العلوم والفنون، وأفادت منه بالقدر الذي تراه، أما نحن فلا نزال نمارس البكاء علىٰ الأطلال، ويظن الكثير منا أن خدمة الإسلام إنما تكون برفع الأصوات وامتلاك القدرة علىٰ الخطابة وإثارة العوام. واليوم تشكل اللجان، وتقام مراكز البحوث والمؤسسات لإعادة كتابة التاريخ، وتخطيط الثقافة بعيداً عن العلماء والمفكرين المسلمين ولسوف تفرض دراسات هٰؤلاء نفسها، لأن الساحة خالية من أي عطاء يذكر في هٰذا المجال، والمحاولات إن وجدت فهي محاولات فردية لا تستطيع القيام بالعبء الكبير. والمؤسف أن الحواس الإسلامية قد أصيبت لسبب أو لآخَر، وأن الكثير من الإسلاميين لا يرىٰ إلا لوناً واحداً في العمل الإسلامي.

لقد أصبحت الحاجة ماسة للكتب التخصصية التي تبحث في المنهج ـ كما أسلفنا ـ بعد هٰذا الهراء الذي لا يسمن ولا يغني من جوع.



التقليد سمة إنسان التّخلّف

قد لا يجد المتأمل كبير فارق بين دعاة المعاصرة الذين لا يرون سبيلها إلا بالانسلاخ عن الذات ومحاكاة إنسان العصر الأوروبي ووسائله، وبين التراثيين الذين يقتصرون على الفخر بالماضي والاعتزاز به: «إنهم يقفون على أرض واحدة، ويتنفسون هواء مناخ واحد هو مناخ الواقع المتخلف».

قال تعالىٰ:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر].

إن مشكلة التراث والمعاصرة، أو ما يعبَّر عنه بالأصالة والمعاصرة، قضية لا تزال مطروحة في حياتنا الثقافية منذ أوائل القرن التاسع عشر تقريباً، الذي حمل معه ـ إضافة إلىٰ المواجهات العسكرية التاريخية ـ مواجهة من نوع آخر، إنها المواجهة الحضارية الشاملة التي جاءت بها أوروبا إلىٰ بلادنا حاملة معها نواتج نهضتها ووسائل تقدمها كلها، إضافة إلىٰ اعتقادها أن الحضارة الأوروبية وقيمها هي المقياس الوحيد لكل نهوض وتقدم، تؤمن بذٰلك وتبشر به في عالمنا الإسلامي الذي أصيب بهٰذه الصدمة الحضارية، وعاش حالة الانبهار التي أفقدته القدرة علىٰ التميز والرؤية الصحيحة بعد أن توقف العقل المسلم عن الإبداع والعطاء، وخرجت الأمة المسلمة من الساحة وافتقدت الفاعلية الحضارية، وخيم

عليها الركود، وسادها مناخ التخلف، وأصبحت القضية المطروحة علىٰ العقل المسلم بإلحاح:

كيف نواجه التحدي ونواكب العصر؟

هل نعوض مركب النقص، ونعالج هٰذه الأزمة النفسية ونردم فجوة التخلف بتبني الثقافة والتقنية الغربية؟ ذلك أن الذهنية التي خلّفتها حالة الانبهار أمام هٰذه الصدمة الحضارية أوصلت أصحابها إلىٰ درجة الشعور بالاستحالة التي تقضي علىٰ كل محاولة للابتكار والإبداع، وتشل كل نشاط، والمغلوب مولع بتقليد الغالب.

لقد استجاب كثيرون لحالة الانبهار هٰذه، وتعالت أصواتهم في المجتمع الإسلامي أن لا سبيل إلىٰ اللحاق بركب الحضارة والمعاصرة؛ إلا بالانسلاخ الكامل من موروثاتنا كلها والالتحاق السريع بركب الحضارة الغربية، ومحاكاة الإنسان الأوروبي في كل شيء حتىٰ لباسه وعاداته.

الأوربة... وضياع الأمة:

وكان هٰذا النزوع إلىٰ الأَوْرَبَة ـ إن صح التعبير ـ أحد ردود الفعل الذي أنتجته الصدمة الحضارية للعالم الإسلامي، والذي سقط ضحيته أفراد، وانتهت إليه دول في العالم الإسلامي، واتخذوا من التراث المواقف الرافضة نفسها التي اتخذتها أوروبا، وحاولوا تطبيق مقاييس الفحص والاختبار التي يجب أن تقتصر علىٰ أحكام العقل (فهوم الناس واجتهاداتهم) علىٰ التراث كله، بما فيه الوحي (الكتاب والسنَّة)، دون تمييز بين المعرفة الواردة عن طريق الحواس القابلة للخطأ والصواب وتلك المقررة من طريق الوحي، فوقعوا بتناقضات واضطرابات رهيبة، كانت سبباً في ضياع الأمة وتيهها عن معالمها الراشدة.

وعلىٰ الجانب المقابل أخذ هٰذا النزوع وجهاً آخر من الفخر والاعتزاز بالآباء والأجداد ودورهم التاريخي، وإسهاماتهم المبدعة في مجال الحضارة والثقافة والعلوم كنوع من رد الفعل الطبيعي في الالتجاء إلىٰ التاريخ والتراث

للاحتماء به واتخاذه درعاً وحصناً يدفع غوائل التيار الكاسح القادم من بلاد غريبة عنا في ثقافتها وحضارتها وموروثاتها، يستهدف ذاتنا الإسلامية، ويعمل علىٰ تذويبنا، وبذلك تُتَجاوز حالة الشعور بالذل والهوان والانكسار النفسي التي أوقعتنا فيها الصدمة الحضارية.

المعوق الحضاري:

إن الالتجاء إلىٰ التراث، والاحتماء بالتاريخ يعتبر رد فعل طبيعي لحماية الحالة النفسية للأمة من الانكسار، والشخصية الحضارية التاريخية من الذوبان في مراحل المواجهة الأولىٰ، لٰكن تبقىٰ المشكلة المطروحة هنا أن معالجة تخلف أي مجتمع من المجتمعات، ونقله إلىٰ المعاصرة المطلوبة لا تتحقق برواية أمجاد ماضيه واستغراقه في نشوة الفخر والاعتزاز، واستسلامه للمديح الذي قد ينقلب إلىٰ مانع ومعوِّق حضاري، بدل أن يكون دافعاً إلىٰ تجديد العمل علىٰ ضوء هٰذا الماضي، وشاحذاً للفاعلية، لأن ظاهرة الإغراق في مدح الماضي ومثاليته، والفخر به إذا تجاوزت الحدود المطلوبة للحماية، تنقلب إلىٰ معوِّق يبتعد بالماضي عن قدرة الأشخاص عن الإفادة منه حيث نقتصر علىٰ تعظيم البطل ونعجز عن محاكاة البطولة، ذلك أن النهوض لا يمكن أن يتحقق بالاقتصار علىٰ رواية الماضي والافتخار به كبديل عن ممارسة تغيير الواقع، كما لا يمكن في الوقت نفسه أن يتحقق باستيراده من خارج أفكار الأمة وقيمها.

وقد لا يجد الإنسان المتأمل كبير فارق بين دعاة المعاصرة هٰؤلاء الذين لا يرون سبيلها إلا بالتخلي عن الذات، المترافق مع الشعور باستحالة اللحاق بالعصر الذي يشل الإمكانية ويعطل الفاعلية، فيدعون إلىٰ تقليد الغالب في الشيء كله، وبين بعض التراثيين، أولٰئك الذين يقتصرون علىٰ الفخر بالماضي والاعتزاز به بحجة أن الأولين لم يتركوا للآخرين شيئاً، كبديل عن الإسهامات المعاصرة من حيث النتيجة والممارسة العملية، وإن اختلف المنطلق.

إنهم يقفون علىٰ أرض واحدة، ويتنفسون هواء مناخ واحد هو مناخ الواقع المتخلف.

فلا دعاة التراث بالمفهوم السابق استطاعوا أن يرتكزوا إلىٰ الماضي، ويتزودوا منه لتغيير الواقع وصناعة المستقبل، حيث إنهم اقتصروا علىٰ الانتصار العاطفي للتراث والتاريخ، واكتفوا به عن الفعل الحضاري، ولا استطاع دعاة المعاصرة بمعنىٰ الانسلاخ عن الماضي ومحاكاة إنسان العصر الأوروبي ووسائله، تقديم البديل أو المساهمة بأي نهوض أو عمل مبدع. لقد سقط دعاة المعاصرة هٰؤلاء بحفر من التخلف جاءت أشد عمقاً، فكانوا أشد تقليداً وأسوأ حالاً من التراثيين.

إنهم يقلدون حضارة الغالب الغربية، ويحاكونها، ويعجزون عن أي إبداع في أي مجال سوىٰ مجال الاستهلاك واستيراد أشياء الحضارة المادية ومفرزاتها الثقافية، وتكديس هٰذه الأشياء والمفرزات والوقوف فوقها وكأنها من صنعهم، فهم يعيشون وهْمَ المعاصرة، لٰكنهم في الحقيقة أشد عجزاً من الآخرين وأشد بلاء، ولعل بلاء التراثيين أقل، حسبهم أنهم يقلدون ماضيهم ولو عجزوا عن الإفادة منه لحاضرهم ومستقبلهم، وإن التقىٰ الفريقان علىٰ ساحة التقليد.

مقدمات مخطئة:

وقد تتحدد المشكلة نوعيًا في خطأ الطرح الذي جعل مفهوم التراث أو الأصالة مقابل مفهوم المعاصرة، وانتهىٰ إلىٰ أنهما طرفا الاختيار الملزمان في المعادلة؛ ذلك أن المقدمات المخطئة تقود بالضرورة إلىٰ نتائج مخطئة، وأنه لا سبيل آخر؛ إلا اختيار أحد الأمرين، إما التراث وإما المعاصرة.

والحقيقة البادهة أن لا معاصرة دون أصالة، ولا أصالة صادقة دون معاصرة فاعلة، فالماضي بالنسبة للأفراد والأمم هو الذاكرة المصاحبة دائماً التي يختزن فيها الإنسان تجاربه وعبره، ويوظف دروسها لحاضره ومستقبله، ويورثها أولاده وأحفاده، ويمكِّنه حضورها الدائم من الحكم علىٰ المستجدات علىٰ ضوء تلك التجارب، والبون شاسع بين العاقل الذي يعتبر بماضيه بما فيه من دروس وعظات لحاضره، وبين الأحمق مطموس الذاكرة

الذي لا يمكن إلا أن يكون عبرة لغيره، فالحاضر جزء منا ونحن جزء منه، رضينا بذلك أم رغبنا عنه، وكذلك الماضي هو جزء منا ونحن نسغ ممتد منه.

إن حصر القيم الإسلامية وفاعليتها وعطائها الحضاري بفترة تاريخية معينة يتنافىٰ أصلاً مع خلودها، كما يتعارض مع ختم الرسالة؛ فلا بد إسلامياً إذن وباستمرار من النزول إلىٰ الساحة وتقديم الحل الإسلامي، والقضية التي لا بد من الانتهاء من مناقشتها والإجابة الحاسمة فيها لأنها انتهت إلىٰ ضرب من الجدل اكتُفي به عن الممارسة عند الأطراف كلها:

هل المواكبة للعصر، وقبول التحدي يفقدنا الهوية ويؤدي لضياع الذات، أم أن الأساس الصحيح والتجربة التاريخية (الأصالة) تعطينا نوع أمن، وتجعلنا قادرين علىٰ النزول إلىٰ الساحة استجابة لخطاب التكليف، وتسلّحنا بالمقاييس الصحيحة للقبول والرفض، والقدرة الهاضمة للثقافات والمنجزات الحضارية دون الذوبان أو الخوف منه؟!

وهٰذا الذي حدث بالفعل في عصور النهوض، وتعطل في حقب التخلف عندما توقف العقل المسلم، واهتزّ تركيبه، وافتقد ترتيبه.

لقد كان شعار العقل المسلم: **«الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها»** لٰكن أين العقل الذي يميز الحكمة من غيرها علىٰ ضوء مقاييس متميزة في الأخذ والعطاء الحضاري اليوم؟!

تحديد المفهوم:

قد يكون من الأمور المطلوبة اليوم أكثر من أي وقت مضىٰ ـ وقد أخذ الجدال حول موضوع التراث والمعاصرة قرابة قرن من الزمن، ولا تزال تُعقد له الندوات حتىٰ اليوم ـ الانتهاء إلىٰ تحديد واضح لمفهوم التراث، ووظيفة التراث بعد التمييز في التعامل بين أحكام العقل وأحكام الوحي، كما لا بد في الوقت نفسه من تحديد مفهوم المعاصرة في إطار الفكر الإسلامي، وإن من أوائل شروطها:

القدرة على هضم التراث واستيعابه، وليس القفز من فوقه، واستيعاب تطور شبكة العلاقات الاجتماعية، وتبدل وظائف الدولة الحديثة وامتداد سلطانها ووسائلها ومؤسساتها، ومفرزات الحضارة الحديثة التي تنتسب إلىٰ أصول غير إسلامية، ومن ثم القدرة علىٰ تنزيل الإسلام علىٰ واقع الناس، أو المحاولة من أهل التخصص؛ وليس أهل الإنشاء الخطابي، لوضع الأوعية الشرعية المعاصرة لاستيعاب حركة الناس، أو بمعنًى آخر:

البدء بالممارسة الإسلامية بعد أن تجددت ذاكرة المسلمين تجاه دينهم، وتحقق الانتماء، وأُمِن الذوبان، وانتهت مرحلة تحقيق الذات، فلا مناص من الانتقال من مرحلة المبادئ والتعميم إلىٰ مرحلة البرامج والتخصيص، وامتلاك القدرة من خلال التصور التراثي علىٰ تقديم الحل الإسلامي للمشكلات المعاصرة، والانتهاء من مرحلة الاستغراق في رؤية المشكلات التاريخية؛ إلا بالقدر الذي يحقق البصارة والقدرة علىٰ تعدية الرؤية، وبذٰلك تحقق الذات الإسلامية وظيفتها في الشهادة علىٰ الناس، وحسن قيادتهم؛ وإلّا ففاقد الشيء لا يعطيه.

ولا نعتقد أن هناك مسلماً يعني بالمعاصرة: الصورة القائمة في استيراد منتجات العصر الثقافية والتقنية بشكل أعمىٰ وعشوائي، أو يعني بالأصالة: الانكفاء نحو الماضي والاحتماء فيه، وعدم الخروج به إلىٰ الإفادة منه في معالجة الواقع المعاصر، واستشراف آفاق المستقبل علىٰ ضوء تلك المعطيات؛ لأن حياة الأمم والأفراد لا تخرج عن كونها حلقات متكاملة تؤسس كل منها علىٰ الأخرىٰ، قال تعالىٰ:

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [التوبة].

استراتيجية للثقافة الإسلامية:

ونعتقد أنه لا بد من وضع استراتيجية واضحة ودقيقة للثقافة الإسلامية

من أجل مراعاة مبدأ تراكم المعرفة في النتاج الجديد حفاظاً على الطاقات، ورغبة في الوصول إلى نتائج تخدم القضية الإسلامية في هذا العصر بناء على دراسة الواقع التاريخي إلى جانب الواقع المعاصر.

كما أنه لا بد أن تقوم دراسات ناقدة تجيب عن مجموعة أسئلة تحدد أهداف العمل وغاياته، والحدود والشروط والوسائل اللازمة لترشيده وتوجيهه الوجهة السليمة، وتُجلّي السلبيات والإيجابيات، وتحرك الركود والخمول الذهني الذي يعطل فاعلية المسلمين اليوم، لأن غياب حركة النقد أدى إلى فوضى فكرية تتمثل في ضياع مقاييس التقويم، وكثرة التكرار في الأشكال والمضامين، وغلبة السطو الأدبي.

وحتى لا تبقى الطروحات نظرية وأقرب إلى المتعة الذاتية منها إلى الواقع المعاصر المعاش، يتطلب الأمر تقديم دراسات ونظرات فاحصة، ونماذج هادية في إطار الجامعات الإسلامية اليوم، لأنها الأمل إذا وعت مهمتها لتؤدي دورها في تحديد ملامح المجتمعات الإسلامية المعاصرة، والحفاظ على تميزها وتكاملها وقدرتها على النهوض بالتعليم الإسلامي ليصبح مؤثراً فعالاً في بناء الفرد، وصياغة الجماعة، وتقديم القيادات ذات الكفاءات المؤمنة للعالم الإسلامي، والقيام بالوظيفة المنوطة بها في تحقيق السعادة وسكينة النفس عن طريق الهداية، وتأمين الرفاهية والتقدم عن طريق التقنية، وبذلك تتوفر لعالمنا الإسلامي الأصالة والمعاصرة على حد سواء.

الجامعات: الدور المطلوب والواقع:

ولا شك أن الكلام عن مهمة الجامعات الإسلامية ودورها يبقى ذا أهمية كبيرة، لأن المفترض بهذه المؤسسات التعليمية الكبيرة أن تكون المختبرات الحقيقية لهضم التراث وإنتاج المعاصرة من خلال رؤية علمية تراثية عاقلة بعيدة عن الحماس والانتصار العاطفي.

والحقيقة التي لا بد من تسجيلها هنا أن واقع الكثير من الجامعات في العالم الإسلامي يدعو إلى الأسى، ذلك أنها لمّا تتحرر بعد من ربقة التحكم

الثقافي الذي ترافق مع إنشائها سواء في عصر الاستعمار، أو عصر ما بعد الاستعمار، والخضوع للنظريات التربوية الغربية في تصور الإنسان والكون والحياة، والمناهج الغربية في طرائق التحقيق والنقد ومناهجه التي أُنضجت هناك، ثم استوردت إلىٰ جامعاتنا مع ما استورد من أشياء الحضارة الاستهلاكية، لذٰلك عجزت الجامعات في الماضي أن تحل مشكلة المجتمعات الإسلامية، وقد يكون الكثير من التقدم والوعي واليقظة الإسلامية، أو ما يسمىٰ اليوم بالصحوة الإسلامية، حصل خارج أسوار الجامعات التي لم يكن للإسلام دور في صياغة مناهجها، الأمر الذي لم يخلُ من بعض المشكلات والتي يجب أن تُسأل عنها الجامعات بالدرجة الأولىٰ، ونستطيع أن نقول: إن الوعي الإسلامي جاء إلىٰ الجامعات بدل أن يخرج منها إلىٰ المجتمع؛ لقد أدرك المخططون للعالم الإسلامي خطورة المؤسسات التعليمية علىٰ مستقبله الثقافي والحضاري، فكان التحكم الثقافي من أخطر البلايا والرزايا التي رمانا بها.

يقول الشاعر أكبر الإلٰه أبادي:

«يا لبلادة فرعون الذي لم يصل تفكيره إلىٰ تأسيس الكليات، وقد كان ذٰلك أسهل طريق لقتل الأولاد، ولو فعل ذٰلك لم يلحقه العار وسوء الأحدوثة في التاريخ».

فإلىٰ أي مدًى نمتلك القدرة اليوم للإفادة من هٰذا التراث في عملية الإقلاع الحضاري؟... وهٰذا لا يتأتىٰ من أعمال عشوائية تغلب عليها الصفة التجارية في تحقيق الأرباح أو الحصول علىٰ الشهادة، أو خطب حماسية تحقق المتعة الذاتية ولا تتقدم أنملة واحدة علىٰ طريق تقديم الحل الإسلامي.



القرآن منهل الأدب الخالد

استخدم القرآن الكريم ـ الذي يعتبر منهل الأدب الخالد للإسلاميين ـ: القصة، والحوار، والمثل، والمواقف الخطابية، ودعا إلىٰ المباهلة، ووظّف الحدث التاريخي، واعتمد الجدل الفكري، وأسلوب المواجهة، والتقرير المباشر، والوعظ المؤثر، في سبيل تحقيق أغراضه في هداية الإنسان، وتوجيهه صوب الخالق، فالأشكال متسعة بشرط الحفاظ علىٰ القيم الثابتة.

خلق الله الإنسان، علّمه البيان، وفرض عليه القراءة والتعلُّم، واعتبر ذٰلك مفتاحاً للدين منذ اللحظات الأولىٰ لبدء الوحي، والخطوات الأولىٰ لمسيرة النبوة، قال تعالىٰ:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق] وجعل معجزة الإسلام كتاباً خالداً، مجرداً عن حدود الزمان والمكان، وتحديه بياناً، ومهمة رسوله ﷺ الرئيسة البلاغ المبين، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور:٥٤]، وناط فوز المسلم ونجاته من المسؤولية وأداءه لأمانة التكليف، بالسير علىٰ قدم النبوة في البلاغ والدعوة إلىٰ الله بكل ما تقتضيه عملية البلاغ المبين، من وسائل وآفاق وأبعاد وحكمة وحسن أداء ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ...﴾ [الجن] وجعل القول السديد صنو التقوىٰ وثمرة لها ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ ...﴾ [الأحزاب] فكانت الكلمة

القرآنية ركيزة جهاد الأمة المسلمة. والقرآن منهل الأدب الخالد، ومصدر كل عطاء ثقافي وحضاري. من خلال آياته نشأت أمة الإسلام، وتحددت معالم عقيدتها وعبادتها وأخلاقها وتصورها عن الحياة والأحياء، ومنه تشكلت ثقافتها وبُنيَ ذوقها العام، فكان القرآن درع الأمة المسلمة في الصمود، وميثاقها للنهوض.. وأُوتي الرسول الخاتم ﷺ جوامع الكلم، فكان في الذروة من العرب فصاحة وبلاغة وبياناً، بلّغ الرسالة وأدّىٰ الأمانة ونصح الأمة، فهو المثل الكامل للتأسي والاقتداء ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولا شك أن وسائل الدعوة إلىٰ الله وأساليبها، وميادين العمل الإسلامي ومواقعه المؤثرة والفاعلة، أوسع من أن تُخْصَر بعصر، أو تَجْمُدَ علىٰ شكل، أو تُحاصَر من قبل طاغية منكر أو عدو أو كافر. إذا استشعر المسلم مسؤوليته واستعاد فاعليته، وأخلص النية، وتلمّس الصواب، والتزم الحكمة والبصيرة التي أمر الله بها في البلاغ المبين. وإنما تجيء محاصرتها من المسلمين أنفسهم.

ميدان الحروب الحديثة:

ولعل ميدان الكلمة ـ مكتوبة أو مقروءة أو مسموعة، وفعلها وأثرها ـ كان ولا يزال من أهم ميادين الحوار والصراع والمواجهة بين الخير والشر، والحق والباطل. وقد برز هٰذا المعنىٰ أكثر فأكثر في العصر الحاضر بعد أن سكت صوت الأسلحة بسبب من التوازن الدولي، وأخذت ساحات المواجهة والصراع والحوار الحضاري والثقافي ألواناً جديدة، إنها الحروب الحديثة، حروب المعلومات والإعلام، وصراع المبادئ والعقائد والمذاهب المعاصرة والدعايات السياسية والمذهبية التي تغرق العالم بسيلها الجارف، وتحاول إعادة تشكيل عقله، وزرع عواطفه، وتحديد استجاباته، والتحكم بنزوعه وسلوكه ابتداءً، إلىٰ درجة أصبحت معها الدول والشعوب المتخلفة في هٰذا الميدان، تعيش وكأنها في معسكرات الأسر والاعتقال الفكري. إنه عصر الجبر والتسيير الإعلامي، والتحكم الثقافي والسياسي، الذي أصبح يملكنا

ويقتحم علينا بيوتنا ويطاردنا في أخص خصائصنا ويخطف منا أبناءنا ونساءنا.

لقد ولّىٰ الزمان الذي كان فيه بناء الأسوار العظيمة، وإقامة الحدود وحراستها يحولان دون وصول ما لا نريد من المذاهب، والكتب والأفكار والأشخاص، في عصر الدولة الإعلامية العالمية، ووسائل الإعلام الفتّاكة والمتنوعة، التي لم تعد تنتظر الإنسان يسعىٰ إليها، وإنما هي التي تسعىٰ إليه وتطارده وتلاحقه وتشاركه طعامه وشرابه ولا تنفك ملازمة له حتىٰ يستسلم إلىٰ النوم.

فليست المشكلة اليوم، في أن نفتح أبوابنا ونوافذنا، أو نغلقها أمام المذاهب والمعلومات والدراسات الثقافية، والفنون الأدبية المختلفة، والقضايا العالمية المطروحة، وإنما المشكلة الحقيقية، هي في أن نمتلك قوة الإرادة وبصيرة الاختيار، وانضباط المقياس، فيما نأخذ وما ندع، ونمتلك القدرة علىٰ تقديم البدل، الذي يرقىٰ إلىٰ المستوىٰ العالمي، ونكون قادرين علىٰ إثبات وجودنا في ساحات الامتحان الحقيقي.

المعارك الأخطر:

لقد أصبح من الأهمية بمكان أن ندرك أن الصراع بين الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة أبدي، وأن المعارك الفكرية بأساليبها الفنية المتعددة هي الأخطر في حياة الأمم وبنائها الحضاري، وأن الساحة الفكرية هي الميدان الحقيقي للمعركة، وأن الله سبحانه وتعالىٰ جعل سلاح المسلم الدائب هو المجاهدة بالقرآن. قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان] ونحن المسلمين لسنا بحاجة إلىٰ أدلة وشواهد علىٰ ذٰلك. وقد ولدت أمتنا، وحملت رسالتها إلىٰ الإنسانية، من خلال هٰذا الكتاب كما أسلفنا، وابتدأت الخطوة الإسلامية الأولىٰ من غار حراء وسلاحها الأوحد إلىٰ العالم ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [العلق] وتجاوزت مبادئ الإسلام البلاد المفتوحة، لتعم العالم بقوة نفاذها وحسن إبلاغها.

فالمعركة في حقيقتها فكرية، والمشكلة في جذورها ثقافية، والصراع عقائدي، وإن اتخذ أشكالاً شتىٰ، لقد أصبح سلاح الكلمة اليوم أقوىٰ تأثيراً وأكثر نفاذاً، وتطور فن الكتاب والإعلام، إلىٰ درجة يوهم معها، أن الحق باطل والباطل حق ـ وإنّ من البيان لسحراً ـ وأصبحت بلاد الدنيا ضواحي لدولة الأقوياء، وبدأ عصر الدولة الإعلامية العالمية سواء اعترفت بذٰلك الأنظمة السياسية الإقليمية أو تجاهلته، ولم تعد قضية العزلة والنزوع إلىٰ الفردية قضية اختيارية.

ومن هنا نقول: بأن الجهود الفردية مهما بلغت سوف تبقىٰ جهداً ضائعاً محدود الأثر، والرؤية الفردية مهما شملت، هي رؤية حسيرة، وإمكانات الأفراد مهما بلغت، سوف تبقىٰ دون سوية الإحاطة بالقضايا والمشكلات كلها، والقدرة علىٰ مواجهتها، واختيار الوسيلة الملائمة لذٰلك، هٰذا إلىٰ جانب العجز عن تصنيف تلك المشكلات وترتيب الأولويات المطلوبة في المعالجة، والقصور عن المشاركة في القضايا العالمية التي باتت مفروضة، ولا بد من رأي فيها وموقف تجاهها.

الرؤىٰ الفردية:

إن الكثير من قضايانا الفكرية ومشكلاتنا الثقافية علىٰ الساحة الإسلامية ما تزال تحكمها روح العفوية وتتحكم فيها الرؤىٰ الفردية.

ونحن بهٰذا لا نريد أن نغمط الأفراد حقهم، ولا أن نقلل من شأن ما قدّموا، خاصة أولٰئك الذين اتسمت مساهماتهم الفكرية والأدبية بالصبغة العالمية، وإنما نرىٰ المطلوب بإلحاح هو الانتقال إلىٰ الرؤية الجماعية ووضع (استراتيجية) خطة ثقافية يأخذ كل منها فيها بطرف من خلال روح فريق العمل الجماعي، وندرك جميعاً انتهاء عصر الرجل الملحمة الذي يمكن أن يحسن كل شيء، فيكتب في الشعر والقصة والمسرحية والفكر والتاريخ والفقه والتفسير.. إلخ حتىٰ لا يضرب كل منا في اتجاه فتتبعثر جهودنا، وحتىٰ لا نكرر أنفسنا، فيضيع ويتبدد إنتاجنا، وتستغرقنا القضايا المحلية، والنظرات الجزئية، وتحول دون مشاركتنا ومساهمتنا في مرحلة

الأفكار والآداب العالمية الأمر الذي يتسق مع رسالة الإسلام العالمية ووظيفة المسلم في البلاغ المبين.

لقد أصبح من الضرورة بمكان وضع خطة واضحة ودقيقة من أجل مراعاة مبدأ تراكم المعرفة في الإنتاج الفكري والأدبي الإسلامي الجديد، حفاظاً علىٰ الطاقات، ورعاية للقابليات ورغبة في الوصول إلىٰ نتائج تخدم قضية (الأدب الإسلامي)، كما لا بد أن تقوم دراسات ناقدة، تجيب عن مجموعة أسئلة، تحدد أهداف العمل وغاياته، والحدود والشروط والوسائل اللازمة لترشيده، وتوجيهه الوجهة السليمة، وتجلي السلبيات والإيجابيات، وتفك قيود التحكم الثقافي، الذي يشل ويعطل فاعلية المسلمين اليوم.

إن غياب حركة النقد للأعمال الأدبية الإسلامية ـ إلىٰ جانب أنه يساهم بشكل سلبي بمحاصرة الأعمال الأدبية وقبرها ـ يؤدي إلىٰ فوضىٰ فكرية تتمثل في ضياع مقاييس التقويم، وكثرة التكرار في الأشكال والمضامين، وغلبة السطو الأدبي، والنقاد والدارسون مسؤولون عن تقويم الأدب الإسلامي، وإبراز عناصره، وتقدير أهميته، في صياغة الشخصية المسلمة، وبناء الذوق السليم، والناقد والأديب شريكان في عملية البناء هٰذه.

ومن البشائر التي طالما هفت إليها قلوبنا الإعلان عن قيام رابطة للأدب الإسلامي، الأمر الذي يضع الأدباء الإسلاميين أمام مسؤولياتهم في خدمة الإسلام وإبلاغ رسالته ـ من خلال الصورة الجمالية المؤثرة، والأساليب الفنية المتنوعة ـ وحفظ أمانة الكلمة التي تستمد جوهرها من مشكاة الوحي وهدي النبوة.

ورابطة الأدب الإسلامي إنما ولدت ـ في تقديرنا ـ كثمرة للصحوة الإسلامية، وحركة الوعي الإسلامي المعاصرة، التي استطاعت أن تحيي الأصول الإسلامية في نفوس المسلمين وتجدد عملية الانتماء إلىٰ الإسلام، والالتزام والاستعلاء به، وقدرته علىٰ استيعاب الحياة المتجددة، إلىٰ جانب ما قدّمته من الاستشعار المبكر، والقراءة الواعية والدقيقة لمجموعة من

المشكلات الثقافية، ومعابر الغزو الثقافي، وتنبيه الأمة إلىٰ مواطن الخطر. والحقيقة التي لا بد من الاعتراف بها هنا: أن الصحوة الإسلامية لم تعطِ قضية الأدب الإسلامي القدر المطلوب من الاهتمام، وقد لا تكون قدّرت كما ينبغي دور الأدب في عملية البلاغ المبين، وتأثيره في صياغة الوجدان، وتشكيل نسيج الأمة الثقافي، وبناء ذوقها الاجتماعي المشترك.

إن إقبال الجماهير علىٰ الفنون الحديثة، من القصة والأقصوصة والمسرحية، وغير ذٰلك من الفنون، يجب أن يفتح عيوننا علىٰ هٰذا السلاح الخطير، الذي يتسلح به الشر، علىٰ أرض الله الواسعة، وقد لا نكون مغالين إذا قلنا: بأن القصة والمسرح كان لهما النصيب الأوفر في تشكيل الرؤية العقائدية وإقناع الناس بها لإحدىٰ الدول الكبرىٰ التي تحاول أن تسيطر عقائدياً علىٰ العالم اليوم.

والخطورة التي يمكن أن تحاصر الرابطة، وتحيط بها، هي وقوعها ضحية التحزُّب لأشخاصها، وإعجابها بنفسها وإنتاجها، وعدم قدرتها علىٰ استيعاب العطاءات المتعددة، وتوسيع دائرة المشاركة، في الإنتاج الأدبي، أو وقوعها في أسر الأشكال والمؤسسات الرسمية، التي لها ارتباطاتها وظروفها وسياساتها الخاصة بها.

مواقع الأدب الدفاعي:

وفي اعتقادنا أنه لا بد لمسيرة الأدب الإسلامي المعاصرة، من الخروج من دائرة التحكم، ومواقع الأدب الدفاعي، والتطلع إلىٰ الآفاق المستقبلية، ومواجهة المشكلات المستجدة، والتحديات القائمة، والانطلاق إلىٰ البُعد العالمي، والمشاركة في قضايا ومشكلات الإنسان وحمل هموم الجماهير المسلمة، بشكل خاص، وهموم الإنسانية بشكل عام، والانحياز إلىٰ جانب المستضعفين، وتحصين الناس دون مهادنة الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي.

ذٰلك أن التمركز في مواقع الأدب الدفاعي، والاقتصار في الجهد

الكبير علىٰ مواجهة الأدب المنحل وردّ شبهاته، قد ينتهي بنا إلىٰ نتائج سلبية، تجعل من شُبَه أعداء الإسلام والمشكلات التي يثيرونها، القضية والمساحة التي يُحكم علىٰ الأدب الإسلامي بعدم تجاوزها، وفي الأمر ما فيه من تحكم أعداء الإسلام في الساحة الفكرية والأدبية الإسلامية، ومحاصرة الجهد والنشاط الفكري والأدبي عند المسلمين بشكل عام، وتحديد ساحته ومجاله ابتداءً. هٰذا من جانب، ومن جانب آخر قد يؤدي الأمر بنا ـ دون قصد منا ـ إلىٰ تكبير الخصوم وعملقتهم وإذاعة شهرتهم وإعطائهم من الحجم أكثر مما يستحقون.

وقد يكون من المفيد الاعتراف في هٰذا المجال: أن الفكر الإسلامي ـ والأدب الإسلامي جزء منه ـ ما يزال يتحرك علىٰ الأرض نفسها، التي تحرك عليها أديب الإسلام والعربية، مصطفىٰ صادق الرافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وما تزال القضايا التي أثارها طه حسين، وسلامة موسىٰ، وغيرهم خلال النصف الأول من القرن العشرين، هي المحور لمعظم الكتابات والدراسات، علىٰ الرغم مما استجدّ من قضايا ومشكلات حتىٰ في مستوىٰ الساحة الأدبية نفسها، هٰذا إضافة إلىٰ الغياب الكامل لأدب الطفل، الذي أصبحت له مؤسساته ودورياته ومتخصصوه علىٰ المستوىٰ العالمي، بينما لا يزال عندنا يتعثر، ويفتقر إلىٰ التجارب الجادّة. وأمر آخر:

أطروحات عامة:

فمنذ الكتابات التمهيدية الأولىٰ، التي بدأها ونبّه إليها فضيلة الشيخ أبو الحسن الندوي، حين اختير عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق حيث دعا إلىٰ إقامة أدب إسلامي، ثم جاءت كتابات الأستاذ سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الدعوة إلىٰ أدب إسلامي متميز، وتلاه الأستاذ محمد قطب في كتابه «منهج الفن الإسلامي» ثم كتاب الدكتور نجيب الكيلاني في «الإسلامية والمذاهب الأدبية» وجاءت بعد ذٰلك خطوة الدكتور عماد الدين خليل الرائدة في هٰذا الطريق، في كتابه «النقد الإسلامي المعاصر» والحديث لا ينقطع، عن أصول وطريقة الكتابة الفنية الإسلامية وهي ما تزال أطروحات عامة ـ إلىٰ

حدٍّ بعيد ـ لم تنعكس بالقدر المطلوب في صورة نماذج مكتوبة، بأقلام إسلامية واعية وعارفة بأصول الصنعة الفنية.

المشكلة في رأينا لم تعد مشكلة حوار وجدل، حول التنظير بالدرجة الأولىٰ، ولٰكنها في الحقيقة مشكلة ممارسة وإنتاج وإبداع، وعبر التجارب يتبلور وجه الحق والصدق، فلا قيمة للجدل دون تقديم النماذج المعبرة عن نظرية الأدب الإسلامي، مدعومة بالنقد الذي يعرف كيف يرعىٰ القابليات، ويكشف العثرات، ويمهد لأدب إسلامي حقيقي ذي صفات مميزة.

وقد يكون المطلوب اليوم، النزول إلىٰ الساحة الفكرية بشكل أكثر كثافة، وتقديم الدراسات التي تساهم باستكمال مفاهيم الأدب الإسلامي وتحديد قسماته وبلورة مصطلحاته، ورسم بعض الآفاق والأبعاد، التي يمكن أن يرتادها الأدباء الإسلاميون، من حيث الأشكال الفنية، بشرط أن لا تخرج هٰذه الأشكال عن الالتزام بالقيم الإسلامية الثابتة؛ لأن الانفلات من القيم وعدم الالتزام بها يؤدي إلىٰ الهيام في كل واد، ويفتح سبل الغواية أمام الجماهير ويغري بها.

فالقرآن الكريم ـ الذي يعتبر منهل الأدب الخالد للأدباء الإسلاميين ـ استخدم القصة والحوار، والمثل، والمواقف الخطابية، ودعا إلىٰ المباهلة، ووظّف الحدث التاريخي، واعتمد الجدل الفكري، وأسلوب المواجهة، والتقرير المباشر، والوعظ المؤثر، في سبيل تحقيق أغراضه في هداية الإنسان، وتوجيهه صوب الخالق، فالأشكال متسعة متطورة، بشرط الحفاظ علىٰ القيم الثابتة.



مشكلات فكرية واجتماعية

الإخلاص والصواب سبيلٌ النهوض

إن المدافعين عن الإسلام لا ينقصهم ـ غالباً ـ الحماس والإخلاص، وإنما ينقصهم عمق التجربة وحسن الفقه.

قد يكون من الأولويات المطلوبة اليوم، أكثر من أي وقت مضىٰ، طرح قضية إعادة ترتيب العقل المسلم وتخليصه من النظرات الجزئية المتناثرة، وعجزه عن مواجهة مشكلاته، وتحدياته، الداخلية منها والخارجية، علىٰ ضوء رؤية إسلامية ذات دراية وفقه، بعيداً عن المواقف والتصرفات الانفعالية الخطابية غير المتوازنة التي لا تخرج عن كونها ومضات آنية تحرك العاطفة ولا تهدي العقل، ومن ثم تتركها لعبث الأهواء وتقاذف الأمواج.

لا بد من إعادة ترتيب العقل الإسلامي المعاصر، حتىٰ يتمكن من تحقيق النظرة الكلية للأشياء، والقدرة علىٰ تصنيف المشكلات، ووضع سلم منضبط لقضية الأولويات، وتوفر الجهود والطاقات، وتوجهها إلىٰ المجالات المجدية من خلال الصورة العالمية بكل تعقيداتها وتشابكها، وتطوير وسائل الدعوة إلىٰ الله بما تقتضيه الحال، واختبار الأسلحة القديمة، لأن بعضها أصبح يتحرك في الفراغ يصول ويجول في معارك وهمية انتهت بأصحابها وأسلحتها وقد تغيرت الحال..

لقد تبدلت مشكلات العالم، وتبدلت أسلحته، ونحن ما زلنا نصرُّ علىٰ مواجهة المشكلات الجديدة، والدخول في المعارك الجديدة، بالأسلحة والوسائل القديمة التي أقل ما يقال فيها: إنما وجدت لغير هٰذه المعارك وغير هٰذه المشكلات.

وما زالت تلك الوسائل تُسْلِمنا من هزيمة إلىٰ أخرىٰ، علىٰ مختلف الأصعدة، ولولا بعض الحصون القديمة التي بُنيت لنا نلوذ بها ونحتمي فيها لأصبحنا أثراً بعد عين.

لا بد من انتهاء أحلام اليقظة في حياتنا، والتي ما زالت تسيطر علىٰ قطاعات كبيرة من عالم المسلمين اليوم، والوصول إلىٰ اليقظة غير الحالمة، بل مقوماتها، ونستطيع أن نقول إلىٰ حدٍّ بعيد: إن الجيل المسلم اليوم أحْسن الدخول في سن التمييز، لكنه إلىٰ الآن لم يحسن الخروج منه، والانتقال إلىٰ مرحلة الرشد التي تلي مرحلة التمييز، لقد كان عطاء سن التمييز طيباً، حقق لنا الاعتزاز بهٰذا الدين، والاستعلاء به والثقة بقدرته، بعد أن كادت تغتالنا مذاهب الشياطين، لكن هٰذا الإيمان يقتضي حركة منضبطة مع مبادئ الإسلام، يقتضي سلوكاً رشيداً يأخذ باعتباره كل الظروف المحيطة إلىٰ جانب الوسائل المتاحة، وليست الإستراتيجية في حقيقتها؛ إلا القدرة علىٰ التصرف بالإمكانيات المتاحة من خلال الظروف المحيطة، ولا تخرج الحكمة التي أُمِرْنَا أن ندعو إلىٰ الله بها ـ بقوله:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل].

. . . عن حسن التقدير وحسن الأداء، والقراءة الصحيحة للظروف والتعامل معها، إنها وضع الأمور بمواضعها، ووزن الأشياء بموازينها ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة].

والرسول القدوة خاطب الناس علىٰ قدر عقولهم، وعُرِّفت البلاغة: بأنها مطابقة الكلام لمقتضىٰ الحال.

الغزالي.. نصف قرن من العمل الإسلامي:

والشيخ محمد الغزالي، ساهم إلىٰ حدٍّ كبير في هٰذا الموضوع، في الكثير مما كتب، وهو غني عن التعريف.. فهو يعتبر بحق أحد شيوخ

الدعوة الإسلامية الحديثة وفقهائها، يحمل تاريخ نصف قرن أو يزيد من العمل الإسلامي، وهو أحد معالم الحركة الإسلامية الحديثة ورموزها، رافق نشوء الحركة الإسلامية الحديثة في مصر، كما أنه شارك في رسم سياستها، وكان علىٰ مدىٰ هٰذه الأعوام الطوال: العقلَ المفكر، والقلم المسطر، واللسان الناطق، حتىٰ ليمكننا القول: بأن مؤلفاته التي تشكل بمجموعها جانباً هاماً من مكتبة الدعوة الإسلامية الحديثة، يمكن اعتبارها سجلاً لتاريخ الدعوة الفكري إلىٰ حد بعيد، وبذٰلك نستطيع أن نترسم الملامح الرئيسة للدعوة الإسلامية الحديثة وتطورها من خلال هٰذه المؤلفات. ذٰلك أن فهمه للقضية الإسلامية لم يكن فهم مؤلفات وأوراق بعيدة عن دخان المعركة، ومُثار نَقْعِها، وجلبة سلاحها، وإنما جاءت كتاباته من أرض المعركة وبأحد أسلحتها...

لم تكن كتاباته شبيهة بعمل المراسل الحربي الذي يختار الأرض الباردة للأحداث، يصفها وقد يخطئ وصفها، وإنما كان فيها الجندي المقاتل، والقائد الرائد، والناصح الأمين..

إن معظم الذين كتبوا، ويكتبون عن الإسلام تَعوزُهم المعاناة الدائمة، والحس الصادق، والعقل الراجح، والاطلاع الواسع، وحسن الفقه لمعركة الإسلام وخصومه. معظم هٰؤلاء الذين كتبوا عن أدواء العالم الإسلامي، جاءت كتاباتهم أشبه بملامح رئيسة، ووصف لأعراض المرض، كان ينقصهم إلىٰ حد بعيد خبرة المرض بدقة، ومن ثم وصف العلاج له..

كانت كتابة الشيخ الغزالي تحمل عاطفة الأم علىٰ وليدها المريض الذي تخشىٰ أن يفترسه المرض، وبصرة الطبيب الذي يقدم العلاج، وقد يكون العلاج جراحة عضوية إن احتاج الأمر ذٰلك..

وكانت كتبه وكتاباته تواجه التحديات الداخلية والخارجية علىٰ حدٍّ سواء، مصداقاً لقول الرسول ﷺ فيما يرويه البيهقي:

«يحمل هٰذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين» وكأني بكلام الرسول ﷺ يجمل في

هٰذا الحديث ـ وقد أوتي جوامع الكلم ـ التحديات التي لا تخرج بمجموعها عن هٰذه الثلاثة: تحريف الغلاة، وانتحال أهل الباطل، وتأويل واجتهاد الجاهل. ولا بد من المواجهة في هٰذه الجبهات الثلاث. أما الإلقاء بالتبعة علىٰ واحدة منها دون سواها وإعفاء النفس من جرأة المواجهة في الجبهات الأخرىٰ فهي النظرة الجزئية التي يعاني منها مسلم اليوم.

وحين نَعْرِض لمؤلفات الشيخ الغزالي التي رافقت خطوات الدعوة الإسلامية الأولىٰ في العصر الحديث، والتي جاءت تسدد طريقها، وتبصرها بأعدائها، وتحذرها من المزالق التي ترسم لها، في الوقت الذي كانت تصطرع فيه الأفكار والمبادئ لإيجاد البدائل الثقافية للإسلام، وتكريس فصل الدولة عن الدين، نجد الشيخ الغزالي في الخندق الأول حيث أدرك الثغرات التي يمكن أن يتسلل منها أعداء الإسلام، من خلال واقع اجتماعي ليس له من الإسلام سوىٰ الاسم، لذا نرىٰ أنه من أوائل من كتب عن «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» و«الإسلام والمناهج الاشتراكية» وكان كتابه «الإسلام المفترىٰ عليه بين الرأسماليين والشيوعيين» أول صيحة في التميُّز الإسلامي، كما أنه من أوائل مَن تنبّه إلىٰ الخطورة والأمراض التي يخلفها الاستبداد السياسي، ولئن كانت كتاباته الأولىٰ يمكن تصنيفها في مجال الأدب الدفاعي إن صحّ التعبير، إلّا أنه لم يقتصر علىٰ هٰذا اللون من المواجهة الذي اقتضته الظروف من خلال الوسائل المتاحة؛ بل تجاوز ذٰلك إلىٰ تأصيل الكثير من القضايا الثقافية في الفكر الإسلامي. . .

كتب في العقيدة وهي رأس الأمر كله وكتابه «عقيدة المسلم» من الكتب المبكرة جداً في هٰذا المجال، وكتب في السلوك الإسلامي، ذٰلك أن الخلق هو الغاية من البعثة المحمدية أصلاً، والرسول ﷺ يقول: **«إنما بُعثت لأتمِّم مكارمَ الأخلاق»** كما أنه تنبّه لقضية خطيرة كانت وما زالت تهدد مجتمعات المسلمين، ألا وهي قضية التعصب والتسامح التي وضح حدودها، وبيّن ضوابطها، حتىٰ لا تعبث بها الأهواء، ويأكل بها الأعداء، والتي ما زالت تطل برأسها كلما سنحت لها الفرصة لتبدأ عملية التآكل الداخلي.

من هنا نعلم:

وبهٰذه المناسبة فمن الوفاء الفكري أن نعرض لكتاب الشيخ الغزالي «من هنا نعلم» الذي ردّ فيه علىٰ الشيخ خالد محمد خالد في كتاب «من هنا نبدأ» والذي بدأ فيه رحلة التضليل الثقافي ونسب للإسلام ما ليس منه، ولئن أدركت الشيخ خالد في الأيام الأخيرة توبة الفكر من هٰذه القضية الخطيرة في كتابه «الدولة في الإسلام» وجاءت هٰذه التوبة بعد مضي جيل كامل كاد يقع فريسة الضلال والتضليل، فلا بد أن نذكر هنا الشيخ الغزالي وهو يرد انتحال المبطلين، ذٰلك أن التوبة الآن لا تفيد إلا صاحبها وأمره إلىٰ الله. . . بعد أن أصبح التصور الإسلامي في هٰذه القضية من المسلمات، وبعد أن أصبح الكتاب تاريخياً، وهيهات أن يسترد التاريخ. من هنا تأتي قيمة كتاب الغزالي «من هنا نعلم» الذي بنىٰ الجدار النّفسي للشباب المسلم، وحال دون اقتحامه ومغالطته.

ولسنا الآن بسبيل الكلام عن مؤلفات الشيخ الغزالي التي قد تربو على خمسة وثلاثين كتاباً، والتي تمثل إلىٰ حد كبير حيزاً في مجال العقيدة والدعوة والسيرة والحركة والفكر والثقافة من مكتبة المسلم في العصر الحديث، لا يمكن الاستغناء عنها في التأريخ لفكر الدعوة الإسلامية المعاصرة وتطوره وطبيعة المواجهة.

لقد قدّم الكثير من الكتابات في مجال المناصحة للدعوة الإسلامية نفسها، تمثل وجهة نظره في مشكلات الدعوة والأمراض التي أصيبت بها.

وفي اعتقادنا أن وجهة النظر هٰذه وغيرها تعتبر علامة صحة في مسيرة الدعاة، فهي تغني الحركة وتطور رؤيتها، وتنقذها من آفة الحزبية التي يمكن أن تدركها لسبب أو لآخر، ولئن كانت بعض الملاحظات شديدة، وكان بعضها الآخر محل نظر إلا أنها تمثل التنوع في النظر، وليس التباين والتضاد، تمثل الاختلاف وليس الافتراق. . .

التمزق الثقافي:

ولعل من أبرز الأمور التي انتهىٰ إليها بعد هٰذه الجولة الاطلاعية ذات



المساحة العريضة في مختلف المجالات: أن مشكلة المسلمين الرئيسة تكمن في التمزق الثقافي الذي عرض له، وبيّن أسبابه في كتابه الأخير «دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين» فإذا سَلِم للأُمة عالم أفكارها، فقد سلم لها كل شيء، وإذا افتقدت وحدتها الفكرية فقد خسرت كل شيء، ووقعت في منطقة العجز الحضاري كما هو حال الأمة المسلمة اليوم، ورحم الله المفكر مالك بن نبي الذي كانت صيحاته وتنبيهاته مبكرة ومتكررة للعناية بالمشكلة الثقافية التي اعتبرها أُسَّ القضية.

إن المدافعين عن الإسلام لا ينقصهم غالباً الحماس والإخلاص، وإنما ينقصهم عمق التجربة وحسن الفقه، إنهم يظنون أن بإمكانهم إزالة علل المسلمين في أيام معدودات، وما علىٰ الشباب إلا أن يقدم ويقاتل، ويحطم ما أمامه من عوائق، وسوف يتم له النصر!!

وإن الاستعجال حمل متاعب كبيرة، وخسائر ثقيلة للدعوة الإسلامية، بل ربما زاد خصومها قوة وتمكيناً، لذٰلك لا بد من بصيرة فاحصة متعمقة، تتدبر ثقافتنا، وتنقّي منابعها، وتنقد مستوانا الحضاري الأخير، وتستكشف أسباب هبوطه، وتوقف التراجع الحضاري الذي بدأ من أوائل القرن الثالث عشر للهجرة.

إن هناك أكثر من سبعين صناعة مدنية وعسكرية تتعلق بالنفط واستخراجه لا نعرف منها شيئاً، فهل يخدم هٰذا عقيدة التوحيد؟!

وهٰذه المناسبة تذكّرنا بقولة الإمام مالك رحمه الله:

كل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب هٰذا القبر، يعني رسول الله ﷺ المعصوم، فهو المسدد بالوحي، المؤيد به.

نرجو الله أن يأخذ بنواصينا إلىٰ الخير، وأن يرزقنا السداد في الرأي، والإخلاص في العمل، وأن يجزل مثبوته للشيخ محمد الغزالي علىٰ جهده وجهاده، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.



أهمية القدوة في البناء الفكري

إن من أخطر الأمور على الساحة الإسلامية اليوم: غياب القدوة، وافتقاد القيادة القادرة على ترشيد الشباب، وتمثل مشكلاته، وإدراك حاجاته، واستيعاب تطلعاته ونشاطاته، واغتنام تضحياته ووضعها في مصلحة الإسلام والمسلمين...

تعتبر مشكلات الشباب من القضايا المستمرة في حياة الأمم، ولعلها من أخطر قضايا الأمم على الإطلاق. وقد لا نلمح نحن هنا في العالم الإسلامي الأبعاد الكاملة لمشكلات الشباب والمخاطر المترتبة على الخطأ في التعامل معهم، لأننا لا نزال على بقية من عقيدة الإسلام، وميراثه الثقافي، وروابطه الأسرية التي تضمن لنا تماسك مؤسساتنا الاجتماعية، فلا تظهر عندنا المشكلة بصورتها الحادّة التي بدأت تتفاقم في المجتمعات الأخرى وتهدد كيانها، تلك المجتمعات التي انسلخت عن دين الله، وتحلّلت من كل الضوابط، وكسر شبابها الموازين والقوانين الاجتماعية كلها؛ وإن كانت العدوى بدأت تتسرب إلينا ـ ومعبرها الشباب ـ من خلال بعض الشقوق والثقوب التي أحدثها دعاة التغريب والتشريق ومؤسساتهما في مجتمعنا الإسلامي، أولئك الذين استطاعوا أن ينقلوا إلينا أمراض الحضارة الغربية، ولم يقدروا على التحقق بإنتاجها، فبدت نذر الخطر تصل إلينا لنعيش أمراض هذه الحضارة، ونحرم من القدرة على تحصيل علومها وتحقيق إنتاجها، ويكفينا لتحديد ملامح المستقبل الذي نسير إليه أن نرى الفوارق الكبيرة في الشكل والمضمون ـ بين الشابّ وأبيه، والشابّة وأمها ـ

التي بدأت بالظهور في مجتمعنا الإسلامي، فإذا لم نتنبّه لخطورة المشكلة ونُحسن التعامل معها بكثير من الدقة، والحكمة، والروية، والوسيلة الصحيحة، والحوار الهادئ، فسوف يكون من قِبَلها الإعصار المدمّر الذي لا يبقي ولا يذر.

فالشباب إذا فقد الهدف والانتماء تحوّل إلىٰ طاقات مبعثرة تبدّد في فراغ، وتُستهلك في غير المواقع الصحيحة، وتنتهي إلىٰ الحيرة والقلق والتمزق والعدمية؛ وعاش حالة من الضياع تسهل علىٰ الأعداء احتلال نفسه وعقله وروحه وأرضه، وإذا فقد الالتزام والانضباط بالمثل التي يؤمن بها انقلب إلىٰ شرٍّ محض يدمر نفسه وأمته.

ولا شك أن حركات التغيير في التاريخ العالمي اتجهت إلىٰ الشباب لتجعل منه وسيلتها، ومادتها، ومحل أفكارها، وإطار حركتها، ومنجم تضحياتها. ومن طبيعة الشباب أن يستهويه كل جديد، ويراوده كل أمل في التغيير. وقدرته علىٰ التضحية في سبيل ما يؤمن به تصل إلىٰ صورة المغامرة وحدّ التهور، لذٰلك كان التركيز دائماً علىٰ الشباب واستجابته السريعة في عمليات التغيير، لأنه بذٰلك يثبت ذاته، ويرضي تطلعاته، ويحقق طموحاته، وإن أي خطأ في التعامل مع الشباب، أو في التقدير الدقيق لنفسيته وظروفه، وأي تجاهل لمعاناته ـ وقد خُلق لغير زماننا ـ سوف يُخرجه إلىٰ ساحة أعداء الإسلام الذين يغرونه بمصطلحات تجد هوًى في نفسه، كالثورة، والتمرد، والرفض، والعنف، والخروج، والصراع، إلىٰ درجة قد تصل به إلىٰ رفض كل شيء دون تمييز، وإلىٰ الثورة العمياء علىٰ كل شيء، الأمر الذي قد يعني بالنسبة له الانتحار الجماعي.

حبّ السلطة:

ولعلّ أخطر وسيلة يمارسها أعداء الإسلام لسرقة الشباب والتسلّق علىٰ أكتافه، هي: استغلال حبه للسلطة، ونزوعه إلىٰ إثبات وجوده، وفورته الجنسية، فيقيمون له التجمعات الإباحية التي ترضي شهوته، ويمنحونه المال والسلاح والسلطة، ويسوّغون له التسلط علىٰ حياة الناس وأعراضهم

وممتلكاتهم باسم الثورة الدائمة والصراع الحتمي، ويثيرون في نفسه الأحقاد التي تؤصِّل فيه نزعة الانتقام والتشفي، ويبررون له كل وسيلة للوصول إلىٰ رغباته.

من هنا كان الرسول القدوة ﷺ يرعىٰ الشباب رعايةً خاصة؛ يقرّبهم إليه، ويجالسهم، ويستمع إلىٰ آرائهم وأقوالهم ليُشعرهم بذواتهم، ويربي فيهم الشخصية الاستقلالية، ويدرّبهم علىٰ المسؤولية، ويعتبر التزامهم بالإسلام، ونشوءهم علىٰ طاعة الله تعالىٰ من أجَلّ الأعمال وأرقاها، ويقدر دورهم وعطاءهم في نشر الدعوة الإسلامية، وسرعة استجابتهم لدواعي التغيير، ويوصي بهم خيراً، لأنهم أرقّ أفئدة، وألين قلوباً، وأنه ﷺ قال في بدء البعثة:

«آمن بي الشباب، وكفر بي الشيوخ» ذٰلك أن نفوس الشباب صافية لمّا تُلوّث بعد برواسب الوثنية، واستحكام التقاليد والعادات المنكرة، وأجهزتهم الذهنية سليمة، بعيدة عن أي غبش، أو كدر، لذٰلك نرىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجعل من الشباب محلًّا لشوراه، ويعلل ذٰلك بصفاء عقولهم وقدرتهم علىٰ اللمح والنفاذ، وعلىٰ الرغم من تجربة الشيوخ وخبرتهم، فقد تكون أذهانهم مثقلة بما يحول بينها وبين أن تكون لمّاحة للحق؛ وكان يقدم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما - وهو حديث السن - في مجلس كبار الصحابة، ويستمع إليه، ويميل إلىٰ رأيه.

علاج الجنوح:

وفي تقديرنا: أن تأصيل الشورىٰ، كما شرعها الإسلام، والتدريب عليها ضمن الأسرة والمدرسة والنادي ومحاضن الشباب جميعها هي العلاج الأساسي لاجتناب جنوح الشباب، وعبور فترة الانتقال من الطفولة إلىٰ الرجولة دون مخاطر، حيث تبدأ شخصية الشابّ في التشكُّل، ويبدأ إحساسه بذاته وقيمته، ذٰلك أنّ التجاهل والإهمال وعدم إشعار الشاب بقيمته وإهمال أخذ رأيه، قد يورثه لوناً من العناد والرفض والمشاكسة، لأنه في ذٰلك يحسّ بوجوده ويُشعر الآخرين بنفسه، وكثير من المسلمين اليوم - بل ومن العاملين

للإسلام ـ تفوتهم هٰذه الحقائق البادهة ـ ومَن عرفك صغيراً هُنْتَ عليه كبيراً ـ فيخطئون التصرف عن حسن نيّة، وبذٰلك يدفعون أبناءهم في سن المراهقة والشباب إلىٰ الخروج عليهم، ورفض تصرفاتهم، خاصّةً وأن الشباب في هٰذه السنّ لا يقدرون علىٰ التمييز بين الصورة المغلوطة التي يتصرف بها آباؤهم وبين المبادئ الإسلامية التي يعتنقونها، فتحصل الكارثة برفض طريقة الآباء ومبادئهم علىٰ حدٍّ سواء، ولا سبيل للخروج من هٰذه المخاطر إلا باستشارة الشباب، وتقدير آرائهم، وإشراكهم في إدارة الأمور جميعها، والأخذ بيدهم لاكتشاف مواطن الخطأ وتحديد جوانب الصواب، وقد يكون الفشل التربوي الذي تعاني منه كثير من البيوتات المسلمة اليوم يعود إلىٰ إهمال هٰذه القضية، فالشورىٰ ليست معطلة في مؤسساتنا العامة والسياسية فحسب ـ ونحن نندب عليها ونبكي فَقْدَها ـ بل هي غائبة معطلة في أسرنا، وهو الأمر الأهم، حيث نقدّم باختيارنا ضحايا للمؤسسات السياسية المستبدة وللأفكار والمذاهب الشاذة. إننا بذٰلك نبني تماثيل من الثلج، ومن ثم نبكي علىٰ ذوبانها.

ولا شك أنّ مرحلة الشباب هي بدء مرحلة النزوع إلىٰ تشكيل الجماعات، والانسلاك في الأعمال الجماعية، والحياة ضمن أطر جماعية ضرورة تربوية لا تعوّض بغيرها، فيها يتم التدريب علىٰ الأعمال المشتركة، ومن خلالها تنمو الروح الجماعية، وتتحقق قيم المجتمع الإسلامي، من الأخوة والإيثار والتراحم والإحسان والتعاون والتواصي بالحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة البنيان الذي يشدّ بعضه بعضاً، وفي إطارها تضمحلّ الأمراض النفسية ـ من الانزواء والعزلة والأنانية والانسحاب من المجتمع ـ فلا بدّ والحالة هٰذه من الاستجابة لهٰذا النزوع، والتفكير بإيجاد المحاضن الطاهرة النظيفة من الروابط والنوادي الرياضية والثقافية، ومراكز رعاية الشباب، وجمعيات البر والخدمات العامة، والذهاب بالشباب إلىٰ أماكن الكوارث والنكبات لممارسة أعمال الإغاثة، وتنمية فكرة الاحتساب، والانغماس في القضايا الوطنية وتنمية الحسّ بالمسؤولية الذي يتطلب الإعداد النفسي والثقافي، وتوفر القوة والأمانة، واستشعار ضرورة

وفرضية العمل الإسلامي، والتوجُّه صوب الأهداف الكبرىٰ والاشتراك في تحقيقها والتضحية في سبيلها.

ولا بدّ هنا للشباب من أن يحسّ أن من أعظم أهدافه: هداية الناس وتغييرهم وحب الخير لهم، قال رسول الله ﷺ لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وهو الشابّ الأنموذج: «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً؛ خير لك من حمر النعم**» وأن مهمته: الدعوة الدائمة لاستنقاذهم، وليس شعاره الحقد أو الثورة الدائمة لتدميرهم والقضاء عليهم، والفارق كبير بين الدعوة الدائمة القائمة علىٰ التحابّ والتعاون والود ـ شعار المسلم وهدفه لاستنقاذ الناس ـ وبين الثورة الدائمة القائمة علىٰ الصراع والكراهية والحقد.

إنّ إيجاد هٰذه المحاضن ومواقع النشاط المتعددة هو الذي يحول دون انحراف الشباب الذي يولّده الفراغ من الأهداف، وعدم الحرية في ممارسة النشاطات المشروعة.. إن الطاقات الكبيرة والهائلة التي يمتلكها الشباب إذا لم نحسن توظيفها فسوف تكون عبئاً علىٰ صاحبها قد يودي به، فلا بد أن نعلم أن الانحراف، والشذوذ، والسآمة، والضياع، والعدمية، والعبث، والسقوط في المخدرات والمسكرات إنما هي ثمار للفراغ وللطاقات الشبابية الفائضة التي لم نحسن استثمارها. وأن الانشغال بوسائل التغيير والاهتمام بتحقيق الأهداف الكبرىٰ، التي إذا آمن بها الشباب أعطاها كل ما يمتلك، تبقىٰ هي المأمن من الانحراف.

زعامة الخطبة:

وقد تكون المشكلة التي يعاني منها الكثير من الشباب المسلم اليوم أنه لا يزال يعيش مرحلة الخطب العاطفية والشعارات الحماسية، أو ما يمكن أن نسميه (زعامة الخطبة) التي تشحنه بالعواطف والاندفاعات دون القدرة علىٰ الأخذ بيده إلىٰ الطريق الصحيح، ووضع الأوعية الشرعية لضبط حركته، الأمر الذي قد يؤدي به إلىٰ ممارسات مغلوطة يدمر فيها نفسه ومجتمعه.

ومن هنا نقول: إنّ من أخطر الأمور علىٰ الساحة الإسلامية اليوم:



غياب القدوة، وافتقاد القيادة القادرة علىٰ ترشيد الشباب، وتمثل مشكلاته، وإدراك حاجاته، واستيعاب تطلعاته ونشاطاته، واغتنام تضحياته ووضعها في مصلحة الإسلام والمسلمين. .

إنّ التضحيات الكبيرة التي يقدمها الشباب المسلم في هٰذا العصر تكاد تفوق الوصف والتصور، لقد كان عطاؤه دون حدود، لٰكنه في النهاية يصاب بالإحباط وخيبة الأمل فيمن حوله، فلا هم قادرون علىٰ تقديم تضحيات مثيلة، ولا هم قادرون علىٰ وضع تضحياته في المكان المناسب.

أزمة قيادة.. وقدوة:

الشباب اليوم يعاني أزمة قيادة وأزمة قدوة؛ إنّ غياب القدوة وعجز القيادة عن وضع استراتيجية واضحة للشباب المسلم من خلال الإمكانات المتوفرة والظروف المحيطة، وعدم القدرة علىٰ إيجاد الأوعية الشرعية لحركته أوقعه في بعض الممارسات غير المدروسة تماماً، والتي جاءت كردّ فعل لعجز بعض الشيوخ واستسلامهم للباطل، أو مهادنتهم لسلاطين الاستبداد السياسي، أو قعودهم عن قولة الحق، أو انسحابهم من الساحة وترك الشباب يواجه مصيره علىٰ يد أعداء الإسلام بمفرده، وقد يساهم بعضهم من حيث يدري أو لا يدري بإنهاك الشباب المسلم، والنيل منه، لمجرد بعض الأخطاء التي توظَّف في النهاية لمصلحة أعداء الإسلام.

إن الشباب المسلم اليوم يُرمىٰ بالكثير من الصفات والنعوت التي تحاصره وتحاول شلّ حركته، وإخراجه من الساحة، والتخويف منه، وإقامة الحواجز النفسية بينه وبين الناس؛ ولقد استطاع الإعلام المعادي للإسلام أن يزرع مصطلح التطرف الذي يُدمغ به الشباب المسلم في كل مناسبة، ويجعل منه سلاحاً يُشهر وقت اللزوم، حتىٰ أصبح كثير من بسطاء المسلمين ينظرون بارتياب إلىٰ كل مَن يدعو إلىٰ الله، دون الرغبة في مناقشة ما يدعو إليه وعرضه علىٰ ميزان الإسلام لمعرفة الحق من الباطل، ولقد ساهم بحملة التضليل هٰذه بعض علماء السوء وفقهاء السلطان الجائر عن سابق تصور وتصميم، لأنه جزء من المهام المنوطة بهم في مخطط حملة الكراهية، كما

سقط فيها بعضٌ من العلماء عن حسن نية، ظناً منهم أن الأمر يقع ضمن مهمتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وليس المطلوب هنا الدفاع عن خطأ الشباب، ولا حمايته، ولا تكريسه في عالم المسلمين، لٰكن المطلوب عند الحكم علىٰ الأعمال والتصرفات، وممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: القيام بعملية التصنيف في المواجهة، واتخاذ المواقف علىٰ ضوء رؤية واضحة، فقد يكون هناك خطأ ـ وكلّ ابن آدم خطّاء ـ من بعض الشباب العاملين للإسلام بسبب من ردّ الفعل، أو ضغط موقف غير إسلامي، أو ضعف ثقافة وضآلة فقه، ذٰلك أن وقوع الخطأ أمر محتمل منذ فجر الدعوة، والتصويب دائم منذ فجر الدعوة أيضاً، والرسول ﷺ قال للشباب الذين أخذوا أنفسهم بأكثر من الاعتدال: **«مَن رغب عن سنّتي فليس مني»** وطلب إليهم الإيغال في الدين برفق ويسر، لٰكن الخطورة اليوم في هٰذا النوع من التضليل الثقافي، أنه يسوّي الخطأ بالانحراف، فهناك شباب مخطئون، وهناك أعداء منحرفون ديدنهم مطاردة الشباب المسلم، ومحاصرته، وتضخيم أخطائه، والإغراء به لقتل روح الفاعلية الإسلامية في نفسه، وإلغاء التوجه صوب الإسلام من نشاطه..

ولا شك أن الشباب المسلم أنظف الناس سلوكاً، وأعلاهم أخلاقاً، وأكثرهم وطنية، وأشدهم علىٰ أعداء الدين والوطن، وأحرصهم علىٰ مواجهة الاستعمار، وهم أجنحة الصحوة الإسلامية ورصيدها الدائب، ومعينها الذي لا ينضب، هم روّاد المساجد القارئون لكتاب الله، لذٰلك فهم المستهدفون دائماً.

ألغام علىٰ أرض الصحوة:

إنّ التعصب والتطرف والتزمُّت، وهٰذه القائمة من المصطلحات التي لا نهاية لها، والتي قُذف بها الشباب المسلم بعد العجز عن تدجينه وتطويعه واحتوائه، هي الألغام التي زرعت علىٰ أرض الصحوة الإسلامية لتتفجر في كل سائر علىٰ الطريق.

ولعلّ المطلوب بإلحاح اليوم أكثر من أي وقتٍ مضىٰ: حماية الشباب من السقوط في مناخ التضليل الثقافي، والزيف الإعلامي، والقراءة التي تقدم له بأبجديات مغلوطة، الأمر الذي لا يقتصر سُوؤه علىٰ الواقع وإنما يمتدّ لتدمير المستقبل المأمول لهٰذه الأمة، حيث تفلسف الهزائم والنكبات ليُجعل منها انتصارات، وتُحسب الخسائر علىٰ أنها مكتسبات، ويُقرأ له التردي والانهيار علىٰ أنه تقدُّم وإنجازات، وتوقظ النزعات الإقليمية وتكرّس علىٰ أنها دعوة إلىٰ الوحدة والاتحاد، ويمارس الذل والاستعباد علىٰ أنه تحرر واستقلال، والاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي علىٰ أنه ديمقراطيات شعبية، والتسلط الطبقي والحزبي والتمييز الطائفي علىٰ أنه تحقيق للدولة العلمانية المنشودة التي تؤمِّن المساواة وتُنهي عصور الظلام والدولة الدينية!! والشباب إذا لم يُنتشل من هٰذا التضليل والضلال فسوف يكون غد الأمة أسوأ من يومها.

وفي اعتقادنا أنه لا بد للشباب أن يعيش الحقيقة، بأن يحسّ الهزيمة ويتعرف علىٰ أسبابها، ويستشعر التحدي الذي يستنفر همته ويشحذ فاعليته، ويدرّب علىٰ استخلاص الدروس والعبر، فلا يكرر الخطأ، ويعرف الأمور علىٰ حقيقتها حتىٰ يتمكن من التعامل معها. فهناك الكثير من المشكلات والقضايا «الاستراتيجية» التي لا يمتلكها جيل بعينه، ولا تختص بجيل ليدّعي لنفسه حق التصرف فيها، ويحمل الأمة علىٰ مواقف متخاذلة من خلال واقع الهزيمة التي يعاني منها...

ولا خيار للشباب المسلم اليوم في التعرف علىٰ مشكلات أمته والتحديات التي تواجهها، والنزول إلىٰ الساحة وحمل هموم جماهير الأمة، والاضطلاع بها والتضحية في سبيلها، وكسر مقولة فصل الدين عن الحياة ـ التي يقصد بها عزله ـ، وإيقاف تسللها إلىٰ الوطن الإسلامي، واعتلاء أعلىٰ المنابر العلمية المتخصصة التي هي من الفروض الكفائية بالنسبة لمجموع الأمة، أما الذي يختار طريقها فهي فروضه العينية، وحل معادلة انفصال العلم عن الدين حتىٰ يولد الإنسان الجديد الذي تنتظره الحضارة الإنسانية، المسلم الذي يمتلك المعرفة وأخلاقها، والوسيلة وأهدافها.

ولا شك أن قضايا ومشكلات الشباب مستمرّة، ولا بدّ من متابعة النظر والبحث والمعالجة، وإبراز منهج الوحي - الكتاب والسنّة - في تربية الشباب وتقديم النماذج التي عرض لها القرآن من سير الأنبياء المعصومين ليكونوا وجدهم محلاً للأسوة والقدوة؛ خاصة وأن التجربة الإسلامية في مجال تربية الشباب غنية أيّما غنًى، فالقرآن الكريم قدّم سيدنا يوسف عليه السلام أنموذجاً للعفة والطهارة، وسيدنا موسى عليه السلام أنموذجاً للقوة والأمانة، ومن قبلهما سيدنا إبراهيم عليه السلام أنموذجاً للتحرّي والبحث عن الحقيقة، والصبر على الابتلاء، وفتية الكهف أنموذجاً للتماسك والشخصية الاستقلالية، وعدم الذوبان في مجتمع الوثنية، ثم يأتي الرسول الخاتم ﷺ لتلتقي عنده معالم النبوة وخصائص الأنبياء والتجربة الإنسانية من لدن آدم عليه السلام ليكون خير أنموذج للشباب في الأسوة والقدوة ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].



الاستلاب الثقافي

ولقد نجحت العقلية الأوروبية، كما أسلفنا، في فرض شكلية معينة من التحقيق والتقويم والنقد، وأوجدت القدوة والأنموذج، ويمكن القول: إن معظم الكتابات العربية المعالجة للتراث قد سارت علىٰ هٰذا النهج ولم تتجاوزه إلا في القليل النادر، إلىٰ درجة إيجاد ركائز ثقافية عربية معبرة عنها ومتبنية لوجهة نظرها، ومدافعة عن المواقع الثقافية التي احتلها، حتىٰ في الجامعات والمؤسسات العلمية لا يزال الخضوع والاحتكام للقوالب الفكرية التي اكتسبها المثقفون المسلمون من الجامعات الأوروبية.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧].

يشكل الاستشراق الجذور الحقيقية التي كانت ولا تزال تقدم المدد للتنصير والاستعمار، وتغذي عملية الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة، وتشكل المناخ الملائم من أجل فرض السيطرة الاستعمارية علىٰ الشرق الإسلامي وإخضاع شعوبه، فالاستشراق هو المنجم والمصنع الفكري الذي يمد المنصِّرين والمستعمرين بالمواد يسوِّقونها في العالم الإسلامي لتحطيم عقيدته، وهدم عالم أفكاره، وقد جاء هٰذا الغزو الثقافي ثمرة لإخفاق الغزو العسكري وسقوطه، ولتربية جيل ما بعد الاستعمار...

لقد تطورت الوسائل وتعددت طرق المواجهة الثقافية الحديثة، ويكفي أن نقول: إن مراكز البحوث والدراسات سواء أكانت مراكز مستقلة أم أقساماً للدراسات الشرقية في الجامعات العلمية في الغرب، وما يوضع تحت تصرفها من الإمكانات المادية والمبتكرات العلمية والاختصاصات الدراسية تمثل الصورة الحديثة التي تطور إليها الاستشراق، حيث تمكن أصحاب القرار السياسي من الاطلاع والرصد لما يجري في العالم يومياً..

ففي القارة الأمريكية وحدها حوالي تسعة آلاف مركز للبحوث والدراسات، منها حوالي خمسين مركزاً مختصاً بالعالم الإسلامي، ووظيفة هٰذه المراكز تتبع ورصد كل ما يجري في العالم، ثم دراسته وتحليله مقارناً مع أصوله التاريخية ومنابعه العقائدية، ثم مناقشة ذٰلك مع صانعي القرار السياسي، ومن ثم تُبنىٰ علىٰ أساس ذٰلك الخططُ والاستراتيجيات، وتحدد وسائلُ التنفيذ.

لقد أصبح كل شيء خاضعاً للدراسة والتحليل، ولعل المختبرات التي تخضع لها القضايا الفكرية والدراسات الإنسانية أصبحت توازي تلك المختبرات التي تخضع لها العلوم التجريبية، إن لم تكن أكثر دقة، حيث لا مجال للكسالىٰ، والنيام، والعاجزين، والأغبياء، في عالم المجدِّين الأذكياء.

مواقف الرفض والإدانة:

لقد اكتفينا بمواقف الرفض والإدانة للاستشراق والتنصير، اكتفينا بالانتصار العاطفي للإسلام، وخطبنا كثيراً ولا نزال في التحذير من الغارة علىٰ العالم الإسلامي القادمة من الشرق والغرب دون أن تكون عندنا القدرة علىٰ إنضاج بحث في هٰذا الموضوع، أو إيجاد وسيلة صحيحة في المواجهة، أو تحقيق البديل الصحيح للسيل الفكري والغزو الثقافي القادم من هناك... إلا مَن رحم الله من جهود فردية لا تفي بالغرض، فإذا كنّا لا نزال في مرحلة العجز عن تمثُّل تراثنا بشكل صحيح حيث يحاول بعضنا الوقوف أمامه للتبرك والمفاخرة دون أن تكون لديه القدرة علىٰ العودة من خلاله إلىٰ أصولنا الثقافية المتمثلة في الكتاب والسنّة، ويحاول آخرون القفز من فوقه

ضاربين بعرض الحائط فُهوم علماء وجهود أجيال، بدعوىٰ التناول المباشر، ودون امتلاك القدرة علىٰ ذٰلك، فكيف يمكننا، وهٰذا واقعنا وموقعنا، أن نواجه معركة الصراع الفكري، ونقدم فيها شيئاً، وإذا كان الكثير منا ما يزال يعيش علىٰ مائدة المستشرقين لفقر المكتبة الإسلامية للكثير من الموضوعات التي سُبقنا إليها، وإذا كانت مناهج النقد والتحليل، وقواعد التحقيق، ووسائل قراءة المخطوطات من وضعهم، كما أن الكثير من المخطوطات الإسلامية لم ترَ النور إلا بجهودهم علىٰ ما فيها، فأنّىٰ لنا الانتصار في معركة المواجهة العقائدية؟!

ويمكن لنا إذا تجاوزنا جهود علمائنا الأقدمين في تدوين السنّة ووضع ضوابط النقل الثقافي، وقواعد الجرح والتعديل، وتأصيل علم مصطلح الحديث الذي حفظ لنا السنّة، إلىٰ جانب بعض الدراسات الجادّة في هٰذا الموضوع، فإننا لا نكاد نرىٰ شيئاً يُذكر، فقد اقتصر عمل معظم المشتغلين بالحديث والسنّة عندنا علىٰ تحقيق بعض الأحاديث تضعيفاً أو تقوية، لإثبات حكم فقهي أو إبطاله، أو إثبات سنّة ومواجهة بدعة، وهٰذا العمل علىٰ أهميته يبقىٰ جهداً فكرياً فردياً دون سويّة الأمر المطلوب الذي يمكن من الانتفاع بكنوز التراث.. وأين هٰذا من عمل المستشرقين في إعداد «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي»، كعمل ضخم وكدليل علمي لا يستغني عنه أي مشتغل بالحديث...

لقد نجحت العقلية الأوروبية بداية في السيطرة علىٰ مصادر التراث العربي الإسلامي، وعن طريق الاستشراق والمستشرقين بادرت إلىٰ التحقيق والتمحيص والطبع والنشر لمجموعة من أكبر وأهم المصادر التراثية، وعلىٰ الرغم من أن بعض الدراسات كانت تقترب من صفة النزاهة والحياد؛ إلا أنها في النهاية وبكل المقاييس تبقىٰ مظهراً من مظاهر الاحتواء الثقافي.

ولقد نجحت العقلية الأوروبية، كما أسلفنا، في فرض شكلية معينة من التحقيق والتقويم والنقد، وأوجدت القدوة والأنموذج، ويمكن القول: إن معظم الكتابات العربية المعالجة للتراث قد سارت علىٰ هٰذا النهج ولم

تتجاوزه إلا في القليل النادر، إلىٰ درجة إيجاد ركائز ثقافية عربية معبرة عنها ومتبنية لوجهة نظرها، ومدافعة عن المواقع الثقافية التي احتلتها، حتىٰ في الجامعات والمؤسسات العلمية لا يزال الخضوع والاحتكام للقوالب الفكرية التي اكتسبها المثقفون المسلمون من الجامعة الأوروبية..

ونستطيع القول: إن آثار الاستشراق وإنتاج المستشرقين لا يزال يحتل الكثير من مواقعنا الثقافية، وسوف لا يفيدنا في المواجهة مواقف الرفض والإدانة أو الهروب من المشكلة، من هنا تأتي أهمية الكتابة التي لا تُقتصر علىٰ تشخيص العلّة ورصد آثارها فقط، وإنما تتجاوز ذٰلك إلىٰ تحديد الأسباب التي أوجدتها، ومن ثم يصف العلاجيون الخطة التي لا مناص من التزامها في معركتنا الفكرية التي تستهدف وجودنا حيث نكون أو لا نكون...

إن الاطلاع علىٰ قدر ما من المعلومات عن الاستشراق ومناهج المستشرقين يشكل ضرورة لكل مسلم، يبصره بالساحة الثقافية التي يتعامل معها، والخلفية الفكرية للصراع الحضاري.

وتبقىٰ حاجة المكتبة الإسلامية قائمة لمجموعة من الكتب التي تعرض للقضايا الفكرية التي يعاني منها عالم المسلمين، وتصل إلىٰ حد الكفاية بالنسبة للمسلم غير المتخصص علىٰ نحو ما بعيداً عن الانفعال والعاطفية وإثقال ذهنه بما ينفع وما لا ينفع.



من أدوات التدمير للعقل المسلم

إن محاصرة الدعوة إلىٰ الله سوف تُفقد الناس التقوىٰ (المناعة)، وتؤدي إلىٰ التفلُّت والسقوط في المخدرات والمسكرات، وقد تؤدي ببعضهم إلىٰ الغلو والتطرف، وتغليب مسالك الحرج والتشدد علىٰ خلق اليسر والتسامح..

مما لا شك فيه أن ظاهرة الإدمان علىٰ المخدرات والعبودية لها أصبحت جائحة تعم العالم، ولم تعد تقتصر علىٰ بلد دون آخر بعد أن زالت الحدود، وألغيت المسافات، ورُفعت الحواجز، وأصبح العالم دولة واحدة، وعمّت البلوىٰ وأخذ كل بلد نصيبه من الوباء. وسوف لا يكون العالم الإسلامي بعيداً عن ذٰلك، وقد بدت نذر الخطر واضحة للعيان، إذا لم تُتخذ الوسائل الناجعة علىٰ المستويات كافة، وإذا لم تستشعر المؤسسات الفاعلة والمؤثرة مسؤوليتها في المواجهة كالأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام والمؤسسات الصحية والاجتماعية ومراكز رعاية الشباب ضمن سياسة واحدة، يأخذ كل منها بطرف، فلقد آن الأوان لإزالة التناقض والقضاء علىٰ أسباب الصراع في المؤسسات الثقافية والتربوية الذي لم يورثنا إلا الشخصية المهزوزة والمشوهة القلقة، التي تعاني الفراغ والقنوط وتفتش عن إكسير السعادة في أوعية الآخرين، يقول الشاعر:

وهل يبلغ البنيان يوماً تمامه
إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

والأمر المحزن حقًا أن الكثيرين في العالم الإسلامي لا يزالون يعيشون علىٰ وهم العافية، وهم يقرأون الإحصائيات التي تصدرها دول الحضارة الغربية عن الجريمة والتفكك الأسري، وضحايا المخدرات والمسكرات، ويعقدون الأماني والأحلام علىٰ سقوط هٰذه الحضارة لصالح المسلمين، دون أن يكلفوا أنفسهم أي جهد أو إعداد لما يقتضيه ميراث الحضارة وبناء الصلاح المطلوب، ولا يدرون أن الإصابات بدأت تحل بدارهم، وأن الانتظار ووهم العافية ليس صحيحاً وليس في مصلحتهم، ومن الخطورة بمكان الظن بأن المعالجة يمكن أن تكون في التستر علىٰ الجريمة أو بالاقتصار علىٰ تشريع العقوبة الشديدة فقط، دون التفتيش عن الأسباب التي عندها تكون المعالجة الحقيقية، ذٰلك أن الاقتصار علىٰ معالجة وترميم الآثار يعني: الرؤية العاجزة والوسيلة البدائية القاصرة.

لقد أكد تقرير حديث صدر في باريس عن منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (أويسد) التي تضم أربعاً وعشرين دولة صناعية متقدمة: أن أقطار ما يدعىٰ بالعالم الثالث ـ ومعظم دول العالم الإسلامي واقعة في نطاقه ـ بلغت فيها المخدرات حد الوباء الواسع الانتشار، وأن بعض هٰذه الأقطار صار لديها معدلات للمدمنين بالقياس لعدد سكانها يفوق المعدل في الولايات المتحدة.

ففي «ماليزيا» وهي بلد إسلامي، يقدّر عدد المدمنين علىٰ المخدرات واحداً من كل ١٧٠ شخصاً في حين يبلغ المعدل في الولايات المتحدة واحداً لكل ٤٦٠ شخصاً: وفي هٰذا ما فيه من الأدلة علىٰ ما فعله دعاة التغريب ـ والتشريق ـ والعمالة الثقافية من تخريب في عالم المسلمين، أولٰئك الذين استطاعوا أن ينقلوا إلينا أمراض الحضارة، ولم يقدروا علىٰ التحقق بإنتاجها.

وعلىٰ الرغم من ذٰلك فبإمكاننا القول: بأن الخصوصية التي تتمتع بها الأسرة المسلمة لا تزال تجعلها بمنأى عن الإصابات التي لحقت بالأسرة في ديار الحضارة المادية وجعلتها محلاً للمسكرات والمخدرات، كما لا تزال مساحة الضحايا في العالم الإسلامي بمجموعه بسيطة بسبب ما شرعه

الإسلام من تدابير وقائية وعلاجية في الوقت نفسه؛ إلا أن الركون إلىٰ ذٰلك دون أن نفسح المجال للتربية الإسلامية لتكون هي الأساس والمنطلق في مؤسساتنا التربوية ينذر باجتياح الخطر القادم من الغرب بعد أن أصبح العالم دولة واحدة، ولا بد أن ندرك أن المعاصي يستدعي بعضها بعضاً، وأن التساهل في مكافحة بعضها هو أول الوهن، فالميسر وما يبعثه من قلق وإرهاق يستعدي الخمر توهماً للراحة، والخمر والمعاصي والآثام الاجتماعية تستدعي المخدرات وهٰكذا!

المخدرات الفكرية:

إن الانحراف والشذوذ، والسآمة والاكتئاب، والضياع والضجر، والعدمية والعبث وكل ما قذفت به المذاهب الوجودية ـ وسائر مذاهب الهدم ـ الشباب من مخدرات فكرية، كانت المسوغ، وكانت المعابر الحقيقية للسقوط في المخدرات والمسكرات، التي يأتي السقوط فيها ثمرة للفراغ، وللطاقات الشبابية الفائضة، التي لم نحسن استثمارها. ولا خيار أمامنا ونحن في مواجهة المشكلة من التفكير بإيجاد المحاضن التربوية الطاهرة النظيفة من الروابط والنوادي الرياضية والثقافية، ومراكز رعاية الشباب، وجمعيات البر والخدمات العامة، والذهاب بالشباب إلىٰ أماكن الكوارث والنكبات لممارسة أعمال الإغاثة وتنمية فكرة الاحتساب، والانغماس في القضايا الوطنية والتنموية وإيقاظ الحس بالمسؤولية، الذي يتطلب الإعداد النفسي والثقافي، واستشعار ضرورة وفرضية الدعوة الإسلامية وفسح المجال أمام الشباب، لينخرطوا بالمؤسسات الإسلامية الشعبية، وإعادة دور المسجد، وإحياء رسالته وعدم الخوف والتخويف من العالم الإسلامي، وإنما التخويف من عقابيل محاصرة الدعوة، ومطاردة الدعاة، وتفريغ الجماهير من عقيدتها، وتركها فريسة للفراغ الذي لا بد أن تملأه المخدرات، ذٰلك أن محاصرة الدعوة إلىٰ الله سوف يُفقد الناس التقوىٰ (المناعة) ويؤدي إلىٰ التفلت والسقوط في المخدرات والمسكرات، وقد يؤدي ببعضهم إلىٰ الغلو والتطرف وتغليب مسالك الحرج والتشدد علىٰ خلق اليسر والتسامح الذي شرعه الدين وفي الأمر ما فيه من المخاطر.

كما أنه لا بد من إعادة النظر بالمناهج التربوية والثقافية والإعلامية بوجه عام، وتطوير مناهج مادة التربية الإسلامية بشكل خاص، حتىٰ تستطيع أن تؤدي دورها المطلوب في الوقاية والعلاج، وبذٰلك تكون قادرة علىٰ طرح ومناقشة المشكلات المعاصرة، التي يعاني منها المجتمع اليوم، ذٰلك أن الكثير من الكتب والمناهج، إنما روعي فيها أثناء وضعها المشكلات التي كانت في الزمن الماضي، ولم يبقَ لها اليوم إلا القيمة التاريخية، وإذا كانت مناهج التربية والثقافة والإعلام تساهم بالوقاية في الدرجة الأولىٰ - والوقاية خير من العلاج - فإن أولىٰ وسائل المعالجة تكون في مواجهة فسق المترفين، لأن الترف في غالب الأحيان مصاحب للنفوذ في كثير من بلاد الدنيا، ولا تحل مشكلة فسق المترفين، الذين يزرعون بذور التدمير لعالمنا الإسلامي ويستوردون أمراض الحضارة؛ إلا بالعزمة الصادقة علىٰ المواجهة من الناحية الرسمية والجماهيرية.

وقد تكون المشكلة أن كثيراً من سلطات الأمن المعنية بمكافحة التهريب شريكة في شبكاته، وبعضها الآخر قد يصادر المهربات ويطارد المهربين ليحل محلهم، ويأخذ دورهم بعد أن أصبحت المخدرات وسيلة مغرية للثراء العالمي.

لقد أصبحت الحاجة ماسة اليوم لمعرفة الآثار الخطيرة التي تخلفها المخدرات في النفس والعقل والنسل والمجتمع، بعد أن أصبح تناول المخدرات جائحة عامة، لعل ذٰلك يساهم بإيقاف الداء الذي بدأ ينتشر نحو عالمنا الإسلامي، مستغلاً فقر الفقراء وفسق المترفين.

إن الاقتصار علىٰ رصد آثار المخدرات في النفس والمجتمع وبيان أسباب تعاطيها لا يكفي، وإنما لا بد من دراسة مستقصية متخصصة للمخدرات وتركيبها، وأوصافها، والمظاهر السلوكية التي تترافق معها، والأمراض التي تلازم أصحابها وبيان سبل العلاج للأسباب والآثار معاً.

ونحمد الله تعالىٰ علىٰ نعمة الإسلام الذي أحلّ لنا الطيبات وحرّم علينا الخبائث، وحفظ علينا حياتنا، وكان أرحم بنا من آبائنا وأمهاتنا.



في الدّعوة الإسلامية

ملاحظات حول فقه الدعوة

إن التجربة الإسلامية التاريخية، غنية بالوسائل المتعددة للتغير، من خلال الظروف والملابسات الكثيرة التي مرّت بالمسلمين. . ويمكن القول: بأن كل مدرسة من مدارس العمل الإسلامي قادرة علىٰ الاستدلال لصحة اختيارها ومنهجها من الكتاب والسنّة والسيرة العملية والتاريخ الإسلامي. . لٰكن يبقىٰ الأمر المطروح: ما هي الوسيلة المشروعة والمجدية أكثر، وكيف نختار الموقع الفاعل والمؤثر من خلال الإمكانات المتاحة والظروف المحيطة مع عدم الإخلال بالتوازن وضبط النسب، والاحتفاظ بالرؤية الشمولية للرسالة الإسلامية في الوقت نفسه.

لعل من القضايا الملحة التي يجب أن تنصرف إليها معظم الجهود اليوم محاولة إعادة صياغة الشخصية المسلمة التي افتقدت الكثير من منهجيتها، وفاعليتها، وصوابها، وترشيد العقل المسلم، وتسديد خطا العاملين في مجال الدعوة، وإيجاد الأوعية الشرعية لحركة المسلمين المعاصرة، وتبصيرهم بمحاولات المكر الخارجية، وتسليحهم بطرائق المواجهة، وإيقاظ روح الجهاد، والتركيز علىٰ بيان أن الإصابات الداخلية، هي التي جعلت الجسم الإسلامي مؤهّلاً وقابلاً للسقوط في حبائل الأعداء، ليستأنف المسلم دوره، ويقوم بحمل أمانة الاستخلاف، مستثمراً إمكاناته الروحية والذهنية والمادية كلها، شعاره الدائم: «الحكمة ضالة المؤمن؛ أينما وجدها فهو أحق بها».

قد يكون من أوائل الأمور المطلوبة توسيع دائرة المشاركة والحوار واستشراف الآفاق التي يمكن أن يرتادها الدعاة، وتحديد المواقع الفاعلة، من خلال الظروف المحيطة، والإمكانات المتاحة، في محاولة لتمرين ذهنية مسلم اليوم علىٰ اكتساب مجموعة من الخبرات، والتحقق بأكثر من وجهة نظر؛ لعل ذٰلك يغنيه بالتصور الخصب، الذي لا بد منه للحكم علىٰ الأشياء بشكل سليم، وبذٰلك يتخلص من النمطية، والمراوحة في المكان الواحد، وينأىٰ بنفسه عن أن يكون نسخة مكررة، من حيث الزمان والمكان والحركة والأشخاص، وتلك إحدىٰ آفات التحزب والتعصب، ذٰلك أن الحوار والاطلاع علىٰ وجهات النظر المتعددة والمقارنة بينها يؤهل الإنسان، ويمنحه القدرة علىٰ المراجعة والمناصحة والتصويب والتقويم، ويكسبه إمكانية التفريق بين ما هو ثابت من أصول الدين ومقاصد الشرع، وما هو متطور متغير من وسائل الدعوة، ومواقع العمل، وصور التعامل مع الحياة المتغيرة، وبذٰلك يستحق أن يكون وارثاً للنبوة، ومنسلكاً في نطاق الطائفة القائمة علىٰ الحق، الحاملة للرسالة الخالدة.

مراجعة.. لا رجوع:

وقد أكدنا في أكثر من مناسبة: أن عمليات المراجعة، والاعتراف بالخطأ، لا ينتقص من الذات، وإنما يؤدي إلىٰ تزكيتها، ويحول دون تدسيتها، والقضية يجب أن تُفهم علىٰ أنها تعني باستمرار: المراجعة لوسائل الدعوة لتحقيق كسب أكبر للقضية الإسلامية، وليست الرجوع عن طريقها، فالإسلام بالنسبة لنا لا يشكل خياراً، وإنما هو كيان، وثقافة، وهوية.

ونرىٰ أنه لم يعد للمسلم اليوم خيار في أن يخرج من دائرة الطواف حول الذات، والافتتان بالنفس، والعجب بالرأي، والاقتصار علىٰ قراءة ذاته، إلىٰ الاطلاع علىٰ وجهات النظر الأخرىٰ، خاصة آراء أولئك الذين يقفون معه علىٰ الأرض الواحدة، ويواجهون مكراً وكيداً مشتركاً، وإن تنوعت مدارسهم، وتعددت مواقعهم، ويدرك أبعاد الخطاب الإسلامي، الموجه للناس كافة، وأن يستشعر مسؤوليته أمام الله في الالتزام بحقوق

الأخوة الشاملة، وعدم التسوية بين الذين يتنكبون طريق الإسلام وينحرفون عنه، وبين الذين قد يخطئون ويتطرفون ويغالون في السير فيه، نتيجة لضغوط الأوضاع غير الإسلامية، وهٰؤلاء أحوج للتصويب والرعاية والحوار، منهم للمواجهة والتهوين والاحتقار.

فإلىٰ أي مدّى نستطيع اليوم ـ وقد تكالب علينا الأعداء من كل جانب ـ أن نكون قادرين علىٰ بناء الخطة الواحدة، التي يأخذ كل منها بطرف، واكتشاف القواسم المشتركة، خاصة وأننا مستهمون في سفينة واحدة، وإن أصاب بعضنا أعلاها، وبعضنا الآخر أسفلها، وأن أي خرق يمكن أن يصيبها ـ ولو بحسن نية ـ سيغرقنا جميعاً إذا غفلنا عن الحراسة الدائمة، وتعطلت فينا حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتوقفنا عن المراجعة الدائمة لحركة الأفراد، وتوجهات ومسالك الدعاة والرواد.

ونستطيع أن نقول: بأن توسيع دائرة المشاركة، والرأي، والحوار، وتبادل وجهات النظر، يمثل لوناً من الشورىٰ واستطلاع الرأي حول القضايا التي نحسب أنها من الأمور الأساسية في فقه الدعوة الإسلامية. ولا بد من الحرص علىٰ أن تأتي المشاركة، ويتم الحوار علىٰ أكثر من موقع علىٰ خارطة العمل الإسلامي، بمدارسه المتنوعة واجتهاداته المتعددة، وأن يكون فيها حضور شبه كامل للقائمين علىٰ أمر الدعوة، سواء كان ذٰلك علىٰ المستوىٰ الشعبي أو الرسمي أو المؤسسي أو الأكاديمي، إضافة إلىٰ المواقع الجغرافية المتعددة.

وقد يكون المطلوب اليوم بإلحاح التوسع كثيراً فيما اصطلح علىٰ تسميته بالفقه المقارن في مجال الدراسات الأكاديمية بشكل خاص، لأن ذٰلك وحده هو الكفيل بتمرين الذهنية الإسلامية علىٰ قبول الرأي الآخر واحترامه، ووأد التعصب المذهبي والحزبي، وتحقيق القناعة بأن الإسلام أوسع كثيراً من الصورة المحدودة التي يقبع وراءها بعض المسلمين اليوم، إضافة إلىٰ ضرورة إجراء الحوار والمقارنات مع الأفكار والتشريعات الأخرىٰ من خارج الدائرة الإسلامية كثمرة للسير في الأرض الذي طلبه الله إلينا،

والنظر في التجارب البشرية، وعدم الاقتصار علىٰ التجربة الإسلامية، لقوله تعالىٰ:

﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ . . .﴾ [النمل:٦٩] فالحكمة ضالة المؤمن.

من المبادئ إلىٰ البرامج:

ولعل من القضايا الأساسية التي لا تزال تُطرح علىٰ الساحة الإسلامية من داخل العمل الإسلامي وخارجه علىٰ حدٍّ سواء ـ وإن اختلفت الدوافع ـ قضية الانتقال من مرحلة المبادئ والشعارات العامة إلىٰ تقديم البرامج، وإيجاد الأوعية الشرعية لحركة المجتمع، والحلول الإسلامية لمشكلاته، حيث لم تعد قضية المبادئ محل نظر ومناقشة، وتكاد تكون من المسلمات.

ومع اعتقادنا بأن الإنسان في عصور التخلف يصبح عاجزاً عن الإبصار السليم والإدراك الواعي لأبعاد القضية ـ والإحساس بالمشكلة شيء والإدراك لها والاهتداء إلىٰ المعالجة الصحيحة شيء آخر ـ ولو أدركها لاستطاع مجاوزة التخلف، فقد تكون الغاية من الحوارات والكتابات الإسلامية بعامة تلمُّس جوانب المشكلة والتبصير بها، لينبثق من خلال ذٰلك الجيل القادر علىٰ إدراك المشكلة، والاهتداء إلىٰ الحل، وتجاوز مرحلة التخلف، والمساهمة بصياغة التصور والفكر الجماعي أو الفقه الجماعي المؤسسي، وصب الجهد الفردي ـ أو الاجتهاد والفقه الفردي ـ في المصب المؤسسي العام، والاجتهاد في وضع البرامج التفصيلية المنضبطة بالقيم الإسلامية.

وقد تبدو الضرورة اليوم ـ أكثر من أي وقت مضىٰ ـ في أن يستمر هٰذا اللون من التأليف والتصنيف؛ شريطة أن يكون ضمن خطة محددة ومدروسة الأبعاد والآثار، تطرح القضايا الأساسية التي تعاني منها الأمة المسلمة علىٰ مستوياتها المختلفة، للوصول إلىٰ الرؤية المشتركة، واستطلاع الواقع الفكري والثقافي الذي يمنح المهتمين بالقضية الإسلامية التصور الذي يمكنهم من الحكم علىٰ المستجدات والمتغيرات، والاهتداء إلىٰ سبيل

الخروج من الأزمة وإصلاح الخلل، وتجنب العثرات التي لحقت ببعض التجارب في الماضي، ذٰلك أن هٰذا اللون من الشورىٰ واستطلاع الرأي، إضافة إلىٰ ضرورته لإزالة السدود النفسية بين المسلمين، والقضاء علىٰ نزعات التعصب والتحزب التي قد تحمي غير الأكفياء، وتسمح بنمو واستمرار بعض الأفكار المعوجة التي تعوزها المناقشة، وتحرم العمل من إمكانات مقدورة، فهو يضيف أعماراً إلىٰ عمرنا، وعقولاً ورؤًى إضافية إلى عقلنا، ويحقق لنا العبرة والدرس لمستقبل مسيرتنا.

وهنا قضية لا بد من الإشارة إليها وهي أن الذين يمتلكون الحق في المساهمة بهٰذا اللون من الحوار والاجتهاد والنظر، هم العلماء العدول الذين أخبر عنهم رسول الله ﷺ بقوله: **«يحمل هٰذا العلم من كل خلفٍ عدولُه، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»** لأنهم المؤهلون والقادرون علىٰ النظر والتقويم الذي يصوّب حركة الأمة، وليس مَن لا فقه لهم من المتعصبين وبعض الكتّاب وبعض الصحفيين الذين يقحمون أنفسهم في مثل هٰذه القضايا دون أن يمتلكوا البضاعة الكافية، والمؤهلات الشرعية المطلوبة، لأنهم بذٰلك يزيدون الأمر خبالاً، مهما حملت عناوين كتاباتهم من الإثارة الصحفية، وأغرت جماهير المسلمين بقراءتها.

ولنا في سيرة سلفنا الصالح، وميراثنا الثقافي في فترات التألق والإبداع خير مثال يحتذىٰ، فقد كان كسبهم الاجتهادي في إطار التنوع والتعدد والإخصاب والتعاون، ولم يكن مجالاً للصراع والاختلاف والافتراق والتضاد، وما المذاهب الفقهية الاجتهادية في حقيقتها إلا مدارس فكرية متنوعة، بذل أصحابها جهدهم للوصول إلىٰ الحكم الشرعي مستنبطاً من الكتاب والسنّة، وإن انتهت علىٰ يد بعض أتباعها من المقلدة والعوام ممن لا فقه لهم إلىٰ لون من الانغلاق والتحزب والتعصب، والبُعد عن روح الحوار وأدب الاختلاف. وقد لا تكون الإصابة بالنسبة للعقل المسلم في إغلاق باب الاجتهاد فقط، ومصادرة أي تفكير أو اجتهاد جديد، وإنما في التعصب المذهبي الذي يعني ـ فيما يعني ـ حرمان المسلم من أكثر من تسعة أعشار ميراثه الفكري.

هجوم علىٰ الدعاة:

ومع اعترافنا بضرورة الاجتهاد في تقديم البرامج وإيجاد الحلول للمشكلات التي تعاني منها الأمة الإسلامية علىٰ مختلف الأصعدة، وأهمية النزول إلىٰ الميدان، واكتساب فقه الحركة، والتعرف علىٰ واقع الناس، وعدم الاكتفاء بالحديث العام عن المبادئ والقيم الإسلامية التي أصبحت من المسلمات كما أسلفنا، ذٰلك أن الاستمرار في الحديث عن المبادئ العامة في الخطب والأحاديث ووسائل الإعلام ودروس الوعظ، بعيداً عن معاناة الأمة، وتقديم الحلول الإسلامية لها، يخشىٰ أن يساهم سلبياً في التقليل من قيمة هٰذه المبادئ وقدرتها علىٰ الإنقاذ للواقع، ومن ثم العزوف عنها بحجة أنها مثالية غير قابلة للتطبيق، وعلىٰ الرغم من أن الكثير من هٰذه المشكلات جاء نتيجة لتطبيق أنظمة غير إسلامية؛ إلا أن المسلمين بحاجة دائمة لمعرفة كيفية التعامل مع هٰذه المشكلات من المنظور الإسلامي - ريثما تتاح لهم الفرصة ليأخذوا أنفسهم بالإسلام كاملاً - وهنا حقيقة لا بد من أن نتوقف عندها:

لقد كثر في الفترات الأخيرة الهجوم علىٰ دعاة الإسلام ونقد أهل الصحوة الإسلامية، واتهامهم بأنهم يفتقدون الخطط والبرامج التي تنظم شؤون المجتمع والدولة بمؤسساتها المختلفة، وأنهم ينطلقون من فراغ ومن تعميمات لم تعد صالحة لحكم الحياة وتنظيم شؤونها، إلىٰ آخر هٰذه النغمة التي لا يزال أصحابها يبدئون فيها ويعيدون، والسؤال المطروح علىٰ هٰؤلاء الذين يدّعون العلمية، ويتصنعون الموضوعية والانفتاح علىٰ الثقافات العالمية - إلا الثقافة الإسلامية طبعاً - ويعلنون الغيرة علىٰ مصلحة الأمة ومستقبلها:

أين برامجهم وخططهم الذاتية التي يتقدمون بها لحل مشكلات الأمة والنهوض بها من وهدة التخلف؟ اللهم لا جواب، إلا إذا كان الجواب هو المزيد من الاستيراد للبرامج التي لا تزال توقع الأمة بإشكالات، وتحول دون تحققها بالحلول الصحيحة، وحسبهم في ذٰلك معرة أنهم يقفون علىٰ أقدام غيرهم، ويعيشون حالة من الاغتراب لا يحسدون عليها، ويعجزون

عن توليد البرامج واستنباتها من خلال الشخصية الحضارية التاريخية وملاحظة المعادلة النفسية والإجتماعية للأمة. فهم يعيشون الاغتراب الحضاري والثقافي باسم الحداثة، وعذرهم أنهم لا يعرفون من الإسلام إلا بعض العموميات، ويفتقدون في سلوكهم لأبسط المعاني الإسلامية، إنهم وجدوا في الاستيراد البديل الأسهل، ظناً منهم أنه قادر علىٰ حل المشكلة، لٰكنه في الحقيقة والواقع لم يزدها إلا تعقيداً لأنه يقدّم الصورة ويسلب الحقيقة.

والمنتمون للإسلام الملتزمون به هم المهيَّؤون دون غيرهم لتقديم البرامج القادرة علىٰ استيعاب حركة المجتمع، بسبب رصيدهم الفقهي وميراثهم الثقافي وتجربتهم التاريخية، وصلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، لٰكن هٰذا الرصيد سوف ينقلب إلىٰ عبء إذا لم يتدارك المسلمون الأمر، ويستشرفوا آفاق المستقبل، وينزلوا إلىٰ الساحة، ويقدموا الاجتهاد المطلوب لحركة الحياة، ولا شك عندنا أن الفكر شرط الفاعلية والفعل وأن الفعل يستدعي الفكر، لذٰلك فإن عمليات التفاكر والحوار والفقه الميداني هي الطريق المأمون إلىٰ تحقيق الخصوبة المطلوبة والشرط الضروري للنهوض.

وسائل.. لا غايات:

ومع إيماننا بضرورة وجود النماذج الذين يتمثلون الإسلام ويجسدونه في حياتهم ويمثلون الطائفة القائمة علىٰ الحق، والخلف العدول الذين يحملون العلم ليكونوا محل الأسوة والقدوة للجيل، إلا أنه لا بد من إيضاح هٰذه النقطة، فمما لا شك فيه أن الأشخاص والأسماء والجماعات والجمعيات والحكومات إنما هي وسائل لتحقيق كسب أكبر للدعوة الإسلامية، وإثارة الاقتداء، والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ، والتدريب علىٰ المعاني والأخلاق الإسلامية، والخروج بالناس من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله. وليست غايات بحد ذاتها، ومن ثم فالعمل الإسلامي والدعوة إلىٰ الله والعاملون للإسلام ليسوا إقطاعات بشرية يمكن أن توظف لفلان هٰذا أو فلان ذاك؛ بل نستطيع أن نقول: بأن الإسلام أصرّ علىٰ ربط المسلم بالمنهج ولم يربطه بشخص، فالله سبحانه يقول:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ . . .﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقد قال أبو بكر ﷺ في أول قيادته لمجتمع المسلمين: «مَن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومَن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت»، وعدّ الرسول من السبعة الذين يُظلهم الله في ظله: «**ورجلان تحابّا في الله اجتمعا على ذٰلك وافترقا عليه**». وقد سئل سيدنا علي ﷺ عن أهل الحق وأهل الباطل ـ زمن الفتنة ـ فقال: «اعرف الحق تعرف أهله»، والمتأمل في القيم والحضارة الإسلامية، يرىٰ أنها اهتمت بمعاني البطولة وقدرتها، أكثر من اهتمامها بصفات البطل الخلقية، وحصر تلك المعاني في شخصه ليكون ذٰلك مجالاً للترقي وفي متناول الجميع، فإذا ذكر عمر ﷺ ذكر العدل، وإذا ذكر خالد ﷺ ذكرت الشجاعة والبلاء في سبيل الله، وما إلىٰ ذٰلك، علىٰ الرغم من ضرورة أن تتمثل معاني البطولة وتتجسد في أشخاص لتصبح قابلة للتطبيق، إلا أن الارتباط بالمنهج والمعنىٰ والحق هو الأساس، وليس الأشخاص ـ خاصة الأحياء منهم ـ الذين لا تؤمَن عليهم الفتنة والسقوط في الخطأ.

من حاجات الحركة الإسلامية:

والحركة الإسلامية اليوم، بعد هٰذه الإحباطات الكثيرة، بحاجة ـ فيما نحسب ـ إلىٰ العديد من الاجتهادات، والتعدد في وجهات النظر، لإغناء الرؤية، فلعل جيلاً طليعياً ينبثق من خلال هٰذه الاجتهادات الكثيرة، يهتدي إلىٰ سبيل الخروج من الأزمة، والخلاص من صور الإحباط المتعددة، ويحدد موطن الخلل، ويُصلح الأمور، ويكتشف طريق الصواب المفقود في معادلة المسلم المعاصر، حيث لا بد إلىٰ جانب الإخلاص للّه في العمل، من الصواب في الخطو، والبصيرة إلىٰ جانب البصر، والعقل إلىٰ جانب القلب، فقد سئل الفضيل بن عياض رحمه الله عن العمل الصالح فقال: أخلصه وأصوبه.

التجربة التاريخية:

وهنا ترد قضية نظن أنها علىٰ غاية من الأهمية، ولا بد من الإشارة

إليها، تجاه الواقع الذي تعيشه الدعوة الإسلامية المعاصرة، علىٰ تنوع مدارسها واختلاف وسائلها، وهي أن التجربة الإسلامية التاريخية غنية أيما غنًى بتنوع الوسائل، وتعدد المواقع في طريقها إلىٰ عملية التغيير المنشود، سواء أكان ذٰلك في فترة السيرة التي تعتبر البيان العملي، والصورة التطبيقية للرسالة، أم في حياة الصحابة ومسيرة التاريخ الإسلامي الطويلة.

حتىٰ ليمكننا القول: إن كل مدرسة من مدارس العمل الإسلامي اليوم قادرة علىٰ الاستدلال لصحة اختيارها ومنهجها من الكتاب والسنّة والسيرة العملية والتاريخ الإسلامي.

فالذي يرىٰ أن التربية والتعليم هما طريق التغيير، يجد لاختياره سنداً، فالرسول ﷺ يقول: «**إنما بُعثت معلماً**» وإن أول ما نزل من الوحي قوله تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [العلق] ويستطيع أن يدلّل لذٰلك من الواقع أن أية حركة سوف تكون عشواء وغير مؤتمنة دون علم وتربية.

والذي يستشعر آثار ومخاطر السلطان السياسي، وما يمتلك من وسائل قادرة علىٰ التغيير، وإعادة صياغة الجيل، ويستمع إلىٰ قول سيدنا عثمان ﷺ: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»، قد يرىٰ إرجاء عملية التربية، وينصرف همه إلىٰ إصلاح السلطان أو اكتساب السلطة، ولا يعوزه الاستدلال لما ذهب إليه اختياره.

والذي يرىٰ تكالب الأعداء، والتحديات الكبيرة التي تحيط بالمسلمين من كل جانب، وحركة رؤوس الكفر والضلال كيف تستهين بالإسلام وأهله، قد يختار طريق الجهاد والفداء، ويعتبر القعود عن الجهاد هو الذي حمل الذلة للمسلمين، وأنه لا مجال لإضاعة الوقت بأعمال ووسائل سوف يحبطها العدو في الوقت الذي يشاء لامتلاكه القوة، بإمكانه أيضاً الوقوف علىٰ الأدلة والشواهد، من خلال التجربة الإسلامية التاريخية.

وبعضهم يرىٰ: أن الاهتمام بأمور المسلمين وإقامة مؤسسات الرعاية الاجتماعية والتكافل الاجتماعي، كفيل بمعالجة الواقع الإسلامي.

وقد تشتد الفتن وتشتد، فيجنح فريق إلىٰ التزام نفسه، واعتزال الناس

والعض علىٰ جذع شجرة، والانسحاب من المجتمع بعيداً عن دراسة الظروف والملابسات بدقة، مستشهداً لذٰلك بآيات وأحاديث ووقائع وأدلة من التجربة الإسلامية التاريخية.

وقد لا يكون الوقوف علىٰ معرفة الدليل النظري من الكتاب والسنّة، أو الحدث والتطبيق العملي من السيرة والتاريخ وحده كافياً لاختيار وسيلة الدعوة، وطريقة التغيير الملائمة، حيث لا بد مع ذٰلك، من دراسة دقيقة ومتأنية، لأسباب نزول الآيات، وسبب ورود الحديث، إضافة إلىٰ دراسة شاملة للظروف والملابسات، التي أحاطت بالتطبيق، والمقايسة مع الواقع الذي نحن عليه، حتىٰ نتمكن من الاختيار الصائب، فالرسول ﷺ مكث في مكة ثلاث عشرة سنة، لم يكسر صنماً، لكنه بعد الفتح لم يدع الأصنام لحظة واحدة؛ بل كان كسر الأصنام أول عمل قام به. ولسنا هنا بسبيل الاستقصاء لوجهات النظر المتعددة، وإنما هي نماذج ونوافذ ووسائل للإيضاح فقط.

أبعاد الخطاب الإسلامي:

وقضية أخرىٰ، قد يكون من المفيد طرحها أيضاً، وهي أن الله سبحانه وتعالىٰ إنما تعبد الإنسان بوسعه واستطاعته، قال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].. والخطاب الإسلامي، والتطبيق العملي لهٰذا الخطاب يحمل من المرونة، والآفاق والأبعاد، والأمداء، ما يجعل المسلم مستطيعاً وقادراً علىٰ الفعل، والحركة، والاستجابة، والكسب الإسلامي في جميع الظروف والأحوال.. ذٰلك أن مدىٰ تحركه يبتدئ من قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل:١٠٦] في حالات الشدة والظلم ويتنامىٰ ذٰلك الكسب مستصحباً الاستطاعة حتىٰ يعم الحق، وتتحقق إنسانية الإنسان، وتتقرر حرية الاعتقاد، وتتوقف الفتنة والاضطهاد لقوله تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٣]... وعلىٰ هٰذا فالمسلم يمتلك الفاعلية، في الظروف كلها، ولا يفتقدها إلا عندما يحاصر نفسه بنفسه.

وهنا أمر، يمكن أن يُعتبر فرعاً من هٰذه القضية، ولا يخرج في

عمومه عن نطاق فهم أبعاد الخطاب الإسلامي، وربط مدىٰ الاستجابة له بالوسع والاستطاعة، ذٰلك أنه من المعلوم، أن من أحكام التكليف ما يقع ضمن استطاعة الفرد، وفي حدود مسؤوليته، ومنها ما يُناط بوجود الجماعة، كما أن هناك بعض الأحكام التكليفية يرتبطُ أمر إنفاذها بوجود الحكم والقضاء الإسلامي، والحاكم المسلم، كقضايا العقوبات من حدود وتعزيرات، وعقد المعاهدات، وقضايا السلم والحرب، وسائر السياسات العامة التي ترتبط بوجود السلطان.

والأمر المطروح والذي لا بد من إيضاحه: هل يحق للفرد المسلم في حال غياب السلطان الإسلامي، أن يعتبر من تكاليفه الشرعية، أن يتولىٰ دور السلطان ويمارس مسؤولياته، دون أن يمتلك مقومات السلطة؟ وما يمكن أن يترتب علىٰ ذٰلك من الفوضىٰ والمخاطر، الأمر الذي يستحيل معه الاعتقاد بأن هٰذا هو مقصد شرع الله وغاية تكليفه.

وقد تكون المشكلة كلها في فقه خطاب التكليف، صحيح أن خطاب التكليف عامّ للناس جميعاً، علىٰ مستوىٰ الفرد والجماعة والدولة، لٰكن يبقىٰ الأمر المطروح: ما هي حدود تكليف الفرد بالنسبة للخطاب المنوط بالسلطان؟ هل من مقتضىٰ تكليفه: قطع يد السارق وإنفاذ حد الحرابة.. إلخ، استجابة لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ...﴾ [المائدة:٣٨]؟ أو أن تكليفه يتحدد أصلاً ضمن ما يقع تحت مقدوره، وأن نصيبه من التكليف كفرد، ليس القيام بأعمال السلطان، وإنما العمل علىٰ إيجاد السلطان، الذي يناط به تنفيذ الأحكام، وبذٰلك يكون مشمولاً بخطاب التكليف وليس خارجاً عنه؟

نعود إلىٰ القول: بأن التجربة الإسلامية التاريخية ـ إن صحّ التعبير ـ غنية بالوسائل المتعددة للتغيير، من خلال الظروف والملابسات الكثيرة التي مرّت بالمسلمين. لٰكن يبقىٰ الأمر المطروح علىٰ العاملين ـ والإسلام خالد يستجيب لكل الظروف والأحوال ـ: ما هي الوسيلة المشروعة والمجدية أكثر؟ وكيف نختار الموقع الفاعل والمؤثر؟ من خلال الإمكانات المتاحة

والظروف المحيطة، مع عدم الإخلال بالتوازن، وضبط النسب، والاحتفاظ بالرؤية الشمولية للرسالة الإسلامية في الوقت نفسه.

إن هٰذا الموضع لا يزال في اعتقادنا يشكل أزمة العمل الإسلامي المعاصر، أو أزمة النخبة، كما أنه لا يزال مفقوداً وغائباً عن ساحات العمل، اللهم إلا بعض جوانب الكسب الإسلامي الذي لم يؤثر بعد بشكل واضح علىٰ المجرىٰ العام للذهنية الإسلامية.

فلا ندّعي لوجهة نظرنا هٰذه الكمال، وإنما هي محاولة، وخطوة علىٰ الطريق يعوزها التواصل المستمر، القصد منها إلغاء الحواجز الفكرية، وإزالة السدود النفسية بين الدعاة إلىٰ الله، وتحطيم الأسوار الحزبية التي قد تحمي غير الأكفياء، وتحرم العمل من إمكانات مقدورة، وتحقيق التعارف عن قرب بحيث تصبح مدارس العمل الإسلامي المتنوعة حواس متعددة للعقل الإسلامي الواحد، وأجهزة متعددة لوظائف الجسم الإسلامي، الذي يشد بعضه بعضاً.



الغلو والتطرف بين التهويل والتهوين

الأمر الملفت أن اصطلاح «التطرف الديني» استعمل أول ما استعمل في «إسرائيل» عندما بدأ الشباب المسلم في الأرض المحتلة يعي ذاته، ويتعرف إلىٰ طريقه بعد أن أخفقت التجمعات كلها، وسقطت الشعارات جميعها، وعجزت عن أن تقدم شيئاً للقضية.

لقد أصبح ما أسمي بـ«التطرف الديني» قضية باتت تشغل بال الغيورين علىٰ هٰذه الأمة، وما يدبَّر لها من مكائد الأعداء ومكرهم لإبادة الجيل المسلم، ومصطلحاً شائع الاستخدام علىٰ ألسنة الناس وفي وسائل الإعلام، جنّد لتأكيده الكثير من الكتّاب والصحفيين والدبلوماسيين والسياسيين، ولا يخرج في حقيقته عن أن يكون من صنع أعداء الإسلام الذين يعمدون إلىٰ بعض المظاهر الشاذة فيضعونها تحت المجاهر، يوجهون إليها الأنظار، ويغرون بها الحكام والمتنفذين. وكثيراً ما استخدم هٰذا المصطلح، ولا يزال يستخدم بهدف إيجاد حالة من الرعب والإرهاب الفكري لشل حركة الدعوة إلىٰ الله، والتشكيك بوسائلها، وإحاطتها بجو من الإرهاب لتحنيطها وتعطيل مسارها، والدعوة الإسلامية تخضع لمعايير منضبطة ووسائل مشروعة من الله ﷻ لا يد للإنسان فيها.

والأمر الملفت للنظر أن هٰذا الاصطلاح استعمل أول ما استعمل في «إسرائيل» عندما بدأ الشباب المسلم في الأرض المحتلة يعي ذاته، ويتعرف إلىٰ طريقه بعد أن أخفقت التجمعات كلها، وسقطت الشعارات جميعها، وعجزت عن أن تقدم شيئاً للقضية.

هٰذه الشعارات التي لم تخرج في حقيقتها عن أن تكون وسيلة من وسائل يهود لامتصاص النقمة، وتنفيس الطاقات للحيلولة دون انفجارها، والتسلل من خلالها إلىٰ العالم الإسلامي، من هنا بدأت توجهات الشباب من جديد لتلمس الشخصية الحضارية للأمة والعودة إلىٰ الإسلام.. درع وقايته، وعدة كفاحه، والاحتماء بالمسجد حصن ثقافته..

ولم تخفِ إسرائيل خوفها وتخويفها من عودة المتطرفين المسلمين وخطورة ذٰلك علىٰ كيانها، والعمل بكل وسيلة للقضاء علىٰ الصوت الإسلامي في كل مكان.

من علل التديُّن:

ولا شك أن الإسلام دين التوسط والاعتدال، وأن الغلو والتطرف والانحراف أمر مرفوض شرعاً مهما كانت الأسباب والمسوغات، وليس من الإسلام في شيء. والغلو في الدين ظاهرة أصيب بها أتباع الأديان السابقة، وكانت سبب هلاكهم ودمارهم، وهي من علل التدين التي قصّها الله علينا ليحذّرنا منها، فلا نقع بما وقع به غيرنا من الغلو والتطرف والتحريف والتأويل الفاسد والتدين المغشوش، ونحن لا ننكر أن الغلو والتطرف يمكن أن يتسرب إلىٰ بعض جوانب الحياة الإسلامية، ومن السهل علىٰ الناظر في التاريخ الإسلامي أن يرىٰ ألواناً من التطرف والغلو، وأن يتعرف أن فترات الرفض والتطرف والخروج هي رؤوس الفتن ذات النقاط السود في تاريخنا، التي أنهكت الأمة، وشلّت قواها، وشغلتها عن عدوها ومتابعة أداء رسالتها الإنسانية، لٰكن المشروعية العليا في حياة المسلمين كانت دائماً للكتاب والسنّة، وهما المعيار الدقيق والمقياس المنضبط الذي يجب أن يحكم الأمور.

قال رسول الله ﷺ: **«كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد»**.

والمشكلة الخطيرة في معظم الكتابات السابقة عن ما أسمي بظاهرة التطرف، أنها اكتفت بمعالجة آثاره الظاهرة وأهملت البحث في أسبابها؛ إلّا بعض لمسات خفيفة قد لا تسمن ولا تغني من جوع.

والأخطر من ذلك أيضاً، أن معظم هٰذه الكتابات شاركت فيها أقلام يعوزها الكثير من العلم، ويفتقر أصحابها إلىٰ الحد الأدنىٰ من السلوك الإسلامي، لذلك كان لا بد من تنقية الواقع الثقافي لبعض جوانب العمل الإسلامي، وتصويب التصور وتصحيحه الذي يمكن أن يكون قد شابه شيء بسبب من ردود الفعل، والأخذ بيد الجيل المسلم وترشيده لالتزام المقياس الإسلامي في الحكم علىٰ الأشياء وكيفية التعامل معها.

لقد أصبح هٰذا الأمر ضرورة شرعية ومسؤولية دينية علىٰ العلماء العاملين العدول الذين أخبر رسول الله ﷺ عنهم بقوله: «**يحمل هٰذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**».

يقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة] فقضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما هو معلوم حق من حقوق الموالاة في الإسلام.



خُلق المعرفة وأدب الاختلاف

لعل مرد معظم خلافاتنا اليوم إلىٰ عوج في الفهم تورثه علل النفوس من الكبر والعجب بالرأي، والطواف حول الذات والافتتان بها، واعتقاد أن الصواب والزعامة وبناء الكيان إنما يكون باتهام الآخرين بالحق والباطل. . .

لقد أصبحت الحاجة ماسة إلىٰ قيام مجموعة من المحاولات والمساهمات لرأب الصدوع في البناء الإسلامي، ومعالجة جذور الأزمة الفكرية التي أورثتنا الخلاف والتآكل الداخلي، وإيقاظ البُعد الإيماني في نفوس المسلمين بعد أن كاد يغيب عن حكم علاقاتنا وتوجيهها الوجهة الصحيحة بسبب من الفهم المعوج والممارسات المخطئة ومن ضغوط المجتمعات غير الإسلامية، ذٰلك أن حضور البُعد الإيماني وتحقق الفهم السليم هو الضمانة الحقيقية لشرعية علاقاتنا، والملاذ الأخير لتصفية خلافاتنا ونزع أغلال قلوبنا، فقد يكون نصيبنا من العلم والمعرفة ليس بالقليل. لٰكن المشكلة التي نعاني منها اليوم أننا افتقدنا الموجّه الصحيح والمؤشر الضروري الذي يمنحنا السلامة ويُكسبنا الصواب لهٰذا العلم وتلك المعرفة؛ إننا اكتسبنا المعرفة وافتقدنا خُلُقها، وامتلكنا الوسيلة وضيّعنا الهدف والغاية، وما أكثر ما فوتت علينا خلافاتنا حول مندوب أو مباح أمراً مفروضاً أو واجباً، لقد أتقنا فن الاختلاف وافتقدنا آدابه والالتزام بأخلاقياته، فكان أن سقطنا فريسة التآكل الداخلي والتنازع الذي أورثنا هٰذه الحياة الفاشلة وأدىٰ إلىٰ ذهاب الريح، قال تعالىٰ:

﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ولقد حذّرنا الله تعالىٰ من السقوط في علل أهل الأديان السابقة، وقصَّ علينا تاريخهم للعبرة والحذر، فقال:

﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٣٢﴾ [الروم].

واعتبر الاختلاف الذي يسبب الافتراق والتمزق ابتعاداً عن أي هدي للنبوة أو انتساب لرسولها ﷺ حين قال تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ ..﴾ [الأنعام: ١٥٩].

ذٰلك أن أهل الكتاب لم يُؤْتَوْا من قلة علم وضآلة معرفة، وإنما كان هلاكهم لأنهم وظّفوا ما عندهم من علوم ومعارف للبغي بينهم، قال تعالىٰ:

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ ...﴾ [آل عمران: ١٩].

فهل ورثنا علل أهل الكتاب بدل أن نرث الكتاب؟

وهل ورثنا البغي بدل أن نرث العلم والمعرفة ونلتزم بأخلاقهما؟

إن الاختلاف والبغي وتفريق الدين من علل أهل الكتاب التي كانت سبباً في هلاكهم ونسخ أديانهم وبقاء قصصهم وسائل إيضاح للدرس والعبرة لمَن ورثوا الكتاب والنبوة، ذٰلك أنه لا سبيل للاستبدال والنسخ في عالم المسلمين، وهم أصحاب الرسالة الخاتمة، وإنما هي الأمراض التي لا تقضي علىٰ الجسم نهائياً، فإمّا أن تستمر فتعيش الأمة حالة الوهن الدائب، وإما أن تُعَالَجَ فيكون التصويب، وتكون المعافاة، ويكون النهوض وإيقاف التآكل الداخلي، وهٰذا من خصائص الرسالة الخاتمة.

أمراض وأعراض:

إن ما يعانيه عالم المسلمين اليوم، لا يخرج عن أن يكون أعراضاً للمشكلة الثقافية وخللاً في البنية الفكرية التي يعيشها العقل المسلم، وآثاراً

للأزمة الأخلاقية التي يعاني منها السلوك المسلم، وما من سبيل إلىٰ خروج؛ إلّا بمعالجة جذور الأزمة الفكرية وتصويب الفهم وإعادة صياغة السلوك الخُلُقي، كضمانة ضرورية؛ وإلّا كنّا كالذي يضرب في حديد بارد.

ولا شك أن الاختلاف في وجهات النظر وتقدير الأشياء والحكم عليها أمر فطري طبيعي، له علاقة بالفروق الفردية إلىٰ حد بعيد، إذ يستحيل بناء الحياة وقيام شبكة العلاقات الاجتماعية بين الناس أصحاب القدرات الواحدة والنمطية الواحدة، ذٰلك أن الأعمال الذهنية والعملية تتطلب مهارات متفاوتة، وكأن حكمة الله تعالىٰ اقتضت أن يكون بين الناس بفروقهم الفردية ـ سواء أكانت خَلْقِيةً أم مكتسبة ـ وبين الأعمال في الحياة تواعدٌ والتقاء، وكل ميسر لما خُلق له، وعلىٰ ذٰلك فالناس مختلفون، والمؤمنون درجات، فمنهم الظالم لنفسه، ومنهم المقتصد، ومنهم السابق بالخيرات.. إلخ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود].

من هنا نقول: إن الاختلاف بوجهات النظر بدل أن يكون ظاهرة صحة تغني العقل المسلم بخصوبة في الرأي، والاطلاع علىٰ عدد من وجهات النظر، ورؤية الأمور من أبعادها وزواياها كلها، وإضافة عقول إلىٰ عقل، انقلب عند مسلم عصر التخلف إلىٰ وسيلة للتآكل الداخلي والإنهاك، وفرصة للاقتتال، حتىٰ كاد الأمر أن يصل ببعض المختلفين إلىٰ حد التصفية الجسدية، وإلىٰ الاستنصار والتقوّي بأعداء الدين علىٰ صاحب الرأي المخالف، ولهٰذا في التاريخ القريب والبعيد شواهد، فكثيراً ما يعجز الإنسان عن النظرة الكلية السوية للأمور، والرؤية الشاملة للأبعاد المتعددة فيقبع وراء جزئية يضخمها ويكبرها حتىٰ تستغرقه إلىٰ درجة لا يمكن معها أن يرىٰ شيئاً أو إنساناً آخر، وقد تصل به إلىٰ أن يرىٰ ـ بمقايسات محزنة ـ أعداء الدين أقرب إليه من المخالفين له بالرأي من المسلمين الذين يلتقون معه علىٰ أصول العقيدة نفسها.

ولعل في الحادثة التاريخية الشهيرة ـ ذرّ الاختلاف بقرنه، وفقد آدابه، وفرقت بعض طوائف الأمة المسلمة دينها الجامع ـ ما يلقي بعض الأضواء التي قد تكون ذات مغزًى لحياتنا اليوم إلىٰ حد بعيد...

«يروىٰ أن واصل بن عطاء أقبل في رفقة فأحسوا الخوارج، فقال واصل لأهل الرفقة: إن هٰذا ليس من شأنكم، فاعتزلوا ودعوني وإياهم، وكانوا قد أشرفوا علىٰ العطب. فقالوا: شأنك. فخرج إليهم، فقالوا: ما أنت وأصحابك؟ قال: مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله ويعرفوا حدوده. فقالوا: قد أجرناكم، قال: فعلِّمونا. فجعلوا يعلِّمونه أحكامهم، وجعل يقول: قد قبلت أنا ومَن معي. قالوا: فامضوا مصاحبين فإنكم إخواننا. قال: ليس ذٰلك لكم، قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة:٦] فأبلغونا مأمننا، فنظر بعضهم إلىٰ بعض ثم قالوا: ذاك لكم. فساروا بأجمعهم حتىٰ بلغوا المأمون»[١].

لقد وصلت حدة الاختلاف إلىٰ مرحلة أصبح المشرك معها يأمن علىٰ نفسه عند بعض الفرق الإسلامية التي ترىٰ أنها علىٰ الحق المحض أكثر من المسلم المخالف لها بوجهة النظر والاجتهاد، حيث أصبح لا سبيل معها للخلاص من التصفية الجسدية؛ إلّا بإظهار صفة الشرك!!

إنه الاختلاف الذي يتطور ويتطور وتتعمق أخاديده فيسيطر علىٰ الشخص ويتملك عليه حواسه إلىٰ درجة ينسىٰ معها المعاني الجامعة والصعيد المشترك الذي يلتقي عليه المسلمون، ويعدم صاحبه الإبصار؛ إلّا للمواطن التي تختلف فيها وجهات النظر، وتغيب عنه أبجديات الخُلُق الإسلامي، فتضطرب الموازين، وينقلب عنده الظني إلىٰ قطعي، والمتشابه إلىٰ محكم، وخفيُّ الدلالة إلىٰ واضح الدلالة، والعام إلىٰ خاص، وتستهوي النفوسَ العليلَة مواطنُ الخلاف، فتسقط في هاوية تكفير المسلمين، وتفضيل غيرهم من المشركين عليهم...

الاجتهاد.. والتحزُّب الفكري:

وقد تنقلب الآراء الاجتهادية والمدارسة الفقهية التي محلها أهل النظر

(١) «الكامل في اللغة والأدب» للمبرد: (١٢٢/٢).

والاجتهاد، علىٰ أيدي المقلدين والأتباع، إلىٰ ضرب من التحزُّب الفكري، والتعصُّب السياسي، والتخريب الاجتماعي تُؤَوَّلُ علىٰ ضوئه آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ، فتصبح كل آية أو حديث لا توافق هٰذا اللون من التحزُّب الفكري إمّا مؤوّلة أو منسوخة، وقد يشتد التعصُّب ويشتد فتعود إلينا مقولة الجاهلية: «كذَّاب ربيعة أفضل من صادق مضر...».

ولعل مرد معظم اختلافاتنا اليوم إلىٰ عوج في الفهم تورثه علل النفوس من الكبر والعجب بالرأي، والطواف حول الذات والافتتان بها، واعتقاد أن الصواب والزعامة وبناء الكيان إنما يكون باتهام الآخرين بالحق وبالباطل، الأمر الذي قد يتطور حتىٰ يصل إلىٰ الفجور في الخصومة والعياذ بالله تعالىٰ.

إننا قلما ننظر إلىٰ الداخل، لأن الانشغال بعيوب الناس، والتشهير بها، والإسقاط عليها، لم يدع لنا فرصة التأمُّل في بنائنا الداخلي، والأثر يقول: «طوبىٰ لمَن شغله عيبه عن عيوب النّاس».

لقد اختلف السلف الصالح رضوان الله عليهم، لٰكن اختلافهم في الرأي لم يكن سبباً لافتراقهم، إنهم اختلفوا لٰكنهم لم يتفرقوا، لأن وحدة القلوب كانت أكبر من أن ينال منها شيء، إنهم تخلصوا من العلل النفسية وإن أصيب بعضهم بخطأ الجوارح، وكان الرجل الذي بشّر الرسول ﷺ الصحابةَ بطلعته عليهم وأخبرهم أنه من أهل الجنة، هو الذي استكنهوا أمره وعمله، فتبين أنه لا ينام وفي قلبه غل علىٰ مسلم...

أما نحن اليوم فمصيبتنا في نفوسنا وقلوبنا، لذٰلك فإن معظم مظاهر التوحد والدعوة إليه والانتصار له، إنما هي عبارة عن مخادعة للنفس، ومظاهر خارجية قد لا نختلف فيها كثيراً عن غيرنا والله تعالىٰ يقول: ﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠] فالعالم الإسلامي بعد أن كان دولة واحدة تدين بالمشروعية العليا لكتاب الله تعالىٰ وسنّة رسوله، أصبح اليوم سبعاً وثمانين دويلة أو يزيد، والاختلافات بينهم لا يعلم مداها إلّا الله، وكلها ترفع شعارات الوحدة، بل قد توجد ضمن الدولة الواحدة كيانات

عدة. وليس واقع بعض العاملين للإسلام اليوم ـ الذين تناط بهم مهمة الإنقاذ ـ أحسن حالاً من مؤسساتهم الرسمية...

إن أزمتنا أزمة فكر، ومشكلتنا في عدم صدق الانتماء، والأمة المسلمة عندما سلم لها عالم أفكارها، وكانت المشروعية العليا الأساسية في حياتها للكتاب والسنّة، استطاعت أن تحمل رسالة، وتقيم حضارة، علىٰ الرغم من شظف العيش وقسوة الظروف المادية، فكان مع العسر يسر... ذٰلك أن الحيدة عن الكتاب والسنّة موقعٌ في التنازع والفشل، قال تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ...﴾ [الأنفال: ٤٦]. لقد أوقف الإسلام التشرذم والتآكل الداخلي، ووجه العرب وجهة الإلٰه الواحد الحق وألغىٰ الآلهة المزيفة حيث كان لكل قبيلة إلٰهها الذي تتجه إليه.

أما المسلمون اليوم في مواقعهم الكثيرة، فإنهم لا يشكون من قلة المادة وتوفر الأشياء، ومع ذٰلك انقلبوا إلىٰ أمة مستهلكة علىٰ مستوىٰ الأفكار والأشياء معاً، لأنهم افتقدوا المعاني الجامعة والقواسم المشتركة، وغابت عنهم المشروعية الكبرىٰ في حياتهم، وأصاب الخلل بنيتهم الفكرية.

العودة إلىٰ الأصول:

من هنا نقول: لا بد من إعادة الصياغة، وإعادة الترتيب المفقود لفكر المسلم، ولا سبيل إلىٰ ذٰلك؛ إلّا بالرجوع إلىٰ كتب الأصول، حيث وضع علماؤنا الضوابط والقواعد للمقايسة والاستنتاج لضبط الرأي وضمان مساره، واقترن العلم عندهم بأخلاقه... وتنمية الدراسات التي تؤكد وحدة الأمة وقواسمها المشتركة، والمنهج التربوي الذي يسلّحها بأخلاق المعرفة، وإبراز النقاط الجامعة واعتبار فترات الرفض والخروج وكتب الخلافيات حالات مرضية لا يعتد بها.

ونقول: بأنه لا بد من إغناء هٰذا الموضوع الهام والخطير، حيث يبصِّرُ المثقف المسلم بشكل عام بشيء من مناهج العلماء في الاستنباط،

وبالأصول التي بنىٰ عليها هٰؤلاء العلماء اجتهاداتهم ومُبتنىٰ اختلافاتهم، وتقديم نماذج علىٰ أرفع المستويات من سيرة السلف الصالح للاقتداء والتأسّي قبل أن تنقلب المدارس الاجتهادية علىٰ أيدي المقلدة مذاهب سياسية وتحزبات فكرية، وذٰلك ليُعلم أن الاختلافات إنما تحكمها ضوابط وقواعد وأصول لا يُحسنها كل مَن أراد التطاول علىٰ الاجتهاد دون امتلاك أداته، وتنتظمها أخلاق وآداب، ويحفظها من الجنوح والخروج وازع ديني..



نوافذ على حاضر العالم الإسلامي

أفريقيا.. وغيابُ العمل الإسلامي المدروس

إن معظم مصادرنا للمعلومات والإحصاءات السكانية عن أفريقيا، ودليلنا إلىٰ معرفة العبادات والعادات القبلية تكاد تكون كنسية محضة.. ولا تزال الخارطة الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية لأفريقيا، غائبة عن المسلمين بشكل عام.

لا بد لنا من الاعتراف بالتخلف المخجل في مجال الدراسات الاجتماعية، وحسبنا في ذٰلك معرّةً أن تكون دراسات غير المسلمين عن حاضر العالم الإسلامي هي التي تغطي الجانب الكبير من مصادرنا للمعلومات، ودليلنا إلىٰ المعرفة..

أما بالنسبة لأفريقيا بالذات ـ التي نزعم أنها القارة المسلمة ـ فمعظم مصادرنا للمعلومات والإحصاءات السكانية، ودليلنا إلىٰ معرفة العبادات والعادات القبلية تكاد تكون كنسية محضة، في الوقت الذي لا يزال كثير منّا لا يرىٰ آفاقاً للعمل الإسلامي؛ إلّا بالوقوف طوابير أمام الأبواب المغلقة والجدران المسدودة.

ونكاد نقول هنا: بأنّ هٰذا الواقع البائس الذي نحن عليه، وهٰذه الإحباطات المستمرة التي نعاني منها إنما جاءت نتيجة لعدم وجود الدراسات المتأنية والدقيقة لعالم المسلمين وقضايا العالم بشكل عام، ذٰلك أننا نحاول التحرك في عالم لا ندرك أبعاده تمام الإدراك علىٰ أحسن الأحوال، وكثيراً ما تكون انتصاراتنا لقضايا كثيرة انتصارات عاطفية بعيدة عن أية معرفة وبصيرة، وحسبنا هنا أن نأتي بأنموذج واحد من عمل غير

المسلمين إلىٰ جانب مئات النماذج والألوف من الدراسات التي تتعهدها الدول أحياناً، وتستقل بها بعض المعاهد والمؤسسات الخاصة المتخصصة أحياناً أخرىٰ؛ ففي دراسة إحصائية حول الأديان أصدرت جامعة «أوكسفورد» موسوعة أسهم فيها أكثر من خمسمائة خبير في الأديان، تجوّلوا في مائتين واثنتي عشرة دولة ومقاطعة في العالم لأخذ العينات وإجراء الدراسات الإحصائية، واستمر هٰؤلاء الخبراء في العمل حوالي أربع عشرة سنة متواصلة، وكان مما جاء في هٰذه الدراسة أن الدوائر الكنسية قلقة جداً من ظاهرة المدّ الإسلامي في القارة الأفريقية، إذ أن الإسلام ينتشر فيها بسرعة مذهلة، وقد بلغ معدّل نمو الدين الإسلامي ٢٣٥٪، وينبع التخوف الكنسي من ظاهرة المدّ الإسلامي في أفريقيا من إدراك الأعداء أن الإسلام يلقىٰ قبولاً سريعاً لدىٰ الإنسان الأفريقي، لأنه دين الفطرة الذي جاء بالمساواة وإلحاق الرحمة بالناس، بعيداً عن التمييز العنصري وأوضار الاستعمار اللذين ترافقا مع الوجود النصراني.

والحقيقة أنّ الخارطة الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية لأفريقيا بالشكل المطلوب لا تزال غائبة عن المسلمين بشكل عام، وعن المؤسسات والجمعيات والجماعات المعنية بشؤون الدعوة الإسلامية بشكل خاص. ولقد آن الأوان لتأخذ وسائلنا في العمل الإسلامي شكلاً مدروساً يأتي استجابة لرؤية صحيحة عن الواقع الذي نتعامل معه، وقد يكون من الأمور المؤسفة أن الكثير من الدراسات والتقارير التي تقدّم عن أفريقيا ـ والتي نحاول فيها تقليد أعداء الإسلام ـ تحفظ في الأدراج، ويلفّها الإهمال والنسيان، ولا تجد طريقها إلىٰ التحليل والدراسة، ومن ثم وضع الخطط علىٰ ضوئها. ومع ذٰلك نبكي علىٰ ضياع أفريقيا بين الأطماع الاستعمارية والمؤسسات التنصيرية والاستلاب الصهيوني.

ولعلّ من أبسط متطلبات الدعوة إلىٰ الإسلام اليوم في أفريقيا وفي العالم بأسره: تشكيل الأقسام واللجان المتخصصة بقضايا أفريقية ونكاد نقول: تشكيل اللجان المتخصصة بكل دولة من دولها؛ بل بكل قبيلة من قبائلها لتُعِد الدراسات الدقيقة، وتضع دليل العمل الذي يمكّن من فهم طبيعة

الإنسان المخاطب، وذلك بدراسة الخلفية التاريخية لثقافته وعقيدته واهتماماته، واستحضار تاريخه بشكل عام، حتىٰ نتمكن من معرفة المداخل الصحيحة لشخصيته، وحتىٰ يأتي الكلام مطابقاً لمقتضىٰ الحال، وحتىٰ نخاطب الناس علىٰ قدر عقولهم، كما يقولُ سيدنا علي ﷺ، خشية أن يفتتن الناس ويكذِّب الله ﷻ ورسوله ﷺ: «خاطبوا النّاس علىٰ قدر عقولهم، أتحبون أن يكذِّب الله ورسوله؟!» وكم أسفت أثناء زيارتي لبعض المؤسسات المعنية بشؤون الدعوة في غربي أفريقيا عندما طلبت إليها إطلاعي علىٰ ما لديها من دراسات أستطيع بواسطتها الإفادة من الزمن المقرر للزيارة والدخول إلىٰ تلك البلاد من الأبواب الصحيحة، فلم أظفر بأكثر من ملاحظات عامة قد يمتلكها عامة المسلمين لا تسمن ولا تغني من جوع، حيث لم تقدم لي جديداً.

من مسالك الأعداء:

وقد يكون مفيداً هنا، أن نأتي علىٰ ذكر بعض النماذج من مسالك أعدائنا في هٰذا المجال... فإلىٰ جانب الدراسات والبحوث كلها وعمليات المسح الاجتماعي والتحليل الثقافي الموجهة التي قدمتها الكنيسة ومن ورائها الاستعمار عن أفريقيا، والتي تعتبر إلىٰ حدٍّ بعيد دليلَ عملٍ لكل مَن يفكر بالتعامل مع هٰذه القارة التي يُعاد تشكيلها من جديد، فإنّ هناك دورات تدريبية لمدة أربعة أشهر أو سنة تقام في معظم الدول الاستعمارية خاصة الولايات المتحدة، تدرب فيها العناصر المهيأة للذهاب إلىٰ أفريقيا، وتزود بكل المعرفة المطلوبة حول المناخ والبيئة، وحول السكان وطبائعهم وعقائدهم ولهجاتهم المحلية، وما يثيرهم وما يرضيهم، ومن ثم يسافر المبعوث إلىٰ هناك، ويختص بمعايشة قبيلة، والانتساب إليها، وحمل اسمها، والحياة معها، والحديث بلهجتها المحلية، وكأنه جزء منها، ومن ثم يكون قادراً علىٰ أداء رسالته التي جاء من أجلها، ويقدم دراسات تعتبر إضافة حقيقية لعمل مَن سبقوه في هٰذا المجال.

وفي محاولة لإلغاء كل نسب بين أفريقيا والإسلام تكرس اللهجات

المحلية، وتوضع لها أبجديات بالحروف اللاتينية بعد أن أُلغي الحرف العربي ـ كما هو الشأن في تركيا والملايو وغيرهما من بلاد المسلمين ـ وتصنف المعاجم، ويوفر المستعمر المتخصصين ويقيم مخابر لتطوير اللغات المحلية المتعددة وتأصيلها، ومن المفارقات العجيبة أن تكون لغة المستعمر ـ الفرنسية ـ هي اللغة الرسمية في السنغال وفي بقية الدول الأفريقية التي كانت تخضع لهٰذا الاستعمار، في الوقت الذي تحرم فيه العربية وحرفها، وهي لغة العقيدة والدين لشعب السنغال، وعدد المسلمين فيه يربو علىٰ ٩٥٪ من مجموعه، والسنغال قديم عهد بالإسلام منذ أن انطلقت منه حركة المرابطين من ألف سنة تقريباً.

ولٰكن، رُبّ ضارة نافعة ـ كما يقولون ـ ذٰلك أنّ التحدي الثقافي والضربات الموجعة أسهمت إلىٰ حدّ بعيد بيقظة الأُمة، وأعطت حركة المدّ الإسلامي زخماً جديداً بعد أن استشعرت هٰذا التحدي، فقامت المدارس العربية الإسلامية التي تعتبر بحق حصون الإسلام ولغة التنزيل، ولقد أثبتت وجودها حتىٰ علىٰ المستوىٰ الرسمي.

إسلام أفريقي:

وأمر آخر لا يقل خطورة عن أمر اللغة، وإنما هو مكمل لها، وقد ركزه المستعمر علىٰ يد بعض الأفارقة أنفسهم، وهو الدعوة إلىٰ الإسلام الأسود، ليكون إسلاماً خاصًا بالأفريقي، ولقد تركزت هٰذه الدعوة في السنغال، وأمر التركيز علىٰ السنغال ليس خافياً علىٰ أحد، لما يتمتع به من الموقع والتأثير علىٰ غربي أفريقيا خاصة وعلىٰ سائر أفريقيا عامة، يقول «بول مارثي»: (إنّ ثوب الإسلام أيًا كانت بساطته ولياقته، لم يفصّل للسود، فهٰؤلاء يفصّلونه من جديد لمقاييسهم، ويزينونه حسب ذوقهم.. إنّ الإسلام الأسود بحكم اختلاف البيئة والمحيط الاجتماعي مغاير لإسلام العرب).

وقد ألّف «فينسان مونتي» كتاباً في الستينيات تحت عنوان: «الإسلام الأسود» هٰذا إلىٰ جانب الدعوات إلىٰ الإقليمية الي تحاول تسوية النصرانية

بالإسلام، واعتبار كل منهما ديناً طارئاً علىٰ أفريقيا، والدعوة إلىٰ العودة بالأفارقة إلىٰ أديانهم القديمة.

ومحاولة الانحراف بالإسلام من داخله عند العجز عن مواجهته ليست جديدة ولا مبتدعة، وما الأفاعيل التي دبِّرت لحركة المسلمين السود في الولايات المتحدة عنّا ببعيد، ومع أن الإسلام في أفريقيا بخير، والمسلمين يكافحون بوسائلهم البسيطة، ويواجهون أعظم التحديات المزوّدة بأكبر الإمكانات والدراسات المتقدمة حيث يصدق فيهم قول الرسول ﷺ: «**درهم سبق ألف درهم**»؛ إلّا أنّ ضرورة الالتفات إلىٰ أفريقيا بشكل سليم ومدروس أصبح أمراً لا يحتمل التأخير، وقد يكون المطلوب مزيداً من الدراية وفقه المجتمع ومشكلاته التاريخية.

وفي تقديرنا أنه لا تتوفر الحكمة المطلوبة في أمر الدعوة ما لم تتحقق تلك الدراية وتتحصل المعرفة والتصور الكامل والدقيق للواقع الذي انتهىٰ إليه الناس هناك، لأنّ الحكمة في أبسط مدلولاتها هي: وضع الأمور في مواضعها، فكيف تتأتىٰ الحكمة في معالجة القضايا والمشكلات إذا لم نتمكن من معرفة أبعاد هٰذه القضايا، وأسباب تلك المشكلات وتاريخها، والعمر الذي تُووضعت من خلاله؟ وكيف يمكننا توفير المقدمات والعناصر التي تقودنا إلىٰ الحكمة في الدعوة والمعالجة؟

ومن المعروف تاريخيًّا أن انتشار الإسلام في بعض مناطق أفريقيا كان عن طريق التجار والمسافرين، وكان سلوكهم الإسلامي المتميز يبعث علىٰ الإيمان ويثير الاقتداء عند الإنسان الأفريقي الذي أشعره الإسلام بقيمته ومساواته بالآخرين، وقد لا يكون هٰؤلاء علىٰ درجة كافية من الفقه والعلم بدين الله تعالىٰ إلىٰ جانب عوامل أخرىٰ، مما أورث اختلاط الإسلام ببعض العقائد والعادات الأفريقية القديمة، واعتبر الكثير منها من الإسلام، ولا بد هنا من الحكمة البالغة في المعالجة.

تفكيرنا.. وتفكيرهم:

وقد تكون المعالجة الأخطر والأكثر ضرراً في التفكير الذي يمارسه

بعض الذين يعملون في مجال الدعوة الإسلامية بعقل ضيق، ونظر عليل، وفقه قليل، فيوزعون السكان بين التنصير والتكفير، ويحاصرون أنفسهم فلا يجدون مجالاً لدعوتهم، وكأن بعض مَن تصدوا لأمر الدعوة الإسلامية تخصصوا بتفريق وحدة المسلمين!!

يحدث هٰذا في الوقت الذي تفعل الكنيسة ما تفعله من قبول للعادات الأفريقية ابتداءً، لتكون الوسيلة إلىٰ جذب هٰؤلاء الأفارقة إلىٰ النصرانية، ويوالي البابا زياراته للقارة الأفريقية لمواجهة المد الإسلامي ومحاولة انتزاع أفريقيا من المسلمين.

صنعت في أفريقيا:

واليوم تتابع النصرانية المدعومة مادياً ومعنوياً من أوروبا وأمريكا توسعها في أفريقيا، وتتغلب علىٰ المصاعب التي عاقت تقدمها، خاصة قضية ارتباطها بالثقافة الاستعمارية الغربية، فتبذل الجهود لصبغ النصرانية بالصبغة المحلية، وإقامة (مسيحية أفريقية) فالبرفسور «مبيتي» يقول: إنه حان الوقت لكي تتصالح المسيحية مع الديانات الأفريقية وأساليبها، وأن يكون طابعها (صنعت في أفريقيا)، كما قال بابا الڤاتيكان في زيارته لأوغندا عام ١٩٦٩م: «إنّ تكييف الحياة المسيحية في المجالات الدعوية، وفي مجالات الطقوس والنشاطات التعليمية والروحية، ليس ممكناً فقط؛ ولٰكن الكنيسة تشجعه، وتجديد أساليب القدّاس هو مثال حي علىٰ ذٰلك، وفي هٰذا الاتجاه يمكنكم ويجب عليكم أن تكون لكم مسيحية أفريقية».

ولقد قام المنصّرون باستثمار طويل الأجل، وحضّروا الأطر المطلوبة لعهد ما بعد الاستعمار عندما أشرفوا علىٰ التربية والتعليم في عهد الاستعمار، وحاولت الكنائس المشاركة في مشاكل وطموحات الشعوب الأفريقية، مثل: الاستقلال الوطني، وإنهاء التفرقة العنصرية لتأمين استمرارية دورها في عهد الاستقلال، وقد شعرت هٰذه الكنائس بالحاجة إلىٰ التعاون والتنسيق فيما بين مختلف مذاهبها، وها هي الآن تعمل مع بعضها في هيئات مثل: المجلس الوطني المسيحي في كينيا، والمجلس المسيحي

التنزاني، ومجلس كنائس جنوبي أفريقيا، ومجلس الكنائس في زيمبابوي؛ بل إنّ هناك محاولات لإزالة الفروق المذهبية بين مختلف المذاهب المسيحية في أفريقيا... كمخطط للاستقرار والتوسع في المستقبل.

ونحن بهٰذا لا نقر الخطأ، ولا نريد الإبقاء علىٰ الواقع، لٰكننا لا يجوز بحال من الأحوال أن نخطئ الوسيلة في المعالجة، فنعمل علىٰ تصليب الواقع وتنفير الناس بالمواجهة المباشرة، بل لا بد من أن نبدأ بالتعليم الصحيح المرتكز إلىٰ الكتاب والسنّة، وأن نستفيد من العاطفة الإسلامية في بناء أجيال جديدة ابتداءً، لتنحسر - شيئاً فشيئاً، وجيلاً فجيلاً - دائرة الخرافات والبدع، وبذٰلك تتم التصفية تلقائياً، فالعلل المزمنة التي مرّت عليها القرون لا يمكن أن تعالَج بخطبة أو بدرس بعيداً عن سنّة التدرج.

ومما لا شك فيه أن للحركة الصوفية دوراً كبيراً غير منكور ضد المستعمر، وفي نشر الإسلام وحمايته أيضاً، ولها اليوم رصيد كبير من الأتباع والمريدين، ولا شك أيضاً أنّ بعض شيوخها الأوائل كانوا علىٰ درجة من العلم، وإن انحدرت الأمور بالوراثة في بعض الأحيان إلىٰ أحفاد قد لا يكون لبعضهم نصيب من ذٰلك، وإنما جاءت المحافظة عليها بدافع بناء الزعامات وتحصيل المنافع.

والحقيقة التي لا يمكن تجاهلها أن بعض الحكام، ومن قبلهم المستعمر شأنه في كل مكان من العالم الإسلامي، استغلوا جهل بعض مَن انتهت إليهم زعامة الطرق الصوفية، وكان هٰذا الجهل مدخلهم لاحتواء هٰذه الطرق، وتنميتها والإغداق عليها، وتوظيف أتباعها لأغراض ليست خافية علىٰ أحد، حيث ينعمون علىٰ شيوخها بالهدايا والأوسمة، مما يشوه الصورة الجهادية التاريخية والدور الكبير في حماية ونشر الإسلام في أفريقيا، ويكرس صور الانحراف لمحاربة الإسلام الصحيح.

□□□□□□

٨٠٥/٤

التخلّف وغياب مفهوم التكافل الاجتماعي

إن الحصانة الإسلامية ضد الأفكار والمبادئ الهدّامة سوف لا تتأتىٰ باستعارة الإسلام والمبادئ الإسلامية كشعار يُرفع في المناسبات، وإنما بمعالجة الأسباب التي تستدعي هٰذه المبادئ إلىٰ عالم المسلمين.

يفتقد مسلم اليوم الرؤية الدقيقة عن عالم المسلمين، والمطلوب: تحقيق الوعي بالمشكلات الحقيقية التي يعاني منها العالم الإسلامي، وبيان الثغور المفتوحة التي تقتضي حق الأولوية في المرابطة، ووضع القادرين من المسلمين أمام مسؤولياتهم، وإذكاء حسّهم باستشعار هٰذه المسؤوليات، وتجديد ذاكرتهم نحو الإسلام، وتجديد المعاني الإسلامية السامية في نفوسهم، بعد أن ترسبت عليها أوضاع اجتماعية معينة، أو ترسبت هي علىٰ عادات وتقاليد لتأخذ شكلها ولتصبح شيئاً فشيئاً من الإسلام أو هي الإسلام (!!) في نظر بعضنا؛ حيث لا بد من مفهوم العبادة وتحقيق العبودية بالنسبة للمسلمين المتوزعين في المواقع المختلفة: فهناك عبادة خاصة بالأغنياء، وعبادة خاصة بالعلماء، وعبادة خاصة بالحكام والأمراء، وعبادة خاصة بالفقراء وطلاب العلم والقائمين علىٰ الحراسة في سبيل الله.. إلخ. إلىٰ جانب القدر المفروض والمشترك من الصيام والصلاة وبقية التكاليف في بناء الإسلام...

فعبادة الأغنياء وعبوديتهم: أن يؤدوا شكر النعمة بإعطاء الفقير حقه ﴿وَالَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج] ذٰلك

أن الله ﷻ جعل حقوق الفقراء أمانة عند الأغنياء، فإذا جاع الفقير أو عري فبظلم من الغني، فإذا حاول الأغنياء الاقتصار على الصلاة والصيام والحج وأداء النوافل وقعدوا عن إعطاء الفقراء حقهم، وظنوا أنهم خرجوا من عهدة التكليف فقد أخطأوا فهْمَ التكليف الإسلامي، وأخطأوا طريق العبادة وتحقيق العبودية. .

وعبادة العلماء: قولة الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لئلا يضل الناس أو يضللوا، وألّا تأخذهم في الله لومة لائم، وألّا يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً من منصب أو جاه أو مال. . حتىٰ لا تنتقل للأمة المسلمة علل أصحاب الأديان السابقة الذين كانوا لا ينهون عن منكر ولا يستنكرون فعلاً محرماً، قال تعالىٰ: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة]، فاستحقوا اللعن والسقوط حتىٰ أصبحوا أثراً بعد عين. . .

وعبادة الحكام: الحكم بما أنزل الله وتحقيق العدل، والوقوف إلىٰ جانب الضعيف والفقير والانتصاف له من القوي **«القوي فيكم ضعيف عندي حتىٰ آخذ منه الحق، والضعيف فيكم قوي عندي حتىٰ آخذ له بحقه»**. . . إنه ميزان العدالة وطريق العبودية الحقة للّه تعالىٰ. . .

وعبادة الفقراء: الصبر علىٰ الواقع وعدم الانكسار أمامه والاستسلام له، الصبر الذي يحمي النفوس ويصقل المواهب، ويفتح النوافذ ويجمع الطاقات ويدفع إلىٰ الانطلاق لتحقيق الكسب. . .

وعبادة طلاب العلم: النبوغ في اختصاصاتهم لتحقيق فرض الكفاية لمجتمعاتهم ـ التكافل الاجتماعي والاكتفاء الذاتي ـ ذٰلك أن التحقق بالاختصاص والنبوغ فيه بالنسبة لهم أصبح فرض عين بعد اختيارهم لطريقه، وعدم النكوص والسقوط في الفهم المعوج وترك مقاعد الدراسة والتخصص باسم مصلحة الإسلام ومتطلبات الدعوة الإسلامية. . . وهٰكذا فئات المجتمع عامة كل تأتي عبادته وتحقيق عبوديته للّه ﷻ بأداء ما أنيط به، وليس من الإسلام أداء بعض النوافل والمندوبات بالنسبة للأغنياء والقعود عن الفرائض

والواجبات من إعطاء الفقير حقه، ومخادعة النفس بأن ذٰلك هو التقوىٰ والصلاح المطلوب، فقد يكون ذٰلك من تلبيس إبليس..

حالة التبعيض:

لقد افتقد مسلم اليوم - إلا مَن رحم الله - الرؤية الإسلامية الشاملة علىٰ مستوىٰ التصور والتطبيق معاً، فبدأ يعيش حالة التبعيض التي تورث الخزي ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥] وافتقد تبعاً لذٰلك الإحساس بترابط الجسم الإسلامي الواحد بعد عمليات البتر والتقطيع التي مورست عليه، فغابت الحقيقة الإسلامية المتمثلة في قول الرسول ﷺ: **«مَثَلُ المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمّىٰ»** لقد قطعت أوصال الجسم الإسلامي فلم يعد المسلم اليوم يحس بما يصيب سائر الجسد، و**«مَن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم...»** لقد غابت عن عالم المسلمين اليوم الأصول النفسية للتكافل الاجتماعي التي غرسها الإسلام، غاب بمدلول الأخوة وحقوقها مرتكز هٰذه الأصول جميعاً، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات] وقال رسول الله ﷺ: **«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يحقره»** فكيف نسلّم الكثير من المسلمين اليوم إلىٰ الفقر والفاقة والظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي؟!

وغاب مفهوم الرحمة، وهي الغاية التي من أجلها نزلت شريعة الله ﷻ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء] وغاب مفهوم الإحسان، وهو عدم الاقتصار علىٰ إعطاء الناس حقوقهم عدلاً وإنما التنازل لهم عن بعض حقوقنا إحساناً، والله تعالىٰ يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربىٰ... وغاب مدلول المحبة التي هي من ثمرات الأخوة، والتي بدونها لا يستقيم إيمان ولا تتحقق نجاة وفوز **«لا يؤمن أحدكم حتىٰ**

يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وغاب مفهوم الإيثار الذي كان يحكم جماعة المسلمين في الشدة والرخاء، قال تعالىٰ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

ولم يقتصر الإسلام في حمايته مجتمع المسلمين علىٰ غرس الأصول النفسية للتكافل، وبذٰلك تنتهي التعاليم الإسلامية إلىٰ وصايا خُلُقية تحاكي الضمير، وإنما أوجد إلىٰ جانب ذٰلك التشريعات التكافلية الملزمة من نظام الزكاة والميراث والنفقات الواجبة، وحرس استمرارية هٰذه المعاني بالتربية في جانب الأصول النفسية، وبالعقوبات الملزمة للتشريعات المالية، وبالرقابة العامة الدائمة علىٰ ذٰلك، ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة كل مسلم ـ من جانب آخر...

وفي اعتقادنا أنه في غيبة تشريعات التكافل الاجتماعي الملزمة بسبب غياب الشريعة الإسلامية عن التطبيق لا بد من التأكيد علىٰ هٰذه الأصول النفسية التي هي في طبيعتها أسبق من التشريعات الملزمة، والمقدمة الطبيعية للانتهاء إليها...

تجديد فهم الإسلام:

نعود إلىٰ القول: إنه لا بد من مراجعة لفهمنا للإسلام وتجديد هٰذا الفهم الذي أنتج هٰذا الواقع الذي نحن عليه، وإن قبولنا بهٰذا الفهم يعني رضانا بهٰذا الواقع... لقد قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عنه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: **«مَن كان له فضل ظهر؛ فليعد به علىٰ مَن لا ظهر له، ومَن كان له فضل زاد؛ فليعد به علىٰ مَن لا زاد له...»** يقول أبو سعيد: فذكر رسول الله ﷺ أصنافاً من المال ـ غير الظهر والزاد ـ حتىٰ رأينا أنه لا حقَّ لأحدنا في فضل.

إن الظهر والزاد لم تذكر هنا علىٰ سبيل الحصر، وإنما ذكرت علىٰ سبيل المثال كما هو معلوم، لقد مثّل الرسول ﷺ بها وبغيرها من الأموال ـ فذكر رسول الله ﷺ أصنافاً من المال ـ حتىٰ انتهىٰ رأي الصحابة

رضوان الله عليهم فيما يرويه أبو سعيد: حتىٰ رأينا، أي: انتهىٰ رأينا... أنه لا حقَّ لأحدنا في فضل.. إنه يَحْرُمُ الادخار أيام الشدائد والأزمات، التي تتعرض لها الأمة.. الأمر الذي لم تقل به أكثر المذاهب تطرفاً وادعاءً للتكافل الاجتماعي أو للضمان الجماعي، حتىٰ لقد وصل الأمر ببعض الصحابة إلىٰ القول بتحريم الادخار دائماً، وتحديد الكنز بأنه ما زاد عن حاجة يومك في كل الأوقات مما كاد يوقع المسلمين في حرج... فكان جواب سيدنا عمر ﷺ علىٰ ذٰلك بقوله: «لماذا شرعت الزكاة إذن؟ أليست شرعة الزكاة هي عن المدخرات المملوكة التي يحول عليها الحول؟».

ومن هنا نقول: إن الادخار يصل إلىٰ مرحلة التحريم وقت الحاجات والشدائد والأزمات...

هٰذا كله عدا عن نفي الإيمان عن الذي يبيت شبعان وجاره جائع وهو يعلم **«والله لا يؤمن مَن بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم»** ولا يتسع المجال هنا لذكر بعض الفتاوىٰ في هٰذا السبيل التي تؤكد علىٰ عنصر الإلزام في الموضوع، كفتوىٰ ابن حزم وغيره لأنها معروفة في مظانها من كتب الفقه، لٰكن الذي أردنا إليه هو تحديد موقع الفقراء والمحرومين في المجتمع الإسلامي...

إن الحصانة الإسلامية ضد الأفكار والمبادئ الهدّامة، سوف لا تتأتىٰ باستعارة الإسلام والمبادئ الإسلامية كشعار يرفع في المناسبات، ويكون وسيلة للوصول إلىٰ السلطة أو الاحتفاظ بها، ولا بإطعام فقراء المسلمين في المواسم الدينية، وإطعامهم الخطب والمواعظ والكلام والوعود، وإنما بمعالجة الأسباب التي تستدعي هٰذه المبادئ إلىٰ عالم المسلمين، ولو بذل علماء المسلمين الجهود في تربية وتوعية أغنياء المسلمين علىٰ الإسلام الباذل، ومناصحة أولي الأمر ليقوموا بمسؤولياتهم تجاه ذٰلك، لما احتاجوا إلىٰ مهاجمة هٰذه المبادئ التي سوف لا تجد طريقاً إلىٰ بلاد التكافل والعدالة الاجتماعية، والتغرير بالفقراء، ووعدهم بالفردوس المفقود حيث ترتفع آمالهم ويشتد فقرهم... إن بعض العلماء الذين يستأجرون ليغدقوا علىٰ

الفقراء الخطب دون أن يجهروا ببيان الأسباب، أسباب الفقر، ومعالجتها، سوف لا يجدون آذاناً صاغية من الجماهير الفقيرة، هٰذه الجماهير التي تشكل عدة الأمم في السلم والحرب علىٰ حد سواء، فهي سواعد الإنتاج في السلم، ودروع البلاد في الحرب، والرسول ﷺ يقول: **«إنما ترزقون وتنصرون بفقرائكم»**.

فقدان جدول الأولويات:

وقد يكون الأمر الخطير في عالم المسلمين اليوم فيما وراء فسق المترفين الذين هم دائماً سبب دمار هٰذه الأمم وسقوط حضارتها، وأقنية القاذورات والأمراض الجنسية والانحلال الذي يتسرب إلىٰ جسمها.. قد يكون الأمر الخطير عند المسلمين اليوم: فقدان جدول الأولويات، وليست مسألة تصنيف الإنفاق وتحقيق التكافل بأحسن حالاً من قضاياهم الأخرىٰ الكثيرة التي تغيب فيها جدولة الأولويات وتتغيب الحسابات!! فقد تقدم أموال في بعض بلدان العالم الإسلامي لمشاريع خيرية وفقراء تعتبر إذا ما قيست بالفقراء الذين لا يجدون الكفاف في مناطق أخرىٰ من صور الترف والرفاهية، والعالم الإسلامي كالجسد الواحد، فما بالنا نساهم بتكريس تمزيقه وتقطيع أوصاله؟ لقد بحث فقهاؤنا أولوية الحاجة، ولعل الذي يرجع إلىٰ بحثهم حول: أيهما أشد حاجة إلىٰ العطاء.. الفقير أم المسكين من مصارف الزكاة، وإذا لم يجد الإنسان إلا أن يعطي أحدهما؟! بيَّن الشافعية والحنفية ما يدلّل علىٰ هٰذا النظر الثاقب والبصيرة الواعية التي غابت عن عالمنا...

ولست بحاجة إلىٰ القول هنا: إن العالم الإسلامي هو عالم متكامل اقتصادياً، إنه يمتلك الطاقة التي تحرك العالم، ويمتلك المساحات الواسعة والمياه والمناخات المختلفة التي تؤهله لأن يكون مخزن العالم بالغذاء أيضاً... فإذا أضيف إلىٰ ذٰلك كله العقيدة الوسط، فإن العالم ينتظر دوره في قيادة البشرية إلىٰ الخير وإلحاق الرحمة بها... لقد قام بعض المتخصصين في الجغرافيا ـ الأستاذ عمر الحكيم رحمه الله ـ بتقديم دراسة رقمية

عن واقع العالم الإسلامي المتكامل اقتصادياً... القادر على أن يكون مخزن غذاء العالم وطاقته في المستقبل فيما إذا أحسنت قضية الاستثمار: فهل من سبيل إلى ذلك لتنتهي مشكلة الفقر في العالم الإسلامي ويتحقق النصر؟!

إن تحقيق التكافل الاجتماعي من شروط نهوض الأمم وبناء المجتمعات، وحسبنا أن نعلم أن المسلمين في جيش العسرة (غزوة تبوك) بعد أن نفد زادهم في طريق العودة، اشترك العشرة منهم في امتصاص التمرة الواحدة، فكان ما كان من النصر والتمكين، فأين واقعنا اليوم من التحقق بشروط النصر؟



حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم

إن المصطلحات هي نقاط الارتكاز الحضارية، والمعالم الفكرية التي تحدد هوية الأمة بما لديها من رصيد نفسي ودلالات فكرية، وتطبيقات تاريخية مأمونة.. إنها أوعية النقل الثقافي، وأقنية التواصل الحضاري.

لا شك أن التغيير الحضاري يبتدئ من داخل النفس، وذٰلك بإعادة صياغة الفرد، وبناء عالم أفكاره، وتغيير قناعاته، حيث لا بد من إدراكه لمعادلة التغيير ومستلزماتها.. فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١].

إذن فالقضية تبتدئ من التحقق بالوعي الثقافي والحصانة الفكرية، وإعادة بناء الشخصية المسلمة الفاعلة بعد أن انطفأت فاعليتها أو كادت بسبب من السقوط الحضاري، والانكسار العسكري، والوهن الخلقي، الأمر الذي أفقدها الرؤية الشمولية والتوازن الاجتماعي، واستشعار التحدي الذي يوقظ الحس ويلهب المشاعر ويذكي الروح ويجمّع الطاقات النفسية والمادية لتبدأ عملية النهوض من جديد، ونقل المسلمين إلىٰ الموقع الذي يجعلهم في مستوىٰ إسلامهم تكليفاً وإرادة، وفي مستوىٰ عصرهم قدرة وعطاء وقيادة.

معركة المصطلحات:

ولا بد من القول: إنه إلىٰ جانب المعارك الكثيرة والمتعددة التي تدور

رحاها علىٰ الأرض الإسلامية في إطار الاستعمار ومحاولات الاحتواء الثقافي، هناك معركة يمكن أن تكون الأخطر في مجال الصراع الحضاري، هي معركة المصطلحات، حيث تُقذف مجتمعاتنا يومياً عن طريق وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية بكثير من المصطلحات السياسية والفكرية والجغرافية (الديموقراطية، الوجودية، العلمانية، الماركسية، اليمين واليسار، الشرق الأوسط، الشرق الأدنىٰ، حوض المتوسط. . . إلخ) البديلة لما ألفنا وعرفنا إلىٰ درجة الإغراق لتخرجنا عن مواقعنا الفكرية، وتستلب شخصيتنا الحضارية، وتطارد مصطلحاتنا وتحدد لها المعاني التي تريدها، حتىٰ أصبح الكثير منا يخاف من طرحها أو من مجرد الانتساب إليها، كمصطلح «السلفية» ومصطلح «التراث». . . إلخ. مع العلم أن «السلفية» أول ما تعني الانتساب لجيل القدوة، خير القرون ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] بناة الحضارة الإنسانية، ولا تعني بحال من الأحوال التحجر والجمود والانقطاع عن التواصل الحضاري، وعدم استيعاب منجزات العصر من خلال الرؤية الإسلامية السليمة، ذٰلك أن السلفية الصحيحة دافع للإفادة وليست مانعاً منها. . .

وكذٰلك مصطلح «التراث» حيث تفرض علينا مدلولات معينة أرادها أصحاب المذاهب المادية والعلمانية، الأمر الذي أخرجنا عن مدلول القضية وأصلها في المصطلح الإسلامي، يقول تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر].

ويقول أبو هريرة ﷺ:

«. . .أنتم هنا، وميراث محمد ﷺ يوزع في المسجد».

فإذا كان مدلول التراث يعني النبوة وعطاءها «الكتاب والسنّة» الذي ورثته الأمة، فنحن تراثيون، وإذا كان المدلول: فهوم المسلمين غير المعصومة للكتاب والسنّة، مما يقع في دائرة الاجتهاد، فهٰذا أمر قابل للفحص والاختبار، ومن ثم للصواب والخطأ. . .

وقد تكون المشكلة أو الكارثة ـ إن صح التعبير ـ أن معظم المثقفين في عالمنا الإسلامي اليوم أصبحوا أسرىٰ المصطلحات والأفكار الأوروبية بشكل عام، ينطلقون منها، ويفكرون من خلالها، ومن الصعوبة البالغة التحرر منها لأنها صورة من صور الاحتواء الثقافي نتيجة الإصابة بمركب النقص أمام التحدي الحضاري الغربي، وقد ينتصر بعض البسطاء عاطفياً للإسلام، فيحاول إسقاط المفاهيم والمصطلحات الغربية علىٰ المفهومات الإسلامية فتعييهم عملية التوفيق، ولكن كثيراً من الخبثاء يحاولون الالتفاف حول القضية، ويتسللون إلىٰ الشخصية الإسلامية من خلال إسقاط هٰذه المصطلحات علىٰ المفهومات الإسلامية، أو يمارسون الخداع لجماهير المسلمين بادعاء أن هٰذه المصطلحات ليست غريبة عن طبيعة الإسلام ووجهته ليخفوا بذٰلك حقيقة أمرهم ودعوتهم في المجتمع الإسلامي، ذٰلك أنهم أدركوا أن بوابة العالم الإسلامي ستبقىٰ موصدة أمام كل دعوات التغريب ومصطلحاتها بعد التجارب والمحاولات الكثيرة، فكان لا بد لهم من تغيير استراتيجيتهم في ذٰلك ومحاولة التسلل إلىٰ عالم المسلمين من خلال المعاني الإسلامية نفسها حيث يسقطون عليها مصطلحاتهم، ويوهمون السذج والبسطاء أنهم ليسوا غرباء عن فكر الأمة في ادعاءاتهم، فالديموقراطية هي الشورىٰ، والرأسمالية هي مبدأ إقرار الملكية في الإسلام، والاشتراكية هي العدالة الاجتماعية، والصراع من أجل السيطرة الاقتصادية هو الفتح الإسلامي، والصدام الحتمي بين اليمين الرجعي واليسار التقدمي هو التفسير لبعض المشكلات الداخلية في المجتمع والتاريخ الإسلامي..

الوقوع في التخليط:

قد تكون المشكلة عند معظم مثقفينا، جيل ما بعد الاستعمار العسكري، ادعاء العصمة للحضارة الغربية الأوروبية بسبب من التفوق الغربي والتخلف في عالم المسلمين، وجعلها مقياساً لكل حضارة وتقدم، وتطبيق المعايير المادية الأوروبية علىٰ الإسلام ومحاكمة تاريخه علىٰ ضوء التاريخ الأوروبي، وعدم قياس الحضارة الإسلامية بمقاييسها وردها إلىٰ أصولها،

وإنما ردها إلىٰ أصول حضارة غريبة عنها، مادية في أصولها، وهٰذا بلا شك أوقع الكثيرين في عملية التخليط في النظر إلىٰ أحكام العقل واجتهاده القابل للخطأ والصواب، وأحكام الوحي ونصوصه الثابتة المعصومة. . وأن مقاييس الفحص والاختبار التي يخضع لها حكم العقل لا يمكن بحال من الأحوال أن تطبَّق علىٰ حكم الوحي، وإنما يقتصر دور العقل في ذٰلك علىٰ التأكد من ثبوت النصوص من حيث السند وسلامة مدلولاتها فقط، لأن الأمر قائم علىٰ قاعدة التسليم بالنبوة ابتداءً.

لقد ظهرت علىٰ الساحة الفكرية كتابات كثيرة كانت صدًى لمشكلات فكرية إنسانية، وكان أن تناول الحديث في هٰذه القضايا كتَّاب ومفكرون من اتجاهات مختلفة، ونحن لا بد أن نعترف أننا مسبوقون إلىٰ طرح كثير من القضايا بعد أن توقف المجتمع الإسلامي عن النمو، والعقل الإسلامي عن العطاء، لذٰلك جاءت أكثر كتاباتنا في إطار ما يسمىٰ «الفكر الدفاعي» بسبب من طرح غيرنا، وهنا انبرىٰ للمواجهة الثقافية مَن يحسنها ومَن لا يحسنها من الذين يفتقدون الثقافة الإسلامية الأصيلة، فوقعوا بمغالطات فكرية واصطلاحية ساهمت بتكريس التخلف والضياع، وأثقلت الذهن الإسلامي وزادت من عجزه. . .

أوعية التواصل الحضاري:

من هنا كان لا بد من التنبيه إلىٰ ضرورة المحافظة علىٰ المصطلحات في الأمة، والاحتفاظ بمدلولاتها، والعمل علىٰ وضوح هٰذه المدلولات في ذهن الجيل لأن هٰذه المصطلحات هي نقاط الارتكاز الحضارية، والمعالم الفكرية التي تحدد هوية الأمة بما لها من رصيد نفسي ودلالات فكرية، وتطبيقات تاريخية مأمونة، إنها أوعية النقل الثقافي وأقنية التواصل الحضاري، وعدم تحديدها ووضوحها يؤديان إلىٰ لون من التسطيح الخطير في الشخصية المسلمة والتقطيع لصورة تواصلها الحضاري. . .

وقد نبّه القرآن الكريم لهٰذه القضية الخطيرة عندما أرشد المسلمين إلىٰ ضرورة استخدام مصطلح ﴿ٱنظُرْنَا﴾ ونهىٰ عن مصطلح ﴿رَٰعِنَا﴾ الذي كان

يستعمله يهود ليحققوا فيه أغراضاً في نفوسهم، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة].

إن أهمية المصطلح، وقضية الوضوح في دلالته، أمر ذو أهمية بالغة إلىٰ درجة أصبح معها كثير من المؤلفين يفردون صفحات في مؤلفاتهم لمعجم المصطلحات المستعملة والدلالات التي أرادوها من استعمال هٰذه المصطلحات، وهي طريقة محمودة فكرياً وثقافياً حتىٰ يتحقق الوضوح ولا يحمَّل الكلام أكثر مما يحتمل. . .

نعود إلىٰ القول: لا بد من إعادة ترتيب العقل المسلم وتخليصه من حالة العطالة التي وقع فيها كثير من المسلمين في مواجهة التغيير الاجتماعي بسبب من التصور المحزن، من أن مشيئة الله تعني السلبية وتعطيل الأسباب دون أن يعلموا أن الله هو الذي شرع الأسباب وأمر الناس بالتعامل معها للوصول إلىٰ النتائج، وأن هٰذه الأسباب هي إرادة الله ومشيئته، وأن عملية الاستخلاف لا تؤدىٰ ولا تتحقق إلا بالتماسها، وقد جعل الله لكل شيء سبباً، وأن التزام هٰذا والتعرف عليه هو غاية التكليف، ودور النبوة في ذٰلك هو الهداية والتدريب، ومسؤوليتنا حسن التأسي وسلامة الاقتداء.

كما لا بد من الإسهام بتحقيق قسمات الذات الحضارية المسلمة، ذٰلك أنه علىٰ الرغم من الكلام الكثير عن التميز الحضاري الإسلامي وضرورته لنهوض الأمة، لا يزال الأمر في حدود الشعار، بعيداً عن الممارسة، لأن كثيرين من دعاة التميز يعيشون ضمن الأطر الغربية في حياتهم ومعاشهم ووسائلهم. . . ذٰلك أن ترميم بعض المفاهيم والأفكار من خلال القراءة الجانبية والانتصار العاطفي للإسلام لا يكفي لنقل المثقف المسلم إلىٰ الخط الإسلامي الصحيح والمنظومة الحضارية الإسلامية ومصطلحاتها. . .



قيم العسكرية الإسلامية

إن العقيدة العسكرية الإسلامية جزء من التصور الإسلامي، والعقيدة الإسلامية بشكل عام. . ويخطئ كل الخطأ مَن يظن أنه بالإمكان أن يكون العسكري مسلماً ويحارب بعقيدة عسكرية غير إسلامية. . والواقع المهزوم دليل ذٰلك. . .

إن قضية الصراع بين الخير والشر، والحق والباطل، سنّة من سنن الحياة، وهي قديمة قدم الخلق.

قال تعالىٰ:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وأن البقاء للأصلح، قال تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء].

هٰؤلاء الصالحون هم الذين يمتلكون العقيدة الصحيحة، ويلتزمون بها فتجعل منهم أجناساً قادرين علىٰ عمارة الأرض، وقيادة الحضارة، يضعون عن الناس إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، إنهم ورثة الأنبياء. والصراع بين الحق والباطل أخذ أشكالاً متعددة، وكانت ميادينه مختلفة، فهو صراع علىٰ مستوىٰ الفكر والثقافة والحضارة والسياسة والتربية والاقتصاد

والإعلام... إلخ، وقد يبلغ الذروة فيأخذ شكل المعارك العسكرية، فيكون آخر الدواء الكي.

ومن هنا كان لزاماً علىٰ أهل الحق الذين يسيرون علىٰ قدم النبوة باعتبارهم مستهدفين لما يحملون من حق يكشفون به الباطل ويفضحون أهله، أن يكونوا آخذين حذرهم، لا يغفلون عن عدوهم، قال تعالىٰ:

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج]، وقال:

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾ [النساء]، وقال:

﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢]، وكان عليهم أيضاً استفراغ جهدهم في الإعداد والاستعداد مادياً ومعنوياً: عيونهم ساهرة، ومرابطتهم دائمة، استجابة لقوله تعالىٰ:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

مرحلة القصعة:

ولا بد لنا من الاعتراف بجرأة أننا نعيش الآن، كعرب مسلمين أكثر من أي وقت مضىٰ، مرحلة «القصعة»، ونعاني من صورة الغثاء التي حذّر الرسول ﷺ من الانتهاء إليها، حيث تداعت علينا الأمم من كل حدب وصوب، وانتقصت أرضنا، وانتهك عرضنا، علىٰ الرغم من إصرار بعضنا علىٰ الاستكبار بغير الحق، وعدم الاعتراف بالحال التي نحن عليها، والذي يشكل بداية الطريق إلىٰ الرؤية الصائبة وتشخيص الداء ووصف الدواء...

ونحن ـ بلا شك ـ نعاني مأساة التخلف الثقافي، والسقوط الحضاري،

والانكسار العسكري، والوهن الخُلُقي، ولقد كثر الكلام عن التخلف من كل المستويات، لكننا مع الأسف استغنينا بالكلام على التخلف عن ممارسة وسائل النهوض والتقدم، ولقد أصبنا في تاريخنا الطويل بنكسات ونكبات وأيام سود وسنين عجاف، وضعف التزامنا بهذا الدين، لكن بالرغم من هذا كله بقي انتماؤنا له، وكان هذا الانتماء مرتكز القادة والمفكرين والمصلحين وحاملي لواء التجديد. هُزم المسلمون سياسياً وعسكرياً وبقي الإسلام علماً وحضارة.

أما الآن، فإننا لا نعاني من فقدان الالتزام وبقاء الانتماء، وإنما نعاني من التذويب والذوبان، وذلك يفقد الالتزام والانتماء معاً، وهنا تكمن المعادلة الصعبة، وتختلف مرحلة سقوطنا الحضاري وانكسارنا العسكري الحالي عن مراحل الهزائم التاريخية جميعها، ولعل أول الطريق إلى الخلاص إنما يكون بتجديد عملية الانتماء لهذا الدين بشكل عام، والاعتزاز بقيمه، والالتزام بأحكامه، والانضباط بشرعه، ومن ثم تكون مرحلة الاستعلاء بالإيمان، ولا يتأتى هذا إلا بتجديد وتحديد عملية التصور الإسلامي، وبيان وامتلاك وسيلة التفوق الحضاري، والاستفادة من درس التاريخ. إن الإسلام كما فهمه السلف الصالح فقادوا به الحضارة وسادوا به الدنيا وحملوا لها الخير، هو بالتأكيد غير الفهم للإسلام الذي نحن عليه بواقعنا الراهن. ولا يكفي في ذلك عودة النخبة، وهو أول الطريق، بل لا بد من عودة الجماهير المسلمة بعد أن طال البُعد وكثرت الدروس، وقلّ الاعتبار...

إننا بحاجة في مواجهة السقوط العسكري الذي يملأ علينا حياتنا إلى إعادة بعث النفوس، وتجديد ثقتها بالعقيدة العسكرية الإسلامية، وإعادة بناء مكونات الفرد المسلم بشكل عام، لتكون العسكرية ومفاهيم الجهاد جزءاً عضوياً منه.

قد يكون صحيحاً: أن الإنسان في مراحل التخلف، ومناخ التخلف، يصبح عاجزاً عن الإبصار والاعتبار، لكن من المحقق أيضاً أن التحدي

يوقظ الحس، ويلهب المشاعر، ويذكي الروح، ويجمِّع الطاقات النفسية والمادية لتبدأ عملية الإقلاع من جديد.

التفتيش عن الذات:

إن ردود الفعل السوية تقتضي، وقد قامت إسرائيل في موطن القلب من العالم الإسلامي علىٰ الرؤية الدينية التوراتية، وجعلت من العسكرية الإسرائيلية وسيلتها الأساسية للتمكين للدولة والتمهيد للاستيطان، واستعملت في مواجهتها الحلول غير الإسلامية كافة وسقطت، وسقطت معها كل الشعارات التي استنزفت عقولنا، وبدّدت طاقاتنا، وأهدرت إمكاناتنا علىٰ مدىٰ نصف قرن من الزمان، ولا زالت إسرائيل تتقدم بخططها وخطواتها، تقضم أطراف الجسم الإسلامي الواحد تلو الآخر، كما لا يزال كثيرون في عالمنا العربي الإسلامي يصرُّون علىٰ السير في الطريق المسدود الذي هو في نهاية المطاف لمصلحة يهود...

إن ردود الفعل السوية تقتضي العودة إلىٰ النفس والتفتيش عن الذات، واختبار الوسائل، وإعادة النظر في العقائد العسكرية التي تسود معظم عالمنا العربي والتي ما زالت تسلّمنا من هزيمة إلىٰ هزيمة، لعلنا بذٰلك نوقف عملية العد التنازلي التي بدأ الاستباق إليها.

وعلىٰ الرغم من ذٰلك فلا تزال العقيدة الإسلامية، والعسكرية جزء منها، غائبة غياباً كاملاً عن ساحة الصراع، مجهولة جهلاً مطبقاً في القوات المسلحة العربية الإسلامية والمعاهد والمؤسسات والكليات العسكرية علىٰ الرغم من بعض مظاهر الانتصار العاطفي لها في حدود الابتزاز السياسي، الأمر الذي لا يُسمن ولا يُغني من جوع.

ذٰلك أن بعض القادة في عالم المسلمين لا يزالون يعتقدون أنه لا صلة للعقيدة بالنصر، ولذٰلك لم يكونوا مستشعرين بشعار الإيمان، وربما كان منهم مَن يجاهر بالفسوق والعصيان، يحسبون أن النصر للآلة الفاتكة، ويهملون شأن الذي يحرك الآلة، وينسون أو يتناسون أن الطائرات والدبابات

والأسلحة لا تخرج عن كونها كتلاً من الحديد صنعها البشر لاستخدامها في الحروب، ولا يزال الإنسان هو المسيطر عليها، وبدونه لا قيمة لكل سلاح وعتاد، وبدون عقيدة تحقق عنده إرادة القتال، وتوحِّد الصف، وتحقِّق الانسجام، وتفتح أمام عينه البُعد الغيبي للحياة.. لا يكون قتال ولا يكون انتصار.

إن الذين يحسبون أن النصر للآلة، ويهملون شأن الإنسان، إنما يضعون المقدمات الخاطئة التي سوف تسلّمنا إلىٰ نتائجها الخاطئة حتماً، وهي أن يهود يمتلكون التفوق التكنولوجي والآلة الفاتكة ونحن لا نملكها، فلم يبقَ أمامنا إلّا الهزيمة والاستسلام لعدونا مهما حاولنا تسمية الأمور بغير أسمائها، وينسون أننا نمتلك التفوق الاستراتيجي، وأن ادعاءهم هٰذا مدفوع باستقراء الواقع البشري والجغرافي والاقتصادي، ومدفوع أيضاً ببعض النماذج الخيِّرة المؤمنة التي أبلت بلاءً حسناً ولم يصبح السلاح عبئاً عليها...

من آثار التطبيع:

ولا شك أن هٰذا من آثار الغزو الثقافي، أو إن شئت، فقل: التطبيع الثقافي في المصطلح الجديد بعد انكشاف أمر المصطلح القديم الذي كان همُّه ودأبه تهميش مفاهيم الجهاد، وتمييع المصطلحات الإسلامية، وقراءة العسكرية الإسلامية بعقول ملوثة بالصليبية والصهيونية والاستشراق، أو بعقول شيوعية من أصحاب الولاء المزدوج الذين جعلوا دوافع الفتوح اقتصادية، وفسروا التاريخ الإسلامي تفسيراً مادياً، وقسموا الصحابة إلىٰ يميني ويساري ووسط، إلىٰ غير ذٰلك من المهازل التي يكذبها الواقع والتاريخ، ويأباها الدين وسلوك المجاهدين.

لقد كتب أسلافنا التاريخ وصنعوه، وقرأه لنا جيل الغزو الفكري علىٰ هواه، أما الآن، وفي هٰذه المرحلة من السقوط الحضاري فأعداء الإسلام هم الذين يكتبون تاريخنا، وهم يقرأونه لنا أيضاً، حتىٰ أصبح الاعتقاد السائد عند أكثر العسكريين.. أن التدين يعني: التخلف والرجعية والجمود، وأن التقوىٰ تعني البلادة والتواكل والغفلة و«الدروشة»، وأن العسكري الحق هو

الذي لا يكون متديناً، وهٰكذا تستمر رحلة التضليل، وتستمر معها الهزائم تنزل علىٰ رأس هٰذه الأمة.

نحن بحاجة الآن أكثر من أي وقت مضىٰ إلىٰ الثقافة العسكرية العربية الإسلامية في هٰذه السنين العجاف التي يعيشها عالم المسلمين، بحاجة إلىٰ قراءة السيرة النبوية وإعادة كتابة المعارك الإسلامية، وتقديم القراءة الإسلامية أو التفسير الإسلامي لمعاركنا الحديثة أو لهزائمنا الحديثة.

العسكرية.. وإغناء التصور:

لا بد من إغناء تصورنا، وذٰلك بقراءة العسكرية الإسلامية كجزء من العقيدة الإسلامية وثمرة لها، حتىٰ نتمكن من مَد الرؤية الصحيحة والحكم علىٰ الواقع المتجدد من خلال منظور إسلامي، ذٰلك أن الحكم علىٰ الشيء فرع عن تصوره، ولا يتحصل هٰذا إلا بقراءة العسكرية الإسلامية، فالعقيدة العسكرية الإسلامية جزء من التصور الإسلامي والعقيدة الإسلامية بشكل عام، ويخطئ كل الخطأ مَن يظن، أو يلبس عليه، أنه بالإمكان أن يكون العسكري مسلماً ويحارب بعقيدة غير إسلامية، والواقع المهزوم دليل ذٰلك، وباستقراء التاريخ نرىٰ أن المسلمين لما تخلوا عن تطبيق العقيدة العسكرية الإسلامية تخلىٰ عنهم النصر، ذٰلك أن دراسة العقيدة العسكرية الأجنبية والالتزام بمصطلحاتها، وإهمال العقيدة الإسلامية يصيب الدارس بقدر من الهزيمة النفسية يحطم معنوياته ويلغي شخصيته، ويشعره دائماً بعقدة التفوق لدىٰ أعدائه.

لقد تحدّث المفسرون والمحدثون والمؤرخون والفقهاء، وكتّاب السيرة في بعض الفصول عن السير والمغازي، وعرضوا فيها لغزوات الرسول ﷺ وسراياه، لٰكنهم سجّلوها كما وردت في الروايات دون أن تكون عند أكثرهم القدرة التخصصية علىٰ النظرة العسكرية، والخلوص إلىٰ العبر، وإعادة ترتيب المعلومات علىٰ شكل يحقق العبرة للقارئ المسلم، والخبرة للعسكري المسلم، لٰكن حسبهم أنهم قدّموا المعلومات بدقة وأمانة علمية، ليأتي بعد ذٰلك الدارسون والمتخصصون بالعلوم

العسكرية فيحسنون الاستفادة منها، وتسليط الأضواء عليها لتحصيل الفائدة لحاضر المسلمين ومستقبلهم.

لكن الأمر الذي يلفت النظر هنا، أن كثيراً من الدارسين والباحثين من المحدثين سقطوا في فخاخ الغزو الثقافي، وقرأوا المعارك الإسلامية بأبجدية غريبة عنها، وصبُّوها في القوالب التي صنعها الاستعمار أو ربائبه في الوطن الإسلامي، فأساءوا من حيث ظنوا أنهم يحسنون صنعاً، وقد يكون مرد هٰذا أن المستشرقين كانوا الأسبق إلىٰ وضع المناهج وصب القوالب عندما أسلمنا أنفسنا لنوم عميق، ثم جئنا لنجدها جاهزة، وحالت هزيمتنا النفسية دون فحصها واختبارها، وحسن الاستفادة منها. . .

حماية مناخ الدعوة:

ولسنا الآن بسبيل الكلام عن موقع الجهاد في حياة المسلمين، ومكانته في عقيدتهم. صحيح أن الإسلام دين دعوة ورحمة وانقياد، وليس دين قهر وسيف واستعباد، لٰكن لا بد من حماية لمناخ الدعوة وحرية نشرها ورد كيد المعتدين عنها، وذٰلك بإيجاد وإعداد القوة التي ترهب المعتدين وتقضي علىٰ أطماعهم وتضمن السلم والأمن ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠]، وقد يكون موقع الجهاد في الإسلام الذي شرع لتأديب المعتدين ونسخ حكم الطواغيت والمتألهين أقرب في صورته إلىٰ تشريعات العقوبات في القوانين التي لا بد منها للعابثين بالأمن المفسدين في الأرض، وحسبنا في الكلام عن موقع الجهاد من حياة المسلمين قول الرسول ﷺ:

«مَن لم يغزُ، ولم يحدِّث نفسه بالغزو؛ مات ميتة جاهلية»، وكيف أن الجهاد ماضٍ إلىٰ يوم القيامة، وحكم الجهاد عندما تُهاجم أرض من أراضي المسلمين حيث يصبح الجهاد فرض عين علىٰ كل المسلمين لقوله تعالىٰ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة:٤١]، والجهود التي بذلها الاستعمار الثقافي وتلامذته لإقصاء المسلمين عن معاني الجهاد فلذٰلك حديث آخر، وإنما الذي نريد له أن يكون واضحاً ابتداءً هو أن حركة الجهاد في الإسلام ليست لوناً من الغوغائية، ومواقف الحماس والخطابة، والمزايدات السياسية الفاقدة

للبصر والبصيرة لأبعاد المعركة وقوة العدو، وتعاملاً مع السنن الخارقة والمعجزات، وإنما هو عقيدة راسخة، وبصيرة نافذة، وخطة محكمة، ودراية عسكرية، وحسن قراءة للظروف والإمكانات، وإعداد مادي متفوق، وانسجام مع السنن والقوانين التي شرعها الله في كتابه وسنّة رسوله ﷺ، وقدرة علىٰ التحكم في سير المعركة ونتائجها، وتميز عن الرايات العمية...

هٰكذا كان الرسول القدوة ﷺ وسلفنا الصالح، رضوان الله عليهم، كان عليه الصلاة والسلام يعمي أخباره عن أعدائه، وكان يعلن عن منطقة ويحارب في أخرىٰ، ويستعمل التورية، ويستطلع قوة العدو، ويتخير أفضل المواقع وأنسب الأوقات، حفر الخندق، وقال لنعيم بن مسعود: «**إنما أنت فينا واحد، وإن الحرب خدعة، فخذل عنّا ما استطعت**»، وكان ما كان مما هو معروف في كتب السيرة والمغازي، فدم المسلم أكرم علىٰ الله من كل شيء في الوجود، والقائد المسلم الذي يفرط في الأرواح ليس قائداً ولا مسلماً، وقد كان القادة المسلمون يحرصون أشد الحرص علىٰ أرواح المجاهدين، كانوا يستأثرون بالخطر ويؤثرون رجالهم بالأمن، وكانوا يتمتعون بإمكانات عسكرية عالية، وعقيدة عن الاستشهاد وثواب الشهيد سامية، كتبت لهم الفوز في معاركهم التي نفخر بها...

ونستطيع القول: إن المكتبة الإسلامية لا تزال فقيرة إلىٰ الدراسات المنهجية المتخصصة للعسكرية الإسلامية في عصورها المختلفة، وإلىٰ القراءة الإسلامية المتخصصة أيضاً لمعارك العالم الإسلامي الحديثة إلىٰ حد بعيد.

نحن أحوج ما نكون في هٰذه المرحلة للتعرف علىٰ تراثنا العسكري، وتلمُّس عوامل النصر لتجنب الهزيمة.



من أسباب التخلُّف العلمي

لا بد من الاعتراف بأن الشخصية المسلمة انتهت إلىٰ صور محزنة من التدين بعيداً عن التبصر بحركة التاريخ، والتعرف علىٰ سنة التداول الحضاري، وباتت تعيش خارج حدود الزمان والمكان، وتفتقر لأبسط مستلزمات عمارة الأرض، تحاول تعويض مركّب النقص أمام التحدي الحضاري العالمي بالاحتماء بالتاريخ والتراث، والافتخار بإنجاز السلف في العلوم والفنون والآداب. وتعجز عن تمثُّل هٰذا الميراث ونقله من ورائها إلىٰ أمامها للتزود منه، والاهتداء به للمستقبل، فهي في الحقيقة تعاني اليوم الاغتراب من وجهين: الاغتراب الحضاري المعاصر بعجزها عن الإنجاز والمساهمة فيه، والاغتراب التاريخي أيضاً لعدم قدرتها علىٰ تمثله والاهتداء به.

ولعل من نافلة القول: التأكيد علىٰ أن الإسلام اعتبر طلب العلم فريضة، واعتمد حسن توظيفه وسيلةً لبناء الحضارة المثلىٰ، ذٰلك أن الإنجاز الحضاري التاريخي كان مرتبطاً باستمرار بمدىٰ استجابة المسلمين للخطاب الإلٰهي، وارتفاعهم إلىٰ مستوىٰ إسلامهم، وحاجات عصرهم، وأن عهود الركود والتخلف والتقليد كانت تلقي بظلالها علىٰ فهم المسلمين للخطاب الإسلامي، وإدراك أبعاده. وقد لا يكون مجدياً كثيراً التأكيد علىٰ أن الإسلام دين العلم والمعرفة بعد أن أصبح الأمر بدهيةً علىٰ مستوىٰ التصور والتطبيق التاريخي، إضافة إلىٰ أن معضلة التخلف العلمي والتقني التي نعاني منها اليوم، لا تحل بكثرة الشكوىٰ والنواح علىٰ الماضي، والبكاء علىٰ الأطلال، وخاصة عندما ينقلب البكاء إلىٰ لون من ألوان التداوي والتخدير، ولا يصل بصاحبه إلىٰ مرحلة القلق الحضاري، الذي يؤدي إلىٰ استشعار التناقض

والتحدي بين الواقع القائم والمثال المأمول، ويبصر بالسبيل المحقق للهدف.

كما أن المشكلة لن تحل أيضاً بمزيد من المواقف الخطابية العاطفية، أو الحماس والتوثب الروحي فقط، وإنما لا بد من الإدراك الكامل لمشكلة التخلف، ودراسة المناخ الذي مكّن لها، ومعالجة الأسباب، وما يقتضيه ذلك من الصبر والدأب والمراجعة وتصويب الخطو، وعدم الاقتصار على الإحساس بالظواهر والأعراض.

حل المعادلة الصعبة:

وقد يكون صحيحاً أن المنتمين للإسلام، الملتزمين بشرائعه، استطاعوا إلى حدٍّ بعيد كسر الحاجز النفسي، وأمكنهم التخلص من المحاصرة، والخروج من المناخ الذي أريد لهم، وضرب على عالمهم: من أن العلم والتقنية يناقض الدين والتدين، وأن سبب التخلف والرجعية والانكسار الحضاري؛ كامن في الإيمان بالدين، وبمقولاته الغيبية.

وبإمكاننا القول هنا: إن أعداء الإسلام استطاعوا استيراد المعارك التي دارت بين العلماء ورجال الكنيسة أي: بين الحضارة والكنيسة في العصور الوسطى، إلى المناخ الإسلامي، في محاولة لتحقيق النصر الذي حدث هناك؛ إنهم استوردوا المعركة التي لم يكن الإسلام طرفاً فيها، ليستوردوا انتصارات موهومة، دون وعي بالميراث الثقافي، والشخصية الحضارية التاريخية، والإنجازات العلمية للأمة الإسلامية. ومشكلتهم الأساسية أنهم اعتمدوا الحضارة الغربية ومقولاتها مقياساً لكل دين وحضارة.

نقول: لقد استطاع الملتزمون بالإسلام، حل تلك المعادلة التي كانت تبدو صعبة بين الدين والعلم، وأمكنهم فعلاً التحقق بأدق الاختصاصات، واعتلاء أرقى المنابر العلمية، والمساهمة في الإبداع والاختراع، مع احتفاظهم بهويتهم الثقافية، وانتمائهم الإسلامي والتزامهم الشرعي، ولو حاولنا الآن القيام بإحصاءات للمتفوقين بالاختصاصات العلمية النادرة في

العالم العربي والإسلامي، لوجدنا معظمهم من الملتزمين إسلامياً، لأن الإيمان وفّر لهم طاقاتهم، وأحسن توجيهها، وضبط سلوكهم، وأكسبهم الطمأنينة وسكينة النفس، وكلها شروط مطلوبة للإنجاز العلمي، بينما نرىٰ الآخرين يحملون الخيبة والفشل، ويحاولون استدراك نقصهم، وتخلفهم، وفشلهم بالانتماء إلىٰ أفكار وهيئات ومؤسسات تصنع الشهرة وتساهم بالوصول إلىٰ السلطة، والأضواء التي نراها لبعض النماذج أقرب إلىٰ صناعة الأجنبي، وهي بعيدة أصلاً عن الساحة العلمية.

يضاف إلىٰ ذٰلك، أن التقدم العلمي والتقني الذي يتضاعف اليوم كل عشر سنوات تقريباً لم يسجل إصابةً واحدة علىٰ الخطاب الإسلامي، ومعرفة الوحي بعد خمسة عشر قرناً، بينما لم يستطع النص الديني المعمول به قبل الإسلام، الصمود أمام الحقائق العلمية البسيطة، وسقط عند الصدمة الأولىٰ.

التخصص في خدمة العقيدة:

ومع ذٰلك يبقىٰ السؤال الكبير المطروح هنا: هل استطاع الملتزمون بالإسلام الذين أمكنهم التحقق بأدق الاختصاصات واعتلاء أرقىٰ المنابر العلمية، توظيف واستثمار هٰذا التخصص في خدمة العقيدة وصناعة الحضارة، وتحقيق كسب مقدور لأمتهم؛ أي جعل الاختصاص العلمي في خدمة العقيدة والدعوة والمبادئ الإسلامية؟ لا شك بأن الإجابة الدقيقة حول هٰذا السؤال تقتضي استقصاءً للعديد من العوامل الداخلية والخارجية، واستقراءً للمعوقات علىٰ أكثر من صعيد أيضاً، وإن كنا نعتقد أن الإصابة الذاتية الداخلية تبقىٰ هي الأساس، والعامل المؤثر ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. وعلىٰ الرغم من أنه قد يكون للملتزمين بالإسلام بعض العذر لما هم عليه، لأنهم انشغلوا بخاصة أمرهم، وحماية أنفسهم، ومواجهة العداوات والكيود لهٰذا الدين التي استنفذت معظم طاقاتهم؛ إلا أنه لا بد من القول أيضاً: بأن الكثير منهم، عجزوا عن امتلاك الرؤية الشاملة لوسائل وآفاق الدعوة إلىٰ الله لسبب أو لآخر، وبذٰلك حاصروا أنفسهم قبل أن يحاصرهم أعداؤهم.

إنهم لم يروا للدعوة إلىٰ الله إلا طريقاً واحداً، وموقعاً واحداً، ولوناً واحداً من ممارسة الخطابة والوعظ والإرشاد.. إلخ، وبذٰلك انفصلوا بتصورهم الخاص للدين عن الحياة بمواقعها المتعددة، ولم يدركوا أهمية مؤسساتها المختلفة، ولم يحتملوا ما تقتضيه المرابطة في الآفاق المتعددة من صبر، ومصابرة، ومجاهدة، وثمار بعيدة الأجل، فتركوا الكثير من المواقع العلمية، ووقفوا جميعاً في وجه العواصف السياسية التي تحاول اقتلاعهم، ولم يستطيعوا تماماً أن يدركوا أهمية التخصص العلمي ومراكزه ومؤسساته، وضرورته، وجعله في خدمة الدعوة إلىٰ الله، وأنه من أهم الوسائل المعاصرة للنفوذ إلىٰ المواقع المؤثرة، والنفاذ إلىٰ المجالات المتعددة.. وقد لا نأتي بجديد إذا قلنا بأن العلماء والتقنيين اليوم هم الذين يحكمون العالم فعلاً، ويقررون مصيره، وأن الذين يحتلون مراكز البحث العلمي والأكاديمي هم صانعو القرار والموقف السياسي في نهاية المطاف وأن القرارات السياسية لم تعد تنشأ في فراغ، وإنما هي ثمرة لما تقدمه مراكز المعلومات، ولسنا بحاجة لإبراز دور يهود ومدىٰ تأثيرهم في هٰذا المجال، وأن جيش العلماء من اليهود في مراكز البحث العلمي والمخابر والجامعات ومؤسسات تطوير الأسلحة، كان ولا يزال هو المؤثر في رسم السياسات العالمية علىٰ مستوىٰ الشرق والغرب معاً.

الاكتفاء الذاتي فرض كفاية:

ومن الأمور التي لا بد أن نعرض لها في هٰذا المجال، أن المسلمين اليوم بشكل عام ـ كثمرة للتخلف والعجز ـ نراهم أكثر حرصاً علىٰ الفروض العينية منهم علىٰ الفروض الكفائية؛ حيث تقع قضية العلم والتقنية؛ بل قد تستغرقنا وتشغلنا أحياناً بعض المستحبات والمندوبات، علىٰ حساب الفروض والواجبات، وقد يستنكر بعضنا علىٰ المقصِّر في بعض المندوبات والمستحبات ما لا يستنكر علىٰ المتقاعس في أداء الواجبات والفروض الكفائية! وبذٰلك انكفأنا عن الكثير من المواقع العلمية المؤثرة، إضافة إلىٰ انحسار ساحة الفروض الكفائية في تصورنا للفروض.

وهٰذه من الإصابات التي لحقت بالشخصية المسلمة، والتي لا بد من علاجها؛ ذٰلك أن التخصص العلمي والتقني في التصور الإسلامي، ليس شرطاً للنهوض، وبناء المستقبل، وتحقيق الاستقلال، والتخلص من التبعية والتحكم الأجنبي فقط، وإنما يتجاوز ذٰلك إلىٰ البُعد الديني، والمسلك الأخلاقي الذي يترتب علىٰ فعله الثواب، وعلىٰ تركه العقاب والتأثم؛ إنه من الفروض الكفائية، ومن المعلوم أن فرض الكفاية واجب اجتماعي تكافلي مسؤوليته ذات بُعدين: بُعدٍ فردي، بحيث يصبح فرض عين علىٰ مَن باشره وتوجه إليه إذا تعين قيامه بهٰذا الفرض لكفاية الأمة؛ وبُعدٍ اجتماعي لأن أداءه منوط بأفراد المجتمع جميعهم، ثواباً في حالة الكفاية، وعقاباً في حالة العجز والعطالة.

وقد عرف علماؤنا فرض الكفاية بأنه: الأمر الذي إذا قام به بعض المسلمين، سقط الإثم عن الباقين وإذا تركوه أثموا جميعاً. وكلمة (قام به) فُسرت في عصر التخلف العلمي بمجرد مباشرته، سواء تحققت الكفاية أم لا، حتىٰ لم يرَ الكثير من مسلمي التخلف اليوم مثالاً لفرض الكفاية إلا صلاة الجنازة، ولعل ذٰلك لأننا في حالة موت وتخلُّف كما يقول الشيخ الغزالي، أما العلوم والفنون والصناعات والزراعات وما إلىٰ ذٰلك فهي خارج دائرة اهتمامنا، إننا نُحسن استيرادها واستهلاكها.

والحقيقة أن الذي نفهمه من معنىٰ (إذا قام به) أي: إذا أدّاه علىٰ الوجه الأكمل، فلا تبرأ الأمة المسلمة من الإثم ما لم يكن فيها من المتخصصين والعلماء والتقنيين بقدر كفايتها، هٰذا إذا لم نقل بمسؤوليتها تجاه الإنسانية عامة التي تقتضيها القيادة والشهادة.

ومن الإصابات البالغة التي لحقت بالشخصية المسلمة اليوم: أن الكثير ممن اختاروا الطريق العلمي أو التقني كفايةً لأمتهم، وتحقيقاً لأداء ما تقتضيه أمانة الاستخلاف والاستعمار في الأرض، ونتيجة لمناخ التخلف والفهم الديني المحزن، والعجز، بدأ يشعر بعقدة الذنب تجاه دينه وإسلامه، لاعتقاده بأن طريق العلم والتقنية، مناقض لطريق الدعوة والعمل إلىٰ الله،

فما عليه إذن إلا أن ينسحب من الساحة، ويتوقف عن المتابعة في جامعته ومعهده، ومخبره، ليتحول إلىٰ واعظ ومرشد، ومفسر وفقيه، يدخل نفسه في أمور كثيرة قد يقتضيها الاختصاص الدقيق واستحضار الأدوات الضرورية اللازمة للفهم وهو لم يتحقق بها، وبذٰلك يزيد المسلمين تخلفاً علىٰ تخلفهم، واضطراباً وبعثرة وتمزقاً، ويدع مكانه واختصاصه معطلاً، ظنًّا منه بأن عمله لا يقع ضمن التكاليف الشرعية. والأدهىٰ من ذٰلك كله، ظنّ بعض المسلمين أن وجودهم في موقع الاستهلاك ووجود أعدائهم في موقع الإنتاج والتصنيع من نعم الله عليهم (!!) لأن الله سخّر لهم الأعداء لخدمتهم، إنها معطيات التخلف والانحطاط والتدين المغشوش المغاير للمسيرة الحضارية الإسلامية وسائر إنجازاتها.

في غرفة الانتظار:

الإنسان المتخلف العاجز يقتصر علىٰ الجلوس في غرفة الانتظار، ولا يرىٰ من الإنجازات ـ التي جاءت ثمرة لتقدم العلم والتكنولوجيا ـ إلا عيوبها. وتكبر هٰذه السلبيات في عينه وتكبر، حتىٰ تصل به إلىٰ ضرب من الحلم والوهم (حلم اليقظة)، بأن هٰذه الحضارة سوف تؤول إلىٰ السقوط والانهيار لمصلحته، وما عليه إلّا أن يمارس حالة الانتظار، ويعفي نفسه من أي دور ومسؤولية، أو تحقيق أية خصائص تؤهله للتبادل الحضاري. فالحضارة علم وتقنية، فكر وفعل ومعارف إنسانية متبادلة، وتراكمات علمية مستمرة، وخصائص وصفات نفسية تؤهل للقيام بالدور المطلوب، أما الرؤية النصفية التي تقتصر علىٰ الولع بتتبُّع العيوب، وتكبيرها، والاقتصار علىٰ ذٰلك وانتظار سقوطها لمصلحتنا؛ فهو لون من خداع النفس، وتكريس واستمرار لواقع العطالة. ولا يفوتنا هنا أن نذكر بأن بعض علماء الحضارة أكثر إحساساً بسلبياتها منا، وهاجسهم الدائم البحث عن سبيل العلاج.

وعلىٰ الجانب الآخر، ومن خلال العجز نفسه الذي يورثه مناخ التخلف، لا يرىٰ بعض المسلمين اليوم من الحضارة المعاصرة إلا إنجازها، وإبداعها، وتقدمها علىٰ مختلف الأصعدة، إلىٰ درجة يُصاب معها بضرب

من العمىٰ العلمي عن أزمة إنسان هٰذه الحضارة، وإصاباته المتعددة، والسلبيات الكثيرة التي ترافقت مع هٰذا التقدم العلمي. فيعيش حالة العجز الكامل، ويسيطر عليه ذُهان الاستحالة، فيفتقد بذٰلك أية قدرة علىٰ الإنجاز أو الأمل بالإنجاز مستقبلاً. والمحصلة سوف تكون واحدة في نهاية الأمر، بين مَن لا يرىٰ إلا العيوب فينتظر السقوط لمصلحته، وبين مَن لا يرىٰ إلا الإنجاز والإبداع، فينبهر بتقدم الآخرين ويلغي نفسه تماماً.

عدا عن أن كثيراً من المسلمين اليوم، يظنون أن مشكلة التقدم العلمي والتقني يمكن أن تُحَل بمزيد من الحماس والإخلاص والتوثب الروحي فقط، بعيداً عن فقه آيات القرآن، وهدي النبوة، وسيرة السلف العملية: كيف تعاملوا مع الأسباب، وأدركوا علل الأشياء، وسنن التغيير، وقوانين التسخير.

أما البكّاؤون، الذين يبكون علىٰ الأطلال، وينسحبون من الساحة، ويستغرقهم الحديث عن إنجازات السلف، والافتخار بها، فإنهم يساهمون بشكل سلبي ـ وربما عن حسن نية ـ بالإحباط والانكسار النفسي، وتكريس الهزيمة التكنولوجية أمام التحدي القائم.

الإعجاز العلمي:

وقد يكون الوجه الآخر للقضية، وكلون من التعويض عن مواجهة الواقع، والعجز عن الإبداع، والاحتماء بميراث الماضي، والوقوف عند حدوده، دون القدرة علىٰ تجاوز الماضي إلىٰ الحاضر، وتعدية الرؤية الحضارية، ما نراه اليوم من التوسع فيما اصطلح علىٰ تسميته: الإعجاز العلمي للقرآن، علىٰ الرغم من بعض التحفظات علىٰ هٰذه التسمية لدىٰ الكثير من علماء المسلمين الذين يرون أن ميدان الإعجاز في القرآن ليس في المجال العلمي أصلاً، فالعلم في تقدم، وتطور مستمر. وقد بلغ اليوم شأواً واسعاً، وكلما تقدمت الأيام تتبلور الحقيقة العلمية أكثر.

وخلود الرسالة الإسلامية يعني، فيما يعنيه، خلود المعجزة، وعدم

قدرة الإنسان علىٰ الإتيان بمثلها، وأظن أن تطبيق ذٰلك في ميدان الإعجاز العلمي سيؤدي إلىٰ الكثير من المفارقات والتمحلات. والقرآن كتاب هداية أولاً وقبل كل شيء، وليس كتاب علمٍ وتكنولوجيا. ولا أحد يستطيع أن ينكر أن القرآن عرض لبعض الحقائق العلمية، ولفت نظر الإنسان إليها، ليحقق هدفه في الهداية، ويفتح طريق البحث العلمي أمام المسلمين، وأن هٰذه الحقائق لم تكن معلومة في عصر نزول القرآن، وأن العلم أثبتها بعد آمادٍ وآماد.

وقد يؤكد العلم كل يوم ما يُكسبنا الاطمئنان إلىٰ صحة النصّ القرآني، ولا شك أن الحقائق العلمية التي عرض لها القرآن في عصر الأمية العلمية تعتبر من دلائل النبوة وبرهان صدقها، أما تسميتها إعجازاً فأظن أن القضية ليست بهٰذه السهولة والبساطة. ومن طبيعة العلم التطور، وكلما تطور حقق إنجازات وحقائق أكثر بكثير من الماضي كله.

ومن الحقائق التي لا مجال للتشكيك فيها: أن القرآن وضع العقل البشري في المناخ العلمي، ووفّر له الإسلام الشروط والظروف المطلوبة لتحقيق ذٰلك؛ فموضوع القرآن: بناء الإنسان، ووظيفة الإنسان: القيام بأعباء الاستخلاف والإعمار عن طريق العمل وفقه قوانين التسخير. ولذٰلك طلب القرآن النظر، والملاحظة، والاختبار، وإدراك علل الأشياء، وأسبابها، ليبدع الإنسان ويبتكر، وينجز، وعرض لبعض الحقائق العلمية لتحقيق غرضه في الهداية، كما أسلفنا، وصمد النص القرآني خلال خمسة عشر قرناً أمام الحقائق العلمية. لكنّ أخشىٰ ما نخشاه أن يستغني بعض المسلمين اليوم عن محاولة الإبداع والإنجاز العلمي والتقني، واستنفار المسلمين لذٰلك، للخلاص من السيطرة والتحكم، بالكلام عن إعجاز القرآن العلمي، كلون من التعويض؛ لذٰلك نرىٰ بعضهم اليوم كلما اكتشفت نظرية أو حقيقة علمية، يجهدون أنفسهم عن حسن نية، في التدليل علىٰ أن القرآن عرض لها، أو أثبتها قبل العلم. وأقل ما يقال في ذٰلك: إنه جهد في غير موقعه، أو هو دليل إدانة علىٰ تخلف المسلمين، وعدم فقههم للقرآن، وانتفاعهم بما عرض له من الحقائق، ومتابعة المسيرة العلمية. ويكفينا في ذٰلك أن الإسلام

رسم سياسة العلم والتقنية وضبط المسيرة العلمية بقيمه الهادية، وحدّد هدف العلم وبيّن حكمته ولفت نظر الإنسان إلىٰ علل الأشياء وأسبابها، ودعاه إلىٰ ملاحظة الاطّراد في القوانين الاجتماعية والحضارية والمادية.

من هنا نقول: بأن المناخ العلمي والعقلي الذي وفّره القرآن للإنسان، دفعه إلىٰ البحث والكشف، والإبداع في المجالات كلها، ولم نلمح في تاريخنا الحضاري الطويل، تقدماً في العلوم الشرعية والإنسانية، وتخلفاً في علوم الكون، وإنما كان العقل الإسلامي مبدعاً في المجالين معاً؛ كما أن إصابات التخلف وانطفاء الفاعلية، جاءت في المجالين معاً؛ فقياس محيط الأرض والتقدم بعلم الرياضة والطب والكيمياء، ترافق مع النبوغ في الاجتهاد، والقدرة علىٰ مواجهة المشكلات. ومتغيرات العصر والتقليد والركود في العلوم الشرعية، ترافق مع تخلفٍ وقعود في العلوم الكونية أيضاً.

أسلحة معروفة:

كما أن أمراً آخر يرد في هٰذا المجال، وهو الدعوة إلىٰ أسلمة المعرفة، فعلىٰ الرغم من أهميته وضرورته وفائدته وحاجة الحضارة المعاصرة له بعد أن فقد الهدف والحكمة؛ إلا أنه من وجه آخر قد يكون مشابهاً للكلام والاهتمام بالإعجاز العلمي للقرآن، والاستغناء به عن الإنجاز العلمي الإسلامي. فالمعرفة العلمية كما هو معروف ثمرة لرؤية إسلامية للعالم والمخترع، تقتضي توجيهاً للعلم المنتج، وتوظيفاً له ليحقق حكمةً وهدفاً.

لذٰلك نرىٰ أن: الاقتصار علىٰ النظر في النواتج العلمية للآخرين، والتفكير بتحويلها إلىٰ المسار الصحيح يبقىٰ قليل الجدوىٰ، وإن كان عملاً طيباً في بعض جوانبه، لٰكن العمل المجدي أكثر: أن يُبنىٰ العالم المسلم الذي يقدم معرفة إسلامية ابتداءً، ويتحكم في مسارها وهدفها، لتكون سبباً في إسعاد البشرية.

أي أن المطلوب أسلمة العلماء، فهو المقدمة لإسلامية المعارف، لأنه

من الصعوبة بمكانٍ أن نتمكن من التحكم بتوجيه نتائج العلم تحت شعار أسلمة العلوم، إلىٰ الوجهة التي يريدها الإسلام، ونحن لا نمتلك المقدمات والوسائل التي أوجدت تلك النتائج. إن الذين يمتلكون المقدمات، غالباً هم المتحكمون بالأهداف؛ فإسلامية العلوم تبدأ من امتلاك المقدمات والوسائل، ومن ثم تحويلها لتكون في خدمة الإنسانية.

صحيح أن العلم اليوم، أتقن الوسائل، والمقدمات، وافتقد الهدف والحكمة؛ بل نستطيع القول: بأن الوسيلة انقلبت هدفاً تحت عناوين وشعارات مضللة مثل فرية العلم للعلم، والفن للفن، وصار الأمر إلىٰ هٰذا التمرد العلمي الذي أصاب الإنسان نفسه وصنع أزمته. فإنسان الحضارة اليوم بأشد الحاجة لعملية الإنقاذ.

الثقافة والمدنية والحضارة مفاهيم:

وقد يكون مفيداً ـ ونحن نعرض للقضية العلمية والتقنية ـ أن نحدد بعض المفهومات الضرورية لمستقبل الرؤية الحضارية ولنستبين بعض المعالم. وهي أن علماء الحضارة يرون: أن هناك فرقاً بين كلٍّ من مفهوم الحضارة، والثقافة، والمدنية.

فإذا كانت المدنية تعني: الإبداع، والارتقاء بالوسائل المادية التي تحقق للإنسان الرفاه في مجال الصناعة، والعمران، والمواصلات، والزراعات... إلخ، أي أن موضوعها وسائل الإنسان (عالم الأشياء) والإبداع في مجال الماديات، وأن الثقافة تعني: الارتقاء بخصائص وصفات ومزايا الإنسان، وحسن تأهيله وتربيته، واكتسابه مجموعة معارف تساهم بتشكيل شخصيته، وتكوين نظرته السوية إلىٰ الكون والحياة، وتحديد هدفه وتكوين نسيجه العام، أي أن موضوعها الإنسان نفسه (عالم الأفكار) والإبداع في مجال المعنويات.

فإن الحضارة تعني: المدنية والثقافة معاً. فإذا اقتصر التقدم العلمي علىٰ وسائل الإنسان وأشيائه المادية فقط، فلا يخرج عن كونه تقدماً مدنياً

ولا يمكن تسميته حضارة، وهٰذا هو الحاصل اليوم في التقدم العلمي للمدنية الحديثة؛ حيث تتقدم أشياء الإنسان علىٰ حساب الإنسان ذاته. لأن هٰذا التقدم أهمل إنسانية الإنسان، وتنمية خصائصه وصفاته، وتكوين ذوقه العام وتطهير وجدانه، والارتقاء بنظرته للحياة والأحياء. إنه أخرج الإنسان بخصائصه وصفاته وأشواقه من دائرة اهتمامه، وما أهداف زيادة الإنتاج التي دفعت إلىٰ نظريات تقسيم العمل والاصطفاء المسلكي وهندسة الأداء وحذف الحركات غير المجدية في عملية الإنتاج؛ إلا لون من إلغاء إنسانية الإنسان وتحويله إلىٰ آلة صمّاء ينظر إليها من خلال ما تقدمه من إنتاج حتىٰ أصبح الإنسان بعد ساعات العمل يعاني من اهتزاز في أطراف جسمه، ويقوم بحركات عشوائية مماثلة لما يمارسه في العمل. إنه افتقد السيطرة والتحكم في حركته كإنسان.

ومن الغباء الشديد؛ عدم الاعتراف ورؤية التقدم المادي للعلم والتقنية اليوم، كما أنه من الغباء أيضاً، عدم رؤية الإصابات التي لحقت بهٰذا التقدم، لأنه اقتصر علىٰ وسائل الإنسان وخسر الإنسان نفسه كما أسلفنا.

ولن نتكلم عن الأسباب الكثيرة التي سبّبت تخلف العالم الإسلامي العلمي والتقني؛ فلذٰلك مجال آخر. لٰكن السؤال المطروح: هل يستطيع المسلمون اليوم - وهم علىٰ مشارف القرن الحادي والعشرين - أن يقدموا إسهامات تنقذ حضارة الأزمة أو تعالج أزمة الحضارة؟

شروط لا بد من توفرها:

لا شك أن ما يمتلكه المسلمون من رصيد ثقافي، وتاريخ حضاري، وموقع جغرافي، وتجانس بشري، ومواد أولية وخامات وطاقات مختلفة، ورسالة سماوية إنسانية، وخطاب عالميّ، يؤهلهم أن يقدموا شيئاً مهماً للحضارة المنقوصة بشكل عام، ولو من الناحية الفكرية علىٰ الأقل، بعد أن أصبح العالم دولة واحدة وتيسرت وسائل الاتصال. كما أن بإمكانهم النهوض العلمي والتقني علىٰ المستوىٰ المادي والعلمي.

إضافة إلىٰ ذٰلك، فإن العقل المسلم اليوم والمهارات والسواعد الإسلامية تشكل مساحة كبيرة في آلية التقدم العلمي والتقني في الغرب، وأن مجموعة الأدمغة المهاجرة من العالم الإسلامي لسبب - أو لآخر - لو أتيحت لها الظروف والشروط والمؤسسات المناسبة، لاستطاعت أن تختصر مسافة التخلف، وتردم فجوته؛ بل وتستطيع أن تقدم شيئاً آخر لا يزال مفقوداً علىٰ مستوىٰ الحضارة البشرية.

إن هجرة الكفاءات من البلاد العربية فقط، تكلف الأمة ما يزيد علىٰ مائة مليون دولار سنوياً من رأسمالها، عدا الخسارة الدائمة من عائد هٰذا الاستثمار، والتخلف الذي يورثه علىٰ مختلف الأصعدة.

إن ٥٠٪ من الأطباء المهاجرين إلىٰ أمريكا، وعددهم ٢٤٠٠ طبيب، و٢٣٪ من المهندسين، و١٥٪ من الفيزيائيين، هم من العرب عدا إخوانهم في العالم الإسلامي، وغيرهم كثير في مختلف التخصصات. ولسنا بصدد الكلام عن عوامل الطرد من هنا، والجذب من هناك، وإنما لنعطي مؤشراً ولو بسيطاً علىٰ أن التقدم العلمي هناك يمتص الخبرات والعقول كلها، ليبقىٰ العالم الإسلامي متخلفاً، ويبقىٰ العالم الغربي متحكماً.

ولنا أن نتصور عندما يتحول المخزون العقلي لأمة من الأمم إلىٰ ميادين الإنتاج في أمة أخرىٰ، فالعقل المتفوق والساعد والمال والمواد الأولية للعالم الإسلامي تصب في الحضارة الغربية، فكيف يمكن النهوض والتقدم، والحالة هٰذه؟

وفوق هٰذا وذاك، فإن باب الإبداع والإنتاج مسدود تقريباً أمام النخبة في العالم الإسلامي. وهناك آلاف القصص عن أطباء بلغوا أوجاً في التحصيل العلمي، لكنهم لم يستطيعوا الاستمرار في وطنهم، لهٰذا السبب أو ذٰلك، وقس علىٰ ذٰلك المهندسين والتقنيين والموهوبين، فهٰؤلاء غالباً ما يتحولون إلىٰ موظفين جالسين وراء المكاتب يوقعون الأوراق، أو يلقون المحاضرات النظرية، أو لا يفعلون شيئاً أحياناً، أو يوضعون في أعمال تلغي عقولهم واختصاصاتهم، وتُسقط من حياتهم سنوات الإبداع والخبرة.

يضاف إلىٰ ذٰلك، أن هامش الحرية في العالم الإسلامي ليس من السعة، بحيث يستوعب المستوىٰ العقلي، والإبداعي، علىٰ الرغم من أن العقل العلمي ليس سياسياً دائماً بالضرورة. فالعقل العلمي مشغول بإبداعه واختراعه، ولا يتطلب أكثر من مناخ مقبول من حرية الفكر، والحوار، والمناقشة، وتبادل الرأي للقيام بالتجارب والدراسة، وهٰذا مع الأسف، مفقود في كثير من بلدان العالم الإسلامي، بسبب من تحكم الدول المتقدمة التي تفرض هٰذا المناخ من الاستبداد السياسي علىٰ عالم المسلمين ليصب رصيده من النوابغ والعقول في نهاية المطاف في مصلحتها.

لذٰلك فأولىٰ الخطوات في هٰذا الأمر حل المعادلة الصعبة بين العلم والحكم، أو بين الثقافة والسياسة في العالم الإسلامي؛ وإلّا تبقىٰ الجهود مبعثرة، والاغتراب واقع، سواء كان الاغتراب عن الوطن، أو الاغتراب في الوطن، ولا أمل في النهوض.



من القضايا الاقتصادية المعاصرة

المصرفية الإسلامية.. ملامح وملاحظات

إن تجربة المصارف الإسلامية سوف تواجَه بكثير من التحديات الداخلية والخارجية علىٰ حدٍّ سواء.. وسوف تكال لها التهم كيلاً، وتكبَّر أخطاؤها... وقد يكون في بعض هٰذه التهم حق، لٰكن لا شك أن فيها الكثير من التجنّي...

أحلّ الله لنا الطيِّبات، وحرّم علينا الخبائث، فأحلّ البيع وحرّم الربا، وآذن المرابين بحرب من الله تعالىٰ ورسوله ﷺ، وندبهم إلىٰ توبة الفكر والممارسة والسلوك، والتوقف عن الظلم الاجتماعي واستغلال حاجة الفقير، وإلىٰ الاقتصار علىٰ رؤوس أموالهم. كما أقام الحياة الإسلامية علىٰ مبدأ التكافل والتعاون وتنمية روح الاحتساب بعيداً عن إباحية الكسب والإنفاق، فجاءت نظرة الإسلام إلىٰ المال، وتنظيم طرائق كسبه وإنفاقه جزءاً من بنائه الأخلاقي ونظرته العامة إلىٰ الكون والإنسان والحياة.

هناك قضايا قد يكون من المفيد الإشارة إليها، وهي أن تحرر عالم المسلمين من الاستعمار السياسي ـ إذا سلّمنا بذٰلك ـ لم يخلصهم من التورط الاقتصادي والتحكم الثقافي الذي لا تزال مؤسساته التي تعبّر عنه وتعتبر إلىٰ حدٍّ بعيد استمراراً وامتداداً لعهد الاستعمار، تعمل عملها في الحياة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، وليت الأمر اقتصر علىٰ وجود المؤسسات التي تعبر عن فكر الاستعمار وتعتبر امتداداً له، لٰكن المشكلة الحقيقية هنا هي في إعادة تشكيل العقل المسلم وفق الأنماط الاستعمارية حتىٰ تجري عليه سنّة التقليد كما تجري علىٰ كل كائن فقد صلته بعالمه

الأصيل، فيفقد أصالته، ويرىٰ معالجة مشكلاته وقضاياه من خلال القوالب والمناهج والمقاييس التي اكتسبها من محيطه ومناخه الاستعماري، وإذا امتلك موقف اختيار، فإنما يكون اختياره من خلال الحلول المطروحة للحضارة الغربية بشقّيها الرأسمالي والماركسي، مع شيء من التلفيق أو التوفيق مع الإسلام، لٰكنه يبقىٰ عاجزاً عن ارتياد طريق آخر هو الطريق الإسلامي المتميز لانقطاع التواصل مع نسغه الحضاري، وإن توقف العقل الإسلامي عن الاجتهاد والعطاء، والتعامل مع المؤسسات الاقتصادية الربوية القائمة تحت ضغط الضرورة، أو الانسحاب من الساحة وتقليص نشاطه ومعاملاته الاقتصادية إلىٰ الحد الأدنىٰ المسموح به شرعاً، هٰذا الانسحاب وإن كان يشكل موقفاً فردياً، واعتصاماً بالتقوىٰ عن مواطن الشبه، وقد يكون ضرورياً لأنه يشكل صوت النذير الذي يحذر من الانغماس في المؤسسات الربوية، لٰكنه علىٰ كل حال لا يقدّم حلًّا للمشكلة أو يمنح القدرة ولو مستقبلاً علىٰ مواجهتها وكيفية التعامل معها، وأعتقد أنه لا خيار للمسلمين في النزول إلىٰ الساحة، وعدم الاعتداد بالمواقف الفردية الصارمة التي لا يمكن بأية حال أن ترتفع الجماهير كلها إلىٰ مستواها، وإذا أمكن الارتفاع فإنما يعني ذٰلك إيقافاً للمشكلة، وإبقاءً عليها، وليس حلًّا لها...

فقه التجربة:

وقد تكون مشكلة المسلمين ـ التي تولّدت نتيجة لإغلاق باب الاجتهاد، ومحاصرة العقل المسلم بالتقليد ـ هي في التخوف من الإقدام علىٰ التجربة، وفي عقدة الخوف من الخطأ الذي لا بد أن يتولد عنها، واستسهال عملية التقليد والمحاكاة، لأن أقل ما فيها أنها عمل الآخرين، وخطأ الآخرين، ولا شك أن لكل تجربة صوابها وخطأها، وهناك أخطاء لا تخلو منها أية تجربة رائدة، هي من طبيعة الريادة، وتسمىٰ أخطاء الريادة، وهي علىٰ كل حال لا تقلّل من قيمة التجربة، ولا تحط من قدرها، وإنما تسدّد السائرين علىٰ الطريق، ولكل تجربة فقهها، ولا بد لكل حركة من فقه التجربة، ومهما كان التنظير مهمًّا وضرورياً قبل التجربة، فإنه يبقىٰ للفقه الميداني ـ أو ما يسمىٰ بفقه التجربة العملي ـ دوره ومساحته وضرورته.

لذلك نكاد نرىٰ أن وجود الملامح العامة والمبادئ الأساسية التي وردت في الكتاب والسنّة، وهي بطبيعتها أقرب إلىٰ القيم والمبادئ العامة منها إلىٰ القوانين والبرامج التفصيلية، حيث تتحقق المرونة، ويفسح المجال للتجربة الميدانية، وتتاح الفرصة للاجتهاد وإعمال العقل والاستجابة لكل الظروف والأحوال، الأمر الذي يقتضيه خلود الشريعة ـ وهٰذه المبادئ لا بد من الالتزام بها لتعصم التجربة عن الحيدة والانحراف ـ تكفي لتكون إطار الدخول في التجربة، والتحقق بفقهها حتىٰ لا يكون التنظير والافتراض تحركاً في فراغ، والخطأ من فقه الحركة والتجربة كما أن الصواب من فقهها أيضاً، لذلك فلا بد من النزول إلىٰ الساحة والاعتصام بالمبادئ والملامح الأساسية، ومن ثم عدم الرهبة مما يمكن أن يحصل من خطأ، فإنه مأجور.

بل نكاد نقول: إن الخروج من حالة الانتظار والنزول إلىٰ الساحة، والانتقال من المبادئ إلىٰ البرامج أصبح اليوم ضرورة، ذٰلك أن المسلمين تاريخياً أثبتوا انحيازهم إلىٰ الإسلام ومبادئه العامة، وآمنوا بصلاحيته لكل زمان ومكان علىٰ الرغم من كل ألوان القهر والإغراء، لٰكن يبقىٰ الأمر الذي لا بد منه، وهو المحاولات الجريئة لإيجاد البرامج والأوعية الشرعية لحركتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية.. والخروج من حالة الانتظار، والأخذ بسنّة التدرج في طريق العودة إلىٰ الإسلام بعد رحلة الانسلاخ علىٰ مستوىٰ المؤسسات، ومراعاة الوسع، وفعل المستطاع الذي يمكّن من تذليل العقبات، وتسهيل الاقتراب مما ليس مستطاعاً لجعله مستطاعاً... ولا يتحقق ذٰلك دون اجتهاد.

ولعل التردد في ممارسة الاجتهاد، أو ما أسميناه عقدة الخوف من الخطأ التي حالت بين المسلمين وبين استمرار الاجتهاد والعطاء، مردّها أن الاجتهاد بطبيعة الحال لا بد أن يفضي إلىٰ الاختلاف وتباين وجهات النظر في القضية الواحدة، وتكاد تكون المشكلة من بعض وجوهها في غياب أدب الإسلام في معاملة المخالفين بالرأي، فلا يُعذر المخالف علىٰ أنه اجتهد فأخطأ، وإنما يُتَّهم بالإثم والفسوق والعصيان، لذٰلك يتخوف كثير من العلماء من الاجتهاد، ويؤثرون الصمت خوفاً من التجريح، وإيثاراً للسلامة.

ولا يخفىٰ ما يترتب علىٰ توقف الاجتهاد وغياب أدب الاختلاف في الإسلام من فوضىٰ وتخبُّط وجمود وضياع للجماهير المسلمة، وتعطيل للشريعة، وفسح المجال للآراء والأفكار الأجنبية من احتلال الساحة.

الرجل الملحمة:

وأمر آخر نرىٰ أنه لا بدّ من إعادة طرحه ومناقشته في إطار عملية الاجتهاد، ذٰلك أن علماء الأصول وضعوا ضوابط وحدوداً وشروطاً رأوا أنه لا بدّ من توافرها حتىٰ يكون الإنسان مؤهلاً للاجتهاد والنظر. ولا شك أن هٰذه الضوابط كان لها أكبر الأثر في حماية الشريعة من العبث والتأويل والانحراف، حيث قطعت الطريق علىٰ التطاول والادّعاء، ولعل عدم التحقق بها هو الذي أغلق باب الاجتهاد، وقد يكون من المفيد اليوم إعادة طرح هٰذه الشروط ومناقشتها علىٰ ضوء الواقع الجديد، حيث وفّرت الطباعة حفظ الكثير من العلوم والمراجع المطلوبة في الحديث، والتفسير، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، واللغة، إضافة إلىٰ أن تقدم وسائل الاتصال اختصر المسافات، وفتح أقنية للتواصل بين العلماء وإمكانية اجتماعهم بسهولة ويسر.

ولم يعد بالإمكان من خلال الظروف إيجاد الرجل الملحمة، الذي يعرف كل شيء، ولا بدّ من اجتهاد وتعاون الفريق من العلماء، ونكاد نقول: إنّ المطلوب اليوم: هو تحقق أهلية النظر في المراجع التي وفّرتها المكتبة إلىٰ جانب صفة التقوىٰ التي تعتبر العاصم الأساس لكل عملية اجتهادية..

من هنا نقول: إن تجربة المصارف الإسلامية تمثل إحدىٰ الخطوات العملية في محاولةٍ لترجمة المبادئ إلىٰ برامج، وإيجاد الأوعية الشرعية لنشاط المسلم الاقتصادي بعيداً عن المؤسسات الربوية التي تتحكم بتصرفاته، وتنغص عليه حياته، ولا شك أن هٰذه التجربة التي برزت علىٰ أكثر من موقع علىٰ خارطة العالم الإسلامي، والتي جاءت ثمرة لحركة الوعي الإسلامي سوف تواجَه بكثير من التحديات الداخلية والخارجية علىٰ

حدٍّ سواء، وسوف تُكال لها التهم كيلاً، وتُكبَّر أخطاؤها، وقد يكون في بعض هٰذه التهم حق، لٰكن لا شك أن فيها الكثير من التجنّي، وقد تكون الأخطاء من طبيعة الريادة ـ كما أسلفنا ـ التي تسدّد الطريق، وتغني التجربة، وتصلّب عودها، وتقوّم مسارها.

الحصار الربوي:

كما أن التجربة سوف تحاصَر من المؤسسات الربوية علىٰ أكثر من مستوًى، وبأكثر من وسيلة لإسقاطها، وإعادة التحكم من جديد، والاستئثار بالنظام المصرفي للعالم الإسلامي، وقد تدخل الساحة مؤسسات مصرفية تجارية، ترفع شعارات إسلامية في محاولة لاقتناص شعور المسلمين وانحيازهم إلىٰ المصارف الإسلامية التي خلّصتهم من المعاملات الربوية المحرّمة، وتحاول إفساد التجربة من الداخل ونزع الثقة بها، إضافة إلىٰ أن الكثير من العثرات يمكن أن تأتي من المسلمين أنفسهم، وقد يكونون مسلمين مخلصين لٰكنهم غير متخصصين، يظنون أن مباشرة العمليات المصرفية وتقديم الحلول والأوعية الشرعية لحركة المصارف يمكن أن تغني فيها العاطفة الطيبة، ولا بد من الاعتراف ـ وعلىٰ أكثر من مستوًى، سواء كان ذٰلك في مجال الإعلام، أو الاقتصاد والأعمال المصرفية وغيرها ـ أننا لا نزال نفتقد أصحاب التخصص الذين يمتلكون أهلية التحمل والأداء معاً، فتفرض علينا الحاجة الاستعانة باختصاصيين لا يتحققون بالقدر المطلوب من التصور والمعرفة الإسلامية، فتجيء تصرفاتهم وممارساتهم، والحلول التي يقدمونها أو يقترحونها صورة طبق الأصل عن ممارسات المؤسسات الربوية التي ما أُنشئت المصارف الإسلامية إلا للتخلص من رباها.

لذا يمكننا القول: بأن قيام المؤسسات المصرفية الإسلامية، والمؤسسات الإعلامية الإسلامية وغيرها كشف لنا الكثير من جوانب التقصير والتخلف في أكثر من ميدان، وكأننا بالعقل المسلم المعاصر لم يبصر إلّا ميداناً واحداً للحركة، وطريقاً خاصًا في الدعوة، ووسيلة محدودة في العمل الإسلامي، أما بقية الميادين فتكاد تكون خالية تماماً.

كما لا بد من الاعتراف، بأن توقف العقل الفقهي وانسحابه من الساحة بسبب إغلاق الاجتهاد أدىٰ إلىٰ إيقاف التواصل الفقهي والثقافي، وجمّد حركة الفقه المؤسسي، وإن كان الفقه الفردي لم ينقطع.. إن هٰذا التوقف ألحق بالحياة الإسلامية والمؤسسات الإسلامية الكثير من الإصابات التي نعاني منها اليوم، كما أنه عمّق الهوة إلىٰ حدٍّ ما بين الفقهاء والعلماء المتخصصين بالأعمال الاقتصادية والمصرفية الحديثة.

ازدواجية الرقابة:

ولا شك أن المصارف الإسلامية تعاني اليوم من عملية ازدواج الرقابة كثمرة طبيعية للازدواجية في حياتنا ومؤسساتنا التعليمية والثقافية، فهناك رقابة شرعية من علماء مسلمين قد لا تتوفر لبعضهم المعرفة الكاملة بطبيعة المعاملات المصرفية الحديثة، وبالتالي فهو لا يملك التصور الكافي الذي يمكّنه من الحكم الصحيح، كما أن هناك علماء متخصصين بالأعمال القانونية المصرفية قد لا تتوفر فيهم المعرفة الفقهية، ولا يمتلكون أهلية المقايسة الدقيقة والقدرة علىٰ تحديد الحِلّ والحرمة لبعض النشاطات المصرفية..

والمشكلة سوف تستمر، حتىٰ يمكن تأهيل متخصصين اقتصاديين يتحققون بقدر عال من التصور الإسلامي، ومعرفة دقيقة بالمبادئ والأسس الاقتصادية الإسلامية حتىٰ يستطيعوا توليد البرامج وتقديم الوسائل المباحة ضمن إطار تلك المبادئ العامة، ولعل فيما ذهب إليه الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله الكثير من الصواب عندما قال: (إنه ليس من اختصاص الفقهاء أن يدلُّوا علىٰ الحلول الاقتصادية سواء كانت مستنبطة من القرآن الكريم أو السنّة النبوية أو غير ذٰلك، وإنما اختصاصهم أن يقولوا في شأن الحلول التي يقدمها أهل الاختصاص: هل هي تطابق أو لا تطابق الشريعة الإسلامية...) ذٰلك أن الفقهاء هم بمثابة العين السحرية التي تراقب عملية الإنتاج، وتحكم علىٰ قبوله أو ردّه.

وأعتقد أن إغناء تجربة المصارف الإسلامية، وترشيد خطاها، وتسديد

طريقها، وإنقاذها من القصور ومحاصرة المؤسسات الربوية، وتخليصها من التخبط والعثرات، وتقديم البدائل الشرعية والمقترحات العملية للنهوض بها، يمكن أن يعتبر في مقدمة الموضوعات أهمية اليوم.

وقد لا تغني كثيراً الكتابات العاطفية التي يسيطر عليها المزيد من التوثب الروحي والإخلاص في الانحياز إلىٰ جانب المؤسسات المالية الإسلامية، بل لا بد من محاولة الإسهام في تقديم الحلول ووضع البدائل بعد تحديد المشكلات، في محاولة لفك بعض القيود التي ورثناها بسبب القعود عن الاجتهاد، وشيوع الأعمال المصرفية الربوية في حياتنا الاقتصادية ونشاطنا المالي، كما أنه لا بد من تقديم بعض المعالم والعلامات الأساسية للسير في اتجاه مصرفي إسلامي مستقل بعيداً عن التحكم المصرفي الربوي.

وإن كنا لا نزعم: أن الكتابات حول هٰذا الموضوع العام، سوف تقدم الحل المطلوب كاملاً بعد هٰذا الانقطاع والاسترخاء في مواجهة مشكلاتنا الاقتصادية التي توضعت مع الزمن بسبب من توقف فقهنا الاقتصادي المؤسسي العام، وامتداد الفقه الفردي الخاص، فلا أقل من أنها تفتح نوافذ أمام الفكر الاقتصادي الإسلامي لينظر منها إلىٰ الساحة. وأقل ما يقال في هٰذه الكتابات أنها تعين علىٰ النظر، وتُمرِّن الذهن علىٰ الاجتهاد، وتُكسبه حرية التصرف أمام مشكلات لا بد من مواجهتها.

ويبقىٰ الأمل معقود أن تتضافر الجهود، وتقدَّم الدراسات، وتتسع ندوات الحوار والمناقشة حول هٰذه التجربة، لتسديد طريقها، وضمان شرعية عملها، والتزامها بالضوابط الشرعية - خاصة وأن المسلمين جميعاً توجهوا إليها، ووثقوا بها، وائتمنوها علىٰ أموالهم - وعدم التخوف من الأخطاء التي تقع فيها، فإذا أردنا ألا نخطئ فلنغير طبيعتنا البشرية، أو لنتوقف عن العمل ونترك الساحة لغيرنا، ذٰلك أن الساكن والقاعد والمنسحب من الساحة هو الوحيد الذي لا يخطئ!!

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

غياب التنمية.. وشمولية التخلف

إن التخلف الاقتصادي يكون نتيجة لتخلف سياسي وثقافي واجتماعي.. وكل واحد من هٰذه الجوانب يكون مقدمة ونتيجة لغيره في وقت واحد... والتخلف في واحدة من هٰذه الجوانب، مؤشر خلل وفساد في الجوانب الأخرىٰ.

لقد ناط الله سبحانه وتعالىٰ وراثة الأرض والصلاح المطلوب لإعمارها بالقيم الهادية، والحقائق العلمية البانية، وجعل العمل شكراً، وعبادة من أجلّ العبادات وأسماها، ودعا إلىٰ التكافل الاجتماعي، وحرّم الفضل الزائد عن الحاجة وقت الشدّة والأزمة، كما حرّم كنز المال ومَنْعَهُ من التداول وتعطيل وظيفته الاجتماعية، وشرع الزكاة وتوزيع الميراث واعتبرهما وسيلة لتنمية المال وتوزيعه، حتىٰ لا يكون دولة بين الأغنياء دون الفقراء، وتطهير المجتمع من الأمراض الاقتصادية والاجتماعية والنفسية، وحرّم الميسر والاحتكار والربا، وآذن المرابين بحرب من الله ورسوله، لعدم توافق الجهد والثمرة، ولأن المال لا يتولد من تلقاء نفسه، وإنما لا بد له من العمل، ولما فيه من استغلال لحاجة المحتاج، وحجر علىٰ السفهاء والقاصرين لعجزهم عن الالتزام بضوابط الكسب وطرق الإنفاق المشروعة، وجعل الإنسان مستخلفاً في المال، وحدّد له وجوه الكسب وطرق الإنفاق، واعتبر المال وسيلة لا غاية، كما جعل التعامل علىٰ الوجه المشروع كسباً وإنفاقاً جزءاً من عقيدة المسلم، وأن الضرب في الأرض والابتغاء من فضل الله عبادة من العبادات، فالله الذي أمر بالاستجابة للصلاة والسعي لذكره، هو

الذي أمر بالانتشار في الأرض والابتغاء من فضله بعد انقضاء الصلاة، واعتمد العمل دعامة أساسية للاقتصاد والتنمية، وأعطىٰ للزهد مفهوماً جديداً مخالفاً لما ألفه النّاس، ودعا إلىٰ الكسب وزيادة الإنتاج، ورتّب العقاب علىٰ أصحاب الطاقات المعطلة أو التائهة الذين لا يحسنون استثمارها، فإنه «**لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتىٰ يُسأل: عن عمره فيما أبلاه؟ وجسده فيما أفناه؟ وعلمه ماذا عمل فيه؟ وماله من أين اكتسبه وأين وضعه؟**»، وضمن ذٰلك كله بغرس الأصول النفسية والتربية الخلقية وتحقيق القناعة الذاتية من داخل الإنسان، كما وضع التشريعات الملزمة والضابطة لمسيرة الحياة، وشرع الرقابة العامة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لضمان الصواب والسداد.

مفهوم التنمية:

قد يكون من المفيد، ابتداءً، أن نلقي بعض الأضواء علىٰ مفهوم التنمية، هٰذا المصطلح الذي أصبح عنواناً للكثير من السياسات والخطط والأعمال علىٰ مختلف الأصعدة، كما أصبح مثقلاً بالكثير من المعاني والتعميمات، وإن كان يقتصر في غالب الأحيان علىٰ الجانب الاقتصادي، ويرتبط إلىٰ حدٍّ بعيد بالعمل علىٰ زيادة الإنتاج الذي يؤدي بدوره إلىٰ زيادة الاستهلاك، لدرجة أصبحت معها حضارات الأمم تقاس بمستوىٰ دخل الفرد ومدىٰ استهلاكه السنوي، بعيداً عن تنمية خصائصه وصفاته ومزاياه وإسهاماته الإنسانية، وإعداده لأداء الدور المنوط به في الحياة وتحقيق الأهداف التي خُلق من أجلها.

ولا بد من الاعتراف ابتداءً: بأن قضية التنمية ومفهوماتها، لها فلسفاتها المختلفة التي تبلورت من خلال القيم الاعتقادية والظروف النفسية والتاريخية والأزمات المادية التي مرّت بها كل أمة، كما أن لها أوعيتها وأشكالها وووسائلها.

فالتنمية في حقيقتها عملية حضارية، لكونها تشمل مختلف أوجه النشاط في المجتمع بما يحقق رفاهية الإنسان وكرامته، وهي أيضاً بناء

للإنسان وتحرير له وتطوير لكفاءاته وإطلاق لقدراته. . . كما أنها اكتشاف لموارد المجتمع وتنميتها وحسن تسخيرها. . . وتبقىٰ التنمية الثقافية هي غاية التنمية بالمفهوم الشامل للثقافة.

ومن الأمور اللافتة للنظر: أن الدول المتخلفة لا تزال تسعىٰ إلىٰ التنمية الاقتصادية وحدها، ظنًّا منها أن عملية التنمية والترقي تنحصر في إطارها، ذٰلك أن التخلف مشكلة متعددة الأبعاد، تتفاعل في إيجادها جوانب المجتمع كلها. . فالتخلف في مجال الاقتصاد لا يمكن أن يوجد في مجتمع بمفرده متعايشاً مع تقدم سياسي أو ثقافي أو اجتماعي، وإنما يكون التخلف الاقتصادي نتيجة لتخلف سياسي وثقافي واجتماعي. . فكل واحد من هٰذه الجوانب يكون مقدمة ونتيجة لغيره في وقت واحد. . والتخلف في واحدة من هٰذه الجوانب مؤشر خلل وفساد في الجوانب الأخرىٰ.

من هنا نقول: إن القضية الاقتصادية أو قضية التنمية لا يجوز أن تُفهم؛ إلّا ضمن إطار اجتماعي وثقافي ونفسي وعقائدي، وإن مجرد استيراد أو تغيير الهياكل أو الأشكال الاقتصادية هو تشويه لحقيقة التنمية، تلك العملية الشمولية التي تتطلب هياكل ومتغيرات اقتصادية إلىٰ جانب عوامل نفسية اجتماعية وتربوية وإعلامية ملائمة.

وقد تكون المشكلة التي نعاني منها أن تحليل عمليات التنمية والتحديث في المجتمع العربي الإسلامي تستند غالباً إلىٰ مقولات نظرية طوِّرت علىٰ ضوء التجربة التاريخية لمجتمعات أوروبا، ومن خلال معطياتها التي تتعلق بالتحضر والتصنيع، أكثر من كونها نابعة من الظروف الخاصة بالمجتمعات الإسلامية، ومحاولة إخضاعها للمراحل ذاتها في التحول والتحويل.

خصوصية الأمة:

ولا نريد أن نؤكد هنا؛ أن لكل أمة خصوصيتها وعقيدتها ونظرتها إلىٰ الكون والإنسان والحياة، وأن شخصيتها التاريخية الحضارية إنما تشكلت من خلال ذٰلك كله، وأن عمليات التنمية المأمولة يجب أن تأخذ بعين الاعتبار تلك الخصوصية، وأن استيراد الخطط والخبراء لا يغني فتيلاً إذا ما اعتمد

علىٰ ذٰلك بشكل كامل؛ حيث إن تلك الخطط نبعت من خلال الظروف الخاصة بالمجتمعات الأخرىٰ ووضعت في اعتبارها معادلة الإنسان النفسية والاجتماعية في تلك المجتمعات.

فالذين يحاولون استيراد الخطط والخبراء كما يستوردون الطعام واللباس والدواء والحذاء دون الالتفات إلىٰ تلك المعادلة وتلك الخصوصية، لا يزالون يعيشون علىٰ الأوهام حيث يمتلكون البصر ويفتقدون البصيرة. والواقع الذي نعيشه، والصورة التي انتهت إليها الخطط المستوردة في العالم الثالث، أكبر دليل علىٰ ذٰلك، وإن كان يحلو لبعضهم المماراة بالباطل ومحاولة الإلقاء بالتبعة علىٰ فساد التطبيق، وليس علىٰ الخلل في الخطط المستوردة وبُعدها عن معادلة الإنسان النفسية والاجتماعية، لأنها إنما جرِّبت ونجحت في أماكن أخرىٰ، ولم يسألوا أنفسهم ولو لمرة واحدة عن سبب فساد التطبيق وسبب عدم تحقيق الانسجام بين الهيكل ـ الجسم المستورد ـ والروح الذاتية للأمة.

ونحن لا نريد بهٰذا إغلاق الأبواب والنوافذ وعدم الإفادة من التجارب العالمية في إطار التبادل المعرفي، وإنما الذي ندعو إليه هو إعطاء الشروط الفنية والنفسية وخصوصية الأمة بُعدها الصحيح والكامل في عملية التنمية المأمولة.. وكثيرة هي الأمم التي استفادت من التراكم المعرفي العالمي في مجال التخطيط والتنمية، وحققت النهوض بل والتحدي التقني مع احتفاظها بخصوصيتها ومعادلة إنسانها النفسية والاجتماعية. ولا يستطيع أحد أن ينكر التنمية والتحديث التقني في اليابان والصين مع احتفاظهما بالإنسان واللغة ـ رغم تعقيداتها ـ والثقافة الذاتية.. والفرق واضح بين الاقتصار علىٰ استيراد الخطط والخبراء وإسقاط الصورة الشمولية للعملية التنموية وبين الاستنبات وتوفير الشروط الفنية للعمل التنموي بجوانبه المتعددة.

الفرق واضح أيضاً بين التاجر الذي يسافر ليستورد ويعود ليسوّق البضائع الأجنبية والتلميذ الذي يرتحل ليتعلم ويعود ليُنتج.

ونستطيع أن نجزم، من خلال الاستقراء التاريخي والتجارب الحديثة في المجتمعات الإسلامية اليوم، أن عملية النهوض التي تعني التنمية بمعناها

الشامل لا يمكن أن تحقق إلاّ من الداخل الإسلامي، آخذة بعين الاعتبار ـ طبعاً ـ معادلة إنسان الإسلام النفسية والاجتماعية. . . وأن أي تجاهل لهٰذه المعادلة يعني عدم التفاعل مع أية خطة مقترحة، كما يعني تكريساً للتخلف، أو ـ بعبارة أصح ـ تنمية للتخلف ومزيداً من التبعية.

أهمية البُعد الغيبي:

إن إسقاط البُعد الغيبي بالمفهوم الإسلامي، وتراجع فكرة الثواب والعقاب، وعدم تجاوز عالم الشهادة إلىٰ المستقبل الأبعد ـ عالم الغيب ـ والتحضير له عن خطط ومخططات التنمية بمفهومها الشامل تحت ضغط المجتمعات المادية والتفسير المادي للحياة واعتماد الإنسان الاستهلاكي ومساحة الاستهلاك مقياساً للنمو، يؤدي إلىٰ إصابات نفسية وسلوكية واجتماعية تعوق العمل التنموي نفسه في المجتمع الإسلامي.

وقد تكون الإشكالية ـ كما يقولون ـ بفهم البُعد الإيماني وأثر الإيمان والتقوىٰ في إعادة فاعلية الإنسان وفي رعاية واستمرار تلك الفاعلية، ذٰلك أن الإيمان والتقوىٰ ليس عملية سلبية تواكلية قلبية بعيدة عن الاستزادة من الإنتاج والنماء والسلوك الحضاري بشكل عام والتسخير حيث لا بد من الصبر والمجاهدة لتجاوز الظروف القاسية وتخطي الأزمات الطارئة، فالواقع المادي مرتبط إلىٰ حدٍّ بعيد بالأمر النفسي الإيماني وملازم له. . قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٨٦]، وقال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ . . .﴾ [نوح]، وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥﴾ [البقرة]، وقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ۝١١٢﴾ [النحل].

إنها المعاصي النفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تؤدي بالأمة إلىٰ الانهيار وتعوق حركتها وتوقف نموها. . ولذٰلك لا بد من أسلحة

للمواجهة من الإيمان والتقوىٰ والصبر والاستغفار والمجاهدة لتستعيد الأمة العافية والقدرة علىٰ الإقلاع والانطلاق من جديد..

ومساكين أولئك الذين لا يزالون يعجزون ويفتقدون القدرة علىٰ الربط بين الأسباب والمعوقات المادية وبين الشروط النفسية والاجتماعية في مسيرة الأمم الحضارية.

إنهم يعيشون مرحلة القصعة التي تأتي ثمرة المحاكاة والتقليد للمظاهر والأشكال المادية، والجلوس فوق الخامات والإمكانات المادية والعجز الكامل عن استثمارها.

إنهم يحسنون الاستهلاك ويعجزون عن الإنتاج.. ولعل هٰذا الملمح واضح في قول الرسول ﷺ أثناء تشخيص الإصابة لحالة الوهن التي تصير إليها الأمة والتي عبّر عنها بحب الدنيا (القدرة علىٰ الاستهلاك) وكراهية الموت (العجز عن الإنتاج والعمل الصالح).. وهي الحالة التي تعني أيضاً الانتقال من مرحلة الفكرة إلىٰ مرحلة الغريزة حيث يتركز هَمّ الإنسان فيها علىٰ شهوتَي: البطن والفرج.

إن حالة تنمية التخلف التي تعاني منها الأمة المسلمة، والتي تمتد إلىٰ مختلف الأصعدة وتؤدي إلىٰ توالي النكسات الحضارية، واتساع الفجوة بين الواقع والهدف والإمكانات والأمنيات، لها أسبابها الكثيرة التي تندرج تحت العنوان الكبير، وهو عدم تحقق الأمة بإسلامها التزاماً وانتماءً، واستصحاب قيمه في ضبط مسيرة الحياة علىٰ الرغم من مشروعات الأبهة والتظاهر أمام الناس التي يراد منها تغطية الفشل والعيش علىٰ وهم العافية والسعادة بأحلام اليقظة.

ولسنا هنا بسبيل الاستقصاء لهٰذه الأسباب، وإنما هي لمحات بالقدر الذي يسمح به المجال.

القابلية للتخلف:

ولعل في مقدمة هٰذه الأسباب هو وجود قابلية التخلف لدىٰ مسلم اليوم بسبب انطفاء الفاعلية والعطالة التي لحقت بأجهزته حتىٰ انتهىٰ إلىٰ ما هو عليه.

لقد عجزت خطط التربية عن استقراء المشكلات الحقيقية التي يعاني

منها الإنسان في العالم الإسلامي.. وأدىٰ استيراد المناهج وتضاربها وبُعدها عن استلهام الشخصية الحضارية التاريخية وبناء المرجعية الصحيحة، إلىٰ لون من التمزق النفسي والشخصية المهزوزة والرؤية الفكرية المضطربة، وبذٰلك عجزت عن تحضير الإنسان لدوره المنوط به وتحقيق الهدف الذي وُجد من أجله.. كما أن الإعلام في العالم الإسلامي لا يزال مستورداً للكثير مما يفيد وما لا يفيد، بل وما يضر في كثير من الأحيان، بسبب حرصه علىٰ العمل والإرسال لفترات طويلة تتجاوز طاقاته وإمكاناته بحيث يصبح غاية ما في الأمر القدرة علىٰ الاستمرار في الإرسال وملء الفراغ إلىٰ جانب العجز عن الإنتاج الذي ينبثق من عقيدة الأمة ويحمل همومها الحقيقية، ومن هنا لم يساهم الإعلام المقروء والمسموع والمرئي المساهمة المطلوبة في إعادة تشكيل ثقافة الإنسان وصنع إيجابيته.

ولعل الاستبداد السياسي كان هو الحالقة لأنه يعطل الطاقة، ويقضي علىٰ ملكات الإبداع، ويركز علىٰ أهل الولاء، ويطارد أهل الخبرة، ويفرغ الأمة من عقولها المفكرة، وسواعدها المنتجة، ولم يعد خافياً أن من وسائل الدول المتحكمة في العالم اليوم، والتي تسعىٰ إلىٰ توسيع فجوة التخلف، وتأكيد تقسيم العالم إلىٰ أغنياء وفقراء، فرض لون من الإرهاب الفكري والاستبداد السياسي علىٰ العالم النامي يمكّنها من امتصاص القوة المفكرة والتخصصات النادرة وإغرائها بوفرة المال واستقرار الأمن وتحقيق مناخ النمو العلمي والثقافي وتوفير فرص الحرية والأجواء الديموقراطية، لتنتهي إليها.

التبعية الكاملة:

لقد نجح تخطيط الغرب لعصر ما بعد الاستعمار في جعل البلاد العربية والإسلامية تابعة له.. وعلىٰ الرغم من الجهود المبذولة كلها والمؤتمرات التي عقدت والإجهاد الإعلامي لم يزد حجم التبادل التجاري بين الدول الإسلامية عن ١٨ مليار دولار، أي بنسبة ١٠٪ من إجمالي تجارتها البالغة ١٨٢ مليار دولار، بينما يزيد الرقم بين الدول الإسلامية والغرب الصناعي عن ١١٣,٥ مليار دولار.

كما نجح الغرب - بسبب العجز - في جعل العالم الإسلامي في خانة المقترضين، وتكبيله بالديون والفوائد. لقد تضاعفت الديون في السنوات الأربع الأخيرة، وتضاعفت مديونية بعض البلاد العربية لتصل إلىٰ ٦ مرات، علىٰ الرغم من شعارات التنمية واستيراد الخبراء والخطط التنموية.

إن الشعارات ومشاريع الأبّهة والتظاهر والخطب السياسية وإخفاء الحقائق لم يكفِ لحل المشكلات المعقدة.. وأصبح الهاجس الدائم للكثير من دول العالم الإسلامي إمكانية جدولة الديون وإيجاد مصادر جديدة للمديونية، وسوف نعرض هنا عن ذكر هٰذه المضاعفة في المديونية كأرقام وأسماء لأكثر من اعتبار، ذٰلك أن الحقائق لا تزال تخيفنا ونحب دائماً أن نعيش وهم العافية.

ويكفي أن نقول: إن بعض الدول العربية تحاول جدولة ديونها مع أكثر من ١٦ دولة دائنة، وفوائد هٰذه الديون ٧٪ بينما تصل فوائد بعض الديون العسكرية إلىٰ ١٤٪.. لذٰلك نرىٰ أن شروط صندوق النقد الدولي ومن ورائه الدول الصناعية اليوم تتحكم بما عجزت عنه المؤسسات السياسية.

في سنة ١٩٧٨م كانت ديون العالم الإسلامي ٨٢ مليار دولار، ارتفعت إلىٰ ١٤٤ مليار دولار بعد خمس سنوات.. وفي سنة ١٩٨٦م بلغت ديون العالم الإسلامي ٢٣٠ مليار دولار، تُدفع عنها فوائد سنوية تقدّر بـ١٠ مليارات دولار.. هٰذه صورة عن واقع التنمية الاقتصادية في العالم الإسلامي، وهي تسير في طريق مسدود[١]...

لذٰلك نرىٰ أنه لا بد من مواجهة الحقائق، ومن تبني علم الإحصاء واعتماده في معرفة الحقائق وتقدير حجم المعاناة، ولتحديد مسارات خطط التربية والتنمية بعيداً عن العفوية والعشوائية في القرار حيث لم يعد بالإمكان إخفاء الواقع الاقتصادي لأن الصورة غير الحقيقة.. ونعتقد أننا لا نزال نقلد الدول المتقدمة في مجال الدراسات الإحصائية ونجهد أنفسنا في عمل

---

(١) الأهرام ٢٧ أكتوبر ١٩٨٧م.

الجداول وأخذ العينات ثم يكون مصيرها التحنيط، وإلىٰ الآن لم تأخذ طريقها إلىٰ صنع القرار الذي إنما يجيء غالباً متأثراً بدوافع الكسب السياسي والحرص علىٰ مظاهر الأبّهة.

والجداول الإحصائية لا تقتصر - في الحقيقة - علىٰ بيان أوجه القصور والتداعي، وإنما تُعتمد من أجل البحث عن حلول للمشكلات التي قد تتطور بعيداً عن المداخلة والمراجعة المطلوبة في الوقت المناسب، إلىٰ درجة يصبح معها التعامل بالوسائل المعتادة مستحيلاً.. وفي ظل هٰذه الحقائق التي باتت ملموسة يترتب انتهاج طرق جديدة ذاتية بعيداً عن استيراد الوسائل التي جاءت ثمرة لواقع أصحابها فمشاكل الدول النامية الزراعية وصلت إلىٰ شفا الهاوية والتي نجمت عنها المجاعات وترك الأرض بوراً بعد هجرة أصحابها واستقدامهم إلىٰ حواشي المدن وخداعهم بالوعود المعسولة ليكونوا أرصدة بشرية جاهزة للاستعمال في مجال الكسب السياسي، وتزداد خطورة هٰذا الأمر خاصة بعد أن أشهرت الدول المتطورة سلاح الغذاء كوسيلة للمحاصرة.

ونحن هنا لا نقول: بأن الإسلام يقدّم الحل السحري لمعالجة التخلف الذي هو ثمرة لعوامل متعددة وعمر طويل، وإنما الذي نقول: إن الإسلام يقدّم النظرة الشاملة للتنمية، ويحمي من السقوط، ويضع القيم الضابطة لمسيرة الحياة.. ويبقىٰ علىٰ الإنسان ضمن هٰذا الإطار، الاجتهاد في وضع البرامج وإيجاد الأوعية الشرعية لحركة النمو المطلوبة، والمسيرة التاريخية التراثية دليل علىٰ ذٰلك..

وفي اعتقادنا أنه بإمكان المسلمين تقديم الفقه الاقتصادي والاجتماعي والتربوي المطلوب، واستيعاب ومواجهة المتغيرات، والإفادة من تجارب الآخرين بمرونة ويسر، ذٰلك أن الإسلام لا يفصّل البرامج، وإنما يقدّم المبادئ والقيم الضابطة، ويحدّد السياسات والمسارات الأساسية للمجتمع المأمول.

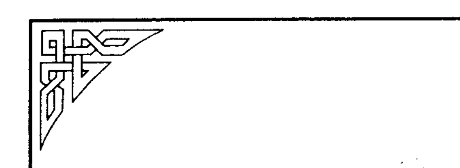
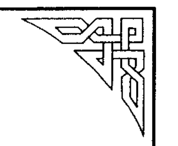
نهاية الكتاب

□ □ □ □ □ □

فهرس الموضوعات

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

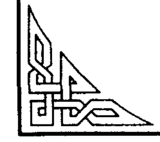
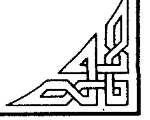
٤/٨٥٨

مراجعات

في الفكر والدعوة والحركة

الجزء الأول

٥/٨٥٩

الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ (٢) ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ (٣) ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ (٤) عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ (٥)﴾.

[العلق: ١ ـ ٥]

* * *

﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (٧٨)﴾.

[النحل: ٧٨]

مقدمة

الحمد لله الذي خلق فسوىٰ، والذي قدر فهدىٰ، القائل: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ [آل عمران] والصلاة والسلام علىٰ المبعوث رحمة للعالمين.

وبعد:

فهٰذه الطبعة الجديدة من كتاب «**مراجعات في الفكر والدعوة والحركة**»، التي عهدنا بها إلىٰ المكتب الإسلامي، بعد أن طبعه المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عدة طبعات، وانقضىٰ الزمن الذي اقتضاه العقد معه.

وقد آثرنا الإبقاء علىٰ ما ورد في طبعة المعهد دون تعديل أو إضافة أو مراجعة، علىٰ الرغم من أن منهجنا: ديمومة المراجعة والتقويم والاجتهاد الفكري، إلا أننا رأينا ـ منهجياً ـ أنه قد يكون من المطلوب أن تبقىٰ الأفكار والطروحات والرؤىٰ والاجتهادات ضمن ظروفها وإطارها الزمني، وأن ينظر إليها وتقوّم من خلال الواقع الفكري والثقافي التي وردت فيه والزمن الذي طرحت فيه أيضاً، دون أي تدخل وإن كانت النتائج والمعطيات والمتغيرات شهدت لبعضها بصواب الاجتهاد، ولبعضها الآخر بالخطأ، وهٰذا من طبيعة البشر وإنتاج البشر.

لٰكن حسبنا أنها كانت خطوة متقدمة في مجالها، ومحاولة جريئة لاستدعاء منهج النقد والتقويم والمراجعة، الذي يكاد يكون غائباً عن واقعنا الثقافي والتنظيمي علىٰ حدٍّ سواء، وكأننا بذٰلك قد نقلنا القدسية والعصمة عن الخطأ من معرفة الوحي في الكتاب والسنة، إلىٰ اجتهاداتنا وأفكارنا، حتىٰ أصبح المس لها أو الاقتراب منها يشكل خطورة علىٰ الدين، وبذٰلك تكرس الخطأ واستمر الخلل.

وما أردنا ونريده من تأسيس منهج للنقد والتقويم والمراجعة لا يعني اختزال تاريخ الأشخاص والجماعات والمؤسسات والجمعيات في موقف واحد، أو إنجاز واحد، أو خطأ أو صواب أو تسوية الخطأ بالانحراف، وإنما كانت الغاية تسليط الأضواء الكاشفة علىٰ جوانب الخلل والإصابات التي حالت دون بلوغ العمل الإسلامي مقاصده وأهدافه.

وقد تكون المشكلة التي تلحق بعمليات النقد والتقويم والمراجعة في كثير من الأحيان، أن تخوننا اختياراتنا واختباراتنا لأدوات الفحص والتقويم، فننظر للأمر من خارج ظروفه وفي غير زمانه وبعيداً عن أهدافه.. تنظر له من خلال ظروفنا، أو أهدافنا أو زماننا أو رغائبنا أو انحيازنا، وعند ذٰلك تتعطل مهمة التقويم وتفتقد شرطها الأساس وهو الموضوعية.

ولعل الأجيال القادمة تكون أقدر علىٰ الإفادة من التجربة، بخطئها وصوابها، فتبدأ من حيث انتهىٰ الآخرون، وبذٰلك تتحول من عقلية التستر وبذل الجهود المستميتة لإعفاء الذات، والتوهم أن النقد والتقويم والمراجعة يؤدي إلىٰ خلخلة الصفوف وبعثرة الطاقات، والسماح للعدو بمعرفة أخطائنا وإصاباتنا فيتسلل منها!

والذي نحب أن نوضحه أن الصفوف التي لا تصمد للنقد والتقويم لا يوثق فيها ولا خير فيها أيضاً، وأن العدو ـ مع الأسف ـ هو أعرف بمشكلاتنا منا إن لم تكن بعض تلك المشكلات استوطنت واقعنا الواهن بسبب تسترنا، وأن الأخطر علىٰ أعدائنا أن نكتشف أخطاءنا ونعمل علىٰ إصلاحها، والأسهل عليهم في السيطرة علينا استمرار الخلل والمعوقات التي تسمح له بالامتداد في داخلنا والاستيطان في نفوسنا.

إن التقويم يعيد البناء، ويسهم باكتشاف الطاقات وحسن توظيفها، ويسهم بهندسة الطاقات والإمكانات ووضع الخطط لتنميتها، ومحاصرة السلبيات.. كما يسهم بتأصيل المؤسسات وحسن تقسيم العمل وبنائه علىٰ التكامل، وليس التآكل والتبعثر والشتات.. إنه أول الطريق إلىٰ التجديد الذي بشّر به الرسول ﷺ وكلف به..

إن صفوفنا وجماعاتنا، وجميعاتنا وتنظيماتنا ليست فوق النقد والمراجعة، وهي بكل الأحوال والأشخاص والظروف ليست أكرم من جيل خير القرون، جيل القدوة، الذي قال الله عنه في أعقاب هزيمة أُحد، وحيث كان القائد هو الرسول ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فالمراجعة لا تعني الرجوع والارتداد علىٰ الأعقاب، والتقويم لا يعني التحطيم، والتجديد لا يعني الإلغاء.

والذي يتدبر آيات القرآن الكريم يكاد يقول: إنها جميعاً، وبما تضمنت من مضامين متعددة ومواصفات خطابية وبيانية متنوعة، يمكن أن تصنَّف في إطار النقد لواقع تاريخي، والتقويم لمسيرة الأمة المسلمة، والتنبيه لأخطائها، والتحذير من علل التدين وبيان أسباب سقوط ونهوض الحضارات، وتعميم الفهم السنني، وأن الحياة تسير طبقاً لسنن جارية لا تحابي أحداً، وأنه لا بد من إدراكها لمعرفة نشوء الظواهر الاجتماعية، واكتشاف جوانب الخلل فيها، والتعرف علىٰ الأسباب التي تحكمها والإمكانية المطلوبة لتسخيرها، ومغالبة قدر بقدر أحب إلى الله، وأن فترات التخلف والركود والاستنقاع الحضاري هي التي تغري الناس بانتظار السنن الخارقة والتعويل عليها، والعدول عن السنن الجارية المطردة، كما تغريهم بصرف طاقاتهم وإمكاناتهم في الفلسفة الذرائعية لإعفاء الذات، بدل اكتشاف موطن الخلل ومحاولة علاجه، وبذلك يتحول المجتمع، ليس فقط إلىٰ مرحلة تكريس التخلف وفلسفة الهزيمة، وإنما إلىٰ تنمية التخلف، كما عبّر بعضهم.

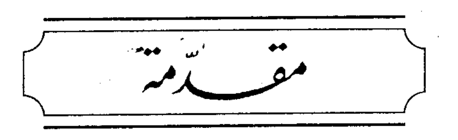
ولعل مما يبشر بالخير ويبصر بالمستقبل، أن القابليات الإسلامية الجديدة بدأت تدرك أهمية النقد والمراجعة، وتحاول الخروج من غرف الانتظار، وتحاول القفز من فوق الأسوار الحزبية، التي حجبت عنها الرؤية إلىٰ حين، وتعاود إبصار أهدافها ومنطلقاتها، ولم تعد تقبل أن تتحول الوسائل من تجمعات وجماعات ومؤسسات وتنظيمات، إلىٰ أهدافٍ بحد ذاتها، وتدرك أنه لا بد من إعادة النظر باستمرار بالوسائل واختبار مدىٰ جدواها، إذ لا يُعقل أن تتغير الدنيا من حولنا، ونصر أن نتعامل معها

بالوسائل نفسها، وكأنها مقدسة لا يجوز أن تمس أو تتغير.

والأمل معقود علىٰ الأجيال القادمة في قدرتها علىٰ استيعاب التجربة، وتحقيق العبرة، والارتقاء بالعمل الإسلامي في ضوء المتغيرات الإقليمية والدولية، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الدوحة: ١٥ ذو القعدة ١٤١٨هـ
١٤ آذار (مارس) ١٩٩٨م

عمر عبيد حسنه



مقدمة

الحمد لله الذي بدأ الرسالة الخاتمة بقوله: «﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤﴾ [العلق]، فجاءت القراءة والمعرفة المطلوبة لكل عناصر الوجود: «باسم الله»، ابتداءً من النشأة ومراحل التكوين، وما زوِّد به الإنسان من استعدادات وقدرات ومهارات، وما هُدي إليه من مسالك، وما عُلِّم من أسماء، ليحسن التعامل مع الكون، ويدرك قوانين التسخير، ويمتلك الأبجدية الإسلامية للقراءة الصحيحة، من منظور «باسم الله»، ويستشعر فضل الله الأكرم، الذي يترافق مع المعارف والعلوم كلها، فيحدد أهدافها، ويبين حكمتها، ويضبط مسيرتها، ويزن معطياتها، بالهدي المقصدي، وبذلك يتميز النسق الحضاري الإسلامي، الذي ينطلق «باسم الله»، ويقصد إلىٰ عبودية الله، وتحقيق رضاه، واهب النعم؛ وانتهاءً بالمصب النهائي للحياة، وتحقيق سعادة المصير.

وبقدر ما يفقه الإنسان القراءة «باسم الله» الذي خلق، وبقدر ما يشعر بفضل الله الأكرم ويكتشف سنن الله في الأنفس والآفاق، ويعتقد أن التزام المنهج السنني تكليف من الله، للقيام بحمل الأمانة. وأداء مهمة الاستخلاف الإنساني، بقدر ما يحقق من الإنجاز، والشهود الحضاري، ويسعد بالتقدم العلمي.

والفكر الإسلامي اليوم، بعد هـٰذه الرحلة الطويلة من تحقيق الوعي بالذات، ومحاولة استردادها، وإعادة الاعتزاز بالإسلام، والالتزام به، والانتماء إلىٰ أمَّتِه، والولاء لرسالته، مدعوٌّ للقيام بالمراجعات التي تمكنه من التعرف علىٰ أخطائه، وتصحيح مساره، واختبار وسائله، وفقه المراحل، وإيجاد البرامج والأوعية الشرعية لحركة الأمة، حتىٰ تكون مؤسساته مواقع

متقدمة تحيي المعاني الغائبة، وتحاول تمثلها، وتحقيقها في الحياة، بشكل يثير الاقتداء، وأن يعاود المراجعة بين حين وآخر لخطابه، وطروحاته، ووسائله، ويضع الخطط المدروسة، ويختبر الجدوىٰ، ويقوِّم المراحل، ويحدد بجرأة مواطن الخطأ، وأسبابه.

ونعتقد أن النقد والمراجعة مؤشر صحة، ودليل خلود كامن في قدرة الأمة علىٰ التجدد والتصويب. . وأنه، أولاً وقبل كل شيء، منهج قرآني، وتطبيق نبوي، رافق الدعوة في خطواتها الأولىٰ. . وعلىٰ الرغم من عصمة الرسول ﷺ، المسدد بالوحي، المؤيد به، فقد كانت بعض الاجتهادات في مواقف النبوة، محلًّا لتصويب الوحي، وعتابه، وتنبيهه، لتكون وسائل إيضاح، وبصائر مُعِينَة علىٰ الإدراك، وسنة جارية، للتدليل علىٰ أهمية هٰذا المنهج، وضرورة تطبيقه، لتسديد المسيرة، وتجنب العثار، والإفادة من تجارب واجتهادات الخطأ، للوصول إلىٰ فقه الحقيقة والصواب، وامتلاك القدرة علىٰ النهوض، وتحريك آليات التغيير الاجتماعي، والإفادة من الإمكان الحضاري، وتوجيه نشاطات الإنسان كلها، وفق المنهج الرباني، شكراً لله الأكرم.

ولعل حسبة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بمفهومها الشامل، والتي هي تكليف، ومسؤولية جماعية، وفرض عين بقدر الوسع، ورقابة علىٰ حسن تنزيل القيم، وبسطها علىٰ الواقع، هي نوع من منهج التقويم الدائم، والمراجعة المستمرة، والتسديد لكل خطوة. . إنه المنهج الذي يوقظ روح الأمة، ويضمن استمرارها، ويحول دون موتها، وانقراضها، بتسترها علىٰ الأخطاء، وفي ذٰلك ما فيه من شيوع الظلم والانحراف.

لقد بلغت الحضارات العالمية اليوم شأواً بعيداً في مجالات التخطيط، والتقويم، والنقد، والمراجعة، والرقابة، وأقامت لذٰلك مؤسسات الصحافة والإعلام، إلىٰ جانب الرقابات المالية والإدارية التي تمثل الحراسة الدائمة، واليقظة المستمرة. وتسليط الأضواء علىٰ كل الجوانب، وإبراز الخلل، والتحذير من الانحراف، إلىٰ درجة يمكن معها أن نقول: إن الحضارة الحديثة، تبدو وكأنها مولعة باكتشاف أخطائها، وتصويب مسيرها، أكثر من

خصومها الذين ينتظرون سقوطها، ولا تهمهم إلا إصاباتها.

كما أقامت ـ حضارات اليوم ـ مراكز البحوث والمعلومات، ومعاهد، لدراسة المشكلات، ومراجعة الخطط، ودراسة الجدوىٰ، وصناعة القرارات، واقتراح الحلول.. ذٰلك، في الوقت الذي نرىٰ فيه التردي، وتكريس التخلف، وتكرار الأخطاء في عالم المسلمين ـ وكأنه ضربة لازب ـ قد أصبحت له فلسفاته، ومسوغاته، ودعاته الذين قد لا ينقصهم الإخلاص في غالب الأحيان، وإنما ينقصهم الوعي والاختصاص، بحيث لا يبصرون الآثار البعيدة المترتبة علىٰ النقد، والمراجعة، ومردود المواقف المبدئية، علىٰ المدىٰ البعيد، وإنما قد يؤخَذون، وينفعلون باللحظة الآنية، والثمرة العاجلة، والموقف الجزئي.

واستجابة للتكليف القرآني في جعل الإنسان، المسؤول الأول عن أخطائه، مهما كانت معاذيره: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة]، ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، جاءت هـٰذه المراجعات في مجال الفكر، والدعوة، والحركة، التي أملتها مناسبات متعددة، ومتباعدة، مما قد يُلمح معه تكرار لبعض المعاني، الأمر الذي يمكن أن يوضع ضمن إطار التأكيد والإيضاح.. ولا ندّعي لها الاستقصاء والاستيفاء، وإنما نعتبرها نوافذ للإطلالة منها علىٰ الواقع الإسلامي، ومنبهات نرىٰ ضرورتها لإثارة القلق السوي، وشحذ الفاعلية للعقل المسلم اليوم، ومساهمة متواضعة وبسيطة في ملف المراجعة والنقد، الذي يجب أن يستمر مفتوحاً، استمرار الحياة نفسها، بكل أخطائها، وصوابها، وما يقتضي الصواب من التأصيل والترسيخ، والخطأ من المراجعة، والتصويب، والتوبة.. ذٰلك أن تشخيص الخطأ والإصابة، هو أول الطريق للمعالجة، والمقدمة الضرورية لاستدراك الأمر، واستنفاذ المريض، ومن ثمّ تقديم العلاج، شريطة أن لا يقتصر ذٰلك علىٰ تحديد العلة، والتعرف علىٰ ظواهر وأعراض المرض، وإنما لا بد مع ذٰلك كله من الكشف عن السبب الذي مكّن للإصابة.

ونعترف، أننا لم نعن كثيراً هنا بتقديم العلاج، وإن كان اكتشاف

المرض، وبيان نوعه، والإشارة إلىٰ موطنه، وتحديد سببه، يساهم بتحديد وسائل العلاج المطلوبة، إلىٰ حدٍّ بعيد، ويحول دون الإصابة مرة أخرىٰ.

ذٰلك، أننا نعتقد أن السكوت عن المراجعة، والتستر علىٰ الخطأ، نكوص عن حسبة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، التي كانت بها خيرية الأمّة، والتي بدونها ستدخل الأمّة مرحلة الغيبوبة الحضارية، والخروج من الحاضر والمستقبل معاً.

ذو الحجة ١٤١١هـ حزيران (يونيو) ١٩٩١م
الدوحة ـ قطر

عمر عبيد حسنه

أولاً: مُراجعات في الفِكر

(أ) نحو صياغة فكرية معاصرة

ميز الله سبحانه وتعالىٰ الإنسان بالعقل، ليجعله بذٰلك أهلاً لتحمل المسؤولية، والقيام بأعباء الاستخلاف الإنساني، فهو المخلوق المكلف.. والمسؤولية في حقيقتها تكليف وتشريف.. فهي تكليف بحمل الأمانة الثقيلة، التي عرضها الله علىٰ السمٰوات والأرض والجبال، فأبَين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، فلو لم يكن مؤهلاً للحمل، بما يمتلك من خصائص وصفات ومزايا وقدرات هائلة. لما نيطت به الأمانة من دون سائر الخلق.. وهي تشريف أيضاً، لأن اختياره من الله لحمل الأمانة، دليل شرفه وأهليته.. والتكليف والمسؤولية إنما هما في الحقيقة دليلا الحرية وامتلاك الاختيار.. فالمسؤولية فرع الحرية، فلا مسؤولية بلا حرية.

وطُلب من المسلمين أصحاب الرسالة الخاتمة، أن يتبصَّروا بأحوال الأمم السابقة، ويستشرفوا التجربة البشرية التاريخية، فينقلوها من ورائهم إلىٰ أمامهم، ليعتبروا، ويحُول اعتبارهم دون السقوط الحضاري، وانتقال علل الأمم السابقة إليهم، والتعرف من خلال الأمر بالسير في الأرض، والنظر في أحوال الأمم، علىٰ سنن وقوانين النهوض والسقوط.

فالتاريخ العام هو المصدر الأساس للفقه الحضاري، والمختبر الحقيقي لصواب الفعل البشري، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

﴿٩﴾ [الروم]. فاكتشاف سنن السقوط والنهوض، من لوازم البناء الحضاري، وإن شئت فقل: من لوازم الشهادة علىٰ الناس، والتأهل لقيادتهم، والقدرة علىٰ اختيار وتمثل الموقع الوسط.

قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

إلّا أن الشخصية المسلمة اليوم، افتقدت الكثير من فعاليتها، ومنهجيتها، وصوابها، وانحسر شهودها الحضاري، وتوقفت عن السير في الأرض، والتبصر بالقوانين، التي تحكم حركة الحياة والأحياء، وبذٰلك تكررت أخطاؤها، وتكرس تخلفها، وعجزت عن التقويم والمراجعة، ومعرفة أسباب القصور، وتحديد مواطن الخلل والتقصير، فأصبح موقعها خارج التاريخ، والواقع المشهود، والمستقبل المأمول.

والغياب الحضاري، أو الأزمة الحضارية، التي نعاني منها ليست بسبب الفقر في القيم، التي أكملها الله، وتعهد بحفظها في الكتاب والسنة، الأمر الذي تستلزمه خاصيتا الخلود والخاتمية في الرسالة الإسلامية.. أو بتعبير آخر: ليست المشكلة، التي يعاني منها العقل المسلم اليوم، مشكلة قيم أو أزمة قيم، وإنما المشكلة كل المشكلة في العجز عن التعامل مع القيم، والإنتاج الفكري، الذي يجسّر العلاقة بين القيم، وبين العصر، أو يساهم بتعدية الرؤية القيمية المحفوظة بالكتاب والسنة، ويفيد من خلود الرسالة الإسلامية وقدرتها علىٰ العطاء المتجدد، المجرد عن حدود الزمان والمكان، لحل المشكلات الإنسانية، وهٰذه وظيفة الفكر أو عالم الأفكار الذي نعاني من التأزم فيه. لذٰلك نرىٰ أن الخلط بين الأزمة الفكرية، التي يعاني منها العقل المسلم اليوم، والتي أورثته العجز عن التعامل مع القيم، وبين التوهم بأن الأزمة في القيم نفسها، كان وراء الكثير من المغالطات، والتراجعات، التي لا تزال تكرس التخلف باسم التدين.. لذٰلك نعتقد أن من الأبجديات الأولىٰ الضرورية لقراءة المسلم اليوم: إزالة الخلط بين المبادئ المحفوظة، والبرامج المطلوبة.. بين القيم الثابتة، والأفكار الغائبة، التي تبسط تلك القيم علىٰ الواقع المعاصر، وتقومه بها.

فالانحسار الحضاري، أو الأزمة الحضارية، التي نعاني منها اليوم هي أزمة فكر أولاً وقبل كل شيء، لأن النسغ الفكري للحضارة الإسلامية، توقف عند حدود العقول السابقة، وكأن الله خلق عقولنا لنعطلها عن الإنتاج، ونعتبر العصور الأولىٰ هي نهاية المطاف، وغاية البعد الزمني بالنسبة للرسالة الإسلامية، حتىٰ انتهينا إلىٰ هـٰذه المرحلة من الانحسار، والاستفزاز، والتحدي الحضاري، التي لا بد من العكوف علىٰ الذات، وتحديد مواطن الخلل والإصابة، واستلهام القيم، في محاولة للتوصل إلىٰ صناعة فكرية معاصرة، قادرة علىٰ الحوار الإنساني، والمواجهة لكل الإصابات والأمراض، التي لحقت بالشخصية المسلمة، فأفقدتها صوابها، وإن لم تفقدها الإخلاص الذي لا بد من استصحابه في أية عملية نهوض.

لقد اتُّهِم العقل المسلم، بأن السبب في عجزه وانحساره الحضاري هو اعتماده في النظر والتفكير علىٰ المنهج القياسي الاستنباطي، بمعنىٰ أنه محكوم ومكبل دائماً بأصل يقيس عليه، أو بنص يحول بينه، وبين الطلاقة في التفكير، فهو دائماً فرع لأصل، يدور في إطار سابق، لا يمتلك الاستقلالية، والحرية، وأن السبب في انطلاقة وإنجاز العقل الأوروبي هو اعتماده علىٰ المنهج الاستقرائي، الذي يحرر العقل من القيود المسبقة، من الأنموذج الحاكم، أو المثال السابق، أو الآبائية كما يعبر عنها بعضهم، أخذاً من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وهـٰذه القضية، لا بد من التوقف عندها بقدر، فمما لا شك فيه أن العقل المسلم يعتمد المنهج القياسي، أو الاستنباطي، في قضايا الفقه التشريعي، في إطار الحلال والحرام، وذٰلك عند إعمال العقل في النص الديني الموحىٰ به لإدراك أبعاده ومقاصده، وتحديد علته، ومن ثم تعدية هـٰذه العلّة إلىٰ الفرع الذي تتوفر فيه العلة نفسها ليأخذ حكم الأصل المقاس عليه، ويكاد هـٰذا الأمر ينطبق علىٰ الإجماع ـ بالمصطلح الشرعي (قياس الجماعة) ـ والقياس (الاجتهاد الفردي)، والاستحسان، والاستصلاح، والاستصحاب، بمعنىٰ أن العقل إنما يتحرك في إطار سابق محكوم ببعض القيود والضوابط التي جاء بها الوحي.

أما فيما وراء الحكم الفقهي التشريعي، فالإسلام يعتمد المنهج الاستقرائي.. يعتمده في كشف السنن، والقوانين الثابتة.. والمطردة، التي تحكم الحياة والكون والأنفس، والآفاق، الأمر الذي يتأتىٰ منه البصارة واستقراء حركة النهوض والسقوط والتداول الحضاري، بل لعل البرهان والدليل علىٰ ثبات السنن واطرادها هنا، يتحقق من الاستقراء، وليس من القياس، فالسير في الأرض، واكتشاف السنن الحاكمة لحركة الحياة، أو فقه الحياة، نلمحه في قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا...﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وقوله تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].. فاكتشاف السنن، والتوصل إلىٰ الدليل، الذي يبين الحق، إنما يتأتىٰ من استقراء التاريخ، والواقع، وآيات الأنفس والآفاق، لٰكن المشكلة جاءت من الامتداد بأحد المنهجين، وتعطيل الآخر، خاصة عندما توقف العقل المسلم عن السير في الأرض، وتعطل عن النظر في الأنفس والآفاق، في العصور المتأخرة، الأمر الذي أدىٰ به إلىٰ الانحسار الحضاري.

وحقيقة أخرىٰ لا بد من إيضاحها هنا، وهي أن المنهج الاستقرائي، الذي يُعزىٰ إليه الإنجاز والإبداع الحضاري، وإطلاقه للعقل من القيود، لم ينطلق من فراغ كما يتوهم بعضهم، وإنما جاء الكشف والإبداع نتيجة النظر في سوابق قائمة، أيضاً، تُستقر أو تستنطق.. والمقدمات أو السوابق التي تمكن من النظر، موجودة في كلا المنهجين.

وخلاصة القول: إن الفقه التشريعي في الإسلام يخضع للمنهج الاستنباطي القياسي، وأن الفقه الاجتماعي والحضاري يخضع للمنهج الاستقرائي.. والإصابة اليوم التي لحقت بالعقل والفكر الإسلامي، لم تقتصر علىٰ أحدهما دون الآخر.. وقد تكون من بعض مشكلات العقل المسلم المعاصر، الخلط بين المنهجين وعدم القدرة علىٰ استخدام كل في مجاله.

وقضية السنن، بمعنىٰ القوانين المطردة والثابتة، التي تحكم حركة الحياة والأحياء، وتحكم حركة التاريخ، وتتحكم بالدورات الحضارية، بما يمكن أن

نسميه سنن التداول الحضاري، استيحاء من قوله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، والتي تعتبر معرفتها شرطاً أساسياً للتبصر بالعواقب، وتؤهل معرفتها إلىٰ تسخيرها والتمكن من الإنجاز والإبداع الحضاري، لا تتأتىٰ إلا من السير في الأرض، الذي فرضه الله علىٰ المسلم بقوله: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُۚ﴾ [الروم: ٣٠].

هٰذا السير، وهٰذا الاستقراء، الذي يحقق الاعتبار لأولي الأبصار، لم يأخذ بعد البعد المطلوب في العقل المسلم المعاصر، وعلىٰ الرغم مما قيل حتىٰ الآن من تعريف للسنن وأهمية إدراكها، وضرورة التعامل معها، إلا أن رصيدنا لم يخرج في ذٰلك عن بدايات ونظرات لم تتجاوز إلىٰ الكنه، ولم تتسع لتشكل مجرًى ثقافياً عاماً في الأمة، وإنما بقيت في إطار بعض المفكرين، والمتأملين، الذين يمكن اعتبارهم رواد الاستطلاع والاستشراف، علىٰ الرغم من أن القرآن حض علىٰ ذٰلك في أكثر من موضع.

لقد كان جيل القرون الأولىٰ يتعامل مع السنن بشكل عملي وتلقائي، لأنهم فقهوا الوحي، أما نحن فلم نزل نبحث فيها، وننظر في مدىٰ أهميتها، وإن كان الاهتمام بالموضوع بدأت تتسع مساحته في إطار الفكر والعقل الإسلامي في السنوات الأخيرة، علىٰ الرغم من اقتصار الأمر في معظم الأحيان علىٰ الحديث عن أهمية الموضوع وضرورته في إعادة تشكيل العقل وتصميم الذهنية الإسلامية، التي لا تزال تعاني من التخلف، بسبب الغفلة عن السير في الأرض والكشف عن سنن الله في الأنفس والآفاق، وأهمية ذٰلك في معرفة قيام المجتمعات، وسقوط ونهوض الأمم.

وبالإمكان القول: بأننا إلىٰ الآن لا نمتلك الرصيد الفكري المأمول في هٰذا الموضوع، الذي تنبه له بعض الرواد مبكراً من مثل الأستاذ «مالك بن نبي»[1] رحمه الله، الذي حاول لفت النظر إليه بمختلف الوسائل، إلا أن العقل

(١) مالك بن نبي ١٩٠٥ ـ ١٩٧٢م:
ولد في مدينة قسنطينة في الجزائر. وانتقل بعد إنهاء دراسته الثانوية إلىٰ باريس، =

المسلم المعاصر، بسبب تشكيله الخاص، لم يُتَح له أن يأخذ حقه من نظرات مالك، ومنبهاته الحضارية، وبقيت تلك النظرات عبارة عن بوارق، ونوافذ تستدعي الكثير من التفكير، والتأصيل، والنظر، حتىٰ تتبلور، ويتم تحويل الذهنية الإسلامية من الألم والإحباط، الذي تعيشه، إلىٰ الأمل، ومن الأمل والأماني إلىٰ الفعل والعمل والممارسة. ذٰلك أن الرؤية القرآنية، والتوجيهات النبوية، تؤكدان أن هناك قوانين وسنناً، تحكم حركة التاريخ، والاجتماع البشري، لا تتخلف، ولا تحابي أحداً، ولولا ذٰلك لما كان في الدعوة للسير في الأرض، والتبصر بالعواقب، والمآلات، التي انتهت إليها التجمعات البشرية، أي معنًى أو مردود، خاصة وأننا نحن المسلمين، نخضع للقوانين نفسها، حيث لا يكفي النظر في النتائج، كما هي حالنا اليوم. بل لا بد من النظر في المقدمات والأسباب التي أنتجتها، حتىٰ يتمكن المسلمون من التحكم بها، وأخذ الحذر من الوقوع فيها، وحتىٰ لا ينتهوا النهاية نفسها.. فالمقدمات نملكها، والنتائج تملكنا. وقد تكون إحدىٰ آفات العقل المسلم اليوم؛ أننا ندع ما نملكه إلىٰ ما يملكنا.

ولا شك أن معطيات الوحي، في الكتاب والسنة، تضمنت خلاصة السنن التي تحكم الحياة والأحياء، بما عرضت له من القصص القرآني، عن نهوض الأمم والحضارات وسقوطها، وربط الأسباب بالمسببات، والمقدمات بالنتائج، بشكل أشبه ما يكون بالمعادلات الرياضية، التي تحكم عالم المادة، ليعتبر أولو الأبصار.

= وتخرج عام ١٩٣٥ مهندساً كهربائياً.. اتجه منذ نشأته نحو تحليل الأحداث، وأبرز مشكلة العالم المتخلف باعتبارها قضية حضارة أولاً قبل كل شيء، لذٰلك وضع كتبه جميعاً تحت عنوان: «مشكلات الحضارة».

من كتبه: «الظاهرة القرآنية»، «شروط النهضة»، «وجهة العالم الإسلامي»، «ميلاد مجتمع»، «الصراع الفكري في البلاد المستعمرة»، «رسالة المسلم في الثلث الأخير للقرن العشرين»، «مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي»، «المسلم في عالم الاقتصاد»..

يعود إليه الفضل في تأسيس ملتقىٰ الفكر الإسلامي الذي لا يزال ينعقد سنوياً في الجزائر.

السير في الأرض: سبيل اكتشاف السنن والتأكد من فاعليتها:

وهنا قضية أخرىٰ لا بد من لفت النظر إليها أيضاً: وهي أن الدعوة للسير في الأرض، التي حث عليها القرآن، إنما هي في الحقيقة للاستدلال والتأكد من فاعلية السنن، التي قررها القرآن، وعدم تخلفها، من جانب، والامتداد والاكتشاف لسنن أخرىٰ بالاستقراء والملاحظة، وديمومة النظر العقلي، من جانب آخر، وإلا فما قيمة القصص القرآني الخالد، إذا لم يشكل عقلاً مدركاً للقوانين والسنن، التي تحكم التجمع الإنساني، وتتحكم بقيام وسقوط الحضارات، هل هي حكايات لتزجية الوقت، أسقطها الزمن، وطواها التاريخ؟!

وقد يكون المطلوب اليوم، أكثر من أي وقت مضىٰ، في مجال الدراسات الإنسانية التي بلغت عند غيرنا شأواً بعيداً، أن نتوجه صوب فقه القصص القرآني، بالقدر نفسه الذي توجهنا به نحو آيات الأحكام، واستنبطنا منها هٰذه الكنوز العظيمة في مجال التشريع، لنكشف فقهاً حضارياً في إطار علوم الإنسان، والقوانين الاجتماعية، التي تحكم مسيرة الحياة والأحياء، والتي تخلفنا فيها إلىٰ درجة لا نحسد عليها.

لٰكن إلىٰ أي مدًى يمكننا القول: بأن السنن التي تحكم النفس والمجتمع هي بنفس الدقة والصرامة التي تخضع لها المادة الصماء، التي لا خيار لها، كما يخضع لها الحيوان الأعجم المدفوع بالغريزة، والجانب المادي في الإنسان نفسه؟ وإلىٰ أي مدًى يُمكن أن تتحكم بالإنسان الحر المختار، الذي يخضع في مسالكه وحركته لكثير من الظروف والتغييرات والمؤثرات؟

فالإنسان والواقع الإنساني، يختلف في طبيعته عن الواقع الكوني المادي من حيث صرامة السنن والقوانين، التي تحكم سيرورته، ولذٰلك يمكن القول: بأن كشف القوانين والسنن، التي تحكم المادة الصماء والكون المادي، تثمر المعرفة اليقينية، وعلىٰ ضوئها يتعامل الإنسان مع الكون في جهوده التي يبذلها في تسخيره لمصلحته، لٰكن الإنسان، والواقع الإنساني، ليس منضبطاً كواقع المادة، فالعنصر الروحي في تكوين الإنسان، والإرادة الحرة، جعلا هٰذا

الواقع يتصف بكثير من الخفاء والغموض في العوامل والأسباب، التي تنشأ عنها الظواهر السلوكية، الأمر الذي يجعله عصياً عن الفهم اليقيني، والاطراد الصارم، خاصة وأن الإنسان هو أداة التحليل ومحله في وقت واحد، بينما في إطار المادة والكون، فالإنسان هو أداة التحليل، أما المحل فشيء آخر منفصل عنه.

وهٰذا لا يعني أن حركة الإنسان، ونهوض وسقوط الحضارات، تسير بشكل عشوائي عبثي، خالية من كل قانون ثابت، بل هي محكومة بقوانين عامة تحكم توجهاتها ومساراتها العامة.. ولو قبلنا جدلاً أن خصائص وصفات المادة والحيوان الأعجم، يمكن أن تنطبق علىٰ الإنسان، لأفقدنا الإنسان الكثير من حرية الحركة والاختيار، ووقعنا بلون من القدرة الرهيبة. التي تلغي إنسانية الإنسان، وعقله، ومسؤوليته وتمنعه من القدرة علىٰ المداخلة والتحكم، وهو أهم ما امتاز به.. لذٰلك نرىٰ أن الاعتقاد بأن معرفة السنن يحسم قضايا الاختلاف في الاجتهاد، والتنوع، والاختلاف في وجهات النظر، ويؤدي إلىٰ وحدة النظر، فيه الكثير من المجازفة والتجاوز والتداخل بين المنهج القياسي والمنهج الاستقرائي.

من جانب آخر، فإن نفاذ السنن، والتحول الاجتماعي والإنساني الذي يخضع لها، يتم ببطء شديد، وعمر مديد، قد يستغرق حياة الإنسان، لذٰلك يكون من الصعوبة بمكان رصد مساراته، والتعرف علىٰ اتجاهاته بدقة في الواقع المشهود.

فالنظر إلىٰ موضوع السنن، التي تحكم الأنفس والآفاق، من خلال بعض الجزئيات في الحاضر التي قد تبدو عصية عن الانسلاك في نطاق السنة. وخارجة عن الاطراد، بل ومناقضة لحقيقة ومعادلة اجتماعية ثابتة، أو النظر إلىٰ ذٰلك من خلال مدًى زمني أقل من العمر المطلوب الذي يقتضيه التفاعل الاجتماعي، بمعنىٰ غياب سنة الأجل المفترض للتغيير الاجتماعي، عن أدوات الدراسة، قد يؤدي إلىٰ لون من الضلال في الرؤية، واضطراب في الموازين، وإنكار لموضوع السنن أصلاً، والانتهاء إلىٰ لون من العبثية والوجودية المدمرة.

من هنا نقول: إن الكشف عن السنن التي تحكم الحركة الاجتماعية لا يتأتىٰ إلا من السير في الأرض، واستقراء التاريخ، والتعرف علىٰ القوانين التي حكمت حركة البشر، للإفادة منها للحاضر والمستقبل، فالحاضر علىٰ كل حال، ليس محلاً كافياً للقراءة والاستقراء.

فقد يكون الحاضر نتيجة لمقدمة في الماضي، وقد يكون مقدمة لنتيجة لا تظهر إلا في المستقبل.. فاستقراء الحاضر وكشف السنن التي تحكم حركته، لا يكون دقيقاً إلا باستصحاب الماضي وما يعطي من حقائق ثابتة لا يمكن أن يخرج عنها الحاضر.. فالإفادة للحاضر إنما تتحقق بالقدرة علىٰ قراءته من خلال وضعه في موقعه المناسب من الحركة التاريخية.

بينما يمكننا أن نلمح حدوث التفاعل في المجال المادي، وإطراد القانون، في زمن قد لا يعتبر شيئاً في عمر الفرد، بعد انقضاء رحلة الاستكشاف التي قد تطول وقد تقصر.

ولعل من الرحمة بالإنسان، والتكريم له، أن تكون السنن والقوانين، التي تحكم حركته، ملامح وتوجهات عامة، وبذٰلك تتضاءل الأخطاء، ويمكن تجنبها، وتكون ساحة التفاعل والانفعال والحرية أوسع مدًى، ولعلنا نستطيع أن نقول: بأن السنن في مجال المادة والكون هي أشبه ما تكون بقضبان الحديد التي يسير عليها القطار، وتحكم وجهته بصرامة، حيث لا يستطيع أن يعدل عنها، أو يخرج عليها، فإذا حاد عنها تعرض للخطر، بينما السنن التي تحكم قضايا الإنسان هي أقرب لحركة السيارة التي تحدد الاتجاه والهدف، ويمتلك السائق معها حرية الحركة أكثر في الوصول إلىٰ غايته... وكل محكوم باتجاه، وإن اختلفت طبيعة ومدىٰ حركته.

لذٰلك نرىٰ علماء وفلاسفة الاجتماع والحضارة، الذين حاولوا وضع قوانين وسنناً للدورات الحضارية، وأسباباً للبناء والسقوط الحضاري، لم يتمكنوا من الوصول إلىٰ الحتمية علىٰ الرغم من أن دراساتهم ذات قيمة علمية رفيعة، إلا أنها لم تتسم بالصرامة والدقة التي خططت للمادة الصماء، ولا نزال نسمع بالتفسير المادي، والنفسي، والسياسي، والاقتصادي، والمذهبي،

والقومي، والقبلي، والديني. . . . . للتاريخ، والتاريخ ثمرة لذلك كله، وإن تفوق بعض العوامل في بعض الظروف. . ونستطيع أن نقول باطمئنان: بأن سننهم وقوانينهم وحساباتهم لم تنطبق تماماً علىٰ الحضارة الإسلامية، التي كانت ولا تزال عصية علىٰ تلك القوانين بشكل صارم، وإن خضعت لها في بعض الجوانب.

سقوط الحتميات في المجال الإنساني:

إن السقوط المريع للبناء الشيوعي في الاتحاد السوفيتي ودول أوروبا الشرقية، دليل جديد بعد تجربة أكثر من نصف قرن، علىٰ سقوط الحتميات وقوانينها التي حاول فلاسفتها أن يخضعوا البشر لها كما أُخْضعت المادة.

ونحن هنا، لا نريد أن نهون من الكسب البشري في كشف السنن في مجال العلوم والدراسات الاجتماعية، وإنما الذي نريد أن نبينه: أن تطبيق قوانين المادة الصماء علىٰ الإنسان الحر المختار المكلف المسؤول، بنفس الصرامة واليقينية، فيه القليل من الصواب، والكثير من المجازفة، وذلك لخضوع الإنسان للعديد من الرغبات، والأهواء، والمؤثرات، والانفعالات، والحالات النفسية المعقدة، التي يمر بها، ولأن الإنسان أداة الكشف والتحليل ومحله، كما أسلفنا، فليس موضوع الدراسة شيئاً خارجاً عنه، فهو الأداة، وهو المحل، ومن هنا يحق لنا أن نفخر نحن المسلمين أن السنن الأساسية التي تحكم الحياة والأحياء عندنا يقينية، لأنها ليست من وضع الإنسان، إنما نستمدها من الوحي، من علم الله الذي لا يخطئ، وأقداره النافذة، وقد بسطها القرآن وبينتها السنة، وأن ما طلب إلينا من السير في الأرض، إنما هو وسائل إيضاح معينة علىٰ الفهم والإدراك، لأحقية وصواب ويقينية السنن.

إن المميزات التي اختُصت بها الأمة المسلمة، تؤكد علىٰ أن السنن التي تحكم الحياة والأحياء لا تتصف بالصرامة واليقينية التي تخضع لها المادة، وحتىٰ الجانب المادي في الإنسان أيضاً. . نلمح ذلك في:

ـ مواثيق الله، وما بيّنه الرسول ﷺ من أن تسليط الأعداء علىٰ الأمة

المسلمة ليس تسليط استئصال، وأن إصابتهم للمسلمين، وإضرارهم بهم، ما هو إلا أذًى، وليس إنهاءً لهم، لأنهم أمة الرسالة الخالدة، والخاتمة، والشواهد التاريخية دليل ذٰلك. . فالأمة المسلمة تمرض وتضعف، لٰكنها تستعصي علىٰ الموت الذي لحق بالكثير من الحضارات السابقة لها واللاحقة عليها.

- وأن الأمة المسلمة لا تجتمع علىٰ الخطأ والضلالة، فلا تزال عصمة الأمة بعمومها قائمة ومستمرة، حتىٰ يرث الله الأرض ومن عليها.

- وأن هناك طائفة من الأمة لا تزال قائمة علىٰ الحق، تحرسه، وتحول دون الانحراف عنه، وتضمن سلامة التواصل الثقافي بين الأجيال، لا يضرها من يخالفها حتىٰ يوم الدين، والتي تشكل خميرة النهوض والإمكان الحضاري في كل حين.

- وأن العشرين الصابرين من المؤمنين المقاتلين يغلبوا مائتين، وذٰلك حتىٰ بعد التخفيف.

- وأن الاستمساك بالإيمان، واقٍ من آثار الهزيمة، وما تورثه من الوهن والحزن، وداع إلىٰ الاستعلاء وعدم السقوط، والمعاودة للشهود الحضاري بعد الانكسار. . إلىٰ جانب عدم انطباق قانون الدورات الحضارية الذي انتهىٰ إليه علماء التاريخ والحضارة والاجتماع، علىٰ الأمة المسلمة. . وهٰذه القضية يمكن أن نعتبرها من خصائص أمة الرسالة الخاتمة، ومواثيق الله لها، مهما حاولنا الحديث عن توفر أو تخلف الشروط والظروف.

نعاود القول: إن الاجتماع البشري لا شك أنه يخضع لسنن قد عرض لها القرآن، وأكدها من خلال تاريخ البشرية الطويل، في القصص القرآني والبيان النبوي، وأن الله لم يخلق الناس عبثاً، وأن من يعمل سوءاً يجزَ به، وأن الإنجاز والإبداع والشهود الحضاري، له شروطه، ومقدماته، وأسبابه، وفروضه، وهو ليس عبارة عن أماني ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء]. . هٰذا قانون الله، لٰكن المشكلة أن نقول: بانطباق قوانين المادة الصماء علىٰ

الإنسان المختار، وهـٰذا لا يعني أن حركة الإنسان خلو من القانون والنظام، وإنما يعني أن المعيار هنا عند الإنسان غيره عند وسائل الإنسان المادية.

البعد الإيماني.. والإنجاز الحضاري:

وأخشىٰ ما نخشاه ـ ونحن نطرح موضوع سنن الله في الأنفس والآفاق من خلال ضغوط العجز والتخلف الداخلي التي يعاني منها العقل المسلم اليوم، والتحدي، والاستفزاز المادي الخارجي ـ أن تغيب عنا النظرة المتوازنة، وهي: إدراك العلاقة بين البعد الإيماني الغيبي، والسنن التي تحكم عالم الشهادة، ودور البعد الإيماني في الهداية إلىٰ هـٰذه السنن، والتفاعل الذي يحدثه الإيمان بين هداية السماء واستجابة الأرض لتحقيق الشهود الحضاري، وربط نتائج ذٰلك بقضية الإيمان.. إن اكتشاف انتظام هـٰذه القوانين، وعملها، يقود إلىٰ الإيمان بالله، والاستدلال بالأمور المادية والسنن الكونية علىٰ الأمور النفسية والإيمانية.

ودور الإيمان في التنبه لهـٰذه السنن، وإعمالها، وما يهب الإيمان والتقوىٰ الفرد المسلم من استعدادات، تدفعه إلىٰ الإنجاز، ولا تقعد به عاطلاً عن التعامل معها.

نقصد أن العلاقة بين البعد الإيماني والإنجاز الحضاري، تحتاج إلىٰ مزيد من النظر والتأمل.. لذٰلك رأينا بعض المدارس الحديثة التي كانت تتعامل مع المادة فقط، تراجعت لتقرر: أنه لا بد من إعادة صياغة المعادلة النفسية والاجتماعية للأمة، حتىٰ تصبح قابلة للتطور والإنجاز التكنولوجي، لأن التكنولوجيا تأتي ثمرة لفلسفة، وعقيدة، ومعادلة نفسية معينة، وبالتالي فلا يمكن أن تتطور في مجتمع عقيدتُه تغاير أو تختلف عن مجتمع نشوئها.

لقد ربط القرآن كثيراً من النتائج المتحصلة من إعمال هـٰذه السنن، بالتقوىٰ.. فمثلاً: ربط بين التقوىٰ وما تؤدي إليه من بصيرة في النظر للأمور، والحكم عليها بالحق والباطل، والصواب والخطأ.. يقول تعالىٰ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

- هناك ارتباط بين الإيمان والتقوىٰ، وبين اكتشاف سنن التسخير وزيادة الرزق:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

- وهناك ربط بين الإيمان والصبر الإيجابي، وبين تجاوز المحن:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة].

- وربط أيضاً بين الاستغفار والتوبة، وبين نزول المطر وتحقيق الخير..

- وهناك ربط بين الانتصار في ميدان المبادئ، والانتصار علىٰ الشهوات، وبين الانتصار علىٰ العدو..

- وهناك أيضاً الربط بين الظلم الاجتماعي ومنع الفقراء حقوقهم، وبين فقدان الثروة..

- وهناك أيضاً الربط بين الفسق والترف، وبين الهلاك..

- وهناك أيضاً ربط بين غياب العدل، وبين انقراض الأمم والحضارات.

ونحن بسبيل الحديث عن سنن الله في الأنفس والآفاق، ومدىٰ خضوع الحياة والأحياء لها، لا بد أن نوضح أنها قدر من قدر الله سبحانه وتعالىٰ، فهو الذي شرعها وسنها وناط تكليف الإنسان بها، وربط جزاء الإنسان وقيمة إنجازه، بمقدار ما يكشف منها، ويلتزم بها، فالقيام بأمانة الاستخلاف الإنساني لا تتم إلا بالتعرف عليها، لأن أمر تسخير الكون مرتبط إلىٰ حد كبير بحسن إدراكها، ذٰلك أن التعرف عليها لا يمنح الإنسان القدرة علىٰ تسخير الكون فحسب، وإنما يمنحه قدراً كبيراً من التحكم بالنتائج، والتخفيف من الآثار السلبية، ومغالبة قدر بقدر، والفرار من قدر إلىٰ قدر، وفي ذٰلك انفساح هائل أمام طاقات الإنسان غير المتناهية، وتحكم في الكون الذي خلق الله الإنسان سيداً له، وجعله محل تسخيره.

والسنن التي تحكم الكون والحياة قدر من قدر الله تعالىٰ كما أسلفنا،

والتعرف عليها والانضباط بمقتضياتها هو حقيقة التكليف، وحقيقة الإيمان، والتوكل، وهي مظهر من مظاهر العدل الإلـٰهي المطلق، حيث لا يصح غير ذٰلك على الله سبحانه وتعالىٰ، فكيف يصح عدلاً أن يعطىٰ من لا يعمل، ويحرم من يعمل، وكيف يمكن للإنسان أن يستجيب لأمر الله، دون معالم هادية، وأسباب موصولة إلىٰ النتائج؟

ويمكننا أن نقول: إن الانحسار الحضاري، الذي يعاني منه المسلمون اليوم، كان بسبب العدول عن الانضباط والانسلاك بالسنن، التي شرعها الله للشهود الحضاري (الشهادة علىٰ الناس والقيادة لهم).. ونخشىٰ أن نقول: إن بعض علل الأمم السابقة التي حذرنا الله منها، والتي كانت سبب انحسارهم الحضاري، تسربت إلىٰ المسلمين، في عصور التخلف والانسلاخ عن الدين، وهي ما يمكن أن نعبر عنه بالغزو الفكري في المجال الديني، مما زعمه بعض المتصوفة من: عدم الاعتقاد بثبات السنن، وإطرادها وعدم تبدلها وتحولها، وتحريم النظر في علة الأشياء وأسبابها، والتوهم بأن الاعتقاد أن الأسباب توصل إلىٰ النتائج، يتعارض مع الإيمان بقدرة الله الذي شرع الأسباب، وقدَّر أن تكون موصلة للنتائج، ويناقض التوكل، ويتعارض مع قدر الله، فكان العدول عن كشف السنن، هو الذي أورثنا الاستنقاع الحضاري، الذي نعاني منه ونظن أننا أكثر إيماناً ويقيناً، كما فعل رجال الكنيسة، فأوقفوا عجلة الحضارة والتقدم العلمي.

الخلط بين السنن الجارية.. والسنن الخارقة:

وقد تكون المشكلة أو بعض جوانبها، في الخلط بين السنن الجارية التي تتطلب فعل مقدمات تحكمها نتائج، وبين السنن الخارقة التي لا تخضع للمقدمات والنتائج، ومن ثم الاستشهاد بالآيات التي غالباً ما تنصرف إلىٰ السنن الخارقة، في مجال السنن الجارية، وبذٰلك خروج عن المنهج، وضياع عن السنن الجارية والخارقة معاً.

ويتفرع عن هـٰذا أيضاً: ضرورة مراجعة وتحديد مصطلح الغيب الذي

ورد ذكره في الكتاب والسنة وهو ما اختُص الله بعلمه، فقد يطلق الغيب ويراد به الماضي (ذٰلك من أنباء الغيب)، وقد يطلق علىٰ الأمر الغائب عن ساحة المشاهدة، وقد يطلق علىٰ المستقبل في عالم الشهادة نفسه، وقد يطلق علىٰ العالَم الآخر (ما بعد الموت)، وهٰذا التحديد يمنحنا فرصة ومدًى أكثر رحابة لجولات العقل، وكشفه، ومساحاته، ويجعلنا أكثر اطمئناناً عندما نحاول رصد المقدمات والأسباب في الحاضر، والتنبؤ بالنتائج في المستقبل.. إننا لا نقترف إثماً، ولا نرجم بالغيب، ولا نتدخل بعلم الله الخاص به سبحانه.

وعلىٰ الرغم من أن الغيب، بمعنىٰ العالم الآخر، له سننه وقوانينه، وطبيعته المختلفة، وأن مصدر معرفته هو الوحي فقط، ودور العقل هو فهم الوحي دون الاستقلال بالنظر، إلا أن مفهوماته العامة، كما جاء بها الوحي، لا تخرج عن المعقولية من ربط الأسباب بالمسببات، والعلة بالمعلول، والمقدمات بالنتائج، لأنه منطق العدل الإلٰهي، كما أسلفنا.. فالدنيا كلها أو عالم الشهادة، مقدمة ومزرعة للعالم الآخر، وواقع المؤمن في الآخرة مرهون بما يقدم في الدنيا، وما يفعله في الدنيا بدافع ما يأمل في الآخرة من نتائج علىٰ عمله.

فالمؤمن يشعر أن عمله واختياره وإنجازه في الدنيا، له دور كبير في تحديد مستقبله ومصيره في الآخرة..

ألا يحق لنا بعد هٰذا، أن نستغرب عزوف المسلمين عن دراسات المستقبل من خلال التعرف علىٰ السنن وملاحظة اطرادها، والمستقبل عندهم لا تحده الدنيا! وتغيب عنهم عمليات التخطيط واستشراف المستقبل بعد أن أصبح علماً له مقوماته واختصاصاته!؟

لقد ربط الإسلام إمكانية الإنجاز بمعرفة الأسباب، وكشف السنن، التي تحكم الكون وعالم الحياة والأحياء، وقدم القرآن «ذو القرنين»[1] أنموذجاً

---

(١) هو عبد صالح ملّكه الله الأرض، وأعطاه العلم والحكمة والسلطان.. وقيل: نبيّ، كما يشهد له ظاهر قوله تعالىٰ: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ...﴾ وسمي ذو القرنين لبلوغه المشرق والمغرب، فكأنه حاز قَرْني الدنيا.. وليس هو الإسكندر المقدوني تلميذ أرسطو، بل كان قبله بقرون.

متجسداً لربط الأسباب بالمسببات، والمقدمات بالنتائج، واعتبر ذٰلك مقدمة لا بد منها للنهوض والإنجاز الحضاري، وبذٰلك لم يكتف القرآن بتأكيد موضوع السنن نظرياً.

فذو القرنين الذي آتاه الله من كل شيء سبباً فأتبع سبباً، وكان له التمكين في الأرض لأنه عرف السنن وانضبط بها:

سار في الأرض، وكانت مساحة رحلته من مشرق الشمس إلىٰ مغربها، وتعرف من خلال هٰذا السير إلىٰ أسباب العجز الحضاري، والتحديات والمعاناة التي تواجه البشر، وأيقن بضرورة توفير الظروف والشروط التي تكسبهم المنعة، فكان أشبه بالمهندس الذي عرف أسباب التردي، ووسائل التمكين، في الأرض، ووضع الخطط، وأشرك الأيدي العاملة، واستحضر المواد المطلوبة لإتمام عملية الإنجاز.. وقد تكون العودة إلىٰ النص القرآني والوقوف أمام هٰذا الأنموذج بدون حواجز، أدعىٰ إلىٰ التأمل المطلوب:

قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف].

(ب) البعد الثقافي لإنتاج المستشرقين

لعل من الأمور التي تدعو لكثير من التأمل والنظر: أن الشخصية الثقافية الإسلامية، بدأت خطواتها الأولىٰ، وتكليفها بالرسالة الخاتمة بكلمة: «اقرأ».. وأن الأمة المسلمة، تم تشكيلها، وبناؤها وإخراجها خير أمةٍ تحمل رسالة معيارية تشهد علىٰ الأمم السابقة، وتصوِّب مسيرتها، من خلال كتاب: «القرآن».. ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فكان الجهاد الفكري، أو المجاهدة بالقرآن، وبناء الشوكة الفكرية، من أعلىٰ أنواع الجهاد وأسماها، لأن الساحة الفكرية هي الميدان الحقيقي بين الإسلام وخصومه.. قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان].. وكان كل هم الرسول ﷺ، ومطلبه: إيصال الفكرة وكلمة الحق، والتخلية بينه وبين الناس.. وكان جهد الكافرين وهمهم كله: الحيلولة دون وصول كلمة الحق إلىٰ أسماعهم، والشغب عليها، لأنها ستهزم باطلهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت].

فحين كان العقل المسلم في مستوىٰ الإسلام، هدفاً ومقصداً، وفي مستوىٰ العصر، وسيلة ودعوة، يمتلك القراءة الواعية، والإدراك الكامل، والمنهج القرآني السنني، كان في موقع الإرشاد والعطاء للعقل البشري.. حرّك العقول الإنسانية كلها في الاتجاه الصحيح، صوب أهداف الإسلام، فجاء العطاء إسلامياً، وتشكلت الحضارة بجهد إنساني مشترك..

لٰكنه عندما أغلق باب الاجتهاد، وتوقف عن المجاهدة الفكرية، بآفاقها المتنوعة، ورضي بهٰذا الأدنىٰ، كان من الطبيعي أن تتحرك ثقافات الآخرين باتجاه هٰذا الأدنىٰ.. وبذٰلك انتقل من موقع العطاء والتوجيه، إلىٰ موقع

الأخذ والتوجه.. وبدل أن يحمل رسالته، وثقافته، ومعارفه، إلىٰ الآخرين، بدأ ينقل ثقافات الآخرين إليه.. ومن ثمْ بدأت المرحلة الأخطر، وهي: التعرف علىٰ ثقافته، ومعارفه، من الآخرين، ونشدانها في أوعيتهم.. فكان «الاستشراق» الذي خرج من مناخ اللاهوت النصراني الغربي، بكل نواياه، وأسلحته الفكرية، والثقافية، والعلمية، أحد مصادر الفكر الإسلامي!

وبذٰلك لم يقتصر الأمر علىٰ الارتهان الثقافي، والاستلاب الحضاري للغرب، وإنما تجاوز إلىٰ التحكم بثقافتنا الإسلامية، وإعادة قراءتها بمناهج وأبجديات، وآليات فهم غريبة عن طبيعتها، وخصائصها، ومنطلقاتها وأهدافها..

لذٰلك نرىٰ أن المطلوب اليوم: إعادة بناء الشوكة الفكرية، والاستمرار بالإلحاح والتأكيد علىٰ ضرورة توافر الجهود في مختلف المواقع والوسائل للمساهمة في فك التحكم الفكري، والاحتواء الثقافي، وإعادة تشكيل الشخصية المسلمة، وترميم عالم الأفكار، وتنمية الموارد الثقافية، وامتلاك القدرة علىٰ الاجتهاد، وإيجاد الأوعية الفكرية لحركة الأمة، وتنزيل الإسلام علىٰ واقع الناس، وتقويم سلوكهم به، بعد أن افتقدت تلك الشخصيات الكثير من فعاليتها، ومنهجيتها، وصوابها، وانحسر شهودها الحضاري، وعجزت عن التعامل مع قيم الكتاب والسنة، وانتهت إلىٰ التقليد الجماعي، والتخاذل الفكري، سواءً أكان هٰذا التقليد في الهروب إلىٰ ملاجئ التراث الذي لا يخرج في النهاية عن أن يكون اجتهادات بشرية قابلة للخطأ والصواب، علىٰ أحسن الأحوال، جاء ثمرة لمشكلات العصر الذي نشأت فيه، كنوع من التعويض عن مركب النقص، وحماية الذات، وأخذ جرعات من الاعتزاز والفخر بالتاريخ وإنجاز الأجداد، أم كان باللجوء إلىٰ استيراد البديل الأسهل من الخارج الإسلامي، ومحاولة إيجاد الحلول في أوعية الآخرين الفكرية.

المصنع الفكري للتنصير والاستعمار:

ولا شك أن الاستشراق كان ولا يزال يشكل الجذور الحقيقية، التي تقدم المدد للتنصير والاستعمار، والعمالة الثقافية، ويغذي عملية الصراع

الفكري، ويشكل المناخ الملائم لفرض السيطرة الاستعمارية علىٰ الشرق الإسلامي، وإخضاع شعوبه، فالاستشراق هو المنجم، والمصنع الفكري، الذي يمد المنصرين والمستعمرين، وأدوات الغزو الفكري، بالمواد التي يسوقونها في العالم الإسلامي، لتحطيم عقيدته، وتخريب عالم أفكاره، والقضاء علىٰ شخصية الحضارة التاريخية.

لقد تطورت الوسائل، وتعددت طرق المواجهة الثقافية الحديثة، ويكفي أن نشير إلىٰ أن مراكز البحوث والدراسات، سواءً أكانت مستقلة، أم أقساماً للدراسات الشرقية في الجامعات العلمية، وما يوضع تحت تصرفها من الإمكانات المادية، أو المبتكرات العلمية، والاختصاصات الدراسية، تمثل الصور الأحدث في تطور الاستشراق، حيث تمكّن أصحاب القرار من الاطلاع والرصد لما يجري في العالم يومياً.

ففي القارة الأمريكية وحدها حوالي عشرة آلاف مركز للبحوث والدراسات، القسم الكبير منها متخصص بشؤون العالم الإسلامي.. وظيفة هٰذه المراكز: تتبع ورصد كل ما يجري في العالم، ومن ثم دراسته وتحليله، مقارناً مع أصوله التراثية التاريخية، ومنابعه العقائدية، ثم مناقشة ذٰلك مع صانعي القرار، لتبنىٰ علىٰ أساسه الخطط وتوضع الاستراتيجيات الثقافية والسياسية، وتحدد وسائل التنفيذ.

لقد أصبح كل شيء خاضعاً للدراسة والتحليل، ولعل المختبرات التي تخضع لها القضايا الفكرية والثقافية، وجميع الدراسات الإنسانية اليوم، توازي المختبرات التي تخضع لها العلوم التجريبية، إن لم تكن أكثر دقة واهتماماً، حيث لم يعد مجال للكسالىٰ والنيام، والمتخاذلين والأغبياء في عالم المجدِّين الأذكياء.

لقد اكتفينا نحن مسلمي اليوم بمواقف الرفض والإدانة، للاستشراق والتنصير.. اكتفينا بالانتصار، والانحياز العاطفي للإسلام، وخطبنا كثيراً، وانفعلنا أكثر، ولم تعْلُ إلا أصواتنا، ولا نزال نحذر من الغارة علىٰ العالم الإسلامي، القادمة من الشرق والغرب، ومن المخططات الصهيونية الماكرة.

والصليبية الحاقدة، لقد أصبح ذٰلك يشكل عندنا مناخاً ثقافياً، وإرثاً فكرياً، وطريقاً أمثل للوصول إلىٰ المناصب والزعامات، دون أن تكون عندنا القدرة علىٰ إنضاج بحث ذي قيمة في الموضوع، أو إيجاد خطة أو وسيلة مدروسة في المواجهة، أو محاولة جادة لتقديم البديل الصحيح للسيل الفكري والثقافي، والإعلامي، والأكاديمي، القادم من هناك، إلا من رحم الله من جهود فردية تمثل إضاءات، كما أنها تمثل في الوقت نفسه إدانات لهٰذا الفراغ، والادعاء، والعجز، والتخاذل الفكري.

العجز عن تمثل التراث:

إننا لا نزال في مرحلة العجز عن تمثل تراثنا بشكل صحيح، ومن ثم القدرة علىٰ غربلته وفحصه، والإفادة من العقلية المنهجية، التي أنتجته، والقدرة علىٰ إنتاج فكري معاصر يوازيه، من خلال الاهتداء بالقيم المحفوظة في الكتاب والسنة، حيث لا يزال بعضنا يصر حتىٰ اليوم علىٰ نقل القدسية من الكتاب والسنة المعصومين، إلىٰ أقوال واجتهادات البشر الفقهية والفكرية، وفعلهم التاريخي، وبذٰلك يلغي عقله تماماً، ويسقط في فخاخ التقليد الجماعي، ويقف أمام هٰذا التراث للتبرك والمفاخرة، دون أن تكون لديه القدرة علىٰ العودة إلىٰ الينابيع التي استمد منها، فينتج تراثاً معاصراً، قادراً علىٰ قراءة مشكلات العصر، وتقديم الحلول الشرعية لحركة الحياة، ويفكر بوسائل تنزيل الإسلام علىٰ الواقع، وتقويم الواقع به.

والمظهر الآخر للعجز نفسه يتمثل في فريق آخر، يحاول القفز من فوق الفهوم السابقة. والتراث الفقهي والفكري، ضارباً عرض الحائط هٰكذا بحكم عام، وعامي في الوقت نفسه، بكل الإنتاج الفكري، والحضاري الإسلامي، بدعوىٰ التناول المباشر من الكتاب والسنة، دون امتلاك القدرة علىٰ ذٰلك. فكيف يمكننا ـ وهٰذا موقعنا وواقعنا ـ أن نمتلك الشوكة الفكرية، التي تمكننا من النزول إلىٰ معركة الصراع الحضاري والفكري، ونأمل أن نحقق فيها انتصارات للإسلام والمسلمين؟

وقد نلاحظ هنا أن الكثير منا لا يزال مولعاً بالمعارك القديمة، التي انتهت بأصحابها، وأهدافها، وأسلحتها، وزمانها، ومع ذٰلك فهو يصر علىٰ دخول المعركة المنتهية، ويستنزف طاقاته، وطاقات من يستمعون إليه فيها، ويحاول أن يحقق انتصارات في الفراغ، بعد أن تطورت المعركة، وتطورت أسلحتها، وتغير أشخاصها، وتبدلت ساحاتها، وبلغت أبعاداً وأمداء تفعل فينا فعلها، لٰكننا سوف لا ننتبه إليها إلا بعد فوات الأوان، ولا ندخل ساحتها إلا بعد أن تكون قد أدت أغراضها، وحققت أهدافها.

لقد دخلنا المعارك القديمة، ولا نزال ندخلها، وننشغل بها، علىٰ حساب الحاضر وما يدور فيه، والمستقبل وما يخطط له، ويمكننا هنا أن نقول: بأننا سوّقنا لأفكار المستشرقين عن حسن نية، وعملقنا أشخاصهم، دون حسابات دقيقة للآثار السلبية علىٰ أكثر من صعيد، لما يترتب علىٰ ذٰلك، وكأننا لكثرة ما نبدي ونعيد في هٰذه الموضوعات، ونكتب ونخطب، نوحي أننا ما زلنا دون مرحلة النصر، أو علىٰ أحسن الأحوال، لا نزال نعاني من آثار الهزيمة الفكرية التي تعيش في أعماقنا، إلىٰ جانب ما يمكن أن تورثه تلك المعارك من قدرة الخصم علىٰ التحكم بمسار تفكيرنا، ونشاطنا العقلي، لأنه يكفي أن يلقي إلينا ببعض التشكيكات، ليستثيرنا ويحول جهودنا وطاقاتنا إلىٰ تلك المواقع الدفاعية، فينفرد هو بالتخطيط لتحقيق أهدافه.. وكلما حاولنا أن ننتبه، ينتقل بنا من مشكلة إلىٰ أخرىٰ.. فنبقىٰ دائماً في مجال رد الفعل، ونعجز دائماً عن الفعل، ذٰلك أن رد الفعل يملكنا، بينما نحن الذين نملك الفعل.. وسوف تبقىٰ هٰذه المواقف الدفاعية، والأفكار الدفاعية، علىٰ حساب البناء الداخلي، والإنجاز الأهم. ونحن هنا لا نقول: بأن الدفاعات غير مطلوبة، والحراسات لا قيمة لها، وإنما الذي نريد أن نوضحه: إنها عند الأمم التي تبصر مهامها تماماً، وتدرك مشكلاتها حقيقة، تقدر بقدرها.

ولنا في منهج القرآن خير دليل.. فلو أن القرآن الكريم استجاب لكل تمحلات الكافرين وشكوكهم وشبههم، لكانت آياته جميعها تمثل رد الفعل، والاستجابة لطلبات الكافرين، ولما تفرغ لبناء أمة، وإنجاز حضارة.. والذي

نلمحه من منهج القرآن في ذٰلك، أنه طرح من الحقائق والأدلة ما يكفي لمن يريد الاستدلال، والذي لا يستدل بما طرحه من آيات وأدلة، فلن يستدل.. فالمشكلة لم تعد في الدليل، وإنما بعناد المستدِل الذي لا بد من تجاوزه، إلىٰ مرحلة البناء المرصوص، بحيث لا يوجد بعد ذٰلك مداخل وفراغات يملؤها الأعداء.

ومن جانب آخر، فلعل الأساليب الدفاعية، أو الأفكار الدفاعية تشكل نوعاً من الراحة النفسية، لأنها في النهاية تعني فيما تعني: إعفاء النفس من المسؤولية، وإيجاد الذريعة لها عن عملية البناء، والواجب الحضاري المطلوب والغائب.

فإذا كان الكثير منا، علىٰ مستوىٰ الأفراد، والمعاهد، والمؤسسات الأكاديمية، لا يزال يعيش علىٰ مائدة المستشرقين، لفقر المكتبة الإسلامية للكثير من الموضوعات التي سبقنا إليها في مراحل السبات العميق.

وإذا كانت مناهج النقد والتحليل، وقواعد التحقيق، ووسائل قراءة المخطوطات، من ابتكارهم، ووضعهم، فلا بد أن يصدق فينا قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢]، إلىٰ حد بعيد.

وإذا تجاوزنا جهود علمائنا الأقدمين، في تدوين السنة من خلال وسائل عصرهم، وتأسيس ضوابط النقل الثقافي، وقواعد الجرح والتعديل، وتأصيل علم مصطلح الحديث، الذي حفظ لنا السنة، والذي كان من عطاء منهج القرآن في الحفظ والتدوين للوحي، فإننا لا نكاد نرىٰ اليوم ـ فيما وراء الشرح والاختصار ـ سوىٰ النقل لجهود السابقين، من الخطوط اليدوية إلىٰ حروف الطباعة. فقد اقتصر عمل معظم المشتغلين بالحديث والسنة عندنا علىٰ تحقيق بعض الأحاديث تضعيفاً وتقوية، لإثبات حكم فقهي أو إبطاله، أو إثبات سنة، في مواجهة بدعة.. وهٰذا العمل علىٰ أهميته وضرورته يبقىٰ جهداً فكرياً فردياً دون سوية البعد المطلوب، الذي يمكّن من الانتفاع بكنوز الميراث الثقافي.

والذي ينظر اليوم إلىٰ دوائر المعارف، والموسوعات، التي شُكلت لإنجاز الفقه الإسلامي بشكل عصري، يمكّن من الإفادة منه، أو إلىٰ مراكز

بحوث السيرة والسنة، في أكثر من بلد إسلامي، وما وضع تحت تصرفها من الإمكانات، ومضي السنين الطويلة، وهي لا تزال دون إنجاز يذكر، في الوقت الذي نرىٰ أنفسنا مضطرين إلىٰ الرجوع والنظر في موسوعة المستشرقين «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث»[1] للتعرف علىٰ ما نريده، علىٰ الرغم من رأينا فيهم؛ يدرك خطورة التخاذل الفكري، وخطورة الادعاء والتفاخر، والفراغ الرهيب، الذي مكّن المستشرقين، وغيرهم من احتلال عقولنا واستلابنا الحضاري.

وليست مجامع اللغة العربية، التي تحبس نفسها اليوم في مجادلات عقيمة علىٰ حساب الإنتاج المطلوب في معركة التعريب والمعاجم، بأحسن حالاً من موسوعات الفقه، ومراكز السيرة والسنة. وحسبنا أن نقول: بأننا إلىٰ اليوم لم ننتج معجماً للغة، يناسب ابن العصر الحاضر، من خلال تقدم وسائل الطباعة والفهرسة والألوان، ولا نزال إذا أردنا أن نفتش عن معنىٰ لفظة، نضطر لتجريدها إلىٰ مادتها الأصلية، وتحديد الباب والفصل، ومن ثم الرجوع إلىٰ المعجم، بعد هٰذه الرحلة المضنية، التي قد يعزف المثقف معها عن الرجوع إلىٰ المعاجم، في الوقت الذي تطورت خدمة اللغات ووسائل تعليمها ومعاجمها، إلىٰ درجة مذهلة.. بل يمكن أن نقول: إننا كنا الأقدر علىٰ نقد المعاجم العربية التي وضعتها المؤسسات التبشيرية ـ مثل «المنجد» للأب لويس معلوف (١٨٦٧ ـ ١٩٤٦م)[2] ـ والأكثر عجزاً في وضع معجم مناسب، ولا يزال الكثير منا في المدارس والمعاهد يرجع إلىٰ «المنجد» علىٰ كره منه، حيث يفرض وجوده، لأنه الأيسر.

---

(١) رتبه ونظمه لفيف من المستشرقين، ونشره الدكتور أ. ي. ونسنك أستاذ العربية بجامعة لندن عام ١٩٣٦، عن الكتب الستة، ومسند الدّارمي، وموطأ مالك، ومسند أحمد بن حنبل.

(٢) ابن نقولا ضاهر المعلوف اليسوعي، من الآباء اليسوعيين، ولد في زحلة في لبنان، تعلم في الكَلية اليسوعية ببيروت، والفلسفة في إنكلترا، واللاهوت في فرنسا، وأجاد عدة لغات شرقية وإفرنجية.

لقد نجحت العقلية الأوروبية الاستشراقية، في فرض شكليتها وآليتها، علىٰ التحقيق، والتقويم، والنقد، والسيطرة علىٰ مصادر التراث العربي الإسلامي.. وعن طريق الاستشراق والمستشرقين، بادرت إلىٰ التحقيق والطبع والنشر لمجموعة من أكبر وأهم المصادر التراثية. وعلىٰ الرغم من أن بعض الدراسات كانت تقترب من صفة النزاهة والحياد، إلا أنها في النهاية، وبكل المقاييس تبقىٰ مظهراً من مظاهر الاحتواء الثقافي.

لقد نجحت العقلية الأوروبية ـ كما أسلفنا ـ في فرض شكلية معينة من التحقيق والتقويم ومناهج النقد، ويمكن القول: بأن معظم الكتابات العربية المعالجة للتراث، قد سارت علىٰ هٰذا النهج في التاريخ والأدب وغيره، ولم تتجاوزه إلا في القليل النادر، وانتهت ـ العقلية الأوروبية ـ إلىٰ إيجاد ركائز عربية معبرة عنها، ومتبنية لوجهة نظرها، ومدافعة عن المواقع الثقافية التي احتلتها.. حتىٰ في الجامعات، والمؤسسات العلمية، لا يزال الخضوع والاحتكام للقوالب الفكرية، التي اكتسبها بعض المثقفين العرب من الجامعات الأوروبية. لقد ارتُهِنوا للمنهج والمصدر في آن واحد.

الوليد الشرعي للاهوت الغربي:

صحيح أن الاستشراق خرج من المناخ الثقافي للاهوت الغربي بكل مكوناته، وتأسس واستمر ضمن إطار المناخ الاستعماري، وبدأ خطواته الأولىٰ باتجاه العقل الأوروبي، ليحول بينه وبين اعتناق الإسلام، لذٰلك جاءت معظم الدراسات والكتابات باللغات الأوروبية، ولمخاطبة أبنائها، وجاء جل هٰذه الدراسات، إن لم نقل كلها، محكومة بدوافعها وأهدافها، بعيدة عن التزام الموضوعية والعلمية، لأن التزام الموضوعية سوف يفوت غرضها.. ذٰلك أن التزام الموضوعية، سيكون بلا شك في صالح الإسلام، بوصفه دين الله الحق، البعيد عن مواضعات البشر وأخطائهم وتأثراتهم.

وهنا قضية لا بد أن نتنبه لها، لأنها قد تغيب عن أذهان كثير منا، ممن يعرضون لموضوع الاستشراق بشكل خاص، أو القضايا الفكرية والثقافية

بشكل عام، وهي أن الإنتاج الفكري ـ والاستشراق بعض منه ـ هو في الحقيقة يمثل الوليد الطبيعي والشرعي للثقافة التي تنتجه ـ ويُربىٰ في مناخها، فالمفكر هو إلىٰ حد بعيد رهين الثقافة التي ينشأ فيها، وليس وليداً للموضوع المدروس، أو المطروح، باعتباره صاحب الحق الأول في الاهتمام والدراسة.

لذٰلك لا يستطيع أي مستشرق أن يتناول موضوعاته دون أن يخضع للقوالب والحدود الفكرية والعلمية، المفروضة عليه مسبقاً، بسبب من ثقافته التي يصعب عليه الانفلات منها.

ولذٰلك قد يكون من الصعوبة بمكان وضع حدود فاصلة وواضحة بين الاستشراق، والتبشير، والاستعمار.

والذين يجهدون أنفسهم في التفريق، بين الاستشراق، والتبشير، والاستعمار، ليقيموا بذٰلك الجسور الثقافية الغربية إلىٰ الداخل الإسلامي، كالذين حاولوا ـ ولا يزالون ـ إيجاد الفوارق، بين الصهيونية واليهودية، وكم تكون مأساتنا كبيرة إذا اكتشفنا أن هٰذا التفريق في النهاية ليس من اختراعنا واكتشافنا، وإنما هو من جملة الفخاخ الثقافية التي نقع فيها.

نعود إلىٰ القول: بأن الاستشراق بدأ خطواته الأولىٰ باتجاه العقل الأوروبي ليحول بينه وبين اعتناق الإسلام، فكانت الترجمات الأوروبية المبكرة لمعاني القرآن الكريم، والسيرة، ومن ثم بدأت الدراسات التاريخية والاجتماعية والتراثية بعامة، في المعاهد والجامعات والمراكز العلمية، التي أنشئت لتخريج القناصل والسفراء، والكتبة، والجواسيس، لتأمين مصالح بلادهم، وتوفير المعلومات عن بلاد العالم الإسلامي، وإقامة مراكز لدراسة هٰذه المعلومات، وتحليلها، لتكون بمثابة دليل للاستعمار، في شعاب الشرق وأوديته، من أجل فرض السيطرة الاستعمارية عليه، وإخضاع شعوبه، وإذلالها، وارتهانها للثقافة الغربية، والوصول بها إلىٰ مرحلة العمالة الثقافية..
لذٰلك، لم يقتصر الاستشراق علىٰ مخاطبة العقل الأوروبي، كما لم تقتصر كتابات المستشرقين ودراساتهم علىٰ حماية الأوروبي من اعتناق الدين

الإسلامي، وإن كان ذلك هو الهدف الأول، وإنما تجاوزت إلىٰ محاولة إلغاء النسق الفكري الإسلامي، ومحاولة تشكيل العقل المسلم، وفق النسق الغربي الأوروبي، وإنجاب تلامذة من أبناء العالم الإسلامي، لممارسة هـٰذا الدور والتقدم باتجاه الجامعات والمعاهد ومراكز الدراسات، والإعلام، والتربية في العالم الإسلامي، لجعل الفكر الغربي والنسق الغربي هو المنهج، والمرجع، والمصدر، والكتاب، والمدرس، في كثير من الأحيان.

لذلك نرىٰ أن علماء الاجتماع، والنفس والتربية، هم الذين يمثلون الصورة الأحدث للمستشرقين، في الوقت الذي يمارس فيه الخبراء الذين يُستوردون إلىٰ عالمنا، التسويق الثقافي.. فالصورة التي ترسمها وسائل الإعلام اليوم، والقرارات التي يتخذها أصحاب السلطان، التي تخص العالم الإسلامي، هي من صناعة علماء الاجتماع، وتسويق الخبراء.

لقد تطورت أهداف وأساليب الاستشراق تطوراً مذهلاً، وإن كان الكثير منا لا يزال مصراً علىٰ المرابطة في المواقع القديمة، والمحاربة في المعارك المنتهية، التي مضىٰ عليها أكثر من نصف قرن علىٰ أحسن الأحوال، والخروج من الزمان والمكان. كذلك، فالقول: بأن المستشرقين يكتبون لأبناء جلدتهم، إن صدق هـٰذا، فإنه يصدق علىٰ مرحلة البدايات الاستشراقية التي ما نزال نقف عندها، أما تعميمه علىٰ كل إنتاج المستشرقين ففيه الكثير من المجازفة.

لقد اهتم المستشرقون بالتشكيل الثقافي للأمة المسلمة في ضوء رؤية معينة، وخطة مدروسة، لذلك ولجوا جميع الميادين، وحاولوا الوصول والتحكم بالموارد الثقافية كلها، وبحثوا ونقبوا وأثبتوا وجهة نظرهم، وتفسيرهم، في الكثير من القضايا المعرفية، إلىٰ درجة يمكن معها القول: بأن الاستشراق استطاع أن يملي علىٰ الكثير منا وجهة نظره، في مجالات متعددة، بشكل أو بآخر، وإن كان مدىٰ التأثير يختلف من شخص إلىٰ آخر.

لقد كتبوا في الأدب، واللغة والتاريخ، والثقافة، في محاولة لبناء الذهنية الإسلامية وفق النمط الغربي، من خلال المناهج ومصادر الدراسة، ومراجع البحوث، في الجامعات والمدارس، ومن خلال عملية الابتعاث والتلمذة علىٰ

أيدي أساتذة الأقسام العربية والدراسات الشرقية، في الجامعات الأوروبية والأمريكية، لذٰلك نرىٰ الكثير من المثقفين، لا يدركون أنفسهم إلا من خلال رؤية الآخرين، فلم يعد في وسع الكثير منهم أن يكتب عن التراث، والتاريخ، والأدب، دون الرجوع إلىٰ كتابات المستشرقين، وأصبحت الموارد الفكرية الخارجية هي التي تصنع الثقافة الداخلية، أو أصبح الخارج هو الذي يتحكم بالداخل الإسلامي، بسبب من مركب النقص، وعقدة تفوق الآخر، الأمر الذي يؤدي إلىٰ الاستلاب الحضاري، وذٰلك بتسليط نمط الحياة والعلاقات الاجتماعية الغربية، وصولاً إلىٰ السيطرة الفكرية الكاملة.

العقلانية: المصطلح البديل للعلمانية:

ولما كان هٰذا الاستلاب يمكن أن يكون من المنبهات والاستفزازات الحضارية، خاصة بالنسبة لأمة تمتلك شخصية حضارية تاريخية، ولا تزال تحتفظ بخميرة الإمكان الحضاري، عدل المستشرقون بأساليبهم المتطورة، عن الطرح المباشر، إلىٰ محاولة تحييد الإسلام عن واقع الحياة، والدعوة إلىٰ العلمانية.

ولما اكتشف مدلول مصطلح العلمانية، وأنه كلمة حق أريد بها باطل، وأنها تعني فيما تعني: اللادينية، وإسقاط الأديان من البناء الحضاري والثقافي للأمة، كان لا بد من التفتيش عن البديل، فطرح مصطلح العقلنة والعقلانية، إذ كيف لا يقبل المصطلح والإسلام دين العقل!؟ ولما سقط، طرح فصل الدين عن الدولة، في العالم الإسلامي.. كان البديل جاهزاً أيضاً: إن المطلوب اليوم هو فصل الدين عن السياسة، أو عدم تسييس الدين.

وللوصول إلىٰ إعادة التشكيل الثقافي، وفق النمط الغربي، كان لا بد أيضاً من إلغاء عملية التواصل الفكري والثقافي بين الأجيال، ومحاولة فصل الحاضر عن الميراث الثقافي، وذٰلك بالتقليل من قيمته، والقيام بعملية التقطيع والتجزيء.. أو قراءته بأبجدية النسق الغربي، وتفسيره تفسيراً مذهبياً، لا تفسيراً منهجياً من خلال قيمه التي صدر عنها.. أو القيام بعملية الانتقاء من

التراث الفكري، والأدبي، للمواضع التي تهز ثقة المسلم بتراثة، والاقتصار علىٰ إبراز النقاط السود، والتضخيم لحركات الرفض والخروج، والعناية بفكرها وطروحاتها. . أو بمحاولة محاصرة اللغة العربية، التي تعتبر من أهم أدوات التوصيل والنقل التراثي، وذٰلك بتسييد العامية، والتشجيع عليها، إلىٰ درجة الكتابة بها، وإلغاء الحرف العربي من لغات شعوب العالم الإسلامي، الذي يشكل حلقة التواصل الأساسية مع الموروث الثقافي والحضاري، لقطع الجيل عن ماضيه، وعزل اللغة العربية عن المعاهد، والمدارس، والجامعات، وتدريس العلوم باللغات الأوروبية، في محاولة ماكرة للتفريق بين لغة العلم - وهي طبعاً الأوروبية لأنها لغة المنجزات العلمية الحديثة في الهندسة، والطب، والعلوم، والحاسبات الإلكترونية، فالكتب المدرسية والمصادر والمراجع لا تتحقق إلا بها! - وبين لغة الدين، وهي العربية التي يجب أن تحاصر في المساجد والمعابد وأداء المناسك والشعائر! وترسيب القناعة بأن العربية هي من أسباب التخلف العلمي في العالم الإسلامي، وحتىٰ تتم التنمية ويحصل النهوض لا بد من لغة للمعهد، وهي الأوروبية، وأخرىٰ للمعبد، وهي العربية، وبذٰلك تكون الأوروبية لغة العلم، وتنتهي العربية إلىٰ ألفاظ عبادية تُفتقد معانيها شيئاً فشيئاً، لقلة الاستعمال، وتنزوي في المعابد، شأنها شأن اللغات القديمة كالسريانية وغيرها، التي اقتصرت في نهاية المطاف علىٰ رجال الدين وبعض زوار المعابد الذين يرددونها بلا فهم ولا إدراك. والمشكلة أن هٰذه المحاولة الماكرة بدأت تتسرب إلىٰ رأس كثير من الذين يشغلون مناصب مؤثرة في صنع القرار التربوي، والسياسي، في العالم الإسلامي. ولعلها في مغرب العالم الإسلامي أكثر وضوحاً وبروزاً منها في مشرقه.

وأكتفي في هٰذا المجال بالإشارة إلىٰ أسبوع المحاضرات الذي نظمه المستشرقون المقيمون في تونس في معهد قرطاج التبشيري منذ سنة ١٩٠٧، وأصدروا فيه بيان موت اللغة العربية، والذي أعلن أن الشعوب المغربية لا يمكن لها أن تحقق التقدم، إلا من خلال تخليها عن اللغة العربية، واعتناق الفرنسية، كوسيلة للثقافة والحضارة والعلم. هٰذا من جانب، ومن جانب آخر

نرىٰ المحاولات المستميتة لإحياء اللهجات واللغات القديمة، التي توشك علىٰ الانقراض، ومحاولة إحلالها محل العربية، وإقامة كراسي في الجامعات والمعاهد الأوروبية لإحيائها، وتقديم رسائل الماجستير والدكتوراه في دراساتها، ومحاولة وضع معاجم لها، ولعل قسم دراسات اللغة البربرية الذي أقامته فرنسا في السوربون مؤخراً خير شاهد لذٰلك.. فالعربية لا تصلح لغة العلم، أما اللغات المنقرضة التي تم إحياؤها لمحاربة العربية وإثارة النعرات الإقليمية، التي تمزق عالم المسلمين، فتقام لها المراكز، وتؤسس لها المعاهد، وتوضع لها المعاجم!

يضاف إلىٰ ذٰلك تشجيع النماذج والأعمال الفكرية التي تسير وفق النمط الغربي، أو تحاكي مناهج الغرب، وتغادر أصولها المنهجية، ونسقها الثقافي، باسم الحداثة والتجديد، والتخلص من قواعد اللغة، التي تحبس انطلاق المعاني، وعمود الشعر التقليدي الذي يحول دون الدفقة الشعورية، والترويج لأصحاب هٰذا اللون من الإنتاج الفكري، واعتبارهم طلائع التحرر والتقدم والتنوير.

والحقيقة التي لا مناص من الاعتراف بها، أن إنتاج المستشرقين الذي يملأ الساحة الفكرية والأكاديمية اليوم، ويشكل المرجع والمصدر والمنهج، جاء ثمرة لغيابنا العلمي، وتخاذلنا الثقافي، ومواجهاتنا العابثة التي لم تكلفنا شيئاً.. اكتفينا بالجلد، والإدانة، والتفاخر، والتعالي بالأصوات، والخطب الحماسية، بينما انصرف المستشرقون للإنجاز والإنتاج، والتصنيع الفكري، والتسويق في بلادنا الخالية من إنتاجنا.. فنحن نحاول أن نغطي عجزنا بإلقاء التبعة علىٰ الآخرين، وبقيت أنظارنا موجهة إلىٰ الخارج، دون أن ننظر، ولو مرة واحدة، إلىٰ الداخل الذي استدعىٰ ذٰلك الخارج، ومكَّن له.

إنتاج المستشرقين:

لقد نشر المستشرقون، وحققوا عدداً صخماً من المؤلفات العربية، لا تزال مرجعاً للباحثين والدراسين من الأوروبيين، والعرب أنفسهم.. ولم

يكتفوا بالتحقيق والنشر لأمهات الكتب، في السيرة، والتاريخ، وعلوم القرآن، والتراجم، والملل والنحل، والنحو، والتفسير، بل تجاوزوا ذٰلك إلىٰ التأليف في الدارسات العربية والإسلامية، حتىٰ بلغ عدد ما ألفوه في قرن ونصف ـ منذ أوائل القرن التاسع عشر حتىٰ منتصف القرن العشرين ـ ستين ألف كتاب في التاريخ والشريعة، والفلسفة، والتصوف، وتاريخ الأدب، واللغة العربية.

ولا يزال «تاريخ الأدب العربي» «لكارل بروكلمان»[١]، مرجعاً لا يستغني عنه أي باحث في الدراسات العربية والإسلامية

ولا يقتصر هٰذا الكتاب علىٰ الأدب العربي، وفقه اللغة، بل يشمل كل ما كُتب باللغة العربية، من المدونات الإسلامية، فهو سجِل للمصنفات العربية، المخطوط منها والمطبوع، وقد عمل به المؤلف نصف قرن تقريباً.

ولا بد أن نشير هنا أيضاً إلىٰ الأطلس الجغرافي التاريخي، للشرقين الأدنىٰ والأوسط[٢]، الذي هو قيد الإعداد الآن، ويتوفر علىٰ إنجازه مجموعة من المستشرقين في ألمانيا الاتحادية، ويشمل الأقطار الممتدة من السودان غرباً، إلىٰ أفغانستان شرقاً، ومن جنوب بلاد العرب، إلىٰ البحر الأسود في الشمال، وخرائطه لا تتناول المواضع الجغرافية والتاريخية بالمعنىٰ التقليدي، بل تتجاوزه إلىٰ مواضع لم يسبق لأحد أن تناولها في الأطالس، مثل: المدارس الفقهية، والفتن السياسية، وبعض مظاهر

---

(١) كارل بروكلمان: (١٧/٩/١٨٦٨ ـ ٦/٥/١٩٥٦).
صاحب كتاب «تاريخ الأدب العربي» الذي لا يزال يعتبر المرجع الأساسي والوحيد في كل ما يتعلق بالمخطوطات العربية.
ولد في مدينة روستوك بألمانيا، درس اللغات اليونانية، واللاتينية، واللغات الشرقية، وأصدر «المعجم السرياني» في فبراير ١٨٩٥، وحقق الجزء الثامن من «طبقات ابن سعد» وظهر في برلين ١٩٠٤، وشارك في إصدار سلسلة عن تاريخ الآداب في الشرق ابتداء من ١٩٠١، وله كتاب: «موجز النحو المقارن للغات السامية»، وعمل محافظاً لمكتبة «الجمعية الشرقية الألمانية»، وكان كتابه الأخير «نظم اللغة العبرية» الذي ظهر بعد وفاته.

(٢) جريدة الشرق الأوسط بتاريخ ٣/٢/١٩٨٣.

الاتصال، وأماكن العبادة، وتوزيع السكان.. وسوف ينتهي في أواسط التسعينيات.

ولا يتسع المجال في هٰذه العجالة، للتفصيل، في مجال الدراسات الأخرىٰ، والمعاجم، والترجمات، من العربية إلىٰ اللغات الأوروبية.. فماذا فعلنا نحن إذا ما قيس إنتاجنا لتراثنا بإنتاجهم لتراثنا!؟ إننا ما زلنا نستغرق طاقاتنا كلها في التهجم علىٰ الآخرين دون إنتاج مقدور.

ويضاف إلىٰ ذٰلك: إصدار أكثر من خمسمائة مجلة تتعلق بالاستشراق، وثلاثمائة أخرىٰ متخصصة به، إلىٰ جانب ذٰلك العدد الهائل من الكتب والأبحاث، والدراسات، والمقالات التي تصب علىٰ رأس أبناء المسلمين، سواءً عن طريق الترجمة، أو التمدرس علىٰ اللغات الأصلية للمستشرقين، وفي مؤسساتهم، ومعاهدهم، أو ما يمكن أن يتم عن طريق الابتعاث العشوائي، غير المخطط، أو المبرمج، من عمليات التأثير والنقل الثقافي، وإيجاد المعابر والجسور للوصول إلىٰ المعاهد، والجامعات، والمناصب المؤثرة في العالم الإسلامي، ووقوعه في دائرة التحكم والاحتواء الثقافي.

ونحن هنا في العالم الإسلامي لا نقتصر علىٰ الابتعاث العشوائي إلىٰ جامعات ومعاهد الغرب، بدون أن نزود الطالب بدليل فكري، ومقياس ثقافي لكيفية التعامل مع ثقافة الغرب، وإنتاجه الفكري، بل نصر علىٰ تكريس حالة التخلف، والتخاذل الثقافي، أمام الآخرين. وبدل أن نقيم ندوات ومؤتمرات تُطرح من خلالها مشكلات المبتعثين العلمية، والفكرية، والثقافية، ونكون علىٰ إدراك مسبق بما تقدمه مراكز البحوث والدراسات والجامعات، ومراكز الإعلام هناك، ونفتش له علىٰ المتخصصين، القادرين علىٰ معالجته، ومناقشته مع الطلبة، والمبتعثين، وتبصيرهم بدوافعه، وأهدافه، ومنطلقاته، وأغواره، وكيفية التعامل معه، وكيفية الإفادة من إيجابياته؛ نقيم مؤتمرات لاتحادات الطلبة، ونحمل إليها مشكلاتنا، وقضايانا، وخلافاتنا في العالم الإسلامي، وإن لم توجد خلافات معاصرة، نستنجد بالتاريخ ليمدنا بمشكلات فكرية، وعقيدية، مضت بخيرها وشرها، وقد لا يكون الطلبة سمعوا بها من قبل،

فنصبُّها فوق رؤوسهم، لنمزق وحدتهم، ونكرس خصوماتهم، ونفرق جمعهم، ونحضِّرهم، شئنا أم أبينا، ليكونوا ضحايا الاستشراق والغزو الثقافي.

والذي يراجع قوائم الخطباء، والمتحدثين، في تلك المؤتمرات من سنوات، يراهم هم أنفسهم، يصلحون لكل المناسبات، وكل الموضوعات، وكل المواسم، وقد لا يرىٰ بجوار ذٰلك، ندوة متخصصة بحاجات المبتعثين الأصلية، ونوعية دراساتهم، واهتماماتهم، والمستقبل الذي نعدّهم له، ونطلبه منهم، إلا ما رحم الله.

فمتىٰ نرتقي بندواتنا ومؤتمراتنا، ونبصر الساحة الثقافية والفكرية، التي يخضع لها هٰؤلاء الطلبة، ونرسل لهم المتخصصين في العالم الإسلامي، يلتقون بهم، ويعالجون قضاياهم العلمية والثقافية؟ فذٰلك أجدىٰ من أن يبقىٰ كياننا الفكري قائماً علىٰ مهاجمة الآخرين، دون أن نقدم البديل، وفي تلك الحال سوف ينتهي هجومنا إلىٰ مصلحة الآخرين.

اللغة أمر كسبي بمقدور كل إنسان تعلمها:

وهنا قضية قد يكون من المفيد أن نعرض لها، ونحن بسبيل الكلام عن بعض ملامح التحكم الفكري، والاحتواء الثقافي، الذي يمارسه الاستشراق، في المعاهد والجامعات، والأطر الأكاديمية، والغزو الفكري، في نطاق الإعلام والتشكيل الثقافي، وهي قضية اللغة بشكل عام.

فمما لا شك فيه أن اللغة أمر كسبي، بمقدور كل إنسان أن يتعلمها ويبدع فيها، والواقع يؤيد ذٰلك، ويؤكده، علىٰ مستوىٰ اللغات جميعاً. ولو أخذنا ما يهمنا هنا، اللغة العربية، لأمكننا القول:

إن الكثير من أئمة اللغة، بصرفها، ونحوها، وفقهها، هم من الأعاجم، الذين أسلموا وتعلموا العربية، ولسنا بحاجة هنا، لذكر أولٰئك الأئمة، فالذي يمتلك حدّاً أدنىٰ من الثقافة، أو يستخدم القدر الأقل من المراجع اللغوية، سيراهم موجودين أمامه باستمرار.. ولا أدري، إذا افترضنا أن اللغة لا يمكن معرفتها، وإدراك أسرارها إلا من أبنائها، ماذا سيكون موقفنا من الخطاب

القرآني العالمي، الذي يتوقف فهمه علىٰ معرفة اللغة العربية، وإدراك معهود العرب بالخطاب؟ وكيف يمكن أن يتم التكليف، وتبنىٰ أمة مسلمة ـ واللغة من أهم عوامل التفاهم والتواصل، وبناء الثقافة، وصياغة الشعور، وترتيب التفكير ـ إذ قررنا أن اللغة وقف علىٰ أبنائها فقط؟ وما مصير المكتبة اللغوية، التي تعتبر مصدرنا، إذا أسقطناها بسبب أن مؤلفيها من غير العرب؟

لذٰلك نعتقد أن القول: بأن اللغة لا يدرك أسرارها إلا أبناؤها، فيه الكثير من التجاوز، ومناقضة الحقائق الواقعة.. ولو أن إدراك اللغة علىٰ غير العرب مستحيل، لكان الخطاب القرآني تكليف بما لا يطاق، وهٰذا مستحيل شرعاً وعقلاً.

إنسانية الثقافة الإسلامية:

وقضية أخرىٰ نرىٰ من الضروري التنبه إليها أيضاً، وهي قضية الثقافة الذاتية للأمة.. فالأمر الذي لا بد من إيضاحه ابتداءً: أن الثقافة الإسلامية هي ثقافة عالمية، وأن الخطاب القرآني، أو الخطاب الإسلامي، الذي يشكلها، خطاب عالمي، وأن الحضارة الإسلامية جاءت ثمرة لمساهمات عالمية لكثير من الشعوب والأمم، وكانت نتيجة للخطاب الإسلامي، يصعب تقطيعها، وفرز ألوانها القومية، فهي إنسانية في دعوتها، وهدفها، ومنطقها، وإنتاجها، وإن كانت قاعدتها البشرية الأولىٰ من العرب..

لذٰلك فالتجاوز أكثر من اللازم في التأكيد علىٰ الخصوصية الثقافية، يُخشىٰ أن يؤدي إلىٰ نزع صفة العالمية ومحاصرتها، ويغلق الطرق أمام انسلاك، ومساهمة الشعوب البشرية الأخرىٰ فيها، وتعطيل التبادل المعرفي، باسم التخوف من الغزو الفكري، وبذٰلك نعين الأعداء علىٰ الانتصار علينا.

التاريخ الإسلامي.. ليس هو الإسلام:

أما النظر إلىٰ موضوع التاريخ الإسلامي، واعتباره هو الإسلام، فأمر محل نظر.. فالمعروف أن مصدر التشريع في الإسلام هو القرآن الكريم، وبيانه السنة النبوية، وهو الحاكم علىٰ فعل البشر بالخطأ أو الصواب، وأن

التاريخ الإسلامي لا يخرج عن اجتهادات بشرية في تنزيل القيم علىٰ الواقع، أو في تحويل القيم إلىٰ فعل، قد تخطئ وقد تصيب، مثله مثل أي اجتهاد بشري فكري، أو فقهي آخر.. فاعتبار التاريخ الإسلامي هو الدين، وهو مصدر التشريع والأحكام، فيه الكثير من المجازفة.. فالتاريخ الذي هو وعاء الحياة الإسلامية العملية، في استجابتها للقيم الواردة في الكتاب والسنة، هو محل العبرة والعظة والدرس، وفيه من السلبيات والإصابات، التي كان فيها عدول عن القيم، ما يجب تجنبه، وفيه من الإنجازات العظيمة، المتسقة مع القيم، ما يجب الاهتداء والاعتزاز به.. وتبقىٰ القيم هي الضابط، وهي الحاكم، علىٰ تصرفات البشر ومسالكهم.. وحبنا للتاريخ، وانتصارنا له، لا يجوز أن يجعلنا نتجاوز هٰذه الحقيقة. وكم ستكون الخطورة كبيرة إذا لم نضبط التاريخ، ونحكم عليه بالقيم، من التفسيرات والإسقاطات التاريخية، التي يحاول أعداء الإسلام توظيف التاريخ لها اليوم، وكم ستكون الخطورة أكبر، إذ أصبح التاريخ ديناً، وتفسيره ملزماً، واعتبر النص والفعل التاريخي، كالنص الإلٰهي.

وقد يكون الدافع لذٰلك كله، غياب روح النقد، والخوف من الاعتراف بالخطأ، الذي ما يزال يشكل المناخ العقلي المغشوش لكثير منا، ذٰلك أن هٰذا المناخ هو السبب وراء سقوطنا في الفخاخ المنصوبة لعقولنا، بأيد ماهرة من المستشرقين، الذين أدركوا ذٰلك فأتقنوا فن المديح، والإشادة بحضارتنا وتاريخنا، الأمر الذي حرك مكامن الفخر فينا وساهم بحالة الاسترخاء، والسبات العام، والاكتفاء بإنجاز الآباء والأجداد، وأدىٰ إلىٰ شلل الأجهزة الفكرية، عن معالجة الحاضر، واستشراف المستقبل، فأصبح حالنا، كما يقول الأستاذ «مالك بن نبي»[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: شبيه بحال ذٰلك الفقير الذي لا يجد ما يسد به الرمق اليوم، عندما نتحدث له عن الثروة الطائلة التي كانت لآبائه وأجداده، إننا بذٰلك الحديث نأتيه بنصيب من التسلية عن متاعبه بوسيلة مخدر، يعزل

(١) انظر ص١٧.

فكره مؤقتاً، وضميره عن الشعور بها، إننا قطعاً لا نشفيها، فكذٰلك لا تشفىٰ أمراض مجتمع بذكر أمجاد ماضيه.

كان هـٰذا حال المستشرقين المداحين الذين قصوا علينا تلك النشوات التي تخامر عقولنا، حتىٰ تتعلق عيوننا علىٰ صورة سامرة لماض مترف.

وكثيراً ما كان المديح أو حتىٰ إعلان إعتناق الإسلام، مدخلاً، ووسيلة تعتبر الأخطر للدخول علينا، وتخريب ثقافتنا من الداخل، لأن المديح حال بيننا وبين البصارة الصحيحة للأمور، وعطل فينا أجهزة الاستقبال، والفحص، والاختبار تحت عنوان: الخير ما شهدت به الأعداء.

لقد عطل فينا هـٰذا الشعار الاستجابة للمنبهات الحضارية إلىٰ حد بعيد، وقبلنا من المداحين كل شيء تقريباً.. ولعل إصابات المداحين، كانت هي الأخطر في النهاية، خاصة عندما نكتشف أن دخولهم في الإسلام كان ممراً إلينا، وليس حقيقة.

ونستطيع القول: بأن الحملات الاستشراقية بعامة، لم تتمكن من القضاء علىٰ ثقافتنا، وإن ألحقت بها بعض الإصابات، التي يمكن اعتبارها من قبيل الأذىٰ ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]، وأن معظمها كان إلىٰ حدٍّ بعيد أشبه بالمنبهات الحضارية.. ورب ضارة نافعة.

إن عمليات الاستشراق والتغريب، لم تستسلم، ولم تلق السلاح.. لـٰكن لما أعياها السعي، فبدل أن تقر بفساد نظرياتها، وطروحاتها، وعدم إمكانية القبول لها في العالم الإسلامي، تحاول اليوم أن تعتبر، أن المشكلة والعلة في بنية العقل المسلم أصلاً، لتأتي علىٰ البنيان الإسلامي من القواعد، وترسب في النفوس، أن السبب في التخلف، والعجز، والتخاذل الثقافي، وعدم القدرة علىٰ الإبداع، وقبول الفكر الغربي، هو في بنية هـٰذا العقل، وتكونه، وميراثه الثقافي.

فهو عقل مولع بالجزئية، وعاجز عن النظرة الكلية للأشياء، وهو عاطفي يحب الإثارة والانفعال، ويعجز عن الفعل، وهو محكوم أيضاً بموروث ثقافي، لا يستطيع الفكاك منه، فهو لا يفكر بطلاقة، وحرية، لأنه محكوم بوحي مسبق،

وهو يقوم علىٰ منهج التفكير الاستنتاجي، ويعجز عن التفكير الاستقرائي، وهو معجب بالمنهج البياني، وعاجز عن المنهج البرهاني، وهو يخلط بين الواقع المعاش، والمثال الخيالي، وصاحبه يحب الثأر، ويغرق في الملذات!

وأن الإسلام الذي يكوّن هٰذا العقل، هو دين أمر ونهي، وزجر وكبت للحرية، وإلغاء للاجتهاد، الأمر الذي أدىٰ به إلىٰ التقليد وفقدان الشخصية، والقدرة علىٰ الإبداع، وأن العنصر العربي مادة الإسلام الأولىٰ، عنصر متخلف بفطرته، وطبيعته الجنسية، والمناخية، وأن دور العلماء المسلمين تاريخياً، اقتصر علىٰ النقل لميراث الحضارات الأخرىٰ، وأن علاج الأمة المسلمة، سوف لا يتحقق، إلا بإعادة بنية العقل العربي وفق الأنموذج الغربي.

خريجو المدرسة الاستشراقية:

لذٰلك رأينا الكثير من الدراسات اليوم لخريجي المدرسة الاستشراقية تتجه إلىٰ طروحات، من مثل: بنية العقل العربي، ونقد العقل العربي، وخطاب إلىٰ العقل العربي.... إلخ، وأن أول ما نلاحظ أن منهج النقد يتم طبقاً لآليات ومعايير وطروحات الفكر الغربي، وينطلق غالباً من الترسبات التي تركها الاستشراق في ضحاياه، لذٰلك نراها تتخبط كثيراً في الخلط بين العقل كآلة للتفكير، وبين الإنتاج الفكري لذٰلك العقل.

وقد يلفت انتباهنا أحياناً بعض القضايا التي يطرحونها، لٰكن لا نلبث أن نطلع عليها في مصادرها الاستشراقية، فنتأكد من جديد أن هٰؤلاء التلامذة لا تخرج مهمتهم عن الشحن من هناك، والتفريغ هنا. لذٰلك نراهم يخطئون في أبسط القضايا، إنهم يخطئون حتىٰ في الأسماء العربية الواضحة، لأنهم يقرأونها قراءة أعجمية استشراقية، ولا نرىٰ هنا أننا بحاجة إلىٰ إيراد الأمثلة.

وخلاصة القول في هٰذا الأمر: إن مناهجنا في المعالجة لا يزال يعوزها الكثير من التأصيل، والتخطيط، والتقويم، ودراسة الجدوىٰ، وطبيعة التناول، ومساحته، والتنبه إلىٰ مخاطر المستشرقين الذين يمدحون الإسلام، ويحركون غرائز الزهو والافتخار عند المسلمين تجاه الماضي، ليتسللوا من خلالها،

وهٰذا هو الأخطر لأنهم يساهمون بحالة الخدر العام، من أولٰئك المستفزين، الذين يستثيرون فينا غرائز الدفاع عن النفس، وحماية الذات، ذٰلك أن المديح إنما يكون في كثير من الأحيان تحويلاً إلىٰ الماضي، والاستغراق فيه علىٰ حسابات مشكلات الحاضر، واستشراف آفاق المستقبل.

صحيح أن الماضي هو الذي يدعم التماسك الثقافي، ويشكل الجذور التي تحول دون الاقتلاع، إلا أن هـٰذا الماضي بالرغم مما قدم في إطار تحقيق الذات، وضمان تماسكها، كاد ينقلب الاقتصار عليه إلىٰ ظاهرة مرضية، تحبس الإنسان في ملاجئها، وتحول بينه وبين النهوض، وذٰلك عندما يصبح الاستغراق في التشبث بالماضي صارفاً للإنسان عن صناعة حاضره، ومعالجة مشكلاته، والتفكير في مستقبله.

وحتىٰ نكون في مستوىٰ الحوار الفكري، والتبادل المعرفي، ونوقف فعلاً الغزو الفكري، والإغراق الاستشراقي، لا بد لنا بدل البكاء علىٰ الأطلال، والاكتفاء بجرعات الفخر والاعتزاز بالماضي، أن نكون أيضاً قادرين علىٰ امتلاك الشوكة الفكرية. . أن نكون قادرين علىٰ الإنتاج الفعلي، لمواد ثقافية تمثل ثقافتنا، وتأتي استجابة لها، وتغري الناس بها، وبذٰلك وحده نكون في مستوىٰ الحوار، والتبادل المعرفي. . فالمواجهة لا تكون بإدانة الآخرين، والنظر إلىٰ الخارج دائماً، وإنما تبدأ حقيقة من النظر إلىٰ الداخل. . أولاً لملء الفراغ، بعمل بنائي مستمر، وتحصين الذات، وتسليحها بالمقاييس الثقافية السليمة، وإنتاج مناهج، وآليات للفهم، تأتي وليداً شرعيّاً لثقافتنا.

ذٰلك أن المناهج وآليات الفهم، التي تحكم الكثير من جامعاتنا، . ومعاهدنا، لا تزال من صناعة الفكر الغربي، انتهت إلينا بسبب التخاذل الفكري الذي نعيشه. . وتلك المناهج هي ثمرة لتشكيل ثقافي معين، تصنعه وتُصْنَع به، غير منفكة عنه. . لذٰلك فمن الصعب نقلها واستخدامها في إنتاج ثقافي آخر، والاطمئنان عندها إلىٰ نتائج الفكر.

الدوحة ـ صفر الخير ١٤١١هـ



ثانياً: مُراجعَاتٌ في الدّعوَة

(أ) الخطاب الإسلامي المعاصر

لعل قضية الإعلام اليوم والمدىٰ الذي وصل إليه من التحكم والاختراق، ومن ثم الاحتواء، باتت من أخطر القضايا الثقافية، وأبعدها تأثيراً في تشكيل الأفراد والجماعات، ذٰلك أن الارتهان الإعلامي هو الصورة الأحدث التي تطور إليها الاستعمار... فالإعلام هو الذي يحضِّر الأمم، وينشئ عندها القابليات للعمالة الثقافية والحضارية، ويفقدها ذواتها دون أن تدري أنها لا تملك أمرها.

لذٰلك، لا خيار لنا من الاجتهاد في وضع الأطر المناسبة للقيام بمهمة البلاغ المبين، والمساهمة في عملية النهوض والارتقاء بأدوات التوصيل للخطاب الإسلامي المعاصر، وإلقاء الأضواء علىٰ بعض الشروط والمواصفات الغائبة لهٰذا الخطاب، التي كانت السبب في محاصرته، سواء في ذٰلك الإصابات الداخلية التي لحقت بالشخصية المسلمة، فأفقدتها فاعليتها، وأقعدتها عن أداء رسالتها في البلاغ المبين حتىٰ خَفَت صوتها، وضعف أداؤها، وانحسر أثرها، وأفل نجمها، فأصبحت تسيء بدعوتها لدينها أكثر من أن تغري به؛ أو الإصابات الخارجة من التضليل الثقافي والغزو الفكري، أو التشويش والشغب الإعلامي، الذي كان عنوانه ولا يزال، ما حكاه القرآن: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وقد لا نغالي إذا قلنا: بأننا نعيش اليوم مرحلة الدولة الإعلامية الواحدة التي ألغت الحدود، وأزالت السدود، واختزلت المسافات والأزمان..

اختصرت التاريخ، وتكاد تلغي الجغرافيا، حتىٰ بات الإنسان يرىٰ العالم ويسمعه من مقعده.. ولم يقتصر ذٰلك علىٰ اختراق الحدود السياسية، والسدود الأمنية، وإنما بدأ يتجاوز إلىٰ إلغاء الحدود الثقافية، ويتدخل في الخصائص النفسية وتشكيل القناعات العقيدية، فيعيد بناءها وفق الخطط المرسومة لصاحب الخطاب الأكثر تأثيراً، والبيان الأكثر سحراً، والتحكم الأكثر تقنية.

وبالإمكان القول: بأن المعركة الحقيقية المستمرة والفاصلة اليوم هي معركة الإعلام، بعد أن سكتت أصوات المدافع، وتوارىٰ أصحابها، وأصبحوا لا يدعون إلىٰ الظهور إلا في الأوقات الاستثنائية التي يغيب فيها الرشد، وتهزم الفكرة، وتنتصر الشهوة، ويرتكس الإنسان إلىٰ حياة الغابة.. وحتىٰ في هٰذه الأوقات الاستثنائية، يبقىٰ الإعلام من أخطر أسلحتها أيضاً.

لقد أصبح الإعلام علماً له مقوماته، ومعاهده، وشروطه، وتقنياته، ومتخصصوه، وفنّاً له مستلزماته وأدواته، كما أصبح ثمرة تشارك في إنضاجها كل المعارف والعلوم، وتُوظف لها أرقىٰ الخبرات، وصناعة من الصناعات الفكرية الثقيلة التي لها مؤسساتها، وخططها، ونفقاتها، بل لعل نصيب الدعم الإعلامي في كثير من الدول اليوم من الميزانيات، يفوق الدعم الغذائي، الذي به قوام الحياة.. ولئن كان الإعلام في الماضي يُوظَّف ليكون أداة ترفيه وترويح وتسلية، يعيش علىٰ هوامش المجتمع وفي خارجه، فهو اليوم في صميم المجتمع، يوظِّف الترفيه والتسلية لأداء رسالة، وإيصال فكرة، وتشكيل عقل، وصناعة ذوق عام، وزراعة اهتمامات معينة، حتىٰ إنه لم يعد يكتف برصد الحدث، وإيصال المعلومة، بل أصبح بما يمتلك من قوة وعوامل تأثير وضغط وتحكم، يقوم بصنع الحدث، والتحضير له في الوقت نفسه.

ولا شك أن مشكلة التخلف الإعلامي التي تعاني منها الأمة المسلمة اليوم هي مظهر للمشكلة الأساسية التي تعاني منها علىٰ مختلف الأصعدة، بل لعل الإعلام هو أحد إفرازاتها.. وتبقىٰ المشكلة الأساسية هي مشكلة التخلف حيث لا يمكن أن يُتصور نمو في جانب، وتخلف في الجوانب الأخرىٰ.. لذٰلك فعملية التنمية لا بد أن تكون شاملة، وذٰلك بإعادة صياغة الشخصية من جديد..

ويبقىٰ للإعلام دور كبير في هـٰذه الصياغة، وفي توفير المناخ المناسب لعملية اليقظة والتحول من مجتمع الغفلة والسبات إلىٰ مجتمع الصحوة والبصيرة.. فهو مقدمة ونتيجة في آن واحد، فالإعلام يصوغ الشخصية، ويُصاغ من خلالها.

من هنا، كان لا بد أن ندرك الأبعاد المتعددة والخطيرة للعملية الإعلامية، التي تبدأ بالتسلل إلىٰ داخل الأمة فتخترقها، ثم تعمل علىٰ التحكم فيها، واحتوائها، وبذٰلك تلقي القبض علىٰ عقلها، وعواطفها، واهتماماتها، فتعيد تشكيلها وفقاً للخطط المرسومة.. وأخطر ما في الاختراق والتحكم الإعلامي، أو الاحتواء الإعلامي: توهم الأمم المخْتَرَقَة أنها تمتلك إرادتها، وتصنع رأيها، وتتخذ قرارها بنفسها، دون أن تشعر بأنها إنما تدور في الفلك المرسوم لها، وتُحرَّك بأجهزة (الريموت) من بعيد.

وحسبنا أن نعلم أن الحصار الإعلامي اليوم ـ قبل مرحلة أقمار البث المباشر المنتظرة التي تنوي الدول القوية زراعتها فوق رؤوسنا، وتسليطها علىٰ حواسنا حيثما كنا ـ يطبق علينا من كل جانب، وأن الاستهلاك الإعلامي في العالم الإسلامي للمواد المصنَّعة في الخارج يزيد عن ٨٠٪ من المطروح يومياً، بينما لا يصل الإنتاج الإعلامي المحلي في أحسن الأحوال إلىٰ ٢٠٪، ويأتي هـٰذا في معظمه محاكاة لأفكار وإنتاج وإخراج الدول المتحكمة إعلامياً... وشأننا في ذٰلك، هو شأن الإنسان الاستهلاكي لأشياء الحضارة، العاجز عن إنتاجها، الذي سوف ينتهي، شاء أم أبىٰ، إلىٰ لون من الارتهان الإعلامي والثقافي والحضاري، ذٰلك أن الإعلام ـ كما أسلفنا ـ لم يعد يقتصر علىٰ إيصال المعلومة، وإنما يساهم بتشكل الإنسان، وتحضيره لقبول المعلومة التي يريد، دون أن يدع له الفرصة لفحصها واختبارها، لقبولها أو ردها.

من شروط استنبات الطاقات المبدعة:

هـٰذا من جانب، ومن جانب آخر فلا تخرج العملية الإعلامية في عمومها، عن غيرها من عمليات التحكم المتعددة التي تُمارس من عالم الأقوياء علىٰ عالم الضعفاء والمتخلفين، للحيلولة دون ردم فجوة التخلف،

وإلغاء التبعية الفكرية، والإعلامية، والثقافية، والسياسية، والاقتصادية.. فالقدرات والقابليات الإعلامية المبدعة التي قد تشكل الأمل للخروج من دائرة التحكم، لا تجد لها مكاناً ولا مناخاً في العالم الإسلامي، لذٰلك نرىٰ استمرار نزف الطاقات، وامتصاص تلك القدرات المبدعة، الأمر الذي يجعل العالم الإسلامي، والعالم الثالث بشكل عام، صدًى لأفكار الغرب، ومنتجاته الإعلامية التي تمهد لتسويق أفكاره وأشيائه معاً، ويستمر الفقر الإعلامي، والفقر الفكري، إلىٰ جانب مظاهر الفقر الأخرىٰ..

إن الطاقات المبدعة، علىٰ المستوىٰ الإعلامي وغيره، لا يمكن أن تُستنبت في أجواء القمع والإرهاب، والاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي التي يكرسها الإعلام الأقوىٰ، وغياب الحرية وحقوق الإنسان التي تمثل الشروط الطبيعية والضرورية للنمو والإبداع، ذٰلك أن من لوازم الطرد من هنا، والجذب من هناك، إشاعة مناخ الاستبداد والقمع، وتضييق فرص الحرية هنا، وإتاحتها هناك..

وقد لا يكون مستغرباً في عالمنا اليوم، أن الأمر تجاوز هجرة العقول والسواعد معاً إلىٰ هجرة الأجنة قبل الولادة (!) فلعل من أعز الأماني أن تلد الأمهات أجنتها في أوروبا أو أمريكا لاكتساب الجنسية، التي تمكِّن من الارتحال إلىٰ هناك في قابلات الأيام.

إن هٰذه الجراحات النفسية والثقافية العميقة التي لحقت بالأمة، لا بد لها من رجال دعوة مؤهلين، يحتسبون أجرهم عند الله، كما لا بد لها من إعلام مؤثرٍ ومُخطَّط، ومدرك تماماً للساحة التي يعمل فيها، والمخاطر التي تحيط به من الخارج، ليكون قادراً علىٰ معالجتها، ومن ثم القدرة علىٰ التعبير عن رسالة الإسلام بثقافته، وحضارته، وعطائه للإنسانية، متجاوزاً الصورة المنفرة التي عليها المسلمون.

وتكاد تكون أزمتنا الأساسية واحدة في حقيقتها، وإن اختلفت مظاهرها، وتعددت آثارها من موقع إلىٰ آخر، عندما ننظر إلىٰ قضايانا، ذٰلك أننا لا نعترف بمسؤوليتنا عما لحق بنا، ولا نواجه ما أصابنا بجرأة وشجاعة،

لنكتشف مواطن التقصير، ونحدد أسباب القصور، لنستدركها، وإنما لا نزال نلقي بالتبعة علىٰ الآخرين الذين هم دائماً سبب بلائنا ومصائبنا جميعاً، لنعفي أنفسنا من المسؤولية، دون أن ندرك أننا نلغي أنفسنا وأهليتنا في التعامل مع العصر الذي نعيشه.. فلو جئنا نعرض لمظاهر السيطرة علىٰ وسائل الإعلام من قبل المؤسسات التنصيرية والصهيونية والعلمانية والإلحاد، لكان عندنا الكثير الذي نقوله، والمزيد من الشعارات التي نرفعها في هٰذا المجال، أما حين نقوم بعملية مراجعة بسيطة لما قدمنا، أو ما يمكن أن نقدم في هٰذا المجال، فتخفت أصواتنا، وتتقزم قاماتنا، وتتضاءل حصيلتنا حتىٰ تكاد تصبح صفراً، أو ما يعادل الصفر.. وما أسهل أن نصنع المسوِّغات لما نفعل، ونعايره بمعايير غريبة وعجيبة ومضحكة، وذٰلك عندما نحكم عليه بأنه أفضل من لا شيء، دون أن ندري أننا نسوِّيه ونقايسه بالعدم.

ونستطيع أن نقول: بأننا حتىٰ هٰذه اللحظة، وعلىٰ الرغم من كل الهزائم الإعلامية والتحكم الإعلامي، ما نزال نمتلك من وسائل الإعلام، في تعددها وتنوعها وقدرتها علىٰ التأثير، ما لا يمتلكه أحد، لٰكن يبقىٰ المطروح: كيف يمكن لنا أن نعيد لها الحياة، والتأثير، والقدرة علىٰ التغيير؟

فلو أحصينا عدد منابر الجمعة اليوم في العالم الإسلامي، التي يبدأ بناء مساجدها إلىٰ جوار أول بيت في القرية، ويمتد إلىٰ كل حي في المدينة ـ وخطبة الجمعة والسعي إليها، والسماع لها دون لغو أو انصراف من فروض الدين ـ لأدركنا أهمية المواقع والوسائل الإعلامية التي نمتلكها، وما يمكن أن تفعله في العالم لو كنا في مستوىٰ المسؤولية المنوطة بنا، واستشعرنا التحدي الذي يواجهنا.. والمنبر، بعض أشياء المسجد، ووسائله، فإذا أضفنا إلىٰ ذٰلك المحراب وعطاءه خمس مرات يومياً، يتلو المعجزة البيانية علىٰ عقول وقلوب الأمة، وشعيرة الآذان التي تعلن بالمرتكزات الأساسية للعقيدة والرسالة الخاتمة، تنادي الناس وتوقظ النيام كلما كادوا يغفلون، لأدركنا أي تخاذل إعلامي، وأي عطالة فكرية نعيشها، الأمر الذي يقتضي أن نؤدِّب علىٰ معاصينا أكثر مما نحن فيه.

ولعل بعض وسائل وأساليب الخطاب الإسلامي المعاصر، تؤثر سلباً علىٰ مسار الدعوة الإسلامية ومواقف الناس منها، وذٰلك عندما يكون الطرح سيئاً، أو جاهلاً، أو غبياً، أو ساذجاً، فيسيء إلىٰ الإسلام وعظمته، ويزهِّد الناس فيه، ويخوفهم منه، ويجعلهم يتوهمون أن حالتهم أفضل مما يدعون إليه.

لذٰلك نقول: إن الخطاب الإسلامي المعاصر لم يتمكن من استيعاب أقرب الناس إليه، أو أكثرهم استعداداً للتجاوب معه، وهم جمهور المسجد، علاوة عن كسب الآخرين.. فهو خطاب أقرب إلىٰ السلبية، والجزئية، والأحادية، والارتجال، والحماس، والذاتية، منه إلىٰ التفاعل مع هموم الأمة.

لقد استطاع المسلمون في جيل القدوة أن يوظفوا كل الإمكانيات المتاحة للإعلام، فوقفوا علىٰ أعلىٰ مكان، ورفعوا أصواتهم إلىٰ القدر المستطاع لإيصال صوت الإسلام بالأذان.. ووقف الرجال من حول الرسول ﷺ يبلغون صوته وتعاليمه إلىٰ الأسماع التي لم يصلها الكلام، سواء كان ذٰلك في الخطبة، أو الدرس، أو الصلاة.. استخدموا كل ما هو متاح في البيئة المحيطة بهم من الوسائل الممكنة، وكانوا في مستوىٰ إسلامهم وعصرهم.. لٰكن للأسف، توقف المسلمون، وتطورت وسائل الإعلام علىٰ أيدي غيرهم.

الموقف المطلوب من وسائل الإعلام:

وحالهم اليوم تجاه وسائل الإعلام الحديثة، كما هي الحال تجاه المنتجات الحضارية الكثيرة الأخرىٰ.. إنهم يعيشون أزمة، بعضهم يرىٰ هدم هٰذه الوسائل، وتحطيمها، وإلغاءها، لأنها طرائق الشر، ووسائل الشيطان.. وبعضهم يظن أنه يحل المشكلة بمقاطعتها، والابتعاد عنها، وعدم إدخالها منزله والسماح لأسرته ومن يعول، بالركون إليها. وإلىٰ جانب ذٰلك هناك من العاملين للإسلام من لا يزال مصرّاً علىٰ الدعوة إلىٰ الانسحاب من المؤسسات

الجاهلية، ومفاصلتها، حرصاً علىٰ تحرير ولاء المسلم، والمحافظة علىٰ إيمانه، حتىٰ تموت الجاهلية من تلقاء نفسها، أو تخلي لنا الميدان، بعيداً عن سنن الله في التدافع الحضاري.

والموقف الثالث، وهو الأصعب طبعاً، في كيفية تحويلها وتسخيرها لتكون في خدمة الحق والخير، وهو الموقف الراشد واللائق بأمة تمتلك الرسالة المعيارية التي تمكنها من التعامل مع الأشياء والحكم عليها، أمة تستطيع بما تمتلك من رؤية سليمة، تحويل النقم إلىٰ نعم، وهضم المنتجات الحضارية وجعلها في خدمتها، ذٰلك أن هٰذه الوسائل بقدر ما تشكل نقمة وخطورة، بقدر ما تتيح من فرص ونعم لعملية البلاغ المبين، لو كنا في مستوىٰ إسلامنا وعصرنا.

وقد تكون المشكلة اليوم، هي الخلل في معادلة الدعوة والعمل الإسلامي، الذي حال دون نمو الاختصاصات، والتنبه لها بشكل مبكر، والعجز عن استشراف المستقبل والتحديات المحيطة، والإبقاء علىٰ الوسائل البدائية في الدعوة والبلاغ المبين، والتوهم بأن الوسائل من الثوابت والمقدسات، التي لا يجوز تطويرها أو حتىٰ مراجعتها ودراسة جدواها، وبذٰلك أصيبت أجهزة الدعوة علىٰ يد أصحابها أكثر مما أصيبت علىٰ يد أعدائها، وبدأ دور الإسلام يتضاءل ويتراجع، وينفصل عن الحياة إلىٰ درجة يمكن أن نقول معها: إن المنبر انفصل عن المصلين في داخل المسجد، قبل أن ينفصل عن صياغة المجتمع خارج المسجد، فافتقدنا فاعلية ما نملك، إضافة إلىٰ أننا لم نقدِّر الأوعية الإعلامية الكثيرة حق قدرها، من مسرح، وسينما، وتليفزيون، وإذاعة، إلىٰ جانب الوسائل الأخرىٰ من رواية وقصة، وغير ذٰلك.

لقد بدأ الموقف بالرفض، وهو الموقف الأسهل دائماً، وذٰلك بتحريم هٰذه الوسائل لحرمة ما يعرض فيها، ككل جديدٍ لم تُدرَك خطورته وكيفية التعامل معه.. وبعد أن خطت خطوات عريضة، وفرضت وجودها بسبب غيابنا وتخاذلنا، وبدأت نتائج تأثيرها تتضح شيئاً فشيئاً، جئنا لندخلها بأساليب بدائية وساذجة ومحزنة، يمكن أن تشكل عبئاً علىٰ المسلم بدل أن تقدم له

شيئاً يذكر.. ومعظم الفقرات التي تقدم اليوم باسم الإعلام الإسلامي، تفتقر كثيراً إلىٰ السمات والقوالب الإعلامية المتخصصة والمؤثرة، وكثيراً ما يكون السكوت عن نقدها وبيان سطحيتها، بسبب من الانحياز العاطفي للإسلام، ثم تكون النتيجة: عملية حسابية بائسة ومهزومة، بأنها أحسن من لا شيء.. وقد يكون هٰذا أكثر وضوحاً في مجالات السينما، والمسرح، والتليفزيون، والأوعية الإعلامية الحديثة التي لم نقدرها حق قدرها، ولم ندرك تأثيرها إلّا في الزمن الأخير، وليت هٰذا الإدراك يقودنا إلىٰ الخطوات الصحيحة، ويخرجنا من حالة الندب والتشاكي والتلاوم التي تستنزف الطاقة، دون أن تسهم بشيء من الحل.. فالخطوات، مهما جاءت متأخرة وبطيئة، إلا أنها في النهاية، تطمئن إلىٰ التحول من رد الفعل إلىٰ الفعل، ومن الأماني إلىٰ الآمال، ومن الأمل إلىٰ العمل.. لٰكن المشكلة إنما تتكرس باستمرار التوقف، أو الإقدام علىٰ تقديم الإسلام من خلال أوعية إعلامية ساذجة تسيء إلىٰ صورته إذا ما قورنت بما توصل إليه الإخراج والإنتاج الإعلامي اليوم.

من سلبيات الخطاب الإسلامي المعاصر:

وليس ما يسمىٰ بالصحافة الإسلامية، أو الصفحات الدينية المعزولة عن السياق العام للصحافة، حيث الكثير من المواد الصحفية الأخرىٰ لا تنضبط بالقيم الإسلامية في الصحافة اليومية، أو الأسبوعية، أحسن حالاً إذا نظرنا إليها ضمن الإطار الإعلامي المقروء والمكتوب، ذٰلك أن العقل المسلم المعاصر لا يزال بعيداً عن تقدير قيمة التخصص، ويتوهم أن بمقدور الإنسان أن يتسع علمه وعمره لأن يكون مفكراً، وشاعراً، وأديباً، وراوية، ورساماً، وكاتباً، وعالماً، ومخرجاً، ومنتجاً إعلاميّاً، وواعظاً في الوقت نفسه.. إنه يدعي أنه يعلم في كل شيء، في الوقت الذي نراه قد لا يحسن شيئاً وإنما هي نقرات هنا وهناك.. وما لم تأخذ قضية التخصص وتقسيم العمل، بُعدها ومكانتها في العقل المسلم، فسوف يستمر تكريس التخلف باسم التدين، ونُوهم أنفسنا بأننا نقدم إعلاماً إسلامياً..

فقد لا نجافي الحقيقة كثيراً إذا قلنا: إن الكثير من مواقعنا في مجال الإعلام، وغيره، يحتلها أصحاب الولاء، والانتماء، والتحزب، وفي أحسن الأحوال أهل الحماس، ويُفتقد فيها أهل الاختصاص والأهلية.. يكثر فيها الخطباء، ويغيب عنها الفقهاء، بالمعنىٰ العام لكلمة الفقه.. وإذا كان هٰذا غير مقدور عليه خارج نطاق المؤسسات الإسلامية، لسبب أو لآخر، فإن وجوده في بعض المؤسسات الإسلامية، يجعلها عاجزة عن علاج نفسها علاوة عن علاج أمر غيرها.

فالكثير من المؤسسات الصحفية الإعلامية التي ترفع الشعار الإسلامي، لا تزال تفتقد الكوادر البشرية المسلمة المتخصصة والمدربة، وتعيش علىٰ المخرج والمنتج والفنان الذي تربىٰ في مدارس بعيدة أصلاً عن الرؤية الإسلامية الأصلية، علىٰ الرغم من هٰذا التاريخ العريق في الدعوة ومسؤولية البلاغ المبين.

كما أن خطابها في معظمه لا يزال داخلياً، لم تستطع أن تصل به إلىٰ مرحلة الخطاب العام والعالمي، علماً بأن الخطاب الإسلامي توجَّه إلىٰ الناس جميعاً منذ اللحظة الأولىٰ لبدء الوحي.. وصحفها أشبه بنشرات داخلية تحاكي وتحاور نفسها، ولم تدرك مهمتها في صياغة وتكوين رأي عام ضاغط، ومؤثر، ومؤمن بأهدافها ورسالتها.. فحاصرت نفسها قبل أن يحاصرها أعداؤها، وعجزت عن إيجاد قواسم مشتركة ومد جسور التواصل إلىٰ «الغير».. وبعضها، علىٰ أحسن الأحوال، صحافة مؤسسات رسمية محددة الإطار مسبقاً، أو صحافة موظفين يؤدون وظيفتهم، دون فاعلية أو حياة.. فهي أقرب إلىٰ مادة الكتاب منها إلىٰ أوعية الفن الصحفي.

لذٰلك، نراها الأقدر علىٰ الأسلوب التعبوي في أحسن الأحوال، وإن تجاوزته، فإنما تتجاوزه إلىٰ لون من الهجوم والمواجهة دون القدرة علىٰ الحوار والمناقشة، والفهم لعوامل وشروط مكونات الرأي العام، حيث لا يمكن أن يتم التدين والاقتناع إلا بدون إكراه.

كما أنها لم تستطع بلوغ الأبعاد الصحفية المطلوبة لإيصال الفكرة

بالكلمة، والصورة والكاريكاتير، والرأي، والاستطلاع. . إلخ. .

ولم تستطع أن تدخل إلىٰ قلب المعركة وتحمل هموم الجماهير، وتقدم لهم الرؤية الإسلامية لحل مشكلاتهم، حيث استغرقت في الماضي ومشكلاته، وفي أحسن الأحوال انشغلت بمشكلاتها عن مشكلات الأمة وتبصيرها بمستقبلها، في الوقت الذي أصبحت المواد الإعلامية عند الآخرين تخضع لاستشارة متخصصين بعلم النفس، والاجتماع، والجغرافيا، والتاريخ، والفلسفة، والأزياء، والأدوات. . إلخ، لتقدير قيمتها، وجدواها، وأثرها، ومدىٰ ملائمتها لأحوال المتلقي قبل أن تعرض علىٰ الجمهور.

لقد أخذ القرآن الناس بالتدرج، وكان لمعظم آياته مناسبات أو أسباب نزول. . وكان الرسول ﷺ يتخوَّل الناس بالموعظة مخافة السآمة. . وكان يحذر أصحابه الذين يطيلون في العبادة حتىٰ تشق علىٰ الناس، من فتنتهم عن دينهم. . وكان الإمام علي رضي الله عنه يوصي بمخاطبة الناس علىٰ قدر عقولهم ويقول مستنكراً: «أتُحبون أن يُكذَّب اللَّهُ ورسوله»؟! وتعريف البلاغة ـ كما هو معلوم ـ هو مطابقة الكلام لمقتضىٰ الحال. . فأين واقع الإعلام الإسلامي من حال المتلقي؟!

يقول الإمام الشاطبي[1] رحمه الله: «ليس كل ما يُعلَمُ مما هو حق، يُطلب نشره، وإن كان من علم الشريعة، ومما يفيد علماً بالأحكام، بل ذٰلك ينقسم: منه ما هو مطلوب النشر وهو غالب علم الشريعة، ومنه ما لا يطلب نشره بإطلاق، أو لا يطلب نشره بالنسبة إلىٰ حال أو وقت أو شخص».

ويضيف موضحاً، ومفصلاً، ومنبهاً، إلىٰ المنهج العلمي في التعامل مع أحكام الشرع وتوجيهاته، وقضايا الأفراد والمجتمع والدعوة، فيقول:

---

(١) الشاطبي: المتوفىٰ سنة ٧٩٠هـ.
إبراهيم بن موسى بن محمد، أبو إسحاق اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، من علماء المالكية، كان إماماً محققاً أصولياً مفسراً فقيهاً.
من تصانيفه: «الموافقات في أصول الشريعة»، «الاعتصام»، «المجالس» (شرح به كتاب البيوع في صحيح البخاري).

«ليس كل علم يبث وينشر، وإن كان حقاً.. وقد أخبر مالك عن نفسه أنه عنده أحاديث وعلماً ما تكلم فيها ولا حدَّث بها، وكان يكره الكلام فيما ليس تحته عمل.. فتنبه لهٰذا المعنىٰ.. وضابطه أنك تعرض مسألتك علىٰ الشريعة، فإن صحت في ميزانها، فانظر في مآلها بالنسبة إلىٰ حال الزمان وأهله، فإن لم يؤد ذكرها إلىٰ مفسدة. فاعرضها في ذهنك علىٰ العقول، فإن قبلتها فلك أن تتكلم فيها، إما علىٰ العموم إن كانت مما تقبلها العقول، وإما علىٰ الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم، وإن لم يكن لمسألتك هٰذا المساغ فالسكوت عنها هو الجاري وفق المصلحة الشرعية والعقلية»[1].

فالأمر لا يتعلق فقط بمعرفة ما يطلبه الشرع منا، والتأكد منه، والانطلاق لإنجازه، بل يتعلق ذٰلك باستكمال أبعاد أخرىٰ تخص مساحة التنفيذ والتنزيل علىٰ الواقع، وكيفياته، ومنهجية ومرحلية الإنجاز.. خصوصاً في مراحل نقص آثار النبوة في الخلق، وضعف صلة الناس بالإسلام فهماً وممارسة، حيث يحتاج العمل إلىٰ بصيرة نافذة، وعقل راشد، وفقه نضيج يمتلك مفاتيح المعادلات المركبة التي يفرزها التدافع غير المتكافئ بين الحق والباطل، والصواب والخطأ، والمصلحة والمفسدة، وهو ما عناه العلماء بقولهم:

«ليس الفقيه هو من يعرف بأن هٰذا مصلحة، وهٰذا مفسدة، بل الفقيه هو الذي يعرف خير الخيرين وشر الشرين».

فالعالِمُ كما يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[2]:

«تارة يأمر، وتارة ينهىٰ، وتارة يبيح، وتارة يسكت عن الأمر أو النهي، أو الإحاطة.. كما قيل: إن من المسائل مسائل جوابها السكوت، كما سكت

---

(١) الموافقات ٤/ ١٨٩ ـ ١٩٠.

(٢) ابن تيمية: ٦٦١ ـ ٧٢٨هـ.

أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الدمشقي تقي الدين، كان داعية إصلاح في الدين، آية في التفسير والعقائد والأصول.

من تصانيفه: «السياسة الشرعية»، «منهاج السنة»، «درء تعارض العقل والنقل»، «الفتاوىٰ» ٣٥ مجلداً.

الشارع في أول الأمر عن الأمر بأشياء، حتىٰ علا الإسلام وظهر.

فالعالِمُ في البلاغ والبيان كذٰلك، قد يؤخر البيان والبلاغ لأشياء إلىٰ وقت التمكن، كما أخر الله سبحانه إنزال آيات، وبيان أحكام إلىٰ وقت تمكن رسول الله ﷺ إلىٰ بيانها..

فالمحيي للدين، والمجدد للسنة، لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، كما أن الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يُلقَّن جميع شرائعه، ويؤمر بها كلها. وكذٰلك التائب من الذنوب، والمتعلم والمسترشد، لا يمكن في أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين، ويذكر له جميع العلم. فإنه لا يطيق ذٰلك، وإذا لم يطقه، لم يكن واجباً عليه في هٰذه الحال. وإذا لم يكن واجباً، لم يكن للعالِم والأمير أن يوجبه عليه ابتداء، بل يعفو عن الأمر والنهي، بما لا يمكن علمه وعمله إلىٰ وقت الإمكان، كما عفا رسول الله ﷺ عما عفا عنه إلىٰ وقت بيانه، ولا يكون ذٰلك من باب إقرار المحرمات، وترك الأمر بالواجبات، لأن الوجوب والتحريم مشروط بإمكانِ بالعلم والعمل.. ومن هنا يتبين سقوط كثير من هٰذه الأشياء، وإن كانت واجبة، أو محرمة في الأصل، لعدم إمكان البلاغ الذي تقوم به حجة الله في الوجوب أو التحريم، فإن العجز مُسقط للأمر والنهي وإن كان في الأصل)[1].

ومع ذٰلك، لا نزال في دعوتنا وإعلامنا الإسلامي، إن صح التعبير، نلقي الكلام علىٰ عواهنه دون أية دراية بمقتضىٰ الحال، حتىٰ أصبح عندنا: كل مقال يصلح لكل مقام، وكل إنسان يصلح لكل عمل، وكأننا نعيش غربة الميراث الثقافي الإسلامي، وكيفية الإفادة منه، وغربة العصر وفهمه، وكيفية التعامل معه.

وقد نمسك عن النقد، والتقويم، والمراجعة، لأسباب واهية وموهومة، الأمر الذي يحول دون تطور وترقية عملنا في مجال الدعوة والإعلام.. ففي الوقت الذي تتعاظم فيه حركة المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية، كما اصطُلح علىٰ تسميتها، نجد أن الأوعية الإعلامية لم تتواز مع سرعة الصحوة

(١) مجموعة «الفتاوىٰ» ٢٠/٥٨ ـ ٦٠.

وتصاعدها، ولم يستطع الإعلام الإسلامي، القيام بوظيفة ترشيد الصحوة واستشراف مستقبلها، وتوصيل خطابها بالشكل المناسب، بل لعل الإعلام المعادي كان الأقدر، في محاولته علىٰ محاصرتها، وتشويه صورتها، والتقاط النماذج الشاذة واعتمادها، إلىٰ درجة بدأ يُرسِّبُ معها في أذهان النّاس اعتبار أن دعاة الإسلام اليوم هم آفة الحضارة المعاصرة، وأسباب تخريبها.

لقد وصل الإعلام إلىٰ درجة كبيرة من الخطورة والتأثير بحيث أصبح قادراً علىٰ أن يزين الباطل ويجعله حقاً، ويزري بالحق ليجعله باطلاً، إنه يسحر عيون وأسماع وعقول الناس اليوم، والرسول ﷺ يقول منبِّهاً: **«إن من البيان لسحراً»**[١]. . فبلاغة الطرح، وامتلاك القدرة علىٰ استخدام وسائل التأثير، تسحر الإنسان، فلا يعود يبصر الحق، وإذ امتلك حرية التفكير، فإنه يفتقد حرية الاختيار، وينساق وراء الباطل.

وأمام المد الإسلامي العظيم، كان لا بد من بعض الاستجابات، وبعض المحاولات، فأنشئت معاهد وأقسام للدعوة والإعلام الإسلامي في المعاهد والجامعات، لٰكنها لم تمتلك القدرات الأكاديمية الكافية، والخبرات العملية المتراكمة التي تؤهلها تماماً للقيام بمهمتها، ولم يتوفر لها الكوادر البشرية المتخصصة، لأن الصحوة، في بواكيرها، كانت حركة وعي وتعبئة، ودفاع عن النفس، وإثبات للوجود، وتحقيق للذات، أكثر من أن تكون حركة نهضة متكاملة تضبط النسب، وتبصر الحاجات، وتوفر التخصصات المطلوبة، وتؤمن بضروريتها، وتدرك أهميتها، الأمر الذي أصبح من الضرورات اليوم.

لقد اتكأ الكثير من رجالها في خطابه علىٰ مفهومات كان الإرتكاز إليها طبيعيّاً في مرحلة معينة، أما اليوم فقد أصبحت بحاجة إلىٰ المراجعة. . ولئن صدقت مقولة: إن المهم إيقاظ الأمة، وتحريك وعيها، وبعد ذٰلك فالقرآن يمتلك كل شيء: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، في المرحلة الأولىٰ لحركة الوعي الإسلامي، فهي اليوم بحاجة إلىٰ بلوغ الأبعاد

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، ومالك، وأحمد.

التخصصية، والمقومات الأساسية المطلوبة لترشيدها واستمرارها. . والقرآن، يضع الأصول والمبادئ والقيم التي لا تغني عن البرامج، والخطط التي تبصر المتغيرات، وتدرك أبعاد الخطاب ومقاماته في كل زمان ومكان.

وقد نكون اليوم، أكثر من أي وقت مضىٰ، بحاجة إلىٰ القيام بالمراجعة للخطاب الإسلامي في الدعوة والإعلام، وخاصة في هٰذه المرحلة بالذات، حيث السقوط الحضاري، والثقافي، والسياسي والاقتصادي، للمقولات العالمية التي كانت تشكل أمل الفقراء، والتي تولدت نتيجة الظلم الاجتماعي، والاستبداد السياسي، فجاءت لتعالج أزمة الإنسان، فعالجت الانحراف بانحراف أشد، فسقطت مقولاتها جميعاً بعد أن كادت تُعتبر التطور الحتمي للمجتمعات البشرية.

والأمر العجيب أن صدىٰ هٰذه المقولات ما يزال يُسمع في العالم الإسلامي، وتحاول أن تتبناه بعض المؤسسات والمنتديات، والجهات المتنفذة لتواجه به الفكر الإسلامي، في محاولة لإعادة الحياة إليها بعد أن أصبحت جثة هامدة، في الوقت الذي نرىٰ فيه تخلف الوسائل الإعلامية، وغياب عملية البلاغ المبين، القادرة علىٰ اغتنام الفرصة والانطلاق الإسلامي لإنقاذ البشرية.

عالمية الخطاب الإسلامي:

وتكاد تكون معادلة المسلمين الصعبة اليوم، تكمن في عدم قدرتهم علىٰ الارتفاع بخطابهم ودعوتهم إلىٰ مستوىٰ إسلامهم، وعصرهم، وعالميتهم. . وبدل أن يكونوا قادرين علىٰ قراءة الأزمات التي تمر بعالمهم والعالم، قراءة إسلامية صحيحة، من خلال إعلام راشد، وبدل أن يكونوا قادرين علىٰ توظيف الأحداث لمصلحة الإسلام، ومصلحة الإنسان، نرىٰ الأحداث توظفهم، فيخوض أعداؤهم المعركة بإعلامهم، وتصفىٰ الحسابات، بدمائهم، ويقاتلون بالنيابة عن الآخرين، ويعجزون عن الوقوف علىٰ ثوابت صلبة، وتأصيل الرؤية الإسلامية البديلة بعد أن سقطت الرؤىٰ ذات النزعات القومية، والعرقية، والعلمانية، والطائفية، والحزبية التي اختبأ وراءها أعداء الإسلام، ولم تجن الأمة منها إلا الصاب والعلقم.

إن عالمية الرسالة تقتضي عالمية الخطاب، وعالمية الخطاب لا تبلغ مداها المطلوب ما لم تكن عندنا القدرة أولاً علىٰ فهم العالم بعقائده، وثقافاته، وتاريخه، وحاضره، ومشكلاته، وتطلعاته، وفهم الكيفيات والآليات التي يتم من خلالها تشكيل الرأي العام، وشروط تغيره، والتأثير عليه، كأمور لا بد منها لتحديد المداخل الحقيقية للخطاب، كما لا بد لنا من التمكن من لغات الخطاب العالمية لنكون في مستوىٰ التكليف في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٠].. فاللغة هي المفتاح الأول، ووسيلة الفهم بأحوال المخَاطَب.. ومن ثم القدرة علىٰ تطوير وسائل الدعوة والإعلام، والتخطيط لها، وتقويمها، واختبار جدواها بين حين وآخر.. كما لا بد من اختبار الوسائل المؤثرة، وتقديم النماذج التي تثير الاقتداء، واستشعار المسؤولية العالمية في الشهادة علىٰ العالم والقيادة له.. وأن لذٰلك كله مقتضياته، وأدواته أيضاً.

والأزمة الإعلامية أو الفكرية التي نعاني منها، هي من بعض الوجوه: أننا نترجم للآخرين كل شيء، ونرضىٰ أن نبقىٰ في مكان التلقي والاستهلاك.. ولعل هٰذا في المجال الإعلامي هو الأوضح، ففي الوقت الذي نكون فيه عاجزين عن الإنتاج، نصر علىٰ ساعات طويلة من البث الإذاعي والتليفزيوني، الأمر الذي يقتضينا ملء الفراغ بالغث والسمين دون التنبه إلىٰ مخاطره.. وإذا أردنا أن نترجم إلىٰ لغات الآخرين، نترجم بعض الكتب والمقالات التي وضعت وألفت لمعالجة مشكلات العالم الإسلامي بكل ما فيه، فهي علىٰ كل الأحوال لا تشكل خطاباً مطلوباً للآخرين الذين لهم خصائصهم، ومشكلاتهم، وحاجاتهم، واهتماماتهم المختلفة عن واقعنا، فنسقط في شر أعمالنا، ونسيء من حيث نريد الإحسان.

فالأمة التي لا تخطط لإعلامها، ولا تستشرف مستقبلها، ولا تقدِّر خطورة التحكم الإعلامي.. أمة كليلة عمياء، بحاجة إلىٰ من يقودها، لأنها لا ترىٰ إلىٰ الأمام، ولا تبصر مدارج الترقي والكمال المتاح، فتعد له وسائله..

فالإعلام ـ كما هو معروف ـ هو إيصال المعلومة، وعملية التوصيل هٰذه

تتركب من مجموعة عناصر، لكل منها مواصفاته التي لا بد من توفيرها حتىٰ يتحقق المطلوب:

عنصر يتعلق بالمعلومة نفسها من حيث صحتها، ووثائقيتها، وصوابها.. وعنصر يتعلق بالناقل، المعلِّم: خصائصه، وصفاته، وقدرته علىٰ الإبانة، واستشعاره المسؤولية تجاه ذٰلك.. وعنصر يتعلق بالآليات المستخدمة في إيصال المعلومة المكتوبة، والمسموعة، والمرئية.. وعنصر يتعلق بالمتلقي: تاريخه، وثقافته، وواقعه، وعمره الثقافي، ومدىٰ ملاءمة المعلومة لعمره العقلي، إلىٰ جانب السياسة المرسومة، وعملية التحكم التي تخضع لها العملية الإعلامية.. فلئن كان الإعلام هو بث المعلومة، وتلقيها، وهضمها، واستيعابها، فإن التحكم هو كيفية استعمال هٰذه المعلومة وتوظيفها في تغيير مجرىٰ التفكير، ودفع الاتجاهات النفسية إلىٰ أهداف مقصودة ومحددة مسبقاً.. فعملية التحكم الإعلامي هي الأخطر، وهٰذه تكمن وراءها مجموعة علوم وخبرات، وتخصصات، لا تغني فيها الحماسة، ولا سماكة الحناجر.

اليهود.. والإدراك المبكر لخطورة الإعلام:

وحسبنا أن نعلم أن لدىٰ يهود ٢٤٤ صحيفة أو يزيد في الولايات المتحدة، منها ١٥٨ دورية.. وثلاثين دورية في كندا.. و١١٨ صحيفة في أمريكا اللاتينية.. و ٣٤٨ دورية ومجلة في أوروبا[١].

وحسبنا أن نعلم أيضاً أن كبار أصحاب الصحف ورجال الأعمال في مجال الصحافة والإعلام من اليهود، يبذلون اليوم جهوداً كبرىٰ لشراء صحف ومحطات إذاعة وتلفزيون في دول أوروبا الشرقية.

وتستغل الأوساط الصهيونية مناخ الانفتاح السياسي والاقتصادي، لركوب الموجة واستثمار رؤوس الأموال، بهدف التأثير علىٰ سياسة وتوجيهات الإعلام كوسائل خطيرة في توجيه الرأي العام، وخلق آراء

---

(١) «الإعلام الإسلامي والعلاقات الإنسانية»، منظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ١٣٩٦هـ.

وقناعات محددة في تلك المجتمعات التي بدأت تتقبل كل جديد بشراهة.

ويحتل روبرت ماكسويل موقعاً خاصاً في هٰذا المجال، فهو يهودي من أصل تشيكي، لٰكنه يحمل الجنسية البريطانية، هاجر إلىٰ الغرب في أواخر الخمسينيات وبداية الستينيات.. فأين الأموال العربية والإسلامية؟

وإن الإعلام الصهيوني عامة، وخاصة السينما، استطاع تحويل الضحية إلىٰ قاتل، والقاتل إلىٰ ضحية..

وإن لينين كان يرىٰ في السينما: المدخل الثقافي والفني إلىٰ الجماهير.. ويرىٰ أن عشرة سينمائيين مهرة، يرجحون بعملهم هٰذا تأثير مليون كتاب.

فإذا أدركنا أن مهمة وسائل الإعلام، لا تقتصر علىٰ التعبير عن الشعب، والتصوير لحال الأمة، وإنما لها مهمة تربوية بنائية، تحاول من خلالها تسليط الضوء المنفر علىٰ بعض الإصابات، وتحاول الارتقاء بالمجتمع إلىٰ الآفاق المطلوبة، ضمن سياسات إعلامية وتربوية ناضجة؛ وأن الإعلام تعليم مستمر، وتربية مستمرة. وثقافة مستمرة؛ وأن وسائل الإعلام هي أدوات التنمية الحقيقية للأمم، عرفنا خطورة القضية الإعلامية، وما يمكن أن تحدثه فينا، وعرفنا أيضاً لماذا كانت ثمرة لكل التخصصات، ومصباً لكل الموارد الفكرية.. إنها تصنع الأمة، وتُصنع بها.. ولأدركنا لماذا يجب أن تكون القيادات الإعلامية هي من أرقىٰ القيادات في الأمة، وأدقها تخصصاً، وأحوجها إلىٰ الإحاطة والتكامل، ذٰلك أن من أبرز مهام الإعلام، ومسؤولياته: توجيه الحاكم، وترشيد المواطن، وأن الخطورة، كل الخطورة، أن ينقلب إلىٰ تكريس أخطاء الحاكم، وبذٰلك يمهد للقضاء عليه، ويساهم بإلغاء المواطن.

والمؤسف حقاً أن يتحول الإعلام، وخاصة في بعض بلاد العالم الثالث، ومعظمها بلاد العالم الإسلامي، إلىٰ معول هدم وتخريب، بدل أن يسهم في التوعية والبناء، خاصة عندما يفتقر فيها النظام السياسي إلىٰ المشروعية والشرعية، فيلجأ إلىٰ الإعلام الكاذب، ويستنجد به ليمارس عمليات التغطية والتضليل بإنجازات وهمية، وقدرات مزعومة، وخوارق غير طبيعية لزعامات، فيزداد الوهم، وتغيب الحقيقة، ويصرف المال، ويبدد،

ويشيع النفاق، ويكثر المنافقون، ويفتقد الإعلام كل مصداقية، ويعيش الناس علىٰ الموارد الإعلامية القادمة من الخارج.

إسلامية الإعلام:

وقضية أخيرة لا بد من التوقف أمامها بالقدر الذي تتيحه هٰذه العجالة، ونعتقد أنها القضية الأخطر، والتي لا تزال مطروحة للجدل، والنقاش، والحوار، والقبول، والرد، ويتفاوت الحكم عليها من إنسان إلىٰ آخر بحسب كسبه الثقافي وقدرته علىٰ فك التحكم والارتهان، والخروج من السياق الحضاري الغربي، وتجاوز الصورة إلىٰ الحقيقة، والوسيلة إلىٰ الهدف، والعلم إلىٰ الحكمة.. بل لعل الإعلام المعادي الذي كان يمكِّن للعمالة الثقافية والفكرية في نطاق الأمة الإسلامية، ولا يزال، هو من أهم الحواجز التي حالت وتحول دون بلوغ القضية مداها المطلوب.. وهي: قضية إسلامية المعارف، والعلوم الإنسانية ـ وهي الأخص ـ إن لم نقل إسلامية العلوم بشكل عام، ولئن جاز أن يطول التفكير والتأمل عند بعضنا حتىٰ تستوعب هٰذه القضية ـ إسلامية العلوم والمعارف، وامتلاك القدرة علىٰ الربط بين الوسيلة والغاية، والعلم والحكمة، والخلق والمعرفة، والمنطلق وسلامة المسار، والقيم الضابطة والبرامج والأوعية المنفذة ـ فلا يجوز عقلاً ولا واقعاً حتىٰ مجرد التوقف لطرح السؤال الساذج: هل يوجد إعلام إسلامي وإعلام غير إسلامي؟.

ذٰلك أنه لا يوجد في الدنيا كلها إعلام بلا هدف، ولا قيم، ولا منطلقات.. وبكلمة مختصرة: لا يوجد إعلام بدون رسالة يحملها إلىٰ العالم.. بل الإعلام هو الرسالة، في الحقيقة، التي تؤمن بها الأمة، وتجتهد في إبلاغها.

فالإعلام هو السفير، وهو المعبر عن الرسالة الإسلامية، وهو الذي يحمل القيم والأخلاق الإسلامية.. يحمل النظرية، والنموذج، والمثل الأعلىٰ إلىٰ العالم، يدلل علىٰ صدقها، ويثير الاقتداء بها بمختلف الوسائل، ويحاول

أن يفيد من كل التقنيات الإعلامية الحديثة، ويضبط مضامينها بالقيم الإسلامية، ويحسن توظيفها لخير البشرية، وإلحاق الرحمة بالعالمين استجابة لقوله تعالىٰ مخدداً الغاية من النبوة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء].

فالإعلام الإسلامي، قضية أشمل من صفحات دينية معزولة ومحكومة في جرائد ودوريات، أو أحاديث وخطب رتيبة في إذاعة وتليفزيون، أو روايات وأفلام تاريخية تظهر بلباس معين وتجهم ملفت للنظر، وتُحبس معانيها بتقعر لغوي يحول دون العذوبة العربية في الجرس والبساطة والأداء، حيث تنقلب إلىٰ حاجز نفسي بدل أن تكون أداة تسهيل وتوصيل.

إنه القيم والمنطقات التي تكمن وراء تخطيط، وتطهير، وتنقية كل ما يذاع ويشاع بمختلف أشكاله وأوعية فقراته الإعلامية، ليكون ذا منبت حسن ومصب حسن.. إنه إعلام الكلمة الطيبة.. والوعاء النظيف، الذي يسهم بإعادة بناء الإنسان، واسترداد إنسانيته، وتخليصه من العبودية لغير الله، ابتداء من فقرات الترفيه والترويح، وانتهاء بإعلام الأزمات والشدائد والملمات..

ولا ندّعي أننا بهٰذه الملاحظات، استطعنا أن نحل المشكلة، ونقفز فوق حفر التخلف والتخاذل الفكري، ونقدم معالم واضحة للإعلام الإسلامي، أو أن نؤصل لمنهج متكامل في الإعلام الإسلامي، فذٰلك أمر يستدعي العودة إلىٰ الخطاب الإسلامي في الكتاب والسنة، وامتلاك القدرة علىٰ استيعابه بعين مبصرة، وفقه إعلامي سليم، وامتلاك القدرة علىٰ استكناه الموارد التراثية، ففيها من الكنوز ما يمكن أن يعتبر نظرة متكاملة في الإعلام، نظرية وتطبيقاً، كما أشرنا إلىٰ ذٰلك عند الشاطبي وابن تيمية، رحمهما الله[1].. كما يستدعي الكثير من الجهود والمعاناة والتجارب، والمراجعة والتقويم.. وما نقدمه ما هو إلّا ملاحظات، يمكن تلخيصها بأنها تحس بالمشكلة، وتحاول أن تحدد بعض أبعادها علىٰ المستوىٰ النظري.

---

(١) انظر ص٦٠ ـ ٦٢.

وحسبها أنها محاولة من المحاولات المتعددة التي يمور فيها العالم الإسلامي علىٰ المستويات الأكاديمية، والمؤسسات الدعوية والفكرية، التي تتعثر حيناً، وتتقدم أحياناً، لاسترداد دوره في الشهود الحضاري، واستئناف وظيفته في أن يقدم للعالم عطاء النبوة الخالد، بإخلاص وصواب..

الدوحة ـ رجب ١٤١١هـ

(ب) في الفكر التربويّ الإسلامي

قد يكون المطلوب اليوم بإلحاح: التأكيد علىٰ أهمية تشكيل شخصية المسلم المعاصر، الذي يجسد القيم الإسلامية في واقع عملي، ويبرهن علىٰ أن خلود الرسالة الخاتمة، وصلاحيتها لكل زمان ومكان، إنما يتمثل في قدرتها علىٰ إنجاب الأنموذج المطلوب، وتقديم الحلول الحضارية لمشكلات البشرية الكبرىٰ، وأن معجزة الرسالة إنما هي معجزة تكليفية تتحقق من خلال إرادات البشر، وقدراتهم، وتسير طبقاً للسنن والقوانين والأسباب الجائية في الكون والأنفس والآفاق، التي قدرها الله وسخرها للإنسان؛ وأن خلافته وعبوديته إنما تنجح بمقدار ما يبصر هٰذه السنن، ويفقهها، ويُحسن التعامل معها. وليست هي المعجزة المادية التي تجري علىٰ السنن الخارقة، والتي أقل ما يقال فيها: إنها تلغي الأسباب، وتعطل الإنسان، وتحمله إلىٰ مواقع التعجب والانفعال، بدل أن تمنحه القدرة علىٰ الفعل، وإمكانية الإنتاج، وفي ذٰلك ما فيه من إعطاء الإنسان أمداء من الإرادة، والقدرة، والحرية، وقابلية التعلم، والتحكم في تسخير الكون، والاتقاء بذاته ليكون في مستوىٰ الأمانة المنوطة به، فيما استخلفه الله فيه، بعد أن عرضها علىٰ السماوات والأرض والجبال فأبَيْن أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان. . فالأمانة تكليف بحمل مهمة ومسؤولية أداء، وتشريف بأهلية واختيار.

ولا بد لنا من الاعتراف: أنه كان من المفروض والمنطقي أن تبدأ الكتابات الفكرية الإسلامية بطرح المسألة التربوية جنباً إلىٰ جنب مع المسألة الثقافية، وإن لم تكن المسألة التربوية هي الأسبق والأولىٰ، ذٰلك أن الثقافة المطلوبة في الحقيقة، هي المحصلة النهائية للعملية التربوية والتعليمية، والهدف منها.

فالتربية هي الرحم الذي تتخلق فيه الأجنة بكل طاقاتها، وقدراتها، بشكل سليم، وهي المحضن، والمناخ الذي يوفر الشروط لرعاية القابليات، وتنمية كل القدرات والطاقات التي تتوزع وظائف الحياة الاجتماعية، واكتشافها، وتوجيهها، وتشكل النسيج الاجتماعي للأمة وفق تخطيط تربوي صحيح.

لٰكن، قد يكون للتأخير أسبابه وأعذاره، ولعل في مقدمة هٰذه الأسباب: العجز عن اكتشاف الطاقات القادرة علىٰ العطاء المتخصص، من جانب، أو أن تلك الطاقات المتخصصة لا تزال غائبة عن ساحة الفعل، والحضور المؤثر بالشكل المطلوب، من جانب آخر، وأن الرحلة في تأصيل الفكر التربوي، وبلورة المسألة التربوية الإسلامية، لا تزال بحاجة إلىٰ جهود مقدورة، وتخصصات متنوعة، ومتكاملة، وغزيرة.

فعلىٰ الرغم من أن الإسلام جاء ليخرج الإنسان من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله سبحانه وتعالىٰ، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعة الدنيا والآخرة، ومرور أربعة عشر قرناً أو يزيد علىٰ المدرسة التربوية، والمؤسسة التطبيقية الأولىٰ في دار الأرقم بن أبي الأرقم، التي بدأت منها خطوات المسلم (الإنسان الجديد)؛ مع ذٰلك، نرىٰ اليوم الكثير من الثغور التخصصية التي يقتضيها إخراج الإنسان والأمة لتحقيق الشهود الحضاري (الشهادة علىٰ الناس والقيادة لهم)، لا تزال مفتوحة، ولا نزال نؤتىٰ من قبلها، لأنها تفتقد المرابطين من أهل الدراية والفقه التربوي.. ولعل الاختراق، والاحتواء، والتحكم التربوي، الذي نعاني منه، يعتبر من أخطر هٰذه الثغور جميعاً، بل يمكن اعتبارها ثغرة الثغور كلها.

ونعتقد أن المسألة التربوية لا يكفي فيها كتاب، ولا كتب، فهي عملية مستمرة، متجددة لا يقيدها الزمان، ولا يحكمها المكان، فلكل عصر ما يلائمه، ولكل جيل مشكلاته، وتربيته، ولكل مشكلة علاجها، بشرط الإفادة من تراكم المعارف التربوية، وتوفر قدر من التواصل التربوي، والقدرة علىٰ استحضار العطاء التاريخي، واستصحاب القيم الضابطة للمسيرة التربوية، من الكتاب والسنة.

مسؤولية التربية:

وقد تكون المشكلة التي يعاني منها العقل المسلم اليوم، وعلىٰ أكثر من صعيد ـ ونعتقد أن التربية هي المسؤول الأول عن هٰذا الخلل، فهي الجاني والمجني عليه في الوقت نفسه ـ هي في تلك الجراءة علىٰ اقتحام كثير من الأمور التي تقتضي التخصص، بل التخصص الدقيق والدراية، بحيث يتطاول إليها وعليها، ويفتي فيها من لا اختصاص له، ولا علم، فيزيد الأمة خبالاً علىٰ خبالها، ويجهض الحلول الممكنة، ويشكك في قدرتها علىٰ المعالجة.. ذٰلك أن الخطأ، كل الخطأ، إنما يجيء من المُعالِج، وسوء تعامله، لجهله، وليس في وجود العلاج الذي يوضع في غير موضعه، ولغير دائه.

والعملية التربوية عملية مركبة، تتداخل فيها الكثير من العلوم التي لا بد من تحصيلها، لأنها تشكل أبجديات الفقه التربوي، إلىٰ جانب القدرة علىٰ حسن التعامل مع هٰذه العلوم وتوظيفها بالشكل والقدر المناسبين. إذ لا يمكن أن نتصور إنساناً يتكلم في التربية الإسلامية دون أن يتحصل علىٰ قدر كافٍ من علوم الدين، والسيرة، والتاريخ الإسلامي، لأن التربية في حقيقة الأمر تزاوج بين مجموعة من التخصصات، يحدث الإنجاب، أو الإنتاج التربوي، وما لم تتوافر هٰذه العناصر، فسوف لا يتم الإنجاب، إذ كيف يستطيع التخطيط التربوي، ودراسة المشكلات التربوية من وجهة نظر إسلامية، من لا يمتلك الرؤية الإسلامية والتخصص التربوي أصلاً؟ وكيف يستطيع التخطيط التربوي، ودراسة المشكلات، وتقديم الحلول التربوية، ويسمح لنفسه بتقحم المجال التربوي، من لا يمتلك معرفة كاملة بعلم النفس، وأصول التربية، والاجتماع.. إلخ.. وتقتصر معرفته علىٰ فقه أحكام الحلال والحرام دون فقه الواقع والمشكلات التي يمكن أن يعاني منها الإنسان في مراحل نموه المختلفة، ودون القدرة علىٰ استقراء تلك المشكلات، ووضع الحلول المناسبة لها؟ ذٰلك أن الخطأ في العملية التعليمية والتربوية الذي يشكل «الإنسان الخطأ»، والذي ينتج المسالك والمواقف الخطأ، لا يقل خطورة عن الفتوىٰ في أمور الدين من رؤوس جاهلة، تفتي بغير علم، فتضل وتُضل.

وقد تكون إشكالية العقل المسلم اليوم، سواء أكان ذٰلك في المجال التربوي، أم في سائر المجالات الأخرىٰ: افتقاره للقناعة بجدوىٰ التخصص، والتخطيط، وتقسيم العمل، وأهميته.. وإذا كانت مخاطر غياب التخطيط الذي يستدعي بالضرورة وضوح المنطلقات، وتحديد الأهداف، ودراسة الوسائل، واختبارها بشكل صحيح، وتقدير القوىٰ البشرية، واعتماد الإمكانات المادية اللازمة، والزمن المطلوب للتنفيذ، ودراسة الجدوىٰ، الأمر الذي يقتضي التقويم، والمراجعة، والتعديل، والتطوير بحسب مقتضيات الواقع والتنفيذ؛ إذ كانت مخاطر غياب التخطيط في المجالات المتعددة تعني تكريس التخلف، والحيلولة دون أيّ أمل في التنمية، فإن غياب التخطيط التربوي، الذي يعني عدم وجود فلسفة واضحة للتربية بمنطلقاتها وأهدافها، ووضع الخطط التربوية لكل مرحلة، بعد اختبارها، وقياس الناتج، ودراسة الجدوىٰ، قبل تعميمها، يعتبر من الأمور المدمرة للأمة.

وبالإمكان القول: إن أيّة إصابة في أي مجال من المجالات، يعني ببساطة: خللاً ما في المسألة التربوية، لا بد من مراجعته وتصويبه.

العجز التربوي:

وقد نستغرب كثيراً أن أميركا التي تنفرد بقيادة العالم اليوم، عندما سُبقت إلىٰ ارتياد الفضاء من قِبل الاتحاد السوفيتي، اعتبرت السبب: فساد النظام التربوي التعليمي، وعجزه عن إخراج المبدعين، فشكلت اللجان المتنوعة والمتخصصة لإنقاذ ما أسمته بـ (الأمة المعرضة للخطر) بسبب فساد نظامها التعليمي.. وأن الرئيس جورج بوش قال مراراً في حملته الانتخابية: إنه سيكون رئيس التربية والتعليم.. بل إنّ «روبرت د. هورماتس»، وهو خبير ومسؤول اقتصادي أميركي كبير تقلد مناصب تنفيذية عديدة، عندما سئل عن أهم مشاكل الاقتصاد الأميركي، وصف من بينها: «نظام التعليم الذي لم يلق اهتماماً كافياً...» (صحيفة البيان ـ ١٠/ ١١/ ١٩٩٠)! أما البروفيسور «آلان بلوم» الأستاذ في جامعة شيكاغو، فقد تحدث في أحد فصول كتابه الواسع

الانتشار: «إغلاق العقل الأميركي» الذي أحدث عام ١٩٨٨م ضجة في الأوساط الأكاديمية الأميركية، عن إخفاق التعليم العالي في مجال الحرية، وعن فشل المدارس والجامعات في بث الثقافة الأساسية لدىٰ الطلبة.. وقال: إن معاهد الدراسة أصيبت بداء الكسل الفكّري، فأنتجت جيلاً يفتقر إلىٰ مقومات الحس الحضاري.

إن غياب عقلية التخطيط، وغياب عقلية التخصص، وغياب عقلية النقد والمراجعة، ووجود الفراغ، والقابلية للغزو الثقافي، والاستلاب الحضاري، وانطفاء الفاعلية، وغياب القلق الحضاري، الذي يحرِّك الأمة صوب أهدافها، بإرادة جازمة وقدرة مبصرة، والاغتراب التاريخي، والاغتراب المعاصر، والتراجعات الحضارية الإسلامية في شتىٰ المجالات، معناه: أن العطب لحق بأجهزة العملية التربوية والتعليمية، فأصابها بالعقم وعدم الإنتاج، وأعجزها عن استقراء المشكلات التي تعاني منها الأمة، وأفقدها القدرة علىٰ وضع الأطر التربوية التي تمكنها من استئناف دورها، وتصويب خطوها، وتنشئة المواطن، وتوجيه طاقاته، ورعاية قابلياته، وميوله، وحسن توجيهه إلىٰ الموقع الفاعل، وملء الثغر المفتوح.

فالتربية الحقيقية هي التي تكون قادرة علىٰ تشكيل الإرادات، واكتشاف الطاقات، والتعرف علىٰ القابليات والميول، والتزويد بالمهارات التي تجعل الإنسان قادراً علىٰ التعامل مع الواقع، والنهوض به إلىٰ مستويات المثل الأعلىٰ والأهداف الممكنة.

هٰذا علىٰ مستوىٰ التربية بشكل عام.. أما علىٰ مستوىٰ التربية الإسلامية، فبالإمكان القول: بأن أجهزتها ليست أقل عطباً، وقصوراً، وعجزاً، إن لم يكن عجزها أكبر، ونتائجه أخطر، إضافة إلىٰ أنها تتم ضمن إطار الطرح التاريخي، فهي لا تزال تبدي وتعيد في طرح المشكلات التاريخية، وحلولها، بعيداً عن التعامل مع المشكلات الواقعية، والقدرة علىٰ تعدية الرؤية الإسلامية، وتقديم الحلول المناسبة في البناء والتحصين، والارتفاع بالمسلم إلىٰ مستوىٰ العطاء الإنساني..

وببساطة نقول: إن خلود الرسالة، وصلاحيتها لكل زمان ومكان، . ليس شعاراً يُرفع بالمناسبات السياسية، ويُعلق بالمحافل، ويعلو المنابر، ثم بعد ذٰلك نكون عاجزين عن ترجمته إلىٰ واقع عملي، يجسد هٰذه الحقيقة، ويثبت صحتها في الميدان.

إن خلود الرسالة، إنما هو في الحقيقة تكليف تضطلع بمسؤولية تحقيقه العملية التربوية؛ ونظرية تبرهن العملية التربوية، علىٰ أنها قادرة علىٰ أن تنتج نماذج للمثل الأعلىٰ، متميزة في كل زمان ومكان، وأن تُترجم ـ الخلود ـ إلىٰ واقع معاصر، ونماذج تثير الاقتداء، وأن ذٰلك لا يقتصر علىٰ فترة النبوة فقط.

وكون التربية الإسلامية اليوم لا تقدر علىٰ إنتاج تلك النماذج التي تبرهن علىٰ خلود الرسالة علىٰ مختلف الأصعدة الحضارية، فمعنىٰ ذٰلك: أن وسائل التربية التي نسميها «إسلامية»، هي وسائل قاصرة، بحاجة إلىٰ الكثير من المراجعة، والتطوير، والتعديل حتىٰ تكون في مستوىٰ الإنتاج المأمول للنماذج الإسلامية التي تحقق الشهود الحضاري، وتكون بمستوىٰ خلود الرسالة، وصلاحيتها لكل زمان ومكان.

معجزة الرشد الإنساني:

وقضية أخرىٰ، علىٰ صلة بسابقتها، لا بأس أن نعاود القول فيها لما نرىٰ من أهميتها، وضرورة طرحها بأكثر من أسلوب، وخاصة في الإطار التربوي، وهي:

أن معجزة الرسالة الإسلامية التي خاطبت البشرية بعد دخولها مرحلة الرشد الإنساني، ليست معجزة مادية، مجسدة، مرتبطة بأشخاص الأنبياء، خارقة للسنن الجارية، كعصا موسىٰ، وخلق عيسىٰ، فتلك معجزات مادية محسوسة تناسب مرحلة البشرية في طفولتها، ذٰلك أن الطفولة حالة يصعب معها الانتقال من المحسوس إلىٰ المجرد، إضافة إلىٰ أن تلك المعجزات يقف معها المرء عاجزاً عن أي فعل، ومؤمناً بأن ما جاء به النبي ﷺ، ليس من فعل بشر وقدرته. . إلَّا أن أقل ما يقال عن تلك المعجزات: إنها موقوتة

ومرتبطة بأزمان وأشخاص، والإيمان بها - إلىٰ جانب أنه ركن في عقيدة المسلم - يبقىٰ ذا قيمة تاريخية، فهو إيمان بالغيب، متولد من الخبر الصادق (الوحي).

أما معجزة الرسالة الإسلامية، فهي معجزة مجردة، بيانية، برهانية، تسير وفق السنن الجارية، تتحقق من خلال عزمات البشر وإراداتهم، وهٰذا يعني عدم إصابة الأمة بالعجز والعطالة، وانطفاء الفاعلية، وإلغاء التكليف، والاكتفاء بالإيمان السلبي، وانتظار الخوارق، وإلغاء إرادة الفرد وقدرته..

إن المعجزة الإسلامية وخلودها - كما يبدو لنا والله أعلم - يكمنان في قدرة الرسالة الإسلامية علىٰ إنتاج النماذج المعاصرة، التي تجسد هٰذه المعجزة في فعل بشري من خلال السنن التي لفت القرآن المُعجِز النظر إليها، وأرشد الرسول ﷺ إلىٰ كيفية التعامل معها، لتتحقق من خلال عزمات البشر، وضمن طاقاتهم المذخورة التي اكتشفها الإسلام، وأعاد تشكيلها، فطوىٰ بذٰلك الزمان والمكان، ولا يزال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]... فنحن الذين نرىٰ باكتشافنا، ونحن الذين نتأكد من صدق الخبر من السماء، بالبراهين التي نكتشفها في الأرض، فالبيان من السماء، والدليل من الأرض.

ولعل السنن التي شرعها الله في الأنفس والآفاق، هي المرتكزات التي تقوم علىٰ التعامل معها العملية التربوية، وتعتبر حجر الأساس في التنشئة والتحضير للبناء الحضاري، وهي في نهاية المطاف لا تخرج عن أن تكون قدر الله الذي لا بد من إدراكه، والتبصر في كيفيات تسخيره، قال تعالىٰ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].. فالسنن التي هي القانون الذي يحكم الكون، هي القدر الذي شرعه الله لترتيب النتائج علىٰ المقدمات، وهو الذي يمثل العدل المطلق والجزاء الأوفىٰ علىٰ السعي.. وبغير هٰذا المنهج السُّنَني الذي لا بد أن تقوم عليه العملية التربوية، فسوف لا يتحقق إنتاج، ولا إنجاز، ولا إبداع.

والتربية هي المسؤولة عن الاستمرار في كشف السنن، والتدريب عليها،

لتسخيرها، وإلّا انقلب الإسلام إلىٰ ومضةٍ وسناً تاريخي نطفئه بأيدينا ـ مهما حاولنا أن ندّعي غير ذٰلك ـ وأصبحنا عاجزين عن الامتداد به، والاهتداء بنوره في كل الأزمان والأماكن، وحل المشكلات التي تعاني منها الأمة علىٰ مختلف الأصعدة.

التربية التي نريد:

والتربية الإسلامية التي نسعىٰ إليها، ليست بطبيعة الحال عنواناً لكتاب ضمن المواد المدرسية المتعددة، يحتوي علىٰ فروع المعرفة الشرعية من القرآن، تلاوة، وحفظاً، وتفسيراً، والحديث حفظاً وشرحاً، وأحكام الفقه والتوحيد، وشيئاً عن السيرة، والأعلام، والتراجم... فهٰذه معلومات لا بد من الحصول عليها في عملية التربية الإسلامية، لأن من مقومات التربية ومستلزماتها: الحصول علىٰ المعلومة التي تساهم بالتنشئة، والتنمية، والتزود بالمهارات، ورعاية القابليات، وتوجيه الميول، ورؤية الهدف أو المثل الأعلىٰ، وتعمل علىٰ إعادة بناء النسيج الاجتماعي للأمة وفق فلسفتها.. وبذٰلك، لا تخرج المعلومات عن أن تكون إحدىٰ وسائل التربية، أو أقنيتها ـ إن صح التعبير ـ فالعلم والتعليم، إحدىٰ وسائط التربية، ووسائلها ـ إضافة إلىٰ الكتاب، والمعلِّم، والمنهج، والوسائل المعينة، والبيئة، والميراث الثقافي ـ لذٰلك عدلت كثير من الأمم عن تسمية وزارات التعليم إلىٰ تسميتها: وزارات التربية ـ فليس التعليم إلّا إحدىٰ وسائل التربية ـ كما أنها بدأت تفكر بالارتقاء بالوسائل الأخرىٰ، وتبرز دور المؤسسات التربوية المساندة كالأسرة، والمسجد، والنادي، والمسرح، والسينما، ووسائل الإعلام، وبرامج الأطفال، ومؤسسات الرعاية الاجتماعية والتكافل، وتنشئ وزارات للثقافة والإعلام، والإرشاد، والمعسكرات، والمخيمات، والرحلات، والمتاحف، ومراكز البحوث والدراسات، والتخطيط لأوقات الفراغ، وتنظيم وسائل الترفيه، والرياضة، لتتحول إلىٰ وسائل تربوية ذات أثر في بناء الإنسان، وإعادة تشكيله، ومتابعة مراحل نموّه، وتنمية مواهبه، واكتشاف ميوله، وإكسابه

المهارات المطلوبة وفقاً لأهداف الأمة، وجعل هٰذه الوسائل جميعاً مؤسسات تربوية مساندة.

فالتربية الإسلامية إذن، ليست ذٰلك الكِتاب المعنون بها، الذي يحتجز زمناً من اليوم الدراسي.. وليست مجموعة بحوث علمية في فروع الشريعة، أو العلوم الشرعية، وإنما هي فلسفة كاملة تسهم في بنائها، وتحقيقها، وتجسيدها، وتحويلها إلىٰ واقع عملي متحرك، كل المواد الدراسية، والمعارف، والممارسات، التي تبدأ مع الفرد ابتداءً من طفولته التي تُغرس فيها بذور مستقبل حياته السلوكية وتُنمَّىٰ فيها حواسه، ومروراً بكل موارده الثقافية والعلمية والتدريبية، وانتهاءً بمجموعة الخبرات والمسالك المتراكمة، التي يتحصل عليها في شيخوخته، وينقلها إلىٰ الأجيال المتداخلة من بعده.

فالتوهم أن التربية تقتصر علىٰ كتاب أو كتب، أو أن التربية الإسلامية حدودها كتاب التربية الإسلامية المدرسي، هو بحدِّ ذاته سبب من أسباب الخلل والعجز الذي تعاني منه العملية التربوية، والقصور في إنتاج الإنسان الصالح المتكامل.

والواقع الذي نحن عليه، لا يخرج عن هٰذا الخلل الذي ينتج لنا النماذج التي تعاني التمزق، وبعثرة رقعة التفكير، واختلاط الأمور، وعدم وضوح الهدف، والعجز عن رؤية المثل الأعلىٰ ـ فلكل مادة هدف، ومثل أعلىٰ ـ إلىٰ درجة تصل معها المواد الدراسية إلىٰ مرحلة التناقض، والتناكر، والتداخل الحضاري، والتنافر الثقافي، ويصبح المتعلم هو أول الضحايا.. فهو الإنسان الكَلُّ علىٰ مولاه أينما يرسله لا يأت بخير، الذي يتنازعه شركاء متشاكسون، وليس الإنسان العدل ذا النسق المنسجم، والشخصية المعافاة، قال تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل].

وقال تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩].

علم أصول التربية:

وقضية أخرىٰ في هٰذا المجال، لا بد من الإتيان علىٰ ذكرها، ولو بقدر بسيط، ومن ثَمَّ يترك أمر بحثها وتفصيلها للمتخصصين في الموضوع، وهي: أن الوصول إلىٰ التربية الإسلامية، أو بلورة المسألة التربوية الإسلامية في ضوء الرؤية الإسلامية الشاملة في القرآن، وبيانها في السيرة والسنّة، بما يمكن أن نسميه: «فلسفة التربية الإسلامية»، لا بد أن يعني ترجمة هٰذه الفلسفة إلىٰ واقع عملي، وإيجاد وسائل تشكيل الشخصية وفق الفلسفة الإسلامية، بمعنىٰ: امتلاك القدرة علىٰ تحقيق التفاعل بين الإنسان وبين المبادئ الإسلامية، لإخراج الإنسان المسلم، والأمة المسلمة.

إن الوصول إلىٰ بلورة المسألة التربوية الإسلامية من الكتاب والسنّة، والوصول إلىٰ الآليات، والوسائط، أو الوسائل التي تمكّن من ذٰلك، لا يمكن أن يتم مثلاً من خلال مناهج وآليات وأساليب تفكير علماء أصول الفقه الذي يعني استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلة، للوصول إلىٰ علم الفقه، أو معرفة الحكم الشرعي في الحلال والحرام.. كما أنه لا يمكن أن يتم من خلال مناهج وآليات علماء مصطلح الحديث الذين اهتموا بضوابط النقل ومناهجه، لتحقيق سلامة النص.. ولا من خلال مناهج وآليات علماء اللغة الذين وضعوا القواعد للحفاظ عليها، وعلىٰ دلالات الألفاظ بما يتفق مع معهود العرب في الخطاب والأسلوب.. ولا من خلال أسلوب ومناهج وآليات علماء القراءات. ولئن كانت هٰذه المناهج جميعها تساهم بتشكيل الإنسان، وتزوده بأقدار من المعلومات الضرورية، وتساعد في التربية، لٰكن يبقىٰ للعملية التربوية مناهجها، وآلياتها الخاصة بها، التي تتكفل بإحداث التفاعل بين المعلومة والإنسان، بين المعرفة والإنسان، لتترجمها إلىٰ مسالك وأعمال، وتطبيقات.. وبدون العملية التربوية، أو المناهج التربوية، تبقىٰ الأحكام الفقهية، وسائر المعلومات، عبارة عن نظرات مجردة، أو حقائق مجردة، ومعارف باردة، لا نصيب لها من التنزيل علىٰ الواقع، أو الارتفاع بالواقع ليتعامل معها، وهٰذه وظيفة التربية.. وهي بهٰذا الاعتبار، تشبه إلىٰ

حدٍّ بعيد دليل العمل، أو دليل التشغيل للآلة الذي بدونه لا تحدث الحركة، ولا يحدث الإنتاج.

ولسنا الآن بحاجة إلىٰ القول: إن لكل علم أساليب تفكيره، ووسائل فهمه، ومناهج الوصول إلىٰ حقائقه، لأن الأمر أصبح واضحاً، ويكفي أن نقول: بأن علماءنا ابتكروا من المناهج والآليات بمقدار ما احتاجوا إليه للوصول إلىٰ العلوم والمعارف في التفسير، والحديث، والفقه، واللغة... إلخ.. فلكل علم منهجه.. والمحاولات التي ترىٰ أن علم أصول الفقه هو السبيل الأوحد للوصول إلىٰ مقاصد الشارع في شتىٰ فروع المعرفة، فيه الكثير من التجاوز والمجازفة.

لذٰلك، لا بد من علم لأصول الفقه التربوي في الإسلام، ولأصول الفقه الاجتماعي، والفقه الاقتصادي.. لا بد من منهج لكل فرع من فروع المعرفة، يتناسب معها، ويوصل إلىٰ نتائجها.. ذٰلك أن تطبيق منهج علم للوصول إلىٰ نتائج علم آخر، مفسد للمنهج، ومفسد للناتج في الوقت نفسه.. وإن كنا نرىٰ أن تلك العلوم ليست بعيدة عن القضية التربوية، فجوانب التواصل فيها تفوق مواقع التفاصل.

إن علم أصول الفقه عرض لآيات الأحكام التي لا يزيد عددها علىٰ أحسن الأحوال عن خمسمائة آية، ومع ذٰلك استنبط الفقهاء منها هٰذه الذخائر والكنوز.. أما ما وراء ذٰلك من الآيات، فلا بد لنا أن نعترف بأن التخصص والاستنباط في شعب المعرفة الأخرىٰ، قد توقف من زمن.. وما هو موجود في مواريثنا الثقافية، لا يشكل نقطة في بحور الفقه التشريعي المتخمة.. لذٰلك، بقيت آيات القرآن فيما وراء آيات الأحكام، للتبرك والترتيل.. أما الدراسات الإنسانية التي تهيئ محل الحكم وتطبيقه، فمع الأسف توقفت من عهد بعيد، في الوقت الذي امتدت، وتبلورت، وتأصلت عند الآخرين، الأمر الذي لا بد أن يشكل استفزازاً، وتحدياً، ومنبهاً حضارياً يدفعنا لاستئناف السير، علىٰ الرغم من كل العقبات الداخلية، ولعل في مقدمتها: العقول التي تألف التقليد، وتحارب التفكير والإبداع، وتقدس مناهج الأسلاف، وتظن فيها

البداية والكفاية، وبذلك يتوقف خلود الرسالة، ويُقيد العقل، وتُفتقد الحكمة، وتوضع الأمور بغير مواضعها.

عقلية التبعيض:

وقد يكون من المشكلات الأساسية التي تعاني منها العملية التربوية الإسلامية: عقلية التبعيض والتفكك، أو النظرات الجزئية التي تفتقر إلىٰ الشمولية والتوازن، وضبط النسب، لأنها في نهاية المطاف تمثل النظرة الأحادية الضيقة التي تتوهم أنها اكتشفت الحقيقة المطلقة كلها، واستحوذت عليها من كل جوانبها، فلذلك تتحزب لها، وتنغلق عليها، وتلغي حق غيرها في النظر، وتلغي أيضاً حقها في النمو والامتداد الذاتي، كما تحول دون الإفادة من جهود الآخرين، ولو جاءت من المنطلقات نفسها، ونبتت في التربة نفسها، علاوة عن القدرة علىٰ الإفادة من نتائج الأمم الأخرىٰ فيما يحقق الانتفاع.

ولعل من مظاهر هٰذه النظرات الجزئية المتحزبة، والنظرات التبعيضية التي تورث الفشل والإحباط، ومن ثمّ التخاذل الفكري، والشلل التربوي، والانتحار الروحي، والهروب أحياناً من عالم الحياة، والواقع، والحقيقة، إلىٰ عوالم الوهم، والخرافة، والعطالة، وانطفاء الفاعلية: ما نراه من الإصابات الداخلية التي لحقت ببعض مؤسساتنا التعليمية، والتربوية، والدعوية.

فهي تارة تقدم علوماً محفوظة ولا تقدم تربية، وتارة أخرىٰ تقدم تربية ولا تقدم علماً وضوابط شرعية لسلوك الإنسان.. وبذلك، تستمر في حياتنا المعادلة الصعبة، ويستحيل علىٰ المؤسسات العلمية والتربوية بوضعهما الحالي أن تسهم بحلِّها، وهي: جلد الفاجر، وعجز الثقة.. فبعض المؤسسات التي اعتمدت العلوم دون أهدافها وحكمتها، ونسيت دورها في تشكيل الإنسان، أخرجت حفظة ونماذج من حملة الفقه، لٰكن لا فقه لهم، ولا يخرجون عن أن يكونوا نسخاً جديدة لكتب قديمة، لسانهم لسان العلماء، لٰكن قد تكون

قلوبهم وأعمالهم أعمال السفهاء كما يقول الإمام الغزالي رحمه الله[1]: (لم أجد من علماء عصري الذين علمتهم المساجد والمدارس، إلّا طلاب دنيا يشترون متعها بالدين).. لذٰلك دعا رحمه الله إلىٰ إحياء علوم الدين في النفوس.. فإذا كان هٰذا في زمن الإمام الغزالي، فما عساه أن يقول لو رأىٰ حالنا اليوم؟!

كما أن بعض المؤسسات، والتكايا، والزوايا، والربط الصوفية، حاولت أن تقدم تربية ورياضات روحية، وتزكيات نفسية، بعيداً عن ضوابط الشريعة وأصولها، واعتماداً علىٰ خطرات القلوب، وشطحات العقول، فضلت وأضلت، وانتهت إلىٰ ضروب من الانتحار الروحي الذي يلغي الحس الحضاري المسؤول، ويؤدي إلىٰ الإرجاء والانسحاب من المجتمع، والسلبية في التعامل مع الحياة، وأحياناً إلىٰ لون من الشذوذ والانحراف، وعبادة الله بما لم يشرع، حيث تُمجد الخرافة، وتهزم الحقيقة، وتُخرّج النماذج المشوَّهة التي تنفر بسلوكها بدل أن تغري به.

المعنىٰ المطلوب في التربية الإسلامية اليوم:

وفي اعتقادنا، أنه علىٰ الرغم من وجود مقومات ومكونات الفلسفة التربوية الكاملة والمتكاملة في الإسلام، بكتابه وسنته، ووجود الأبنية الفكرية التربوية في نطاق العقيدة، والعبادة، والمعاملة، والسلوك، والأخلاق، والفكر، والمعرفة، فإن المطلوب من الوسائل التربوية، أو الآليات التربوية هو: التأصيل لكيفية إحداث التفاعل، وإعادة بناء النسيج الاجتماعي للأمة في ضوء ذٰلك.. إننا نعتقد أن الله الذي خلق الإنسان، أعلم بما يحقق له السعادة والخير والمصلحة: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك]، وأن

---

(١) الغزالي ٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ.

محمد بن محمد أبو حامد الغزالي نسبة إلىٰ الغزّال (بالتشديد) أو نسبة إلىٰ (غزايه) بالتخفيف قرية من قرىٰ طوس، فقيه شافعي أصولي متكلم، رحل إلىٰ بغداد فالحجاز فالشام.

من مصنفاته: «البسيط»، و«الوسيط»، و«الوجيز»، و«الخلاصة»، وكلها في الفقه، و«تهافت الفلاسفة»، و«إحياء علوم الدين».

الوحي الذي جاء ثمرة لعطاء النبوة التاريخي، قد وضع لنا الأسس العامة للمعرفة والفلسفة التربوية، وشرع لنا العبادات والمعاملات، كمجالات للتدريب والتطبيقات العملية.. ولعل في العقيدة، وتنوع العبادات وتكاملها، ما يكفي لبناء الإنسان الصالح المصلح، فالوحي اختصر لنا كثيراً من تجارب الخطأ والصواب، ووفر علينا الكثير من إهدار الجهود والطاقات في مجال النظرية الفلسفية.. ويبقىٰ المطلوب من التربية الإسلامية أن تجتهد في إبداع الوسائل والآليات التي تحدث التفاعل، وتأخذ بيد الإنسان إلىٰ الإسلام.

ثنائيات متقابلة:

نعود إلىٰ القول: إنه علىٰ الرغم من تكامل البناء التربوي في الإسلام: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]، إلّا أنه يبقىٰ المطلوب من فلسفة التربية الإسلامية المعاصرة أن تكون قادرة بشكل شرعي ومقنع علىٰ أن تجيب عن الكثير من القضايا التي لا تزال تشكل ثنائيات متقابلة، كما تشكل مشكلة تربوية في الوقت نفسه، نتيجة لمواريث فكرية لم يتم تمحيصها وتنقيتها في ضوء الأصول المعتمدة من الكتاب والسنّة، ذٰلك أن تلك المواريث بقدر ما تشكل غنًى في الرؤية، وخصوبة في المعرفة والتجربة، إلّا أنها يمكن أن تشكل في الوقت نفسه عوائق، وآصاراً وقيوداً إذا لم نتمكن من وضعها في موقعها المناسب والصحيح.

نقول: إنه لا بد لفلسفة التربية والتعليم أن تنتهي من هٰذه الثنائيات، وتعيد ترتيبها علىٰ شكل يؤدي إلىٰ التكامل، وعدم التقابل: يؤدي إلىٰ التوازي وعدم التصادم، لإنقاذ الإنسان المأمول من التمزق التربوي، والصراع، والتبعثر، والتخاذل الفكري.

ولعل في مقدمة هٰذه الأمور: تحديد مصادر المعرفة في التربية الإسلامية، ومجالاتها، وبيان النسق الصحيح، والسياق الممتد لكل من الوحي والعقل، ومناهج التلقي لكل من الوحي والعقل، ووسائل اختبار كل من معرفة الوحي ومعرفة العقل، وإبراز عدم تعارض صحيح المنقول لصريح

المعقول، لأن مصدر الوحي والعقل هو الله، وأن العقل دليل الوحي، ووسيلة فهمه، ومناط تكليفه، وأن الخلل التربوي إنما يكون بنفي معرفة الوحي، وبقاء الإنسان أمام أسئلة حائرة مؤرقة لا يمتلك العقل الإجابة عنها؛ أو إلغاء معرفة العقل، وتعطيل أعظم النعم.

وأرقىٰ الميزات التي كُرّم بها الإنسان؛ أو توهم التعارض بين العقل والوحي، وفي ذٰلك إلغاء للوحي أيضاً بتعطيل آلة فهمه.

والأمر الثاني الذي لا بد لفلسفة التربية من حسمه في ضوء الكتاب والسنّة، وفهم الجيل المشهود له بالخير: قضية القدر والحرية، وهل القدر يعني إلغاء الكسب البشري، وإلغاء حرية الإنسان في الاختيار، وهل يعني أيضاً خلق أفعاله، وجعل قضية الثواب والعقاب بعيدة عن العدل الإلٰهي في ضرورة ترتيب النتائج علىٰ المقدمات، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾ [النجم] وأن الفوز يمكن أن يكون بدون عمل، مما يعني إلغاءَ للعقل والوحي معاً، وتعطيلاً لدور التربية والدعوة؟

إن علاقة الأقدار بالأسباب التي شرعها الله، وأمرَ الإنسانَ بانتهاجها للوصول إلىٰ النتائج، هي أشبه بمعادلات رياضية في القرآن، والسنّة، والسيرة.. وأن الأسباب والسنن هي أقدار الله، التي شرعها لعباده.. ولعلنا نلمح ذٰلك في قوله تعالىٰ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].. وأن الله الذي شرع الأسباب، لم يشرعها ليقيد بها نفسه، وإنما ليتعبد المخلوق بمدىٰ اتباعها وانتهاجها.. وأن التكليف لا يمكن أن يتم بدون حرية.. فالمسؤولية ثمرة الحرية، وإلّا أصبحت الحياة عبثاً من العبث، الأمر الذي انتهت إليه المذاهب الوجودية.. وأن انتهاج الأسباب التي شرعها الله، هو غاية التكليف والعبودية.. ومن ثم يأتي دور الإيمان بالقدر في الأداء الإيجابي في المجال التربوي، وانتشال الإنسان من السقوط والإحباط.. لقد فهم الصحابة أن الإيمان بالقدر يعني الإيجابية، واستفراغ الجهد، وضرورة مغالبة القدر بقدر، وأن ذٰلك هو الدين.

وقضية أخرىٰ تستدعي من فلسفة التربية قولاً فصلاً، وهي: العلاقة بين

النص الديني المطلق، والفهم والاجتهاد البشري المقيَّد بظروف الزمان، والمكان، والعلم المحدود، والعمر المحدود، في معرفة مراد الله من النص الديني.. وأن هٰذا الاجتهاد فهم بشري يجري عليه الخطأ والصواب، ولا يشكل الحقيقة المطلقة في كل زمان ومكان.. وأن العصمة والقدسية إنما تكون للنص الديني، ويبقىٰ هو المقياس.. وأن الفهوم البشرية ليست لها صفة القدسية، لذٰلك هي عرضة للتغيير والتبديل، والتجديد، والفحص، والاختبار، والإيقاف، والتأجيل في كل عصر، وخاصة بعد تراكم المعارف، وتطور آليات الفهم.. وأن النص الديني مطلق للزمان والمكان، بينما الفهم البشري نوع من الفكر في تنزيل النص علىٰ واقعة محددة ضمن زمان ومكان محددين.

وهٰكذا، قضايا الاجتهاد والتقليد.. والتراث والمعاصرة.. والإبداع في مجالات الحياة، والابتداع في الدين، والفرق بين الإبداع والابتداع.. والتمييز بين الغزو الثقافي والتبادل المعرفي، تحت شعار: الحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها فهو أحق بها.. وكذٰلك الواقعية والمثالية.. والتمييز بين الخصوصية، والعالمية في مجال الثقافة.. والفردية والجماعية.. والرجل والمرأة.. والثقافة والسياسة.. والعلم والدين.. والتنوع والاختلاف.. والوسائل والغايات.. والثابت والمتغير.. والعلم الديني والعلم المدني أو العصري.. إلخ هٰذه الثنائيات التي لا بد لفلسفة التربية من تحرير القول فيها ضمن إطار تربوي، ووسائل تعليمية تنقذ الجيل من التمزق، والتبعثر، والثنائية، وتحقق له الانسجام الفكري والثقافي، وتخلصه من الوهن، بسبب فساد العملية التربوية.

المرأة.. والوأد التربوي:

وقد يكون من المفيد ونحن بصدد الإشارة لنماذج من هٰذه الثنائيات، وضرورة تحرير القول فيها من قبل فلسفة التربية، لضمان العافية للجيل القادم، والسلامة لنسيجه الاجتماعي، وتمكينه من الإبداع والشهود الحضاري، أن نتوقف قليلاً أمام قضية لا تزال تفرض نفسها علىٰ الفكر التربوي الإسلامي،

لأنها لم تأخذ بُعد موقعها ومكانها السليم في البناء التربوي الإسلامي المعاصر، ولا يزال الكثير من جوانبها محل أخذ ورد، وكأن تكرار القول فيما أصبح ضربة لازب علىٰ العقل الإسلامي، ضِمن خريطة محددة مسبقاً، وهي: قضية المرأة، وما تتمتع به وظيفتها التربوية من خصوصية، وطبيعتها النوعية من قابلية تربوية أيضاً، علماً بأن القضية التربوية عملية مشتركة من كل الوجوه، والأفراد.

فالمعروف أن خطاب التكليف الإسلامي، بأبعاده المتعددة، إنما جاء عامّاً للرجل والمرأة علىٰ سواء، عقيدة، وعبادة، ومعاملة، وأمراً، ونهياً، وموالاة، وحقوقاً، وواجبات، وجعل الله ميزان الكرامة والفوز: التقوىٰ والعمل الصالح، وليس الذكورة، ولا الأنوثة. لأنها أمور قسرية، لا يد للإنسان فيها، ولذٰلك لا يُقبل عقلاً أن تكون محل مسؤولية وتفضيل، وإنما المسؤولية علىٰ الأمور الاختيارية.. وأن القوامة التي شرعها الله للرجل هي في الحقيقة مسؤولية إشراف وأهلية قيادة، وليست تشريفاً: ذٰلك أن الشرف إنما يكون بالتقوىٰ والعمل الصالح.. فالخطاب عام، إلّا من بعض المساحات الخاصة التي ينفرد فيها الرجل، أو تنفرد فيها المرأة، حسب الطبيعة النوعية، ومقتضيات الوظيفة الاجتماعية.

والذي يستقرئ سيرة خير القرون، يجد أن الحياة الاجتماعية، كانت طبيعية، ومتكاملة، ومنسجمة في البناء التربوي الإسلامي، ولا يجد أثراً لهٰذه الثنائية إلّا من بعض حالات خارجة عن النسق، والتي يمكن أن نعتبرها من الأمور المربِّية، قدرها الله لتكون من وسائل الإيضاح المُعِينة علىٰ فهم دور الرجل أو المرأة، وضرورة التصويب، لم تخرج عن النطاق الطبيعي.. فلما تراجعت التربية الإسلامية، وضعف العلم الإسلامي، وتحكمت التقاليد الاجتماعية وحلّت محل التعاليم السماوية، وحلّت العقلية القبلية الجاهلية، محل التربية النبوية، برزت هٰذه الثنائية التي لا تزال تفرض نفسها علىٰ الواقع الإسلامي، حتىٰ وصلت الأمور إلىٰ درجة من التطرف والغلو، وإلىٰ الخروج أحياناً، فحُرمت المرأة من التعليم، ومن الثقافة، ومن العبادة في المسجد،

ومن الولاء، والبراء، والقيام بمسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحمل الشهادة، وأدائها، وألغيت ذمتها المالية، وحقها في الإرث، وعطاؤها في الجهاد، تارة باسم ضرورة التفرغ لوظيفتها التربوية؛ وأخرىٰ باسم الحرص علىٰ شرفها وعفتها؛ وثالثة باسم فساد العصر، وشيوع الفتن (!) وكأن وظيفتها التربوية يمكن أن تؤدىٰ وهي جاهلة بالحياة، والعصر، والمجتمع الذي يُطلب إليها تربية أولادها للتعامل معه؛ ولا ندري: كيف يمكن أن تقوم بأداء وظيفة تربوية، وتخرِّج نماذج لحياة لا تعرفها، وكأن التربية تقتضي الجهل، والغباء، والعطالة، بحيث تصبح أقرب لتنظيف البيت والطفل منها إلىٰ تربيته، وكأن بعضنا أحرص علىٰ المرأة من الله الذي شرع لها حدود وظيفتها، وهو الخالق لها، العالم بتقلب الأحوال، والأزمان، والفساد، والصلاح!

وقد تكون الخطورة في إيقاف وتعطيل بعض التعاليم والأوامر الشرعية، بحجة الحماية من الفساد، كالخطورة في إلغاء أحكام الشريعة، والخروج عليها، بحجة عدم الصلاحية لهٰذا الزمان.. وأظن أن الأمرين في النهاية يصدران عن عقلية واحدة، وإن اختلف الاتجاه.

ولذٰلك نقول: إن تعثر العملية التربوية وفسادها في إطار المرأة، أبلغ أثراً، وأخطر شأناً منه في نطاق الرجل.. وأن المرأة التي ادعينا حمايتها، أُتينا من قِبلها.. وعدنا من حمايتها والدفاع عنها، فلم نجدها.. وصحونا بعد فوات الأوان، لنرسلها إلىٰ مؤسسات التعليم، فنجد أن المشرفين والمشرفات علىٰ العملية التعليمية والتربوية ممن تربوا خارج الإطار الإسلامي، وسبقوا إلىٰ التعليم، هنّ قدوتها! كل هٰذا كان يتم باسم الدين.. وأعتقد أن الكثير من المواقف في السيرة وعهد الخلافة الراشدة، لو حدث بعضها في مجتمعات اليوم لترتب عليها مسالك خطيرة من بعض الجهلة، وسالت دماء غزيرة، باسم حماية المرأة.

لذٰلك نقول: إن الوأد التربوي والنفسي والاجتماعي، لا يزال يتم، لٰكن بصورة أكثر حداثة وإخراجاً.. وما لم تستطع العملية التربوية اقتحام العقبة، وإعادة الاعتبار للمرأة، وتبصيرها بدورها كما شرعه الله، وإعطاءها ما أعطاه

الإسلام في الحياة الاجتماعية، وإدراك موقعها في العملية التربوية، فسوف يستمر الخلل، ويستمر العجز، ويُكرّس التخلف باسم التدين، وتُفرَّغ المرأة من أخص خصائصها في الوظيفة التربوية التي نِدّعي أنها خُلقت لها.. وما لم يتم التحريم من العادات والتقاليد الاجتماعية التي تمارس علىٰ المرأة باسم الدين ـ وهي ليست من الدين ـ علىٰ يد رواد الإصلاح الإسلامي والتربية الإسلامية، فسوف يكون الخروج عن التعاليم الإسلامية علىٰ يد أعداء الدين من المفسدين في الأرض.

عالم الغيب.. والشهادة:

ومن الثنائيات الخطيرة التي تستدعي وقفة بسيطة أيضاً، تثير الموضوع، وتعيد طرحه من جديد، وتغري في تناوله، وتحرير القول فيه في نطاق فلسفة التربية الإسلامية، لتخليص الشخصية المسلمة من الأرجحة والاضطراب، واختلال التوازن، وعدم ضبط النسب، والسقوط تحت وطأة المجتمعات المادية الغازية، بثقافاتها الغالبة، إلىٰ جانب ردود الفعل المتولدة عن السلبية، والعجز، وانطفاء الفاعلية التي يُعنْوَن لها في العالم الإسلامي بعناوين الإيمان:

قضية حدود عالم الغيب الذي يعتبر ركن الإيمان، وغاية المصير، ونهاية الحياة، ومستقبل الإنسان، في مقابل عالم الشهادة، واضطراب المعادلة عند مسلم اليوم، وعجز العملية التربوية عن التنشئة السليمة في هٰذا الإطار، وعدم قدرتها علىٰ تحديد مدلولات عالم الغيب، وتحويل الإيمان به، وترجمته إلىٰ معنًى إيجابي ينشئ الدافع، ويربي الإرادة العازمة، ويحمي من السقوط، وينمي جانب الاحتساب، ويُشعر بالمسؤولية، ويعد بالعدل المطلق، وعدم فوت النتائج والثواب، ويربي الرقيب والوازع الداخلي، ويحمي من الآفات النفسية، من اليأس والقنوط، ويوقظ القلق السوي، ويهوّن المصائب، ويغري بالتضحية، وإخراج إنسان الواجب: ﴿وَمَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشعراء]. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾﴾ [الزلزلة].

والمشكلة: أن عجز العملية التربوية اليوم يتمثل في إسقاط الأمد الغيبي تماماً، أو جعله ذا ظلال سلبية كئيبة علىٰ السلوك، وبناء الشخصية، ليصيبها بالعطالة، والتواكل، وفقدان التوازن، والتحول عن مجال التكليف، والمسؤولية والمكابدة في عالم الشهادة، والنكوص عن القيام بأعباء الاستخلاف، للاشتغال بأمور الغيب مما ليس مجاله العقل والفعل.. أو بمعنًى آخر: إن افتقاد التوازن في هٰذا الموضوع، جعلنا ندع ما نملكه في عالم الشهادة، إلىٰ الانشغال بما يملكنا في عالم الغيب.. وما لم تجب فلسفة التربية الإسلامية عن هٰذه الثنائية، وتجعل الإيمان بالغيب في موقعه الصحيح من البناء التربوي، وتحرر القول في مصطلح الغيب، وأنه لا يرادف المستقبل من كل وجه؛ فسوف يستمر الوهن.. وقد يُسمىٰ الماضي غيباً: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وقد يُسمىٰ الحاضر الغائب عن ساحة المشاهدة غيباً، وقد يُسمىٰ المستقبل في عالم الشهادة، غيباً ويبقىٰ علىٰ كل حال، غير الغيب بمعنىٰ العالم الآخر الذي يختص الله بعلمه، وتتوقف معرفته علىٰ إخبار الوحي، وإدراك العقل.

لذٰلك قد يكون من الخطورة التربوية بمكان، التوهم بأن استشراف المستقبل، والتخطيط له، واستقراء التاريخ ليعين ويوجه إلىٰ ذٰلك، لون من اقتحام المحظور الشرعي.

نعود إلىٰ القول: ما لم تستطع فلسفة التربية، الإجابة السليمة عن هٰذا الأمر، وتحدث التفاعل بين الإنسان والإيمان بالغيب، في تربيته وسلوكه، وتبقىٰ تتردد العملية التربوية بين إنكاره بإطلاق، باسم العقل والعقلانية، أو تجاوز الحدود التي بيَّنها الوحي في فهمه، والاستغراق في التعامل معه بلا ضوابط الوحي، فسوف نستمر في استقبال أفواج من المشوَّهين، من ضحايا العملية التربوية القاصرة، سواء أكان التشويه بسبب إنكار الوحي، أم إنكار العقل.

إن إنسان الواجب، إنسان الاحتساب، صاحب الإرادة العازمة، والدافع القوي، والدور الإيجابي في كل الظروف، الذي نريد للتربية الإسلامية أن

تخرجه، سوف لا يتخرج بأبعاده المطلوبة إذا غاب البعد الغيبي، بسبب عجز مؤسساتنا التربوية، أو إذا غبنا في البعد الغيبي.

وقضية أخرىٰ قد يكون من المفيد أن نعرض لها، ونذكّر بها، وهي: أنه لا بد من الاعتراف أن فروعاً كثيرة من المعرفة، وخاصة في مجال العلوم الإنسانية (علم النفس، والاجتماع، والتربية، والسياسة، والاقتصاد. . . إلخ)، قد توقفت عن الامتداد في حياة المسلمين الفكرية من زمن بعيد، وما عندنا من المواريث في هٰذه المجالات، لا يخرج عن أن يكون بوارق وومضات لم تتبلور، ولم تؤصل بالشكل الصحيح. . وأننا سُبقنا في هٰذه المجالات، وأن كثيراً من هٰذه العلوم تمنهجت، وتأصلت، وتبلورت عند الأمم الأخرىٰ، من خلال عقيدتها، وفلسفتها عن الكون، والإنسان، والحياة. .

والتحدي الصعب اليوم هو: كيف يمكن للمتخصصين في هٰذه العلوم ـ وغالباً ما جاءت تخصصاتهم في معاهد، ومناهج، ومعلمي الحضارات والثقافات الأخرىٰ ـ أن ينفلتوا من التحكم، ويخرجوا من النسق التربوي والثقافي الذي درسوا في مناخه، ويمتلكوا الاقتدار علىٰ التمكن من أدواته وآلياته فقط، والفكاك من نسقه، ومن ثم إنتاج فقه تربوي إسلامي من خلال المرجعية الإسلامية، ومصادر المعرفة الإسلامية في الكتاب والسنة، وردم فجوة التخلف، وإلغاء التبعية الفكرية، والعمالة الثقافية، والارتفاع إلىٰ مستوىٰ الخطاب التربوي العالمي، أو العطاء التربوي الإسلامي، وإغراء الناس بالإسلام حقيقة؟

وهنا لا بد من القول: إن ميراث المسلمين في الإنتاج التربوي التاريخي، تركز علىٰ إنتاج الشخصية، وتمحور حول الجانب التطبيقي للبناء التربوي في قيم الكتاب والسنّة، أكثر من الانشغال بتحديد المفهومات، وتأصيل الفكر النظري، الأمر الذي اقتضته العصور اللاحقة، أو الأجيال اللاحقة، بمعنىٰ: أن المسلمين الأوائل اشتغلوا بوظيفة المفهوم عن الاشتغال بتحديد المفهوم والمصطلح، وأخشىٰ أن أقول: بأننا اليوم نشتغل بالمصطلح عن وظيفته.

... وكان الأولىٰ للقياس
الصحيح، أن نقيس الإنتاج التربوي الإسلامي بعصره، من إنتاج العصر نفسه عند الآخرين، وضمن الإطار النظري والتطبيقي، لندرك تميز المسلمين وتفوقهم، وعندها نلقي باللوم علىٰ أنفسنا، وتقصيرنا، ونتخلص من العقلية الذرائعية التي تسوِّغ قصورنا، حيث نلقي بالتبعة علىٰ السابقين، فنقع بما نتنكر له.

مرحلة الفكر التعبوي:

ويتفرع عن هٰذه القضية، وجه آخر لا بد من الإشارة إليه، وهو: أننا في مرحلة استرداد الذات، وحمايتها من ثقافة وسياسة الغالب الذي حاول تكريسها بالاستعمار، كان من الطبيعي أن ينشأ عندنا رواد لهٰذه المرحلة، يكتبون عن فروع المعرفة المختلفة، بما فيها المعرفة التربوية، بما يمكن أن نسميه: مرحلة استرداد الذات، وحمايتها، وتعبئتها ضد الذوبان، لذٰلك جاءت الكتابات كلها تقريباً بأسلوب تعبوي، يحتفظ بالمسلمين، ويحول دون ذوبانهم، وكأنه يقول لهم: بأن في الإسلام كفاية وغنًى، بل فيه أفضل مما في الحضارات الأخرىٰ، فاستمسكوا به، وأقبلوا علىٰ كنوزه.. احتفظوا بالمسلمين ليجيء المتخصصون، فيقوموا بدورهم في التأصيل، والتنظير، والتطبيق، والفقه التربوي.

لذٰلك، نقول: إن الإلقاء بالتبعية علىٰ هٰؤلاء، دون إدراك دورهم بدقة، وقوع أيضاً في الشرك الذي ننكره، ونتنكر له، مع الاعتراف بأن الخطورة، كل الخطورة، أن يمتد هٰذا الفكر التربوي التعبوي بعد انتهاء مرحلته، أو أن يبقىٰ يستغرق المساحة كلها، حتىٰ وإن قلنا بضرورة استمراره، وبحدوده الطبيعية.

التربية بالقدوة:

وقد يكون من المناسب هنا أن نشير إلىٰ الدور المؤثر، والواعظ، والبليغ في نطاق التربية بشكل عام، والتربية الإسلامية بشكل خاص، وهو:

التربية بالقدوة.. ذٰلك أن القدوة أو الأنموذج، هو في الحقيقة، تجسيد للمثل الأعلىٰ في الواقع البشري المحسوس والمشاهد، وترجمة للنظرية إلىٰ ممارسةٍ وتطبيق، وتحويل للفكر والأمل إلىٰ فعل وعمل، من خلال عزمات البشر، وبذٰلك تتحقق القناعة الفكرية المحسوسة، إلىٰ جانب القناعة العقلية المجردة، بأن المثل الأعلىٰ ليس خيالاً بعيد المنال، ومستحيل التنزيل علىٰ الواقع.

ومن هنا نقول: إن الضرورة العقلية والتربوية تقتضي أن يكون الأنبياء من البشر، وأن يكونوا رجالاً يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، وتجري عليهم سنة الحياة التي تجري علىٰ سائر البشر.. ولولا أنهم من البشر، لما استحقوا تربوياً أن يكونوا نماذج للاقتداء وتجسيد المثل الأعلىٰ؛ إذ كيف يُشكل قدوة للبشر، وترجمة أمينة للمبدأ، من لا يحس إحساس البشر، ولا يتمتع بصفاتهم، ولا يطيق طاقتهم!؟

فالتربية علىٰ المثل الأعلىٰ، وبعث النزوع والتطلع إليه، والإغراء به في نفوس البشر، لا بد له من نماذج ورموز في كل عصر.. لا بد له من أفراد ممتازين يجسدونه، ويثيرون الاقتداء به عند الآخرين، لمحاكاته والارتقاء إليه، إلىٰ جانب استصحاب سير الأنبياء والصحابة، لتتواصل الحلقات التربوية التاريخية، وتُدَلِّل علىٰ الصلاحية لكل زمان ومكان.. لٰكن المشكلة التربوية الحقيقية، أو بعبارة أدق: «الخطورة التربوية» في هٰذا المجال: عندما تتحول هٰذه الرموز وتلك النماذج إلىٰ أوثان أو أصنام من دون الله، تُضفىٰ عليها الصفات والخصائص الخارقة، وتدعىٰ لها العصمة عن الخطأ، واحتكار المثل الأعلىٰ.. فبدل أن تكون ممثلة ومجسدة للمثل الأعلىٰ، تصبح هي المثل الأعلىٰ، والمقياس لكل شيء، يوزن بها الحق، ولا تُوزن به.. وهنا تبدأ مرحلة غياب المثل الأعلىٰ بالمفهوم الإسلامي، وبروز الصنم الذي يحتكر كل الحقيقة في ذاته، وترتكس العملية التربوية، ويصبح الرمز أو الأنموذج قيداً علىٰ العقل، يحول دون انطلاقة الفكر، وقدرته علىٰ الإبداع والاكتشاف والاجتهاد، وتعود الآبائية (والطوطمية) التي تحمل معها الآصار والأغلال لمحاصرة الإنسان.

لذلك نرىٰ أن القيم والمبادئ الإسلامية التربوية عوفيت من هٰذا الداء ـ وإن أصيبت به بعض التطبيقات ـ عندما توجهت إلىٰ تقدير وتقديس الصفة، والوظيفة، والعمل الناتج الموزون بميزان الحق، وأغرت باعتناقه، وتعشقه، والتطلع إليه، ولم تقدِّس النماذج لأشخاصهم، وإنما قدست القيم التي يمثلونها.. قدست الكرم، ولم تقدس شخصية الكريم وشكله.. قدست قيم العدل، ولم تقدس شخصية العادل.. وهٰكذا.. فإذا ذُكر عمر ﷺ، ذكر العدل.. وإذا ذكر عثمان ﷺ، ذكر الكرم والحياء... وإذا ذكر خالد ﷺ، ذكرت القوة والجهاد في سبيل الله.. وذٰلك حتىٰ تكون هٰذه المعاني ـ من الناحية التربوية ـ في متناول الجميع الذين يعزمون علىٰ الارتقاء إليها، وليست حكراً علىٰ شخصية الأنموذج.

وبمعنًى آخر: لقد قَدست وخَلّدت القيمُ الإسلامية، معاني البطولة، ولم تقدس البطل.. وفي هٰذا ما فيه من التحرير والارتقاء.. فالارتباط والمعيار دائماً هو الحق والمثل الأعلىٰ، حيث يُوزن الرجال بالحق، ولا يوزن الحق بهم.. فالرجالُ يُعرفون بالحق، ولا يُعرف الحق بالرجال.. وكل إنسان يجري عليه الخطأ والصواب، ويؤخذ من كلامه ويرد إلّا الرسول ﷺ، لأنه مسدد بالوحي، ومؤيد به.

ولذٰلك يمكن أن نقول من هٰذا المنطلق التربوي: إننا بذٰلك نجعل عملية التربية عملية متبادلة ومشتركة بين الأمة ونخبتها.. بين القيادة المتسلحة بالحق، المنتصرة له، والقاعدة القادرة دائماً علىٰ الحيلولة دون تحوّل رموزها إلىٰ أوثان تقودها بدون وعي.. فالأمة تراقب النخبة.. والنخبة ترتفع وتسمو بمقدار إرادتها العازمة في التزام المثل الأعلىٰ والحق، ومقدار عطائها في إطاره.

أما عندما ترتكس العملية التربوية، ويسود التقليد الجماعي، والمحاكاة، ويتوقف التجديد، والإبداع، والاجتهاد، والنقد، والتقويم، عندها تتحول رموز العمل إلىٰ أوثان تفسد العملية التربوية والدعوية.. فبدل أن يكون القدوة أنموذجاً مربّياً، يصبح وثناً معطِّلاً.

وهنا حقيقة لا بد من الإشارة إليها أيضاً، لأنها في نظرنا قد تكون مكملة ولازمة لما سبق وأشرنا إليه بالنسبة لهٰذه النماذج والرموز، وهي ما قلناه: بأنه يجري عليها الخطأ والصواب بطبيعتها البشرية، لذٰلك لا تشكل في التصور الإسلامي محلاً للقدوة الكاملة، لأن كلَّ الناس - غير الرسول ﷺ - لا وحي لهم، يسدد خطاهم. . لذٰلك نقول: إن غياب معيار التصويب والتخطيء بالحق، يؤدي بالضرورة إلىٰ التستر علىٰ الخطأ، ومحاولات تبريره، وتسويغه بعقلية ذرائعية، كما هو حاصل الآن في كثير من مجالات العمل والمواقع الإسلامية، حيث تتحول بعض القيادات والرموز إلىٰ معصومين، لم يحدث لهم ولا خطأ واحد في سيرتهم كلها (!).

ولعل هٰذا يعتبر من أخطر الإصابات الداخلية في مجال تربية الأفراد، وبناء شخصياتهم، الأمر الذي يضلل القيادات، بإخراجها عن بشريتها لتصبح عقبة أمام كلّ نمو، وتصويب وارتقاء، وتفكير حر، والانتهاء من ثمَّ إلىٰ ضرب من التصنيم، والتوثين، والآبائية المعطلة، التي حذر القرآن من السقوط فيها.

لذٰلك قد نقول هنا: إنه يجب أن نفرح وأن نُسرّ عندما نكون قادرين علىٰ اكتشاف خطأ، أو أخطاء لهٰذه الرموز. . تماماً كما نفرح بصوابها. . وأن هٰذا الاكتشاف سوف لا يضرها، ولا يسقطها، بل يؤكد بشريتها.

وقد يكون الخلل، أو أسباب المشكلة في ذٰلك: أن العقل المسلم الذي وقع فريسة النظرة الجزئية، والتبعيضية، وغياب الرؤية الشاملة للأشياء، لا بد أن يقوده ذٰلك إلىٰ لون من التطفيف في الوزن والكيل، يدفعه إلىٰ أن ينظر إلىٰ الأشياء ويقوّمها من خلال هٰذه النظرة الجزئية، والموقف الواحد، وتعميمها علىٰ المواقف والاجتهادات. . فإن رضينا أن ننسب الخطأ لإنسان، أو نثبته عليه، فإن ذٰلك حتماً سيقود العقل الجزئي إلىٰ إسقاطه كلياً، وتناسي كل كسبه وصوابه في سائر الأعمال الأخرىٰ. أي أن العقل الجزئي يسقط تاريخاً طويلاً من عمل الخير والصواب، بسبب خطأ واحد!! وقد يسقط تاريخاً طويلاً من عمل الشر والفساد والإفساد، بتوهم صواب واحد!! إنه اختزال للتاريخ في موقف. . ولذٰلك نرىٰ الأنصار، والمريدين، والتلامذة، يستميتون في الدفاع عن الشيخ أو

الزعيم، أو الرئيس، أكثر من الدفاع عن الحق نفسه.. ويبررون خطأه إلىٰ درجة قد تحمله إلىٰ مواقع العصمة، وتخرجه عن طبيعته البشرية.. وعندها، تحيط به أخطاؤه، وينقلب الأتباع إلىٰ إقطاعات بشرية تسيطر عليها وتحركها روح القطيع.

ونعتقد أن العقل المسلم لو رُبيَّ علىٰ النظرة الشمولية (وكفىٰ المرء نبلاً أن تعد معايبه)، لكانت حمايته لأحبائه ورموزه، كحماية الطبيب المعالج، لا كحماية الأمّ الحنون التي تحول دون وليدها وقسوة الدواء الشافي، ويكون ذٰلك الامتناع سبيلاً إلىٰ إنهاء حياته.. وهٰذه آفة كل تستر علىٰ الخطأ، وعدم السماح بالنقد والتقويم بنوايا مخلصة، تحت شتّىٰ الظروف والمعاذير.. ومخاطر ذٰلك في المجالات التربوية: دمار للفرد والأمة علىٰ حد سواء.

الترغيب.. والترهيب:

وقضية أخرىٰ قد تكون فرعاً عمّا نعرض له أيضاً، وهي: أن بعضاً منا، سواء أكان ذٰلك في المجال التربوي، أم في مجالات الدعوة والعمل الإسلامي ـ وكلها لا تخرج عن النطاق التربوي ـ لا يرىٰ مناقشة السلبيات التي يمكن أن يقع فيها العمل، أو حتىٰ مجرد ذكرها، وإنما يرىٰ أن نكتفي بذكر الإيجابيات، والتركيز عليها، بحجة أن ذٰلك يخلخل الصفوف، ويبصّر العدو بمواطن الضعف، ويصيب النفوس ببعض الإحباطات والارتكاسات علىٰ المستوىٰ التربوي، لذٰلك يرىٰ أن تقتصر التربية علىٰ ذكر الإيجابيات، والترغيب دون الترهيب.. وفي اعتقادنا أن ذٰلك هو مقتل العمل والتربية، فالقرآن عرض للترغيب والترهيب، معاً، وحسب مقتضيات الحال، حتىٰ في مراحل الطفولة الأولىٰ: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ [لقمان].. واعتمد التقويم والتسديد، حتىٰ في أشد الحالات حراجة: حالات الهزيمة..

وفي الوقت الذي نرىٰ بعض الصحابة يسألون عن الخير ليفعلوه، نرىٰ بعضهم الآخر يسأل عن الشر مخافة أن يدركه.

التعسف في التفسير:

ولعل بعض مظاهر المشكلة في العملية التربوية الإسلامية اليوم: أن قضية التعسف في تفسير النصوص من الكتاب والسنّة، لم تقتصر علىٰ الجانب العلمي والدراسات المادية، والكونية، أو ما يسمىٰ بالإعجاز العلمي في محاولات لإثبات سبق الإسلام إلىٰ هٰذه النظريات، بشكل مختلف يدعو إلىٰ الحزن أحياناً، ويشكل شاهد إدانة علىٰ فقر وعجز العقل المسلم اليوم، لأنه يستنزف نشاطه وطاقاته في اللهاث وراء إثبات ما وصل إليه العلم من نظريات وحقائق، ليعوض عن مركب النقص، ويدّعي السبق الموهوم؛ وإنما تجاوز التعسف في التفسير إلىٰ مجالات أخرىٰ لعلها الأخطر: في مجالات العلوم الإنسانية، في محاولة للتفتيش والانتقاء لبعض الآيات القرآنية والمصطلحات اللفظية، وإخراجها من سياقها، وعدم القدرة علىٰ إبصار وظيفتها، وتحميلها بعض المعاني الخفية، وحملها علىٰ نظريات في علم النفس والتربية والاجتماع، أو حمل الآيات عليها، والنظر إليها من خلال المذاهب والمدارس الفكرية، أو التربوية، المعاصرة.

وقد تكون المشكلة الأخطر أن يتوسع بعض المفكرين المسلمين في فهمه لبعض الآيات، فتارة يقبل الإسلامُ عنده التربية الماركسية، وأخرىٰ تُنتقىٰ بعض الآيات التي تلتقي مع التربية الرأسمالية، وثالثة نجد أصولاً لمذهب التطور واستمرار التخلق وليس الكشف عمّا هو مخلوق! ونخشىٰ أن نقول: لقد أصبح لكل إنسان فهم خاص للكتاب والسنّة، اليوم، بحسب نظرته، ومواريثه، ومعتقداته، وقناعاته المسبقة.

تحكم النسق الغربي:

ولعلنا نقول: إن المشكلة إنما جاءت من تحكم النسق المنهجي الغربي في عمليات التفكير الإسلامي، خاصة لدىٰ من تخصصوا في مناخه، أكثر من القدرة علىٰ الإفادة من آليات الفهم والكسب البشري، ومن ثم توليد نظرة متميزة للتفكير، متسقة مع مصادره، وأصوله المعرفية، ونظرته للكون والإنسان

والحياة، وبذلك يكون كل الناتج: إعادة قولبة الإسلام في القوالب الغربية، وتقديم الحيثية، والفلسفة الإسلامية لقولبته.. وهذه الحالة هي الأخطر في الحوار، والتبادل المعرفي، والمواجهة الحضارية، من التحدي المباشر، حيث تتوهم المؤسسات التربوية والفكرية، الوصول إلىٰ «الإسلامية» في النظرية والتطبيق، لكن الحقيقة هي أن كلمة «الإسلامية»، أو «الأسلمة» لا تخرج عن أن تكون شعاراً، ويافطة، أو ملصقاً علىٰ المناهج والأساليب الغربية في التفكير.. وفي هذه الحالة، قد يكون الأفضل لنا أن نحتفظ بالهاجس والقلق الدافع إلىٰ الوصول إلىٰ الفقه التربوي الإسلامي مستقبلاً، من أن نتوهم أننا أحسنا صنعاً بما نفعل، وبذلك نضل الغاية.

المعادلة المختلة:

ولعل من بعض مظاهر الأزمة التي تعاني منها العملية التربوية في العالم، والتي ألحقت شيئاً من الأذىٰ بالتربية الإسلامية علىٰ يد بعض المتخصصين بالتربية ضمن إطار النسق الغربي: أن بعض المدارس والاتجاهات التربوية، اعتمد بناء الفرد أساساً للوصول إلىٰ المجتمع الفاضل أو المنشود، ضمن فلسفة التربية التي تراها الأمة، وأسقط دور البيئة، والمجتمع، والمواريث الثقافية والتاريخية في عملية البناء التربوي، وانتقىٰ لذلك الأدلة والوقائع التي تدلل علىٰ ما ذهب إليه.. وبعضهم الآخر اعتقد أن الفرد من الناحية التربوية هو وليد البيئة، والجماعة، والوراثة الثقافية والعضوية، فالجماعة هي المربية للفرد، ابتداءً من الأسرة، وانتهاءً بالمجتمع، وألغىٰ دور الفرد في القدرة علىٰ المبادرة والانفلات من أسر الجماعة، وامتلاك القدرة علىٰ التغيير.

وقد تكون المشكلة في الكثير من المدارس والاتجاهات التربوية هي: الخلل في التوازن، وضبط النسب، في ضوء الحالات والمشكلات التي تعاني منها الأمة في كل زمان ومكان.. فقد يكون الارتكاز علىٰ الفرد تقتضيه ضرورة معينة، في مرحلة معينة، ولا يعني ذلك بالضرورة إسقاط دور

الجماعة، وأهميتها في الصياغة والتشكيل التربوي.. وقد تقتضي ظروف أخرىٰ إبراز دور الجماعة، والتركيز علىٰ التلاحم الاجتماعي، وإعادة بناء النسيج الاجتماعي الذي أصابه الوهن.

ولا شك أن للجماعة، والبيئة، والمواريث الثقافية، دوراً بارزاً في التشكيل التربوي، والتحويل، والتغيير، بطبيعة فطرة الإنسان الاجتماعية، والرسول ﷺ يقول: «**كل مولود يولد علىٰ الفطرة فأبواه يهودانه، أو يمجسانه، أو ينصرانه**»[1].. فالتشكيل والتغيير يأتي من البيئة والجماعة، لٰكن ذٰلك لا يؤخذ علىٰ إطلاقه، ولا يمنع من دور الفرد في التغيير والتحويل.. ولو كانت الجماعة هي كل شيء في التغيير، والتنشئة، والتشكيل التربوي والثقافي، لأدّىٰ هٰذا بالضرورة إلىٰ توقف حركات الإصلاح والتغيير، وسلب القدرات من أفراد النخبة المبصرين لما يجب أن ترتقي إليه الأمة.

فأفكار الإصلاح لا يمكن أن تبدأ إلّا بأفراد ممتازين، يتحركون في إطار نخبة تستطيع الانفلات، والقفز من فوق أسوار البيئة، والمجتمع، والواقع، والمواريث التقليدية، وتحاول فيما بعد أن تتوسع بنشر تلك الأفكار، وتحضر لها المناخات الاجتماعية المناسبة لتصبح فيما بعد: إنتاج نخبة، وإنجاز أمة.. فالأفراد لا يمكن أن يتحركوا إذا لم يستطيعوا أن يحركوا القابليات، ويهيئوا القناعات الجماعية للنقلات النوعية والتغييرات الجذرية.

فالفرد والجماعة في العملية التربوية، يمكن أن يكون كل منهما مقدمة ونتيجة في الوقت نفسه.. فالنبوة هي حركة أفراد غيرت المجتمع والبيئة، لٰكن التغيير لم يتم بدون تربية عصبة، وحماية عصبة، أو نخبة.. لذٰلك، فمقولة: «الناس علىٰ دين ملوكهم»، صحيحة إلىٰ حدٍّ بعيد.. فكثيراً ما نرىٰ طوابع الظلم والذل تلحق بشعوب كاملة، وتموت فيها روح الفاعلية، بسبب فراعينها.. فالرغبة في تحقيق المصالح، والرهبة من لحوق الأذىٰ، تطبع الواقع، فيصبح الناس من خوف الموت، في موت.. ومن خوف الذل، في ذل.. ومن خوف الفقر، في

(١) رواه البخاري، عن أبي هريرة.

فقر.. ويكون الوازع السلطاني أقوىٰ من الوازع الفكري، أو الوازع القرآني.

لٰكن ما يروىٰ عن الرسول ﷺ: **«كما تكونوا يولَّ عليكم»**[1]، دقيق أيضاً إلىٰ حدٍّ بعيد.. فليس السلطان، والقيادات الفاعلة، إلّا ثمرة للمجتمعات، والوراثات الفكرية، والمناخ التربوي والثقافي..

ويبقىٰ المطلوب للعملية التربوية: ضبط النسب، وإعادة التوازن المفقود في معادلة الفرد والجماعة من الناحية التربوية.

فصحيح أن فرعون استخف قومه، فأطاعوه.. لٰكن صحيح أيضاً أن موسىٰ تربىٰ في بيت فرعون، وخرج عليه، وقوّض حكمه.. ومؤمن آل فرعون أيضاً، خرج علىٰ الواقع، ودعا إلىٰ التغيير.. ومواثيق الله هي التي تحمي من السقوط التربوي، وتبني الصمود في وجه شيوع مناخ الظلم، ويصبح من أعظم الجهاد: كلمة عدل عند سلطان جائر: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص].

فالإسلام بدأ غريباً عن البيئة والمواريث بكل أبعادها.. بدأ خطوته بإيمان فرد، ثم بحركة أمّة.. والتربية الإسلامية، عندما عجزت عن التغيير للواقع السياسي الظالم، والمستبد، تاريخياً، لم تنهزم وتستسلم، وإنما استطاعت أن تحتفظ بالأمة المسلمة، بعيداً عن التأثر بالسلاطين المستبدين، وأن تعزل هٰؤلاء المستبدين عن ضمير الأمة، ريثما تتاح الفرصة التي تمكن من التغيير.

وبالإمكان القول: أن توقف الخلافة الراشدة عن الامتداد السياسي، لا يعني توقفها عن الامتداد في الميدان العلمي والتربوي والثقافي.. ولعل تاريخنا الحقيقي هو التاريخ الثقافي، حيث نرىٰ خلود ذكرىٰ العلماء المجاهدين، وغياب سيرة السلاطين المستبدين.

ودور العملية التربوية يكمن في القدرة علىٰ تحديد دور الفرد في عملية التغيير التربوي، ودور الجماعة والوسائل التربوية معاً في التأثير وتشكيل الرأي العام الذي يشكل المناخ السليم لتنشئة الأفراد.

---

(١) ابن تيمية، «الفتاوىٰ»، كتاب قتال أهل البغي، جـ ٣٥، ص٢٠.

نعود إلىٰ القول: بأن التربية هي التنمية، وهي الثقافة.. هي الرحم الذي تزرع فيه الأجنّة، وتُتعهد، لتنطلق في جميع مجالات الحياة.

والذي لا بد أن نشير إليه: إن محاولاتِ إجهاد النفس في الوصول إلىٰ نظرية تربوية إسلامية، أو فلسفة تربوية، أقل ما توصف به: أنها محاولات في غير الموقع المطلوب.. ذٰلك أن ما جاء به الإسلام يشكل بناءً تربوياً متكاملاً، في مجال العقيدة التي تخلص الإنسان من كل ألوان العبودية، وتعتق نفسه، وروحه، وعقله، من الأغلال، والآصار، والآبائية، والتقليد، وتكسبه الاطمئنان والسكينة تجاه أخطر المشكلات الحياتية: الموت، والمصير، والرزق، والحياة.. كما فرض الإسلام عبادات متكاملة لبناء الشخصية، هي بمثابة تطبيقات واستجابات عملية عضوية وسلوكية لقضية عقيدية فكرية، ومعاملات مرتبطة بقيم وضوابط ومسالك اجتماعية.. إلخ.

وكأن المطلوب تربوياً هو: كيفية ابتكار الوسائل والمناهج التربوية لإحداث التفاعل بين الإنسان والإسلام، وانصباب البحث علىٰ مناهج وآليات الفهم، والتوصيل، وإعادة صناعة النسيج الاجتماعي، والفكر التربوي، أكثر من الانصراف إلىٰ التنظير الذي كفلته القيم التربوية الإسلامية في الكتاب والسنّة وامتحن بالتطبيق التاريخي.

إخراج الأمة المسلمة:

وتتحدد أهمية التربية في إنتاج الإنسان الصالح المصلح لتصل في غاياتها النهائية إلىٰ إخراج أمة الرسالة، وإعادة بنائها، ليصبح ولاؤها لله، وبذٰلك تكون قادرة علىٰ أن تمثل الأمة المعيار، وتستحق أن تكون شاهدة علىٰ الناس.

ومن نعم الله علىٰ الأمة المسلمة أنه لم يسلط عليها عدوها تسليط استئصال وإبادة، وإنما هي عقوبات، يوقعها بسبب معاصيها الخلقية والفكرية والسياسية، ومنبهات حضارية للقضاء علىٰ الكيانات الرخوة، والعناصر الشائخة في جسدها، تحصنها دون عوامل الموت والفناء، وتحرك فيها

الإمكان الحضاري، وتوقظ القدرة الكامنة، وتحرضها علىٰ الإقلاع من جديد، مستهدية بقيم الوحي، المحفوظة في الكتاب والسنّة، وتطبيقات النبوة في السيرة العملية، التي أخرجت الأمة المسلمة النموذج، وناطت بها مسؤولية الشهود الحضاري، بما تمتلك من الرسالة المعيارية ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وإذا صح لنا أن نقول: بأن نهوض الأمم، ومعاودة إخراجها، واسترداد دورها، مرهون إلىٰ حدٍّ بعيد باستقراء ظروف وشروط ميلادها الأول، أدركنا أهمية الاهتداء بقيم الكتاب والسنة، وتطبيقات السيرة، في عملية البعث الإسلامي، أو إخراج الأمة المسلمة من جديد، التي تعتبر الهدف النهائي لإخراج الفرد.

لذٰلك لا بد من إعادة النظر في الوسائل التربوية لتكون قادرة علىٰ استرداد دور الأمة المسلمة في الشهود الحضاري، وإعادة نسيجها الاجتماعي، وإحداث التفاعل بينها وبين الإسلام، وتخليصها من الرؤية النصفية والجزئية، التي تستحوذ عليها، والتي نأت بها عن مقاصد الدين وأهدافه، وعطلت قدرتها علىٰ السير في الأرض، والنظر في سنن الله في الأنفس والآفاق، واكتشاف القوانين والأقدار التي تنتظم الحياة والأحياء، وامتلاك الوسائل التي لا بد منها لتحقيق مقاصد الدين، والقيام بأعباء الاستخلاف الإنساني.

إننا نعتقد أن ملف المسألة التربوية سواء في إطار إخراج الفرد أو إخراج الأمة، يجب أن يبقىٰ مفتوحاً، حيث تتجدد الأساليب والأوعية التربوية بتجدد الحياة، وتنوع المشكلات والقضايا التي يعرض لها الإنسان مع تطور المكتسبات المعرفية والعلمية، التي لا بد لها من تطوير مُرافِق لأبْنية أخلاق المعرفة، أو لمناهج إسلامية المعرفة.

ذٰلك أن الحاجة ماسة اليوم خاصة في إطار التأصيل المنهجي التربوي، حيث تحتاج المعطيات التربوية المعاصرة إلىٰ الكثير من التصنيع والصياغة، والتجسيد العملي في البناء المؤسسي، في المجالات المتعددة، إلىٰ محاولة جزئية لتجاوز (الأبنية الفكرية والمؤسسية المسبقة)، التي استمدت قداستها من

الإلف، وقوة الاستمرار، والوراثة، التي قد يتقبلها العقل، وتتسرب إلىٰ الثقافة، بدون فحص واختبار، كما تورث الأشياء المادية عن الأسلاف والآباء.

قضايا مطروحة للدراسة:

ونكتفي هنا بإثارة بعض القضايا، التي تستدعي الكثير من النظر والبحث والتفاكر حول إخراج الأمة المسلمة، وما تتمتع به من الإمكان الحضاري، وامتلاك الرسالة المعيارية، والتواصل الثقافي بين أجيالها، الأمور التي تقتضيها خاصيتا الخلود، وختم النبوة، والتي تعتبر من لوازمهما، وكيف أن الدورات الحضارية، التي عرض لها علماء التربية والاجتماع والتاريخ، لم تنطبق بشكل رياضي صارم علىٰ الأمة المسلمة، وأن حسابات أعدائها لم تصدق تماماً عليها، لأن لهٰذه الأمة دائماً مفاجآتها، التي لا تزال تستعصي علىٰ تقديرات خصومها، وإن لم تنج بعمومها منها، لأن سنن الله في الكون وأقداره لا تحابي أحداً. ذٰلك أن مواثيق الله لحملة الرسالة الخاتمة، واستقراء التاريخ، يؤكدان أن الطائفة القائمة علىٰ الحق لا يمكن أن تتوقف، أو تغيب، لأن ذٰلك يعني ـ فيما يعني ـ إصابة مهمة البلاغ المبين، وقضية التكليف نفسها، إذ كيف يمكن أن تتوقف الأمة القائمة علىٰ الحق، التي تمتلك خطابه ومعياره، بعد توقف نسخ الشرائع.. الأمة التي تتحمل مسؤولية منهج النقل لتعاليم النبوة.. لذٰلك، فالقيم تبقىٰ محفوظة بحفظ الله، وإن أصيب منهج العقل والاجتهاد، هٰذا من جانب، ومن جانب آخر؛ فإن عصمة عموم الأمة **«لا تجتمع أمتي علىٰ خطأ»، وفي رواية: «علىٰ ضلالة»**[1]، تعتبر من الضمانات النصية والعملية علىٰ امتلاك القدرة علىٰ النهوض دائماً، والحيلولة دون الإصابات الموصلة إلىٰ الوفاة، وإن كان ذٰلك لا يمنع عنها المرض والتوعك.. ومن مظاهر المرض والتوعك: عجز المؤسسات التربوية الحالية عن وضع الأوعية الصحيحة لحركة الأمة، وعجز المؤسسات التقليدية الموروثة

---

(١) رواه الترمذي، والحاكم عن ابن عمر مرفوعاً.. وفيه سلمان بن شعبان المدني وهو ضعيف.

عن الآباء ـ خاصة في عصور الجمود والتقليد الجماعي ـ عن تجاوز القراءة النصفية للحياة، حتىٰ غابت فيها علوم الإنسان، التي تشكل المدخل الطبيعي والأساسي للتعامل معه، وتقدير موقعه بدقة، من البناء الاجتماعي وتقويم سلوكه بمنهج الله، كما غابت فيها دراسة السنن الاجتماعية في الأنفس والآفاق، وإدراك قوانين الحركة التاريخية في نهوض وسقوط الأمم، الأمر الذي لا بد من الإحاطة به في عملية التحويل الثقافي، وإعادة النسيج الاجتماعي.

إن عدول المؤسسات عن فقه كتاب الكون والاجتماع البشري، انعكس علىٰ قراءتها للكتاب والسنة، وحاصر قدرتها علىٰ تعدية الرؤية، والامتداد والخلود لقيم القرآن نفسه، الأمر الذي جعل العمل والعاملين في الحقل الإسلامي، خارج سياق الحياة والواقع.

غياب أبعاد فروض الكفاية:

وقضية أخرىٰ كانت ولا تزال جديرة بالبحث أيضاً، ونحن بصدد تأصيل منهج إخراج الأمة المسلمة، وهي غياب الأبعاد الحقيقية لمفهوم فروض الكفاية، وموقعها كواجبات اجتماعية، تساهم بتماسك نسيج الأمة الاجتماعي، وتشعرها بالمسؤولية التضامنية، وتنتهي بها إلىٰ مرحلة الاكتفاء الذاتي، علىٰ مختلف الأصعدة.

لقد هُمّشت فروض الكفاية، حتىٰ كادت تقتصر علىٰ قضايا المصير، وكل ما يتعلق بحالات الوفاة ولوازمها من التغسيل والتكفين، وحمل الجنازة، ودفنها، بعيداً عن إبراز دورها في آفاق الحياة المتعددة، في كل ما له علاقة بمهمة الاستخلاف الإنساني، والتعمير الحضاري، وأهمية تقديمها علىٰ الفروض الفردية، وإدراك دورها في حياة الأمة، وتأمين حاجاتها، من مختلف التخصصات المطلوبة، والتي تصبح بعد اختيارها فروضاً عينية علىٰ أصحابها، هٰذا إضافة إلىٰ انكماش مفهومها، في الذهن المسلم المعاصر، فالمعروف من مفهوم فرض الكفاية أنه إذا قام به بعضهم، سقط الإثم عن الباقين، ومعنىٰ قام به: أداه علىٰ الوجه الأكمل إلىٰ درجة الكفاية الاجتماعية، ولا يعني ذٰلك

بحال من الأحوال مباشرته فقط، كما هو شائع، سواء وصل إلىٰ درجة الكفاية وتحقيق الاكتفاء، أم لا.

فقه المقاصد الشرعية:

ومن الأمور اللافتة للنظر أيضاً ـ ونحن بصدد طرح قضية فروض الكفاية وأهمية تحرير القول في أبعادها، ودورها الهام في تشكيل نسيج الأمة، والإسهام بحصانتها وعافيتها ـ أن الآلية الفقهية التي تشكل الأوعية الشرعية لحركة الأمة، ومسالكها بشكل عام، وخاصة في عصور الجمود، والعصبية المذهبية، والتقليد الجماعي، جعلت للاجتهاد البشري القابل للخطأ، قدسية النص الديني المعصوم، الأمر الذي قاد إلىٰ الكثير من الصراعات والتمزقات المذهبية، كما انتهت إلىٰ تجريدات ذهنية، وآلية ميكانيكية لإنتاج الأحكام الفرعية، التي قد تنأىٰ عن مقاصد الدين العامة، ولا أدل علىٰ ذٰلك، من شيوع فقه الحيل الشرعية، الذي يمكن اعتباره فقه مخارج، وليس فقه مقاصد، وصاحبه حامل فقه وحافظ، وليس بفقيه.. ولذٰلك قرر بعض الفقهاء أن تطبيق القياس ـ أحد مصادر التشريع ـ علىٰ إطلاقه، قد يفوّت مصلحة شرعية معتمدة، ومقصداً من مقاصد الدين، لذٰلك كان لا بد من العدول إلىٰ الاستحسان كمصدر للأحكام لتحقيق المصلحة الشرعية.. ويمكن أن نصنف في هٰذا الإطار ـ «فقه المقاصد» ـ لكثير من اجتهادات الإمام ابن تيمية[١]، والشاطبي[٢]، والشوكاني[٣]، والطاهر بن عاشور[٤]، وغيرهم، من الذين **تنبهوا لأهمية البعد الاجتماعي لمقاصد الشريعة، الذي يجب أن يشكل المحور الذي تدور حوله الأحكام الفقهية.**

ومن الإصابات الفكرية والتربوية في نطاق الأمة، والتي لا بد من تسجيلها هنا: أن لا يكون في مكتبتنا الفقهية التي تمثل القسم الأعظم من المكتبة الإسلامية والثروة التراثية الكبرىٰ، إلا بعض الكتب التي لا

(١ ـ ٢) انظر: ص٦٠ ـ ٦٢.

(٣ ـ ٤) انظر: ص١٢٦.

تتجاوز أصابع اليد في مقاصد الشريعة وأهداف الدين العامة!

ولعل ذٰلك بسبب الخلل التربوي، الذي أدىٰ إلىٰ نمو الفقه الفردي، وانقطاع الفقه عن مجرىٰ الحياة العامة، وعزلته عن الواقع المعاش، وإغلاق بابه، الأمر الذي جعل الحياة تدخل من أبواب أخرىٰ بعيداً عنه. حيث بقيت مؤسسات التربية والتعليم، تبدي وتعيد في المشكلات التاريخية علىٰ الرغم من تطور العصر، وتغير المشكلات، وتجدد الحياة.

الخلل في معايير التقويم:

وقضية أخرىٰ قد تكون جديرة بلفت النظر أيضاً: وهي أن اعتماد أنظمة الحكم والأشكال السياسية فقط، معياراً للنظر إلىٰ الأمم، والحكم عليها، وتقويمها، فيه الكثير من التجاوز والمجازفة، والبعد عن الحقيقة والواقع، ونحن هنا لا نتنكر لمدلول قولة الرسول ﷺ: **«كما تكونوا يولَّ عليكم»**[1]، ـ إن صح ذٰلك عنه ـ وأن أنظمة الحكم تشكل إلىٰ حدٍّ بعيد بعض النوافذ التي يُنظر من خلالها إلىٰ طبيعة تركيب الأمم والحكم عليها، وإنما نرىٰ جوانب أخرىٰ لمدلول القول، تخص الجانب التربوي الذي يلفت النظر إلىٰ أن التغيير والتحويل لواقع الأمة، لا يبدأ من رأس السلطة، التي لا تعدو أن تكون ثمرة طبيعية، لبذرة الواقع، وشجرته، وإنما يبدأ التحويل من العكوف علىٰ الذات، والبدء من أغوار النفس، بإعادة التربية والصياغة، وتغيير البذور الفكرية، لتنتج ثماراً أخرىٰ في رأس السلطة، فالله لا يغير ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم، هٰذا إضافة إلىٰ أن الواقع يدل علىٰ امتداد الأمة المسلمة الثقافي والفكري التاريخي، علىٰ الرغم من الكثير من الإصابات والتمزقات السياسية، حيث الكثير من الأنظمة السياسية ـ في عالم المسلمين ـ تاريخياً عاشت معزولة إلىٰ حدٍّ بعيد عن ضمير الأمة المسلمة، ولعل في طلب الرسول ﷺ للمسلمين ملازمة القرآن، عندما ينفصل عنه السلطان، دليلاً من وجه آخر علىٰ امتداد أمة الرسالة والدعوة، ولو توقفت مؤسسات السياسة والحكم.

---

(١) انظر: ص١٠٠.

ونحن هنا لا ننكر أثر وتأثير النظام السياسي في نسيج الأمة ومؤسساتها التربوية التي يحولها لتنتج علىٰ هواه، إلا أننا نعتقد أن إعداد الفرد، وحسن إخراجه طبقاً لتعاليم النبوة، وتغيير ما بنفسه يبقىٰ اللبنة الأولىٰ، والأساس في البناء، وأن الخلل في وسائل ومؤسسات التربية في إخراج الفرد الصالح غير المصلح، لا يلغي دوره وأهميته، وإنما لا بد أن يعود بالإلغاء علىٰ الوسيلة المخطئة، علماً بأن القيم الإسلامية، والتطبيقات النبوية، ضبطت النسب بين كل من دور الفرد، ودور الأمة، حتىٰ لا تصاب آلية التغيير الاجتماعي بالتصلب والتكلس، وتنتهي إلىٰ نوع من الحتمية في إنتاج النماذج المطلوبة والعاجزة عن الخروج علىٰ قوالب البيئة الاجتماعية.

وبعد:

فهٰذه بعض الخواطر في المسألة التربوية، نرجو لها أن تثير الكثير من القضايا التي تستدعي النظر، والبحث، والتوفر علىٰ الاختصاص.. ولا نقصد العمل والتخصص الفردي، لأن العملية التربوية عملية متراكبة، تشارك في بنائها مجموعة علوم وتخصصات، لم يعد ينفع معها إلّا العمل الجماعي المتكامل..

وهي مساهمة في مجال وسائل إخراج الإنسان الصالح المصلح ـ كثمرة لتربية المدرسة الإسلامية ـ الذي ينتهي إلىٰ إخراج أمة الرسالة ولعل الله ييسر المزيد من البحوث والدراسات في مجال المعرفة الإسلامية للوصول إلىٰ إسلامية المعرفة والإنتاج الفكري، ضمن إطار النسق المعرفي الإسلامي، وإنقاذ وتخليص الأمة من أزمتها، وإعادة دورها في الشهود الحضاري مصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

الدوحة ـ شوال ١٤١١هـ نيسان (ابريل) ١٩٩١م

ثالثاً: مُرَاجعَاتٌ في الحركَة

أ ـ الأمة.. والأزمة

إن عجز مؤسسات التربية والتعليم، وجمعيات الإصلاح الاجتماعي، وحركات التغيير والتجديد والنهوض، والجماعات، والتنظيمات الإسلامية، عن بلوغ أهدافها، وتحقيق مقاصدها، والقُدرة علىٰ تحريك آليات التغيير في المجتمع، وإنتاج النماذج القادرة علىٰ تشكيل النخبة المطلوبة لقيادة الأمة، إنما يعني ذٰلك فيما يعنيه: وجود أزمة في النخبة، وخلل وعجز في الأمة. ونستطيع أن نقول: إن الإحساس بالأزمة الذي يُعتبر أول الطريق إلىٰ معالجتها، أصبح من المسلمات التي بدأ يلحظ الإنسان آثارها هنا وهناك، كنتيجة للإصابات والإحباطات والنكبات المتوالية، التي يأخذ بعضها برقاب بعض، والتي لم تدع استزادة لمستزيد.

لٰكننا في الوقت نفسه بإمكاننا القول: إن الإحساس بالمشكلة والأزمة، جاء لوناً من الانفعال بها، الأمر الذي لا يعني أبداً الإدراك لها، ولا يعني الوعي بكل أبعادها، والتعرف علىٰ أسبابها، والقدرة علىٰ تحليل عناصرها، وتحديد طرق معالجتها، ورسم سبيل الخروج منها، وفقاً للسنن التي شرعها الله للسقوط والنهوض، والتي يهدي إليها استصحاب القيم في الكتاب والسنّة، والشهود التاريخي من السير في الأرض، وقراءة الواقع بشكل صحيح.. ونعني بوعي المشكلة: الانتقال من الإحساس الذي يعني الانفعال إلىٰ مرحلة الإدراك، والاهتداء إلىٰ فقه الحل والخروج، الذي يعني الفعل الرشيد، ذٰلك أن مجرد الإحساس ـ والذي غالباً ما يقود إلىٰ مجازفات، ومغامرات،

ومواقف ارتجالية، بسبب زيادة التوثب والحماس ـ يحول دون القراءة الواعية لعناصر الإصابة، ويؤدي إلى الخلط بين الإمكانيات والأمنيات، وبالتالي إلىٰ تأزيم المشكلة، بدل تقديم الحل، وينتهي بأصحابه إلىٰ ضرب من الانتحار الاجتماعي، ومن ثم الانسحاب من المواجهة، والإصابة بالانكسار، والإحباط، والعجز عن التعامل، والإلقاء بالتبعة علىٰ الخارج، والهروب إلىٰ طلب الخوارق والمعجزات المخلِّصة من الواقع الذي يعانون منه.

ولعل أول الطريق لوعي الأزمة، محاولة اكتشافها، ومعرفة أعراضها، ومن ثم تحديد أسبابها، ورسم الطريق إلىٰ الخروج منها، ولا يتأتىٰ هـٰذا إلا بالتقويم الصحيح، والنقد الجريء، والمراجعة الأمينة، واستكمال شروط التوبة، والتصميم علىٰ عدم العود، والإقلاع من جديد.

وقد يكون من المسلمات التي لا بد من إعادة التذكير بها باستمرار: أن عالم الأفكار هو المؤشر، والموجِّه، والمتحكم دائماً، بعالم الأشخاص والأشياء، وأن حركة الإنسان ومسالكه المتنوعة هي ثمرة لقناعاته، ومواريثه الفكرية، وتشكيله الثقافي، بغض النظر عن سلامة منظومته الفكرية التي ينطلق منها، أو عدم سلامتها، ويستوي في ذٰلك الأمم والأفراد.. وحتىٰ الكائنات الحيَّة، فيما وراء الإنسان العاقل، نلاحظ أنها مدفوعة إلىٰ مسالكها، وتأمين حاجاتها، بما طبعها الله عليه وغرزه في كيانها (بفعل الغريزة).. وهـٰذا ينطبق إلىٰ حدٍّ بعيد حتىٰ علىٰ الاتجاهات الوجودية، التي حاولت إسقاط العقل، وناتجه الفكري، واعتباره النسخة المزيفة للإنسان، حيث لم يخرج تمذهبها ومسلكها عن أن يكون ثمرة لفكر معين، هو الفكر الوجودي، وإن اعتبرنا ذٰلك من إصابات وسقطات الفكر نفسه.. فالواقع الذي عليه النَّاس، ما هو إلّا الإفراز الطبيعي والوجه العملي المجسد لمنظومة الفكر، التي تحركه، وتختفي وراءه. لذٰلك فأية محاولة للنهوض والإصلاح المستقبلي، تتجاوز الأزمة الفكرية، أو إدراك الخلل في عالم الأفكار، وتصويبه، سوف تمنىٰ بالخيبة والسقوط والخسران، مهما حاولت سحر أعيننا بالفجر الكاذب، وصرفتنا إلىٰ الصورة عن الحقيقة.. وأي تفسير للتاريخ، أو قراءة للواقع، وأي استشراف

للمستقبل، بعيداً عن عالم الأفكار، أو المنظومة الفكرية التي ترسم ملامحه، وتحركه، وتحدد قسماته، هو إتيان للبيوت من سطوحها، واكتفاء بالإحساس بالمشكلة عن الإدراك لأبعادها، وأسبابها المنشئة لها، ومحاولة عديمة الجدوىٰ لمعالجة الآثار، التي سوف تتكرر طالما أن أسبابها قائمة وموجودة، لم تنصرف المعالجة إليها.

لذٰلك، كان من أخطر أنواع الإصابات: الإصابة الفكرية، وأسوأ أنواع الغزو، الغزو الفكري، الذي يقذف بالأمة إلىٰ الضياع، ويُحضرها لقبول ما يُلقىٰ إليها.. وأن الموقع الأخطر في المعركة الحضارية والثقافية اليوم: هو حقل الدراسات الإنسانية، والموارد الثقافية، والنواتج الفكرية، التي تعطي المؤشر الصحيح، وترشد إلىٰ كيفية التعامل مع الإنسان، وإعادة تشكيل عقله، حتىٰ تأتي أفعاله وردود أفعاله، ضمن الإطار المرسوم، والمعد مسبقاً، إلىٰ درجة يكاد يظن معها أنه إنما يفكر ذاتياً، ويتصرف بمحض إرادته وحريته.. لذٰلك، نرىٰ الدول الكبرىٰ التي تحاول الهيمنة علىٰ العالم، بدأت تعطي قضية الأفكار، والتشكيل الثقافي ما تستحق، وقد تنبهت منذ وقت مبكر إلىٰ أهمية الرصد الثقافي للأمم، وعدم الاقتصار علىٰ رصد عالم السياسة، ومسالك السياسيين، لأن السياسة لا تخرج في نهاية الأمر عن أن تكون استجابة ثقافية..

ولعل التقرير الذي وضعه كبار رجال الاستخبارات الأميركية، إلىٰ جانب عدد من الأكاديميين والخبراء السياسيين، عن: «مستقبل الاستخبارات الأميركية»، وكُشف النقاب فيه عن أسباب عجز وكالات الاستخبارات الأميركية المتوقع عن حماية الولايات المتحدة في عقد التسعينيات، يعطي مؤشراً واضحاً علىٰ التوجه صوب عالم الأفكار، واعتباره الأهم، خاصة وأن أجهزة الاستخبارات الأميركية تعرضت إلىٰ هزة عنيفة إبّان الأزمة الإيرانية الأميركية سنة ١٩٧٩م، حين وُجد أن تقويمها للأوضاع في إيران يفتقر إلىٰ المصداقية، والدقة في التحليل.. ذٰلك أنها كانت تعتقد أن الشاه من المناعة السياسية والعسكرية، بحيث يصعب الإطاحة به، وما ذٰلك ـ كما يشير التقرير الذي نشرته مجلة «المجلة» بعددها رقم ٤٦١ بتاريخ ١٩٨٨/١٢/٧ ـ إلّا لأنها

كانت تجهل تماماً الواقع الفكري، والتشكيل الثقافي للشعب الإيراني، ولم تكن تفهم أبعاد ما كان يدور في الشارع الإيراني.. وينسب التقرير هٰذا الفشل إلىٰ أن أجهزة الاستخبارات لم يكن يتوفر لها محللون يجيدون اللغة الفارسية، ويجهلون طرق التفكير الإيراني، والثقافة الشعبية في إيران.

وأكد التقرير بشكل ملفت للنظر علىٰ أهمية معرفة ثقافات الشعوب، ولغاتها، معتبراً النقص في هٰذا المجال من أهم عوامل ضعف التحليلات السياسية الأميركية، أو حتىٰ فشلها.

ومن أبرز ما أوصىٰ به التقرير الذي صدر عن جامعة «جورج تاون» في واشنطن: ضرورة تدريب رجال وكالة الاستخبارات الأميركية في بيئات ثقافية مختلفة، وتعريفهم باللغات، وطرق التفكير، والثقافات الشعبية، وعدم الاكتفاء بالارتباط بالشكليات، والتعامل مع شرائح من الفئة المتعلمة في الغرب، الموالية له.

لذٰلك نعتقد أنه ما لم يتم التوجه في كل محاولة للإصلاح والنهوض، صوب القضية الفكرية وما لم نتيقن أن الأزمة الأم التي تكمن وراء تخلفنا وغيابنا، هي أزمة أفكار، فسوف تبوء محاولاتنا ومشروعاتنا بالفشل.

من هنا نقول: إن ما تعاني منه الأمة المسلمة بشكل عام، والحركة الإسلامية بشكل خاص من أزمات وإصابات علىٰ أكثر من مستوىٰ ـ ولعل أزمة الخليج كانت الأكثر حدة، والأعمق أثراً في العصر الحاضر ـ ما هو إلا انعكاس للأزمات والإصابات الفكرية المتراكبة التي نعاني منها، والتي توضعت في عقلنا من زمن بعيد.. ولعل الخلط بين الأزمة الفكرية التي نؤكد علىٰ الإصابة بها، وبين ما تمتلك الأمة من العقيدة والقيم، هو من مظاهر هٰذه الأزمة التي نشير إليها.

الفتن: منبهات حضارية:

ولا شك أن الفتن الكبرىٰ، والنكبات التي لحقت وتلحق بالأمة، ما هي في الحقيقة إلّا تحديات، واستفزازات، ومنبهات حضارية، تحمل الأمم الحيّة

للعكوف علىٰ ذاتها، والقيام بالمراجعة الكاملة لمواريثها الفكرية ومواقفها العملية، بجرأة وشجاعة، لامتحان القيم، والأفكار، والثقافات التي تحكم حياة الناس، وتنتظم وتفرز سلوكهم، وتصنع اهتماماتهم، في محاولة لتحديد أسباب القصور، ومواطن التقصير.

فالتحديات الكبرىٰ، والأزمات الكبرىٰ، هي التي توقظ الشعوب والأمم من سباتها، وتصنع الحضارة، وتشكل التحولات الكبرىٰ في مسيرة الحياة، وتقضي علىٰ الصورة المشوّهة، والعناصر الشائخة، والكيانات الرخوة في حياة الشعوب، وتحفزها للإقلاع من جديد، ذٰلك أن إحباطات الماضي وخيباته، عند الأمم الحيّة، لا تقضي علىٰ إمكانات المستقبل، أو ما يمكن أن نسميه: «خميرة النهوض والإمكان الحضاري»، وإنما تؤكد عليها، وتشير إليها، وتثير فاعليتها.

والمستقرئ لتاريخ الأمة الإسلامية ـ ونخص من ذٰلك تاريخ الفتن الداخلية والنكبات الخارجية، ابتداءً من فتنة الردة، ودعوات النبوة الكاذبة التي استهدفت عقيدة الأمة وعالم أفكارها، ومروراً بالفتنة الكبرىٰ، وما خلفته من إصابات فكرية، أدّت إلىٰ الرفض والخروج الذي لا تزال بعض آثاره ممتدة حتىٰ اليوم، ومن ثمّ الإعصار المغولي، والغزو الصليبي، والاستعمار الحديث، والحقبة اليهودية التي يقع العالم الإسلامي تحت وطأتها اليوم، وصولاً إلىٰ أزمة الخليج، التي لا تخرج في عمقها التاريخي، وبعدها الحضاري، عن أن تكون ثمرة ونتيجة وامتداداً لإصابة عالم الأفكار، وإفرازات الأزمة الفكرية ـ يجد أن هٰذا التاريخ، بقدر ما حمل للأمة من الإصابت الفكرية، والوهن الحضاري، وصور الغثاء الاجتماعي، بقدر ما شكّل من التحديات والاستفزازات التي صححت المسار، وجددت العزيمة، وشحذت الفاعلية، وحرضت علىٰ استئناف الشهود الحضاري.. ففتنة الردة، وادعاءات النبوة، كانت وراء تنبه الأمّة لجمع القرآن ـ بعد أن استحر القتل بالقراء ـ وحماية حصن أفكارها، وقيمها.. والفتنة الكبرىٰ، وما صاحبها، كانت وراء التنبه لتدوين الحديث، وتأسيس مناهج الفهم للمصادر الإسلامية..

والإعصار المغولي الذي دمّر أشياء الأمة، وحرق وأغرق سجلات أفكارها، تحوّل لنصرة الإسلام.. لأن حضارة المغلوب كانت أقوىٰ من سلاح الغالب.. والغزوات الصليبية، وحّدت الأمة، وأشعرتها بمخاطر الفرقة، والتحدي الثقافي، فكانت الدعوات إلىٰ إحياء علوم الدين.. وإسقاط الخلافة، والاستعمار الحديث، والهجمة اليهودية، أثمر الصحوة الإسلامية، وتجديد أمر الدين.

عقوبات مستحقة:

فالإصابات التي لحقت، ولا تزال، بالأمة التي تحمل الرسالة الخالدة، إنما هي في الحقيقة عقوبات مستحقة علىٰ معاصيها الفكرية، والسياسية، والاجتماعية.. وإن تسليط أعدائها عليها، إنما هو تسليط عقاب، وليس استئصال، وإبادة.. لذٰلك تبقىٰ الإصابات الأخطر علىٰ كيان الأمة وامتدادها، هي الإصابات الداخلية، والنزاع المُورث للفشل، وإيجاد القابلية، وإتاحة الفرصة للإصابات الخارجية بأن تفعل فعلها.

ونعود للتأكيد: بأن ما يلحق الأمة المسلمة من إصابات وجراحات، إنما هو في الحقيقة، منبهات ومحرضات حضارية، تحمل بصائر الحاضر، وبشائر المستقبل، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ﴾ [آل عمران: ١٧٢]، وذٰلك إذا ما أحسنّا قراءاتها بأبجدية سليمة، وأدركنا الخلل الفكري الذي أورثنا هٰذه المصائب والبلايا، واستطعنا أن نعزل عن ضمير الأمة، فقهاء السلطان الذين يكرسون التسلط، والاستبداد السياسي، والاستغلال الاجتماعي، باسم التدين.. الذين يوظفون الإسلام للسلطان، ولا يحملون السلطان علىٰ الإسلام.. وإذا استطعنا أيضاً، أن نحاصر مثقفي وكتاب السلطان الذين يساهمون بتطبيع الهزائم والإصابات، واستمرار حالة السبات العام، والحيلولة بين الأمة واستشعار التحدي الموقظ، الذي لا بد منه.

إن الاعتصام بمواثيق الله في الكتاب والسنّة، والذي يمكّن من القدرة

علىٰ الانبعاث والنهوض، وامتلاك الإمكان الحضاري، واستشراف بشائر المستقبل، الأمر الذي يشهد به التاريخ الحضاري المديد لهٰذه الأمّة ـ والتاريخ هو المختبر الحقيقي لصدق الأفكار وترجمتها إلىٰ أفعال ـ كل ذٰلك مركوز في يقين هٰذه الأمة، وإيمانها، وميراثها الثقافي.. فإذا سلمنا بأن الإصابات التي لحقت بالأمة، كانت بسبب الفساد والخلل الذي طرأ علىٰ فكرها، أو بتعبير آخر: بسبب الأزمة الفكرية، فلا بد أن نسلم أيضاً بأن الأمة المسلمة التي تمتلك قيم الوحي المعصومة والثابتة والخالدة في الكتاب والسنّة، وتؤمن بها، والتي تُعتبر المعيار والمقياس الذي يكشف الخلل، ويحدد الانحراف، قادرة باستمرار علىٰ التصويب، والترشيد، والتجديد، والنهوض. ذٰلك أن قيم الوحي هي التي توجه مسيرة الحياة، وهي العاصم من إصابات الفكر، وانحرافاته، وجنوحه، ومجازفاته..

أو بمعنًى آخر: إن ما نمتلك من قيم الوحي، إذا أحسنّا التعامل معها، سوف تشكل لنا المناعة، والعصمة من أزمات الفكر، وإصابات العقل، وتمنحنا إمكانات النهوض.. وفي ظني أن هٰذا هو دليل الخلود، والامتداد، والإمكان الحضاري.

وقد تكون المشكلة التي يعاني منها العقل المسلم ـ إلىٰ جانب الكثير من المشكلات الأخرىٰ التي تعتبر إفرازاً لها ـ تكمن في كيفية التعامل مع تلك القيم المعيارية في الكتاب والسنّة، والتي نتميز بها عن سائر الأفكار، والعقائد، والثقافات الآخرىٰ.. ذٰلك أن الأزمة الحقيقية: إنما هي في تشكيل العقل المسلم المعاصر، الذي خضع للكثير من العوامل، والإصابات، والمواريث الثقافية المغشوشة، والتي جعلته ـ يُخضع تلك القيم المعيارية في الكتاب والسنّة، ويتعامل معها، من خلال أزمته، حيث بدأ يفتش وينتقي ـ من خلال أهوائه، ورغباته، وأزماته ـ علىٰ مسوغات وذرائع من الكتاب والسنّة، لمسالكه، ومواقفه، إلىٰ درجة يمكن أن نقول معها: إنه أصبح لكل إنسان، ولكل نزعة فكرية، كتاب وسنّة.. وما مذاهب التفسير التي حاولت إخضاع الآيات للملل والنحل، تاريخياً، وما الفتاوىٰ المتنوعة، والمختلفة،

والمتناقضة، التي ملأت الساحة الفكرية والفقهية، خاصة في فترات الفتن، وما شهدناه بسبب أزمة الخليج وغيرها من الأزمات السياسية والاقتصادية المعاصرة، إلّا دليل ذٰلك الواقع البئيس الذي حلّ بالأمة، حيث انتهت إلىٰ الإصابة بأزمة الفكر، ومن ثمّ إنتاج فكر الأزمة.

ولا شك أنه حتىٰ هٰذه الصورة المتأزمة، والمشوّهة للتعامل مع الكتاب والسنّة، يمكن أن يكون لها بعض الجوانب الإيجابية، إذا ما حاولنا استصحابها، وفكرنا بكيفية الإفادة منها، وذٰلك بالقدرة علىٰ تحويلها من سبب للأزمة، إلىٰ إمكانية للحل، لأنها تبقىٰ تشكل لنا المدخل الضروري لعملية التصويب، حيث الإقرار بأن المشروعية الكبرىٰ، ما تزال للكتاب والسنّة.. وهنا تشتد الحاجة أكثر وأكثر إلىٰ الفكر الإسلامي القادر علىٰ التعامل مع الكتاب والسنّة، وإحداث التفاعل بين الإنسان والكتاب والسنّة، والقدرة علىٰ إبصار الشروط والظروف التي طُبق فيها النص، والوسائط التربوية لتنزيل النص علىٰ الواقع المماثل، بشروطه، وظروفه، مع الاحتفاظ للنص الديني بقدسيته، وقيمته المعيارية، والتأكيد علىٰ أن الاجتهاد الفكري للتعامل مع النص الديني، خاضع للخطأ والصواب، بعيد عن التقديس. فلكل نص ظروفه وشروطه، التي لا بد من استيعابها، وهي أمور لا بد من فقهها وراء حفظ النص، والاحتفاظ به.

ذٰلك أن تنزيل النص علىٰ الواقع، والإفتاء به بعيداً عن فقه تلك الظروف والشروط، موقع في الخلل، والتأزم.. وبدل أن يشكل الحكم الفقهي حلاً، يصنع أزمة، إذا غاب فقه شروطه وظرف تطبيقه، ونأتي بمثال لذٰلك:

ففي الوقت الذي نحفظ فيه قضاء رسول الله ﷺ، علىٰ أصحاب بعض الجرائم بقوله: **«اقتلوهم ولو تعلقوا بأستار الكعبة»**[1] ـ وظاهر الحال أنهم

---

(١) عن مصعب بن سعد عن أبيه قال:
لما كان يوم فتح مكة أمَّن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين.. وقال: **«اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة»** وهم: عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن خطل، ومَقْيَس بن صُبابة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وأم سارة =

تابوا، وأنابوا، وشهدوا أن لا إلٰه إلّا الله وأن محمداً رسول الله، ولجأوا إلىٰ البيت الحرام ـ نجد قضاءً آخر، أو نصّاً آخر، يَحكُم فيه بالدية علىٰ من قتل محارباً شهد أن لا إلٰه إلّا الله، علىٰ الرغم من أنه إنما قتله لظنه أنه إنما قالها عياذاً، أو نجاة من القتل، فيجيء النص الحديثي يقول: «... **هلّا شققت عن قلبه**» (متفق عليه).

هٰذا، إضافة إلىٰ ضرورة معرفة الشروط، والظروف والملابسات التي عليها المجتمع في كل زمان، ومدىٰ انطباق النص الديني علىٰ الحالة التي هو عليها.. ومن هنا نرىٰ أن الفتاوىٰ المتناقضة، في القضية الواحدة، وخاصة ما شهدناه في أزمة الخليج، ما هو إلّا دليل علىٰ غياب الأبجدية الصحيحة للتعامل مع النص الديني، والعصر، وإحداث التفاعل بينهما، ممّا أدىٰ إلىٰ تمزيق رقعة التفكير الإسلامي، وتهديم التضامن الإسلامي، وتفريق أمر الأمّة.

الإسلام هو المحرك الوحيد:

ولعل من الأمور الأساسية التي أكدتها أزمة الخليج أيضاً، علىٰ مستوىٰ أطراف الأزمة جميعاً، من قيادات وجماهير: أن الإسلام، والإسلام فقط، هو القادر علىٰ تحريك هٰذه الأمة، تاريخياً.. لذٰلك كانت الشعارات الإسلامية، والاستنجاد بالحكم الشرعي، في النظر للأزمة والحكم عليها، هو المطروح من قِبل الجميع: قيادات، ومنظمات، وجماهير.. حتىٰ الذين يتنكرون للإسلام، لم يستطيعوا تجاهله، مما يعطي مؤشراً علىٰ أن أية محاولة للحركة والنهوض، والمواجهة والحوار تتمّ في الخارج الإسلامي، هي ضرب بالحديد البارد.. وأن الكثير من الأفكار، والمبادئ، والشعارات الدخيلة، تسقط عند الصدمة الأولىٰ، ويضطر أصحابها للتوجه صوب الإسلام، لتعبئة الجماهير، وإعدادها للمواجهة، بالإسلام.. لقد تجلىٰ ذٰلك أوضح ما يكون في أزمة

= مولاة لقريش، وقيل إن القينتين اللتين أهدر دمهما كانتا لمقيس بن صُبابة (السيرة النبوية لابن كثير، المجلد ٣، ص٥٦٥، ط دار المعرفة. تحقيق مصطفىٰ عبد الواحد).

الخليج، حيث المؤتمرات الإسلامية، والفتاوىٰ، والكتابات، والمواقف، والمظاهرات الإسلامية من هنا وهناك.. وهٰذا، ليس جديداً علىٰ الواقع الإسلامي، وإن كان الأكثر حدّةً وسخونة.

وإذا استصحبنا التاريخ القريب أيضاً، لا يعدم أحدنا الأمثلة والشواهد الكثيرة علىٰ ذٰلك، ابتداءً من بناء الزعامات، وشعارات: الثورات، والتحرير، والتغيير، وانتهاءً بالابتزاز السياسي في أيام الانتخابات، وبناء الزعامات حتىٰ ممن لا نصيب للإسلام في سلوكهم.. فكمال أتاتورك الذي مثل تجربة العسكر الأولىٰ للاستيلاء علىٰ السلطة في العالم الإسلامي، بعد إسقاط الخلافة، والذي عُممت تجربتُه فيما بعد تقريباً علىٰ العالم الإسلامي، قد نستغرب، أو لا نستغرب، أن يلبس العمامة، ويحمل السبحة، ويمسك القرآن، ويطوف علىٰ الجماهير، والجنود، يستثير حماسهم، ويعبئهم لحربه مع اليونان، ويعتبر أن انتصار اليونان علىٰ تركيا، هزيمة للإسلام، وإبطال للقرآن.. ثم كلنا يعرف النتائج التي صارت إليها الأمور.

الوثيقة الستالينية:

وليس ما يوصف «بالوثيقة الستالينية» وهي البيان الذي وجهه جوزيف ستالين وفلاديمير لينين، إلىٰ مسلمي روسيا، بعد أقل من شهرين من استيلائهم علىٰ السلطة عام ١٩١٧م، تحثهم علىٰ مواجهة القياصرة، والثورة عليهم، لأنهم أهدروا حقوق المسلمين، والوعود التي قطعوها علىٰ أنفسهم، ثم تنكّروا لها، فكان المسلمون أول الضحايا، إلّا أنموذجاً آخر.. وقد يكون من المفيد هنا أن نذكِّر ببعض نصوص الوثيقة، لأنها تلقي أضواءً كاشفة علىٰ أزمتنا المعاصرة:

«يا مسلمي روسيا... يا مسلمي الشرق.. أيها الرفاق.. أيها الإخوة..

«إن أحداثاً عظيمة تحدث الآن في روسيا.. إن العهد الدموي (الحرب العالمية الأولىٰ) الذي بدأ بسبب أطماع الاستعماريين والإمبرياليين في أرضكم، قد قارب النهاية.. إن عالماً جديداً يُولد الآن.. إن عهد

الرأسماليين والإمبرياليين، يتداعىٰ.. وأن الأرض تميد من تحت أرجلهم، وتشتعل الثورة من تحت أقدامهم...

«ومن خضم هٰذه الأحداث العظام، نلتفت إليكم يا مسلمي روسيا والشرق، الذين استرقكم الاستعمار، واستلب أموالكم، وأراضيكم..

«يا مسلمي روسيا، ويا تتار الفولجا والقرم، ويا أيها القرغيز، وسكان سيبيريا، والتركستان.. يا سكان القوقاز الأبطال، وقبائل الشاشان، وسكان الجبال الأشداء.. أنتم يا من هُدِّمت مساجدُكم، وحُطمت معابدكم، ومزق القياصرة الطغاة قرآنكم، وحاربوا دينكم، وأبادوا ثقافتكم، وعاداتكم، ولغاتكم..

«ثُوروا من أجل دينكم وقرآنكم، وحريتكم في العبادة!! إننا هنا نعلن احترامنا لدينكم، ومساجدكم.. وإن عاداتكم، وتقاليدكم، حرّة، لا يمكن المساس بها.. ابنوا حياتكم الحرّة الكريمة المستقلة دون أي معوِّقات، ولكم كل الحق في ذٰلك.. واعلموا أن جميع حقوقكم الدينية والمدنية، مصونة بقوة الثورة، ورجالها، والعمال، والفلاحين، والجنود، وممثليهم..

«لهٰذا نطلب منكم تأييد الثورة، ومساندتها، لأنها تقوم من أجلكم، ومن أجل حريتكم الدينية والمدنية..

«.. ليس من روسيا، أيها المسلمون، يأتي استعبادكم، بل من الدول الأوروبية الاستعمارية.. من هٰؤلاء اللصوص، مصاصي الدماء، الذين استعمروا أرضكم، واستلبوا ثرواتكم، وزجّوا بأبنائكم في أتون حرب لا يأتيكم منها إلّا الدمار... ثوروا ضد هٰؤلاء الطغاة الكفرة... تقدموا أيها المسلمون لتحرير أوطانكم، وارفعوا أعلام ثورتكم، فإن أعلامنا وبنودنا، قد رُفعت من أجل حرية المُستعبَدين والمظلومين.

«يا مسلمي روسيا، ويا مسلمي الشرق: هلمّوا إلينا.. إلىٰ طريق الحرية والعدالة لنبني هٰذا العالم من جديد علىٰ أسس الحق، والخير، والعدل...»[1]!!

---

(١) أعادت نشرها مجلة الجندي المسلم السعودية في العدد ٤٨ ـ يناير وفبراير ١٩٨٨.

وهٰذا ينطبق، بشكل أو بآخر، علىٰ ثوراث، وحركات، وحروب المنطقة الإسلامية، في مقدماته ونتائجه، في آسيا وأفريقيا. . ولا حاجة بنا إلىٰ التفصيل، لأنه معروف في كل بلاد العالم الإسلامي. .

من إصابات أزمة الخليج:

والحقيقة التي لا بد من تأكيدها هنا: أن أزمة الخليج، لم تخرج عن أن تكون إحدىٰ حلقات هٰذا المسلسل، إن لم تكن أبعدها أثراً، بعد إسقاط الخلافة، حيث الخشية اليوم من إحكام الخطة، علىٰ الرغم مما يبدو من التناقض الظاهر بين أطرافها ـ لإسقاط الأمة ـ وتمزيق رقعة تفكيرها، وتفتيت وحدتها، والعودة بها إلىٰ سياسة الارتهان الثقافي والحضاري، بعد هٰذه الرحلة الثقافية الطويلة من تأكيد الذات، والتميز الثقافي والحضاري، للوصول إلىٰ موقع الشهود الحضاري والعطاء الإنساني.

إنّ استدعاء الإسلام إلىٰ ساحة الأزمة، في مرحلة معينة، بعد أن كان مستبعداً عن حكم أسبابها ومقدماتها ـ كما أنه استبعد بطبيعة الحال عن حكم نتائجها ـ وصور التضارب والاضطراب في الآراء، والفتاوىٰ التي غلب عليها فقه المخارج والمسوغات أكثر من فقه مقاصد الدين، والمواقف التي ترافقت مع الأزمة، كل ذٰلك كان مقصوداً إلىٰ حدٍّ بعيد، لعدة أسباب، ليس أقلها محاصرة المد الإسلامي الذي بدأ يتنامىٰ في منطقة الخليج والجزيرة، ويظهر أثره الفاعل في دعم واحتضان أهل الصحوة الإسلامية، علىٰ مستوىٰ العالم الإسلامي، والعالم. . ذٰلك أن تنامي الصحوة الإسلامية، واقترابها من مواقع انطلاقها الأولىٰ، ومصادر الثروة، والنفط، سوف يُشكل مخاطر كبيرة علىٰ المصالح الاستعمارية، وعلىٰ الأفكار والمبادئ الخارجة عن الإسلام، والتي يُمكَّن لها في عالم المسلمين. . لذٰلك لا يمكن السكوت عليها، أو السماح بها!! فكان ما كان من رفع الشعارات الإسلامية التي توارت بعد انتهاء مهمتها، والتي لو التُزمت ابتداءً، لما كان احتلال الكويت، ولما كان استدعاء القوات الأجنبية. .

فالقضية، نُسجت خيوطها بعيداً عن الإسلام، وجيء بالإسلام، وشعاراته، في مرحلة محددة.. ليشكل غطاءً لتصرفات ومقدمات ليست إسلامية.. حتىٰ الإسلاميين، الذين اندفعوا إلىٰ ساحة الأزمة، ليقوموا بما يحسبونه واجباً دينياً، في الإصلاح والمناصحة، والتحذير من مغبة الاحتلال، وتداعياته، كان موقفهم عرضة للانتقاء، والتحكم، والتشويه الإعلامي، الذي أبرز منه الإعلام ما يريد، وعتّم علىٰ ما يريد، لتكتمل الصورة المرسومة لعزل الإسلاميين عن ضمير الأمة، وتحميلهم وزر القضية، وهٰذا لا يمنع من وقوع بعضهم بأخطاء قاتلة.

وما أعتقد أن جماعة، أو هيئة إسلامية، علىٰ مستوىٰ العالم الإسلامي، والعالم، إلّا وأدانت احتلال الكويت، كما أدانت وجود القوات الأجنبية ـ حتىٰ من أباح استدعاء القوات الأجنبية، إنما أباحه بدافع الضرورة، وللضرورة تقديرها وأحكامها ـ وإن تفاوتت لهجات خطابها، بحسب تقديرها للمخاطر، سواء منها من اعتبر احتلال الكويت كان السبب والمبرر لهٰذه النكبات والبلايا، أو من حاول إبصار ما يترتب علىٰ ذٰلك في عمق المستقبل من التداعيات والنتائج المترتبة لهٰذا الوجود الأجنبي، فلم يرض أن يُزال الضرر الأخف بارتكاب الضرر الأعم ـ من وجهة نظره ـ هٰذا إذا سلمنا أن احتلال الكويت كان شيئاً آخر بعيداً عن استدعاء القوات الأجنبية؟! لٰكن الإعلام المتاح والمتحكم، انتقىٰ من الموقف، فقط إدانة استدعاء القوات الأجنبية، وسكت عن إدانة الاحتلال الذي كان السبب في الاستدعاء.. وأوهم ـ هٰذا الإعلامُ ـ المنطقة وأبناءها وقادتها أن من يُقال عنهم أعداء، هم المنقذ في هٰذا الموقف الحرج، وهم أقرب من الأخ، الذي بدت صورته الإسلامية وكأنه يقف مع التسلط، والديكتاتورية، والاحتلال، وانتهاك الأعراض والأموال، فكان رد الفعل الطبيعي: إطلاق الأحكام وتعميمها علىٰ الناس، دون أن تُترك لهم الفرصة للقراءة المتأنية، والاختيار الحر لمجريات الأمور.. ولعل قابلات الأيام، وما تحمل من المضاعفات، ستعين علىٰ إدراك البواعث والمقاصد، ذٰلك أن النظر للأمور من خلال زاوية واحدة، أو موقف واحد،

أو زمن واحد، أو جيل واحد، للقضايا المصيرية، فيه الكثير من الارتجال، والمجازفة، والنظرة الجزئية.

وبدل أن يُسقِط غزوُ الكويت وما ترتب عليه من تداعيات، الفكر الذي كان وراءه، ويبصِّر الأمة بمكامن الخطر الحقيقي عليها، حمَّلت النتائج السلبية علىٰ شهود القضية وبرّئ جناتُها.

والحقيقة التاريخية التي أتينا علىٰ ذكرها ـ بقدر ما يسمح الموضوع ـ لا بد من التأمل فيها طويلاً، وإبصارها من جميع جوانبها، وإدراك مختلف أبعادها.. فكون الإسلام هو المحرك، وهو المعبئ، وهو درع الصمود، وعدة الكفاح، بقدر ما يعطينا من الإمكانية المستقبلية، بقدر ما يحمل لنا من المخاطر، واحتمال الأزمات، ومحاولات المخادعة، والإحباط، والإجهاض من الداخل، والتوظيف، والاستغلال، إذا لم نكن في سوية الإسلام فهماً، والعصر تنزيلاً.

ونسارع إلىٰ الاعتراف: بأن أزمة الخليج، وما سبقها من الأحداث والأزمات، استطاعت أن توظف الإسلام والإسلاميين دون أن تكون عند الكثير منهم القدرة علىٰ دقة قراءتها، وحسن التعامل معها، واغتنامها، أو توظيفها لمصلحة الإسلام والمسلمين، وأخذ العبرة منها لحاضر الأمة، ومستقبلها.. لذٰلك نرىٰ أن بعض الذين أدركوا أبعادها، وتداعياتها، وحاولوا تشكيل قوة ضغط شعبية لتحديد التجاوزات، وتصحيح الأوضاع، لم يستطيعوا أن يبرزوا مواقفهم، ويوضحوها بدقة، بل لعلنا نقول: إن الموقف الإسلامي ـ إن صح التعبير ـ تعرض ـ كما أشرنا ـ للتشويه، والانتقاء، والإبراز، والإخفاء، الأمر الذي غيّب إمكانية إدراك أبعاد الأزمة بشكل صحيح، وإدراك الموقف الإسلامي بشكل سليم.

وبمعنًى آخر، نستطيع أن نقول: إن أزمة الخليج وظفتنا، ولم نستطع توظيفها، كالعادة.. وقاتلنا، وتقاتلنا بالنيابة عن الآخرين، في الوقت الذي لم يُستشر الإسلام في مقدماتها.. ولم يحكم نتائجها أيضاً.. لقد عجز الكثير منا عن إبصار مقدماتها، وتداعياتها بشكل دقيق.. ولو اخترنا أسبابها،

ومقدماتها، لما فوجئنا بنتائجها، وبدل أن يكون في تعدد وجهات النظر وسيلة إلىٰ إغناء الرؤية، وإبصار القضية من جوانبها كلها، أصبح بسبب الأزمة الفكرية التي يعاني منها العقل المسلم، سبباً للتيمزق، والتنازع، وتبادل التهم.

ولعلنا نقول هنا: إن المفاجأة بالنتائج، تكاد تكون دائماً دليلاً صارخاً علىٰ عدم إبصارنا للمقدمات بشكل صحيح، وإدراك السنن التي شرعها الله في الأنفس والآفاق للنصر والهزيمة، وعدم مقدرتنا علىٰ الاعتبار بالماضي للحاضر والمستقبل.. ذٰلك أننا خُدعنا، وتجاوزنا، وخضنا مع الخائضين في تفصيل الفتاوىٰ والقيم الإسلامية علىٰ الواقع، والباعث غير الإسلامي بمعظم أبعاده، والذريعة جاهزة دائماً: (من خدعنا بالله خُدعنا به).. فالإسلام لم يحكم المقدمات، فلماذا نحكّم النتائج بإسلامنا ومسلمينا؟ وإلىٰ متىٰ نستمر في العدول عما نملكه من الاقتدار علىٰ المداخلة في المقدمات، إلىٰ اعتبار ما يملكنا من النتائج هو قدرنا الذي لا مفر منه، ونوضع أمام النتائج التي لا يد لنا فيها؟

إن العجز عن إبصار المقدمات بشكل صحيح، وعدم التروي بفحصها، واختبارها بشكل سليم، أدّىٰ بالكثير منا إلىٰ الإحباط، والمرارة، والعجز عن التعامل مع النتائج.. كما دفع الكثير إلىٰ مجازفات في المواقف، وصل بنا إلىٰ الاندهاش من النتائج.

ولا شك أن أزمة الخليج، كشفت عن الكثير من الخلل، والتأزم، والإصابات، في عالم أفكارنا، والإصابات التي لحقت بالعقل المسلم اليوم، بشكل عام.. وإذا لم نتدارك الموقف، ونفيد من الدروس القاسية، والتحديات الكبيرة، في إعادة بناء عالم الأفكار، في ضوء رؤية ذات شهود تاريخي، ودراية معاصرة، وفقه حضاري، ومن ثمّ معالجة الأزمة الفكرية التي تعاني منها أيضاً الحركة الإسلامية، التي تدّعي النخبوية، والريادة، وتعاني منها جماهير الأمة، فسوف تفلت أعظم الفرص من أيدينا، ونستمر في تكرير أخطائنا وتكريس أزمتنا.

إن المحاصرة التي نعيشها، والإحباط الذي نعاني منه، هو في كثير من

الأحيان وراء اندفاعنا، وعدم قدرتنا علىٰ إبصار مواقع أقدامنا، بشكل صحيح.

وقد تكون رغبتنا في إغلاق ملف الماضي، وعدم نقده، ومراجعته، تحت شعارات ومسوغات فكرية مغشوشة، حماية لوحدة الصف، وعدم التشويش، وفتح الجراحات، علىٰ ما في ذٰلك من المخالفة لمنهج القرآن في السير في الأرض، والاعتبار بالماضي، تعتبر مقتلاً لفكر الاعتبار والتسديد في حياتنا العقلية.

مخاطر إغلاق باب الاجتهاد:

ولعل من أكبر الإصابات التي لحقت بالعقل المسلم، وظهرت نتائجها بشكل واضح، وفاضح في الوقت نفسه، وكانت وراء كل الإصابات والأزمات: إغلاق باب الاجتهاد..

فقد لا يكون من المغالاة أن نقول: إن إغلاق باب الاجتهاد، وتوقيف العقل المسلم، والحكم علىٰ الأمة بالعقم، والسكتة العقلية، ومحاصرة خلود الشريعة، وامتدادها، باجتهاد بشري محدود القدرة والرؤية، ومحكمة بعوامل الزمان والمكان، كان وراء كل الإصابات العقلية والفكرية والثقافية جميعاً التي يعاني منها المسلم اليوم.. فعملية تسكير الأبصار، وتوقيف الاعتبار (المقايسة، والمناظرة، والشورىٰ، والحوار، وتعدية الرؤية، والإفادة من الماضي لتصويب الحاضر، واستشراف المستقبل)، وإلغاء الامتداد بالتفكير والعطاء، جعل الأمة عالة علىٰ غيرها، حيث لم يتوقف الاجتهاد الفقهي فقط، الذي توهمنا أننا أغلقنا بابه، وإنما توقف العقل والمجاهدات الفكرية علىٰ مختلف الأصعدة، وساد الأمة وباء التقليد الجماعي، والمحاكاة، والاستنقاع الحضاري، حيث لا يمكن أن نتصور تقدماً في جانب من الفكر، بعد أن أصيب عقل صاحبه بالشلل.

لذٰلك يمكن القول: بأن الأمر بإيقاف الشريعة عن الامتداد، بحجة ضعف المؤهلات التي تمكِّن من الاجتهاد، وحجة أن الأولين لم يتركوا

للآخرين شيئاً، إضافة إلىٰ أنه حجر علىٰ فضل الله، وتنكّر لخلود الشريعة، ومساهمة سلبية في إخلاء الساحة من الاجتهاد والرؤية الإسلامية، فإنه فسح المجالات للغزو الفكري والقانوني، والامتداد للثقافات والأفكار الأخرىٰ في هٰذا الفراغ الرهيب الذي أحدثه إلغاء العقل المسلم، إضافة إلىٰ أننا نعتقد: أن الأمر ليس أقل سوءاً ـ من حيث النتيجة ـ من الدعوة إلىٰ إيقاف الشريعة، وتوقيتها بعصر ماضٍ بحجة عدم الصلاحية لهٰذا الزمان، الذي نتهم القائلين بذٰلك بشتّىٰ التهم التي يستحقونها شرعاً، لٰكنا لا ندين أنفسنا.. ولا ندري إلىٰ أيّ مدًى يكون قرار إغلاق باب الاجتهاد ذاتياً، وداخلياً، وبعيداً عن تأثير سدنة الاستبداد السياسي والعمالة الفكرية؟ وإلىٰ أي مدًى يحق لنا أن نُوقف نصّاً متواتراً، خالداً، ممتداً، باجتهاد ظني مرجوح؟

فاعتقادنا أن الله الذي أنزل رسالة الإسلام الخالدة، الخاتمة، المجردة عن حدود الزمان والمكان، هو أعلم بتقلب الظروف والأحوال، وأن الخلود والخاتمية اللتين تعنيان الامتداد، والعطاء، وعدم التوقف، والإيقاف، لا تتحققان إلّا بالاجتهاد لذٰلك نرىٰ أن إيقاف الاجتهاد هو في الحقيقة محل نظر من الناحية الشرعية والعقيدية، إضافة إلىٰ ما فيه من قضاء علىٰ العقل، دليل الوحي، وحرمان للمسلم من أجرَي الاجتهاد الصواب، وأجر الاجتهاد الخطأ.

ولعل الأمر الأخطر في هٰذا الموضع هو: المناخ الفكري المضطرب، الذي أشاعه إغلاق باب الاجتهاد، من التقليد، والتعطيل، والإرهاب، لكل من يحاول التفكير، باسم الاتباع، وعدم الابتداع، لأنه يحاول العبث بأحكام الشريعة.. ولم تقتصر التهمة للمفكرين بالابتداع، وعدم الاتباع، وإنما تجاوزتها لإطلاق تهم التكفير، والتجريم، والتأثيم، لكل من يحاول التدبر، والتفكر، والنظر، والمقايسة، إلا من بعض اجتهادات، ضمن إطار المذهب نفسه، هي أقرب لفقه التجريد والافتراض، وأحياناً فقه الحيل الشرعية، وفقه المخارج، الذي تحكمه الآلية الميكانيكية، منها إلىٰ فقه الواقع، ووضع الأوعية الشرعية لمساره.. فأصبح الفقه عبارة عن تجريدات ذهنية، وآلية

ميكانيكية، كادت تفوّت مقاصد الشريعة، لولا بعض الأصوات من هنا وهناك، التي تشير إلىٰ امتلاك الأمة للإمكان الحضاري، والقدرة علىٰ النهوض، لأنها تمتلك القيم المحفوظة بالكتاب والسنّة.. تلك الأصوات التي حاولت التصويب الفقهي، والخروج عن التجريدات والمباني، إلىٰ إدراك الحِكَمْ، والمقاصد، والمعاني، من أمثال: ابن تيمية[1]، وابن القيم[2]، والشاطبي[3]، والشوكاني[4]، وابن عاشور[5] وغيرهم.

ويمكن أن نقول بدون أدنىٰ تحفظ: إن إغلاق باب الاجتهاد، الذي هو محل نظر من الناحية الشرعية، والفكرية، والعملية، والواقعية، كان وراء كل البلايا، والإصابات، والأزمات المتلاحقة، التي ألغت العقل المسلم.. ولا سبيل إلىٰ استعادة العافية للعقل المسلم، إلّا بكسر هٰذا الباب الموهوم، وإتاحة أكبر قدر من الحرية الفكرية والفقهية، وكسر النوافذ أيضاً، وليس

---

(١) انظر: ص٦١.

(٢) ابن قيم الجوزية: ٦٩١ ـ ٧٥١هـ.
شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي الفقيه الحنبلي، لازم الشيخ تقي الدين ابن تيمية وأخذ عنه، كان ذا عبادة وتهجد، وكان عارفاً بالتفسير وأصول الدين ودقائق الاستنباط، أوذي وحبس مع شيخ الإسلام ابن تيمية، ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ.
من تصانيفه: «تهذيب سنن أبي داود»، و«سفر الهجرتين»، و«الكلم الطيب»، و«زاد المعاد» أربعة مجلدات، وكتاب «نقد المنقول»، وكتاب «أعلام الموقعين عن رب العالمين» ثلاث مجلدات وغيرها.

(٣) انظر: ص٦٠.

(٤) الشوكاني: ١١٧٣ ـ ١٢٥٠هـ.
محمد بن علي بن محمد بن عبد الله، فقيه مجتهد، من كبار علماء اليمن، كان يرىٰ تحريم التقليد له ١١٤ مؤلفاً، منها: «نيل الأوطار» ثماني مجلدات في الحديث، و«فتح القدير» في التفسير، و«إرشاد الفحول» في أصول الفقه، و«التحف في مذهب السلف».

(٥) ابن عاشور: ١٢٩٦ ـ ١٣٩٣هـ.
محمد الطاهر بن عاشور رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة، من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة.
من أشهر مصنفاته: «مقاصد الشريعة الإسلامية»، «أصول النظام الاجتماعي في الإسلام»، «التحرير والتنوير»، في تفسير القرآن.

الباب فقط، ليتحاور النّاس ويتفاكروا، ويتناظروا، ويتشاوروا، وسوف لا يستقر، ولا يصح، ولا يُكتب الامتداد، والأثر الحسن، إلّا للاجتهاد الصحيح.. ذٰلك أن قيم الكتاب والسنّة، هي الحارس.. وعصمة عموم الأمة، هي صمام الأمان من الانحراف، ولا تتحقق تلك العصمة، ولا يمكن الوصول إليها بدون الحرية، والشورىٰ، والاجتهاد.. لذٰلك، لا بد من تحطيم حاجز الخوف من التفكير، وإقناع النّاس علمياً، أن الله لم يُثب علىٰ الخطأ، إلّا في مجال إعمال العقل.

والأمر في حقيقته، أبسط بكثير، مما أثارته وتثيره أصوات الرعب، والتخويف، التي حذرت منه... فالاجتهاد لا يخرج عن أن يكون رأياً بشرياً، يسري عليه الخطأ والصواب، ويؤخذ منه ويرد، وليس نصّاً دينياً، يلغي حكماً، أو يعبث بالدين.. وقد تكون المشكلة كلها، في اختلاط الموقف، بين قدسية النص الديني، وبين بشرية الاجتهاد.

والخطأ طريق الصواب، أو هو الطريق الآخر الدال علىٰ طريق الوصول إلىٰ الحقيقة، وذٰلك عندما نتعلم كيف نفكر، وكيف نختلف أيضاً، وكيف نتحاور، ونتشاور، للوصول إلىٰ الصواب.

والناظر في الواقع الإسلامي اليوم، يجد كثيراً من الفتاوىٰ، والآراء الفقهية، لم تُكتب لها الحياة، بينما نجد أخرىٰ، استطاعت أن تثبت وجودها، وصوابها، وتحقق مقاصد الشرع، في معركة الحياة.. فإذا كان الاجتهاد محرماً، وبابه مغلقاً، خوفاً من الخطأ والانحراف، وعندنا القيم القرآنية، والحديثية، الضابطة للمسيرة، وعندنا عصمة عموم الأمة، وعدم تواطئها علىٰ الخطأ، الأمر الذي لا يمكن تحقيقه إلّا في أجواء الحرية، والحوار، والشورىٰ ـ كما أسلفنا ـ فكيف سيكون حال الأمم الأخرىٰ، التي استطاعت أن تصل إلىٰ الكثير من الإنجاز الحضاري، والنهوض، من خلال ما تأصل في مجتمعها، من قيم الحرية، والعدل، والديموقراطية، وتجارب الخطأ والصواب، دون أن تتمتع بما تتمتع به الأمة المسلمة، من العواصم (عصمة الكتاب والسنة، وعموم الأمة التي لا تجتمع علىٰ خطأ أو ضلال)؟..

فالخوف من الاجتهاد، باسم الخوف علىٰ الشريعة، حالة مَرَضية غير سويّة، يُخشىٰ معها الوصول إلىٰ تعطيل الشريعة؟

إن معالجة أزمة العقل المسلم، ونهوض المجتمع الإسلامي، وتحقيق الشهود الحضاري، مرهون إلىٰ حدٍّ بعيد، بإتاحة حرية الفقه والفكر، وبدون ذٰلك، فسوف نبقىٰ نعالج العرض وندع السبب.

إهدار حقوق الإنسان:

□ والقضية الأخطر، والتي تعتبر بشكل أو بآخر، أثراً من آثار إلغاء العقل، بإغلاق باب الاجتهاد والتفكير، ومظهراً من مظاهر غياب الحرية، والشورىٰ، عن المجتمع، والفرد المسلم، ليس في المجال السياسي فقط، كما يتراءىٰ للكثير، وإنما في شتىٰ المجالات، فكراً، وتربية، وممارسة: إهدار حقوق الإنسان، وإلغاء إنسانيته، التي ما جاء الإسلام إلّا لحمايتها، وإلحاق الرحمة بالنّاس. قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] وأي إهدار أكبر من إهدار أهليته العقلية، وإلغاء قابلية النهوض، والإنجاز، بإغلاق باب الاجتهاد؟! ذٰلك أن مصدر الشر في العالم تاريخياً، هو تسلط الإنسان علىٰ الإنسان، وتعبيد الإنسان للإنسان، وشيوع الاستبداد والاستغلال اللذين يورثان الطغيان والهوان، سواء كان ذٰلك في المجال السياسي، أو الاجتماعي.. وأن الإنسان سوف لا يتمتع بحقوقه، ما لم يُوقف هٰذا التسلط، الذي يتخذ أشكالاً متعددة، لا مجال لذكرها.. وأن إيقاف التسلط، لا يكون إلا بالإيمان بالله، الذي يقتضي العبودية له، ونبذ عبوديات ما سواه، علىٰ المستوىٰ الفردي، وإقامة المؤسسات التي تشكل الحراسة، والرقابة الدائمة، للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في إطار المجتمع.. فالاعتقاد بأن الله خلق الموت والحياة، وكفل الرزق، وقضىٰ بالأجل، يخلص الإنسان من أخطر مسببات العبودية..

فإن رجعنا إلىٰ الأسباب المؤدية بالإنسان إلىٰ العبودية، وإسقاط إنسانيته، وزرع حواس التذلل في نفسه، رأيناها تتمركز في خوف الإنسان علىٰ

رزقه، وخوفه علىٰ حياته.. فالارتقاء إلىٰ الإيمان بأن الرزق محسوب، والأجل مكتوب، هو بدء عملية التحرير والانعتاق..

ومن هنا نقول: إن شهادة: «أن لا إلـٰه إلا الله»، انعتاق من العبودية، ونسخ للآلهة وإيقاف للتسلط.. ومن نعم الله علىٰ هـٰذه الأمّة، أن جعل الله المساواة، والحرية، التي تمثل روح حضارتها، دين.. والدفاع عنهما جهاد.. وحراستهما مسؤولية.. وألغىٰ الكهانة، والوساطة البشرية، وجعل الإنسان علىٰ اتصال مباشر بالسماء.. وأكثر من ذٰلك، جعل الله حقوق الإنسان حقوقاً له، تكريماً لها، وتعظيماً لقدرها، وتحذيراً من انتهاكها، ولم يجعلها حقوقاً فقط، بل هي حقوق وواجبات معاً، لا بد من رعايتها، وحمايتها.. وجعل الاعتداء عليها، خرقاً لحدود الله، وجريمة منصوصاً علىٰ عقوبتها.. فليست الحدود، وهي العقوبات النَّصية (حيث الجريمة والعقوبة نُصّ عليهما، ولا مجال للاجتهاد فيهما)، وما الكليات الخمس، أو الضروريات الخمس، التي لا قوام للحياة إلّا بحفظها ـ وهي الغايات والمقاصد التي جاءت من أجلها الشريعة، وأن حياة الناس لا تستقيم إلّا بحمايتها، ورعايتها ـ في الحقيقة إلّا لتأكيد هـٰذه الحقوق وحراستها.

فإذا كان الدين في الأصل حرية، واختياراً، والتزاماً، فكيف يسوغ لنا أن نتهاون في هـٰذه القضية، ونحاول تكريسها بإلغاء حرية الفكر عمليّاً؟

ولا بد لنا أن نعترف أن الإنسان، في معظم أنحاء العالم الإسلامي اليوم، يعيش وضعاً مأساوياً يفتقد معه إنسانيته، ويُطارد في عقله، وطعامه، وشرابه، وحياته، وعرضه، وأمنه.. والمؤسف أن هـٰذه المآسي تتم تحت شعارات: الحرية، والديموقراطية، والعدل الاجتماعي (الاشتراكية).. وأن الحس الديني تجاه الجهاد في سبيل إقرار حقوق الإنسان، والشعور بالمسؤولية تجاهها، تحوّل إلىٰ مواقع أخرىٰ خارج سياق الحياة.. ولعل ذٰلك من أشد الفتن، وأعظم البلايا التي يعيشها مسلم اليوم، صاحب الميراث الثقافي، والحضاري، والرصيد التاريخي، في التحرير والدفاع عن حقوق الإنسان.. ولولا أن المبادئ الإسلامية، أثبتت نجاحها، في إطار حقوق الإنسان،

وصوابها التاريخي، لقادت كثيراً من الناس اليوم إلىٰ التشكك فيها.

وزيادة في فتنة المسلم اليوم، نجد أن الغرب الذي لا يمتلك الكتاب والسنّة، ولا يتمتع بمزية عصمة عموم الأمة، يتمتع بأقدار من حقوق الإنسان، أصبحت من المسلّمات، إلىٰ درجة الإغراء بالهجرة إليه، بالنسبة للقادرين عليها، والانتماء إليه، والانبهار به، بالنسبة للعاجزين عنها، حتىٰ وصل الأمر، إلىٰ الإعداد لهجرة الأجنّة، قبل ولادتها، وذٰلك بسفر الأمهات الحوامل للولادة هناك، واكتساب حق الجنسية.. وقد لا نستغرب ذٰلك، فقد يكون من لوازم الحرية هناك، دعم الاستبداد السياسي، والاستغلال الاجتماعي هنا..

وما لم يدرك المسلمون اليوم أن أزماتهم وإصاباتهم الفكرية والاجتماعية، بسبب من غياب الحرية والمساواة، وحقوق الإنسان، وما لم يدافعوا عن حقوق الإنسان، ويغاروا عليها غيرتهم علىٰ نسائهم، وبناتهم، وأعراضهم، وأموالهم، ويجاهدوا في سبيلها، فسوف يستمر سقوطهم، وغيابهم الحضاري.

غياب الشورىٰ:

□ ولعل غياب الشورىٰ، كفريضة إسلامية، اقترنت بفرضية الصلاة، وغيرها من الفرائض الأخرىٰ، وانعدام الغيرة عليها، والتضحية في سبيلها، مظهر من مظاهر إغلاق باب الاجتهاد أيضاً.. حيث كان غيابها مذهلاً في المجال السياسي خاصة، وإن كانت مظاهر غيابها واضحة أيضاً، في مؤسسات التشكيل الثقافي جميعاً: في الأسرة، والمسجد، والمدرسة، ووسائل الإعلام، وجميع الممارسات الاجتماعية، بما في ذٰلك معظم التنظيمات الإسلامية، التي كانت ولا تزال تشكل الأمل في قدرتها علىٰ اقتحام العقبة، وتضحيتها في سبيلها.. وبدل العمل علىٰ ترسيخ مبدأ الشورىٰ، كدين، والغيرة علىٰ انتهاكه، والتوسع في مفهوم حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، استغرق التنظيمات الإسلامية، الجدل حول مفهومها، وهل هي

ملزمة، أم معلمة، وبدأ الاستنجاد بالكتاب والسنّة، وكل فريق يحاول إثبات حجته، ودحض حجة الآخر، والأمة ترزح تحت وطأة الاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي!! حتىٰ أصابت لوثة الاستبداد السياسي بعض العقليات في العمل الإسلامي، وانتهىٰ الأمر إلىٰ أنه: لا مانع عند بعض الجماعات الإسلامية التي تستعجل النتائج، ولا تطبق التعامل مع السنن الطبيعية، أن تراهن، أو تتعاون مع بعض الحكام المتسلطين، ظناً منها أنها تختصر الطريق، ولم تعتبر بدرس التاريخ، بأنها سوف تكون أول الضحايا.. ولا نريد أن نأتي بأمثلة، فذٰلك واضح.

إن غياب الشورىٰ، بأبعادها السليمة، عن بعض التنظيمات الإسلامية، شيء مذهل.. فإمارة الجماعة، وقيادتها، ممنوعة من التداول. وما يوصف به القائد الملهم، فوق ما يوصف به النبي المرسل. وسابقة البيعة مدىٰ الحياة، يمكن أن نقول: إنما انطلقت ابتداء، من أجواء التنظيمات الإسلامية، ثم أصبحت شعارات، ومبايعات للزعامات السياسية.. والذي أضيف إليها فقط، هو فكرة التأبيد (إلىٰ الأبد)، وليس مدىٰ الحياة فقط، إضافة إلىٰ أن مضمون البيعة للقائد، أو الزعيم، لم تُفْحَص بنودها من الناحية الشرعية، ذٰلك أن الأمير، أو قائد الجماعة، يمتلك هامشاً من الحياة محدوداً، وسلطاناً بسيطاً جداً، ومع ذٰلك تؤخذ له البيعة العامة، وتفصّل عليه نصوص الكتاب والسنّة، للولاية العظمىٰ، ويصبح الإرهاب الفكري، وغياب الشورىٰ، من لوازم هٰذه التركيبة العجيبة.. فمن شذّ، شذ في النار.. ومن خرج عن الطاعة، وفارق الجماعة، فمات، مات ميتة جاهلية.. والطاعة معقودة للأمير بنصّ الكتاب والسنّة.. والشورىٰ غير ملزمة.. ولا مانع أيضاً، وكجزء من هٰذه الفلسفة، أن نؤصل ـ كما فعل فقهاء التخلف ـ لشرعية إمارة الإستيلاء بالقوة، كما يروج مثقفوا السلطان اليوم، للشرعيات الثورية والانقلابية.

من إصابات العقل المسلم:

وإذا سلمنا أن إغلاق باب الاجتهاد هو إلغاء للعقل، والفكر، والبحث،

والنظر، ومحاصرة للإسلام الخالد عن الامتداد، وأن أول مظاهره: إلغاء إنسانية الإنسان، وغياب الشورىٰ، وإهدار حقوق الإنسان، واستحكام الأزمة الفكرية، التي جرّت علينا كل المحن والبلايا، أصبحنا نعيش في أجواء من الإرهاب الفكري، تجعلنا نخاف من التفكير، وإبداء الرأي، لأن قائمة العقوبات والاتهامات بانتظارنا، وسوف تطاردنا، باسم الخوف علىٰ الشريعة والدين، أمكننا القول: إن كل الإصابات الأخرىٰ التي لحقت بالعقل المسلم هي أعراض لهٰذا المرض الأصلي.. وقد يكون من المفيد أن نعرض لشيء منها أيضاً:

□ بناء المواقف والمسالك علىٰ الرغبات، والآمال، والأماني، والهوىٰ، بدل بنائها علىٰ توفر البيِّنات والبراهين والمعلومات الكافية، لأن العقل المسلم لم يدرب علىٰ استقراء الأحداث، وأهمية توفير المعلومات التي تمكنه من الحكم الدقيق، لأنه محروم، ومتخوف من أصل التفكير، محروم من الاستقراء، والاستنتاج، والبرهان، والقدرة علىٰ إبصار المستقبل.. لذٰلك فإن مواقفه غالباً ما تكون أقرب إلىٰ المجازفات، والأحكام العشوائية الهوائية، التي تورث الإحباط، بحيث يصبح أسيراً للنتائج، والمفاجآت المستقبلية.

□ اختزال التاريخ في موقف، وانتقاء ما يوافق الهوىٰ، وعدم القدرة علىٰ استصحاب التاريخ برؤية شاملة، فكثيراً ما خُودع المسلم المعاصر بمواقف لبعض الزعماء، والقيادات التي تكيد ـ تاريخياً ـ للإسلام، بسبب موقف ابتزاز سياسي، في أوقات الأزمات، متناسياً التاريخ، ومتجاوزاً قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

□ النظر إلىٰ الأحداث من زاوية واحدة، أو من خلال تعميم موقف واحد، أو ضمن إطار زمان واحد، وعدم القدرة علىٰ النظرة الشمولية، للأسباب، والنتائج، والتداعيات.

□ عدم القدرة علىٰ الارتفاع بالخطاب الإسلامي، والاهتمام بقضايا الإنسان، إلىٰ المستوىٰ العالمي.. والانكباب علىٰ الوجه، وعدم الاهتداء بالنظر إلىٰ الآفاق البعيدة المستمدة من عمق تاريخ النبوة، وخلود الرسالة،

وامتدادها عبر الزمان والمكان، حتىٰ تتجاوز عالم الشهادة إلىٰ عالم الغيب. ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك].

□ عدم التمييز في القبول، والرد، ووسائل اختبار الصواب والخطأ بدقة، بين معارف الوحي، ومدارك العقل، وبين نصوص الدين، واجتهاد البشر.

□ الاستغراق الكلي في بحث الأمور الغيبية، والإلقاء بالتبعة عليها، وتجاوز المساحة التي وردت فيها النصوص الصحيحة عن طريق الوحي، ومحاولة إدخال العقل في غير مجاله، علىٰ حساب الكثير من القضايا الحياتية في عالم الشهادة، التي نيط بالعقل التفكير بها، وإنجازها.

□ العدول في التعامل، عن السنن الجارية، وامتلاك القدرة علىٰ تسخير الحدث، ومغالبة القدر بقدر، إلىٰ السنن الخارقة، وانتظار المنقذ القادم من الغيب، ليعالج التخلف، والتأخر، والتمزق، ويملأ الأرض عدلاً، بعد أن ملئت جوراً وظلماً.. وفي هٰذا ما فيه من مجافاة للعقل المسلم، وللإنجاز الحضاري في عصر النبوة، فترة القدوة.. وعدم إدراك بُعْد المعجزة التي ارتبطت بعزمات البشر.. لٰكنها إفرازات مناخ التخلف، واجتهادات عصر التخلف.

□ تعطيل قانون السببية والبحث في علل الأشياء، علماً بأنه من أقوىٰ الأدلة المستخدمة علىٰ وجود خالق الكون.. والله سبحانه وتعالىٰ يقول حكاية عن ذي القرنين الذي حقق تفوقاً، وإنجازاً، وتمكناً في الأرض، بعد أن ألهمه الله معرفة الأسباب، فاتبعها: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف].

ومشكلة العقل المسلم اليوم: فقدان التوازن في هٰذه القضية، فهو متردد بين موقفين: بين تأليه الأسباب، وبين تعطيلها، مستدلاً ببعض ظواهر النصوص المقطوعة عن سياقها، وحكمتها، ونسقها العام من خلال الرؤية القرآنية الشاملة.. والجدل النظري حول هٰذا الموضوع أضاع الكثير من الإنجاز، وفوّت الكثير من فرص التصويب، والمراجعة، واكتشاف الخطأ،

ومعالجته، ورتب علىٰ ذٰلك الخلط بين التوكل على الله، الذي يعني فعل المقدمات كاملة، وتعاطي الأسباب، ثم الاتكال على الله في إدراك النتائج، والقيام بالمراجعة ومعرفة موطن الخلل، عند عدم إدراكها ـ وذٰلك تعامل مع السنن وقوانين التسخير كما شرعها الله لعباده، والتي تمثل في الحقيقة أقداره التي تعبد الإنسان بها، للوصول إلىٰ النتائج، وترتب الثواب والعقاب ـ وبين التواكل الذي يعني القعود عن فعل المقدمات، وتعاطي الأسباب، وانتظار وقوع المعجزات، وحصول الخوارق.

□ عدم الوضوح الشرعي الدقيق لمفهوم البدعة، وأنها منحصرة في الاستحداث لأمورٍ في الدين ليست منه، وإعطائها صفة القداسة، وترتيب الثواب علىٰ فعلها، والعقاب علىٰ تركها ـ أي: الإضافات الدينية في العبادات، والتشريعات، والأخلاق، بعد أن أكمل الله الدين ـ والتداخل بين هٰذا المفهوم، وبين مفهوم الإبداع، في المجال الحياتي، والحضاري، الذي يعني: قدرة الإسلام علىٰ الاستجابة لمتغيرات العصر، بعد المحافظة علىٰ الثوابت الدينية، وقدرة العقل المسلم علىٰ العطاء المستمر والامتداد ببسط الإسلام علىٰ الواقع، إذ لا يمكن تجميد المجتمع علىٰ صورة واحدة، في حركته التاريخية. .

ذٰلك أن الإبداع في العلوم، والفنون، والصناعات، من مهام العقل، المستهدي بالقيم الدينية.

أما أن نرمي كل جديد بأنه بدعة، فهٰذا ليس من الفقه، والدين، والعقل في شيء.

□ القصد إلىٰ مسالك التشدد، والحرج، والإنذار في أمر الدين، والتكليف الشرعي، وتغليبها علىٰ أخلاق اليسر، والسماحة، والسهولة، والبشارة، والرخص. . والرسول ﷺ، يقول: **«بشّروا ولا تنفّروا»**[1] . . والظن أن ذٰلك يعني مزيداً من الثواب والتدين.

---

(١) رواه البخاري في باب العلم، ومسلم في باب الجهاد، وأبو داود في باب الأدب.

◻ عدم القدرة علىٰ التمييز بين الغزو الثقافي، والتبادل المعرفي. . ذٰلك أن إقامة هٰذا الحاجز من تخوف الغزو الثقافي، والتقوقع، حرم العقل المسلم، من الكثير من المعارف، وارتياد الآفاق، التي تمكنه من اختصار فجوة التخلف، والمساهمة في التغيير الحضاري و«**الحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها فهو أحق بها**»[1].

◻ عدم الإدراك الكامل لمفهوم الفروض الكفائية، وعلاقتها بالاكتفاء الذاتي للأمة، والمعاصي الدينية التي تترتب علىٰ عدم القيام بها، والعدول عن الكثير من التخصصات، والأعمال المطلوبة للأمة تحت شتّىٰ المعاذير، مما أوصل الأمة إلىٰ الانكسار العلمي، والعيش علىٰ إنتاج الآخرين، الذي يحمل إلىٰ العالم الإسلامي أفكارهم، ونسقهم الحضاري، ذٰلك أن الأشياء المادية المستوردة لا تخرج في النهاية عن أن تكون رموزاً وشواهد فكرية، ومجسدات ثقافية.

وقد تستنكر بعض العقول اليوم، عدم الإتيان بمندوب، أو مستحب، وتقيم الدنيا، ولا تقعدها، بسبب ذٰلك. . أما ضرورة التخصص بمستلزمات العصر من العلم والتقنية، لحماية المجتمع، ورقيّه، وفك السيطرة الأجنبية التي تتحكم فيه، والتي تعتبر من الفروض، فهٰذه قضية لا تخطر لها علىٰ بال. . إنها تقاتل من أجل مندوب، ولا تدرك أهمية المفروض.

ومن أغرب ما يسمع الإنسان أن بعض العقول الإسلامية، وصل بها الأمر إلىٰ أن تقرأ هٰذا الموضوع، بأبجدية مغلوطة، وهي: أن الله سخر لنا الأجانب، ليكونوا في خدمتنا، في الصناعات والزراعات، ونحن عباد الله الصالحين، نتمتع بها ونعيش مستهلكين لها!

◻ عدم الاقتناع بجدوىٰ النقد، والمراجعة، والتصويب، والاعتبار بالتجارب السابقة، واكتشاف السقطات، والحفر، والإخفاقات، ودراسة أسبابها، وأخذ الدرس والعبرة منها للمستقبل، استجابة لحديث الرسول ﷺ:

---

(١) حديث رواه الترمذي في باب العلم، وابن ماجه في باب الزهد.

«**لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين**»[1]، ومحاولة الهروب من المسؤولية عن الفعل، والإلقاء بالتبعة علىٰ العوالم الخارجية، فإن أعيتنا الحيلة، كان القدر هو المسؤول عن خسائرنا.. أما بالنسبة لنا، فقد أدينا واجبنا كاملاً، تحت شعار: (ليس بالإمكان أفضل ممّا كان).. وبذٰلك لا نزال نراوح في مكاننا، ونكرر أخطاءنا، والله سبحانه لم يُرِدْ لنا الاعتبار بتاريخنا الخاص فحسب: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وإنما طلب إلينا أيضاً تحقيق العبرة من التاريخ العام للأمم: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ﴾ [الروم: ٤٢].

□ التردد بين ذهان السهولة ـ وذٰلك بتبسيط الأمور، ومن ثمّ الإقدام علىٰ فعلها دونما رؤية، ودراسة، وفهم، وفقه، وعدم التقدير الدقيق للإمكانات المتاحة، والظروف المحيطة، ودون تخطيط مسبق، والإقدام بشكل أعمىٰ ـ وبين ذهان الاستحالة، وذٰلك بالنظر إلىٰ الأمور والظن باستحالتها، وعدم القدرة علىٰ التعامل معها، وتجاوز الحقائق في ذٰلك، إلىٰ الأوهام الموقعة في العجز، واختلاط الممكن بالمستحيل، والانسحاب من الساحة، نتيجة رؤية عليلة تؤدي إلىٰ اليأس، وتُوقع في العطالة.

□ الهروب الخادع إلىٰ الماضي، وعدم العودة منه للتعامل مع الحاضر، والنظر إلىٰ المستقبل.. والعجيب اللافت للنظر أن المسلم اليوم، علىٰ الرغم من شدة تمسكه بتراثه، واعتزازه بإنجازاته الحضارية والتاريخية، نراه عاجزاً عن الشهود التاريخي، الذي يعني القدرة علىٰ تعدية الرؤية، وحسن الإدراك، والوعي، لحركة التاريخ، التي جعلت منها بعض العقائد، قوانين صارمة تحكم الحاضر، وتنبئ بالمستقبل.. أما نحن، فدخلنا التاريخ، ولم نستطيع الخروج منه، مما يدل علىٰ أن اعتزازنا بالتراث، وافتخارنا بالتاريخ، هو أقرب للانحياز العاطفي ومعالجة مركب النقص، منه إلىٰ امتلاك أهلية إدراك حركة التاريخ.. ولا أعتقد أن إنساناً ما، مدركاً للتاريخ تماماً. يبقىٰ بعيداً عن الحاضر ورؤية المستقبل.. وإذا كان للماضي من فائدة، فلأنه ينير الطريق إلىٰ

(١) متفق عليه.

معرفة الحاضر، ورؤية المستقبل.. فالله خلق أعيننا من الأمام، ولم يخلقها من الخلف، ومكننا من القدرة علىٰ الالتفات بين حين وآخر، ولهٰذا مغزاه.. فالماضي، لا يمكن استعادته، والعيش فيه، بحال من الأحوال، إلّا إذا سيطرت علينا أحلام اليقظة.. ويؤسفنا أن نقول: بأن التاريخ هو الذي استوعبنا.. أما نحن فلم نستوعب التاريخ.. وإن العقل المسلم اليوم، لا يعيش خارج الحاضر والمستقبل فقط، وإنما خارج الماضي أيضاً.

□ عدم استشراف آفاق المستقبل علىٰ ضوء الماضي والحاضر، وفهم الحركة التاريخية، ومراقبة مجراها، ومن ثَمَّ معرفة مصبها مستقبلاً.. وأعتقد أنه لا يجوز الهروب من النظر إلىٰ المستقبل، تحت عنوان: (المستقبل بيد الله).. فالماضي، والحاضر، والمستقبل، كلها بيد الله.. والرسول ﷺ، كان يرسل سرايا الاستطلاع، ليتعرف علىٰ أعدائه، ويعد العدّة لملاقاتهم في المعركة.. وكان ينظر في عدد ما يذبحون، وما يأكلون، ليقدر عددهم، ويستعد للقائهم..

فتعطيل النظر إلىٰ المستقبل، بعد أن أصبحت له دراساته، وعلومه، تحت شتّى الاعتذارات، ليس من هٰذا الدين، بل هو إصابة للعقل، ومجافاة للدين، خاصة وأن الإسلام مدّ الحياة إلىٰ ما وراء عالم الدنيا، حيث يتوقف النّاس، ليدخل بهم عن طريق الوحي إلىٰ عالم الغيب.. فالمستقبل في تصورنا الإسلامي، أبعد مدًى.

□ التراجع إلىٰ مواقع الفكر الدفاعي، مما جعل الخصوم، وأعداء الدين، يتحكمون بالنشاط العقلي للمسلم، بإثارة المشكلات، والقضايا، والاتهامات.. وبذٰلك، افتقد العقل الأصالة والإبداع، واتسم بالعاطفية والحماس، ووقع في دائرة التحكم التي رسمها الخصوم.

ب ـ واقع الحركات الإسلامية كمواقع متقدمة.. وأمل في النهوض

بعد أن أتينا علىٰ ذكر شيء من أسباب الأزمة، وأعراضها، وإصابات العقل المسلم اليوم بشكل عام، قد يكون من المفيد أن نتوقف قليلاً، ونلقي نظرات، ولو سريعة، علىٰ واقع الحركات والتنظيمات الإسلامية بشكل عام، التي تشكل الأمل في النهوض والارتقاء..

ونعترف ابتداءً أنها ملامح عامة، وإن تمايزت بعض التنظيمات في كسبها، وتجاربها، وتقدمها في وسائل المراجعة والنقد الذاتي، عن غيرها.. فمما لا شك فيه أن الحركات الإسلامية، علىٰ الرغم من كسبها المقدور في إثارة الوعي الإسلامي العام، وتعبئة الجماهير، وتوجيهها صوب الهدف، وما حققته من تجديد الانتماء للإسلام، والاعتزاز والالتزام به، لم تستطع أن تنفك تماماً عن مناخ الأزمة الفكرية التي تعاني منها الأمة، وتخلصها من الواقع الذي تعيشه، هٰذا إن لم نقل: إنها وقعت في أمراض جديدة، وتأزمات تعتبر من العلل الخاصة، في نطاق العلة العامة، في الوقت الذي كان الأمل معقوداً عليها في أن تكون طلائع إحياء وبعث، ونخبة متقدمة، قادرة علىٰ تنزيل الإسلام علىٰ حياتها في الحدود المتاحة، والتدريب عليه، والإغراء به، وإثارة الاقتداء، بالنسبة للآخرين.

ونحن هنا، لا نقلل من قيمة التحديات الكبرىٰ التي تواجه العمل الإسلامي، ووسائل ترصده، ومحاصرته، في محاولة لإجهاضه، خاصة بعد أن عاد ليشكل القناعة الفكرية والحضارية، ولم يقتصر علىٰ أن يكون أمل الأمة، في إعادة تشكيل عقلها وثقافتها، بل ساعِدُها، ودرع مقاومتها أيضاً،

بعد أن ظُنَّ أنه تودع منه بإسقاط الخلافة، وتمزيق الأمة، وإخضاعها للاستعمار الحديث، بكل ثقافاته، وإنجازاته الحضارية.. وإنما كنا، ـ ولا نزال ـ نعتقد أن التحديات، والمؤامرات، والمكر السيئ، والشر، أمور من لوازم الخير، وأن المعركة بين دعاة الحق والباطل، من سنن الحياة، وطبيعة الأشياء، والتدافع الحضاري.. قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١].. ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].. ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢].

كما نعتقد بأن الغفلة عن هٰذه التحديات، وعدم الإبصار والإدراك لأبعادها، هي السبب الأساس الذي يستدعي سائر الإصابات: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وما لم نصل إلىٰ مرحلة الاعتقاد الفعلي، بأن العلل والخلل كامن فينا، لنبحث عنه، وندرك أبعاده، وأسبابه، ونكتشف السنن والقوانين التي تمكن من وسائل علاجه، فسوف نبقىٰ نتقدم ضحايا علىٰ مذابح الآخرين، ورغباتهم، وتصفىٰ الحسابات بدمائنا، ونُوظَّف لمعاركهم، وتحقيق أهدافهم، أكثر من أن نقدم تضحيات، تصب بالنهاية في المصلحة الإسلامية.

من إصابات العمل الإسلامي:

▫ وقد يكون من المفيد أن نشير إلىٰ بعض الملامح العامة لهٰذه الإصابات الخاصة التي لحقت بفصائل العمل الإسلامي، علىٰ اعتبارها أمل الإنقاذ، إضافة إلىٰ عوامل الخلل والوهن التي تستشري في الأمة المسلمة عامة، لعلها تغري بالمراجعة، والمعالجة، والتصويب، والانتقال بالعمل إلىٰ مواقع متقدمة:

سيادة العقلية الذرائعية:

▫ ولعل في مقدمة هٰذه الملامح، ما أشرنا إليه في أكثر من موقع من سيادة العقلية الذرائعية التي تعفي النفس من المسؤولية عن التقصير والبحث في أسبابه ووسائل علاجه، بإلقاء التبعة علىٰ الآخرين.. إنه القوت الذي تقتات به

معظم الحركات الإسلامية، وتبرر استمرار وجودها، دون أن تتوقف ولو قليلاً عند القابليات، وتبحث في طبيعة تشكيلها الثقافي غير السليم، الذي يُمكِّن الآخرين منها.. تطرح هٰذه المسوغات دون أن تشعر وتعي أنها بهٰذا إنما تدين نفسها، لا تبرئها، وتحكم علىٰ أشخاصها أنهم دون سوية فهم العصر، والتعامل معه.. وهنا حقيقة لا بد من الاعتراف بها، وهي: أن البدء في المراجعة، والنقد، والتقويم وإبراز دور الكسب الذاتي في حصول الإصابات، قد أخذ سبيله علىٰ استحياء، وهو الآن يشق طريقه بصعوبة.. وإن كان يُبشر بخير، إلّا أنه لم يبلغ بعد المدىٰ المطلوب، ويشكل تياراً يغيِّر المجرىٰ العقلي والثقافي لهٰذه الحركات.

والناظر في أدبيات الحركة الإسلامية بفصائلها المتعددة، وفكرها، لا يجد في مجال المناصحة، والمراجعة، والنقد، والتقويم، إلّا بوارق والتماعات، تعقبها الظلمة من المديح، والتستر علىٰ الخطأ.. وباستطاعتنا القول: إن هٰذه الأمور التي كانت محظورة، ومحاصرة، ومحرمة تماماً، أصبحت الآن مطروحة وموضع جدل الكثير من قواعد الحركات الإسلامية.. وهٰذا يبشر بخير مستقبلي إن شاء الله.

عدم تمثل المعاني المفقودة في الأمة:

□ لم تستطع الحركات الإسلامية أن تتمثل بقدر كاف المعاني المفقودة في الأمة المسلمة اليوم، وتشيعها في نطاقها، والتي تعتبر من مقومات وأسس النهوض، مثل: الغيرة علىٰ قيم الحرية الإنسانية، والجهاد والتضحية في سبيلها، والمجاهدة لسيادة الشورىٰ، والتزامها والإفادة من الخبرات والآراء كافة، وتأكيد حقوق الإنسان في العدل والمساواة والكفاية، والانتصار لها.. بل لعلنا نقول: إنها وقعت فريسة لبعض ردود الفعل للمواقف الضاغطة من حولها، التي شوّهت صورتها، وأدخلتها في مربعات الرفض والمغالاة.. هٰذا، علىٰ الرغم من التهويل، والتضخيم من أعدائها، إلّا أنها هي التي أعطت السبب، وساهمت بتشويه صورتها.

ونستطيع أن نقول: إنها حرمت خاصّة نفسها من الإفادة من ثمرات الحرية، والشورىٰ، والعدل، والمساواة، وساد أجواءَ بعضها لونٌ من الإرهاب الفكري، حرم قياداتها من التجدد، والأهلية في بعض الأحيان، وامتلاك القدرة للتعامل مع المراحل المتغيرة، مما أدّىٰ إلىٰ نزف الكثير من الإمكانات، والكفاءات المتميزة، التي كان يمكن لها أن تنهض بها، وتتقدم صوب أهدافها، إلىٰ درجة يمكن أن نقول معها: إنها راهنت علىٰ بعض الوسائل في الوصول إلىٰ أهدافها التي أقل ما يقال عنها: إنها محل نظر من الناحية الشرعية، ولم تستطع أن تميِّز بأن المستبد لا يمكن أن يكون عادلاً، أو أملاً.. فمن كان وجوده غير شرعي، وعمله غير شرعي، فمن الصعب جداً أن يعطي الشرعية للأمة أو يقبل بها.. لٰكنها خُدعت بوهمها أنها قادرة علىٰ اختصار المسافة للوصول إلىٰ المجتمع الإسلامي المنشود، دون أن تتوقف عند ثوابت الدين ومقاصده، وتدرك السنن القرآنية بالقدر المطلوب، وتعلم أن الله لا يصلح عمل المفسدين.

ولعل أزمة الخليج، وكيفية التعامل معها، والموقف من غزو الكويت، ومن ثمّ الاستعانة بالقوات الأجنبية، كانت أحدث شاهد إدانة علىٰ الواقع الفكري المحزن الذي صرنا إليه.. وفي اعتقادي أنها سوف تتكرر أخطاؤنا، ولا نستعيد عافيتنا العقلية والفكرية، مهما حاولنا الخروج، طالما حُكم علينا بالسكتة العقلية، عندما أغلقنا باب الاجتهاد الفقهي، والاجتهاد الفكري، وأوقفنا الحوار، والمناظرة، وضقنا بتنوع الآراء، ولحقت بنا العطالة بسبب إلغاء خلود الشريعة عن الامتداد، وعدم القدرة علىٰ الخروج بها عن الإطار التاريخي، وسيادة التقليد الجماعي الذي يعني السكوت العقلي أيضاً، والذي ما يزال يشكل وباءً عقلياً واجتماعياً لَحِق بالأمة جميعاً، بما في ذٰلك نخبتها، ولو بأقدار متفاوتة.

لذٰلك نرىٰ أن الأزمة الأم لكل الأزمات، ليست أزمة الأمة، حيث ما يزال محركها الوحيد هو الإسلام، علىٰ الرغم من كل الاحباطات وجهود الغزو الفكري والاستيلاب الحضاري، وإنما هي أزمة النخبة.. وجذورها

تكمن في إلغاء العقل المسلم، بإغلاق باب الاجتهاد، ومحاصرة الرسالة الإسلامية، وتوقيف خلودها، وتحريم الحرية والشورىٰ، والحيلولة دون الوصول إلىٰ عصمة عموم الأمة، التي تطارد الخطأ، وتضيِّق مساحاته، إلىٰ الأقدار غير المؤثرة علىٰ المسار الفكري والحضاري، الأمر الذي أتينا علىٰ ذكره عند الكلام عن أزمة الأمة.

إن الحوار، والتفاكر، والتناظر، والمناقشة، يغربل الحقيقة، ويخصب العقل، ويشحذ الفاعلية، ويحصحص الحق، حتىٰ لا يصح في النهاية إلا الصحيح، ولا يثبت إلّا الصواب.. ولا يمكن أن يتحقق هٰذا إلّا بأن نؤمن بأن الدين اختيار ابتداءً، والحرية عقيدة، والشورىٰ دين.. وبدون الحرية، فسوف تبقىٰ عصمة عموم الأمة بعيدة المنال، وسوف يكون التعامل مع القيم الدينية الضابطة لوناً من تكريس التخلف والتقليد، والتفسير الخادم للأزمة، باسم الدين والتدين، وتنقلب المعادلة، فيكون ما جاء به الرسول ﷺ تبعاً لأهوائنا، لا أهواءنا تبعاً لما جاء به ﷺ، وبذٰلك تنتقض عرىٰ الإيمان، وتغيب ملكة الفرقان بين الحق والباطل، وتتكاثر الأزمات، وتُفتقد الرؤية الصواب للخروج.

إن التهوين من قيمة مناخ الحرية والشورىٰ، الذي يُنبت العقول السويّة، ويبلور الموارد الفكرية وينقيها، في إطار الحركات الإسلامية، كان وراء الكثير من أزماتها.. فإذا كان الدين اختياراً، وكانت مشروعية الجهاد في الإسلام، لإقرار حرية الاختيار: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وتخليص العقل من أسر المواريث الثقافية والآبائية، والأسوار السياسية، وإعادته لسلامة الفطرة، ليلتقي بالإسلام، فكيف يمكن أن نتصور ديناً، أو فكراً، أو فقهاً قادراً علىٰ حل الأزمة، ينشأ في مناخ يسوده الاستبداد السياسي، والاستغلال الاجتماعي والتقليد الجماعي؟

وكم سيكون الأمر هيّناً، ومقبولاً، إذا نزعنا صفة القدسية عن آراء البشر، التي تكمن وراء التعصب والجمود، وتثير النزاع والفرقة، وآمنّا فعلاً وواقعاً، أن اجتهاد كل إنسان يجري عليه الخطأ والصواب، وأتحنا الفرصة

لكلٍّ أن يدلي بدلوه، خاصة في هٰذا العصر الذي تقدمت فيه وسائل النشر والإعلان، وأدوات الاتصال، واعتقدنا أن اجتهاد النّاس ليس هو الدين، الذي لا يجوز نقضه أو نقده، وإنما هو فهم للدين، الذي يمكن أن يُرد ويُبطل بفهم آخر، أدقّ نظراً، وأوضح مقصداً.

هٰذه الحرية في النظر، والفكر، كم ستكون مجدية، إذا عرفنا أنها ليست منفلتة من كل ضابط، وإنما هي محكومة بنصوص الوحي، ومقاصد الشرع، التي تشكّل المحددات الرئيسة لحركة الاجتهاد، ومجالات العقل.

انقلاب الوسائل غايات:

وقد تكون من أخطر الإصابات، التي لحقت بالحركات والتنظيمات الإسلامية، فكراً، وسلوكاً، وفي كثير من الأحيان سلوكاً ـ لعدم جرأتها علىٰ تسجيل ذٰلك في طروحاتها الفكرية ـ انقلاب الوسيلة إلىٰ غاية. . . . فالتنظيم كما هو معلوم ومقصود، وسيلة لأنه تجميع وتنسيق للطاقات والخبرات، بهدف تحصيل كسب أكبر للقضية الإسلامية، يزيد من العطاء المنظم، الذي يسرّع الخطا باتجاه تحقيق المجتمع الإسلامي، حيث يشكل التنظيم المناخ، الذي يضمن التواصل للمعاني الإسلامية الغائبة عن حياة الأمة، ويشكل خميرة النهوض للمجتمع بشكل عام، ويعطي دليلاً مجسداً وعملياً علىٰ الخيار الإسلامي، لإثارة الاقتداء، وإغراء الناس به، ويكون ميداناً للتدريب علىٰ المعاني الإسلامية المفقودة في الأمة. . ولسنا هنا بسبيل استقصاء المعاني الهامة والكثيرة التي يحققها التنظيم، لٰكن المشكلة التي أصابت العمل الإسلامي، أو التنظيمات الإسلامية في مقتل، هي انقلاب الوسيلة (التنظيم) إلىٰ غاية بحدِّ ذاتها، وتبرير كل شيء من الكسب والخطأ في سبيل حمايتها، وهٰذا جعلها أجساماً منفصلة عن الأمة، وجعل لها أهدافاً خاصة بها، وأدّىٰ إلىٰ الانغلاق، والتحزب، والافتتان بالنفس، والإعجاب بالرأي والفكر الذاتي، والانكفاء علىٰ قراءة الذات، وتاريخ الذات، وعدم الرغبة ابتداءً، والقدرة انتهاءً، علىٰ الإفادة مما عند الآخرين، وإشاعة أجواء الإرهاب

الفكري، حتىٰ علىٰ مستوىٰ التنظيم نفسه، بحيث لم يبق مكان للحوار، والمناقشة، والمفاكرة، والشورىٰ، إلىٰ درجة، لم تسمح معها بعض هٰذه التنظيمات بأيِّ فكر معارض، أو ناقد، أو مقوِّم، الأمر الذي أدّىٰ إلىٰ نزف العقول المستمر، وابتعاد الكثير من الإمكانات الفكرية عن التنظيمات الإسلامية، واستمرار مراوحتها في مواقعها، وتكريس الخطأ، والعجز عن التعامل مع العصر، مما أدىٰ لأن يكون الكثير من الأتباع نسخة مكررة عن القائد، أو الزعيم، أو الشيخ، وإحكام الأسوار الحزبية التي تحمي الضعف، وتكرِّس الخطأ، وتغيِّب الحقيقة، وكأنّ الإسلام بدأ بمثل هٰذه التنظيمات، وسوف ينتهي بها، وكأنها هي الإسلام، والإسلام هي.. وفي ذٰلك نقض للمنطق، والتاريخ، والواقع، والمستقبل، وطبيعة الخلود في هٰذا الدين، وتنكُّر لمفهوم الأخوة الإيمانية الشاملة..

ويمكن أن نقول أيضاً: إن بعض المؤسسات الإسلامية التي نذرت نفسها لتقويم المعوج، ومعالجة التأزم في الواقع الإسلامي، علىٰ مستوىٰ الأمة، لم تكن أحسن حالاً بكثير، فسرعان ما تسربت إليها العلل، فحاصرت نفسها، واصطحبت العقلية الحزبية، التي تربت عليها من المناخ الذي تعمل فيه.

وبذٰلك لم تستطع الحركات الإسلامية من خلال أزمتها الفكرية، أو إن شئت فقل من خلال فكر الأزمة الذي لحق بها، أن تقيم حواراً داخلياً، فضلاً عن قدرتها علىٰ الامتداد بالحوار إلىٰ فصائل العمل الإسلامي الأخرىٰ، علىٰ التربة نفسها، أو الخروج بطروحاتها وخطابها ومشروعها النهضوي إلىٰ مستوىٰ الأمة المسلمة، أو المستوىٰ العالمي.

ذٰلك، في الوقت الذي ملأت فيه ندوات، وموضوعات، ومشاريع الآخرين، وسائل الإعلام ودور النشر، ورفوف المكتبات.. فلا تجد قضية إلّا وطرحت لها ندوة، أو ندوات، حتىٰ أصبحت تلك الطروحات والمناقشات، هي المراجع، ووسائل تشكيل العقل الثقافي للأمة.. فلا تمر أزمة، ولا تحدث مشكلة، إلّا ونرىٰ حضور «الآخرين» المكثف، وندواتهم المتعددة، تحت شتّىٰ العناوين والأسماء، وضمن الظروف المطلوبة، حيث الاستمساك

بالزمن في الوقت المناسب. . ولو حاولنا إحصاء الندوات، واللقاءات، والاجتماعات التي تمت في أعقاب توقف البعد العسكري لأزمة الخليج، التي ما تزال مستمرة بأبعادها الأمنية، والسياسية والاقتصادية، والثقافية، وتداعياتها المستقبلية، لما استطعنا أن نحيط بذلك، بينما نجد الإسلاميين، أو الحركات الإسلامية، تجبن عن المراجعة خوف انكشاف الخطأ، كما تجبن عن الإقدام، خوف الوقوع في الخطأ، وتتلكأ، حتىٰ تأتي في الزمن الأخير، بعد أن تتبلور الأمور، ويفوت الوقت، الذي كان يمكن أن يساهم بتحويل المجرىٰ للأحداث، وتغيير الظروف. . وحالنا في ذلك يشبه إلىٰ حدٍّ بعيد فقهاء عصور الانحطاط ـ التي لم نخرج منها بعد كما ينبغي ـ الذين كانوا يختلفون في بحث مندوب أو مسنون، فيفوّتون أداء الواجب. . وهٰكذا حال مفكري عصور التخلف، فهم نسخة عن عقلية فقهاء التخلف. .

وعلىٰ أحسن الأحوال، نجد بعض الأصوات والعناوين الإسلامية الخاصة، والمختارة من «الآخر»، تُستدعىٰ إلىٰ ندوات لا علاقة لها بتحديد أهدافها، ومقاصدها، أو رسم محاورها، أو استدعاء أشخاصها، أو التحكم بنتائجها، بحيث تُحدّدُ لها المجالات، والقضايا التي عليها أن تتحدث فيها، أو تعالجها. . وبالإمكان القول:

إن الأحداث تُصنع بعيداً عنا، ونُستدعىٰ لها في الوقت المناسب، لنصبح فرسانها، ولا تزال توظفنا دون أن تكون عندنا القدرة لنوظفها لمصلحة الإسلام والمسلمين، وتصفىٰ الحسابات بدمائنا، ونُستعار للمشاركة في معارك، لا ندري أسبابها الحقيقة، ولا نملك التحكم بنتائجها. . بل قد نقاتل بالنيابة عن أعداء قضيتنا. .

القضاء علىٰ مفهوم الأخوة الشامل:

□ لقد قضت بعض التنظيمات علىٰ مفهوم الأخوة الشامل، وضيقته، وضاقت به، إلىٰ درجة ساهمت معها، بشكل سلبي، ببعثرة وتفرق المسلمين. . ولئن كانت عصمة عموم الأمة أُلغيت بإغلاق باب الاجتهاد،

والحجر علىٰ حرية الفكر، وشيوع الاستبداد السياسي، الذي كان وراء ذٰلك، بحجة عدم الأهلية، علىٰ ما في ذٰلك من مناقضة للشرع والعقل، فإن انغلاق بعض التنظيمات الإسلامية علىٰ نفسها، والانكباب علىٰ وجهتها، جاء ثمرة طبيعية لتلك العقلية، التي توهمت أنها تقدم الحل، وتمتلكه، دون غيرها، فعمقت الأزمة، وكرستها.. ذٰلك أن بعض هٰذه التجمعات التي جاءت للعلاج، حملت أمراض الأمة، وعللها، وخللها، ولم تستطع أن تتمثل الإسلام، وتغري به، فغابت في تراثها، تبدي فيه وتعيد، لعجزها عن الامتداد والتجدد، وانفصلت عن هموم الأمّة، وتحولت من صناعة التاريخ إلىٰ قراءته، مكتفية بترديد أمجادٍ لم تصنعها، فأصبحت طائفة خارجة عن نطاق هموم الأمّة.

عدم القدرة علىٰ تمثل وإبراز الولاء للفكرة:

□ وإصابة أخرىٰ، لا تقل في أبعادها، ومخاطرها، ونتائجها السلبية، عن الإصابات السابقة التي لحقت بالعمل الإسلامي، وكانت سبباً في محاصرته، وعجزه عن النمو والامتداد، والإسهام في التحويل الثقافي المأمول، وهي: عدم القدرة علىٰ تقديم نماذج سليمة وعملية، للولاء للفكرة والرسالة، تُغري بالاتباع، وتشكل الرد الطبيعي علىٰ الولاءات البدائية للوطن، والقوم، والقبيلة، والأسرة، وسائر الولاءات الإقليمية الأخرىٰ، أو الولاء للأشخاص، والدوران في فلكهم، مما يسود العالم الإسلامي اليوم..

وفي ذٰلك ما فيه من الارتكاس في البدائية، والمساهمة السلبية بتقطيع أوصال الأمة المسلمة الواحدة، وبعث لكل الأمراض التاريخية، ونخوات الجاهلية، التي وضعها الرسول عليه الصلاة والسلام تحت قدميه، فأصبحت بانتكاستنا، وانقلابنا علىٰ أعقابنا، فوق رؤوسنا..

وكثيراً ما اعتُمدت تلك الولاءات البدائية، معايير للتقويم، والقيادة، ومقاييس للقبول، والرفض، والتجميع الحزبي الأمر الذي فوّت علىٰ الحركة الإسلامية، الكثير من المواهب، والقدرات القيادية، وحال بينها وبين

الإنجازات المقدورة للعمل الإسلامي بشكل عام. . فكما أن الروح الحزبية كانت سبباً في حماية الضعف، وتضييق مفهوم الأخوة الإسلامية الشامل، وإقامة أجسام منفصلة في داخل الأمة الإسلامية، حرمتها من الكثير من الكفاءات والطاقات، وجعلتها تدور في فلك الأشخاص، وتقدم الولاء للتنظيم بدل الولاء للفكرة والرسالة، فكذلك جاءت الجاهليات الجديدة، في الولاء للقوم، والوطن، والجنس، والعشيرة، المقنَّعة بشعارات إسلامية، لتمحق ما بقي من معاني الأخوة الإسلامية، وتهدم معاني الولاء والنصرة للفكرة.

فلم يقتصر الأمر علىٰ اعتقاد كل تنظيم أنه جماعة المسلمين عمليّاً، وإن تنكر له نظريّاً، وما يترتب علىٰ هٰذا الاعتقاد من مخاطر وأحكام شرعية، بل أضيف إلىٰ ذٰلك عامل الجغرافيا أيضاً، إمعاناً في التحجر والانغلاق، وإن لم نعترف بذٰلك. . فحلّ الجمود محل التجديد، والانفعال محل الفاعلية، ورد الفعل محل الفعل.

فكر المواجهة:

□ وقضية أخرىٰ لا تقل خطورة وأهمية عمّا مضىٰ، وهي تكمن في الفكر الذي أفرزته بعض تلك الجماعات، من خلال ما تعرضت له من أزمات، ومحن، ومطاردات، مما يمكن أن نطلق عليه: «فكر المواجهة» أو «فكر الأزمة»، الذي جاء ثمرة لظرف وزمن معينين. . وقد لا تكون المشكلة في فكر الأزمة، لأنه استجابة طبيعية للمواجهة، لٰكن المشكلة كل المشكلة في العقلية التي حاولت تعميمه، وتخليده علىٰ الزمن، ولم تستطع أن تضعه في الزمان والمكان المناسبين له، وتوهمت أنه يمكن أن يصلح لكل الأحوال، فعجزت عن تطوير نفسها، وفكرها، ووقعت في الشراك التي نصبتها لنفسها، وشارك في دفعها إليها عدوّها.

وقعت في أزمة الفكر، وعدم القدرة علىٰ الإنتاج الفكري الملائم والمطلوب للمرحلة، بسبب فكر الأزمة. . وبذٰلك نشأ كثير من الأفراد المنتمين إلىٰ بعض هٰذه الحركات، نشأة غير سوية، نتيجة التربية غير السويّة،

الأمني في داخله، حتىٰ اصبحت فترات الحوار والاسترخاء هي الاستثناء، وفرصة للاستعداد لجولة جديدة. . وهٰذا بطبيعة الحال، جعل مواصفات القيادات، ومؤهلاتها، مواصفات شخصية أفرزتها الأزمة، من عدد سنوات السجن، والاعتقال، والمطاردة، والمواجهة، والثبات، دون حرية القدرة علىٰ اكتشاف المؤهلات، والصفات الموضوعية للقيادة في كل عصر ومصر. .

وقد تكون المشكلة الأخطر ـ كما قدمنا ـ العكوف علىٰ فكر الذات، الذي كان إفراز عصر معين، ومشكلات معينة، واعتماده لكل المراحل، وبذٰلك أغلقت حتىٰ باب الاجتهاد الفكري كما أغلق غيرها باب الاجتهاد الفقهي، للحجج نفسها. . وكما نقل القدسيةَ بعضُ متأخري الفقهاء، من الكتاب والسنّة إلىٰ أقوال الفقهاء، فكذٰلك نقل الصوابيةَ، والحقَ المطلق، بعضُ المتحزبة، إلىٰ أقوال الزعماء والقادة.

ولسبب أو لآخر، ترىٰ الهاجس الأمني ما يزال يطارد الكثير من الإسلاميين في كل موقع، ويكبل تصرفاتهم، ويحكم سلوكهم، ويمنع عنهم الحياة الطبيعية، والأحكام الصحيحة علىٰ الأشياء، ويدفع الكثير منهم لمحاولات القفز من فوق السنن التي شرعها الله، لتحقيق الإنجازات الموهومة، وقد تصل الأمور إلىٰ المراهنة علىٰ وسائل غير مشروعة، كما أسلفنا.

عدم تقدير قيمة التخصص:

□ ومن الأمور الهامة التي غابت عن إدراك الكثير من الجماعات والتنظيمات الإسلامية، وأصابت منها مقتلاً: عدم تقديرها لأبعاد وقيمة الاختصاص، وتقسيم العمل، بالقدر المطلوب، ودور ذٰلك في أداء وظائف

المجتمع، وضرورته للقيام بأعباء الاستخلاف الإنساني. . لقد غابت مفهومات فروض الكفاية، وأبعادها، وعلاقتها بمبدأ تحقيق الاكتفاء الذاتي للأمة ـ كما أسلفنا ـ حتىٰ تخرج من عهدة التكليف، وسقوط الإثم عن باقي أفراد الأمة، وكيف أن فروض الكفاية ـ التي تعني تحقيق الكفاية في الاختصاصات المتعددة ـ تصبح فروض عين لمن اختارها، ونذر نفسه للقيام بها. . وبذٰلك افتقدت الجماعات الكثير من القدرة علىٰ اعتلاء المنابر أو المواقع الفاعلة، وعجزت أن تجعل الاختصاص في خدمة العقيدة والهدف، حتىٰ علىٰ مستوىٰ الجماعة نفسها، إن لم نقل: علىٰ مستوىٰ الأمة، مما عزز تخلفها، وعزلتها، ووضعها خارج إطار الحياة الفاعلة، في الوقت الذي نرىٰ فيه العالم كله، يتجه نحو دقة الاختصاص، وتقسيم العمل، ويدرك دوره في البناء الحضاري، الأمر الذي أدَّىٰ إلىٰ إعادة ترتيب شبكة العلاقات الاجتماعية والنسيج الاجتماعي للأمم كما أدىٰ إلىٰ إتقان العمل، والقدرة علىٰ الإبداع، وزيادة الإنتاج، وضرورة التكامل المجتمعي. . ولعل من مظاهر عدم تقدير قيمة التخصص أن بعض هٰذه الجماعات، لم تر إلّا طريقاً واحداً للدعوة، ووسيلة واحدة للعمل الإسلامي، الأمر الذي حمل بعض أفرادها علىٰ مغادرة مواقع الاختصاص في الجامعات، باسم التفرغ للدعوة والعمل الإسلامي. . كما قادها ذٰلك إلىٰ التمحور حول القائد الملحمة، الذي يعرف كل شيء، ويحسن الكلام في كل شيء.

ونظرة واحدة علىٰ بعض المؤتمرات، والنشاطات، أو كلّها، والأدبيات الفكرية لهٰذه الجماعات في ذٰلك، نجد أن الكثير من عناوين المؤتمرات، والندوات، تتغير، لٰكن المتحدثين هم أنفسهم، والمضامين هي نفسها، تصلح لكل مجال، وكل عنوان.

إن بعض المؤسسات المالية، أو الإعلامية، أو التربوية، أو الثقافية، التي بدأت تخط طريقها، كتجارب إسلامية في عالم المسلمين، تشكو وتفتقر اليوم إلىٰ المتخصصين، القادرين علىٰ إدارتها، وقيادتها، لذٰلك نرىٰ الكثير منها يستعين بمتخصصين من الخارج الإسلامي ـ إن صحّ التعبير ـ علىٰ الرغم

من كثرة المتحمسين الإسلاميين الذين لا يغني حماسهم في مجال الاختصاص شيئاً، والذين قد يسيئون من حيث يظنون أنهم يحسنون.

الضيق بالرأي الآخر:

□ ومن الإصابات التي لحقت بالعقل المسلم، وأفقدته القدرة علىٰ الحوار، والمناقشة، والمناظرة، والمفاكرة، والشورىٰ: الضيق بالرأي الآخر، ولو جاء من الداخل الإسلامي، علاوة عن الرأي الوارد من الخارج الإسلامي، والتوهم بأنه وحده يمتلك الحقيقة المطلقة، والصواب المحض، في معرفة مراد الله في القضايا المطروحة للاجتهاد، ولذٰلك فالآخرون يجب أن يكونوا نسخة مكررة عنه (!) وفي ذٰلك ما فيه من مناقضة لطبيعة الخلق، وإمكاناتهم، وتفاوت مواهبهم وقدراتهم في النظر إلىٰ الأشياء، وفوارقهم الفردية التي لا بد من وجودها لتستقيم الحياة، وتنشأ شبكة العلاقات الاجتماعية، إذ لا يمكن أن نتصور عقلاً ولا واقعاً، أن يكون الناس نسخة مكررة عن بعضهم.

إضافة إلىٰ العجز عن استيعاب التراث الفكري والفقهي التاريخي كله، حتىٰ في العصور المشهود لها بالخير، حيث نرىٰ اختلاف الصحابة في الرأي والاجتهاد، واختلاف كرام التابعين.. إلىٰ درجة وصل معها الأمر لأن يكون لبعض الصحابة رأي آخر غير رأي الرسول ﷺ، وسؤاله في كثير من المواقف عما اتخذه من رأي، وهل هو من قبيل الوحي الذي يجب أن يُتلقىٰ بالقبول، أو من قبيل الرأي القابل للمناقشة والحوار، للوصول إلىٰ الأصلح للمسلمين؟ وقد سجلت كتب السيرة والسنّة الحوادث الكثيرة التي نزل فيها الرسول ﷺ، وهو الموحىٰ إليه، علىٰ رأي أصحابه أو بعضهم، وما ذٰلك إلا لتأصيل قواعد الحوار وتبادل الرأي.

إضافة إلىٰ ما في كتب الفقه المقارن، من مناظرات، لو تمثلناها، تعتبر كافية لتمرين العقل المسلم اليوم علىٰ الإبصار، والتأكد أن للحقيقة أكثر من وجه، وأن جوانب منها قد تنكشف لإنسان وتغيب عن آخر، وأن الزمن قد

يحمل لنا بعض الأضواء التي تكشف جوانب إضافية منها.

وما لم يتمرن الذهن المسلم علىٰ الحوار، ويمتلك القدرة علىٰ قبول الرأي الآخر، الذي أقل ما يقال فيه: إنه يمثل حق الآخرين في النظر، الذي هو حق لنا، فسوف يُحرم الكثير من الخير، وتسود أجواء العمل الإسلامي ضروبٌ من الإرهاب الفكري، والتعصب المذهبي، والطائفي، والحزبي، التي تنتهي به إلىٰ العجز عن التعامل مع الواقع، والتأثير فيه.

العجز عن استنبات قيادات متجددة:

□ ومن الإصابات الخطيرة التي لحقت بالحركات والتنظيمات الإسلامية: عجزها، وعدم قدرتها علىٰ استنبات قيادات متجددة، ومعاصرة، بالقدر المأمول، تضمن القدرة علىٰ التواصل.. وغالباً ما تتوهم، أن المحافظة علىٰ استمرارية القيادات، حتىٰ ولو أصبحت عاجزة، نوع من الوفاء، الأمر الذي جعلها تتجمد، وتتحنط، وتتكلس، وتتحول لتقتات بتاريخها، وإنجاز القادة السابقين.. علماً بأن اختيار القيادة ومدتها وتجديدها أمور اجتهادية تحكمها المصلحة العامة، وليس في ذٰلك نص ديني محكم.

وقضية أخرىٰ: إنها لم تستطع تجاوز الارتكاز علىٰ الفرد والشخص، إلىٰ الاعتماد علىٰ المؤسسة القادرة علىٰ الامتداد، وإبصار المستقبل، ضمن تأطير ثابت لمسيرتها.

ولعل من أهم الأسباب التي كانت وراء عدم بروز المواهب، واكتشافها، وتقدمها، حيث تستحق، بل لعل العكس هو الصحيح، إلّا من رحم الله: أن المطلوب من الكل أن يعيش علىٰ عقل القائد، ويكون نسخة مكررة عنه، فإذا حاول أن يفكر، أو يُبصر بعض الآفاق، لا يلبث أن يُحاصر، ومن ثم لا بد له أن ينزف، أو يبتعد، لأن الجماعة أصبحت تضيق به، لأنها تريده أن يبقىٰ رقماً في خانة القائد.

العجز عن إنتاج قيادات فكرية:

□ وقد يكون من الإصابات الخطيرة التي انتهت بالكثير من التنظيمات

الإسلامية إلىٰ الركود، والاستنقاع، وعدم القدرة علىٰ التجدد، والإدراك للواقع، وكيفية التعامل معه من خلال رؤية إسلامية شاملة:

أن هٰذه التنظيمات، في معظمها، إن لم نقل كلها، انتهت إلىٰ لون من القيادات، التي ظنت أن القيادة تعني الإشراف الإداري، والتي يمكن وصفها بالقيادات الإدارية ـ إن صحّ التعبير ـ وعجزت عن إنتاج قيادات فكرية، ذٰلك أن هٰذه القيادات الإدارية، بطبيعتها، تبقىٰ عاجزة عن تحضير المناخ لنمو قيادات فكرية.. فهي بطبيعتها الإدارية الرتيبة، تضيق ذرعاً بأي تطوير، أو تفكير، أو تغيير، وكل الذي يعنيها: الإبقاء، والإصرار علىٰ صورة الماضي، للمفكرين الروّاد الأوائل، علىٰ الرغم من تغير الظروف، والأحوال، والمشكلات، الأمر الذي يستدعي تغير الحلول، واختيار الوسائل المناسبة لمحاكاة العصر، من خلال الواقع، وما استجدّ فيه من قضايا ومشكلات.

وعلىٰ أحسن الأحوال، يمكن وصف تلك القيادات بأنها: أغلفة لحفظ تاريخ الجماعات.. وهٰذا الاستمرار الرتيب استدعىٰ بطبيعة الحال؛ تقديم الخطباء علىٰ الخبراء والفقهاء ـ بالمعنىٰ العام لكلمة الفقه ـ وشيوع زعامة الخطبة، القادرة علىٰ مخاطبة وإثارة الجماهير، والعوام، وتحريكهم، وزيادة توثبهم الروحي، وإذكاء عواطفهم، أكثر من قدرتها علىٰ تزكية أعمالهم، وتقديم البرامج والأوعية الفكرية لحركة الأمة، أو الجماعة، أو التنظيم، التي تمكنها من استصحاب الإسلام، وقيمه، في كل المواقع المؤثرة.

وقد لا نستغرب إذا رجعنا لأدبيات بعض الحركات الإسلامية، أن نجدها منذ أكثر من نصف قرن تقريباً، تراوح في مكانها، وتعيد قراءة نفسها، وتكرر طروحاتها، وتعيش علىٰ أفكار روّادها الأوائل، وتحتمي بهم، لتستر عجزها عن العطاء المأمول.

الانشغال بحماية المرأة عن الاشتغال بتنمية شخصيتها:

□ ومن الإصابات الخطيرة، التي لحقت بالتنظيمات والحركات الإسلامية ـ إن لم تكن أخطرها ـ: أن شخصية المرأة المسلمة، بأبعادها التي

رسمتها مرحلة السيرة، والخلافة الراشدة ـ فترة القدوة ـ لم تتكامل، ولم تأخذ موقعها، في مؤسسات العمل الإسلامي: مبايعة، ومهاجرة، وعالمة، وشاعرة، وراوية، وخطيبة، وطبيبة، ومجاهدة، وممرضة، وآمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر..

وبقيت تعيش ضمن إطار هوامش ضيقة، ومعزولة عن المجرىٰ العام للحركة الإسلامية، ولم تستطع الحركة التحرر من التقاليد الاجتماعية، التي التبست بمفاهيم الدين، ومن ثمَّ تحرير المرأة، باسترداد إنسانيتها، ضمن إطار التعاليم الإسلامية.

وكان همّ الحركات الإسلامية كله، منصرفاً إلىٰ المرابطة علىٰ الحدود، والدفاع عن صورة المرأة، وحمايتها، أكثر من الاشتغال بتنمية شخصيتها، وتربيتها، وتدريبها علىٰ الحياة الإسلامية، وإبرازها كأنموذج يثير الاقتداء والتأسي.

لقد انشغلت تنظيمات العمل الإسلامي بالدفاع عن المرأة، أكثر من اشتغالها بإخراج المرأة المسلمة، بأبعادها المطلوبة، إلىٰ حيز الواقع، ولم تستطع أن تجعل الإسلام خياراً للمرأة، وتقيم لذلك المؤسسات، والروابط، والاتحادات، والمؤتمرات، والمجاهدات الميدانية، التي تبرز من خلالها المرأة المستقلة، ذات الحقوق والواجبات، وإنما بقيت في غالب الأمر، في إطار من التبعية للزوج، أو الأخ، أو الأب الذي اختار الإسلام.

ولا بد أن نعترف أن وضع المرأة، في كثير من بيوت رجال الدعوة، والحركة الإسلامية ـ إلّا من رحم الله ـ لم يختلف عن واقعها في البيوت الأخرىٰ، اللهم إلا في الشكل الخارجي، لأن المواريث الثقافية، والتقاليد الاجتماعية واحدة وإن اختلفت العناوين، أو تفاوتت درجة المعارف الشرعية، إضافة إلىٰ أن المساحة المسبقة، التي رُسمت لحركة العقل المسلم، وفُرضت عليه، منذ أكثر من سبعة عقود تقريباً من الزمان، لم تخرجه عن نطاق الفكر الدفاعي، الذي اهتم ـ في غالب الأحيان ـ بالشكل علىٰ حساب المضمون، فبقيت معارك:

الحجاب، وتعدد الزوجات، والطلاق، ونصيب الإرث، والشهادة، هي الخارطة المفروضة، التي تستنفد الطاقة، وتحدد النشاط، وتتحكم بالتفكير.. حيث لا نزال نبدي، ونعيد، في هٰذه المساحات، ولم نستطع أن نغادرها إلىٰ المواقع الفاعلة، في بناء المرأة المسلمة، البناء السليم، الذي يقتضي الستر، والالتزام بشريعة الله، وتعاليم الإسلام، وتحريرها من التقاليد الاجتماعية، التي تفرض عليها باسم الإسلام، وما أكثرها من الإسلام.

لذٰلك، كانت المرأة، ولا تزال، من الثغور المفتوحة، والأعضاء المعطلة، في الجسم الإسلامي، يتسلل من خلالها دعاة التحلل، والفساد في الأرض، باسم تحرير المرأة.. وكان الأولىٰ، أن يحمل لواء حركات التحرير الإسلاميون، ويكسروا القيود التي فرضتها التقاليد الجاهلية، والوراثات الثقافية المغشوشة، حيث لا تزال المرأة إلىٰ اليوم: يعطيها الله، ويمنعها البشر.

عدم الإفادة من الفرص المتاحة:

□ ومن الإصابات الخطيرة التي لحقت بالحركات الإسلامية بشكل عام، وبسبب من فكر الأزمة الذي أفرزته المحن الكثيرة، وضغوط المجتمع من حولها، أنها لم تحسن الإفادة من الفرص الكثيرة المتاحة، وتحقيق كسب أكبر للقضية الإسلامية، أخذاً بسنّة التدرج، والتعبد بالاستطاعة والوسع، مما انتهىٰ بها إلىٰ مواقف، أقرب للمجازفة، منها إلىٰ التعقل، والرشد، وكان الخيار الذي أبصرته وطرحته: إما الالتزام بالأحكام الإسلامية كلها، أو تركها كلها، تحت شعارات: «خذوا الإسلام جملة أو دعوه».. وهٰذا الشعار، علىٰ أهميته وضرورته في مجال الفكر والعقيدة، حيث نعلم أن الذي ينكر شيئاً مما هو معلوم من الدين بالضرورة، أو من فروع الدين الثابتة، يكفر بالإسلام.. لٰكن الشعار، يبقىٰ محل نظر، من الناحية العملية، ومراحل تنزيل الأحكام علىٰ النّاس، والالتزام بأحكام الإسلام، علىٰ مستوىٰ المجتمعات، المنسلخة عن الإسلام، في محاولة إعادتها إلىٰ الالتزام به، حيث تتاح فرص للكسب الإسلامي، في مرحلة معينة، ولا تتاح آفاق أخرىٰ، فهل يجوز أن نفوّت

الفرص المتاحة، ونتجاوز سنّة التدرج، بأخذ النّاس بأحكام الإسلام شيئاً فشيئاً، بعد رحلة الانسلاخ عن الإسلام، كنوع من التدرج في التطبيق والتربية، وليس التشريع؟ ذلك أن هٰذا الأمر حمل الكثير من الخسائر، والمواجهات، والأزمات التي كان بالإمكان تحويلها إلىٰ كسب للقضية الإسلامية، وحلول للمشكلات، بدل تأزيمها.

الحكم بجاهلية المجتمع:

□ ولعل من مظاهر فكر الأزمة أيضاً، الذي انتهىٰ ببعض التنظيمات، إلىٰ أزمة فكر: الحكم علىٰ مجتمعات المسلمين اليوم، بأنها مجتمعات جاهلية، لانتقاض بعض عرىٰ الإسلام فيها، والتي لا يد لجمهور المسلمين به، ذلك أن الجمهور ما زال يدين بالإسلام، وينتمي إليه، وإن كان بعض المتنفذين، أو بعض حكام الاستبداد السياسي، يمارسون ممارسات بعيدة عن الإسلام.. والأمة، لسبب أو لآخر، لا تستطيع مواجهتهم، وإيقاف تسلطهم، الأمر الذي حمل بعض الجماعات علىٰ الحكم القاطع والعام.. فإذا لم تكن جوانب الحكم والتشريع، كلها بما أنزل الله، فالمجتمع غير إسلامي.. وغير الإسلامي، هو الجاهلي.. والجاهلي له أحكامه، الأمر الذي دفع ببعض الشباب، الذين تربوا علىٰ هٰذه الثقافة، إلىٰ ممارسات متهورة، محظورة شرعاً.. ولا يُستبعد أن تكون بعض أجهزة الأمن، من وراء استغلال حماس الشباب، ودفعهم باتجاه بعض الممارسات المتهورة، لتكون ذريعة للبطش بهم.

والحقيقة، أنه لا بد من التأكيد: أننا لا يمكن بحال من الأحوال، أن نعتبر المجتمعات القائمة في بلاد المسلمين اليوم، مجتمعات إسلامية بإطلاق، وهي تُحْكَم بغير شرع الله.. ولا يمكن بالتالي اعتبارها جاهلية، لأنها تدين بالإسلام، ولا تتنكر له.. وإنما يمكن أن نسميها مجتمعات مسلمين، نسعىٰ من خلال الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وتبصيرها بالإسلام، والأخذ بيدها إليه شيئاً فشيئاً، لتصبح مجتمعات إسلامية.

إن الحكم علىٰ مجتمعات المسلمين اليوم بأنها مجتمعات جاهلية، أورث اعتقاداً داخلياً عند كل جماعة بأنها هي الإسلام، أو هي المتحدث الرسمي باسمه، وما عداها جاهلي.. وأنها جماعة المسلمين، وليس جماعة من المسلمين، عملياً، وإن أنكرت ذٰلك نظرياً.. حتىٰ إن الكثير من الجماعات التي ضيّقت مفهوم الأخوة الإسلامية الشامل، لم تطق توسيع دائرة المشاركة، والخروج بالدعوة، من نطاق التنظيم والجماعة، إلىٰ نطاق المجتمع والأمة، وإحداث التفاعل، بينها وبين الإسلام، مما جعل منها أجساماً منفصلة عن جسم الأمّة، ومعاناتها، وأهدافها.

عدم الفقه بخطاب التكليف:

□ من المشكلات الحقيقية، التي يعاني منها العقل المسلم اليوم بشكل عام، والكثير من مؤسسات، وتنظيمات العمل الإسلامي، بشكل أخص، عدم فقه وإدراك الأبعاد الحقيقية لخطاب التكليف، في الكتاب والسنة، والظروف، والشروط، والملابسات، التي أحاطت بتنزيل النص، وتجسيده في الواقع العملي، في فترة القدوة، ومدىٰ الاستجابة المطلوبة في كل حال، وطبيعة التدرج في التنزيل والتطبيق، والفرق بين مرحلتي الدعوة والدولة، وارتباط ذٰلك بالاستطاعة والوسع من جانب، وفهم واقع المجتمع والأفراد المخاطَبين، وتأهيلهم للتلقي، من جانب آخر، ليخاطب للناس علىٰ قدر عقولهم حتىٰ لا يكذب الله ورسوله.

ومن المعروف أن فقه، واستيعاب خطاب التكليف، والإحاطة بظروف تطبيقه يعطي للفرد المسلم آفاقاً وأمداءً، للدعوة والعمل الإسلامي تمنحه الحركة في كل الظروف، ابتداءً من مرحلة الاستضعاف، وما يمر به الفرد المسلم من الشدة والضيق، التي يمكن أن يحكمها قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، وانتهاءً بأقصىٰ حالات القوة والتمكين في الأرض، حيث تصبح وظيفة الدولة الإسلامية ومسؤوليتها: حماية حرية الاختيار، والدفاع عن حرية التدين، والانتصار لذٰلك في العالم كله، التي يحكمها تكليفه تعالىٰ بقوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾

[البقرة: ١٩٣]، وما بين التكليفين من المجالات المتاحة، ما يسع ظروف الحياة، وملابساتها وواقع المجتمعات في المراحل كلها.

إن عدم فقه أبعاد الخطاب، وتوافقه مع قدرات وإمكانات التنزيل، أوقع العمل الإسلامي، والعاملين في الكثير من المضاعفات، والإصابات، حيث يكلفون أنفسهم بما لم يكلفهم الله به.

- وإصابة أخرىٰ، قد لا تقل أهمية وشأناً، من حيث ممارساتها ونتائجها، في حالة عدم فقه أبعاد خطاب التكليف، ذٰلك أن من خطاب التكليف، ما هو واقع بمقدور الفرد ومسؤوليته واستطاعته، كالصلاة والصوم والحج.. والمسالك الأخلاقية في نطاق الأسرة والمجتمع.. إلخ وهٰذا غالباً ما يكون في مرحلتي الدعوة والدولة معاً، ومنه ما يخص الحاكم المسلم، من الحكم بما أنزل الله، وإعلان الحرب، والجنوح إلىٰ السلم، وإقامة الحدود، وتشريع التعزيرات، تلك الأمور، التي لا يمكن أن يُتصور عقلاً، ولا شرعاً، أن يخاطَب بإنفاذها المسلمون أفراداً وجماعات، قبل الدولة والتمكين.. لذٰلك فالخلط والتداخل بمحل الخطاب، وعدم تحديد المسؤول عنه بدقة، يوقع العاملين بمضاعفات ومخاطر، تمارس تحت شعارات الدين، وهي ليست من الدين، فمثلاً قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا..﴾ [المائدة: ٣٨]، ماذا سيكون الحال، لو اعتقد الفرد، أو التنظيم، أنه المخاطَب بهٰذا، وبدأ الأفراد يعتقدون، أن ذٰلك من مسؤوليتهم، ويمارسون الأقضية علىٰ الناس، ويعطون لأنفسهم، حق تطبيق العقوبات، والحدود، التي لها شروطها وتحرياتها، وخصائص ومؤهلات من يحكم فيها؟

وقد لا نستغرب أن تتوهم ذٰلك بعض الجماعات، ويفتي لها بعض مسؤوليها - غفر الله لهم - أنه بغياب الدولة المسلمة، يحق للأفراد القيام بوظائفها، وتنفيذ العقوبات وإقامة الحدود!؟.

في الوقت الذي نرىٰ فيه بعضهم الآخر، يفتي بتعطيل الأحكام، الواقعة ضمن مسؤوليته، حتىٰ تقوم الدولة الإسلامية.. وكلا الفريقين يعيش علىٰ الأرض الإسلامية نفسها، ويعلن الالتزام بالإسلام.

ونحن هنا لا نقول: بأن الفرد المسلم مُعفىٰ من خطاب التكليف الذي يخص الحاكم بإطلاق، وإنما نرىٰ: بأن نصيب الفرد من خطاب التكليف هـٰذا، ليس القيام بوظيفة الحاكم، وإنما العمل والدعوة، والتزام الوسائل المشروعة، والتحضير لإقامة السلطة المسلمة الحاكمة، التي يناط بها تنفيذ الأحكام، والاستجابة لخطاب التكليف، وليس المطلوب من الفرد تنفيذ تلك الأحكام. لذٰلك نعتقد أن الكثير من الإصابات، التي لحقت بالعمل والعاملين للإسلام، إنما كانت بسبب مسالك العنف، واعتماده وسيلة للتغيير، واعتباره من التكاليف الشرعية، الأمر الذي جاء نتيجة لعدم الفقه بأبعاد خطاب التكليف، ومراحله، ومحله، ومسؤولييه، سواء في ذٰلك الاستطاعة، وفهم طبيعة المجتمع، أم كان مدىٰ نصيب الفرد والدولة المسلمة من الخطاب.

عدم تجاوز مرحلة التعميم:

□ ومن الإصابات البالغة، التي حالت دون الوصول إلىٰ المواقع الفاعلة، وإحداث التفاعل بين الأمة والإسلام: عدم القدرة علىٰ تجاوز مرحلة التعميم في الخطاب الإسلامي ـ والتعميم يعني لوناً من العامية ـ وامتلاك القدرة علىٰ ترجمة القيم، والمبادئ العامة، إلىٰ خطط وبرامج، تشكل الأوعية الشرعية لحركة الجماعة أولاً، ومن ثمّ حركة الأمة في النهاية، حيث لا يزال الكثير منّا يظن بأن المبادئ والقيم هي البرامج.. فإذا جاءت تمارس الحياة الإسلامية في الاقتصاد، والإعلام، والتربية، والسياسة، والاجتماع، وقفت عاجزة عن الحركة، واضطرت إلىٰ الاستعانة بالآخرين الذين قد يكونون من الخارج الإسلامي، لتسيير دفّة أمورها..

لقد حرمت الحركات الإسلامية من الكثير من الكفاءات المقدورة، المذخورة في مجتمعات المسلمين، بسبب تحزبها، وانغلاقها علىٰ خاصّة نفسها، وعجزها عن استشراف المستقبل، وتطوير واقعها، وطرح برامجها، إلىٰ درجة أنها لم تستطع الاحتفاظ بكفاءاتها الخاصة، وأقامت من الحزبية أسواراً تحمي الضعف، والخطأ، فوقعت بالكثير مما تتنكر له.

تحكم العقلية الحزبية:

□ ومن المخاطر والإصابات، تحكم العقلية الحزبية، والتي سقطت في حمأتها بعض الجماعات والتنظيمات، وما أفرزته من قناعات، أعجزتها عن الإفادة من الكفاءات الموفورة في العالم الإسلامي، خارج جماعتها، وحرمتها من الموارد الثقافية المتعددة، من غير إنتاجها، مما جعلها تعيش علىٰ إنتاجها الخاص، الأمر الذي أدىٰ إلىٰ عزلتها الثقافية، والفكرية، وفقر مكتبتها، ودفع ببعض أفرادها غير المؤهلين، إلىٰ التطاول علىٰ تناول مسائل فكرية، وثقافية خطيرة، بدون ثقافة نضيجة، والتعرض لقضايا فقهية هامة، بدون كسب شرعي، يمكّن من النظر والترجيح، مما أدّىٰ بها إلىٰ الخروج علىٰ أدب المعرفة، وتقدير قيمة العلم، وأهله، وأهمية التخصص. بل لعل الأسوار الحزبية، السميكة، كانت لازمة في نظر بعضهم، للاحتفاظ بالرصيد البشري من الأتباع، وبالإقطاعات البشرية، مما أدىٰ إلىٰ حماية الضعف، والعجز، وأحياناً الاعوجاج، الأمر الذي انتهىٰ إلىٰ تكريس الأخطاء، وتشكيل قناعات عقلية مغشوشة والدفاع عنها، والجهاد في سبيلها، بدعوىٰ حماية الصف، فبقيت كثير من القامات قصيرة، رغم محاولات التطاول.

الطائفية الجديدة:

□ وقد تكون أخطر الإصابات اليوم علىٰ الإطلاق: انقلاب بعض الجماعات والحركات الإسلامية، إلىٰ طوائف منفصلة عن جسم الأمة، وأهدافها، وشعورها بتميزها، واستعلائها، وأنها الناطق باسم الإسلام، والممثل الشرعي والوحيد له، مما جعلها تنظر للآخرين بنوع من الارتياب، والإدانة، والاتهام، الأمر الذي أخرجها من مهمتها في الهداية، والترشيد، وإلحاق الرحمة بالنّاس، إلىٰ نطاق المواجهة، والصراع، والحكم بالتجريم، والتأثيم.. وقد أحسن خصومها توظيف بعض المواقف، والتصرفات، لمصلحتهم، وإغراء الأمة بعداوتها، ومحاصرتها، حتىٰ وصل الأمر إلىٰ استنكار أصل وجودها، والتشكيك بأهدافها في مجتمعات المسلمين ـ فإذا كنا

جميعاً مسلمين، فما بال هٰذه التشكيلات المتميزة، التي تدّعي أنها هي التي تمثل الإسلام دون سواها؟!

وما لم تدرك الجماعات، والحركات الإسلامية، هٰذه الإصابة، وتسعىٰ لتمزيق الأسوار التي تُضرب حولها، بين حين وآخر، وتحسن العودة إلىٰ الأمة، والاندماج فيها، وتوسيع دائرة المشاركة، وفتح القنوات جميعاً، وتشكيل جبهات عريضة، للتواصل والاتصال، وتبرهن علىٰ أن مهمتها ـ كمراكز متقدمة ـ أن تحمل هموم الأمة، وتعمل في سبيل تحقيق أهدافها، والأخذ بيدها إلىٰ الخير، وأنها جزء من الأمة، متصل وملتصق بها، فسوف تُحاصر نفسها، قبل أن يحاصرها أعداؤها، وتعيش كطائفة منفصلة خارج مجرىٰ الحياة الفاعلة.

وبعد:

فهٰذه الأمور التي أتينا علىٰ ذكرها، والتي يصح أن نسميها إصابات تاريخية لا ندعي لها الاستقصاء، لا تمنع من أن الكثير من فصائل العمل الإسلامي اليوم، بدأت التنبه لها، والتحول عنها، ومحاولة مراجعة خطابها، وخططها، وتوسيع دائرة مشاركتها، وتقويم تجاربها، وتغيير مواقعها، بحسب الظروف والأحوال، وحققت في ذٰلك كسباً مقدوراً.. والمأمول أن تكون الإشارة إلىٰ هٰذه المخاطر، منبهات علىٰ طريق تقويم العمل الإسلامي، والارتقاء به، من الحسن إلىٰ الأحسن، ومن الصالح إلىٰ الأصلح.. ونستطيع بذٰلك الارتفاع إلىٰ مستوىٰ إسلامنا، خطاباً، وخططاً، وإلىٰ مستوىٰ عصرنا، إدراكاً، وقدرة علىٰ التعامل، وبسط الإسلام علىٰ أرجائه، وإحداث التفاعل الغائب بين الإنسان والإسلام..

والله من وراء القصد..

الدوحة ـ قطر
ذو القعدة ١٤١١هـ ـ أيار (مايو) ١٩٩١م

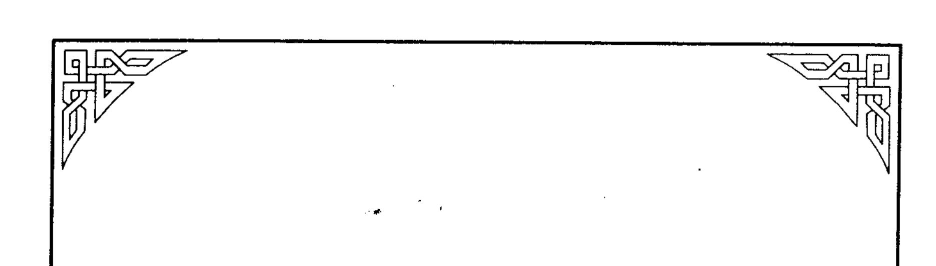
الفهرس

٥/١٠١٩

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

١٠٢١/٥

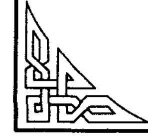


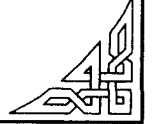
كيف نتعامل مع القرآن؟

في مدارسة مع

الشيخ محمد الغزالي

رحمه الله





٦/ ١٠٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب الذى تعاونت فيه مع الأستاذ عمر حسنة عن القرآن الكريم قد اتفقنا معا على أنه المسئول الأول عنه ماديا وأدبيا وتحرر ذلك للتصرف على أساسه

محمد الغزالى ١٦/١١/١٩٨٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾

[المائدة: ١٥ ـ ١٦]

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذي اصطفانا لوراثة الكتاب وحفظه من التحريف والنسيان، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وبذٰلك تحقق للأمة المسلمة، صاحبة الرسالة الخاتمة، امتلاك النص الإلٰهي السليم، دون سائر الأمم، الذي يؤهلها للوراثة الحضارية، ويمنحها إمكانية النهوض، كلما توفرت شروط وظروف الميلاد الأول، ذٰلك أن نهوض أي مجتمع مرهون إلىٰ حدٍّ بعيد بتوفير شروط وظروف ميلاده، وسوف لا يصلح آخر هٰذه الأمة إلا بما صلح به أولها، كما قال الإمام مالك رحمه الله تعالىٰ.

والصلاة والسلام علىٰ الرسول المعلم، الذي أُنزل إليه القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، فكانت رسالته الرسالة المعيار، وكانت أمته الأمة المعيار، وكانت سيرته في تجسيد القرآن في واقع الحياة المعيار والشاهد علىٰ الناس، وكانت الغاية من ابتعاثه إلحاق الرحمة بالعالمين، قال تعالىٰ: **﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾** [البقرة: ١٤٣].

وبعد:

فهٰذه الطبعة الثانية من كتاب: **«كيف نتعامل مع القرآن؟»**، الذي جاء ثمرة لمدارسة مع الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالىٰ وغفر له، في شهر رمضان ١٤٠٩هـ الموافق نيسان (أبريل) ١٩٨٩م في مدينة الدوحة بدولة قطر، أوكلنا أمر طباعتها ونشرها للمكتب الإسلامي، حيث طبعه لأول مرة المعهد

العالمي للفكر الإسلامي منفرداً ومشتركاً مع دور نشر أخرىٰ، وقد انتهت مدة العقد الموقع مع المعهد. ولاحظنا خلال الطبعات السابقة والمطروحة بالأسواق الآن، إقدام بعض دور النشر علىٰ طباعة الكتاب دون استئذان من صاحب الحق، الأمر الذي استدعىٰ إثبات وثيقة بخط الشيخ الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ صفحات الكتاب الأولىٰ، تبين صاحب الحق في نشر الكتاب، لعل بعض دور النشر تدرك عدم شرعية طبعاتها غير المأذونة تحت شتىٰ المعاذير والتذرع، والادعاء بالإذن العام لطباعة تراث الشيخ الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ، دون تمييز.

وكنا نود أن تتاح فرصة للتأمل والنظر والترتيب والامتداد ببعض المسائل وإعادة النظر في تصنيف القضايا الواردة في الكتاب مع الحفاظ علىٰ رأي الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، ولٰكن ـ لأمر يريده الله ـ آثرنا أن تبقىٰ الأمور المطروحة هٰكذا علىٰ هٰذا الترسل، الذي هو أقرب بطبيعته للمدارسة والحوار ونسق الخطاب القرآني في عرضه المتنوع.

والذي نقصد إليه من: «كيفية التعامل مع القرآن»، ليس آداب التلاوة، علىٰ ضرورتها وأهميتها في استحضار القلب، والتأهل للتلقي.. ولا ضبط مخارج الحروف وحسن التلاوة والتجويد، علىٰ الرغم من قيمة ذٰلك ولزومه لقارئ القرآن.. كما لا نقصد في كيفية التعامل، مصدرية القرآن الأولىٰ للتشريع، لأن هٰذا الأمر أصبح محسوماً ولم يبق فيه العلماء استزادة لمستزيد.. ولا مناهج الاستنباط للحكم التشريعي الذي بلغ فيه علماء أصول الفقه شأواً لا يدانىٰ.

إنما الذي نحاوله، أن يصبح القرآن مصدراً للمعرفة والثقافة والتربية، بحيث يكون إطاراً مرجعياً، وضابطاً منهجياً، لشعب المعرفة جميعاً.. أن يكون مصدراً للفقه الحضاري، يمكِّن المسلمين من استرداد دورهم في الشهادة علىٰ الناس والقيادة لهم إلىٰ الخير، وأن يحققوا خلود القرآن في واقعهم، ذٰلك أن الخلود يعني فيما يعني، التجرد عن حدود وقيود الزمان والمكان، أي تجريد النص من ظروف الزمان والمكان، والقدرة علىٰ التوليد وتحقيق الإنتاج القرآني في كل زمان ومكان.

أو بمعنًى آخر، امتلاك القدرة علىٰ النظر للنص القرآني من خلال الواقع والمعاناة التي يعيشها المجتمع، وتنزيل هٰذا النص علىٰ الواقع بحسب استطاعته، والنظر للواقع والمعاناة من خلال النص القرآني، ومحاولة تقويم هٰذا الواقع بقيم القرآن، إذ لا يمكن ولا يعقل أن تقتصر الأحكام علىٰ عشرات الآيات من القرآن أو مئات منه، حيث أوصل بعض العلماء آيات الأحكام إلىٰ خمسمائة آية، وكأن بقية الآيات لا حكم لها، وهي موجودة للتبرك والاقتصار علىٰ التلاوة فقط.

فأين أصول الفقه التربوي المستوحاة من آيات القرآن ومقاصده؟ وأين أصول الفقه الاقتصادي والاجتماعي والنفسي والإنساني؟

وهٰكذا نرىٰ أنه لا بد من تأسيس أصول فقه تربوي، وأصول فقه اقتصادي، وأصول فقه اجتماعي، وأصول فقه في مجال دراسة الإنسان نفسه علىٰ غرار أصول الفقه التشريعي والإفادة من مناهج وعطاء أصول الفقه التشريعي، في المجالات الأخرىٰ.

ونستطيع أن نقول وقد تحولت العناية بالقرآن إلىٰ حفظه وحسن ترتيله وطباعته، والاقتصار علىٰ ترداد فهوم السابقين فقط: إننا نعيش المرحلة التي أخبر عنها وحذر منها الصادق المصدوق من ذهاب العلم وشيوع الأمية العقلية، وأن الكثير من علل تدين الأمم السابقة قد تسربت إلىٰ المسلمين مصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، أي لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة وترتيلاً، قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ابن عباس وقتادة في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾: أي غير عارفين بمعاني الكتاب، يعلمونها حفظاً وقراءة بلا فهم، لا يعلمون فقه الكتاب.

وأعتقد أن الله سبحانه وتعالىٰ قص علينا حال بني إسرائيل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها، لنأخذ حذرنا، فلا نقتصر علىٰ الحفظ دون التدبر، والتلاوة دون العمل، ولولا إمكانية تسرب علل تدين الأمم الماضية للمسلمين لما كان لذكر ذٰلك معنًى.

روي عن عثمان وعبد الله بن مسعود وأُبي رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ كان

يقرئهم العشر فلا يتجاوزوها إلىٰ عشر أخرىٰ، حتىٰ يتعلموا ما فيها من العمل، فيتعلموا العلم والعمل جميعاً (صحيح سنن أبي داود).

ولذٰلك قال بعض العلماء: إنما أنزل القرآن ليعمل به، فجعل كثير من المسلمين من تلاوته عملاً.

والأمر الذي لا ريب فيه، أن تعاملنا مع القرآن علىٰ الحال التي نحن عليها يحمل الكثير من الخلل وغياب المنهجية السليمة.. ولعلنا نقول: إن خلود القرآن من مسلمات العقيدة، وإن الخلود يعني القدرة علىٰ الإنتاج في كل زمان ومكان ـ كما أسلفنا ـ وإن هٰذا القرآن كمنهج حياة عندما تعامل معه المسلمون بشكل صحيح أحدث تغييراً في حياتهم، وأنتج جيل القدوة المشهود له بالخيرية.. والقرآن هو القرآن، فلماذا لا يحقق التعامل معه الإنتاج المطلوب؟ معنىٰ ذٰلك بكل بساطة، وجود خلل في كيفية التعامل، وعطب في وسائل التوصيل.. وطالما أن القرآن الكريم لم يحدث التغيير المأمول، فمعنىٰ ذٰلك أن الأمر يحتاج إلىٰ تدبر واكتشاف مواطن الخلل.

وفي تقديري والله أعلم، أن المطلوب بإلحاح إدراك مواصفات الخطاب القرآني والفقه بذٰلك.. فالمشكلة في غياب وإدراك تلك المواصفات، ومحاولة تنزيل الخطاب علىٰ غير محله، والاستشهاد به في غير مجاله.

ولنأخذ مثالاً علىٰ ذٰلك، موقف القرآن من النصارىٰ:

فالموقف العام من غير المسلمين، يحكمه قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨].

والموقف علىٰ مستوىٰ العقيدة، يحكمه قوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، وقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

والموقف علىٰ مستوىٰ الجدال والحوار، يحكمه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وقوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤].

والموقف على مستوى التعامل، يحكمه قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ [المائدة: ٨٢].

والموقف على مستوى المعركة والمواجهة، يحكمه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةًۚ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ...﴾ [الأنفال: ٦٥]... وهكذا..

فقد تكون المشكلة هي في تنزيل الخطاب الذي محله المعركة محل خطاب الدعوة والحوار، وتنزيل خطاب العقيدة على محل خطاب التعامل الاجتماعي، وتنزيل خطاب الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن على ميدان المعركة والتعبئة النفسية، وهكذا.

فالمشكلة هي في كيفية التنزيل على الواقع، وفقه الحالة، وتحديد الإصابة، واختيار نوعية العلاج.. فالقرآن كله علاج ودواء، لكن لكل داء دواؤه، ولو أعطينا الدواء الواحد لكل الأدواء أو لغير دائه فقد يزهق روح المريض، على الرغم من أن ما أعطيناه له يسمى دواءً.

وقضية أخرى أعتقد أن التنبيه إليها أثناء التعامل مع القرآن من الأهمية بمكان، وهي أن القرآن ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [العلق]، ووصولاً إلى حالة الكمال والاكتمال في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣]، إنما جاء لبناء أنموذج الاقتداء.. وقد مر بناء هذا الأنموذج بعدة مراحل، مراحل الضعف والقوة، ومراحل الدعوة والدولة، ومراحل النصر والهزيمة، ومراحل السقوط والنهوض، والمنحة والمحنة، والصبر والابتلاء، والسرية والجهرية، إلى آخر الحالات الكثيرة التي تكاد تستغرق جميع احتمالات الحياة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لأن القرآن خالد وخاتم، وقد تم تنزيله على الواقع، وتجسيده في حياة الجيل الأول بتأييد الوحي وتسديده ورعاية المعصوم.

والأمر الذي نريد أن يكون واضحاً، أن المسلمين بعد مرحلة الكمال

والاكتمال، لم يبقوا علىٰ حالهم التي وصلوا إليها عند اكتمال الدين، وإنما مرت أقدار التدين بعد ذٰلك بارتفاع وانخفاض وزيادة ونقصان، فالإيمان لا شك أنه يزيد وينقص، والاستطاعات تشتد وتضعف، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها. وهنا لا بد من فقه دقيق للتعامل مع القرآن، إذ لا يمكن أن أُخاطَب بآيات التمكين وأحكامه بكل مستلزماتها وأنا في مرحلة الضعف والسقوط.. وأن يطبق علي أحكام النصر والمواجهة وأنا أعاني من الهزيمة والانكسار.. ولا يمكن أن أقاتل حتىٰ لا تكون فتنة وأنا في حالة الفتنة والإكراه.

لذٰلك نقول، في كيفية التعامل مع القرآن: لا بد أن نحدد الحالة التي نحن عليها، والاستطاعة التي نملكها بدقة، ومن ثم ننظر من خلال الآيات القرآنية والبيان النبوي، وعلىٰ الأخص مرحلة السيرة، أين يمكن أن يكون موقعنا باستطاعتنا: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، من آيات القرآن ومسيرة السيرة، وعندها يكون محل الاقتداء.. فإذا ألحقت بي هزيمة، أنظر كيف تعامل الرسول ﷺ المبيِّن عن ربه، مع الهزيمة.. وإذا تحقق نصر، أنظر كيف تعامل الرسول ﷺ مع النصر، وهٰكذا.. المهم أن أكون قادراً علىٰ تحديد حالتي التي أنا عليها بدقة من مسيرة السيرة بكل مجالاتها، لأدرك موقع الاقتداء.

وهٰذا لا يعني التقطيع للرؤية القرآنية، ولا يعني الانتقاء، ذٰلك أن المسيرة من قوله تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ﴾، إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، واضحة في ذهني بكل مراحلها وعطائها، وأسعىٰ لبلوغ الكمال، لٰكنني متعبد باستطاعتي.

وليس هٰذا فلسفة للضعف ولا مهرباً من حمل العبء، ذٰلك أن الإنسان متعبد باستفراغ وسعه، والله شاهد عليه.. والذي يستغرق وسعه، يكون مطبقاً للإسلام، ولو لم يستدرك شعبه جميعاً، ويموت علىٰ ذٰلك، حيث لا يرد عليه التكليف إذا انتقصت الاستطاعة.

ولعل هٰذا يوضح لنا ـ ولو من بعض الوجوه ـ الحكمة من ترتيب القرآن علىٰ غير أزمنة النزول، حتىٰ لا يلزمنا الزمن، ذٰلك أن أقدار التدين قد تنهض، فلا مجال للوقوف عند آيات الضعف بحسب التطور الزماني.. وقد

تنخفض أقدار التدين، فلا مجال لاستدعاء آيات التمكين في فترات الضعف. فالاستطاعة تتعامل مع الزمن وتسخره، ولا تُحكم به.. فالمسلم هو الذي يسخر الزمن. وليس الزمان هو الذي يتحكم بالمسلم.

وقضية أخرىٰ، نرىٰ أن الإشارة إليها قد تكون مفيدة في هٰذا المجال، وهي أن الخلود والعصمة إنما هي للقرآن ولبيانه النبوي، وليس لفهوم العلماء السابقين لنصوص الكتاب والسنّة، وبالتالي فمن يرىٰ أن فهوم السابقين هي نهاية المطاف في النظر للنص القرآني وبيانه النبوي، فهو بذٰلك يحاصر خلود القرآن، إن لم نقل يلغيه، ويجعل النص القرآني المطلق قاصراً علىٰ زمن معين وفهم نسبي، وفي ذٰلك ما فيه من إخراج القرآن عن تقويم واقع الحياة وتقديم الحلول لمشكلاتها.

ولعل الأمر الأخطر في هٰذا السياق أيضاً، أن القرآن دعا إلىٰ النظر والتدبر والتعقل والاستدلال والاستقراء، وتأييد الادعاء بالبرهان، كما أن الرسول ﷺ اعتبر المجتهد المخطئ مثاباً بأجر علىٰ الرغم من خطئه، لأنه استعمل عقله، ونحن نعلم أن غاية ما اعتبره الإسلام في مجال الخطأ هو التجاوز، أما الأجر علىٰ الخطأ فلا يكون إلا لاستعمال العقل، ومع ذٰلك نشأت فئة باسم حماية النص تحارب العقل، وكأنه وصمة عار علىٰ صاحبه، وأصبح ينعت بأنه ينتمي إلىٰ مدرسة العقليين، وصارت المعادلة المطروحة: إما النص وإما العقل!

هٰكذا بهٰذه المقدمة الخاطئة، تتولد النتائج الخاطئة، ونعطل الطاقات ونطفئ الفاعلية بأيدينا دون أن ندرك بأن معجزة الإسلام عقلية، وأن العقل محل الوحي، وأنه لا عقل بلا وحي، ولا وحي بلا عقل.

والحمد لله رب العالمين.

الدوحة في: ١٥ من ذي الحجة ١٤١٩هـ
الموافق لـ: ١ نيسان (أبريل) ١٩٩٩م

عمر عبيد حسنه

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله الذي خلق الإنسان، علمه البيان، وأنزل القرآن، ويسره للذكر، واستنفر لذلك العقل وجعله مناط التكليف، وأداة النظر والتدبر:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر].

ونعىٰ علىٰ الذين يعطلون عقولهم، ويغلقون نوافذ المعرفة:

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة].

كما نعىٰ علىٰ الذين لا يتدبرون القرآن ويكتفون منه بالقراءة التي لا تتجاوز تراقيهم إلىٰ قلوبهم وعقولهم:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد].

وصلىٰ الله علىٰ محمد النبيِّ الخاتم الذي انتهت إليه أصول الرسالات السماوية جميعاً، وتجمعت لرسالته تجربة النبوة من لدن آدم عليه السلام، فحمل القرآن بين دفتيه الشهود التاريخي، بما قصّ من أخبار الأمم السابقة؛ والشهود الحضاري بما تجسد من سيرة الرسول ﷺ وتمثل في خير القرون والشهود المستقبلي بما أصل من قواعد، ووضع من معالم، وكلف من نظر وتدبر في سنن الله في الأنفس والآفاق التي هي السبيل للتمكين في الأرض، والقيام بالشهادة علىٰ النَّاس، والقيادة لهم:

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص].

وبعد؛

فواقع معظم المسلمين اليوم مع القرآن، مؤرق، وعلاقتهم به يحكمها الهجر والعقوق إلىٰ درجة نخشىٰ معها أن نقول: إن علل الأمم السابقة التي

حذر منها القرآن، ونبّه إليها الرسول ﷺ، تسربت إلىٰ العقل المسلم:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨].

أي: لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة وترتيلاً.

قال ابن تيمية[١] رحمه الله، عن ابن عباس[٢] وقتادة[٣] في قوله:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾.

أي: غير عارفين بمعاني الكتاب، يعلمونها حفظاً وقراءة بلا فهم، لا يدرون ما فيها... وقوله:

﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾.

أي: تلاوة، لا يعلمون فقه الكتاب، إنما يقتصرون علىٰ ما يُتلىٰ عليهم...

والأميّة العقلية هٰذه، تسود الأمة في حال التقليد، والغياب الحضاري، والعجز عن تدبر القرآن، والتعامل مع الأحداث، واتخاذ المواقف، واكتشاف

---

(١) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحرَّاني الدمشقي، تقي الدين. الإمام شيخ الإسلام. حنبلي. ولد في حرَّان عام ٦٦١هـ وانتقل به أبوه إلىٰ دمشق فنبغ واشتهر. سجن بمصر مرتين من أجل فتاواه. وتوفي بقلعة دمشق معتقلاً. كان داعية إصلاح في الدين، آية في التفسير والعقائد والأصول، فصيح اللسان، مكثراً من التصنيف. توفي عام ٧٢٨هـ.
من تصانيفه: «السياسة الشرعية»؛ و«منهاج السنة»؛ و«درء تعارض العقل والنقل» وطبعت «فتاواه» في الرياض في ٣٥ مجلداً.

(٢) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب. قرشي هاشمي. حبر الأمة وترجمان القرآن، ولد عام ٣ قبل الهجرة. أسلم صغيراً ولازم النبي ﷺ بعد الفتح وروىٰ عنه. كان الخلفاء يجلُّونه. شهد مع علي الجمل وصفين. وكف بصره في آخر عمره. كان يجلس للعلم، فيجعل يوماً للفقه، ويوماً للتأويل، ويوماً للمغازي، ويوماً للشعر، ويوماً لوقائع العرب، وتوفي بالطائف عام ٦٨هـ.

(٣) هو قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي. من أهل البصرة. ولد ضريراً عام ٦١هـ. أحد المفسرين والحفاظ للحديث. قال أحمد بن حنبل: قتادة أحفظ أهل البصرة. وكان مع علمه بالحديث رأساً في العربية، ومفردات اللغة وأيام العرب، والنسب، مات بواسط في الطاعون عام ١١٨هـ.

سنن الله في الأنفس والآفاق، وحسن تسخيرها، ومعرفة كيفية التعامل معها، والنفاذ من منطوق النص وظاهره إلىٰ مقصده ومرماه، والتدخل حين نعلم السنَّة وأنها تتكرر ولا تتبدل، فنستطيع توجيهها إلىٰ حيث نريد ونفيد، فنصل إلىٰ مرحلة مغالبة القدر بقدر أحبّ إلىٰ الله، أو نفر من قدر الله إلىٰ قدر الله، كما قال عمر بن الخطاب[1] رضي الله عنه. . يقول ابن القيم[2] رحمه الله: ليس الرجل الذي يستسلم للقدر، بل الذي يحارب القدر بقدر أحبّ إلىٰ الله. . . (مدارج السالكين، ج١).

إنها الأميّة العقلية التي نعيشها اليوم مع القرآن، والتي تعني ذهاب العلم علىٰ الرغم من تقدم فنون الطباعة، ووسائل النشر، وتقنيات التسجيل. . ولعل فيما يذكره ابن كثير[3] رحمه الله عند تفسير الآية الثالثة والستين في سورة المائدة،

---

(١) هو عمر بن الخطاب بن نفيل، أبو حفص، الفاروق. صاحب رسول الله ﷺ، وأمير المؤمنين، ثاني الخلفاء الراشدين. كان النبي ﷺ يدعو الله أن يعز الإسلام بأحد العمرين، ولد عام ٤٠ قبل الهجرة، فأسلم هو، وكان إسلامه قبل الهجرة بخمس سنين، فأظهر المسلمون دينهم. ولازم النبي ﷺ، وكان أحد وزيريه، وشهد معه المشاهد. بايعه المسلمون خليفة بعد أبي بكر، ففتح الله في عهده الفتوح، ونشر الإسلام حتىٰ قيل: أنه انتصب في عهده اثنا عشر ألف منبر. وضع التاريخ الهجري. ودوَّن الدواوين. قتله أبو لؤلؤة المجوسي وهو يصلي الصبح عام ٢٣هـ.

(٢) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي. شمس الدين من أهل دمشق. من أركان الإصلاح الإسلامي، وأحد كبار الفقهاء. تتلمذ علىٰ ابن تيمية وانتصر له ولم يخرج عن شيء من أقواله، وقد سجن معه بدمشق. كتب بخطه كثيراً، وألَّف كثيراً. ولد عام ٦٩١هـ، وتوفي عام ٧٥١هـ.
من تصانيفه: «الطرق الحكمية»؛ و«مفتاح دار السعادة»؛ و«الفروسية»؛ و«مدارج السالكين».

(٣) هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير، أبو الفداء، البصروي ثم الدمشقي الشافعي، المعروف بابن كثير. مفسر، محدث، فقيه، حافظ، قال العيني وابن حبيب: كان قدوة العلماء والحفاظ، عمدة أهل المعاني والألفاظ، وسمع وصنَّف ودرَّس وألَّف. وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير. ولد عام ٧٠١هـ، وتوفي عام ٧٧٤هـ.
من تصانيفه: «شرح تنبيه أبي إسحاق الشيرازي»، و«البداية والنهاية»، و«شرح صحيح =

في الجدال الذي وقع بين الرسول ﷺ وصاحبه زياد بن لبيد[1]، مؤشراً دقيقاً علىٰ الأميّة العقلية التي صرنا إليها مع كتاب الله.

فعن الإمام أحمد[2] رحمه الله، قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً فقال: «**وذاك عند ذهاب العلم**»، قلنا: يا رسول الله، كيف يذهب العلم ونحن قرأنا القرآن ونقرئه أبناءنا، وأبناؤنا يقرئون أبناءهم؟ فقال: «**ثكلتك أمك يا ابن لبيد، إن كنتُ لأراك من أفقه رجل في المدينة، أو ليس هـٰذه اليهود والنصارىٰ بأيديهم التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء؟**»[3].

وقد تكون مشكلة المسلمين كلها اليوم، في منهج الفهم الموصل إلىٰ التدبر، وكسر الأقفال من علىٰ العقول والقلوب، وتجديد الاستجابة، وتحديد وسيلتها، ليكونوا في مستوىٰ القرآن، ومستوىٰ العصر، ويحققوا الشهود الحضاري، ويتخلصوا من الحال التي استنكرها القرآن:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد].

﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص].

وهنا قضية، أعتقد أنه من المفيد التوقف عندها ولو قليلاً، ذٰلك أن كثيراً من

= البخاري»، و«تفسير القرآن العظيم»، و«الاجتهاد في طلب الجهاد»، و«الباعث الحثيث إلىٰ معرفة علوم الحديث»، و«جامع المسانيد» جمع فيه أحاديث الكتب الستة والمسانيد الأربعة.

(١) هو زياد بن لبيد بن ثعلبة بن سنان بن عامر الأنصاري، شهد العقبة وبدراً وكان عامل النبي ﷺ علىٰ حضرموت، وولاه أبو بكر رضي الله عنه قتال أهل الردة من كندة.

(٢) هو أحمد بن حنبل الشيباني، أبو عبد الله. من بني ذهل بن شيبان الذين ينتمون إلىٰ قبيلة بكر بن وائل. إمام المذهب الحنبلي، وأحد أئمة الفقه الأربعة. أصله من مرو، ولد ببغداد. امتحن في أيام المأمون والمعتصم ليقول بخلق القرآن فأبىٰ، وأظهر الله علىٰ يديه مذهب أهل السنة. ولما توفي الواثق وولي المتوكل أكرم أحمد، ومكث مدة لا يولي أحداً إلا بمشورته. ولد عام ١٦٤هـ، وتوفي عام ٢٤١هـ.
له «المسند» وفيه ثلاثون ألف حديث، و«المسائل»؛ و«الأشربة»؛ و«فضائل الصحابة» وغيرها.

(٣) الحديث رواه أحمد في مسنده، ورواه ابن ماجه في «سننه» ـ عن زياد بن لبيد الأنصاري رضي الله عنه ـ في كتاب الفتن، ورواه الترمذي في «سننه» في باب ما جاء في ذهاب العلم، وقال: هـٰذا حديث حسن غريب.

العاملين في حقول الفكر والمعرفة، يظنون أن معادلة المسلمين الصعبة اليوم وأزمتهم الفكرية تتمثل في غياب المنهج، ويجهدون أنفسهم بالبحث والدرس، وتقليب الأمر علىٰ وجوه كثيرة، وقد يكون مِن ذٰلك التطلع إلىٰ ما عند الآخرين!

وفي تصوري: أن الأزمة التي لا نزال نعاني منها، ليست بافتقاد المنهج، فالمنهج (مصدر لمعرفة) موجود، ومعصوم، ومُختبر تاريخياً. . لٰكن، المشكلة بافتقاد وسائل الفهم الصحيحة، وأدوات التوصيل، وكيفية التعامل مع القرآن. . أي: منهج فهم القرآن والسنة، فالله سبحانه وتعالىٰ يقول:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

ويقول:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

والرسول ﷺ يقول: «**لو أن موسىٰ كان فيكم حيّاً ما وسعه إلا أن يتبعني**»[(١)]، وذٰلك عندما تطلع بعض الصحابة إلىٰ تحصيل المعرفة من التوراة.

ونخشىٰ عند التساهل والقبول بأن الأزمة التي نعاني منها أزمة منهج، وليست أزمة فهم للقرآن الذي هو مصدر للمعرفة، عندها قد ينأىٰ بنا السير إلىٰ السقوط في التعامل مع مناهج أخرىٰ، والافتتان عما نزل إلينا، أو بعضه:

﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

لذٰلك، لا بد أن نقرر: بأن الأزمة أزمة فهم، وأزمة تعامل، وأزمة أميّة عقلية صرنا إليها بذهاب العلم (مناهج الفهم)، (وسائل المعرفة).

والجهود. فيما نرىٰ اليوم، يجب أن تنصبّ علىٰ منهج الفهم، وإعادة فحص واختبار المناهج القائمة التي أورثتنا ما نحن عليه، والتحرر من تقديس الأبنية الفكرية الاجتهادية السابقة التي انحدرت إلينا من موروثات الآباء والأجداد

---

(١) الحديث رواه أحمد في «مسنده»، وأبو يعلىٰ والبزار، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وذكر الهيثمي أن في رواته مجالد بن سعيد، ضعفه أحمد ويحيىٰ بن سعيد وغيرهما. (مجمع الزوائد ١/ ١٧٤).

والمناخ الثقافي الذي يحيط بنا منذ الطفولة، ويتسرب إلىٰ عقولنا فيشكلها بطريقة التفاعل الاجتماعي، الأمر الذي أدّىٰ إلىٰ انكماش الفكر والرؤية القرآنية في واقع حياتنا، وتحول القرآن من مراكز الحضارة وصناعة الحياة، إلىٰ الركود والتحنط في بطون التاريخ التي تشكلت في عصور التخلف والتقليد والتي حالت دون إدراك أبعاد النص القرآني، والقدرة علىٰ تعديته للزمان والمكان. ذٰلك أن الصورة التي طبعت في أذهاننا، في مراحل الطفولة للقرآن، أنه: لا يُستدعىٰ للحضور إلا في حالات الاحتضار والنزع، والوفاة، أو عند زيارة المقابر، أو نلجأ لقراءته عند أصحاب الأمراض المستعصية، وهي قراءات لا تتجاوز الشفاه.

ولذٰلك، اقترنت الصورة الموروثة للقراءة بحالات من الخوف والاكتئاب، ينفر منها الإنسان، ويستعيذ بالله من سماعها.. فإذا تجاوزنا مؤسسات الأمية والعامية التي تشكلت من خلالها تلك الصور المفزعة للقرآن، إلىٰ مراكز ودروس تعليم القرآن الكريم، رأينا أن الطريقة التي يُعَلَّم بها، يصعب معها استحضار واصطحاب التدبر والتذكر والنظر، إن لم يكن مستحيلاً.. فالجهد كله ينصرف إلىٰ ضوابط الشكل من أحكام التجويد ومخارج الحروف، وكأننا نعيش المنهج التربوي والتعليمي المعكوس.. فالإنسان، في الدنيا كلها، يقرأ ليتعلم، أما نحن فنتعلم لنقرأ! لأن الهم كله ينصرف إلىٰ حسن الأداء.. وقد لا يجد الإنسان أثناء القراءة فرصة للانصراف إلىٰ التدبر والتأمل، وغاية جهده إتقان الشكل.. وقد لا يعيب النَّاس عليه عدم إدراك المعنىٰ قدر عيبهم عدم إتقان اللفظ! ولا أزال أذكر أننا وبعد عدة سنوات من التعليم، كان مدرس القرآن يراجع بعضنا في تحسين النطق بأعوذ بالله من الشيطان الرجيم مفتتح القراءة.

ونحن هنا، لا نهوِّن من أهمية ضبط الشكل، وحُسن الإخراج، وسلامة المشافهة، لٰكننا ندعو إلىٰ إعادة النظر بالطريقة، حتىٰ نصل إلىٰ مرحلة التأمل والتفكر والتدبر التي تترافق مع القراءة، وقد يكون ذٰلك بأن نبدأ التلقين بالأداء الحسن ابتداءً، مع التوجيه اللافت للنظر صوب المعنىٰ، ولا نلتفت إلىٰ ضبط الشكل إلّا في حالات التصويب، ولتكن حالات الاستثناء.

وقد يكون من أخطر الإصابات التي لحقت بالعقل المسلم فحالت بينه

وبين التدبر، وكسر الأقفال، ووضع الأغلال والآصار، والتحقق بالفكر القرآني والرؤية القرآنية الشاملة، والاعتراف معها لعلاج الحاضر، والامتداد صوب المستقبل، واعتماده مصدراً للمعرفة والبعث الحضاري؛ التوهم بأن الأبنية الفكرية السابقة التي استمدت من القرآن في العصور الأولىٰ، هي نهاية المطاف، وأن إدراك أبعاد النص مرتهن بها، في كل زمان ومكان، وما رافق ذٰلك من النهي عن القول في القرآن بالرأي، وجعل الرأي دائماً قرين الهوىٰ، وسوء النية، وفساد القصد. وفي هٰذا ما فيه من محاصرة للنص القرآني، وقصر فهمه علىٰ عصر معين، وعقل محكوم برؤية ذٰلك العصر، وحجر علىٰ العقل، وتخويف من التفكر، الأمر الذي يحول بين الإنسان والتدبر المطلوب إليه بنص القرآن. هٰذا، علاوة علىٰ أن الاقتصار علىٰ هٰذا المنهج في النقل والتلقي، يحاصر الخطاب القرآني نفسه، ويقضي علىٰ امتداده وخلوده، وقدرته، علىٰ العطاء المتجدد للزمن، وإلغاء لبعده المكاني:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨].

ولبعده الزماني:

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وإلغاء التكليف القرآني من السير في الأرض، والنظر في البواعث والعواقب، واستمرار النظر في الأنفس والآفاق، والاكتشاف المستمر للسنن والقوانين، والتعامل معها في ضوء العطاء العلمي، والكشوف البشرية في إطار علوم الكون والحياة:

﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصلت: ٥٣].

ولعل، ترسب هٰذه القناعة العجيبة الغريبة، هي من الأقفال الأولىٰ التي يجب كسرها لينطلق الفهم من قيوده وأغلاله وآصاره، فيتحقق العقل بالرؤية القرآنية في أبعاد الحياة المختلفة، وينضج معرفة وخبرة وحضارة مستمدة من الوحي المعصوم لأن هٰذه القناعة إذا استمرت، سوف تلغي الحاضر والمستقبل معاً، وتسقط عن القرآن صفة الخلود الزماني، والامتداد المكاني.

ومن المفارقات العجيبة حقاً للعقل المسلم جرأته علىٰ إلغاء التكليف

القرآني بالنظر والتدبر وإسقاطه باجتهاد بشري، وذلك لعدم إدراكه للنص النبوي ـ البيان القرآني ـ الذي يقرر: أنها قد تتأتّىٰ فهوم مستقبلية أكثر وعياً وإدراكاً للنص القرآني: **«بلغوا عنه ولو آية»**[1]، **«فربَّ مبلّغ أوعىٰ من سامع»**[2]، **«فربَّ حامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه»**[3]. . . ونحن بهٰذا، لا ندعو إلىٰ القفز، فوق الفهوم التاريخية للقرآن وهٰذا الميراث الثقافي الذي يعتبر مفخرة من مفاخر الفكر والاغتراف من القرآن مباشرة، بمؤهلات وبدون مؤهلات؛ وإنما نريد أن نحرر العقل من قيوده حيث حُرِّم عليه النظر، وندعو إلىٰ النظر الذي لا يتحقق ولا يتأتّىٰ، ولا يستحق أن يسمىٰ نظراً إذا تجاهل الفهوم السابقة، ولعل من أبسط مستلزماته: اصطحاب الاجتهادات السابقة، ولٰكن لا نقتصر عليها، فلكل عصر رؤيته، في ضوء مشكلاته ومعطياته.

إن الدعوة إلىٰ محاصرة العقل، والحجر عليه، وقصر الفهم والإدراك والتدبر علىٰ فهوم السابقين هو الذي ساهم بقدر كبير في الانصراف عن تدبر القرآن، وأقام الحواجز النفسية المخيفة التي حالت دون النظر، وأبقىٰ الأقفال علىٰ القلوب، وصار القرآن تناغيم وترانيم. وبدل أن يكون الميراث الثقافي وسيلة تسهل الفهم، وتغني الرؤية، وتعين علىٰ التدبر، أصبح ـ من بعض الوجوه ـ عائقاً يحول دون هٰذا كله. . وشيئاً فشيئاً، تتحول القدسية من القرآن إلىٰ السُّنة، فَتُجعل السُّنة حاكمة علىٰ القرآن، ومن ثَمَّ، انتقلت القدسية لفهوم البشر، وبقي الكتاب والسُّنة للتبرك.

---

(١) الحديث رواه البخاري في «صحيحه» ـ عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄ ـ في كتاب الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل.

(٢) الحديث رواه الترمذي في «سننه» بلفظ: «نضر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه، فرُبّ مبلغ أوعىٰ من سامع» وهو من حديث عبد الله بن مسعود ﵁، في أبواب العلم، باب: الحث علىٰ تبليغ السماع، وقال: هٰذا حديث حسن صحيح.

(٣) الحديث رواه الترمذي في «سننه» بلفظ: «نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتىٰ يبلغه غيره، فرُبّ حامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه، وربّ حامل فقه ليس بفقيه»، وهو من حديث زيد بن ثابت ﵁، في أبواب العلم، باب: الحث علىٰ تبليغ السماع، وقال: حديث حسن.

فالمشكلة المستعصية، في اختلاط قداسة النص ببشرية التفسير والاجتهاد لذٰلك النص، وإدراك مرماه. حيث عُدَّ رأي الشيخ أو المتبوعِ في تفسير نص ما أو فهمه، هو الأمر الوحيد، والممكن، والمحتمل، والأكمل لمدلول ذٰلك النص! وصار أي رأي أو احتمال آخر، خروجاً عن الإجماع، أو نوعاً من الابتداع! وقد لا نستغرب في هٰذا المناخ أن ينتهي بعض الفقهاء والأصوليين إلىٰ القول: (كل آية أو حديث تُخالف ما عليه أصحابنا، فهو مؤول أو منسوخ)! وهٰذا القول منسوب لأبي الحسن الكرخي[1] من الأحناف.

وقد يكون هٰذا واقع العقل المسلم لكثير ممن سيطر عليه مناخ التقليد الجماعي، وإن لم يصرحوا به. وأصبح كف العقل عن فهم وتدبر القرآن مناخاً عاماً يصعب الانفلات منه وجاءت ثمرة ذٰلك: مجاهدات عقلية، وجهود فكرية غير مجدية، استغرقتها مسائل الفروع التي كُتبت فيها مئات المؤلفات من المتون، والحواشي، والشروح، والاختصارات، وضاعت بذٰلك مقاصد الدين، وحوصر امتداد القرآن والسُّنة عن شُعَب المعارف الأخرىٰ، كما توقف الامتداد في بُعْدَي الزمان والمكان، وانطفأت بذٰلك جذوة العقل المسلم، وتجمدت قيم الدين ومقاصده في مجال الشورىٰ، والعدل الاجتماعي، والمساواة والحرية، وغاب الفقه القرآني بمعناه الشامل ليقف عند حدود الحِلِّ والحرمة لبعض الفرعيات، وقطعت الرؤية القرآنية الشاملة، وسادت النظرات الجزئية، وعم العجز، وتوقفت النظرة الموضوعية لتخلي مكانها للرؤىٰ الموضعية.

لقد أوْرَثَنَا مناخ التقليد الجماعي الذي عطّل فينا ملكة الاجتهاد، والإبداع، والانجاز لقرون طويلة نوعاً من العجز المزمن جعلنا دون سوية التعامل مع القرآن، وإدراك سننه في الأنفس والآفاق، والاقتصار علىٰ بعض مئات من الآيات نظر فيها الأقدمون علىٰ أنها آيات الأحكام التشريعية.. ولا

---

(١) هو عبيد الله بن الحسين، أبو الحسن الكرخي. فقيه حنفي. انتهت إليه رئاسة الحنفية بالعراق. مولده بالكرخ عام ٢٦٠هـ، ووفاته ببغداد عام ٣٤٠هـ.
من تصانيفه: «رسالة في الأصول التي عليها مدار فروع الحنفية»، و«شرح الجامع الصغير»، و«شرح الجامع الكبير» وكلاهما في فقه الحنفية.

نزال، إلىٰ اليوم، نبدي فيها ونعيد من خلال ميراث الفقهاء وليس من خلال موقعها من الرؤىٰ القرآنية حيث للآيات مقاصد عدّة: تربوية، واجتماعية، ونفسية، وكونية، ومنبهات حضارية، ووسائل الكشف العلمي حيث لا يخرج الحكم التشريعي عن أن يكون واحداً منها.

ويمكن أن نقول: بأن العجز لحق أيضاً بطريقة التعامل مع آيات الأحكام نفسها التي أخذت هـٰذا الجهد، وتلك المساحة من الميراث الثقافي، وأصبحنا أتباعاً مقلدين غير قادرين ليس فقط علىٰ تجاوز فهم السابقين والامتداد بالآيات إلىٰ آفاق إضافية، وإنما عاجزين أيضاً عن الإتيان بمثال آخر غير ما جاء به الأقدمون، وهـٰذا، من أشنع حالات التقليد.

وكما أن مناخ التقليد الجماعي جعلنا عاجزين عن الامتداد، ودون سوية التعامل مع القرآن، فكذٰلك أصبحنا ـ بذٰلك ـ دون سوية التعامل مع الواقع المعاصر، لأننا أوقفنا عطاء القرآن للزمن، وهو المتغير السريع، وحاولنا التفاهم معه بفهوم عصر آخر يختلف في طبيعته، ومشكلاته، وعلاقاته، ومعارفه عن عصرنا، وأعطينا صفة القدسية والقدرة علىٰ الامتداد والخلود لاجتهاد البشر، ونزعنا صفة الخلود والامتداد عن القرآن، عملياً، وإن كنا نرفضها نظرياً، كما أسلفنا.

وكلون من التعويض عن العجز في الامتداد بالرؤية القرآنية، والتعامل مع العصر ـ (الشهود الحضاري) ـ ما نراه اليوم من التوسع فيما اصطلح علىٰ تسميته: «الإعجاز العلمي في القرآن»، علىٰ الرغم من التحفظات علىٰ هـٰذه التسيمة لدىٰ كثير من علماء المسلمين الذين يرون أن ميدان الإعجاز ليس المجال العلمي أصلاً، فالعلم في تقدم وتطور مستمر، وقد بلغ اليوم شأواً واسعاً، وكلما تقدمت الأيام، تراكمت المعارف، وتقدمت الحقيقة العلمية أكثر.. وخلود الرسالة يعني، فيما يعني، خلود المعجزة، وعدم قدرة الإنسان علىٰ الاتيان بمثلها في كل زمان ومكان. وأظن أن تطبيق هـٰذا في مجال الإعجاز العلمي سيؤدي إلىٰ كثير من المفارقات والتمحلات.. والقرآن، كتاب هداية، وليس كتاب «تكنولوجيا».. ولا أحد يستطيع أن يُنكر أن القرآن،

عرض لبعض الحقائق العلمية، ولفت نظر الإنسان إليها، ليحقق هدفه في الهداية، وينبه الإنسان إلىٰ وسائل التعمير وبناء الحضارة، ويفتح طريق البحث العلمي أمام المسلمين، وإن كثيراً مما ذكر من الحقائق لم تكن معروفة في عصر نزول القرآن، وأن العلم أثبتها بعد آماد طويلة.

وقد تؤكد المعارف العلمية كل يوم، ما يكسبنا الاطمئنان إلىٰ صحة النصّ القرآني. ولا شك، أن الحقائق العلمية التي عرض لها القرآن في عصر الأمية العلمية، تعتبر من دلائل النبوة، وبرهان صدقها، أما تسميتها «إعجازاً»، فالأمر ليس بهٰذه السهولة، والبساطة، علىٰ الرغم من أن القرآن وضع العقل البشري في المناخ العلمي، ووفر له الإسلام الشروط والظروف المطلوبة.. فموضوع القرآن: صياغة الإنسان؛ ووظيفة الإنسان: القيام بأعباء الاستخلاف، والإعمار عن طريق اكتشاف سنن التسخير، وحسن التعامل معها. لذٰلك، طلب القرآن: النظر، والتدبر، والملاحظة، والاختيار، وإدراك علل الأشياء، وأسبابها، وامتد في ذٰلك إلىٰ استشراف المستقبل:

﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص].

والمسلمون اليوم، مطمئنون إلىٰ صدق النبوة، وصحة النص، وإن احتجنا اليوم لهٰذا اللون من الطرح، فقد يكون مفيداً مع غير المسلمين.

وأخشىٰ ما أخشاه، أن يستغني المسلمون اليوم عن محاولة الإبداع والإنجاز العلمي في مختلف الميادين في ضوء هداية القرآن، والاستنفار لذٰلك، بالكلام عن الإعجاز العلمي كلون من التعويض، إذ نرىٰ بعض مسلمي اليوم، كلما اكتشفت نظرية، أو حقيقة علمية علىٰ يد غير المسلمين، يجهدون أنفسهم ـ عن حسن نية ـ في التدليل علىٰ أن القرآن عرض لها، وأثبتها قبل العلم! وأعتقد أن هٰذا دليل للواقع المتخلف والعاجز، فإذا كان القرآن قد عرض لها، فما بال المسلمين لم يفقهوها؟

لذٰلك، نخشىٰ أن ينقلب موضوع الإعجاز العلمي المعاصر من منبه حضاري مؤرق، إلىٰ صورة من التفاخر والتظاهر المعوق، وتكريس التخلف والأمية العقلية.

تقديم

بقلم الشيخ محمد الغزالي

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن الكريم هو آخر ما بقي لله من وحي في هٰذه الدنيا، هو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ ما شانه نقص ولا شابته زيادة منذ نزل إلىٰ يوم الناس هٰذا فهو بحفظ الله مصون من أهواء الناس، ووساوس الجن والإنس...!

وبقاء هٰذا القرآن هو العزاء الوحيد عن ضياع مواريث النبوات الأولىٰ، لأنه استوعب زبدتها، وقدم في هداياته خلاصة كافية لها: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾ [الأعلىٰ] فإذا اطلعت الأجيال المستأخرة علىٰ هٰذا القرآن فكأنها وعت ما قاله المرسلون السابقون، وانتظمت مع الركب السماوي في الإيمان بالله والعمل له!

لٰكن موقف المسلمين من القرآن الذي شرفوا به يثير الدهشة! ومن عدة قرون ودعوة القرآن مُجَمَّدَةٌ، ورسالة الإسلام كنهر جفّ مجراه أو بريق خمد سناه.!

والأمة التي اجتباها الله تتعامل مع القرآن تعاملاً لا يجوز السكوت عليه كان الجاهليون الأقدمون يصمون آذانهم عن سماعه، ويتواصَوْن بالشغب علىٰ مجالسه ويعالنون بتكذيب صاحبه حتىٰ شكا صاحب الرسالة إلىٰ ربه هٰذا الكنود، قائلاً: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ أما المسلمون المتأخرون فهم يسمعون وقد يتأوهون أو يسكنون، ولٰكن العقول مخدَّرة

١٠٤٩/٦

وقضية أخرىٰ، نرىٰ أنه لا بد من أن نعرض لها في هٰذه المقدمة، وهي: أن لكل علم من العلوم الإنسانية والتجريبية، مناهج، وآلات، وتقنيات خاصة لفهمه وإدراكه، حتىٰ إننا نرىٰ اليوم، لكل شعبة أدوات خاصة لفهمها في مجال العلم الواحد. ففي مجال النقد الأدبي، مثلاً، هناك مناهج متعددة، وفي مجال التربية، والأخلاق، والتاريخ، والسياسة، والاجتماع... إلخ، أصبح لكل علم أدواته وآلات فهمه، ولكل منهج خصائصه وشروطه وميزاته، ولكل معرفة وسيلتها التي توصل إليها.

ومن هنا، نقول: إن منهج علماء الأصول، علىٰ دقته وعبقريته في استنباط الحكم التشريعي من آيات الأحكام، لا يُمكن أن يعتمد ليكون وسيلة علماء التاريخ، والاجتماع، والسياسة.. إلخ.

بل، بإمكاننا القول: إن هٰذا المنهج، علىٰ دقته، قد يكون مفسداً للنتائج والحقائق لو استعمل في غير ميدانه الذي وضع له، علىٰ الرغم من بعض التلاقي والأدوات المشتركة أحياناً في ميدان العلوم المتجانسة.

والمطروح بإلحاح: كيف يمكن التعامل مع القرآن، وتدبر آياته، والإفادة من معطيات العلوم وآلات فهمها، ليكون القرآن مصدر المعرفة، وفلسفتها في شعاب العلوم الاجتماعية جميعاً؟ حيث لا بد لنا من العودة إلىٰ القرآن كمصدر لمعارف الحياة، وفقه المعرفة والحضارة، للقيام بدورنا بمسؤولية الشهادة علىٰ الناس، والقيادة لهم، وإلحاق الرحمة بهم، واستئناف السير الذي توقف من عهد بعيد في كثير من شعب المعرفة التي يمنحها القرآن.

لذٰلك، كان لا بد من طرح القضية، وتقليب وجهات النظر في جوانبها المختلفة، في محاولة لتحقيق الرؤية القرآنية الشاملة.

وما نقدمه في هٰذا الكتاب من «مدارسة» مع الشيخ الغزالي نعتقد أنه عَرَض لمجموعة من الأمور المهمة، وقدم إضاءات جديدة علىٰ طريق بناء الفكر والثقافة القرآنية.. ولا ندّعي بأننا استطعنا بهٰذه «المدارسة» تقديم أو إنضاج منهج للتعامل مع القرآن، والخروج بالمسلمين من حالة الهجر التي أورثتهم الأزمات الفكرية، والتي يعانون منها، فالوصول إلىٰ منهج لفهم القرآن

بأبعاده ومحاوره المتعددة ليكون مصدراً للمعرفة، ليس بالأمر السهل الذي يمكن أن يتحقق بكتاب، أو حوار، أو مدارسة؛ ولٰكننا نستطيع أن نقول بكل اطمئنان: إننا استطعنا تقديم آفاق، ومؤشراتٍ، ومعالم علىٰ الطريق تثير وتستدعي كثيراً من النظر، والبحث، والتأصيل.

وقد نقول: بأن هٰذه «المدارسة»، أمكنها طرح القضية، واستدعائها إلىٰ محل الاهتمام، وتقديم مجموعة ملاحظات يُمكن أن تُعَدَّ أساساً لبناء فكر قرآني قادر علىٰ الانطلاق باتجاه الشهود والإنجاز الحضاري، وإحياء موات الأمة.

ولا شك، أن مثل هٰذه النقلة الثقافية، محتاجة إلىٰ شروط ومواصفات لها علاقة بالنظام التعليمي، والإعلامي، والتربوي، ومؤسسات تعليم القرآن، وحفظه، وتفسيره، وإن شئت فقل: لها علاقة بالتشكيل الثقافي للأمة بشكل عام.

ولعل ما نقدمه في هٰذا الكتاب، يشكِّل محاولة لكسر أقفال القلوب، وفتح النوافذ أمام العقول، ووضع الأغلال والآصار التي أثقلت الكواهل، وأوقفت فاعلية العقل المسلم.

ولا نحب أن نتكلم عن الشيخ الغزالي ـ أمد الله عمره ـ ونظراته الدقيقة والمتميزة في هٰذا الموضوع، وهو غنٌي عن التعريف حيث استجاب مأجوراً للحوار الذي أصرَّ علىٰ تسميته: «مدارسة»، وأوكل لنا مشكوراً أمر صياغته.

وقد آثرنا في العرض: إبقاء الحوار «المدارسة» مترسلاً علىٰ طبيعته، دون تدخل كبير في إعادة الترتيب، آملين أن يتواصل السير، وتأخذ القضايا المطروحة حظها من البحث، والمناقشة، والإثراء، والإنضاج.

ونعتقد أن هٰذا الموضوع من الأهمية بحيث يحتاج إلىٰ أكثر من معالجة، وأن يتناوله العلماء والمفكرون المسلمون من جوانب مختلفة، والله الموفق.

الدوحة/قطر: رمضان ١٤٠٩هـ
ابريل ١٩٨٩م

عمر عبيد حسنه

والحواس مبعثرة ومسالك الأفراد والجماعات في واد آخر، وكأنها تُنادىٰ من مكان بعيد!!

والأمة المنتمية إلىٰ القرآن لا تتبنىٰ دعوته، ولا تتبيَّن رسالته، بل إنها الآن سائبة خائبة فيها من يتبع الغرب، ومن يتبع الشرق، ومن بقي متردداً لا يعرف ما يتبع، ولا تحت أي راية يسير..

إن دعوة القرآن مجهولة مستوحشة، والحضارة التي يصنعها لا تجد من يصوّر معالمها بإتقان، ولا من يعبِّد طريقها بذكاء، ولا من يفتح لها دكاناً صغيراً في سوق امتلأ بلافتات خداعة لسلع ما تساوي شيئاً، أو مذاهب باطلة بالتعبير الصريح، أهٰكذا يتصرف أصحاب الحقيقة مع الحقيقة التي شرفوا بها وانتموا إليها؟

وجلست مع الأستاذ عمر عبيد حسنه نتشاكىٰ تلك الحال، فقال لي: إن للقضية أبعاداً لا يبلغها النظر السطحي! وربما اشتبكت مع مخلفات قديمة من ثقافتنا التقليدية.. وذكر الأستاذ أمثلة لما يراه موضوع بحث طويل في هٰذا المجال، وأهاب بي أن أكتب.

قلت له وأنا محزون: إنني في هٰذه الأيام أعجز عن الكتابة، وما عراني من مرض قيد حراكي الأدبي والمادي.

قال: فلنتدارس الأمر سوياً، وأتولىٰ أنا الشرح والصياغة، وعلمت أنه سيحمل العبء كله، ولم أرَ بُدّاً من الاستجابة داعياً الله أن يلهمنا الرشد، وينير الطريق.



مَدخَل:

□□ من خلال رحلتك الطويلة مع القرآن، حفظاً وتفسيراً وتعليماً ودعوة، ما النصيحة التي ترىٰ مسلمي اليوم بحاجة إليها للتعامل مع القرآن، ورسم الطريق للتخلص من حالة الهجر التي هم عليها، فيعود المسلمون إلىٰ القرآن، أو يعود القرآن للمسلمين، ليكون مصدراً لشحذ فاعليتهم، وبناء نهضتهم والوصول بهم إلىٰ موقع القيادة والشهادة؟

وبمعنًى آخر:

كيف يمكن لنا أن نحدد الشروط اللازمة للشهود الحضاري من خلال وضع منهج للفهم جديد، للتعامل مع القرآن، يكون نتيجة لاستقراء الواقع والحاجة والمعاناة التي يعيشها المسلم اليوم، وذٰلك باعتبار القرآن هو النص الخالد المجرد عن حدود الزمان والمكان، والمُجمع عليه من قبل المسلمين كلهم؟

● حال المسلمين مع القرآن الكريم، تستدعي الدراسة المتعمقة، ذٰلك أن المسلمين بعد القرون الأولىٰ، انصرف اهتمامهم بكتابهم إلىٰ ناحية التلاوة، وضبط مخارج الحروف، وإتقان الغُنن والمُدود، وما إلىٰ ذٰلك مما يتصل بلفظ القرآن والحفاظ علىٰ تواتره كما جاءنا، أداءً وأحكاماً ـ أقصد أحكام التلاوة ـ لٰكنهم بالنسبة لتعاملهم مع كتابهم، صنعوا شيئاً ربما لم تصنعه الأمم الأخرىٰ.. فإن كلمة «قرأت»، عندما يسمعها الإنسان العادي أو يقولها، تعني: أن رسالة جاءته أو كتاباً وقع بين يديه فنظر فيه، وفهم المقصود منه.. فمن حيث الدلالة، لا أجد فكاكاً بين الفهم والقراءة، أو بين السماع والوعي.

أما الأمة الإسلامية، فلا أدري بأية طريقة فصلت بين التلاوة، وبين التدبر. فأصبح المسلم اليوم يقرأ القرآن لمجرد البركة، كما يقولون، وكأن ترديد الألفاظ دون حس بمعانيها، ووعي لمغازيها، يفيد أو هو المقصود.

وعندما أحاول أن أتبين الموقف في هٰذا التصرف، أجد أنه موقف مرفوض من الناحية الشرعية، ذٰلك أن قوله تعالىٰ:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص].

يعني: الوعي والإدراك والتذكر والتدبر.. فأين التدبر؟ وأين التذكر مع تلك التلاوة السطحية التي ليس فيها أي إحساس بالمعنىٰ، أو إدراك للمقصد، أو غوص فيما وراء المعنىٰ القريب، لاستنتاج ما هو مطلوب لأمتنا من مقومات نفسية واجتماعية، تستعيد بها الدور المفقود في الشهادة علىٰ الإنسانية وقيادتها إلىٰ الخير.. بل أجد غياب بعض صفات عباد الرحمن التي وردت في القرآن الكريم، من أنهم قوم يقبلون علىٰ القراءة بحواسهم، فهم: يسمعون، ويبصرون، ومن ثم يتحركون.

نعم، قد يغيب عن الإنسان معنىٰ كلمة قد تكون غريبة عليه، وربما يعز عليه إدراك جملة من الجمل لأن التعبير القرآني في درجة من البلاغة لم يتذوقها هو.. وما من شك في أن القرآن، كتاب العربية الأكبر، ومنهل الأدب الخالد.. ولا يُقبل إطلاقاً أن ينتهي المسلم إلىٰ ذٰلك النوع الذي ذكره الله تعالىٰ حين وصف عباد الرحمٰن بقوله:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان].

وأجد اليوم أن الذين يخرون صمّاً وعمياناً، كثيرون. فالأمم الأخرىٰ أدركت حال المسلمين مع كتابهم، لذٰلك وجدنا إذاعات عالمية تحدد فترات لإذاعة القرآن، فإذاعة لندن تقدم تلاوة يومية للقرآن تفتتح بها برامجها، وربما تذيع إسرائيل أيضاً قرآناً في فترات ومناسبات متعددة، وكأنها اطمأنت إلىٰ أن الأمة الإسلامية اليوم، تسمع ولا تعي.

هٰذا موقف لا بد أن نحسمه، وأن نبتعد عنه، ونعالج أسبابه، وما سمعت كلاماً معقولاً أو مقبولاً في تبريره وتسويغه، فقد ذكر بعضهم أن ابن حنبل رَحِمَهُ اللهُ رأىٰ الله في المنام، واستفتاه في أحب شيء يقرِّب إليه. قال: كتابي يُقرأ.. فسأله: بفهم أو بغير فهم؟ قال: بفهم وبغير فهم!!

والمعروف أن الأحكام الشرعية لا تؤخذ من رؤىٰ النائمين، مهما كانت مكانتهم بين المسلمين.. الحكم الشرعي له مصادره من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ.. وهٰذا الكلام الذي يُرویٰ عن رؤيا ابن حنبل صح أو لم يصح، لا ينبغي أن يكون له في النفوس ما يجعل معظم المسلمين علىٰ الحال الشاذة التي يقعون فيها الآن.

لا بد من قراءة القرآن الكريم قراءة متدبرة واعية تفهم الجملة فهماً دقيقاً، ويبذل كل امرئ ما يستطيع لوعي معناها وإدراك مقاصدها، فإن عزَّ عليه، سأل أهل الذكر.. والمدارسة للقرآن مطلوبة باستمرار.. ومعنىٰ مدارسة القرآن: القراءة والفهم والتدبر والتبيّن لسنن الله في الأنفس والآفاق، ومقومات الشهود الحضاري، ومعرفة الوصايا والأحكام، وأنواع الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، وما إلىٰ ذٰلك مما يحتاج المسلمون إليه لاستئناف دورهم المفقود.

قرأت للعقاد[1] مرة أن هناك ما يُسمىٰ بشعر الحالات النفسية، وهو أن يرتقي الإنسان مع الكتاب الذي يقرأه، ويرتفع بنفسه إلىٰ الحقائق أو القصص أو المطالب كي يصورها. وهٰذا إن كان مطلوباً مع الكتب العادية، فهو مع كتاب الله أولىٰ.. وهٰكذا كان الأولون.

كان الأولون يقرأون القرآن فيرتفعون إلىٰ مستواه.. أما نحن فنقرأ القرآن فنشده إلىٰ مستوانا.. وهٰذا ظلم للكتاب.. هٰذه ناحية.

ومن الناحية الأخرىٰ، فإن أثر القرآن في نفس من نزل عليه القرآن، يجب أن يُعرف. فالنبي عليه الصلاة والسلام، **«كان خلقه القرآن»**[2]، كما

---

(١) عباس بن محمود بن إبراهيم بن مصطفىٰ العقاد: إمام في الأدب، مصري، من المكثرين كتابة وتصنيفاً مع الإبداع. أصله من دمياط ولد عام ١٣٠٦هـ (١٨٨٩م) في أسوان وتعلم في مدرستها الابتدائية، وشغف بالمطالعة، وانقطع إلىٰ الكتابة في الصحف والتأليف، وأقبل الناس علىٰ ما ينشر. تعلم الإنجليزية في صباه وأجادها ثم ألمَّ بالألمانية والفرنسية وظل اسمه لامعاً مدة نصف قرن أخرج في خلالها من تصنيفه ٨٣ كتاباً، في أنواع مختلفة من الأدب الرفيع. توفي عام ١٣٨٣هـ (١٩٦٤م).

(٢) الحديث رواه مسلم في «صحيحه» عن عائشة ﵂، في كتاب صلاة المسافرين، =

روت السيدة عائشة[1] رضي الله عنها. ومعروف أن معنىٰ الكلمة: أنه كان يعيش في جو قرآني، ويصدر في سلوكه عن قيم القرآن، وأن عقله الظاهر والباطن مع الله عندما يكون الحديث عن الله، ومع الكون في سياحة عريضة وتأمل وتدبر لآلاء الله عندما يكون الحديث عن الكون وقواه وأسراره، ومع الماضين في الاتعاظ والاعتبار بمصارعهم ومصائرهم ومسالكهم عندما يكون الحديث في قصص القرآن، ومع الآخرة والنعيم والجحيم عندما يكون القرآن وصفاً للجزاء الأخروي وما أعد لهٰؤلاء وأولٰئك.. أي، أن النبي عليه الصلاة والسلام، كان يحيا في جو القرآن. وهٰذا هو ما جعل الإمام الشافعي[2] رحمه الله يقول: إن السنّة هي فهم النبي للقرآن، أو نضح فهمه للقرآن، فهو مرتبط به ارتباطاً تاماً في حياته، في ظاهره وباطنه..

والأمة التي نزل عليها القرآن فأعاد صياغتها، هي المعجزة التي تشهد للنبي عليه الصلاة والسلام بأنه أحسن بناء الأجيال، وأحسن تربية الأمم، وأحسن صياغة جيل قدم الحضارة القرآنية للخلق.. فنحن نرىٰ أن العرب عندما قرأوا القرآن، تحولوا تلقائياً إلىٰ أمة تعرف الشورىٰ وتكره الاستبداد،

= باب: جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض. ولفظ الحديث: «فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن».

(١) عائشة بنت أبي بكر الصديق عبد الله بن عثمان. من قريش: أفقه نساء المسلمين وأعلمهن بالدين والأدب، ولدت عام ٩ قبل الهجرة (٦١٣م). كانت تكنىٰ بأم عبد الله. تزوجها النبي ﷺ في السنة الثانية بعد الهجرة، فكانت أحب نسائه إليه، وأكثرهن رواية للحديث عنه. وكان أكابر الصحابة يسألونها عن الفرائض فتجيبهم. وتوفيت في المدينة عام ٥٨هـ (٦٧٨م). روي عنها ٢٢١ حديثاً. ولبدر الدين الزركشي كتاب «الإجابة لما استدركته عائشة علىٰ الصحابة».

(٢) هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع. من بني المطلب من قريش. أحد أئمة المذاهب الأربعة، وإليه ينتسب الشافعية. جمع إلىٰ علم الفقه القراءات وعلم الأصول والحديث واللغة والشعر. ولد عام ١٥٠هـ. كان شديد الذكاء. نشر مذهبه بالحجاز والعراق. ثم انتقل إلىٰ مصر (١٩٩هـ) ونشر بها مذهبه أيضاً. وبها توفي عام ٢٠٤هـ.
من تصانيفه: «الأم» في الفقه؛ و«الرسالة» في أصول الفقه؛ و«أحكام القرآن»؛ و«اختلاف الحديث» وغيرها.

إلىٰ أمة يسودها العدل الاجتماعي ولا يُعرف فيها نظام الطبقات، إلىٰ أمة تكره التفرقة العنصرية، وتكره أخلاق الكبرياء والترفع علىٰ الشعوب.. ووجدنا بدوياً كربعي بن عامر[1] ﷺ، يقول لقائد الفرس: جئنا نخرج الناس من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام.. إنهم فتح جديد للعالم، وحضارة جديدة أنعشت الإنسانية ورفعت مكانتها، لأن الأمة الإسلامية كانت في مستوىٰ القرآن الكريم، والحضارة الإسلامية إنما جاءت ثمرة لبناء القرآن للإنسان.. لذلك بدأت تختفي الآثار الفكرية والنفسية لآداب الفرس، ولفلسفة الروم، لأن القرآن الكريم جاء بجديد: حوَّل الكلام والتوجيه من تجريدات ذهنية نظرية جدلية، كما يفعل الفرس واليونان والرومان، إلىٰ منطق ملاحظة واستقراء، ومنطق وعي الكون واحترامه، والتعرف علىٰ سننه ومشروعية التعامل معه لعمارة الأرض وبناء الحضارة.

فالفكر الإغريقي فكر تجريدي، يرىٰ أن المادة خسيسة، وأن المعنويات هي في الاستعلاء علىٰ المادة.. أما الفكر المأخوذ من القرآن الكريم فهو فكر علمي وعملي، يحترم المادة ويعلي شأنها، بل يرىٰ أن خالق المادة، يُقسم بها، وما أقسم بها إلا لأنه أودع في الكون أسراره: أسرار عظمته.. وترك في الكون ما يدل علىٰ صفاته العلا، فمن حقه جل جلاله أن يُقسم بالكواكب وهي تملأ الكون، وأن يقسم بالنفس البشرية، والوالد وما ولد، وأن يُقسم بالرياح، والشفق، والليل وما وسق، والقمر إذا اتسق، فالإعجاز في الكون ظاهر في القرآن الكريم.

من آثار هجر القرآن:

لذلك، وجدنا الأمة الإسلامية عندما هجرت كتابها، أو علىٰ الأقل

---

(١) هو ربعي بن عامر بن خالد بن عمرو، ولاه عمر بن الخطاب ﷺ مجنبة الجند تحت إمرة أبي عبيدة بن الجراح ﷺ في العراق، وله ذكر في غزوة نهاوند، وولاه الأحنف، لما فتح خراسان، علىٰ طخارستان.

أخذت تقرأه علىٰ أنه تراتيل دينية، فإنها فقدت صلتها بالكون، وكانت النتيجة: أن الذين درسوا الكون خدموا به الكفر، واستطاعوا أن يسخروه لأنفسهم، ومبادئهم، وإلحادهم، وتثليثهم. أما نحن، ومع أن كتابنا كتاب الفكر، أو كما يقول العقاد: التفكير فريضة إسلامية، ومع أن كتابنا كتاب تجاوب مع الكون بحيث لم نر كتاباً سماوياً أو مقدساً ـ كما يقولون ـ نوَّه بعظمة الله في كونه أو بعظمة الكون لأن الله هو الخالق، كالقرآن الكريم.. ما الذي صرفنا عن هٰذا كله؟ صرفنا عنه أننا ما أحْسنَّا التلقي والتعامل مع القرآن أبداً. بل كما نقرأ، وكنا نعتبر الخطأ الكبير فقط إلَّا يمد القارئ المد اللازم خمس أو ست حركات، أو لا يغن الغنة، أو لا يخفي الإخفاء! وكل ذٰلك يمكن أن يكون وسائل لحماية الأداء القرآني ليكون محلاً للنظر والتدبر.. أما وعي المعاني، وإدراك الأحكام، والتحقق بالعاطفة المناسبة من خلال تشرب معاني القرآن، فقد اختفىٰ من نفوسنا.

هٰذا شيء لا بد أن نبدأ به كل كلام عن القرآن الكريم، وإلَّا فنحن معزولون عن ديننا وعن مصدره.

القرآن كتاب يصنع النفوس، ويصنع الأمم، ويبني الحضارة.. هٰذه قدرته.. هٰذه طاقته.. فإما أن يُفتح المصباح، فلا يرىٰ أحدٌ النور لأن الأبصار مغلقة، فالعيب عيب الأبصار التي أبت أن تنتفع بالنور، والله يقول:

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦].

نحن ما اتبعنا رضوان الله، ولا سبل السلام، ولا استطعنا أن نقدم سلاماً للعالم، ولا استطعنا أن ننقل هدايات القرآن للقارات الخمس.. هناك في عصرنا خمسة مليارات من البشر، محجوبة عن أضواء القرآن، لا تعرف عنه شيئاً! والسبب: أن المسلمين أنفسهم محجوبون عن أضواء القرآن، وفاقد الشيء لا يعطيه.

العودة إلىٰ القرآن:

أرىٰ أنه لا بد أن نعود لدراسة القرآن.. وتلاوة القرآن عندنا مطلوبة.. والتعبد بتلاوة القرآن كان لاستبقاء الوحي الذي صانه الله في الإسلام، بينما ضاع الوحي القديم بالإهمال، والتداخل مع التراجم، وبأشياء كثيرة.. نحن أمرنا أن نتلو القرآن، لٰكن - كما قلت - يستحيل فصل المعنىٰ عن المبنىٰ، وهٰذا تجده في آيات التلاوة الواردة في القرآن، كقوله تعالىٰ:

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرعد].

ويتحدث القرآن مرة أخرىٰ عن أن التلاوة هنا هي أساس التوكل، وأساس التوجه، وأساس صنع النفس البشرية.. وربما تطلعت الشعوب إلىٰ معجزة أخرىٰ غير هٰذا القرآن من مثل معجزة تكليم الموتىٰ، تسيير الجبال، تحرك الناس بطريقة أخرىٰ، عندما قالوا:

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١].

لٰكن، لا.. فهٰذا قرآن يكلم الرجال ليعيد صياغتهم، ويكلم الأحياء ليحقق استجابتهم، ويكلم العقلاء ليوجّه وعيهم، فيجعل منهم أمة تحمل رسالتها.. وفعلاً حملت الأمة رسالتها لأنها فهمت المقصود من إرسال المعجزة الأخيرة، وأدركت أبعادها، وتدبرت مقاصدها: معجزة إنسانية تتصل بإحياء المواهب الإنسانية، وتفجير الطاقة البشرية لهٰذا الخلق، وإعادة بناء وتشكيل العقل الإنساني.

من تجربتي الذاتية:

حفظت القرآن وعمري عشر سنين.. وبداهة ما كنت أعي منه شيئاً.. بل من اللطائف التي أذكرها، أني وأنا أحفظ سورة الإسراء، وأقرأ قوله تعالىٰ:

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣].

كنت أفهم مثلاً أن هناك شيئاً كحمامة أو غراب، يجعل في عنق الإنسان.. والغريب أن هٰذه الطريقة في الحفظ لألفاظ القرآن، صرفتني عن معان كثيرة كنت أمر بها ولا أعرفها.. وأنا كبير، أقرأ، ولٰكن لأني حفظت الكلام دون فهم للمعنىٰ، أجد نفسي، في كثير من الأحيان، أمضي دون فهم للمعنىٰ لأن الحفظ كان يغلب علىٰ التدبر أو علىٰ إحسان الوعي.. وما بدأت أفكر حتىٰ أكرهت نفسي علىٰ أن أعود فأدقق النظر في كل ما أقرأ، وأحمل نفسي علىٰ ترك هٰذه العادة التي ورثتها مع الحفظ، بل قد يخيل إليَّ أن بعض الكتاتيب أساءت إلىٰ القرآن من حيث تريد الإحسان، من ناحية أنها خرَّجت أشرطة مسجلة، ولم تخِّرج كيانات حية للناس. لذٰلك أرىٰ: أنه لا بد من إعادة النظر في هٰذا الموضوع.

ناقشت نفسي بعد ذٰلك، وكنت أريد أن أقول: لا معنىٰ لأن يحفظ الصغار القرآن الكريم.. لٰكني ـ من باب طرح الموضوع وتقليب النظر فيه، وهٰذا شيء لا أحب أن أنفرد فيه بحكم، بل أحب أن يشارك الآخرون معي الرأي في هٰذا المجال ـ عندما أنظر إلىٰ التلفاز وهو يقدم برامج الأطفال التي من المفروض أن تكون مدروسة في جميع النواحي، أجد أن العقل يُبْعد عن البرامج، وأجد مسرح العرائس، وأجد المستحيلات تعرض علىٰ الأطفال، كأنما المهم هو إشباع الخيال! فقلت في نفسي: إذا كانت التربية الحديثة تبعد العقل وتتجه إلىٰ إشباع الخيال، وتستهوي الأطفال بمثل هٰذه المناظر، وما دام هناك قدر من ترك العقل في تربية الطفل، فليحفظوا الألفاظ. لٰكن جاءني مرة أخرىٰ تساؤل: فما قيمة حفظ الألفاظ إذا كنا سنقتصر عليها ونقدم للمجتمع ببغاوات تجيد ـ إن كانت صيِّتة ـ موسيقىٰ الأداء، وإن كانت غير صيِّتة تجيد الحفظ العادي، وينتهي الأمر؟

أرىٰ أن الأمر يجب أن يُطرح، وأن يكون موضع مراجعة، وحوار، ومناقشة، وأخذ ورد من قِبَل متخصصين في التربية وعلم نفس الطفل، لأني في الحقيقة، كاره لهٰذه الأشرطة، التي تجعل الناس يحفظون ولا ينتفعون.. وفي الوقت نفسه، أحب بقاء واستمرار التواتر القرآني، فهل في الإمكان أن

يحفظ الطلاب قطعاً من القرآن الكريم، وأن يُقرَّب لهم المعنىٰ في الوقت نفسه؟

حسن استثمار مرحلة الطفولة للحفظ:

□□ مما يلفت النظر، أن الحافظة في هـٰذه السن ـ دون العاشرة ـ هي المهيأة لاستظهار القرآن. . وكلما تقدمت السن بالإنسان، قلَّت ملكة الحفظ عنده، وتقدمت ملكة الفهم، أي القدرة علىٰ التركيب والتحليل والتدبر والغوص وراء المعاني البعيدة، وما إلىٰ ذٰلك. . فاستثمار هـٰذه السن لاستظهار القرآن وحفظه، مع شيء من تقريب المعاني وعدم الاقتصار علىٰ الاشتغال بالحفظ فقط، قد يكون من بعض الحلول المطلوبة لمعالجة ما يمكن أن يترتب مستقبلاً من الانصراف إلىٰ اللفظ والاهتمام به دون التدبر في المعنىٰ. . وأظن أن ما يعرض من برامج أطفال، ليس العقل مستبعداً منها بإطلاق، لـٰكن جُعل للعقل النصيب الذي يستطيعه الطفل، ويثير عنده قضية خصوبة الخيال العلمي بشكل خاص. . فليس هو ملء خيال فقط بعيد عن أي هدف، وإن كان تخصيب الخيال هدفاً بحد ذاته. .

● البرامج التي رأيتها تُعرض علىٰ الأطفال، ما تعتمد إطلاقاً علىٰ العقل، وإنما هي خيالات جامحة إلىٰ حد بعيد. .

سألت نفسي أيضاً ـ والأمر يحتاج إلىٰ دراسة ـ: الصحابة الذين استمعوا للقرآن الكريم كانوا شباباً، ويوجد بعض الأطفال الحفظة، لـٰكن لا ننسىٰ أن الوعي العربي، أو أن لغة التخاطب بين العرب كانت قريبة من أسلوب القرآن، فالفهم واضح. .

□□ لـٰكن، ألا تعتقد أن هـٰذه المحفوظات من الآيات التي تتنزل، كانت تدعم معانيها في نفوسهم الحياة الواقعية التي تبرز معناها مجسداً، فالحياة الواقعية كانت هي الوسائل المعينة علىٰ التمثل والتدبر، كانت مترجمة أو مجسدة في أعمال ووقائع، إلىٰ جانب تقارب لغة الخطاب. . أي هناك مناخ عملي مجسد لهـٰذه المعاني ينشأ فيه الأطفال. . أما اليوم، وبعد أن

تباعدت اللغة، وغاب تنزل معظم المعاني القرآنية علىٰ حياة المسلمين، فلا بد من إعادة النظر باستمرار بطريقة توصيل القرآن إلىٰ الطلبة والأطفال وإعمار عقولهم بالمعاني الإجمالية التي تتناسب مع عمرهم العقلي وتعويدهم البحث فيما وراء الألفاظ؟

● هٰذا حق، ولذٰلك ورد أن الرسول ﷺ كان يعلم الناس المغازي كما يعلمهم السورة من القرآن.. وبدهي عندما تنزل سورة فيها قصة أُحُد ونحن خارجون من الهزيمة، والفتيان والفتيات والرجال والنساء يشعرون بكل ما وقع، فالقرآن الذي يتلىٰ هنا يكون قطعة من الحياة.. وما أظن أن الصحابة رضوان الله عليهم، كان عندهم عدد كبير من حفَّاظ القرآن.. ربما كانوا نسبة في المائة.. ولعل الأمر الأكثر بروزاً عندهم، كان تمثل المعاني وترجمتها إلىٰ واقع علىٰ الرغم من كثرة الحفظة وكتاب الوحي.. ففي حرب اليمامة، قُتل عدد كبير من حفاظ القرآن، ورأيت سالماً مولىٰ حذيفة[1] ﷺ، ذٰلك الرجل العظيم الذي استشهد في تلك المعركة والذي كان أحد النماذج لعطاء القرآن، قال: (بئس حامل القرآن أنا إن أوتيتم من قبلي).. فقد عزَّ عليه أن يُقال له: احذر يا سالم أن نؤتىٰ من قبلك.. فغضب، وغرس حربته، ومات مكانها، وأبىٰ أن يتزحزح أمام هجوم المرتدين. فكان نموذجاً حياً للقرآن الكريم عندما ينطلق قذيفة حية لأداء رسالة الهدىٰ والنور.

علىٰ كل حال أنا أريد أن يُطرح الموضوع من جديد وأن يُعاد النظر في أسلوب الحفظ وتوصيل القرآن إلىٰ الأجيال القادمة، فالأمر يحتاج إلىٰ مدارسة وطريقة تربوية تجعلنا نستجيش المعاني، ونحيا بها ولها، ولا نكوّن أشرطة

---

(١) سالم بن معقل: أبو عبد الله، مولىٰ أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس: صحابي، من كبارهم وكبار قرائهم. فارسي الأصل أعتقته ثبيتة زوج أبي حذيفة، صغيراً، وتبناه أبو حذيفة وزوجه ابنة أخ له. وهو من السابقين إلىٰ الإسلام. كان يؤم المهاجرين الأولين، قبل الهجرة، في مسجد قباء، وفيهم أبو بكر وعمر. شهد بدراً، ثم كان معه لواء المهاجرين يوم اليمامة. فقطعت يمينه فأخذه بيساره فقطعت، فاعتنقه إلىٰ أن صرع عام ١٢هـ (٦٣٣م).

تسجيل، كل ما لديها أنها تستوعب الألفاظ، وانتهىٰ الأمر.

تَقْنيات الحفظ، وضرورة استمرار التواتر في المشافهة:

□□ يبدو لي في هـٰذه النقطة أنه بعد تقدم التقنيات التي مكنت من الحفظ والطباعة والتسجيل واسترجاع ذٰلك بسهولة ويسر، وأصبح الاعتماد علىٰ الذاكرة في العصر الحاضر محدوداً إلىٰ حد بعيد حيث تقوم تلك التقنيات الحديثة مقام الذاكرة، وكانت الذاكرة في الماضي هي الوسيلة الوحيدة لحفظ القرآن وتواتره وما إلىٰ ذٰلك.. أما الآن وقد وُجد القرآن مسجلاً، فقد تكون الحاجة إلىٰ حفظ الذاكرة تراجعت، وأصبحت الحاجة إلىٰ المدارسة والتدبر، هي الأكثر أهمية علىٰ الرغم مما في الحفظ من أبعاد تبقىٰ مطلوبة لأكثر من أمر من مثل: تكوين المرجعية للطفل وانطباعه بأسلوب القرآن وكلماته، وتكوين ملكته اللغوية، إلىٰ جانب استمرار تواتر المشافهة وضرورة استحضار الآيات في الأداء العبادي، وإن كان الحضور القرآني في النفس الإنسانية سوف لا يغني عنه شيء من تقنيات الحفظ..

● لا بد من استبقاء التلاوة، لأن القرآن تميز ببقائه، وبقاؤه يرجع إلىٰ هـٰذا السّيل المَّوار من الحفظة الذين لا ينقطعون في عصر من العصور، واستمرار هـٰذه المشافهة في الحفظ وتواترها، إلىٰ جانب الكتابة، هو الذي حمىٰ النص القرآني، وضمن استمراره. وأذكر أني كنت في مكة، وكنت أقرأ القرآن بالترتيب في صلواتي، فجاء الدور في سورة فاطر، فكنت أقرأ، وحصل مني خطأ، ففوجئت بأن واحداً من وسط الصفوف يردني إلىٰ الصواب، وشعرت بفرح يغمرني لأن القرآن ـ ولله المَّنة ـ يُوجد من يحفظه من رجل الشارع العادي، كما يُقال..

فلا بد من استمرار التواتر القرآني، وهـٰذا جزء من رسالة الأمة الإسلامية.

دور المناهج التراثية في فهم القرآن والتعامل معه:

□□ هناك مدارس في التفسير، أو ـ بمعنًى أدق ـ مناهج متعددة في فهم

القرآن، تشكل بمجموعها طرائق السلف ومسالكهم في التناول والفهم. ولقد جاءت هٰذه المدارس في ضوء تحقيق أهداف بلاغية لغوية أو فقهية أو كلامية أو صوفية فلسفية أو تربوية.. إلخ لا سبيل إلىٰ حصرها هنا. كيف يمكن الإفادة منها والتعامل معها اليوم، فمثلاً هل يمكن اعتماد منهج علماء الأصول في النظر والاستنباط، ومباحث دلالات الألفاظ... إلخ، الذي اعتمدوه للوصول إلىٰ الحكم التشريعي، منهجاً شاملاً يمكن تعميمه علىٰ إدراك الأبعاد المتعددة في الخطاب القرآني، التي تستوعب كلمة الفقه للآيات بالمعنىٰ الشامل مثل: الفقه الدستوري، والإداري، واكتشاف سنن التسخير، والتعرف علىٰ شروط نهوض الأمم وسقوطها، وتحديد أبعاد الاعتبار بأحوال الأمم السابقة، وقوانينه، وتحديد علل التدين، وبيان أسبابها النفسية، والاجتماعية، وما يمكن أن تحقق من مقاصد ومغزىٰ في القصص القرآني؟

ذٰلك أن علماء الأصول انصرفوا، لسبب أو لآخر، إلىٰ الحكم التشريعي، واعتبروا الخطاب القرآني ذا بعد واحد، وحصروا مفهوم الفقه في الحكم التشريعي، مع أن للخطاب أبعاداً أخرىٰ متعددة ـ كما ذكرنا ـ قد تكون مقدمة لا بد من تحصيلها ليترتب بعد ذٰلك الحكم التشريعي.. وفي الحقيقة، قد يكون المنهج الذي تأصل وتكوَّن من بين سائر المناهج هو منهج علماء الأصول، وتلاشت سائر المناهج، أو توقفت بشكل مبكر..

● هٰذا الكلام، يعود بنا إلىٰ شيء كنت ذكرته في إحدىٰ خواطري.. وهو أن المدارس الكبرىٰ في التاريخ الثقافي للفكر الإسلامي، تلاشىٰ أكثرها.. هناك الآن مدرسة المحدِّثين، وهي مدرسة تكافح باسم السلف، لٰكن قصرت مهمتها وحصرت اهتمامها بعلوم السنَّة فقط بعيداً عن الرؤية الشمولية لقيم الإسلام وعطائه الحضاري. وهناك مدرسة الفقهاء، وهي مدرسة اقتصرت علىٰ فقه العبادات وما إليه، وجعلت منه إطاراً لنشاطها العقلي، وقلما انخلعت بعيداً عنه. وإذا تجاوزته، فإلىٰ معاملات الأسواق العادية.. أما أن تذهب هٰذه المدرسة إلىٰ الآفاق الإسلامية البعيدة، وتنزل الإسلام علىٰ واقع الناس، وتعالج مشكلاتهم في ضوء قيم القرآن الخالدة وتعاليم السنة

المبيِّنة، فأمر لا نرىٰ له شيئاً يذكر، كما كان الفقهاء قديماً يفعلون..

فالإمام أبو حنيفة[1] مثلاً، له تلميذان مشهوران: أبو يوسف[2]، ومحمد[3].. أبو يوسف ألَّف في الخراج، أي في الضريبة.. ومحمد ألَّف في العلاقات الدولية في كتابه: «السِّير الكبير».. هٰذا هو الفقه قديماً، فكان كل منهما رائداً في مجاله.. أما أن يكون الفقه اليوم مقطوع الصلة بالفقه الدستوري، والفقه الإداري، والفقه الدولي، فهٰذا موت.

وهناك منهج الأصوليين أو مدرسة الأصوليين، وهي مدرسة فيها دقة وضبط للنظر واستنباط الأحكام، ولٰكن يوشك أن يُقال: إن آخر من ظهر فيها وجُمدت بعده حتىٰ كادت تموت: الإمام الشاطبي[4] في كتابه «الموافقات»،

---

(١) هو النعمان بن ثابت بن كاوس بن هرمز. ينتسب إلىٰ تميم بالولاء. الفقيه المجتهد المحقق الإمام، أحد أئمة المذاهب الأربعة، قيل: أصله من أبناء فارس، ولد ونشأ بالكوفة. كان يبيع الخز ويطلب العلم، ثم انقطع للدرس والإفتاء. ولد عام ٨٠هـ، وتوفي عام ١٥٠هـ.
له «مسند» في الحديث؛ و«المخارج» في الفقه؛ وتنسب إليه رسالة «الفقه الأكبر» في الاعتقاد؛ ورسالة «العالم والمتعلم».

(٢) هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب. القاضي الإمام. أخذ الفقه عن أبي حنيفة ﷺ، وهو المقدم من أصحابه جميعاً. ولي القضاء للهادي والمهدي والرشيد. وهو أول من سمِّي قاضي القضاة، وأول من اتخذ للعلماء زياً خاصاً. توفي عام ١٨١هـ.
من تصانيفه: «الخراج»؛ و«أدب القاضي»؛ و«الجوامع».

(٣) هو محمد بن الحسن بن فرقد. نسبته إلىٰ بني شيبان بالولاء. أصله من (حرستا) من قرىٰ دمشق، منها قدم أبوه العراق. فولد له محمد بواسط، ونشأ بالكوفة. إمام في الفقه والأصول، ثاني أصحاب أبي حنيفة بعد أبي يوسف، من المجتهدين المنتسبين. هو الذي نشر علم أبي حنيفة بتصانيفه الكثيرة، ولي القضاء للرشيد بالرقة، ثم عزله. استصحبه الرشيد في مخرجه إلىٰ خراسان، فمات محمد بالري. ولد عام ١٣١هـ، وتوفي عام ١٨٩هـ.
من تصانيفه: «الجامع الكبير»؛ و«الجامع الصغير»؛ و«المبسوط»؛ و«السير الكبير»؛ و«السير الصغير»؛ و«الزيادات»؛ وله «كتاب الآثار» و«الأصل».

(٤) هو إبراهيم بن موسىٰ بن محمد، أبو إسحاق، اللخمي الغرناطي، الشهير بالشاطبي، من علماء المالكية. كان إماماً محققاً أصولياً مفسراً فقيهاً محدثاً ناظراً ثبتاً بارعاً في العلوم. =

وهو كتاب جيِّد، لٰكن الرجل توقف عنده علم الأصول عن العطاء، ولا أعرف من جاء بعده بشكل متميز، ومن ثَمَّ أصبح علم الأصول نفسه ذٰلك المنهج العظيم، علىٰ يد المتأخرين، علماً مضحكاً، لأنه أصبح كالآتي: الخلاصة، التلخيص، والملخص، المتن، الشرح، الحاشية.. كأننا نطحن الماء فلا يزيد ولا ينقص.

وهناك منهج المتصوفة، أو مدرسة المتصوفة، وهي مدرسة تشينها الخرافة لأنها اعتمدت علىٰ خطرات القلوب بعيداً عن الضوابط الشرعية واللغوية، وانتهت إلىٰ صورة من الإرجاء والجبرية أدت إلىٰ الانسحاب من المعركة الاجتماعية (وممارسة نوع من الانتحار الروحي).. ولٰكن يزينها أنها بحثت في الأخلاق وأدب النفس، وحسن الصلة بالله، وحسن استحضار جلاله وهيبته، ولا بد من إعادة النظر في مَنْهجها ووسائلها في ضوء أهدافها الضرورية للأمة، وضبطها بضوابط الشريعة.

وهناك منهج الفلاسفة، أو مدرسة الفلاسفة، ومن رجالها الأكابر: الغزالي[1]، وابن رشد[2]، وكلاهما خصم للآخر، ولٰكن كلاهما فيلسوف..

= من تصانيفه: «الموافقات في أصول الشريعة»؛ و«الاعتصام»؛ و«المجالس» شرح به كتاب البيوع في صحيح البخاري. توفي عام ٧٩٠هـ.

(١) هو محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالي. نسبته إلىٰ الغزَّال (بالتشديد)، وكان أبوه غزَّالاً، أو هو بتخفيف الزاي، نسبته إلىٰ (غزاية) قرية من قرىٰ طوس. فقيه شافعي أصولي، متكلم، متصوف، رحل إلىٰ بغداد، فالحجاز، فالشام، فمصر، وعاد إلىٰ طوس. ولد عام ٤٥٠هـ، وتوفي عام ٥٠٥هـ.
من مصنفاته: «البسيط»؛ و«الوسيط»؛ و«الوجيز»؛ و«الخلاصة»؛ وكلها في الفقه؛ و«تهافت الفلاسفة»؛ و«إحياء علوم الدين».

(٢) هو محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، أبو الوليد. فقيه مالكي. فيلسوف، طبيب، من أهل الأندلس. من أهل قرطبة. عني بكلام أرسطو وترجمه إلىٰ العربية وزاد عليه زيادات كثيرة. اتهم بالزندقة والإلحاد فنفي إلىٰ مراكش. وأحرقت بعض كتبه، ومات بمراكش ودفن بقرطبة، ويلقب بالحفيد تمييزاً له عن جده أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد الذي يميز بالجد. ولد عام ٥٢٠هـ، وتوفي عام ٥٩٥هـ.
من مصنفاته: «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال»؛ و«تهافت =

والحقيقة أنه لا بد من النظر إلىٰ هـٰذه المدرسة من خلال ظرفها التاريخي والمشكلات والتحديات التي واجهت الفكر الإسلامي في حينها، ودورها في الذود عنه؛ أما النظر إليها بعد أن انتهت إلىٰ تجريدات ذهنية بعيدة عن الواقع فأمر قد يكون فيه كثير من التجني.

هـٰذه المدارس، تكاد تكون اختفت، وما بقي منها الآن إلا أطلال. ولكي تنتعش الثقافة الإسلامية يجب أن تعود هـٰذه المدارس بصياغة جديدة تستمد تصوراتها من القرآن والسنة، وتنزل إلىٰ ساحة الواقع، متبنية المنهج العملي الواقعي بعيداً عن التجريدات الذهنية والمنطق المجرد.

ثم، لا بد أن تعود المدرسة التي أُهيل عليها التراب من عهد مبكر وهي مدرسة ابن الهيثم[1]، وجابر بن حيان[2]، والخوارزمي[3] والذين انطلقوا من

= التهافت» في الفلسفة؛ و«الكليات» في الطب؛ و«بداية المجتهد ونهاية المقتصد» في الفقه؛ و«رسالة في حركة الفلك».

(١) محمد بن الحسن بن الهيثم، أبو علي: مهندس من أهل البصرة، يلقب ببطليموس الثاني. له تصانيف في الهندسة. وكتبه تزيد علىٰ سبعين، منها: «المناظر» نُشرت ترجمته إلىٰ اللاتينية سنة ١٥٧٢م، «كيفية الإظلال» ترجم إلىٰ الألمانية ونشر بها مختصراً، و«تهذيب المجسطي»، و«الشكوك علىٰ بطليموس» رسالة، و«الأخلاق» رسالة، و«مساحة الجسم المتكافئ» نشر بالألمانية، و«الأشكال الهلالية»، و«تربيع الدائرة»، و«شرح قانون إقليدس»، و«مساحة الكرة»، و«المرايا المحرقة» ترجم إلىٰ الألمانية ونشر بها، و«تفسير المقالة العاشرة لأبي جعفر الخازن»، و«ارتفاعات الكواكب» إلخ. ولد عام ٣٥٤هـ (٩٦٥م)، وتوفي نحو عام ٤٣٠هـ (١٠٣٨م).

(٢) جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي، أبو موسىٰ: فيلسوف كيميائي. كان يعرف بالصوفي. من أهل الكوفة، وأصله من خراسان، اتصل بالبرامكة، وانقطع إلىٰ أحدهم جعفر بن يحيىٰ. وتوفي بطوس عام ٢٠٠هـ (٨١٥م).
له تصانيف كثيرة قيل: عددها ٢٣٢ كتاباً، وقيل: بلغت خمسمائة. ضاع أكثرها، وتُرجم بعض ما بقي منها إلىٰ اللاتينية منها: «مجموع رسائل»، و«أسرار الكيمياء»، و«علم الهيئة»، و«أصول الكيمياء»، و«المكتسب»، و«كتاب في السموم»، و«تصحيحات كتب أفلاطون»، و«الخمائر»، و«الرحمة»، وكتاب «الخواص» الكبير المعروف بالمقالات الكبرىٰ والرسائل السبعين، و«الرياض»، و«صندوق الحكمة»، و«العهد» في الكيمياء.

(٣) محمد بن موسىٰ الخوارزمي، أبو عبد الله: رياضي فلكي مؤرخ، من أهل خوارزم، =

الرؤية القرآنية للسنن الكونية ودرسوا الكون دراسة جيدة. . كما لا بد أن تعود مدرسة الأدب، لأنه منذ القرن الرابع الهجري، ضاع الأدب العربي تقريباً، وافتقد رسالته، وغاب هدفه، وبدأ ينحدر إلىٰ أن جاء من يقول قصيدة في خاتم، وفي شمعة. .

الثقافة الإسلامية بالصورة التي انتهت إليها الآن، لا تسر مسلماً حريصاً علىٰ ثقافته، لأنها ابتعدت عن الينابيع الأصلية من الكتاب والسنَّة، وتوقفت عند الحدود التي جمدت عندها مدارس الفكر الإسلامي. .

المدارس القرآنية الحديثة:

ويمكن حصر الثقافة القرآنية الآن، في عدد من المدارس: فهناك مدرسة الأثريين، أو أصحاب التفسير بالمأثور، وهي مدرسة يمثلها الآن «ابن كثير»، وتفسيره شائع، وإن كان ابن جرير الطبري[1]، أرقىٰ منه وتفسيره أدق. . والذي يعيب هٰذه المدرسة ـ في نظري ـ أنها ربطت تفسير الآيات بأحاديث أغلبها ضعيف، فكانت مصيدة حالت دون انطلاق الفكر القرآني إلىٰ أهدافه الشاملة في التفسير، ووسيلة إلىٰ شيوع الأحاديث الضعيفة التي بنىٰ عليها المحدثون فكرهم القرآني. . وعندما وضع سيد قطب[2] رحمه الله مؤلفه «في ظلال

= ينعت بالأستاذ، أقامه المأمون العباسي قيماً علىٰ خزانة كتبه، وعهد إليه بجمع الكتب اليونانية وترجمتها، وللخوارزمي كتاب «الجبر والمقابلة»، و«الزيج»، و«التاريخ»، و«صورة الأرض من المدن والجبال». . إلخ، و«عمل الإسطرلاب»، و«وصف إفريقية»، وعاش إلىٰ ما بعد وفاة الواثق بالله عام ٢٣٢هـ (٨٤٧م).

(١) هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير، أبو جعفر، من أهل طبرستان، استوطن بغداد وأقام بها إلىٰ حين وفاته. من أكبر العلماء. كان حافظاً لكتاب الله، فقيهاً في الأحكام، عالماً بالسُّنن وطرقها، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم. رحل من بلده في طلب العلم. عرض عليه القضاء والمظالم فأبىٰ، ولد عام ٢٢٤هـ، وتوفي عام ٣١٠هـ.
من تصانيفه: «اختلاف الفقهاء»، و«كتاب البسيط في الفقه»، و«جامع البيان في تفسير القرآن»، و«التبصير في الأصول».

(٢) سيد بن قطب بن إبراهيم: مفكر إسلامي مصري، من مواليد قرية «موشا» في أسيوط عام ١٣٢٤هـ (١٩٠٦م). تخرج بكلية دار العلوم (بالقاهرة) سنة ١٣٥٣هـ (١٩٣٤م) وعمل في جريدة «الأهرام». وكتب في مجلتي «الرسالة» و«الثقافة» وعيّن مدرّساً =

القرآن»، اعتمد علىٰ تفسير ابن كثير في النصوص، وترك ما وراء هـٰذا علىٰ قدرته الأدبية علىٰ الصياغة، وعلىٰ أن يسبح مع الأفكار الجديدة.

هناك التفسير الفقهي للقرآن، وهو تفسير طوَّع الآيات لأحكام الفقهاء وطريقتهم في الاستنباط، ولم يهتم إلا بآيات الأحكام التشريعية، واقتصر في ذٰلك علىٰ الحكم الشرعي دون المقاصد الآخرىٰ، وهـٰذا فيه شيء يستدعي الاستدراك..

وهناك التفسير الكلامي، وأنموذجه «الرازي»[1] مثلاً في «التفسير الكبير»، وهو تفسير ينبغي أن نأخذ منه بطرف وندع أطرافاً أخرىٰ لأنها خرجت بالتفسير عن مجاله..

وهناك التفسير البياني، وهو مثل تفسير «الزمخشري»[2] وأبو

= للعربية، فموظفاً في ديوان وزارة المعارف. ثم «مراقباً فنياً» للوزارة. وأوفد في بعثة لدراسة «برامج التعليم في أمريكا» (١٩٤٨ ـ ١٩٥١م) ولما عاد انتقد البرامج المصرية وكان يراها من وضع الإنجليز، وطالب ببرامج تتمشىٰ والفكرة الإسلامية. وبنىٰ علىٰ هـٰذا استقالته (١٩٥٣م). وانضم إلىٰ الإخوان المسلمين، فترأس قسم نشر الدعوة وتولىٰ تحرير جريدتهم (١٩٥٣ ـ ١٩٥٤م) وسجن معهم، فعكف علىٰ تأليف الكتب ونشرها وهو في سجنه، إلىٰ أن صدر الحكم بإعدامه، فأعدم عام ١٣٨٧هـ (١٩٦٦م). كتبه مطبوعة متداولة، منها: «النقد الأدبي»، أصوله ومناهجه، و«العدالة الاجتماعية في الإسلام»، و«التصوير الفني في القرآن»، و«مشاهد القيامة في القرآن»، و«كتب وشخصيات»، و«أشواك»، و«الإسلام ومشكلات الحضارة»، و«المستقبل لهـٰذا الدين»، و«في ظلال القرآن»، و«معالم في الطريق».

(١) هو محمد بن عمر بن الحسين بن حسن، الرازي، فخر الدين، أبو عبد الله، المعروف بابن الخطيب. من نسل أبي بكر الصديق ﷺ، ولد بالري وإليها نسبته، وأصله من طبرستان. فقيه وأصولي شافعي، متكلم، نظار، مفسر، أديب، ومشارك في أنواع من العلوم. رحل إلىٰ خوارزم بعدما مهر في العلوم، ثم قصد ما وراء النهر وخراسان. واستقر في «هراة» وكان يلقب بها شيخ الإسلام. بنيت له المدارس ليلقي فيها دروسه وعظاته. وكان درسه حافلاً بالأفاضل. منحه الله قدرة فائقة في التأليف والتصنيف. ولد عام ٥٤٤هـ، وتوفي عام ٦٠٦هـ.
من تصانيفه: «معالم الأصول»؛ و«المحصول» في أصول الفقه.

(٢) هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد، أبو القاسم، الخوارزمي، الزمخشري، من =

السعود[1] والبيضاوي[2]. وقد رأيت عدداً من المفسرين إلىٰ جانب مفسرين آخرين من مدارس أخرىٰ، كانوا بلاءً علىٰ الأمة الإسلامية، علىٰ الرغم من أنهم خدموا البلاغة العربية، وخدموا التفسير البياني للقرآن أجلّ خدمة.. لٰكن حملت تفاسيرهم، إلىٰ جانب ذٰلك، إساءات كبيرة للفكر القرآني.. أنا، أسأل نفسي: من الذي أشاع قصة زينب بنت جحش؟[3]، إنهم مفسرون من هٰذا النوع.. فالقصة قصة خرافية لا أصل لها.. وهناك قصة مثل قصة الغرانيق، وقع فيها بعض المفسرين عن غفلة مثل ابن حجر[4]، وغيره.

= كبار المعتزلة، مفسر، محدث، متكلم، نحوي، مشارك في عدد من العلوم. ولد في زمخشر من قرىٰ خوارزم، وقدم بغداد وسمع الحديث وتفقه، ورحل إلىٰ مكة فجاور بها وسمي جار الله. ولد عام ٤٦٧هـ، وتوفي عام ٥٣٨هـ.
من تصانيفه: «الكشاف» في تفسير القرآن، و«الفائق في غريب الحديث»، و«ربيع الأبرار ونصوص الأخبار»، و«المفصل».

(١) هو محمد بن محمد بن مصطفىٰ العمادي، أبو السعود. فقيه حنفي، وأصولي ومفسر، وشاعر. ولد بموضع قرب القسطنطينية. كان عارفاً باللغات العربية والفارسية والتركية، وتقلد القضاء وأضيف إليه الإفتاء. انتهت إليه رئاسة الحنفية في زمانه، وكان حاضر الذهن سريع البديهة. ولد عام ٨٩٨هـ، وتوفي عام ٩٨٢هـ.
من تصانيفه: «إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم» في تفسير القرآن، و«تهافت الأمجاد» في فروع الفقه الحنفي، و«تحفة الطلاب»، و«رسالة في المسح علىٰ الخفين».

(٢) هو عبد الله بن عمر بن محمد بن علي، ناصر الدين، أبو سعيد، البيضاوي، الشيرازي الشافعي، والبيضاوي نسبة إلىٰ البيضاء قرية من عمل شيراز. فقيه، مفسر، أصولي، محدث، ولي القضاء بشيراز، أخذ الفقه عن والده ومعين الدين أبي سعيد وعن زين الدين حجة الإسلام أبي حامد الغزالي وغيرهم. توفي عام ٦٨٥هـ.
من تصانيفه: «منهاج الوصول إلىٰ علم الأصول»، و«الغاية القصوىٰ في دراسة الفتوىٰ» في فروع الفقه الشافعي، و«أنوار التنزيل وأسرار التأويل» وهو المشهور بتفسير البيضاوي، و«شرح مصابيح السنة» للبغوي.

(٣) زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية، من أسد خزيمة: أم المؤمنين، وإحدىٰ شهيرات النساء في صدر الإسلام، كانت زوجة زيد بن حارثة، واسمها «بَرَّة» وطلقها زيد، فتزوج بها النبي ﷺ وسماها «زينب» وبسببها نزلت آية الحجاب. روت ١١ حديثاً. ولدت عام ٣٣ قبل الهجرة (٥٩٠م)، وتوفيت عام ٢٠هـ (٦٤١م).

(٤) هو أحمد بن علي بن محمد، شهاب الدين، أبو الفضل الكناني العسقلاني، المصري =

وهناك مدارس أخرىٰ وكل مدرسة من هـٰذه المدارس لها خير وعليها مأخذ.. ولا يجوز أن نجحد فضل صاحب الفضل، ولـٰكننا نريد للعصر الحديث والصحوة الإسلامية لكي تكون ناشبة بأعماق الإسلام، ومنطلقة من أعماقه الصحيحة، أن تقدم له جيلاً واعياً، موصولاً بالقرآن، مدركاً لأبعاده ومقاصده، أولاً.. وأن تنظر إلىٰ هـٰذا الجهد البشري علىٰ أنه جهد خطؤه وصوابه متقاربان، وجائزان، وتنتفع من تجارب الاحتكاك بالأفكار والعقائد والأديان الأخرىٰ، في ضوء منهج نضيج، فلا تقول كلاماً مضحكاً.. فمثلاً عندما أقرأ في تفسير ابن كثير حديثاً واهي السند، يقول فيه: كانت سورة الأحزاب في طول سورة البقرة، ثُم نسخ منها ما نسخ (!) فهل يمكن أن ينزل الله سورة من أربعين صفحة ثم ينسخ منها خمساً وثلاثين صفحة؟ كيف يُقال هـٰذا؟ وما هو المنهج الحاكم علىٰ مثل هـٰذه المرويات الظنية؟

لا بد أن أعود إلىٰ ما عندي من أصول يقينية حسب مدارسنا التي عشنا بها عقلياً، فنحن نحترم المتواتر، ونحترم الحديث المشهور، أما أن يسري فجأة حديث واهي السند، رد الفقهاء والمحدثون عشرات ومئات من أمثاله، لكي يكون حكماً علىٰ القرآن، فهـٰذا عجيب يجب أن ننقي تفاسير القرآن منه! فالمدارس القرآنية الكثيرة، مع المدارس الثقافية الإسلامية، يجب أن تكون أمامنا ونحن نسعىٰ لصنع ثقافة قرآنية جديدة.

أعجبني أن العقاد جمع الآيات الفكرية والعقلية وألّف كتابه «التفكير فريضة إسلامية».

= المولد والمنشأ والوفاة، الشهير بابن حجر ـ نسبة إلىٰ (آل حجر) قوم يسكنون بلاد الجريد وأرضهم قابس في تونس ـ من كبار الشافعية. كان محدثاً فقهياً مؤرخاً. انتهىٰ إليه معرفة الرجال واستحضارهم. ارتحل إلىٰ بلاد الشام وغيرها. تصدىٰ لنشر الحديث وقصر نفسه عليه مطالعة وإقراءً وتصنيفاً وإفتاءً. درس في عدة أماكن وولي مشيخة البيبرسية ونظرها، والإفتاء بدار العدل، والخطابة بجامع الأزهر، وتولىٰ القضاء. زادت تصانيفه علىٰ مائة وخمسين مصنفاً. ولد عام ٧٧٣هـ، وتوفي عام ٨٥٢هـ.

من تصانيفه: «فتح الباري شرح صحيح البخاري»؛ و«الدراية في منتخب تخريج أحاديث الهداية»، و«تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير».

شمول الرؤية القرآنية:

أنا شخصياً تتبعت كلمة: ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ في القرآن الكريم في ستة عشر موضعاً أثناء الحديث عن النفس والكون، والتاريخ الماضي، والحديث عن الله.. وجدت أن القرآن ليس كتاباً فنياً مقسماً علىٰ قضايا معينة، ثم تنقطع فيه الرؤية الشاملة، بل هو يعرض الكون وهو يبني العقيدة.. ويعرض الكون وهو يربي الخلق.. ويمزج بين الجميع بطريقة مدهشة. فالنظر في الكون والواقع والتاريخ يقود إلىٰ الإيمان، ويؤصل التوحيد، ويبني الخلق. فقوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١].

فهٰذا توحيد، فيه أمر للناس بالعودة إلىٰ الله، لٰكن

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة].

انظر إلىٰ طريقة القرآن: كيف عرض الكون، ومظاهره، وحقائقه وهو ينفي الشركاء ويؤسس عقيدة التوحيد، وهٰذا في المدينة.. كذٰلك نجد المسلك نفسه في مكة:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [غافر].

فالمحاور التي يقوم عليها القرآن الكريم، كما شرحتها في كتاب لي، ليست مقسمة علىٰ أساس أن هٰذا المحور لكذا، وذاك المحور لكذا، ولٰكن نحن بجهدنا العقلي نجيء لآية واحدة، أو لطائفة من الآيات يمكن أن تكون في قضية واحدة، فنرىٰ أن هٰذه القضية الواحدة تماسكت الآيات فيها علىٰ عدة محاور من الكلام عن الله، والكون، والجزاء، والنفس البشرية،

والإيمان، والأخلاق تماسكاً غريباً لا يُعرف إلا في هٰذا القرآن.

وهٰذا يجعلنا ـ كما قلت ـ نقدم التصور الحضاري للقرآن علىٰ أنه يبني أمة، ويفتح أبصارها علىٰ الكون، ويمنحها الرؤية المتميزة التي تمكنها من الشهود الحضاري علىٰ مختلف الأصعدة.

أهمية النظر في الآيات الكونية:

فأنا كنت في الجو يوماً، ونظرت إلىٰ سحابة تشبه جبلاً له نتوءات أمامي، وبدأت أفكر: أين تصل هٰذه السحابة؟ أين تكونت؟ أي زرع سيخرج منها؟.. وبلغ بي تصور وتسلسل الصور إلىٰ: أنه من يدري، فربما شربتُ كوباً من عصير البرتقال من مطر هٰذه السحابة، وهي تنزل في البلد الذي أصل إليه!

فالقرآن، يمنح المسلم رؤية كاملة ومنهجاً متماسكاً يجعل من الحياة خطوطاً متوازية لا تصطدم مهما امتد الزمن، فتجعل العلم مع الإيمان، أو تجعل ما وراء المادة مع المادة أو تجعل السرائر الباطنة مع المشاعر الحسية، لا فواصل بينها.

هٰذا ـ في نظري ـ يجعلني أنظر إلىٰ الحياة الغربية التي نعيش فيها، نظرة فيها إنصاف.. الحضارة الغربية احترمت الكون ـ وهٰذا أصل من أصول الإسلام ـ وبدأت تدرسه، وربما اقتربت من الفطرة في بعض المراحل أكثر منا، فنحن أمة أكلتها التقاليد التي صنعتها لنفسها، وضعت بها قيوداً علىٰ مسالكها، فمن يريد الزواج عندنا مثلاً، لا يتزوج بيسر الإسلام وفطرته التي أصَّلها القرآن، ولا حتىٰ يتزوج بالفطرة البشرية الموجودة في أوروبا مثلاً، إنما يتزوج من خلال مجموعة القيود والتقاليد التي امتد سلطانها حتىٰ هُزمت أمامها القيم الدينية.. لقد أصبح الزواج عندنا: (خراب بيت وانكسار ظهر) من النفقات.

أظن، أن الحضارة الغربية، في نظرتها إلىٰ الحياة الدنيا والكون، واكتشافها لسننه، وأخذها من أسراره، ما يجعلني أقول: هٰذا هو كتابنا..

هٰذا ما عندنا.. لٰكن ما وقعوا فيه من أخطاء إنما جاء من أنهم: ما وصل إليهم القرآن وما عرفوا فكره. فهم ظنوا أن الدين عائق عن الحركة، وعن النظرة المنطلقة، وذٰلك ربما يكون لأن الصورة المجسدة أمامهم هي صورة معوقة..

التكلف في التعامل مع القرآن:

يقول الله تعالىٰ لصاحب الرسالة المبين عن ربه:

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص].

ونحن قدمنا الدين تكلفاً. فبدل أن يكون سجياً جميلاً وفطرة سهلة، قدمناه تكلفاً، فأي ظلم للحقيقة عندما تخرج عن صفتها الأولىٰ؟! الدين عندنا فطرة:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم: ٣٠].

الكون هو الكون، كما خلقه الله، وفطرتي هي فطرتي كما فطرها الله. والكون والفطرة هما خلق الله.. أنا لا أبدل شيئاً من هٰذا، أنا أتجاوب معه.. الكفر، أو الشرك، أو الإلحاد، عوج عن الفطرة، واصطدام بالعقل والكون وخروج عليه.. أريد أن يُعرف الدين علىٰ هٰذا المعنىٰ القرآني السليم الصحيح، ولا يُفهم الدين من خلال تقاليد رهبان اعتبرها القرآن الكريم صدّاً عن سبيل الله.. وظيفة الراهب: قيادة الناس إلىٰ الله، لٰكنه في واقعه صدّهم عن دين الله.

﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [التوبة: ٣٤].

وعدد من المتدينين، أو المتفقهين، أو المنتسبين إلىٰ الدين بعيداً عن التحقق بالرؤية القرآنية المتجاوبة مع فطرة الخلق، صُدَّاد عن سبيل الله بهٰذا المسلك الذي يقدمون به الدين.. إنهم يبتعدون عن فطرة الدين ومصادره العقلية والدينية.. فالله سبحانه وتعالىٰ يبين أن حقائق الدين تتجلىٰ وتتكشف من النظر والتدبر لآيات الله المبثوثة في الأنفس والآفاق:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣].

فأين نحن من ارتياد الآفاق وكشف الآيات؟ وأين نحن من حسن قراءة أنفسنا ومعرفة سنن الله وآياته منها في ضوء الأبعاد الواردة في القرآن؟

علم النفس، ما دُرس دراسة صحيحة إلا بعد أن تحرر من الفلسفة الإغريقية وبدأ يغوض في آفاق النفس البشرية ليتعرف علىٰ دوافعها ونوازعها معتمداً أسلوب استبطان الإنسان.

التصوف عندنا، لو التزم الأدب الإسلامي والضوابط الشرعية ولم يمش وراء الرهبنة المسيحية لكان عطاؤه كبيراً ورواؤه مثمراً.. كان عندنا الحارث المحاسبي[1] غواصاً في أسرار النفس، وجاء بعده الغزالي غواصاً في أسرار النفس. وكان من الممكن أن يقوم عندهم علم نفس جيد، ويقدم للبشرية بديلاً مقنعاً، ويخلصها من الشذوذ الذي اعتمد أصلاً نفسياً يحلل علىٰ أساسه السلوك البشري، من مثل مدرسة التحليل النفسي التي كان رائدها فرويد[2] الذي يقول: (إن رضاع الولد من أمه، إرواء وتنفيس عن غريزة حيوانية)..

لو التزمنا الرؤية القرآنية وذهبنا نتدبر آيات الله في الأنفس، لكان عندنا علم النفس الذي يعرف عظمة الخالق عندما فطر هٰذه النفس، وخلق الإنسان من قبضة طين ونفخة روح:

---

(١) الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله: من أكابر الصوفية، كان عالماً بالأصول والمعاملات، واعظاً مُبكياً، وله تصانيف في الزهد والرد علىٰ المعتزلة وغيرهم. ولد ونشأ بالبصرة، ومات ببغداد عام ٢٤٣هـ (٨٥٧م)، وهو أستاذ أكثر البغداديين في عصره. من كتبه: «أدب النفوس» صغير، و«شرح المعرفة» تصوف، و«المسائل في أعمال القلوب والجوارح» رسالة، و«المسائل في الزهد وغيره» رسالة، و«البعث والنشور» رسالة، و«ماهية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه»، و«الرعاية لحقوق الله عز وجل»، و«الخلوة والتنقل في العبادة»، و«معاتبة النفس» في الأزهرية، وكتاب «التوهم»، و«رسالة المسترشدين».

(٢) فرويد، سيجموند Freud, Sigmund طبيب أمراض عصبية، يهودي نمساوي، ولد عام ١٨٥٦م وتوفي عام ١٩٣٩م، وهو مؤسس مدرسة التحليل النفسي Psychoanalysis في علم النفس.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩].

وكل بشر نفخة من روح الله. . فنبدأ ندرس النفس الإنسانية والفطرة السليمة، وما ينميها ويزكيها من وسائل ووسائط، وما يعتريها من أمراض وإصابات لا بد من معرفة أسبابها وتقديم العلاج التربوي الناجع لها.

التقريب بين الدراسة القرآنية وبين ما وصلت إليه الإنسانية وحضارتها، يحتاج منا إلىٰ أن ننخلع قليلاً عن بعض مواريثنا القديمة التي ليست من ثوابت الدين وقيمه الأصيلة، والإفادة من الحضارة الحديثة وما وصلت إليه من ناحية وسائل فهم الكون، ومن ناحية مردود النظر في النفس الإنسانية، واعتماد كثير منها بعد ضبطها بمبادئ الإسلام ومقاصده الكلية.

أبعاد المنهج المطلوب:

□□ للاغتراف من القرآن، برؤية شاملة الأبعاد، متعددة المقاصد وليست لاستنباط الحكم الفقهي فقط، هناك مناهج تعاملت مع القرآن: كمناهج الفقهاء والأصوليين والمفسرين بمدارسهم ومناهجهم المتعددة، وعلماء الكلام والمتصوفة، وعلماء اللغة الذين تعاملوا مع القرآن كمعجزة بلاغية. . هٰذه المناهج كلها التي جاءت ثمرة لواقع معين ومعالجات مرهونة بزمانها، لم تحقق الفقه المطلوب لآيات الله وسننه في الأنفس والآفاق، ولم تغن العقل المسلم اليوم بالرؤية الشاملة من خلال الواقع والظروف التي نعيشها، والتوقف والجمود الذي لحق بهٰذا العقل وغيبه عن ساحة الشهود الحضاري. . ونحن الآن بحاجة إلىٰ منهج للتحقق بالرؤية الشاملة، الموضوعية وليس الموضعية. . طبعاً أمامنا هٰذه المناهج من مواريثنا الثقافية: مناهج الأصوليين في استنباط الحكم، مناهج الفقهاء التي انبنت علىٰ مناهج الأصوليين، ومناهج المتصوفة ـ وإن كنا لا ندري إلىٰ أي مدًى يمكن أن نسمي مدارس التصوف مناهج لأنها لا توجد لها ضوابط منهجية وإنما قد تعتمد علىٰ التأملات وخطرات القلوب، ومناهج اللغويين. . والأمر المطروح هو:

كيف نفيد من هٰذه المناهج في العودة إلىٰ النبع الأصلي القرآني، وهل

هٰذا الميراث المنهجي ملزم لنا، وهو لا يخرج عن كونه اجتهاداً حقق أبعاداً طيبة في تحقيق الرؤية القرآنية؟ وهل يجوز لنا أن نقفز من فوقه ونتعامل مباشرة مع النص؟ وما هي وسائلنا الأمنية لمثل هٰذا التعامل؟

● أستطيع أن أقول: إن هناك مناهج نقلناها من أصلها الأول ومجالها، إلىٰ علوم أخرىٰ، فأفسدناها.. نحن نحفظ أن الإسناد من الدين، ولولاه لقال من شاء ما شاء.. وهٰذا حق.. فأن آتي بسند ديني لما أقول، فهٰذا مطلوب.. لٰكن تحول مجال الأدب ومجالات أخرىٰ إلىٰ روايات: عن فلان، عن فلان، أنه سمع فلاناً يقول كذا.. هٰذا لا معنىٰ له. لقد وجدنا مرويات كثيرة حتىٰ أصبحت الثقافة عندنا وكأنها ثقافة نقول! وهٰذا غير مفهوم وغير مطلوب.. الأدب عندنا، توقف بسبب أشياء ومحاصرة من هٰذا النوع. ممكن جداً أن يعود الأدب إلىٰ وصف الطبيعة، ووصف النفس البشرية بعيداً عن النقول التي تجعل كتب الأدب كتب مرويات. هٰذه واحدة.

الشيء الثاني هو أن آيات الأحكام، إذا ما قيست بالآيات الأخرىٰ نجدها أنها أقل الآيات عدداً. لٰكن ـ كما قلت ـ فالقصص القرآني يسوق قصة كاملة من خمس أو ست صفحات ليخلص في النهاية إلىٰ تربية نفس معينة.. فالقول بأن منهج دراسة الأحكام يُنقل ليصبح منهجاً لدراسة الأخلاق ودراسة التربية، فهٰذا غير صحيح، لأن كل منهج له ضوابط، ولكل مقصد طبيعته وخصائصه.. وهٰذا يعني: أني أبحث في الأحكام عن الكلمة: هل هي عامة؟ هل هي خاصة؟ هل هي مطلقة؟ هل هي مقيدة؟.. وهٰكذا.

لٰكن، عندما أدرس الأخلاق مثلاً، أو التربية، أو قصص الأمم، أو الكونيات وما يتصل بها، فما علاقة ذٰلك بهٰذا المنهج؟ ولماذا يفرض علىٰ بقية المحاور القرآنية التي لها طبيعتها ومقاصدها وأدواتها ومناهجها؟.. لا يمكن أن يُقبل هٰذا.. تقول الإحصاءات: إن كتب الفقه تشكل نصف الثقافة الإسلامية، فلو دخلت مكتبة مثلاً، لوجدت أن نصف كتبها في الفقه.

□□ لقد تقلصت في ثقافتنا الإسلامية الرؤية القرآنية الشاملة، واختزلت المحاور والمقاصد، وأصبحت المصادر الإسلامية تقرأ علىٰ أنها فقه.. السيرة

انتهىٰ إليه المعنىٰ الاصطلاحي وهو: استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية. .

● هٰذا غير صحيح، لأن كل أفق من هٰذه الآفاق، له صبغته، وله منابعه، وله هدفه الذي يسير إليه. . ونقل المنهج الأصولي ليصبح منهجاً للتعامل مع النص القرآني في المجالات والمحاور، فهٰذا غير صحيح، وغير دقيق، فلكل مجال آلات لفهمه.

□□ المنهج الأصولي، مطلوب من غير شك لتحديد المفاهيم، وضبط المعاني خصوصاً فيما يتصل بالدين والأحكام الشرعية والقانون. لٰكن معروف أن العقل القانوني، يتطلب أدوات ووسائل، ويهدف إلىٰ مقاصد، غير العقل الفلسفي. . والعقل الفلسفي غير العقل العلمي، بالمصطلح العلمي الجديد الذي تعتمد وسائله علىٰ التجربة والملاحظة والاستقراء والإحصاءات والاختبارات، والاعتبار بذٰلك كله للوصول إلىٰ الحقيقة العلمية المطردة. . كل أفق له وسائله الخاصة به. . وقد تعددت الثقافة الإنسانية وتشعبت الاختصاصات التي تبحث الآن عن الكون، وعن الإنسان، وأصبحت العلوم الإنسانية الآن: علم النفس، الاجتماع، الاقتصاد، السياسة، الأخلاق، التربية، الجمال، والتاريخ. . ولكل علم منهجه وطرائقه ومقاصده.

والمشكلة أن العقل المسلم توقف عن النمو في هٰذه المجالات ـ لعدة أسباب ـ مع أن موضوع القرآن هو الإنسان، ومحل آيات الله هو الكون. ولا بد للإنسان من التدبر في القرآن، والتعرف علىٰ سنن الكون وقوانينه التي لا يتحقق بدون إدراكها تعمير الأرض. . لٰكن، عصور الانحطاط والتخلف والتقليد، أوقعت المسلمين في عجز الرؤية وتجزيء النظرة، فأصبح الفقه يعني: استنباط الأحكام التشريعية، والدوران في فلك اجتهاد السابقين، شرحاً واختصاراً. . أما ما وراء ذٰلك، فأصبح للتبرك، وانحسرت الرؤية القرآنية الشاملة. .

● أليكس كارل[1] في كتابه: «الإنسان ذٰلك المجهول» أخذ يعيب المتخصصين ويقول: إنهم يعيشون في دوائر مغلقة من تخصصاتهم، وإن الحياة ليست كذٰلك، ولا بد من الأخذ بعلم الإنسان. واعتبر أن الإنسان له علم يتجاوز هٰؤلاء كلهم..

والنظرة الشاملة الآن بدأت تفرض نفسها علىٰ الثقافة الإنسانية، وفي الوقت نفسه وسعت شعب التخصصات علىٰ أساس خدمة النظرة الإنسانية العامة.. يوجد الآن، حتىٰ علم للأغذية، ولٰكن علم الأغذية لخدمة الإنسان، وفي الطب مثلاً، تجد طبيباً متخصصاً في العيون، وآخر في القلوب، وثالث في الأنف والأذن والحنجرة،... إلخ، فالشيء الواحد بدأ يتفرع إلىٰ تخصصات، لٰكن الأساس كله: لا بد من دراسة الإنسان من قبل ومن بعد لأنه لا معنىٰ للتخصص قبل الشموليات. فالتخصص هو: معرفة جزء من كل، لٰكن هٰذا الجزء لا يجوز أن يُنظر إليه مبتوراً ومنفصلاً عن موضوعه، فمن الخير أن تعرف آثار التخصصات الأخرىٰ علىٰ تخصص الإنسان نفسه.

□□ في النظر إلىٰ العلوم والمناهج وما يتصل بها، سنجد أن كل علم له أسلوب خاص به. ونحن لا بد لنا أن نبحث ونتابع ونتعرف علىٰ المنهج الذي يحقق الغاية والمقصد لكل علم، لأن تسخير الكون يعني أول ما يعني: اكتشاف قوانينه التي تمكن من التسخير.. فنقل طريقة الفقهاء إلىٰ علماء التربية أو علماء النفس، هٰذا لا يمكن ولكل علم منهجه الخاص.

الحاجة إلىٰ فهم السُّنَن القرآنية:

□□ السنن الاجتماعية في القرآن هي القوانين المطردة والثابتة التي تشكل إلىٰ حد كبير ميكانيكية الحركة الاجتماعية: حركة المجتمع، وتعين علىٰ فهمها، وكلمة «سنّة» تعني القانون المطرد الذي لا يتخلف إلّا في

---

(١) أليكس كارل Carrel, Alexis جراح وعالم بيولوجي فرنسي، ولد عام ١٨٧٣م وتوفي عام ١٩٤٤م، ألف كتابه الشهير: «الإنسان ذٰلك المجهول» (L'Homme, cet inconnu) عام ١٩٣٥م، وترجم إلىٰ العربية، ونشر في عدة طبعات.

قضايا السنن الخارقة.. أما السنن الجارية فلا تتخلف، وإن كان لا يُرىٰ اطرادها واضحاً وصارماً كقوانين المادة. وقد تكون حاجة المسلمين اليوم لفهمها وحسن التعامل معها وتسخيرها، للقيام بأمانة الاستخلاف وتعمير الأرض، أشد من حاجتهم للحكم التشريعي الذي تضخم وتضخم حتىٰ كاد يشمل الإسلام بأبعاده كلها، مع أن الحاجة إليه تأتي ثمرة لإعمال هٰذه السنن.

فكيف يمكن الوصول بالمفكر المسلم لإدراك هٰذه السنن من القرآن الكريم والسنَّة، والتحقق بأبعادها لتصبح فقهاً تغييرياً، ومناخاً تربوياً يمكن أن تنشأ عليه الأجيال من خلال النظر في القرآن وتلاوته، مع الإفادة من التبصر في عمل هٰذه السنن في الأمم السابقة:

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الفتح: ٢٣].

● أظنني كتبت عن هٰذا الموضوع باباً كاملاً في كتابي «سر تخلف العرب والمسلمين»، والأساس أن القرآن نبَّه فعلاً إلىٰ أنه كما توجد سنن كونية في إطار المادة تجعل درجة الغليان مثلاً عند المائة، ودرجة التجمد عند الصفر، أو تجعل للغازات ضغوطاً معينة.. كذٰلك الأمر في الحضارات البشرية، وانهيارات الأمم وانتصاراتها: إنها تخضع لقوانين لا يمكن أن تتبدل. ولقد نبَّه القرآن إلىٰ هٰذا في قوله تعالىٰ:

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ۝٤٢ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ۝٤٣﴾ [فاطر].

سنن الله في المجتمعات هي صور أخرىٰ مكملة أو امتداد طبيعي لسننه في ميادين العلوم التطبيقية، وإن كانت كيميائية أو فيزيائية، أو نباتاً وحيواناً، أو أيَّ شيء.

ليس هناك فوضىٰ في الكون، من ناحية البناء العلمي له، ومن ناحية الانطلاق الحضاري. سنن قائمة بيقين وسنن ثابتة.. وقد انطبقت هٰذه السنن

علىٰ صاحب الرسالة نفسه، نصراً وهزيمة. فعندما قصروا في اتخاذ الأسباب المطلوبة لاستكمال النجاح في «أحد» هُزموا، وقيل لصاحب الرسالة:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وإذا استكملوا أسباب الانتصار، انتصروا.. وما يُتصور أن أمة من الأمم تُحابىٰ أو تُستثنىٰ من هٰذه القوانين. وقد طبقت هٰذه القوانين نفسها علىٰ أمتنا خلال الأربعة عشر قرناً من تاريخها..

وقد ذكرت نماذج لهٰذه القوانين من مثل قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وهٰذه السنة المطردة ذكر بها القرآن عند هزيمة المشركين في بدر فقد قال لهم:

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال].

فقيل للمشركين هٰذا الكلام: هُزمتم لأن القانون الذي انطبق علىٰ الفراعنة من عشرين قرناً، انطبق عليكم، وينطبق علىٰ المسلمين بعد ذٰلك في أحد، يقول تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

هناك قوانين كثيرة، ذكرتُ فيما كتبت علىٰ ما أظن عشرة منها:

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢].

ومنها:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس].

ومنها:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿١﴾﴾ [محمد].

ومنها:

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف].

ومنها:

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء].

آيات كثيرة في القرآن الكريم هي قوانين لا بد أن تنطبق على العدو والصديق. ومحاولة الإفلات من هٰذه القوانين، فاشلة. بل ميؤوس من نتائجها. وعندما يقول الله تعالىٰ:

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر].

فإن هٰذا القدر المعلوم يفرض نفسه. ونضرب مثلاً في حياتنا العامة. خذ مثلاً: نحن نعلم أن القطن يزرع خلال ثمانية شهور في السنة.. مهما بذلت من جهد لمحاولة أن تجيء بالثمر قبل أوانه، فذٰلك مستحيل. إذا كان الحمل يستغرق ما بين سبعة وتسعة أشهر فلن يكون قبل ذٰلك إلا إجهاضاً، ولن يجيء بعد ذٰلك أبداً كما يقول علم الطب.

هٰذه القوانين التي تكون في الأحوال المادية، في الكون والحياة، هي سارية أيضاً في الحضارة الإنسانية التي نعيش فيها الآن.. انهزم المسلمون لأنهم كان يجب أن ينهزموا، وسنن الله لا تلين لمن يدّعي أنه ابنه أو حبيبه، فعندما قال اليهود والنصارىٰ:

﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾.

قيل لهم:

﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨].

الآثار المدمرة لتعطيل قانون السببية:

□□ فهٰذه القوانين، لا بد أن تأخذ مكانها الصحيح من عقلنا، ولا بد أن نحترمها..

● للأسف، وُجد في الأمة الإسلامية خطأ قديم، ولا تزال بعض آثاره باقية إلىٰ اليوم، وهو شيوع فلسفة الجبر، وهي فلسفة عطلت قانون السببية تعطيلاً كاملاً. لقد عطلته في السنن الكونية، فتخلفنا في عمارة الأرض.. وعطلته في السنن النفسية، فسادنا التواكل وانطفاء الفاعلية. هٰذا من أسباب انهيار الحضارة الإسلامية وعقيدة القدر التي كانت يوماً ما سبب انطلاق الأمة الإسلامية دون تهيب إلىٰ الإمبراطوريات الضخمة، وقرعت أبوابها بآيات الله وهي لا تبالي، واستسلمت هٰذه الأمم أمام العطاء الروحي والثقافي والحضاري للقادمين، تحولت هٰذه العقيدة ـ عقيدة القدر ـ غريبة، مسخت الكتاب والسنة، وأصبح الناس ينظرون إلىٰ أنفسهم علىٰ أنهم ريش في مهب الريح، أو جِيَفاً مرمية في البحر تتقاذفها الأمواج كما تشاء.. كنت يوماً أدرّس في المسجد، فقلت للمسلمين: إذا كان الله سبحانه وتعالىٰ يقول للإنسان كي يشهد علىٰ نفسه:

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء].

أنت شاهد علىٰ نفسك بما قدمت، فيجيء واحد من الناس، ويأتيني بحديث يحفظه ولا يحسن فهمه، ويقول: إن الرجل يكون صالحاً فيسبق عليه الكتاب فيفسد مستقبله، أو يكون فاسداً فيسبق عليه الكتاب فيصلح مستقبله والاستشهاد بمثل هٰذه المرويات كثير، لٰكن، المشكلة تبقىٰ: في النظرة الجزئية، والعجز عن فقه النص، والتحقق بالنظرة الموضوعية ـ وليس الموضعية كما أسلفنا ـ

فهٰذا حديث لم يُفهم علىٰ وجهه أبداً، وهو يوم يكون لا يتحمل إلا

هٰذا المعنىٰ، فلا بد من التوقف وإن صح سنده. وتبقىٰ المحاولة قائمة لتأويله، وشرحه ليتوافق مع النص القرآني. .

والمعنىٰ ـ كما شرحته لهم ـ هو أن الأستاذ قد يكون رقيباً في الدرس علىٰ بعض الطلاب، ويأخذ باله من اجتهاد هٰذا وكسل ذاك، فيسأل ما رأيك في النتيجة؟ ماذا تظن الحال؟ فيقول: الطالب فلان، وفلان سينجحان، وفلان، وفلان سيرسبان. . ثم تكون الامتحانات، وتشاء الأقدار أن الأمر يكون كما قال، فيقول من باب المباهاة والاعتداد بحسن حكمه علىٰ الأمور: كلمتي لا تقع علىٰ الأرض، أنا قلت كلمة لا بد أن تنفذ. . وهٰذا اعتداد بعلمه وذكائه.

فهٰذا الحديث هو من باب الاعتداد بعلم الله. فربما وُجد شخص من الناس يعمل صالحات، لٰكن في علم الله فإن نهايته سيئة لأنه مراءٍ، لأنه كذاب، لأنه سينكشف ما فيه علىٰ مر الأيام. وهو الذي يصنع حاضره ومستقبله. .

وجدت أن الأمة الإسلامية لما غاب وعيها بهٰذه القوانين ونسيت المعنىٰ، أصبحت تتلقىٰ الانتصارات والهزائم دون وعي ودون استفادة، ودون البحث في أسباب النصر وعوامل الهزيمة، وران عليها هٰذا حتىٰ في كتابة التاريخ، فهي لا تكاد تعي ما يقع بها من مآسٍ. وأنا أنظر الآن، فأجد أن المسلمين تنزل بهم النكبات التي تقصم الظهر ثم تنتهي بغير شيء! لِمَ؟ مأساة الأندلس، التعليق عليها قصيدة:

لكل شيءٍ إذا ما تم نقصان فلا يُغر بطيب العيش إنسان

هل هٰذا هو التعليق؟ أين تعليق العلماء والأمراء والساسة والقادة، والنظر في هٰذا كله نظرة فيها محاسبة للنفس؟. . إذا أفلست شركة مثلاً فإن التقرير يوضع عن أسباب الإفلاس، فكيف لم توضع أي تقارير عن فساد الأمة الإسلامية الذي أدىٰ إلىٰ هزيمتها في الأندلس، وعن انحصار هٰذه الأرض وضياعها؟ كيف؟ هٰذا شيء يستدعي أن نفكر نحن تفكيراً جاداً في الطريقة التي نعيش بها. .

نحن، ما فهمنا سنن الله الكونية في الأرض، حسب منطق التجربة والاستقراء والملاحظة، وهو المنطق القرآني الذي عُرف من كتاب ربنا ومن تطبيقات النبوة، ولا أحسنَّا الاستفادة من سنن الله في الحضارات والمجتمعات، وكانت النتيجة أن الأمة سقطت بقضها وقضيضها في قبضة استعمار عالمي لا يرحم، وهي الآن تحاول الخلاص من شباكه، وترمي بأجنحتها العالقة داخل الشباك دون أن تخرج. . لقد واجهت الأمة الاستعمار مواجهة عسكرية وسياسية، لٰكن لم تنتبه إلىٰ القضية الأخطر وهي: أن الخلل الفكري وانهيار عالم الأفكار وعدم التبصر هو الذي يمكن للاستعمار. . إن الأمة لن تخرج من الشباك إلا بقوانين مكتوبة عندها في الوحي النازل عليها، يجب أن تدرسه، وبالتالي يجب عليها أن تعيد حساباتها عن ماضيها بعد أن تعرضت للاضمحلال والانحلال عندما فرطت في سنن الله الكونية والاجتماعية، وظنت أن المواجهة العسكرية والسياسية العمياء فقط، كافية في استئناف النهوض.

السنن القرآنية من الإدراك إلىٰ التسخير:

□□ الحقيقة التي لا بد أن نعرض لها ونطرحها للنقاش والمدارسة، ويبقىٰ الحوار حولها قائماً ومطلوباً بالنسبة للقرآن الكريم: قضية إدراك هٰذه السنن. ذٰلك أن الحال التي نحن عليها، أصبح يتردد فيها ضرورة الانتباه إلىٰ سنن الله في الأنفس والآفاق التي تحكم شروط النهوض والسقوط الحضاري. . أصبحنا نسمع بضرورة الإفادة من هٰذه السنن، بل لعل ذٰلك أصبح قناعة عند الناس بشكل عام. . لٰكن، هٰذه القناعة لم تجد طريقها إلىٰ الممارسة، ولم تنتقل بمواقعنا إلىٰ مراحل تغييرية، فما يزال هناك قيود التقليد الاجتهادي من ترسبات الماضي. فلا تسأل إنساناً إلا ويقول: إن القرآن عرض لسنن وعوامل نهوض الأمم وسقوطها، وفيه سنن لا تُخْطِئ ولا تحابي أحداً. وما إلىٰ ذٰلك. . لٰكن، أرىٰ أن المشكلة تتركز اليوم في: إدراك هٰذه السنن وحسن تسخيرها والتعامل معها. . كيف يمكن للأمة بواقعها الحالي، أن تنتقل من موقع المعرفة والفكر إلىٰ موقع الفعل؟ وإن كنت لا أزال أرىٰ أن ما نسميه قضية مناهج الفكر والمعرفة، لم تأخذ منا الأبعاد الحقيقة، لأنها لو أخذت

أبعاداً حقيقية، لكانت الأمة انتقلت من الفكر إلىٰ الفعل. فالتحول وإعمال هـٰذه السنن، هو المختبر الحقيقي لإدراكها والقناعة بها. بل لعلنا نقول: إن هـٰذه القضية لم تشكل مناخاً عاماً يعيشه المجتمع، أو لم تحفر بعد في واقع الأمة المجرىٰ المطلوب لسيرورتها.

● قد تكون مشكلتنا اليوم في التعامل مع القرآن كالعاصي من البشر الذي يسمع آيات تدعو إلىٰ التوبة فلا يدرك أبعاد معصيته وضرورة الالتفات إلىٰ التوبة المودعة في الآيات، وإنما يلتفت إلىٰ موسيقىٰ القراءة ونغم التَّالي، فيقول: «الله.. الله» للنغمة التي يسمعها، فلا يتدبر ولا يفكر قط في أن يصنع شيئاً للانتقال من معصيته إلىٰ التوبة المطلوبة منه.. هـٰكذا حال أمتنا.. [سمعت مرة في أحد المساجد وصفاً كاد شعر رأسي يقف من هول القيامة، وإذا واحد من الرعاع، ما خطر بباله شيء من هـٰذا الوصف، ويصرخ: الله يا سيدنا الشيخ، أعد! لقد أصبح هـٰذا التعامل مع القرآن ـ للأسف ـ هو المناخ الثقافي السائد الذي نورثه لأجيالنا].

لا بد من التدبر.. فإذا تدبرنا الآيات، نقلناها إلىٰ حقول الممارسة علىٰ الأقل، أو إلىٰ ميادين السلوك لنعرف كيف نُعمل هـٰذه الآية فيما نعاني منه وفي ما نواجهه. فإذا قيل:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٨١ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨٢﴾ [يونس].

فإننا يجب أن نجيء بهـٰذه الآية، وننظر إلىٰ أعمالنا، وهي قاصرة: هل يكملها الله؟.. لا.. لن يكملها الله، لأنه لا يصلح عمل مفسد.. إذن، ما الخلل الذي أصاب العمل فجعله لا ينتج؟ لا بد من استدراكه حتىٰ يؤذن الله بالصلاح. لذٰلك لا بد من تحري الصواب في العمل، إلىٰ جانب الإخلاص.

يجب أن نغير أنفسنا كما تقول الآيات.. في كتابي: «جدد حياتك» وأنا أنقل عن «ديل كارنيجي»[1] أن واحداً قال لابنه وهو مسافر للاستشفاء: إن

---

(١) ديل كارنيجي، Carnegie Dale كاتب أمريكي، ولد عام ١٨٨٨م في ولاية ميزوري =

بلاءك من نفسك التي بين جنبيك، فإذا تغيرت الأرض عليك بالسياحة، وانتقلت من هنا إلىٰ هنا، وبقيت نفسك التي بين جنبيك، بسوادها وتشاؤمها وإسفافها، فلن تنفعك السياحة.. لا بد من تغيير نفسي يجعل لهٰذه السياحة معنًى.

تصويب مناهج الفكر ووسائل التلقي:

□□ إذا تأملنا ملامح الظاهرة الثقافية التي عليها المسلمون اليوم، سواء كانوا متعلمين أو كانوا من عوام الأمة، نجد أن هناك خللاً في تلقي القرآن الكريم، خللاً في التعامل مع القرآن.. هٰذا الخلل يعود إلىٰ: طريقة التدريس، إلىٰ مناهج التربية، إلىٰ مناهج التعليم، إلىٰ مؤسسات تحفيظ القرآن نفسها.. يشارك في هٰذا الخلل مؤسسات كثيرة عاملة في بناء الشخصية.. فهٰذا الخلل، أو تلك الأسباب التي انتهت بنا إلىٰ ما نحن عليه، إذا حاولنا الأخذ بسنة السببية التي نحن بصددها، وهي دليل الوحي عندنا، والتي كان إهمالها من أهم أسباب التخلف في مجال الدنيا وإعمارها، والتواكل في مجال الدين والسلوك؛ لو أعملنا هٰذه السنَّة، نستطيع أن نحدد موطن الخلل في نظامنا التعليمي، وفي التعامل مع القرآن الكريم منبع ثقافتنا الأصلي الذي أحدث هٰذه الظواهر.. فتغيير التعامل مع القرآن، يجب أن يبدأ في إصلاح الخلل في مناهج التلقي، ووسائط التوصيل، وإعادة بناء العقل علىٰ منهج فكري واضح نستطيع به تغيير التعامل مع القرآن.

● **القرآن نفسه يقول:**

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

فكأن الفساد ناشئ عما كسبته الأيدي، ولن يتلاشىٰ الفساد إلا إذا اختفىٰ ما تكسبه الأيدي من إثم.. في القرآن تساؤلات، مثل:

= الأمريكية، التحق بالأكاديمية الأمريكية لفنون التمثيل، وأنشأ كارنيجي للخطابة والعلاقات الإنسانية بنيويورك.

من أشهر مؤلفاته: «دع القلق وابدأ الحياة»، و«كيف تكسب الأصدقاء».

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص].

فالقصة ليست قصة أن الرسول ﷺ راغب في أن يهدي أمة، أو أن يهدي فرداً.. الفرد إن لم يصنع شيئاً يرفع به رأسه، ويهذب نفسه، فإن محبة الرسول ﷺ لهدايته لن تجزي.. فقد يكون هناك من يحب لنا الرفعة، ولٰكن لن نرتفع إذا كانت أجنحتنا مقصوصة! لا بد من العودة إلىٰ قانون السببية، ونعرف بدقة ما السبب في تخلفنا.. والتخلف كالمرض.. فالإنسان إذا مرض بحمىٰ من الحميات، فإنه لكي يشفىٰ منها، فإن الشفاء لن يكون ما بقيت الجراثيم موجودة في البدن.. إزالة الجراثيم بشتىٰ الأدوية، يؤذن بالشفاء.

القرآن، شفاء للمؤمنين.. ما معنىٰ أنه شفاء للمؤمنين؟ يقول أصحاب النكت: إنه ـ في أيام الأتراك ـ كان يجيء في الأسطول من يقرأ البخاري لكي يكون بركة للمعركة القادمة، فقيل لهٰؤلاء: إن الأسطول يسير بالبخار لا بالبخاري.. فقراءة البخاري دون إدراك لأبعاد الأحاديث النبوية المبينة للقرآن الكريم في حسن التعامل مع قانون السببية، لا تجعل السفينة تتحرك إذا كان الربان يكتفي بقراءة البخاري.. ومجرد قراءة البخاري ـ دون التعامل مع الأسباب ـ لا تنفعه هنا إطلاقاً. وما حدث قط أن نفعت من سبق. المسلمون كانوا حديثي عهد بسنة وبقرآن، واشتبكوا مع الرومان في معركة ذات الصواري.. ما كان للعرب صلة بمعارك البحر، ولٰكنهم علموا أنهم ما يكسبون المعركة ضد الرومان والبحر الوسيط، إلا إذا صنعوا السفن فاشتبكوا مع العدو.. فصنعوا السفن واشتبكوا مع العدو. وما فكروا قط في أن يجعلوا من تلاوة آيات أو قراءة كتاب سنة بركة لكي ينتصروا، وإنما كانت البركة في أن يحولوا آيات الجهاد إلىٰ جهاد، وآيات الإعداد إلىٰ إعداد.. فأعدوا مكاناً غريباً علىٰ بيئتهم، وما كان بعيداً علىٰ جاهليتهم وماضيهم الأول.. كانوا ركاب إبل، في سفن الصحراء، فما الذي جعلهم يصنعون السفن في البحر كي ينتعشوا؟

من غير شك، هناك خلل في أخذنا من القرآن الكريم وهٰذا الخلل،

سرىٰ حتىٰ في الأعمال الشخصية المحدودة جداً، فأنت ترىٰ الرجل يتوضأ ويبقىٰ وسخاً! لماذا؟ لأنه أمرَّ الماء وهو ذاهل، ما نظّف به درناً وما أزال به وسخاً. فكذٰلك نحن نستمع للآيات دون وعي:

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الروم].

فلا بد من أن يتلاشىٰ هٰذا الخدر الذي قيد الأفكار وقيد الحواس، وقيد الأعضاء فأصبحنا لا نتحرك بكتاب ربنا كما حرك هٰذا الكتاب آباءنا.

موطن الخلل:

□□ المشكلة الآن، فيما يبدو لي، أن الإصابة والخلل واقع في المؤسسات الموكول إليها عملية الإشراف علىٰ التربية والتعليم من مناهج وكتاب ومدرس ووسائل معينة.. إنها لم تستطع أن تكون أداة توصيل صحيحة بين الجيل وبين القرآن الكريم ومواريثه الثقافية.. فصار هناك توارث للتخلف والمرض.. فالمشكلة الكبرىٰ قد تكون في المؤسسات المنوط بها الآن تفهيم وإيصال القرآن للجيل..

● هٰذا عمل المصلحين الكبار.. المصلحون الكبار يجيئون في أيام عجاف. لا يكون لديهم، لكسب المعركة، الجيش الذي يديرون به الحرب، بل ولا الأرض التي تدور عليها الحرب. فيبذلون جهدهم في اختراع هٰذه الأجهزة من العدم، والمشي بها حتىٰ الغاية المنشودة.. إذا كان هناك في الأزهر أو في الزيتونة، أو في القرويين، أو في المسجد الحرام والمسجد المدني من لا يزالون يقرأون القرآن قراءة ذات فهم موضعي محدود للنص ـ وليس موضوعياً ـ دون أن يُعملوا هٰذا النص في ما نزل من أجله، وفي ما أنزل علىٰ محمد ﷺ به، فمعنىٰ هٰذا أننا نريق الدواء علىٰ الأرض، ولا نحسن علاج المرضىٰ بتعاطيه. إنما يوم أن نجعل هٰذه المعاهد أو هٰذه المدارس بروح واحد يحركها من جديد لكي تفهم النص، وبدل أن تنقل النص في افتتاح مدرسة عسكرية، فيفتتح الحفل بتلاوة آي الذكر الحكيم، كنوع من التقليد البعيد عما كان معروفاً في الأيام الأولىٰ، أن يكون القرآن نفسه هو

الذي أنشأ هـٰذه المدرسة، وأودع روح القتال في أبنائها.. وبدل أن نكتب:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

في الجدار لافتة، يكون البناء التربوي، والإعداد العملي، والتخطيط الاقتصادي والعسكري مبنياً علىٰ أن الأدوات تُجمع، والأجهزة تحشد، ورباط الخيل الجديدة ـ الدبابات وغيرها ـ تعد.. كل شيء يُعد.. هـٰذا هو معنىٰ الجهاد، وفهم الجهاد من القرآن الكريم.

الرسول عليه الصلاة والسلام علم وهو لا يزال في المدينة وقبل أن يخرج أي جندي من جزيرة العرب، علم أن الله سيجعل رسالته تجتاز البحار، وأن من أمته من يقاتل في البحر، فطلبت منه بنت ملحان(١) أن تشارك في هـٰذا الغزو البحري.. امرأة بفطرتها السليمة أدركت أن هناك جهاداً بحرياً، ولم تستغرب أن يكون هناك جهاد بحري لرسالة عالمية، أدركت أن الأمة التي تحمل هـٰذه الرسالة لا بد أنها مشتغلة بإعداد الأجهزة التي تقاتل في البحر.. كل هـٰذا بالبداهة العربية الأولىٰ، ولذٰلك طلبت ـ كأنه أمر واقع ـ أن تشترك في هـٰذه المنافسة في الخير.. جاء بعد ذٰلك من يقرأ آيات تسخير البحار للناس ولا يفكر في أن يركب بحراً. ونشأ عن هـٰذا أن الأمة الإسلامية في الأرض التي قال العلماء إن ثمانية أعشارها مياه! في هـٰذه المساحة الهائلة من البحار، توجد عشرة آلاف أو عشرون ألف ـ أو نحو ذٰلك ـ سفينة اليوم، ليس فيها غواصة إسلامية! ولا حاملة طائرات إسلامية! ولا سفينة ـ مدنية كانت أو عسكرية ـ تصنع في مرفأ عربي أو إسلامي! ما معنىٰ هـٰذا؟! أهـٰؤلاء لديهم إدراك لمعنىٰ قوله تعالىٰ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ [الجاثية: ١٢].

هل هـٰذه الكلمة يُتغنىٰ بها دون أن نعرف أن البحر المسخر لنا يجب أن

---

(١) هي أم حرام بنت ملحان، خالة أنس بن مالك ﷺ، وعن أنس أن النبي ﷺ كان إذا ذهب إلىٰ قُباء دخل علىٰ أم حرام بنت ملحان فتطعمه. وقد ركبت أم حرام البحر في زمن معاوية ﷺ فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فماتت.

نسخره لأنفسنا ـ وهٰذا هو الفكر الطبيعي للأمة الإسلامية ـ بدل أن يُسخرنا في البر والبحر عباد الله الذين لا دين لهم؟

إن الخلل العقلي في فهم القرآن، فهماً عملياً كما توحي به الطبيعة السهلة التي لا تكلف فيها بين الناس، فقدناه من مدة طويلة! ويجب علىٰ المعاهد التي تكوِّن الدعاة والتي تكوِّن العلماء، أن تستنقذ الأمة من الورطة التي وقعت فيها.

إن حديثاً كحديث: «**هو الطهور ماؤه، الحلّ ميتته**»[١] ما أخذنا منه إلا أن نأكل من البحر الأسماك والحيوانات وإن كانت ميتة، ونغتسل! وانتهىٰ الأمر إلىٰ هنا! هل فقه القرآن الكريم تلاشىٰ عند أننا نأكل سمكاً من البحر، ويبقىٰ البحر لغيرنا؟ وكيف نستطيع الوصول إلىٰ سمك البحر إذا كانت السيطرة عليه لغيرنا؟

يقول تعالىٰ:

﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل].

عندما كان «سير جينز»[٢] يقرأ معلوماته عن الفلك علىٰ بعض المسلمين ويرتعش من حدة العاطفة التي ملكته وهو يحدِّث عن الله وعن الإيمان بعظمته لما رأىٰ من عظمة المجرات التي درسها، كان أقرب للإسلام من كثير منا عندما درس السماء، أما نحن فنكتفي من قوله تعالىٰ:

﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل].

بأن الله لفتنا إلىٰ أن هناك علامات في الأرض والسماء! لٰكن، ما هي؟ وماذا صنعنا مع هٰذه العلامات؟ وما هي الوسائل والمبتكرات التي طورناها في هٰذا الموضوع؟

---

(١) الحديث أخرجه أصحاب السنن الأربعة، أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة ﷺ. وقد أخرجه الترمذي في كتاب الطهارة، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) السير جينز (جيمس) Sir Jeans (James) فيزيائي ورياضي وعالم فلك بريطاني، ولد عام ١٨٧٧م وتوفي عام ١٩٤٦م.

إن غيرنا الآن يغزو الفضاء ويتخذ من غزو الفضاء منارات وعلامات لكي يسخر الحضارة له.. أما نحن فوقوف! لا بد من إحسان التعامل مع القرآن، وإذا كان من تعليق سريع علىٰ هٰذه الآية فهو أن بعض المحدثين ـ للأسف ـ استدلّ بحديث واه عن النبي ﷺ منع به السفر في البحر! **«لا يركب البحر؛ إلا حاج، أو معتمر، أو غاز في سبيل الله»**[1] أو نحو ذٰلك.. فكيف جيء بهٰذا الحديث الذي رواه أبو داود؟ أنا رفضت هٰذا الحديث وقلت: إنه كلام غير صحيح.. كأن الأمة لم يكفها أنها قصرت في فهم العمل حتىٰ تريد إفساد المصدر الذي تأخذ منه المعرفة الدينية.. وكم من اعتماد موضوعات في السنن النبوية سببت البلاء للأمة الإسلامية علىٰ هٰذا النحو.

التعامل مع النصوص من خلال واقع التخلف:

□□ قد تكون المشكلة الفكرية اليوم هي أننا نحمِّل تخلفنا أيضاً لمواردنا الثقافية فنفسر ميراثنا الثقافي من خلال واقع التخلف الذي نعيش فيه، فنصير نلجأ إلىٰ لون من التفسير المتخلف أيضاً، كنوع من التسويغ للواقع الذي نحن عليه، فننتقي بعض النصوص، ونعتمد علىٰ بعضها الآخر، وما إلىٰ ذٰلك دون النظر إلىٰ صحتها من حيث السند، أو إلىٰ الأبعاد المطلوب إدراكها، واستشعار المسؤولية تجاهها، هٰذا لأنها توافق الحالة التي نحن فيها، وكأن هٰذه النصوص بدل أن تكون دافعاً للتغيير، أصبحت مانعاً منه، تُقرأ بمنهج مغلوط يكرِّس تخلف الأمة وسقوطها..

● نعم.. خذ مثلاً قضية الحديد.. آية الحديد، الظاهر فيها أن الله يريد أن يعلم المسلمين من ينصره بالغيب.. الدافع واضح من استخدام الحديد، لا

---

(١) نص الحديث كما ورد في «سنن أبي داود»: **«لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز في سبيل الله، فإن تحت البحر ناراً وتحت النار بحراً»** وهو مروي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في كتاب الجهاد، باب ركوب البحر في الغزو. وقال أبو داود: رواته مجهولون. وقد ضعفوا إسناد هٰذا الحديث، وقال المنذري: في هٰذا الحديث اضطراب، وقال الخطابي: وقد ضعفوا إسناد هٰذا الحديث. وقال البخاري: ليس هٰذا الحديث بصحيح. (تلخيص الحبير ٢/ ٢٣٥).

بد من نصرة الله بالغيب. فاستخدم الحديد في صناعة السيوف أو الرماح. لٰكن الحديد اليوم أساس صناعة الدبابات.. أساس صناعة السفن في البحار.. أساس صناعة المسدسات والمدافع.. أساس صناعات حربية هائلة، ما ينصر الله ورسله إلا بهٰذه الصناعة.. فأين هي من وعينا، وأين نحن من إعداد أسبابها؟! لا شيء.. بالعكس، لقد رأيت أن غيرنا حتىٰ في ميدان الفلاحة - وهو ميدان بدائي - استطاع أن يستثمر الأرض وأن يُخرج منها القناطير المقنطرة، بينما لما وقعت الأرض في أيدينا ما أحسنا أن نأكل منها! هٰذا بلاء كبير تقع فيه الأمة الإسلامية من سوء فهمها للقرآن..

لا بد من جعل القرآن يتحول في حياتنا إلىٰ طاقة متحركة.. أما أن يوضع في المتاحف أو المكاتب للبركة، أو أن نفتح المصحف ونقرأ منه آية أو آيات وينتهي الأمر؛ هٰذا لا يجوز.

لاحظت أن آيات الأحكام من غير شك، كانت من وراء جهد الفقهاء في بعض القضايا وبعض الاجتهادات الفقهية.. لٰكن، بقية آيات القرآن، أُهملت.. وبقية القرآن التي هي القصص.. والقصص القرآني فيه الكثير من العلاج.. أنا سمعت حسن البنا[1] رحمه الله، يقول بنفسه: لا أدري لماذا أُهمل التأليف الروائي، وكان يمكن أن يكون سبباً في إنشاء أجيال واعية؟ كان يمكن جداً أن أروي للأطفال: محاولة الحبشة هدم الكعبة تبعاً لمؤامرة عالمية بين

---

(١) حسن بن أحمد بن عبد الرحمن البنا: مؤسس جماعة «الإخوان المسلمين» بمصر، ولد في المحمودية (قرب الإسكندرية) عام ١٣٢٤هـ (١٩٠٦م)، وتخرج بمدرسة دار العلوم بالقاهرة، واشتغل بالتعليم، واستقر مدرساً في مدينة الإسماعيلية، ثم نُقل «مدرساً» إلىٰ القاهرة، فانتقل معه المركز العام ومقر القيادة للإخوان المسلمين. وأنشأ بالقاهرة جريدة «الإخوان المسلمين» اليومية. اغتيل في عهد الملك فاروق حيث تصدىٰ له ثلاثة أشخاص وهو أمام مركز «جمعية الشبان المسلمين» في القاهرة، ليلاً، فأطلقوا عليه رصاصهم عام ١٣٦٨هـ (١٩٤٩م). وكان خطيباً فياضاً، ينحو منحىٰ الوعظ والإرشاد، في خطبه، وتدور آيات القرآن الكريم علىٰ لسانه، منظّماً، يعمل في هدوء ويبني في اطمئنان. له مذكرات نشرت بعد وفاته باسم «مذكرات الدعوة والداعية».

الإمبراطورية الرومانية في أوروبا وبين الحبشة في إفريقيا، وكيف أنهم أرسلوا الفيل، وكيف أنهم نجحوا في احتلال الجنوب.. وأجعل الأطفال من خلال قصة الفيل، يعرفون أشياء كثيرة عن علاقات دينية، وعلاقات دولية، ومعلومات تاريخية، وكيف أن الله ينصر الإسلام بعد أن نبذل نحن جهدنا في نصرته.. وذٰلك بدل أن أسمع من يقول: إن الشيخ محمد عبده[1] كافر.. لماذا كافر؟ لأنه شرح سورة الفيل وقال: إن الطير الأبابيل، هي الجراثيم.. أنا قرأت شرح الرجل، ليس فيه هٰذا الكلام.. قال: إن الطير الأبابيل ربما تحمل أشياء فيها جراثيم.. ولنفترض جدلاً أن الرجل قال إنها جراثيم، أو تحمل جراثيم، فهل الذي يعنينا من دراسة الآية تكفير الناس؟ أم أنه كان من الممكن الاستفادة من القصة علىٰ نحو أخصب وأوقع في النفوس، وأنفع للمجتمع والحاضر والمستقبل علىٰ السواء؟

انقلاب الوسائل إلىٰ غايات:

□□ في تصوري: أن من كتبوا في القصص القرآني، غلب عليهم إبراز الجانب الفني، وأخذوا بالناحية البلاغية حتىٰ كادت تكون هي الهدف في أعمالهم، مع أنها الوسيلة وأداة التوصيل، القالب الفني الذي يغري الإنسان

---

(١) محمد عبده بن حسن خير الله، من آل التركماني: مفتي الديار المصرية، ومن كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام، ولد في شنرا (من قرىٰ الغربية بمصر) عام ١٢٦٦هـ (١٨٤٩م). ونشأ في محلة نصر (بالبحيرة) وأحب في صباه الفروسية والرماية والسباحة. وتعلم بالجامع الأحمدي بطنطا. ثم بالأزهر. وتصوف وتفلسف. وعمل في التعليم. وكتب في الصحف ولا سيما جريدة «الوقائع المصرية» وقد تولىٰ تحريرها. وأجاد اللغة الفرنسية بعد الأربعين. ولما احتل الإنجليز مصر نَاوَءَهم، وشارك في مناصرة الثورة العرابية. فسجن ونفي إلىٰ بلاد الشام. وسافر إلىٰ باريس فأصدر مع صديقه وأستاذه جمال الدين الأفغاني جريدة «العروة الوثقىٰ» وعاد إلىٰ بيروت فاشتغل بالتدريس والتأليف. وسمح له بدخول مصر، فعاد سنة ١٣٠٦هـ (١٨٨٨م) وتولىٰ منصب القضاء، ثم جعل مستشاراً في محكمة الاستئناف، فمفتياً للديار المصرية سنة ١٣١٧هـ واستمر إلىٰ أن توفي بالإسكندرية عام ١٣٢٣هـ (١٩٠٥م).

له «تفسير القرآن الكريم» لم يتمه، و«رسالة التوحيد»، وغيرها مؤلفات عديدة.

بالإقبال علىٰ القرآن وفهم أبعاد الآيات، لذٰلك، فقد تكون المشكلة أوالإصابة في التعامل مع القرآن هي في: انقلاب الوسائل إلىٰ غايات.. لقد غابت الأهداف والمقاصد وتركز الاشتغال بالوسائل، والأشكال، وغاب من القصص الشهود الحضاري التاريخي الذي لا بد من استصحابه للعبرة وتحقيق الشهود الحضاري للأمة المسلمة، وأبدل بالبحث عن مخارج الحروف وإعراب الكلمات، وبيان الاستعارات؛ وما هي إلا وسائل وأدوات للوصول إلىٰ تذوق القرآن وتدبره، فأصبحت بالشكل الذي هي عليه: معوقات وحواجز بين المسلم وكتابه الخالد!

● في كتابي «المحاور الخمسة في القرآن»، كتبت شيئاً موجزاً عن القصص القرآني، واقتصرت علىٰ ذٰلك، تاركاً الموضوع كله لمن وكل إليه أن يكتب في هٰذا الباب أو هٰذا المحور من محاور القرآن الكريم..

القصص في القرآن أساس التربية، لا التربية النفسية فقط بل العقلية أيضاً. العقل الإنساني، يجب أن يحرر من قيود الوراثة المخرفة، وأن يكون قادراً علىٰ الحركة، بل أنا أرىٰ أن القرآن يهدف إلىٰ بناء أو إنشاء عقل تجريبي.. عندما يقول تعالىٰ:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج].

كأن من نتائج السياحة في الأرض أن ننشئ عقلاً.. ننشئ فكراً يستمد معارفه وأسلوبه في الفهم من واقع الناس.. فالسير في الأرض ينشئ بصائر للناس..

هٰذا معنىٰ إذا ضممنا إليه الآية الأخرىٰ:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣].

النفس، متىٰ تكون مصدراً للإلهام؟ متىٰ تكون مصدراً لاستكشاف المخبوء من قياس شيء علىٰ شيء؟ وقوله تعالىٰ:

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر]، الذي جاء في قصة بني النضير.

لا بد أن ننظر في كل محور من المحاور التي دار عليها القرآن لنعرف كيف أخطأ القدامىٰ، في بعض ما ذهبوا إليه في عصور الجمود والتخلف، أو كيف وقف آباؤنا ولماذا؟ لقد ظلمنا القرآن بسوء التعامل معه، ويجب أن نحسن التعامل معه كما صنع أسلافنا الأولون. . فالمصلحون الكبار هم الذين يبدأون من العدم.

□□ بالنسبة للمصلحين الأفذاذ الذين يأتون في أوقات من التاريخ متباعدة أو متقاربة؛ يبدو لي أن تعبير «إنهم يبدأون من العدم» ونفي وجود قابليات تشكل استجابة لدعوتهم محل نظر، لعل الأولىٰ أن نقول: إنهم استطاعوا أن يكتشفوا موطن الخلل فيصلحوه، ويكتشفوا القابليات فيوظفوها ويثيروها ويشحذوا فاعلياتها.

● هـٰذا كلام دقيق. وإنما الجانب الذي أردت الحديث عنه شيء آخر، وهو أنه عندما أرسل قائداً في ميدان موجود وأقول له: الخطة المرسومة كذا وكذا وعليك التنفيذ، فهـٰذا القائد أمره سهل، لأنه سينفذ الخطة الموضوعة في الميدان الممهد. . لـٰكن، عندما يخرج رجل مثل حسن البنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فيجد أن الأرض أمامه كلها ألغام، والجماهير لا ترىٰ إلا صنماً قد هام في صنم، فكيف يعرض الإسلام عرضاً جديداً؟. . الرسول ﷺ سماهم: المجددين. . والتجديد من غير شك هو غير الخلق. . فالخلق يكون من عدم. . أما التجديد فهو غسل ثوب اتسخ، أو إزالة التراب عن ملامح كانت مغطاة، فظهرت ملامحها وبريقها بعد الإزالة.

معنىٰ التجديد يكون أقرب إلىٰ ما قلته أنت. . وكل ما أردت أن ألفت النظر إليه: هو أنه قد يضطر القائد إلىٰ أن يستحدث أساليب لا وجود لها من المقررات التي عنده. فمثلاً أنا عندي القياس، والقياس آلة تجيء بأشياء كثيرة مع التطبيق المستمر. . والحاجة أمّ الاختراع. . فإذا أشعرت الأمة بأنها محتاجة إلىٰ كذا وكذا، يمكن أن تخترع. . وقد اخترع محمد الفاتح[1] أن

---

(١) السلطان محمد الثاني بن السلطان مراد الثاني من أبرز سلاطين بني عثمان، ولد في =

تسير السفن علىٰ الأرض وهو يحاصر القسطنطينية، لأنه يتمتع بعقل عبقري متفتح يريد أن يخدم الإسلام خدمة جعلته يكمل حصار القسطنطينية بالطريقة المبتكرة من عدمٍ، فمَن كان يتصور أن السفن تمشي علىٰ الأرض.

الفقه بين دلالة القرآن واصطلاح الفقهاء:

□□ قد تكون المشكلة من وجه آخر، أن معظم العلماء والمفكرين المسلمين، تاريخياً، بسبب من الظروف السياسية التي أدت إلىٰ انفصالهم عن الواقع ومتطلباته، أو لأي سبب آخر، صرفوا جهودهم كلها في استنباط الحكم التشريعي من الآيات دون الوقوف عند الأهداف الكثيرة الأخرىٰ التي جاءت الآيات من أجلها، وأنزلت للفت النظر إليها وإدراك أبعادها والتزامها في الحياة، فجعلوا الآيات موضوع الدراسة هي آيات الأحكام التي وضعوا له أعداداً متقاربة (٣٠٠ ـ ٥٠٠)، أما ما وراء ذٰلك من آيات السنن والقوانين والشروط التي قد تكون أكثر أهمية وأولىٰ بالنظر من حيث البناء الحضاري، وشروط القيام بأعباء الاستخلاف الإنساني، فلم يعيروها أدنىٰ اهتمام، أو الاهتمام الكافي علىٰ الأقل، وبقيت آيات القرآن الأخرىٰ، علىٰ أهميتها، تتلىٰ للتبرك، إلىٰ درجة وصلت عند بعضهم وكأن القرآن كله أصبح كتاباً لفقه آيات الأحكام فقط! حتىٰ الآيات التي وردت لتبين أسباب سقوط الأمم وانهيار الحضارات ليأخذ المسلمون حذرهم، فلا تتسرب إليهم إصابات الأمم السابقة وعللها، جعلوها دليلاً لصحة القياس التشريعي، بعيداً عن سياقها الأصلي! وتحضرني بهٰذه المناسبة: الآية التي عقَّب القرآن بها علىٰ

= ٢٧ رجب ٨٣٥هـ (٣٠ مارس ١٤٣٢م) بمدينة أدرنة، وتولىٰ الحكم مرتين. في الفترة الأولىٰ وهو صغير من ٨٤٧ ـ ٨٤٩هـ (١٤٤٤ ـ ١٤٤٦م) وأعدت فيها القوىٰ الصليبية في أوربا بقيادة البابا وملك المجر وبقايا الأمبراطورية البيزنطية والبندقية حملة للقضاء علىٰ السلطنة العثمانية وقد ساعده أبوه في القضاء علىٰ الحملة.. وتولىٰ في الفترة الثانية من ٨٥٥ ـ ٨٨٦هـ (١٤٥١ ـ ١٤٨١م) وقد سمي بمحمد الفاتح بعد أن استطاع فتح القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ (١٤٥٣م) كما نشر سلطانه علىٰ أجزاء كثيرة من شبه جزيرة البلقان والأناضول. وتوفي في ٤ ربيع الأول ٨٨٦هـ (٣ مايو ١٤٨١م).

غزوة بني النضير، فقال تعالىٰ بعد ذكر الأسباب التي كانت وراء هلاكهم: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝٢﴾ [الحشر].

فجعلوا الآية دليلاً علىٰ القياس التشريعي.. أما أسباب قيام وسقوط الحضارة فلم يكن لها من المساحة الفكرية والاهتمام ما تتطلبه... وقد ترافق هٰذا العجز أيضاً - عند الفقهاء المتأخرين - في القدرة عن تعدية الرؤية حتىٰ في الإتيان بمثال غير ما أتىٰ به الأقدمون، والمعروف أن الحكم التشريعي إنما يجيء ثمرة للوجود والبناء الإسلامي.. بمعنىٰ أن الحكم التشريعي لا ينشئ المسلم، ولا ينشئ المجتمع، وإنما ينظمه ويحميه.. ولعل ذٰلك كان سبب تأخر الآيات التشريعية إلىٰ الفترة المدنية لتكون ثمرة لوجود فرد وجماعة وأمة وحضارة.. أما أن يكون الحكم التشريعي هو الأول والآخر، فأعتقد أنه منهج خاطئ في النظر إلىٰ القرآن والتعامل معه، علىٰ أهمية الفقه التشريعي، وأهمية معرفة الحلال والحرام.

لقد أصبح كل شيء يُفسر من خلال الحكم التشريعي، فالسيرة تقرأ علىٰ أساس أنها فقه، وتُغيَّب عن الدارسين كل المعاني المطلوبة في التربية بالقدوة وأبعاد التأسي المطلوبة، لتصبح فقه السيرة، وفقه الحديث، وفقه الكتاب، وفقه السنَّة، وليس الفقه بمعناه العام وإنما بمعناه التشريعي.

وتقدم الفقه التشريعي، وتقدم، حتىٰ أصبح تجريداً ذهنياً جامداً بعيداً عن واقع الأمة غير قادر علىٰ قيادة حركة الحياة والأحياء.. وأرىٰ في ذٰلك انقلاب الوسائل غايات لقد غلبت الآلية إلىٰ درجة كادت تغيب معها مقاصد الشريعة. فكان البحث عن المقاصد والموافقات للشاطبي، وكان العدول عن القياس إلىٰ الاستحسان، وما إلىٰ ذٰلك.. ولعل هٰذا التبحر في الحكم التشريعي الفقهي جاء علىٰ حساب بقية الجوانب الأخرىٰ الكثيرة والضرورية. فالقرآن كتاب فقه حياة، بكل أبعادها، وليس كتاب فقه بالمعنىٰ المحدود.

لذٰلك بات لا يرىٰ كثير من المسلمين اليوم في تطبيق الشريعة إلا تطبيق الأحكام الفقهية: تطبيق الحدود، وتحريم المصارف الربوية، بينما يصعب

عليهم إبصار بقية جوانب الحياة الأخرىٰ من خلال المناخ الثقافي الإسلامي الذي نعاني منه..

انفصال العلم عن الحكم:

● أنا لا أشك في أن الفقه الإسلامي تأثر بانحراف الحكم في العالم الإسلامي. ويمكن أن أتصور الأمر علىٰ النحو الآتي: كانت دولة الخلافة الراشدة دولة تمثل الإسلام تمثيلاً هو الأقرب إلىٰ عهد النبوة.. ولا شك أن سياسة الحكم، وسياسة المال، والمفاهيم العامة للحضارة الإسلامية، وللانطلاق الإسلامي استمرت بمسيرتها الصحيحة، وكان هٰذا الفهم مسيطراً علىٰ دولة الخلافة..

ثم حدث تحول ينبغي أن نقف بإزائه قليلاً. لقد تحولت دولة الخلافة إلىٰ ملك. وفي النظام الملكي الذي أقامه معاوية[1] ﷺ ـ ننصف الرجل فنقول ـ: أنه ظل وفيّاً لانتمائه الإسلامي وزعم أنه سوف يخدم الإسلام أكثر مما خدمه الخلفاء الراشدون، أو علىٰ الأقل أكثر من خصمه الأخير، علي بن أبي طالب[2] ﷺ.. أنا أقدر منه علىٰ خدمة الإسلام. ومضىٰ في طريقه، فحدث تحول بيقين في قضايا إسلامية مهمة وبدأ يتجمد الفقه السياسي والدستوري للدولة.. كما تجمد فقه العلاقات الاقتصادية والمالية.. وبدأ يتجمد فقه العلاقات الدولية، كذٰلك..

---

(١) هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية القرشي الأموي. مؤسس الدولة الأموية بالشام، وأحد دهاة العرب الكبار. كان فصيحاً حليماً وقوراً. ولد بمكة عام ٥٠ قبل الهجرة وقيل قبل ذٰلك، وأسلم عام الفتح. ولاه أبو بكر ثم عمر. وأقره عثمان علىٰ الديار الشامية. تنازل له الحسن بن علي عام الجماعة. غزا جزر البحر المتوسط والقسطنطينية وكثرت فتوحاته. أخذ العهد لابنه يزيد. توفي عام ٦٠هـ.

(٢) هو علي بن أبي طالب، واسم أبي طالب: عبد مناف بن عبد المطلب. من بني هاشم، من قريش. أمير المؤمنين، ورابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة. ولد عام ٢٣ قبل الهجرة، زوَّجه النبي ﷺ ابنته فاطمة، ولي الخلافة بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان، فلم يستقم له الأمر حتىٰ قتل بالكوفة عام ٤٠هـ. كفَّره الخوارج، وغلا فيه الشيعة حتىٰ قدموه علىٰ الخلفاء الثلاثة، يُنسب إليه «نهج البلاغة» وهو مجموعة خطب وحكم.

هنا، نجد الأئمة الذين قادوا الأمة علمياً، وهم مشهورون: أبو حنيفة ومالك[1] والشافعي وابن حنبل، وهم فقهاء، التزموا ناحية فروع الفقه، كما التزم المحدثون رواية السنن. وغلب علىٰ هٰؤلاء وأولٰئك الرغبة في ألا يصطدموا بالنظام القائم. لأن النظام القائم، اصطدم به الخوارج، وهٰؤلاء ليس لديهم فقه، فنكَّل بهم النظام تنكيلاً قطع دابرهم، وأيأس الناس من أن يكون هناك مجال لإصلاح سياسي بالمعنىٰ الذي يعود بالأمة إلىٰ دولة الخلافة.. واكتفىٰ الأئمة بأنهم قبلوا الأمر الواقع، واستفاضوا في شروح العبادات والمعاملات علىٰ النحو الذي وصل إلينا.. كان من الممكن أن ينكشف ضرر هٰذا المسلك لو أنه حدثت عودة إلىٰ دولة الخلافة، لٰكن الذي حصل أنه جاءت الدولة العباسية بعد الدولة الأموية، فوقع في نفوس الناس يأس من أن يحقق الإسلام بمفهومه الكامل مائة بالمائة، فاكتفوا بتحقيق الناحية الفرعية في فقهه، والناحية العبادية الفردية، وتأثرت السياسة الإسلامية تأثراً واضحاً، وانهزمت الشورىٰ انهزاماً واضحاً، ووقع للأمة ما وقع.

لٰكن، لا شك أن الإسلام في جملته بقي.. وأن الملوك الذين تبنوا الإسلام، تبنوا منه المجموع من المعارف التي لا تصطدم بوجودهم، ولا بأحوالهم الاقتصادية التي تحيط بهم، أو يشكلونها لحراسة سلطتهم.. ومن خرج علىٰ هٰذا الخط، إما تصوَّف وابتعد، أي انسحب من الميدان بالتصوف، وإما عاش يتحمل شيئاً من الأذىٰ، ويبقىٰ الكيان الإسلامي نظرياً، وقد تستبقيه

---

(١) هو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الأنصاري. إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. أخذ العلم عن نافع مولىٰ ابن عمر، والزهري، وربيعة الرأي، ونظرائهم. وكان مشهوراً بالتثبت والتحري: يتحرَّىٰ فيمن يأخذ عنه، ويتحرَّىٰ فيما يرويه من أحاديث، ويتحرَّىٰ في الفتيا. اشتهر في فقهه باتباع الكتاب والسنّة وعمل أهل المدينة. كان رجلاً مهيباً، وقد امتحن، فضربه أمير المدينة ما بين ثلاثين إلىٰ مائة سوط. وكان سبب ذٰلك أنه أبىٰ إلا أن يفتي بعدم وقوع طلاق المكره. ميلاده عام ٩٣هـ بالمدينة، ووفاته عام ١٧٩هـ بها.

من تصانيفه: «الموطأ»؛ و«تفسير غريب القرآن»، وجمع فقهه في «المدونة»؛ وله «الرد علىٰ القدرية»؛ و«الرسالة» إلىٰ الليث بن سعد.

الحكومات القائمة لينجح في أداء هٰذا المعنىٰ، للاحتفاظ بالصورة النظرية للإسلام.

ولهٰذا، فإن العلم المستمد من القرآن الكريم والسنة الصحيحة، انفصل عن الحكم من عصر مبكر، وانكمش، وأصبح تعليقاً مراً ولاذعاً عند واحد مثل الحسن البصري[١] لما قيل له: لص مأخوذ إلىٰ الحاكم، قال: سبحان الله، سارق السر يُسعىٰ به إلىٰ سارق العلانية.. فهو يرىٰ أن الحاكم المستغل لص، وأن اللص الصغير يقاد إلىٰ اللص الكبير، واكتفىٰ بهٰذا التعليق. لٰكن، هل يستطيع أن يتحول إلىٰ ثائر؟ هو رأىٰ مصارع الخوارج، وبطش الحجاج[٢] بالشعوب، فرأىٰ أنه يمكن استبقاء الإسلام علمياً ونظرياً وتربوياً بالطريقة التي يمشي بها.. وهٰكذا مشىٰ غيره من الدعاة والوعاظ والعلماء، فكانت أول شعبة معطوبة في شعب الإسلام، هي الحكم..

وضياع الحكم من قيم الإسلام، ومن تأثيرات الإسلام علىٰ المجتمع، له نتائج خطيرة.. فلقد أعقب ضياع الحكم، وانفصال العلم عن الحكم أو الثقافة عن السياسة، انفصال آخر فيه خطورة شديدة علىٰ الأمة وهو أن العلم الإسلامي انقسم بين فقهاء ومتصوفة، مع أن التربية التي أساسها العقيدة والأخلاق، جزء من مقاصد القرآن الذي جاءت آياته لتدريب الأمة علىٰ

---

(١) هو الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد. تابعي. كان أبوه يسار من سبي بيسان، ومولًى لبعض الأنصار. ولد بالمدينة وكانت أمه ترضع لأم سلمة. رأىٰ بعض الصحابة، وسمع من قليل منهم. كان شجاعاً، جميلاً، ناسكاً، فصيحاً، عالماً، وكان إمام أهل البصرة. ولي القضاء بالبصرة أيام عمر بن عبد العزيز. ثم استعفىٰ. ولد عام ٢١هـ، وتوفي عام ١١٠هـ.

(٢) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، أبو محمد، قائد، داهية، خطيب، ولد ونشأ في الطائف عام ٤٠هـ (٦٦٠م)، وانتقل إلىٰ الشام، ثم ما زال يظهر حتىٰ قلده عبد الملك بن مروان عسكره. وأمره بقتال عبد الله بن الزبير. فزحف إلىٰ الحجاز بجيش كبير وقتل عبد الله وفرَّق جموعه، فولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليها العراق والثورة قائمة فيه. فانصرف إلىٰ بغداد، فقمع الثورة وثبتت له الإمارة عشرين سنة. وبنىٰ مدينة واسط (بين الكوفة والبصرة). وكان سفَّاكاً سفَّاحاً باتفاق معظم المؤرخين. توفي عام ٩٥هـ (٧١٤م).

العقيدة والأخلاق بطرق شتىٰ. فوُجد فقهاء يشتغلون بالمعاملات وبظواهر العبادات، ووجد مربون يشتغلون بالأخلاق والتربية، فكثير من هٰؤلاء فقدوا الناحية الروحية التي فيها حرارة وعاطفة، (وهم الفقهاء)، وكثير من أولٰئك فقدوا الناحية العلمية التي فيها ضوابط وقانون، فنشأ عن هٰذا زلزلة في الفكر الإسلامي. ذٰلك أن انفصال الفقه عن التصوف، أو انفصال التصوف عن الفقه، أضاع الأمة، فوُجد ناس متعبدون مبتدعون لا وعي لهم، ووجد مشتغلون بصورة العبادات وصور الفقه وليست لهم روح أو خشوع، وشكا من هٰذا ابن تيمية، وبعض علماء الحديث رحمهم الله.

اختلال في العلم الديني:

ثم وُجد بعد ذٰلك في العلم الديني، من عكف علىٰ القرآن دون بيان السنن، أو عكف علىٰ السنة دون موازين القرآن، فانضم إلىٰ السنة حشد هائل من الموضوعات والواهيات، سببت بلبلة في الفكر الإسلامي.

وهناك شيء أخطر من هٰذا كله، وهو أن علوم الحياة نبغ فيها نوابغ مثل جابر بن حيان في الكيمياء، والحسن بن الهيثم في البصريات، والخوارزمي في الرياضيات، و. . . وغيرهم. . لٰكن، مع الأسف، أن هٰؤلاء عاشوا علىٰ هامش المجتمع الإسلامي ولم يعيشوا في صميمه، واعتبرت هٰذه الأشياء التي يشتغلون بها، ليست نوافل فقط، ولٰكن دون النوافل، مع أن المجتمع لا يقوم إلا بها. فالغش الذي وقع في الثقافة الإسلامية، وقع أولاً في الفقه نفسه، فانحسر بعيداً عن فقه العمل والعمال وفقه الدولة، انفصل وذهب، وتوسع في العبادات بطريقة تكاد تكون مضحكة وتعددت الصور، لأن الفقهاء يريدون ملء الفراغ. .

□□ حتىٰ في هٰذه النقطة، يمكن أن نقول: إنه انتهىٰ إلىٰ تجريدات ذهنية تكاد تضيِّع مقاصد الشريعة، مما دفع بعض الفقهاء للتحول عن القياس إلىٰ الاستحسان لأن تطبيق القياس بشكل آلي، قد يذهب بالمقصد. .

● الاستحسان كما يقول الأحناف: ليس اتباعاً للهوىٰ وإنما هو نقل الحكم من ملحظ إلىٰ ملحظ آخر.

هـٰذا كله في جانب واحد وهو الجانب الفقهي الذي نعتبره إلىٰ الآن أحسن الجوانب في الثقافة الإسلامية، أو بالأصح أكبرها مساحة.. لـٰكن المشكلة في النظر إلىٰ القصص القرآني.. لقد انتقل من دراسة تاريخية لقيام الحضارات وانهيارها إلىٰ دراسة روائية ليس فيها حس بسنن الله الكونية إطلاقاً.. فوجدت أساطير، ووَجَدت الإسرائيليات مجالاً واسعاً عند القصاصين، وكان علي بن أبي طالب ﵁، ينظر ماذا يقول القصاصون فيطردهم من المساجد ولم يستبق إلا الحسن البصري ﵀. والقصص بالمعنىٰ الخرافي انتشر في الأمة الإسلامية ومسَّ السنَّة بسوء عن طريق الوضاعين الذين اخترعوا أشياء كثيرة لكي يرضوا العوام وأصحاب الطفولة العقلية والصغار.

التفسير القرآني، ابتعد أيضاً عن روح القرآن، ومقاصده، فالمحاور القرآنية، بشكل عام، لم تجد من يتبناها ويمشي مع آفاقها لكي يحققها في الحياة.. بل بالعكس، الأسلوب الفقهي تغلب علىٰ أنواع البحث التي كان يجب أن تبتكر في الميادين الأخرىٰ.. فإن ما يحتاج إليه الطبيب غير ما يحتاج إليه الكيماوي.. وما يحتاج إليه المهندس الزراعي غير ما يحتاج إليه الفلاح.. فكل شيء له من طبيعته منهجاً يسير عليه.. امتداد هـٰذه المناهج، يكاد يكون في ثقافتنا، صفراً.

الفقه الحضاري:

□□ كلمة «فقه» ـ كما وردت في القرآن ـ لا شك أنها تعني أكثر بكثير من المدلول الذي حدده الفقهاء بأنه هو استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، حتىٰ أن الله سبحانه وتعالىٰ قال عن المشركين بعد هزيمتهم في غزوة بدر:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝١٣﴾ [الحشر].

فعملية الفقه إنما استخدمت في القرآن لمعنًى أوسع بكثير من المعنىٰ الاصطلاحي الفقهي.. إنه الفقه الحضاري بكل ما تشمل كلمة حضارة من أبعاد.

● المعنىٰ اللغوي، معروف في اصطلاح الفقهاء، هو هٰذا العلم المتصل بأحكام العبادات والمعاملات. . أما المعنىٰ الشامل للفقه كما ورد في القرآن، فكان الكلام فيه مستبعداً، لأن الحاكم كان يرفض أن يكون الكلام في الشورىٰ، وحدود ما له وما عليه.

□□ أقصد أنهم حصروا كلمة «الفقه» في قول الرسول ﷺ: **«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»**[1]، أي بالحكم التشريعي.

● نسوا الفقه بالمعنىٰ اللغوي الشامل، وغلب الاصطلاح، حتىٰ لتستغرب كلمة فقه اللغة. . وأنا عندما ألّفت كتابي «فقه السيرة» تصور بعض إخواننا أن الكتاب هو كتاب في الفقه. ولٰكن أنا قصدتُ به عرضاً للسيرة النبوية يتتبع مراحلها ليعرف: كيف كانت الدعوة هنا؟ لماذا أُعلنت الحرب هنا؟ ما موقف المسالمة وما موقف المخاصمة؟ فأردت أن أعطي للناس فهماً. . كان الناس يفهمون أن الرسول ﷺ مظهر فقط للأوامر التي تأتي من عالم الغيب. . فأفهمت الناس عن طريق كتاب «فقه السيرة» أن الرسول ﷺ إنسان، كامل، يتصرف في مواجهة الأحداث بالعقل الذي صنعه القرآن. . وهو العقل الإنساني الذي تحرك مع مسارات الفطرة لكي ينصر الله ويعلي كلمته. . هٰذا ما أردته. .

المهم أن كلمة «فقه» من الناحية اللغوية لها أبعاد غير ما استقر في الأذهان. . فنجد أن هناك فقهاً للفلك، وفقهاً للنفس، وفقهاً للأخلاق، وفقهاً للحضارة، وهٰذا ما نلمحه من قوله تعالىٰ:

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام].

إلىٰ أن يقول:

---

(١) الحديث رواه البخاري في «صحيحه» عن معاوية بن أبي سفيان ﷺ، في كتاب العلم، باب: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين. كما رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام].

ما الفقه هنا إلا معرفة مستقر النفس الإنسانية قبل أن توجد وهو في الرحم لأن الآية:

﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ [الحج: ٥].

ما المستودع؟.. إنه القبر، وما يصل إليه البدن.. ثم ما بين المستقر والمستودع من حياة، هٰذا كله يحتاج إلىٰ فقه. هٰذا الفقه قد يكون فقهاً في علم الأجنّة.. وقد يكون فقهاً في أشياء كثيرة كما توحي الآية هنا. فالفقه الذي أشار إليه القرآن هنا واسع المرادات. لٰكن غلب علينا أن نترك توجيهات القرآن غفلة، مثلما تركنا إلىٰ الآن حساب الزمن بالنظام الفلكي، فالآية قالت: العلم.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس].

الآن نحن حريصون علىٰ أن تبقىٰ الأمة أمة أمّية. تحسب الشهر وتكتبه بالرؤية الحسية.. طبيعة الأميين.. أما أن يُعرف الحساب كما قالت الآية، حساباً فلكياً، فيعرف ميلاد الشهر بالنظام والحساب الفلكي، وبالمراصد كما يقع الآن، فهٰذا لا يزال أمراً مستبعداً في أذهان الناس، ولا نزال نرىٰ أن واحداً بالمشاهدة يستطيع تكذيب العلم! يعني، تقول المراصد في الدول المتقدمة علمياً لا يولد القمر هٰذه الليلة، ويأتي واحد ويقول: أنا رأيت القمر.. ويُصدق، وانتهىٰ الأمر، وذهب العلم!

الأمر يحتاج من غير شك إلىٰ أن نفهم العلم ونفهم الفقه بالمعاني القرآنية، لأن القرآن وسّع دائرة الفقه من خلال نظرنا في الآيات.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾.

نتتبع الآية.. لماذا وصف اليهود بأنهم قوم لا يفقهون؟ والكفار في بدر «لا يفقهون»؟ لماذا نعرف القضايا التي جهلها هٰؤلاء، وفقهنا القرآن فيها عن طريق تبصرتنا بأن هٰؤلاء هزموا لعدم فقههم..

الرؤية الموضعية.. والرؤية الموضوعية:

□□ مشكلة العجز عن النظرة الشمولية للرؤية القرآنية، أدت إلىٰ لون من تقطيع الصورة وتمزيقها، أو إلىٰ التبعيض المورث للخزي الواقع في حياتنا اليوم وكأنه صدًىٰ لقوله تعالىٰ ناعياً علىٰ بني إسرائيل:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٨٥].

نخشىٰ أن تكون علل الأمم السابقة انتقلت إلينا، علىٰ الأقل من الناحية النظرية فنحن لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض، إلا أن النظرة الجزئية وأخذ بعض مقاصد الآية أو السورة، وترك ما وراءها للتبرك والتلاوة، نخشىٰ أن نكون وكأننا وقعنا في هٰذا فعلاً علىٰ الرغم من ادعائنا الإيمان بالقرآن كله.. لٰكن أقول ـ من حيث المردود العملي لهٰذا القرآن وليس من قبيل الجانب النظري ـ نحن نعيش الآن مرحلة التبعيض والتفاريق..

كيف يمكن أن نرسم الطريق لتحقيق الرؤية الشاملة والنظرة الموضوعية لا الموضعية؟ وهل تعتقدون أن الاقتصار علىٰ الجانب التشريعي، وإهمال بقية المقاصد، هو سقوط في هٰذا التبعيض؟.. لو أمكن، إيراد نماذج موضحة من القرآن الكريم.

● الذي أتصوره، أن تعاليم الإسلام، نسيج متشابك، ملتحم بعضه مع بعضه الآخر، تختلط فيه العقيدة مع العبادة مع الأخلاق، مع أنواع المعاملات المختلفة.. وقد لفت نظري من قديم أن الأحكام الفرعية الجزائية المحدودة، تجاورها أسماء الله الحسنىٰ، وتختم بها الآيات ختاماً يحتاج إلىٰ التدبر العميق.. ففي سورة البقرة مثلاً نقرأ قوله تعالىٰ:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة].

ترىٰ هنا أن جواب الشرط في قوله تعالىٰ:

﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة].

أغنىٰ عن المعنىٰ وجيء بصفة من صفات الله تدل علىٰ هٰذا المعنىٰ. . .

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف].

واضح أن الإخبار عن مسلك إنساني بصفة إلٰهية فيه معنىٰ المزج العجيب بين السلوك الإنساني وبين العقيدة التي هي أساس في الإسلام، لما وراءها من سلوك. أستطيع أن أفهم من هٰذا أن القرآن غذاء روحي مكتمل العناصر. . وكما أتناول علىٰ المائدة مجموعة من السكريات والنشويات والدهنيات وما إلىٰ ذٰلك في طعام واحد، أو في أغذية واحدة، في وجبة واحدة، فكذٰلك يتقدم القرآن إلينا برسالة حياة شاملة لا تدع جزءاً منها إلا وتمتد إليه. ويجري الوحي الإلٰهي خلال هٰذا النسق القرآني كما تجري الدماء داخل العروق، لتشمل الرأس والقدم. . الجهاز يدور في كل شيء ليعطي الحياة كل شيء. وبذٰلك نستطيع أن نقول: إن الرؤية القرآنية لا يمكن إلا أن تكّون حضارة كاملة. . فأخذه علىٰ أنه مجموعة قصص مثلاً ودراسة فن القصة علىٰ أساس أن القرآن كله قصص لا يمكن أن يكون تصويراً صحيحاً للقرآن. . وكذٰلك الأحكام الفقهية التشريعية، والمعتقدات الإلٰهية، والآيات التي تأمر بالنظر في الكون، وآيات التربية، وما إلىٰ ذٰلك من تعاليم إسلامية. . هي متماسكة في عصارة واحدة تجمعها من أولها لآخرها، ومن المستحيل أن أنظر إلىٰ القرآن النظرة الجزئية التي تجعلني أعيش في جانب منه وأنسىٰ الجانب الآخر، كما لا يمكن أن يتكون الدم من كريات حمراء فقط، وبيضاء فقط، وبعض العناصر المعدنية فقط التي تسير في الدم ولا يكون دماً إلا بها. . لا يمكن إطلاقاً أخذ جانب من القرآن وإهمال الجوانب الأخرىٰ، لأنها جوانب يجر بعضها بعضاً، متماسكاً.

فالنظرة الشاملة هي النظرة الصحيحة للدراسات القرآنية، ولا يمكن الرضا بنظرة جزئية. . والنظرة الجزئية، عندما سادت الفكر الإسلامي، نشأ عنها ما يشبه الجسم المشلول في بعض أطرافه، أو في بعض أجهزته مع بقاء

أجهزة أخرىٰ حيّة. . إنه لا يستطيع أن يؤدي وظيفته ما دام الشلل أو الخطر جمد بعض الأجهزة أو بعض الأعضاء. . لا بد من النظرة الشمولية للقرآن كله. . وهٰكذا انطلق القرآن من بدء نزوله حيث تجد:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العلق].

الأمر بالقراءة أولاً، وكون القراءة باسم الله، وليس ثقافة مجردة، أو علماً للعلم، وإنما هي قراءة باسم الله سبحانه وتعالىٰ، لها هدفها . .الله الذي خلق. . ربط القراءة بتكوين الإنسان من علق، قضية متباعدة الأطراف. . ثم التركيز علىٰ هٰذا.

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق].

الدخول في مسألة اقتصادية واجتماعية معاً، وهي طغيان الإنسان عندما يُترف ويُنعم ويجيئه المال، ويستكبر به.

هٰذه المعاني المتباعدة في ظاهرها هي القرآن الذي يكون مائدة متماثلة في ما ذهب من حقائق الحياة وعناصرها لمن يسمع ولمن ينفذ. . فلا بد من هٰذا الشمول في النظر. والنظرة الجزئية وحدها، تكون غير كاملة لأنها انقطعت عن بقية الصورة.

العجز عن إدراك المعنىٰ الجامع:

□□ لعل ذٰلك، إنما حصل، بسبب عدم قدرة النظر علىٰ إدراك المعنىٰ الجامع أو الخيط الجامع لهٰذه المظاهر جميعاً. . وربما كانت النظرة الجزئية بسبب العجز عن التقاط الخيط الذي ينتظم هٰذه المظاهر جميعاً: أهلية التعليم، وهدفية القراءة، وكون الله سبحانه وتعالىٰ هو الخالق الذي خلق هٰذه المؤهلات التي يجب أن تتوجه إليه، أو تبدأ باسمه القراءة، وإن عدول الإنسان عن الخالق، والالتزام بقيمه الضابطة في الحياة، وقوع في الطغيان. . . إلخ.

● هـٰذا حسن فعلاً.. عندما تريد أن ترسم صورة كاملة للإنسان، فهل إذا قطعت هـٰذه الصورة إلىٰ أجزاء، هل كل جزء منها يمكن أن يكون مكوِّناً أو مؤدياً أو منبهاً إلىٰ فكرة الإنسان الكامل؟.. لا يمكن.. لن تكون الإنسانية واضحة ولا حتىٰ جزئية في جزء من الصورة التي أمامك.. لا بد من أن أكون ناظراً إلىٰ القرآن كله النظرة الشاملة المتماسكة. ولذٰلك أنا أحب أن يقال: إن الإسلام حضارة كاملة بأبعادها جميعاً.. ومعنىٰ أنه حضارة: أنه سيكون فيه تشريع إلىٰ جانب التربية، والتوعية الخلقية، والأحكام الدولية.. إلىٰ جانب المقاصد الكثيرة الأخرىٰ التي تكمل الصورة.. فالقرآن كتاب حضارة كاملة.. وأظن أن الأستاذ حسن البنا في أول مادة من تعاليمه العشرين التي يقدم بها الثقافة الإسلامية، قدم الإسلام بهـٰذا الشمول، فقال: إنه مادة وروح، وعقل وعاطفة، ودنيا وآخرة.. أعطاه كل ما يتصل بالحياة.. لقد فهم حسن البنا، الإسلام كما قال تعالىٰ:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨٩﴾ [النحل].

فالإسلام هداية، ورحمة، ومصلحة، ومنفعة، وأسرة، وتفاؤل وخير وانطلاق للمسلمين..

□□ أتصور أننا نحن المسلمين اليوم، خاصة في الفكر الإسلامي المعاصر، نزعم ونرفع شعار أن الإسلام شامل لجميع جوانب الحياة.. لـٰكن، من الناحية العملية، نحن واقعون في التجزيء وفي تضخيم بعض الجوانب وإسقاط بعض الجوانب والمقاصد الأخرىٰ.. نحن مُتهمون من بعض المفكرين الأوروبيين بأن العقل العربي نفسه مولع بالنظرات الجزئية، وعاجز عن النظرة الشمولية لذٰلك نمت في ثقافتنا النظرات الجزئية أو التوقف عند حدود الجزئيات أكثر من أن تكون عنده القدرة علىٰ رؤية شاملة خاصة في عصور التخلف والجمود والتقليد.. فكيف ترون العلاج لهـٰذه الإصابة بالنسبة للعقل المسلم اليوم؟ وما هي الوسائل، أو بعض المناهج، التي تقترحونها ليتمكن المسلم اليوم من الرؤية القرآنية الشاملة التي تُشكل المنطلق الثقافي؟

● التفسير الموضوعي بشقيه، وهو مثلاً: النبوة في القرآن، المال في القرآن، العدالة في القرآن. ربما كان إنشاء تفسير موضوعي من هٰذا النوع يكون فيه معالجة لهٰذا الواقع، ومنطلق ثقافي لرؤية قرآنية شاملة ومتوازنة.. يضاف إلىٰ ذٰلك أن النظرة الموضوعية للسورة كاملة، ومعرفة الأغراض التي تدور حولها، يمكن أن تساهم أيضاً بتكوين المنطلق الثقافي للرؤية الشاملة.. نحن أنفسنا روجنا لهٰذا الاتهام، ووقعنا بسبب النظرات الجزئية بمغالطات ومفارقات عجيبة.

نماذج للنظر الجزئي:

كنت أنظر أحياناً إلىٰ طريقتنا في فهم القرآن، فكنت أجد أنها طريقة تستحق التأمل. بمعنىٰ: أنه لكي نقول: إن العمل الذي نؤديه هو من صنع الله، استدللنا بالقرآن:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات].

انتزعنا هٰذه الآية من السياق كله لكي تدل علىٰ مذهب أهل السنة: إن العمل مخلوق لله! ونسينا أن هٰذا الكلام لو صحَّ، ما كان عبدة الأصنام مسؤولين! لأنهم إذا كانوا مخلوقين لله، وشركهم ووثنيتهم مخلوقة لله، فما عليهم من ذنب! لٰكن نحن أخذنا ظاهر الآية وقطعناها من سياقها، من قبل ومن بعد، وجعلناها هٰكذا دليلاً لرأي باطل.. إنها آفة التجزيء.

بعض الناس بلغت به النظرة الجزئية حداً جعلته يأخذ من صدر سورة براءة أن الإسلام دين هجوم.. وإذا سألتهم عن الدليل يقولون: قوله تعالىٰ:

﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

ويقف من ثَمَّ لا يكمل الآية، لأن إكمال الآية:

﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾.

فأنت هنا ترد الهجوم الشامل بدفاع شامل.. وليس هناك ما يستدعي هٰذا. بل سميت آية السيف بذٰلك، من المستثنىٰ قبل الاستثناء في قوله تعالىٰ في السورة نفسها:

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ [التوبة].

وانتهىٰ الأمر. أخذ منها البراءة المطلقة. أما الاستثناء الذي جاء ووضّح حدود البراءة ومعناها والمجال الذي لا يجوز أن تتعداه وهو قوله تعالىٰ:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة].

نسيناها، واعتبرنا المستثنىٰ منه، وأصبح القتال عاماً، بدون وعي للمعنىٰ نفسه...

ومثال آخر: هناك آية عجزنا عن تبين حقيقتها لأنه قد استولىٰ علينا فكر مبتسر من مكان في السورة، والآية هي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [التوبة].

الآية واضحة وهي أنك تجد المشرك خالي الذهن عندما يرىٰ هٰذا القتال، ويسألك ماذا تريد؟ تقول له: أدعو إلىٰ الإسلام. فأنت مكلف ألا ترغمه علىٰ دينك، ولا تستعمل معه سيفك، ولا تفكر في إرغامه علىٰ شيء، بل تقبل منه وضعه الحالي، وترده إلىٰ المكان الذي جاء منه، وهو غير مروّع، وتحميه ليدخل بعد ذٰلك الإسلام، وهو مطمئن.. فكيف يَفهم هٰذا المعنىٰ من هٰذه الآية مع أنك فسرت ما قبلها وما بعدها علىٰ أن الإسلام دين هجوم وقتال؟

فشمول النظرة القرآنية أمر لا بد منه لكي تعطي الأحكام الصحيحة حتىٰ من الناحية الفقهية التشريعية، فإذا أدركنا أن الإنسان مخلوق سوي له سمع، وله بصر، وله فؤاد، ولا بد أن يستغل هٰذه الوظائف جميعاً في تصحيح إنسانيته، والغيش بها، أدركنا أنه لا يمكن أن يتم هٰذا الذي قاله القرآن الكريم في مكان آخر مع إباحة الإكراه. فكيف تكره أحداً؟ إنك بهٰذا تلغي إنسانيته.. وما فائدة الحكم الشرعي إذا فُقد الإنسان الذي يُطبق الحكم الشرعي؟

□□ الله سبحانه وتعالىٰ حذر المسلمين مما وقعت به الأمم السابقة من أن عملية التبعيض موصلة إلىٰ الخزي. . وذِكْر علل التدين في الأمم السابقة هو تحذير للأمة المسلمة حتىٰ لا تقع فيما وقعوا فيه، فيلحق بها ما لحق بهم. ﷻ يقول تعالىٰ:

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾ [الحجر].

أما تفسير قوله تعالىٰ:

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾.

فإني أحب ربط الآيات بالسياق الذي وردت فيه حتىٰ يتضح معناها:

إن الله امتنَّ علىٰ نبيه محمد بالقرآن الكريم، وهو عطاء ضخم، أضحىٰ محمد به خاتم الأنبياء وصاحب الهدايات الباقية إلىٰ آخر الدهر.

وتعلّم هٰذا القرآن فضل لا يزنه فضل آخر، إن رجلاً أوتي القرآن ثم ظن غيره أوتي خيراً منه فقد حقر عظيماً أو عظم حقيراً، فكيف بمن اصطفاه الله لتلقي آياته من السماء؟ لقد سبق سبقاً بعيداً، ولذٰلك قيل للرسول الكريم:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾ [الحجر].

إن الغني لا يمدُّ عينه إلىٰ المحرومين، مهما أوتوا من متاع الدنيا، وإذا كذبوه فلا تذهب نفسه عليهم حسرات [عليه أن يهدي الآخرين وأن يفتح قلبه ويخفض جناحه لمن اهتدىٰ به وسار معه. .]

﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٩﴾ [الحجر].

عليَّ أن أنذركم بهٰذا الوحي، ولست مكلفاً بأكثر من البلاغ الواضح الذي ينير الطريق لمن شاء المضي فيه.

ولست بدعاً من الرسل الذين سبقوني، فإن أهل الكتاب جاءتهم أنبياؤهم بالحق، كما جئتكم أنا يا معشر العرب بالحق. . لٰكن أهل الكتاب سارعوا إلىٰ التكذيب، ونظروا في القرآن نظرة ظالمة، رفضوا ما خالف هواهم، وسكتوا عن غيره.

وجعلوا الوحي الصادق أقساماً يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر].

ومن العلماء من يرىٰ مسلكهم هٰذا إنما كان في كتبهم نفسها، كما قال في سورة أخرىٰ واصفاً موقفهم من كتاب موسىٰ:

﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥].

وكأن لفظ القرآن هنا بمعناه اللغوي: أي القراءة...

ولا يزال أهل الكتاب علىٰ هٰذا الموقف المريب مما نزل عليهم وهو موقف يدور بين التحريف والتأويل، والكتمان والإهمال..

وكثير من المستشرقين والمبشرين يتعامل مع القرآن بالأسلوب نفسه الذي ألفوه مع كتبهم.

وهناك مفسرون يجعلون المقتسمين طوائف من أهل مكة الذين يعبدون الأصنام، توزعوا علىٰ الطرق ينهون الناس عن الدخول في الإسلام وتصديق محمد..

وقد أمر النبي بعدم الاكتراث بهٰؤلاء المكذبين الذين تفرقوا علىٰ أفواه السكك يأمرون بالمنكر.

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

هٰؤلاء الكتابيون الذين نظروا إلىٰ القرآن الكريم، فما وافق أهواءهم قبلوه، وما صادم شهواتهم رفضوه.. ولم يلمحوا منه إلا الجانب الذي يرضيهم أو ألفوه في حياتهم، ورفضوا الجوانب الأخرىٰ التي تصحح لهم هٰذه الحياة وتنقلهم من الحيرة إلىٰ الرشد.

خلود القرآن.. هل يعني خلود أصول المشكلات التي يعالجها:

□□ من المسلمات عند المسلمين ـ من سلف وخلف ـ أن القرآن هو كتاب الله الخالد المجرد عن حدود الزمان والمكان، الذي ورد بالتواتر ـ أي:

ما يفيد علم اليقين - وإنه خطاب عالمي إنساني شامل، نزل ليرسم الطريق الصحيح للبشرية ويعالج مشكلاتها، ويضع حلولاً لها في كل زمان ومكان، وكانت أسباب النزول هي أشبه ما تكون بنماذج ووسائل إيضاح أو وسائل معينة لإيضاح تطبيق النص وتنزيله علىٰ الواقع، وتبقىٰ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما يقول العلماء.

والقضية المطروحة هي:

طالما أن الخلود سمة القرآن الكريم، فهٰذا يعني من وجه آخر: خلود المشكلات والقضايا الإنسانية التي جاء القرآن لمعالجتها في أصولها، وإن تغيرت في بعض فروعها وألوانها..

أي، أن القرآن خالد، والقضايا الإنسانية المطلوب علاجها خالدة أيضاً، من بعض الوجوه. ولا تزال في الإنسانية حالات كفر ونفاق، وضعف إيمان، واستكبار، وعلل نفسية، وصور من الولاء والبراء، والسقوط والنهوض، والنصر والهزيمة... إلخ.

فكيف يمكن والحالة هٰذه أن نُعمل بعض الآيات ونعطل بعضها بسبب القول بالنسخ؟ وفي الوقت نفسه نقول بالخلود؟ وكيف يمكن مواجهة الحالات المتعددة التي ستطرأ علىٰ الحياة الممتدة المتطورة، ومعالجتها بحل واحد انتهت إليه الجماعة المسلمة الأولىٰ، في ظرف تاريخ معين، وشروط ميلاد وتطور معروفة؟

هٰذه قضية هامة في نظري، ولا بد أن نعرض لها بشيء من الإفاضة والتفصيل، إلا إذا اعتبرنا المجتمع الإسلامي الأول هو البداية والنهاية وبذٰلك نكون قد وقتنا القرآن بشكل عملي وإن كنا نرفض ذٰلك بشكل نظري؟

● كنت كتبت في كتابي «نظرات في القرآن»، أن بعض الناس جاء لابن عباس رضي الله عنهما وقال له: يتشابه عليَّ القرآن.. قال له: لماذا؟.. قال: أجد في بعض السور مثلاً قوله تعالىٰ:

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات].

وفي سورة أخرىٰ:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن].

فكيف يكون التلاقي بين الآيتين؟.. كان جواب ابن عباس: إنها مواقف.. في بعض الأحوال يكون المتهم مسؤولاً فيحقق معه.. وعندما يتم التحقيق ويبدأ التنفيذ لا يُسأل ولا يُستقصىٰ ولا ينتظر منه دفاع. انتهىٰ الأمر.. وتفسير ابن عباس واضح في الموضوع.. ففهمت من هـٰذا أن القرآن، إذا كانت هناك آيات تصف جانباً من المجتمع البشري أو بعض الحقائق التي فيه، وآيات أخرىٰ قد يُنظر إليها أنها مخالفة للآيات الأولىٰ، فهي في الحقيقة لا تُخالف، لأن لكل آية مجالها الذي تُعمل فيه، والحقيقة التي تمثلها وتوجه البشرية من خلالها، لأن الحياة ليست موقفاً واحداً، وليست قضية واحدة، وليست صورة واحدة إطلاقاً.. الحياة: استمرار.. والمهم عندي، أو الحكمة في نظري هي: كيف تنزل آيات القرآن علىٰ الواقع المختلف من مكان لمكان ومن زمان لزمان؟ وهـٰذه هي الحكمة:

﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

كذٰلك نزل القرآن خلال ربع قرن تقريباً.. القول بأن للآيات أسباب نزول، هـٰذا حكم خاص، وليس حكماً عاماً. ما سبب نزول سورة يوسف كلها؟.. ليس لها من سبب نزول، إنما القصة قصة هداية جاءت من عند الله.. وعندما يبدأ القرآن الكريم، من سورة البقرة، يتحدث عن الإيمان والكفران والنفاق وأقسام البشرية... إلخ فما سبب النزول؟ إنما هو يصف الواقع الذي يعرف في حياة البشرية كلها إن البشر عندما تُعرض عليهم عقيدة، هناك دائماً من يكفر بها، وهناك من يؤمن بها، وهناك من ينافق معها.. والقصة ليست مرتبطة بتطبيق عملي في جانب من الجوانب وحده.. ولهـٰذا فمن الخير أن يُفهم القرآن كله علىٰ أنه ليس هناك جانب حي فيه وجانب معطل.

□□ خلود القرآن يعني: أن القرآن قادر علىٰ الاستجابة لكل الحالات، وفي الظروف كلها.. وكما أن الآيات خالدة، فإن المشكلات خالدة، حتىٰ يكون هناك تواز بين المشكلات والآيات.. وتبقىٰ الحاجة للقرآن قائمة فيما

تتقلب به البشرية من كفر، ونفاق، وهبوط، وسقوط، وصعود، وما إلىٰ ذٰلك. . أمّا إذا اعتبرنا أن بعض الآيات نُسخت لأن الحالة التي جاءت من أجلها انتهت في المجتمع العربي الأول ـ مجتمع الجزيرة العربية ـ فكيف يمكن أن يكون الإسلام خالداً مع هٰذا الاعتقاد؟

● هناك أمران في هٰذا القضية:

الأمر الأول: هو أن المجتمع القديم الذي نزل فيه القرآن، هو مجتمع بشري وأحواله صورة مما يعتري البشرية علىٰ امتداد الزمن إلىٰ انتهاء الحياة. فالحكم في أي صورة من هٰذه الصور هو حكم بطبيعته ممتد لأنه ليس خاصاً بهٰذه الصورة بل هو يتجدد مع كل صورة مشابهة لها إلىٰ قيام الساعة. ومن هنا جاء الخلود.

ثانياً: أن الصور التي أمامنا والتي تحدث فيها القرآن، هو لم يكن مجيباً لسؤال فقط بحيث أن القصة تنتهي بانتهاء فهم السائل لما سأل عنه، لا. . إن الإجابة تكون فيها توسعة وتناول لأمور أخرىٰ كثيرة. . وكون أن سبب نزول الآية كذا، ننظر للآية، هل هي فعلاً عندما تحدثت، تناولت السبب ووقفت عنده. . السبب هو مفتاح لكنز من المعلومات بدأ ينساب مع هٰذا السبب. . وهٰذا الكنز من المعلومات الذي انفتح لنا بسبب سؤال فلان، أو حالة فلان، أو تطلب الوضع لحل، هو الذي جاء بهٰذه الخيرات كلها. . ولذٰلك لا أنظر لسبب النزول إلا كأنه نوع من السبب الأدنىٰ لهٰذه المعاني التي جاءت كلها.

وفي تصوري، أن البشرية لن تخلو علىٰ امتداد الزمن من نفس الحالات البشرية التي رأيناها خلال ربع قرن. . فخلال ربع قرن أمكن تقديم نماذج لما يصنعه الخصام واللدد، وما يصنعه الحب والعاطفة الإنسانية، وهي تستقر، أو وهي تهاجر. . ما يعتري كل إنسان في أحواله. . كانت نماذج حول النبي عليه الصلاة والسلام، هي ـ النماذج ـ كأنها شخوص موفدة من الغيوب في المستقبل لكي تسمع وترىٰ ما تحتاج إليه في الغد القريب والبعيد مما يقع في أيام النبي عليه الصلاة والسلام. ولعل هٰذا سر أن الرسالة إنسانية. . ولو أن الإعجاز بخارق من خوارق العادات يخلق الإيمان، لما كان معنًى للخلود.

لأن الخارق للعادة ما قيمته إلا لمن نظروه وارتبطوا به؟ لٰكن الكتاب، كتاب معجز بأنه يتحدث للنفس الإنسانية. والنفس الإنسانية إذا كانت هناك صور أيام النبي ﷺ موجودة، فالصور متجددة إلىٰ قيام الساعة. فهٰذه الصور تنظر إلىٰ القرآن النازل لترىٰ أنه يخاطبها كلها، ويتعامل معها كلها، وآياته نفسها مفاتيحها لمشكلاتها كلها إلىٰ قيام الساعة.. ومن هنا، ما أظن أن يجيء شيء يلده الزمن ويعجز القرآن عن حلّه. لأن الطريقة التي نزل بها تجعله حلّالاً للمشكلات ولا صلة له بالواقع المحسوس، إلا صلة أنه لأدنىٰ ملابسة بدأ الكلام.

□□ هٰذا الأمر مسلم فيه، كقناعة. لٰكن حينما نأتي لنقول: هٰذه الآية نسخت التي جاءت لمعالجة حالة معينة، نسخت بعد انتهاء الحالة في مجتمع النبوة، فمعنىٰ ذٰلك أن هٰذه الحالة سوف لن تتكرر في البشرية، وليست بحاجة إلىٰ هٰذا الحل.

● لا يمكن أن يقع هٰذا في القرآن.. آية بطلت لأن حكمها انتهىٰ، والشخص أو الجزء الذي اتصل بها تلاشىٰ، لا يوجد هٰذا في القرآن إطلاقاً.

□□ الذين قالوا بالنسخ في بعض الآيات التي كانت في مرحلة من المراحل تشكل حلاً لمشكلة قائمة، أو تنزلت علىٰ حادثة بشرية قائمة، وقدمت لها حلّاً، ثم حينما ارتقىٰ المجتمع وجاءت مرحلة أخرىٰ، قالوا: بأن الآية السابقة نُسخت مع أن المجتمعات تتكرر فيها مثل هٰذه الحالة السابقة التي كانت!

● نعم.. ولذٰلك خطأناهم.. هٰذا يشبه حالة النهي عن ادخار لحوم الأضاحي، كما ورد في قول الرسول ﷺ: **«إنما نهيتكم»** ـ أي: عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث ـ **من أجل الدّافة التي دفّت، فكلوا، وادّخروا، وتصدقوا»**[1]

---

(١) الحديث رواه مسلم في «صحيحه» عن عائشة رضي الله عنها، في كتاب الأضاحي، باب: بيان ما كان من النهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث في أول الإسلام، وبيان نسخه وإباحته إلىٰ متىٰ شاء.

وقوله: «**كلوا، وأطعموا، وادخروا، فإن ذٰلك العام** ـ أي: العام الذي نهىٰ فيه عن الادخار ـ **كان بالناس جهد، فأردتُ أن تُعينوا فيها**»[1].

ففي يوم ما، قالوا: لا تُختزن لحوم الأضاحي! لماذا؟ لأن الناس في أزمة، وفي حاجة إلىٰ توسعة.. ثم قيل: خزنوا لحوم الأضلاحي، لأن الناس ما تحتاج إلىٰ كل ما ذُبح.. فقيل: الثاني نسخ الأول! والحقيقة هي:

أن الحكم الخالد هو: إذا كان اللحم الموجود قليلاً، لا بد من التوزيع وعدم الادخار، وإذا كان كثيراً، تستطيع أن تدّخر.. هٰذا هو الحكم الخالد.. والحكم الجزئي، الخطأ، هو أنك قلت: كان الادخار ممنوعاً ثم أبيح.. هٰذا غير صحيح، وهٰذا عيب الذين يقولون بالنسخ: إنهم يظنون أن حكماً انتهىٰ أمره لأن القصة لا تتكرر.. القصة إذا تكررت تكرر معها المتصل بها..

□□ هٰذا الذي أردت أن أقوله: إن الحوادث تتكرر.. فالآيات الخالدة تقابلها حوادث خالدة.. فالادعاء بتعطيل بعض الآيات باسم النسخ قد يكون محل نظر، وقد تمر مشكلات بحاجة إلىٰ معالجة هٰذه الآيات..

مفهوم النسخ في القرآن:

● **في الحقيقة، الاتجاه بين جميع العلماء المحدثين الذين التقيت بهم أو استمعت إليهم أو قرأت لهم، كانوا ضد المعنىٰ الذي شاع بين المتأخرين من المفسرين من أن النسخ، بمعنىٰ إبطال آيات في القرآن، موجود.. وجدت أن الشيخ الفقيه المؤرخ الأستاذ الخضري[2]، رفض النسخ رفضاً باتاً، وقال: لا يكون إلا تخصيص عام، أو تقييد مطلق أو تفصيل مجمل.. والشيخ رشيد**

---

(١) الحديث رواه البخاري في «صحيحه» عن سلمة بن الأكوع ﷺ، في كتاب الأضاحي، باب: ما يؤكل من لحوم الأضاحي وما يُتزود منها.

(٢) محمد الخضري بك، مصري الأصل، عمل مفتشاً بوزارة المعارف المصرية، ومدرساً للتاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية عام ١٩٣٨م. له العديد من المؤلفات، منها: «أصول الفقه»، و«تاريخ التشريع الإسلامي»، و«محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية»، و«مهذب الأغاني»، و«إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء»، وغيرها.

رضا[1] فعل هٰذا بما هو أوضح، وتكلم عن آية.

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

فبين أن الآيات: تكليفية وتكوينية. وأن الذي تنسخه آية سورة البقرة هنا هو الآيات التكوينية، وليست هناك آيات تكليفية نُسخت بهٰذه الآية.. ومعنىٰ التكوينية معروف وهو خوارق العادات التي كان يؤيد بها الأنبياء، وهي التي تتغير بتغير الأزمنة.. أما الآيات التكليفية فأنا نظرت إليها نظرة واقعية عند قوله تعالىٰ:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ [النحل: ١٠١].

الخازن[2]، قال: إن هٰذه الآية جاءت رداً علىٰ أسئلة بأن محمداً يقرر

---

(١) محمد رشيد بن علي رضا بن محمد بن شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن ملا علي خليفة القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب: صاحب مجلة «المنار» وأحد رجال الإصلاح الإسلامي، من الكتاب العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير.
ولد ونشأ في القلمون (من أعمال طرابلس الشام) عام ١٢٨٢هـ (١٨٦٥م) وتعلم فيها وفي طرابلس. وتنسك، ونظم الشعر في صباه، وكتب في بعض الصحف، ثم رحل إلىٰ مصر سنة ١٣١٥هـ، فلازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له، وأصبح مرجع الفتيا في التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة. ولما أعلن الدستور العثماني (سنة ١٣٢٦هـ) زار بلاد الشام، ثم عاد إلىٰ مصر وأنشأ مدرسة «الدعوة والإرشاد» ثم قصد سورية في أيام الملك فيصل بن الحسين، وانتخب رئيساً للمؤتمر السوري فيها، وغادرها علىٰ إثر دخول الفرنسيين إليها (سنة ١٩٢٠م) فأقام في وطنه الثاني (مصر) مدة. ثم رحل إلىٰ الهند والحجاز وأوروبا. وعاد فاستقر بمصر إلىٰ أن توفي عام ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م).
أشهر آثاره مجلة «المنار» أصدر منها ٣٤ مجلداً، و«تفسير القرآن الكريم» اثنا عشر مجلداً منه، ولم يكمله.

(٢) علي بن محمد بن إبراهيم الشيحي علاء الدين المعروف بالخازن: عالم بالتفسير والحديث، من فقهاء الشافعية. بغدادي الأصل، نسبته إلىٰ «شيحة» بالحاء المهملة، من أعمال حلب. ولد ببغداد عام ٦٧٨هـ (١٢٨٠م) وسكن دمشق مدة، وكان خازن الكتب بالمدرسة السمساطية فيها. وتوفي بحلب عام ٧٤١هـ (١٣٤١م).
له تصانيف، منها: «لباب التأويل في معاني التنزيل» في التفسير، يعرف بتفسير الخازن، و«عدة الأفهام في شرح عمدة الأحكام» في فروع الشافعية، و«مقبول =

حكماً ثم ينسخه! فتساءلت: هٰذه الآية من سورة النحل المكية، أين هي الأحكام التي تنذر المشركون بها لأنها نُسخت بعد أن نزلت وحدث اضطراب في تقرير الأحكام بسبب ذٰلك؟.. لا يوجد.. وهٰذا الكلام عن سبب نزول الآية، مُختلق. ولم يوجد أحد من المشركين قال: إن محمداً يقرر حكماً شرعياً ثم ينسخه.. ما وجد.. لأنه ما وجد حكم في مكة نُسخ بآية مكية.. لم يُعرف في تاريخ النزول ولا في تاريخ التشريع أن حكماً نزل في مكة ثم نزل في مكة نفسها حكم ناسخ له. القرآن لم يعرف ذٰلك..

فإذاً، الكلام باطل، ولا توجد أحكام بطل معناها.. وكل ما هنالك أن هناك عدة آيات نُظر فيها، وكان النظر قاصراً مثل قوله تعالىٰ:

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال: ٦٦].

فالآيات الأولىٰ تأمر بوقوف الواحد لعشرة، ثم نُسخت بأن يقف لاثنين.. الشيخ الخضري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: إن هٰذه رخصة مع عزيمة، والرخصة مع العزيمة ليست نسخاً.. الحكم الدائم الباقي: أن يقف المسلم لعشرة.. وهو أهل لهٰذا. أما التخفيف في أن يقف لاثنين هٰذه رخصة. وهٰذا هو الحكم الصحيح.

وأما آية:

﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠].

التي قيل إنها نسخت أول سورة المزمل، فهٰذا غير صحيح لأن سورة المزمل موجهة إلىٰ النبي عليه الصلاة والسلام تفرض عليه أن يقوم الليل، وقد ظل قيام الليل فريضة عليه إلىٰ أن مات.. وتكرر الأمر في سورة الإسراء:

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء].

= المنقول» الجزء السابع منه، وهو في عشر مجلدات، في الحديث.

المهم، أن عدداً من الصحابة قلَّد النبي عليه الصلاة السلام في قيام الليل بالصورة التي رُسمت في أول سورة المزمل. ولٰكن الله يعلم طبيعة الجماهير التي تكدح في النهار في عملها، وليست مكلفة برسالة كصاحب الرسالة ﷺ، ولذٰلك قال:

﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾.

أما صاحب الرسالة، فالأمر بالنسبة إليه كما هو، فلا نسخ في الآية إطلاقاً.

والزعم بأن ١٢٠ آية من آيات الدعوة نُسخت بآية السيف، هو حماقة غريبة دلَّت علىٰ أن الجماهير المسلمة في أيام التخلف العقلي أو العلمي في حضارتنا، جهلوا القرآن، ونسوا بهٰذا الجهل كيف يدعون إلىٰ الله وكيف يحركون الدعوة وكيف يضعون نماذج حسنة للعرض الحسن.. ولعل هٰذا من أسباب فشل الدعوة الإسلامية ووقوف هٰذه الدعوة في أيام كثيرة عن أداء رسالتها، ظُنَّ أن السيف هو الذي يؤدي واجب التبليغ! وهٰذا باطل باتفاق العقلاء.

فقصة النسخ، أو الحكم بتحنيط بعض الآيات، فهي موجودة ولٰكن لا تعمل، هٰذا باطل، وليس في القرآن أبداً آية يمكن أن يُقال إنها عطّلت عن العمل وحُكم عليها بالموت.. هٰذا باطل.. كل آية يمكن أن تعمل. لٰكن الحكيم هو الذي يعرف الظروف التي يمكن أن تعمل فيها الآية، وبذٰلك توزع آيات القرآن علىٰ أحوال البشر بالحكمة والموعظة الحسنة.

□□ بالنسبة لسياق آية:

﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

ألا يفيد السياق بأن القضية قضية نسخ شرائع سابقة بشريعة جديدة؟

● السياق قاطع بأنه لا مكان للقول بالنسخ التكليفي هنا.. والشيخ رشيد ذكر هٰذا الموضوع.. فالكلام في آية:

﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦﴾ [البقرة].

هو كلام عن القدرة وليس عن أحكام تكليفية وإلا قال: (ألم تعلم بأن الله عليم حكيم، مثلاً بدل «قدير»).

وقوله تعالىٰ:

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: ١٠٨].

قاطع في أنه اقتراح آيات كونية. فما الذي سئله موسىٰ من قبل؟ نريد أن نرىٰ الله جهرة، نريد كذا وكذا، فهٰؤلاء يريدون آيات كونية أو خوارق عادات تثبت البرهنة علىٰ رسالة محمد ﷺ، أما السياق من قبل فهو كلام في بني إسرائيل.

يقول تعالىٰ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة].

بدأ الحديث إليهم بأنهم هم غير مؤمنين، بما لديهم ولا بما لدىٰ غيرهم، إلىٰ أن قال جل شأنه:

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة].

فالكلام هنا واضح في أن القرآن الكريم حين نزل، رحم الله به العرب وخصَّهم بفضله، وأعطاهم رسالة جديدة غير الكلام السابق الذي كان الأنبياء الأولون يتلقونه من الله ويؤيدهم فيه رفع الطور أحياناً وما كان يتم من معجزات.

□□ نزول القرآن، إلىٰ جانب نسخ الآيات الكونية هو نسخ لبعض شرائع أهل الكتاب..

● القرآن نسخ بعض الشرائع القديمة من غير شك، وبدأ يشكل النفس البشرية من جديد، علىٰ طريقته في إيقاظ مواهبها وقيادتها إلىٰ الله.. فليس في القرآن تناقض إطلاقاً.. كل آية لها سياقها الذي تعمل فيه..

شمول الرؤية القرآنية: الكون المادي والمعنوي:

ولكي أوضح شمول القرآن الكريم، يجب أن أضرب مثلاً لهٰذا الشمول يلقي عليه ضوءاً فيتضح المقصود منه. إن القرآن الكريم يُشبه الكون الكبير الذي نعيش فيه. بل إن اعتبار القرآن كوناً معنوياً يضارع الكون المادي الذي خلقه الله سبحانه وتعالىٰ، لفت نظري في كتاب «نظرات في القرآن» وأشرت إليه، واستشهدت بقول الله تعالىٰ وهو يُقسم بعظمة الكون علىٰ عظمة القرآن:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾ [الواقعة].

إنه يُقسم بعظمة أحد الكونين علىٰ عظمة الآخر.

الكون الذي نعيش فيه، جعله الله مهاداً لحياتنا وملأه بالقوىٰ الكثيرة والعناصر التي نتفقهها في حياتنا، ويوجد علماء كثيرون تخصصوا في هٰذه القوىٰ والمرافق، وينظر كل منهم إلىٰ الكون من الزاوية التي تَعنيه، فمثلاً الجيولوجي ينظر إلىٰ الأرض وطبقاتها، ويضع من علم الجيولوجيا ميداناً لبحثه في هٰذه الزاوية بالذات... الفلكي ينظر إلىٰ السماء وما فيها من معجزات ونجوم دوّارة أو ثابتة، وما بينهما علم طبقات الجو أو الفضاء، له زاوية أخرىٰ ينظر من خلالها علماء.

إن عالم الزراعة ينظر إلىٰ النبات، وعالم الصناعة ينظر إلىٰ المعادن، وعالم الأحياء ينظر إلىٰ البشر والدواب والطيور والزواحف.. إن كل عالم من هٰؤلاء المتخصصين مرَّ بالكون من جانب يعنيه ويكترث به.

لٰكن، الكون ليس مقسماً بحسب نظرات هٰؤلاء العلماء، هم ينظرون إلىٰ الكون. الشامل كله، ثم يلتقط أحدهم الخيط الذي يعنيه ويبدأ السير معه... يُقبل من كل عالم من هٰؤلاء أن يقول: إنه من علماء الكون والحياة... لٰكن إذا ظنَّ أنه وحده المسؤول أو المتخصص في الكون والحياة، وأن علم الفلك يُغني عن علم الجيولوجيا، أو علم النبات يُغني عن علم الحيوان، أو أن علم

المعادن يُغني عن علم الطاقات والقوىٰ، فإن هـٰذا يكون خللاً.

ولم يحاول أحد أن يزعم ذٰلك، بل تعاون أولـٰئك جميعاً من علماء الكون والحياة علىٰ دراسة الكون والاستفادة منه... وعلىٰ هـٰذا قامت النهضة الأخيرة.

القصور عن إدراك محاور القرآن:

القرآن، أساس للحياة الأدبية في التاريخ الإسلامي، لا شك أن آيات الأحكام كانت من وراء قيام علم الفقه التشريعي. لـٰكن، هل القرآن آيات أحكام فقط؟ أم أنه مجموعات أخرىٰ من الآيات تكوِّن كل مجموعة محوراً خاصاً يدور عليه القرآن الكريم؟ هناك محور القصص القرآني. هناك محور الفطرة الإنسانية... كان من الممكن جداً أن يقوم علم للفلسفة الإسلامية يستكشف الفطرة علىٰ نحو ما فعل صاحب كتاب «حي بن يقظان»(١) وعلىٰ نحو ما حاول أن يمشي وراءه الشيخ نديم الجسر(٢) في كتابه: «قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن».. وبلا شك، فإن هـٰذا النوع من الفكر أو الأساس القرآني، مهاد صالح لفلسفة إسلامية تمتد بها مدرسة الإسلام الفلسفية القديمة، امتداداً صالحاً..

هناك أيضاً العلوم الإنسانية، خذ منها مثلاً علم التاريخ.. وعلم التاريخ علم مهمل في ثقافتنا علىٰ نحو شائن! ولا أزال أعجب لماذا لم يُدْرس التاريخ كبحث وتحليل وراء ذٰلك المد والجزر في الحياة الإسلامية والدولة الإسلامية والسياسة الإسلامية.. والثقافة الإسلامية.. لماذا لم تُدْرس أسباب

---

(١) حي بن يقظان هو بطل قصة رمزية للفيلسوف ابن طفيل الأندلسي الذي ولد في قادش بالأندلس وتوفي في مراكش عام ١١٨٥م. والقصة تتضمن آراؤه الفلسفية وتصور تطور عقل الإنسان تطوراً طبيعياً ليصل إلىٰ أعلىٰ درجات المعرفة، وليهتدي إلىٰ معرفة الله وخلود الروح، وكان لهـٰذه القصة أثر كبير علىٰ عقول المفكرين والفلاسفة إبان عصر النهضة في أوروبا.

(٢) الشيخ نديم الجسر، ولد في جامع طينال بطرابلس لبنان، وكان مفتياً لطرابلس ولبنان الشمالي، له مؤلفات عديدة، أشهرها: «قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن».

الانكماش حيناً والتضخم حيناً آخر في تاريخنا؟ تساءلت في كثير من الأوقات: هل كان سقوط بيت المقدس يُمكن أن يمر في هدوء مع أنه أساس حرب ظلت لنحو ثلاثة قرون، دون أن يكون هناك علم يدرس هٰذه الأحداث الرهيبة في تاريخنا؟ لِمَ هٰذا الصمت؟ لِمَ نُشَيِّع ثمانية قرون في الأندلس بقصيدة بكاء دون بحوث مستفيضة ومؤتمرات كبيرة لترصد معرفة الأسباب العسكرية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية؟

إن قصص القرآن ـ وآياته أكثر من آيات الأحكام ـ لم يأخذ امتداده أبداً في حياتنا، بل هناك من هجا هٰذا العلم (علم التاريخ) واعتبره علم خرافات. . وهٰذا شيء عجب!

ومن العلوم الإنسانية الجديدة: علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الأخلاق. . هٰذه العلوم، علوم أساسية في الفلسفة الإنسانية، وهي أساسية في الثقافة الإسلامية، ومع ذٰلك لم تأخذ الامتداد المطلوب كما سرىٰ هٰذا الامتداد في أنواع الثقافة الإسلامية الأخرىٰ. . . ألحظ أن الفقه الإسلامي تحوّل في العصور الآخيرة، بعد قرن أو قرنين من الثقافة الإسلامية، في نمو غير طبيعي، إلىٰ تصوير أحكام جزئية لا حصر لها، كما تحول علم الحديث إلىٰ نمو غير طبيعي أيضاً في جمع الأحاديث الواهية. . . البخاري، كل ما فيه: ألفان وبضع مئات من الأحاديث الصحيحة، وهو أدقّ الكتب بيقين. . . فما الذي جعل عشرات الألوف من الأحاديث تدخل ميدان الترغيب والترهيب، وتدخل في الثقافة الإسلامية؟ هٰذا التمدد في خلايا دينية، كان علىٰ حساب العمل الصحيح في فهم القرآن والسُّنة. . ولذٰلك وجدنا أن علم الاجتماع عندما انكمش. . . كتب فيه ابن خلدون[1] كتابة جديدة، لٰكن من

---

(١) هو عبد الرحمٰن بن محمد بن الحسن، أبو زيد، الحضرمي، الإشبيلي الأصل التونسي ثم القاهري، المالكي، المعروف بابن خلدون. عالم، أديب، مؤرخ، اجتماعي، حكيم. ولي في مصر قضاء المالكية، وأخذ الفقه عن قاضي الجماعة ابن عبد السلام وغيره. ولد عام ٧٣٢هـ وتوفي عام ٨٠٨هـ.
من تصانيفه: «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر» و«شرح البردة».

قبله ومن بعده؟ آيات النظر في الكون والحياة، وجدنا أعجب ما يقع للناس فيها وهم الحسن بن الهيثم والخوارزمي، وبعض الذين اشتغلوا بالكيمياء مثل جابر بن حيان وغيره، هٰؤلاء كان يمكن أن يتكون منهم مولود شرعي لآيات النظر في الكون لو أن ما أسداه هٰؤلاء من خير للحياة العملية، وجد امتداده الطبيعي في الإسلام أو في الفلسفة القرآنية، وإذا لم تلد آيات النظر في الكون هٰذه الاتجاهات إلىٰ دراسة المادة ودراسة الكون نفسه، فما الذي تلده؟ ومع هٰذا، فإن خمريات أبي نواس[1] ومجونه، وجدت في الثقافة الإسلامية متسعاً لم تجده أعمال الذين مضوا مثل جابر بن حيان والخوارزمي وغيرهما من المفكرين!

علم النفس مثلاً، كنا ندرسه ونحن طلاب في كلية أصول الدين، لاحظت وعددٌ من زملائي أن هناك أشياء يمكن أن نُدخل علم النفس فيها النسبة للثقافة القرآنية. . . كنا ندرس نظرية ماكدوجل[2] في الغرائز، ونظرية الغرائز كما وضعها ماكدوجل، أهملها علماء نفس جاءوا بعده، وبنوا السلوك الإنساني علىٰ قواعد أخرىٰ غير التي بنىٰ عليها. . أنا لا يعنيني ما صنعه الآخرون، وإنما يعنيني ما صنعناه نحن، ونحن ندرس هٰذه الغرائز. . الغريزة يكون فيها دائماً وجدان أو انفعال وجداني، والعاطفة تكون مفردة أو مزدوجة أو مركبة من عدة انفعالات. . فكنت أتحدث مع زملائي أن الخوف عنصر في غريزة من الغرائز الإنسانية، هو عنصر بسيط، إذا انضم إليه غيره، أخذ صفة أخرىٰ. . فمثلاً: انفعال الخوف مع غريزة التعجب يُنتج الإعجاب، وبدأنا ندرس قرآنيات علىٰ هٰذا الأساس، فلحظنا أولاً: أن عناصر الشعور الثلاثة: الإدراك، والوجدان، والنزوع، وُجِدَت في قوله تعالىٰ:

﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: ١٨].

وجدنا أن ما يشد العقل الباطن موجود فيما روته عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

---

(١) شاعر عباسي، ولد عام ٧٥٦م وتوفي عام ٨١٤م، اشتهر شعره بالخمريات.

(٢) ماكدوجل Mcdougall، عالم نفس بريطاني، ولد عام ١٨٧١م وتوفي عام ١٩٣٨م.

قال لي رسول الله ﷺ: **«إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت عليَّ غضبىٰ»** قالت: فقلت: ومن أين تعرف ذٰلك؟ قال: **«أما إذا كنت عني راضية فإنك تقولين: لا وربِّ محمد، وإذا كنتِ عليَّ غضبىٰ قلت: لا وربِّ إبراهيم»** قالت: فعلت أجل. والله يا رسول الله ﷺ ما أهجر إلا اسمك[1].. هٰذا نوع من معرفة العقل الباطن للمرأة أو للإنسان عامة.

المهم، نحن في دراستنا للقرآن، كان في الإمكان، قديماً وحديثاً، أن نكون كالذين درسوا الكون المادي: هناك علماء جيولوجيا في الأرض، هناك علماء فلك في السماء، علماء ظواهر جوية، هناك علماء كثيرون، ما فرض أحدهم منطقه علىٰ الآخر، فليس لعالم الفلك أن يفرض علىٰ عالم الجيولوجيا منطقه في الفهم وتقرير الأحكام... لٰكن، عندنا، وجدنا أمة القرآن أصيبت بإصابات جسيمة عندما حاول الفقهاء وحدهم أن يفرضوا أنفسهم بفقه الفروع وتوسعاته علىٰ الثقافة الإسلامية كلها، فضمرت العلوم الإنسانية ضموراً شديداً، كما ضمرت العلوم الكونية، كما ضمرت أنواع أخرىٰ من المعرفة، والقرآن فيه هٰذا الشمول الذي يلد المعارف كلها التي نحتاج إليها.

شمولية القرآن، كشمولية الكون.. فعندما أذهب إلىٰ حديقة من الحدائق، يعنيني إذا كنت عالم نبات الزهور وما يتصل بها.. لٰكن، الكون يعرض نفسه كلاً، لا يتجزأ.. فما يعنيني آخذه، وما يعني غيري من علماء التغذية وغيرهم... يجده في الكون لأن الكون مكتمل في أصله الذي يُعرض به علىٰ الناس..

وكذٰلك القرآن الكريم، فإننا نجد أن الآيات تُقرأ، وكل مشغول بناحية من المعارف القرآنية يستطيع أن يأخذ ما يعنيه، كما قال الشاعر:

ولٰكن تأخذ الأفهام منه علىٰ قدر القرائح والعقول

---

(١) الحديث متفق عليه، رواه البخاري في «صحيحه»، كتاب النكاح، باب: غيرة النساء ووجدهن، ورواه مسلم في «صحيحه»، كتاب فضائل الصحابة، باب: في فضل عائشة رضي الله عنها.

شمولية القرآن أصيبت، إذ فُرض عليها نوع معين من علوم الدين هو الفقه. . . أما آيات النظر، فلم تأخذ امتدادها لتكون علماً إنسانياً في التاريخ وما يتصل به. . آيات كثيرة في القرآن الكريم وفي محاوره التي تُدرس، لم تأخذ امتدادها لتكوِّن الثقافة الإسلامية الصحيحة. . وهٰذا ما ينبغي أن نستدركه في ثقافتنا الحديثة. .

ويمكن اعتبار أكثر ما أصاب هٰذه الشمولية القرآنية من انحراف كان في أيام الاضمحلال العلمي للأمة الإسلامية، أما سلفنا الأول، فقد تفتحت لهم زهور كثيرة في علوم كثيرة. والحضارات تبدأ بعد الاستقرار، تفتحت هٰذه العلوم، لٰكن سرعان ما ضعفت مع الانحراف الذي أصاب السياسة الإسلامية أو الثقافة الإسلامية، وأرىٰ أن ما ذكره الدكتور راشد المبارك في هٰذا الموضوع، فيه إشارة تعطي الفكرة التي نريدها.

القرآن فتح النوافذ أمام النظر العقلي:

فالواضح أن الإسلام إطلاق للعقل لا حجر عليه، وإعمال له لا تعطيل لوظائفه. فقد جاء القرآن دعوة إلىٰ قراءة كتاب الكون، وتأمل أسراره وسننه، وحث الفرد علىٰ التأمل داخل نفسه وخارجها للوصول إلىٰ تعاون أفضل مع بني جنسه، وفهم أتم لوحدات الكون وطبيعة المادة. ولٰكن الإصابات السابقة التي أشرت إليها والتي أحدثت في ثقافتنا نمواً غير طبيعي من تضخم المرويات الواهية، وتضخم الأحكام الفرعية في الفقه، والذبول في علم الكون والحياة بموت المكتشفين والرواد الأوائل الذين ذكرنا أسماءهم في الكيمياء والفيزياء والرياضيات وما إلىٰ ذٰلك، هٰذا كله كان سبباً في انحسار واضح في الجوانب الأخرىٰ من الشمولية القرآنية. وتكونت نظرة دونية إلىٰ من يشغل نفسه بمجال من المعرفة في غير الوجهات السابقة. وانعكست هٰذه النظرة إلىٰ واقع وممارسة، فليس من المصادفة أن رجلاً مثل سيف الدولة[1] الذي يهب

---

(١) سيف الدولة الحمداني، هو علي بن عبد الله بن حمدان، الأمير، صاحب المتنبي وممدوحه، ولد عام ٣٠٣هـ (٩١٥م) في ميافارقين بديار بكر، وملك واسطاً ودمشق =

المئات والآلاف من الدنانير لقصيدة تقال، يرىٰ أن أربعة دراهم في اليوم، كافية لمطالب الفارابي[1] وأن يعاني الكندي[2] ظروفاً ألجأته لاعتزال الناس، وأن يقضي الحسن بن الهيثم بقية عمره كاسياً قوته من نسخ الكتب، ولعلنا نجد في ذٰلك المناخ التفسير لحقيقة كئيبة وهي أن ما وجِّه من جهد للمجالات الأخرىٰ التي لا تدخل في صناعة الكلمة مثل الاقتصاد والسياسة والاجتماع، لا يتناسب مع طبيعة ما تقتضيه هٰذه المجالات، وأن ترىٰ العلوم التجريبية والنظرية تكاد تبتدئ وتنتهي بالأوائل من واضعيها، وأن يكون كتاب «أبو يوسف» في «الخراج» أهم ما وضع في بابه، لقد ابتدأت الكيمياء وانتهت، أو كادت بجابر، ولم يُعرف عمل يوازي عطاء الخوارزمي في الجبر. ولم يتقدم علم البصريات. إلخ.

الدور المفقود للعلوم الاجتماعية والإنسانية:

□□ قد يهمنا لفت النظر إلىٰ وجه آخر للقضية، لا شك أن تحسيس الأمة بهٰذا التقصير وما لحق بها من الانحسار في ميدان العلوم الاجتماعية، أو

= وحلب حيث توفي فيها عام ٣٥٦هـ (٩٦٧م).

(١) محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ، أبو نصر الفارابي، ويعرف بالمعلم الثاني: أكبر فلاسفة المسلمين. تركي الأصل، مستعرب، ولد في فاراب (علىٰ نهر جيحون) عام ٢٦٠هـ (٨٧٤م) وانتقل إلىٰ بغداد، فنشأ فيها، وألَّف بها أكثر كتبه. ورحل إلىٰ مصر والشام، واتصل بسيف الدولة ابن حمدان. وتوفي بدمشق عام ٣٣٩هـ (٩٥٠م). له نحو مائة كتاب، منها: «الفصوص» و«إحصاء العلوم» و«آراء أهل المدينة الفاضلة» و«إحصاء الإيقاعات» و«المدخل إلىٰ صناعة الموسيقىٰ».

(٢) يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي، أبو يوسف: فيلسوف العرب والإسلام في عصره، وأحد أبناء الملوك من كندة. نشأ في البصرة. وانتقل إلىٰ بغداد، فتعلم واشتهر بالطب والفلسفة والموسيقىٰ والهندسة والفلك، وألّف وترجم وشرح كتباً كثيرة، يزيد عددها عن ثلاثمائة. ولقي في حياته ما يلقاه أمثاله من فلاسفة الأمم، فوشي به إلىٰ المتوكل العباسي، فضرب وأخذت كتبه، ثم ردت إليه. وأصاب عند المأمون والمعتصم منزلة عظيمة وإكراماً. من كتبه: «رسالة في التنجيم»، و«اختيارات الأيام» و«تحاويل السنين» و«إلٰهيات أرسطو» و«رسالة في الموسيقىٰ» و«الأدوية المركبة» وغيرها. توفي عام ٢٦٠هـ (٨٧٣م).

والامتداد بعلوم الفقه التشريعي وفرعياته وما إلىٰ ذٰلك، يقع ضمن مرحلة من التيقظ؛ أي يعطي الصحوة، أو المسلمين شعوراً بالمسؤولية، وينبههم إلىٰ آفاق يجب أن يبصروها ليعيدوا عملية التوازن المفقود في ثقافتهم. لٰكن، لو عرفنا بعض الأسباب التي أدت بنا إلىٰ هٰذا الواقع، قد يكون من المفيد، خاصة وأننا اليوم، لا نزال نرىٰ امتداداً لهٰذه الأسباب.. فكثير من العلماء، والمؤسسات الشرعية، وعلماء الدين، والدارسين، يجدون الأسهل عليهم أن يتخصصوا بالفقه وأصوله، ويأخذوا مما كتبه الأقدمون ويختصرون، ويشرحون، وما إلىٰ ذٰلك، كأن التوجه إلىٰ القضية لأنها أصبحت هي الأسهل، من أن ينظروا، ويكتشفوا ويستنتجوا في آفاق جديدة تقوم علىٰ التأمل والنظر. وهي في الوقت نفسه معرضة للخطأ والنقد، ويشكل هٰذا عملية شاقة الآن، وقد لا يحسنها إلا النفر القليل، ويعزف عنها الكثير. لذٰلك يزداد التراكم، ويزداد التخلف، ويزداد الامتداد في قضية كان امتدادها في الأصل غير طبيعي، وتتضاءل فرص الإبداع، وتغيب شروط النهوض.

فلماذا كان الامتداد في القضية الفقهية فقط، وأهملت بقية القضايا القرآنية في الكتاب والسنة؟

● الذي أشعر به من قديم: أن فساد الحكم في العالم الإسلامي له جذور ضاربة في التاريخ، وأن سطوة الحكم الفردي كان من وراء، لا أقول ضمور الدراسات القرآنية، بل من وراء ضمور الفقه نفسه. فالفقه تضخم حيث يجب أن يكون ضعيفاً.. الفقه الدستوري هو الذي جعل الأوروبيين يبحثون وراء سلطة قضائية، وسلطة تشريعية، وسلطة تنفيذية، أو هو الذي جعلهم يبحثون عن العقد الاجتماعي بين الحاكم والمحكوم؛ هٰذا الكلام يكاد يكون ميتاً عندنا بعد الخلافة الراشدة، لأن سطوة الحكم هي التي ألجمت الأفواه، وجعلت الكلام في فقه العبادات يبدئ ويعيد، وجعلت الكلام في كل ما يبعد عن الحاكم.

□□ الملاحظ أن الفقه عندنا تحول إلىٰ نطاق الفقه الفردي، وغاب الفقه المؤسسي بأبعاده المطلوبة، والدولة هي مؤسسة المؤسسات.

● وإلىٰ الآن، فقه العمل والعمال يُستورد من الخارج، للأسف، فقه الإدارة والفقه الدولي والدستوري، يكاد يكون وجودنا فيه إلىٰ الآن صفراً.. ومع أن تلامذة أبي حنيفة هم أول من كتب في الفقه الإداري والفقه الدولي، ومع أن رجالاً من أئمتنا منهم ابن تيمية نفسه، تحدثوا حديثاً عظيماً في شمولية القرآن بالنسبة إلىٰ المنطق والسياسة، إلا أن واحداً كابن تيمية، قضىٰ حياته في السجون. والذين يريدون أن يشتغلوا بالإصلاح، إذا وجدوا أن السجن هو الذي يقضون به حياتهم، فإن عدداً كبيراً منهم سيبقىٰ بعيداً عن المخاطرة، الناس ألفت أن تعيش حيث وجدت حفاوة الجماهير، أو أوقاف الخير تدر عليهم ليعيشوا بها.

□□ هٰذا صحيح، لٰكن إلىٰ حد بعيد هنالك بعض الآفاق في العلوم الاجتماعية والنفسية قد لا يكون لها اصطدام مباشر مع السلطة السياسية، وكان يمكن أن تحقق أبعاداً كثيرة من الدراسات دون أن تعني الاصطدام بالسلطة والنظام السياسي، مع ذٰلك بقيت ضامرة، ولم تحقق البعد المطلوب أو الموازي للدراسات التشريعية؛ مع أن القرآن الكريم اعتبرها وسيلة لا بد منها لتحقيق الشهود الحضاري (الشهادة والقيادة).

● الدكتور راشد المبارك، له رأي في هٰذا: وهو أن العرب اشتغلوا بصناعة الكلمة، أكثر مما يشتغلون بالنواحي الفنية، والنواحي الفكرية، والفلسفية، وهٰذا جعلهم ينحرفون بكثير من الدراسات المهمة عن طبيعتها، حتىٰ الدراسة القرآنية. وهو يقول إن دلائل الإعجاز ـ وكان الكلام في بيان عظمة القرآن ـ وما كاد يبرز حتىٰ اختفىٰ، وما ألف فيه، شيء يعد علىٰ الأصابع بينما أُلفت مئات الكتب في فروع الفقه العبادي والفروع العلمية قليلة الجدوىٰ، وفروع الفقه لا تتعدىٰ فروع العبادات في المساجد، ولا تتعدىٰ المعاملات في الأسواق العامة، حتىٰ الأدب، فقد وجدنا أن الأدب خرج عن الطبيعة القرآنية.

والقرآن موجود بيننا، وقد مضىٰ بالأمة العربية إلىٰ آفاق بعيدة جداً.

قصور في إدراك الفكر القرآني:

وكان أبعد شيء عن الفكر القرآني أن يتحول الأدب إلىٰ مدائح للأفراد أو الحكام، هٰذا أبعد شيء عن الفهم القرآني. فما الذي جعل الأمة العربية تنتهي إلىٰ ما انتهت إليه؟ أبو تمام[1] وهو شاعر فحل، والبحتري[2]، والمتنبي[3] نفسه، وهو حكيم العرب؛ ما الذي جعل أمثال هٰؤلاء يتجهون إلىٰ المديح؟ إنها سطوة الحكم، لا شك أن سطوة الحكم كان لها أساس في إفساد الفكر.

وهناك الاختيار الذي دخلنا به حديقة الأدب الجاهلي ـ وأنا أسميها حديقة الأدب الجاهلي لأني جُستُ خلالها كثيراً أنا لا أدري حقيقة ما قيمة معلقة مثل معلقة امرئ القيس[4]؟ هي نوع من المجون الهابط، والكلام الذي يذكره الرجل كلام من نوع الأدب المكشوف.

مثلاً كلمة عروة بن الورد[5]:

دعـيـنـي أطـوّف فـي الـبـلاد لعلني أفيد غنىٰ فيه لذي الحق محمل
ألـيـس عـظـيـمـاً أن تُـلـم مُـلـمَّـة وليس علينا في الحقوق معوَّل

هٰذان البيتان ـ في نظري ـ يجعلان قصيدة امرئ القيس كلها لا تساوي شيئاً. الاختيار كان رديئاً، في اختيار الأدب العربي، أجد نواح إنسانية برزت

---

(١) شاعر عباسي، توفي عام ٨٤٥م، تميز شعره بالتجديد في المعاني.

(٢) شاعر عباسي، ولد عام ٨٢١م وتوفي عام ٨٩٧م، تميز شعره بحسن الديباجة وروعة الوصف.

(٣) هو أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي، ولد عام ٩١٥م وتوفي عام ٩٦٥م، ويعد من أشهر شعراء العربية.

(٤) الشاعر الجاهلي الشهير بمعلقته، ولد عام ٥٠٠م وتوفي عام ٥٤٠م، تميز شعره بدقة الوصف، وبراعة الغزل.

(٥) عروة بن الورد بن زيد العبسي، من غطفان: من شعراء الجاهلية وفرسانها وأجوادها. كان يلقب بعروة الصعاليك، لجمعه إياهم، وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم. قال عبد الملك بن مروان: من قال إن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد. له ديوان شعر شرحه ابن السكيت. توفي نحو عام ٣٠ قبل الهجرة (٥٩٤م).

في شعر الصعاليك العام وغابت في شعر المعلقات، وكثير من الشعر الذي اختاره أبو تمام في الحماسة، وغيره كابن الشجري[1]، فيه نواح إنسانية عظيمة، لٰكن، لماذا اختفت هٰذه وظهر في الأدب المديح فقط؟

نحن لا نريد أن ندافع عن شيء باطل في تراثنا، إنما يجب أن نتعلم من كتابنا، فالقرآن ليس فقط كتاب علم، هو كتاب أدب. وكان ينبغي أن يكون الأدب القرآني نسقاً يحتذىٰ، في الأهداف الإنسانية التي وجه إليها، ما تحدث في العدالة الاجتماعية إلا الصعاليك، ما تحدث في الطبيعة البشرية وتكلم فيها بشيء من الأناة والصبر، إلا ناس مجاهيل، لقد استغربت أن يضع أبو تمام في ديوان الحماسة في باب الهجاء هٰذه الأبيات الثلاثة:

دربت للمجد والساعون قد بلغوا	جهد النفوس وألقوا دولة الأزرا
فكابروا المجد حتىٰ ملّ أكثرَهم	وعانق المجد من أوفىٰ ومن صبرا
لا تحسب المجد تمراً أنت آكله	لن تبلغ المجد حتىٰ تلعق الصبرا

إذا لم توضع هٰذه الأبيات في باب التربية، وفي باب الأدب، فأين توضع؟ أيجوز أن توضع في باب الهجاء.

هناك أمور لا بد من النظر إليها ونحن علىٰ أبواب صحوة نستطيع أن نتعرف كيف تكون الفنون التي تداعب العاطفة وتوقظ الوجدان، كما نستطيع أن نضع أقدامنا علىٰ دروب الحياة التي تتعامل مع الكون، وكتابنا هو الكتاب السماوي الوحيد الذي تحدث عن الكون، حتىٰ أن رجلاً ليس من علماء الدين ولا صلة له بالثقافة الإسلامية في صدر حياته مثل العقاد، يكتب: «التفكير

---

(١) هبة الله بن علي بن محمد الحسني، أبو السعادات، الشريف، المعروف بابن الشجري: من أئمة العلم باللغة والأدب وأحوال العرب. مولده ووفاته ببغداد. كان نقيب الطالبيين بالكرخ.

من كتبه «الأمالي» في جزئين، أملاه في ٨٤ مجلساً، و«الحماسة» ضاهىٰ به حماسة أبي تمام، و«ديوان شعر»، وكتاب «ما اتفق لفظه واختلف معناه» و«شرح اللمع لابن جني» و«شرح التصريف الملوكي». وكان حسن البيان حلو الألفاظ. نسبته إلىٰ «شجرة» وهي قرية من أعمال المدينة. ولد عام ٤٥٠هـ (١٠٥٨م) وتوفي عام ٥٤٢هـ (١١٤٨م).

فريضة إسلامية»! وحتىٰ أن مثل هـٰذا ينظر فيه الدكتور راشد المبارك فيقول: هناك ظاهرتان: «الظاهرة الأولىٰ: هي أن مادة فكر لم تكن ذات تكرر، بل ليس لها ورود في أكثر ما وصل إلينا من التراث الجاهلي شعره ونثره. ومع الإدراك التام أن عدم وجود هـٰذه المادة لا يعني انتفاء ورود مدلولها، أو إعمال هـٰذا المدلول، إلا أن ذٰلك لا يكفي لإسقاط الدلالة في تلك الظاهرة، أو استشكالها، ما دامت اللغة هي وعاء الفكر مكتوباً أو ملفوظاً.

الظاهرة الثانية: تكرر ملفت للنظر لمادة فكر، بلفظه أو معناه، حيث وردت هـٰذه المادة بصيغة الماضي أو المضارع في نحو ثمانية عشر موضعاً، وجاءت الدعوة إلىٰ النظر بمعنىٰ الفكر والتأمل في أكثر من أربعة وثلاثين موضعاً[1]، وقلت إنني أحصيت كلمة ﴿أولي الألباب﴾ في القرآن في ستة عشر موضعاً، والعقاد بدأ كتابه «التفكير فريضة إسلامية» بنحو قريب من الثلاثمائة آية عن: العقل، ووظائفه، وأوصافه، وأساليبه في الفهم والاستدلال. فلماذا أدع هـٰذا كله وأمشي مع أوهام الذين ورثوا من الماضي أسوأ ما فيه وتركوا أعظم ما فيه؟

غياب المنهج القرآني:

□□ **يعلل بعضهم الظاهرة: بأن العرب أو المسلمين، ما عرفوا المنهج الاستقرائي، وإنما عرفوا المنهج الاستنتاجي أو الاستنباطي، وهـٰذا المنهج عمل عمله في الفقه ونموه لأنه أقرب في طبيعته إلىٰ القياس الفقهي، ولم يستطع أن يعمل عمله في آفاق المعرفة الأخرىٰ. أي أنهم يستدلون من نمو الفقه علىٰ أن العرب كانوا عاجزين عن إدراك المنهج الاستقرائي الذي يمكن أن يحقق لهم كسباً في مجال العلوم الإنسانية، وأن الفقه هو ثمرة للمنهج الاستنباطي أو الاستنتاجي.**

● أنا أخالف في هـٰذا، لأني كما قلت: أجد فقهنا اتسع حيث كان

---

(١) الدكتور راشد المبارك «من صور الجذوة والخمود في فكر المسلمين» ـ العربي (الكويت) ـ ع٣٥٩ (أكتوبر ١٩٨٨م).

ينبغي أن ينكمش، وانكمش حيث كان ينبغي أن يتسع، ثم إن منهج الاستقراء والملاحظة والتجربة، منهج قرآني مائة في المائة، أما فكرة الاستنتاج كما صورها المنطق الإغريقي فهي الفكرة التي تأثرنا بها للأسف، وقد كتبت في آخر كتاب لي، ألوم المسلمين لوماً شديداً: لماذا ترجموا الفلسفة الإغريقية؟ لقد كانوا مخطئين في هٰذه الترجمة، وأساءوا إلىٰ كتابهم، وكتابهم كتاب عالمي، وكان عليهم، بدل أن يستوردوا فكر الآخرين، أن يترجموا الفكر القرآني إلىٰ لغات الأرض، كان هٰذا هو الواجب.

أما ما هي الفلسفة الإغريقية، فكر أرسطو[1]، وهو فكر فيه منطق.. ومنطق أرسطو منطق موضعي لا يتحرك إلىٰ الأمام، ولا يستكشف مجهولاً، لذٰلك رفضه رجال عصر النهضة في أوروبا لما تأثروا بالمنطق القرآني في الاستنتاج والملاحظة والاستقراء، أما منطق أرسطو فهو منطق ـ كما قيل ـ قد يكون ترتيباً لمعلومات موجودة وليس إيجاداً وكشفاً لمعلومات جديدة.

لماذا لا نقول: أخطأنا؟ وإذا كان هناك خطأ، فما المانع في أن نستدركه؟

□□ التعرف علىٰ الأخطاء أمر طيب، لٰكن المطلوب: تحديد الأسباب التي أوصلت إلىٰ تلك الأخطاء حتىٰ يمكن معالجتها مستقبلاً، ما من شك أن الاستبداد السياسي والحكم كان هو العامل الرئيسي، لٰكن أليس خطيراً أن تبقىٰ القضية بدون علاج حتىٰ تنشأ عنها كل هٰذه الآثار المدمرة، وكيف يستقيم هٰذا في واقع الأمة المسلمة، والأمة معصومة بعمومها عن التواطؤ علىٰ الظلم؟

● محاولة إصلاح الحكم عندنا، تأثرت بعقدة صفين أولاً، وتأثرت، ثانياً: بما شاع من أحاديث وأحكام كثيرة تسوغ الظلم وتجعل الخروج علىٰ الحكم كأنه الكفر، أو دونه الكفر، وهٰذه مسألة خطيرة في تاريخنا، بينما وجدتُ الإنجليز صححوا مسار الحكم عندهم بقتل الملك، وعملوا «المجنا

---

(١) أرسطو Aristote فيلسوف يوناني، ولد عام ٣٨٤ قبل الميلاد، ويعد واحداً من أشهر الفلاسفة حتىٰ الآن، توفي عام ٣٢٢ قبل الميلاد.

كارتا»[1]، واستقرت الديمقراطية عندهم، الفرنسيون فعلوا الشيء نفسه: قتلوا لويس[2]، أنا لا أدعو للقتل؟ إنما عندما تكون الشعوب في سجن وضعها فيه الحاكم، فمن حقها أن تكسر السجن، وتقتل السجّان.

عندنا أحاديث كثيرة، أكثرها ضعيف ـ للأسف ـ جعلت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يدخل في نطاق ضيق محدود حتىٰ لا يتجاوز هـٰذا النطاق للمساس بالحاكم أو الحكم، فالمسألة: لا بد من أن نقول: هـٰذا خطأ.

التدرج في العودة إلىٰ الأحكام القرآنية:

□□ إن قضية النسخ وتعطيل بعض الأحكام وتقطيع الرؤية الشاملة، وما إلىٰ ذٰلك، تقودنا إلىٰ قضية أخرىٰ وهي: قضية التدرج، أو ما يمكن أن نسميه: سنة التدرج. والذي نقرأه عند علمائنا في ذٰلك هو: الاقتصار علىٰ بحث التدرج في التشريع ويأتون لذٰلك بمثال علىٰ تحريم الخمر، وتغيب سنة التدرج في: العقيدة، والعبادة، والدعوة، وتهمل كل المعاني التربوية لسنة التدرج.

والقضية المطروحة: أن الأحكام الفقهية إنما جاءت جواباً وعلاجاً لمشكلات وحالات كان عليها الناس قبل أن يتهيأوا للانتقال إلىٰ المرحلة التالية، فهل بالإمكان أن تُعمل هـٰذه الآيات وتلك الحلول لمواجهة الحالات المماثلة، علىٰ الرغم من استقرار الحكم النهائي!

بمعنًى آخر: الحكم المرحلي، كان بالنسبة للصحابي يُشكل حكماً نهائياً للمرحلة التي كان فيها ضمن المرحلة ذاتها حتىٰ يهيأ للمرحلة التالية، أما نحن فنرىٰ الحكم النهائي حيث استقر المجتمع المسلم الأول، فهل يمكن لنا أن

---

(١) تعرف في الإنجليزية Magna Carta أو Great Charter أي الدستور العظيم الذي منحه الملك جون للإنجليز عام ١٢١٥م، متضمناً الاعتراف بحقوق النبلاء، والكنيسة، والمواطنين الأحرار.

(٢) لويس السادس عشر، ملك فرنسا، ولد عام ١٧٥٤م، حكم من عام ١٧٧٤ حتىٰ عام ١٧٩٢م، في عهده نشبت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م، وأعدم عام ١٧٩٣م.

نستخدم الحكم المرحلي: تربوياً ودعوياً مع استصحابنا وإيماننا بضرورة الوصول إلىٰ الحكم النهائي في نهاية المطاف؟ أم لا بد من تقرير الحكم النهائي، ولو كانت الحالة تقتضي حكماً مرحلياً؟

وهل يمكن للمجتمع والفرد الذي ينسلخ عن الإسلام لفترات طويلة أن يعود فجأة.

وهل يمكن أن نخاطب بالإسلام مجتمعات غير إسلامية أصلاً، بالحكم النهائي دون تمريرها بمراحل التهيؤ؟

وهل لنا أن نطرح اليوم إمكانية التدرج في التطبيق والتنزيل علىٰ الواقع، حيث أننا لا نمتلك التدرج في التشريع؟

● في الدعوة إلىٰ الله، أنا مضطر أن أنظر مواقف الخصوم الذين يواجهونني بمعتقداتهم المضادة لي. أنا لاحظت أن الكنيسة وهي ضد تعدد الزوجات، تسامحت في هٰذا الموضوع وهي تعرض المسيحية علىٰ زنوج أفريقيا، ورأت بأن حكمها بعدم التعدد، يمكن أن يتحقق بعد جيل أو جيلين، وتتغاضىٰ الآن عن الجيل القائم بحيث أنها تستدرجهم للمسيحية، ثم تبدأ تعلمهم المسيحية الكاملة، وهو ما يمكن أن يسمىٰ التضحية بالشيء من الحاضر في سبيل المستقبل، أو ما سماه بعضهم: سياسة الدعوة.

في الحقيقة، أنا متردد في الحكم بشيء معين في هٰذا الموضوع، لأني إذا نظرت إلىٰ أوروبا مثلاً وجدت الخمر علىٰ كل مائدة هناك. ومع أن القوم يعلمون أضرار الخمر بل يتجهون إلىٰ التحريم، ويعرفون أضرار التدخين ويتجهون إلىٰ التحريم لٰكن بطرق تحتاج إلىٰ تأمل. فالإعلان عن السجائر، كما نرىٰ الآن، معه إعلان محتوم نشره بأن التدخين ضار بالصحة.

وفي نظري، لولا أن المسيحيين لا يريدون أن يأخذوا حكماً إسلامياً، لأمروا بتحريم الخمر، لأن الخمر يجتنبها كثير من الرجال العقلاء في كثير من البلاد، أو قيدوا شربها أثناء القيادة، لأنهم يعرفون أن أخطار الطريق أغلبها من السكارىٰ، حوادث الإجرام والحوادث الأخلاقية أغلبها من السكارىٰ، فساد الآلات في المصانع أغلبها من السكارىٰ، هم يريدون تحريم الخمر،

ولٰكنهم يكرهون أن يأخذوا حكماً من الإسلام، مثل تعدد الزوجات، كانوا يتمنون لو أبيح هٰذا عندهم، لٰكن كرههم للإسلام جعلهم - في أوروبا - يرفضون هٰذا.

أنا أريد أن أعرض الإسلام، ومن الممكن أن أضغط ابتداءً لأبرز شيئاً واحداً وهو التوحيد، ضد التثليث وضد الشرك، إنسانية محمد العظيم ﷺ الذي افترىٰ عليه الأفاكون بما لا يليق، ونسبوا إليه أكاذيب لا حصر لها.

هٰذان الأمران يمكن أن أعرضهما عرضاً لا هوادة فيه، ممكن أن أتكلم عن الصلوات والزكوات وأنا مطمئن لأن الطهر البدني عندنا هو الفطرة التي يعيش بها هٰؤلاء أو يريدون الوصول إليها. ولعل أجسامنا ـ أجسام المؤمنين عندنا ـ أفضل من أجسامهم من هٰذه الناحية، لٰكن، مسألة الخلافات التي يحتاج حلها إلىٰ وقت، أنا أريد في هٰذا أن أنظر إلىٰ الفقه عندنا، والأحوال عندهم، ولا ألجأ إلىٰ ما يسمىٰ بالتدرج لأنه لا حاجة لي بذٰلك بل إلىٰ حسن الاختيار من الأحكام عندنا بما يلائم الحال. فمثلاً، الأئمة الثلاثة عندنا يرون أن المرأة لا تعقد بنفسها علىٰ نفسها، وأبو حنيفة وحده هو الذي يقول: من حق المرأة أن تعقد زواجها بنفسها، أرىٰ من المصلحة عرض مذهب الأحناف.

وإذا كان للأحناف رأي في أن الخمر تحرم بشرطين: القليل والكثير من العنب مسكر عندهم، وما يسكر مما عداه، إذا كانت الفتوىٰ هٰذه ممكن تجعلني أستولي علىٰ عدد من الجماهير، ولو أني حنفي وأضيق بهٰذه الفتوىٰ ولا أحبها، ولٰكني إذا كنت سأكسب بها جمهوراً في فرنسا وغيرها، فأنا أستعملها مؤقتاً، ولا حاجة لي أن ألتزم بالمذاهب الثلاثة الأخرىٰ.

هناك أحكام ربما يرفضها العقلاء عندنا وعندهم مثل ما قلته من أن القاتل إذا كان مسلماً، والقتيل من أهل الكتاب أو من أهل الذمة، لا بد أن يُقتل فيه، وهٰذا رأي الأحناف، فآخذ به وأعرضه وأتوقف في عرض رأي الأئمة الثلاثة.

آخذ مثلاً برأي مالك في أن الأصل يُقتل في فرعه، آخذ بآراء كثيرة،

مثلاً، العورة وتحديدها، مذهب مالك يرىٰ أن العورة قسمان: عورة مخففة وعورة مغلظة، فما الذي يجعلني ألتزم بالمذاهب الأخرىٰ، هناك عندهم، كأسلوب في الدعوة؟ أي: هناك أمور يمكنني أن أختار الأنسب للبيئة هناك، إني لا أستطيع عرض الإسلام الآن علىٰ أساس أن أترك شارب الخمر يشرب وهو لا يدري أن هٰذا الأمر حرام، ليس عندي في القرآن الكريم أي نص بإباحة الخمر، إنما عندي تطبيق للتحريم يمكن أن يتدرج، ـ كأن المقصود بالسؤال هو التدرج في التطبيق وليس الإباحة، فالحكم واضح ـ الآن أعمل عقوبات تعزيرية، ولا أقيم ما يسمىٰ بحد الخمر، لأن الحد نفسه تعزيري، وجاء بطريق المصالح المرسلة ولم يجئ بطريق النص. ففقهي هنا، فيه متسع لكثير مما أرىٰ أنه يصلح للحياة العامة علىٰ امتداد الأرض.

□□ كأسلوب في الدعوة؛ الأمر لا بد له من شيء من الفقه لانتقاء الحكم الذي يناسب الحالة، المطلوب نوع من فقه الدعوة أو سياسة الدعوة، لٰكن، الذي أقصده شيئاً آخر، وهو: أننا نحن الآن عندنا قناعة كاملة، وأتينا بالخمر كمثال لأن التدرج صار بالتشريع، وصار بغيره، من العقيدة والعبادة، نلمحه عندما أرسل الرسول ﷺ معاذاً إلىٰ اليمن، قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل: «**إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلىٰ: أن يشهدوا أن لا إلٰه إلَّا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذٰلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذٰلك، فأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة، تؤخذ من أغنيائهم فترد علىٰ فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذٰلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب**»[1].

---

(١) رواه البخاري، باب: أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا.
ومعاذ بن جبل الأنصاري، صحابي، ولد عام ٢٠ قبل الهجرة وأسلم وعمره ثماني عشر سنة، وشهد بيعة العقبة، ثم شهد بدراً وأُحداً والمشاهد كلها، وجمع القرآن علىٰ عهد رسول الله ﷺ، بعثه النبي ﷺ بعد غزوة تبوك قاضياً ومرشداً لأهل اليمن، وقدم من اليمن إلىٰ المدينة في خلافة أبي بكر، ثم كان مع أبي عبيدة في غزو الشام. =

نحن، كمسلمين الآن، نتعامل مع مجتمعات ليست إسلامية، ليس مجتمعنا اليوم هو المجتمع الأول حيث استقر الحكم النهائي الذي نزل فيه القرآن، القرآن كتاب جاء ليخاطب البشرية كلها، في ذهننا اليوم، قائم الحكم النهائي الذي يجب أن نصل إليه في نهاية المطاف، ولا يجوز أن نعدل عنه لأننا لا نملك أن نعدل عنه، فليس الأمر موضع خيار بالنسبة لنا، الخمر حرام، والله سبحانه وتعالىٰ قال:

﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠].

وعملية الاجتناب بكل ما تحمل من أبعاد، لٰكن، وأنا أستصحب ضرورة الوصول إلىٰ الحكم النهائي ـ ولا يغيب عن بالي أبداً ـ ماذا أصنع بالناس في بيئة أخرىٰ وأريد أن أخاطبهم؟ هل أقبل بعض الحلول منهم ولا أواجههم بالحل النهائي حتىٰ أهيئهم لذٰلك؟ مثلاً: فكرة الكلام عن أضرار الخمر: لا أوجه العملية بالصد بيني وبينهم في عملية الإنكار حتىٰ أني أغلق منافذ الدعوة بأن: هٰذا حرام واجتنابه كذا، ولٰكن، أهيئهم لينتهوا إلىٰ هٰذا، العملية قد تكون تأجيلاً لبعض الأحكام لأن الحالة الواقعية تستدعي ذٰلك.

● يكفي أن أعمل غرامات وشيئاً من الإهانة، ولا أغير الحكم: حكم الحلال والحرام، وإنما أجتهد في عقوبة الشارب، لا بد من الجزم بأن الخمر رذيلة وأن شربها مبعد عن طبيعة الإسلام وطبيعة الطاعة لله. لٰكن، في معاملتي للشاربين لازم أنْ أكون هيناً ليناً، فلا أقسو، أتدرج هنا في تطبيق الأحكام، كما تدرجت في الأول، لأن الحكم في الأول لم يكن فيه ضرب كثير كان الضرب بثوبه، أما ثمانون جلدة، فكان نتيجة لاجتماع مجلس فيه الإمام علي وعدد من الصحابة رضوان الله عليهم، أنا ممكن أن أمشي في العقوبات هنا بالطريقة التي مشىٰ بها الأولون: أخوّف أولاً، وأشدد أخيراً.

= ولما أصيب أبو عبيدة في طاعون عمواس استخلف معاذاً، وأقره عمر، فمات في ذٰلك العام، عام ١٨هـ.

الاختلاف، هل يعني تفريق الدين؟

□□ القرآن، رسم المسارات العامة للحياة، وبيّن السنن التي تحكمها، وجاء بقيم ضابطة للمسيرة البشرية، ودوَر الإنسان، في التعامل مع القرآن وإدراك مقصده، إنما يتمثل في الاجتهاد في تحديد هٰذه المسارات واكتشاف آفاق تلك السنن، وقوانين التسخير ووضع البرامج ضمن إطار القيم الضابطة للمسيرة حتىٰ لا تكون الحيدة ولا يكون الخروج، ولٰكن، يبقىٰ أن ما يصل إليه الإنسان باجتهاده هو رأي وليس ديناً، بمعنىٰ أنه ليس مقدساً، والرأي معرض للخطأ والصواب، لأنه يمثل فهم الشخص، وقد يفهم الإنسان آخر من خلال ما يتمتع به من الإمكانية والموهبة والكسب المعرفي أو النظر إلىٰ الموضوع من جوانب أخرىٰ، فهماً آخر، فيما وراء النصوص الخاصة والمحكمة التي لا تقبل الاجتهاد.

فهل يمكن اعتبار الفهوم والآراء كلها التي لا تخرج عن إطار القيم الضابطة ضمن إطار إغناء الرؤية القرآنية ولو اختلفت؟ وهل لذٰلك من نماذج، وبذٰلك نخلص من مطاردة التحريم، والتكفير، والتخطيء، ونحكم علىٰ بطلان الرأي ومحاصرته برأي مماثل؟ وهل الآراء الاجتهادية ضمن ضوابط القيم، تعني الافتراق وتفريق الدين، الوارد النهي عنه في القرآن الكريم من مثل قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقوله تعالىٰ:

﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾ [الروم].

فالقرآن الكريم فيما أرىٰ، جاء بالمبادئ وترك الاجتهاد في تنزيل النص علىٰ الواقع، ووضع البرامج، إلىٰ اجتهادات العقل البشري في كل عصر بحسب معطياته ومشكلاته.

● الذي لا شك فيه أن القرآن الكريم رسم الخطوط العامة، وترك

التفصيل في أمور كثيرة للنبي عليه الصلاة والسلام، حتىٰ صاحب الرسالة فصل في الجزئيات فيما يتصل بالعبادات، ولٰكنه فيما وراء هٰذا، ترك الأمر أيضاً للعموم الذي تستكشف، العقول مداه علىٰ مر الأيام، وما هو الأنفع فيه، هنا، أعجّل فأقول: إن الإسلام ربط الحق بالمنفعة، أو جعل علامة أن الشيء حق، أن تكون هناك منفعة، ترىٰ هٰذا في قوله تعالىٰ:

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

فاعتبر أن الحق بطبيعته نفّاع للناس، وأن فيه صالح الأمم، وما تحتاج إليه.

لٰكن، نعود مرة أخرىٰ إلىٰ القرآن في ما وضع من ضوابط عامة للأمم، تعلم أن القرآن وضع النصوص الخاصة فيما يتصل بقواعد الصلاة وصوم رمضان والحج، وهٰذا عبادات كلها، لا تتطور ولا تتبدل مهما تغير الزمن. لٰكن، في الشورىٰ مثلاً، لم يقترح نظاماً خاصاً أو يحدد شكلاً معيناً، الشورىٰ، كقيمة، لا بد منها، لٰكن، كيف تنفذ؟ حتىٰ في هٰذا العصر الحاضر، نجد في الدول الحرة ـ كما تسمي نفسها ـ ليس للديمقراطية شكل خاص يشيع بين الجميع، فالولايات المتحدة، نظامها رئاسي، والسلطة التنفيذية فيها تنكمش أحياناً أمام السلطة التشريعية، فلا يملك رئيس الدولة وهو رئيس السلطة التنفيذية، أن يعيِّن رجاله إلا بإذنها، بينما الديمقراطية الغربية، ليبرالية ملكية، فيها ملك أو ملكة تملك ولا تحكم. فالنظام الديمقراطي في انجلترا مخالف تماماً للنظام الديمقراطي في الولايات المتحدة، النظام الديمقراطي في فرنسا يجعل انتخاب رئيس الجمهورية من حق الشعب بينما هو في إيطاليا من حق مجلس النواب والشيوخ.

فطبيعة هٰذه النظم، تختلف، والمهم، أن مصلحة الجمهور هنا قد تكون غير مصلحة الجمهور هناك، أو ضوابط الحرية هنا، قد تكون محتاجة إلىٰ وسائل غير الوسائل التي تحتاجها الحرية في بلد آخر، وعلىٰ هٰذا، فهٰذه التفاصيل متروكة للناس، وللزمان، وما لأحد أن يرىٰ أن ما عنده أو ما يعرضه

هو الصورة الوحيدة التي يُتعبد بها أو تتحقق بها المصلحة العامة.

هٰذا بالنسبة للشورىٰ، أما بالنسبة للعدالة الاجتماعية فإن الأمر قد يحتاج إلىٰ ما هو أدق، هل تقيد الملكيات أو تُطلق؟ هل تقيد الإجارات أو تطلق؟ أي: ما مدىٰ تدخل الدولة في حريات الأفراد الاقتصادية؟ وهٰذه أيضاً مسألة متروكة لما يقوله القائل عندنا: تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من فجور، فقد نرىٰ التقييد في ظرف، ونرفضه في ظرف آخر، كما حدث في إنجلترا، حزب العمل أمّم المرافق العامة كلها، وجاء حزب المحافظين فرفض هٰذا الإجراء وبدأ يبيع القطاع العام، واستطاعت رئيسة الوزراء أن تحوّل بعض المؤسسات إلىٰ شركات مساهمة، يساهم فيها العمال.

كل هٰذه المحاولات هي وسائل لتحقيق ما نسميه العدل الاجتماعي أو الضمان لئلا يقع ما خاف منه الإسلام وهو: أن أبيت شبعانَ وجاري جائع، المسألة ليست تحسس فرد لما حوله بقدر ما هِيَ يقظة الدولة لإشاعة الثقة والأمان بين الجماهير.

هناك مسائل نبّه إليها صاحب «الموافقات»: الإسلام حرّم الترف، أو حرّم الفساد في الأرض، فيجيء صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام بتشريعات هي من بيانه ليست في القرآن، ولٰكن في النطاق العام للقرآن، أو بتعبير الفقهاء الدلالات العامة للقرآن الكريم، أو المقاصد العامة للقرآن الكريم، فمثلاً، في أحوال كثيرة، نجد أن القرآن الكريم ينبّه إلىٰ أن وجود طبقة معينة «مترفة» تملك زمام الأمة، أمر فيه خطورة:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ۝٣٤﴾ [سبأ].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣].

فكيف نمنع تكوّن مثل هٰذه الطبقات؟ إنه أمر متروك للرسول ﷺ ولمن يخلفونه في حكم هٰذه الأمة بحيث إنها تمنع الشر، لٰكن، ليست هناك وسيلة محددة، وإنما تركت الوسائل لاجتهاد مطلق.

الحكمة والميزان:

وأنا في هـذا، أشرت إلىٰ أمرين في بعض كتبي: الأمر الأول: ما يسمىٰ بالحكمة، والأمر الثاني: ما نسميه بالميزان، مستهدياً بقوله تعالىٰ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ [الشورىٰ].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥].

ما هو الميزان؟

الحكمة وردت في القرآن من نحو من عشرين موضعاً تقريباً، مفردة، أو مع الكتاب: «الكتاب والحكمة»، من قال: إن الحكمة هي السنّة النبوية، فهو مخطئ، لأنك تقرأ قوله تعالىٰ:

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران].

كيف تكون الحكمة هنا هي السنّة النبوية والكلام هنا يقصد به عيسىٰ بن مريم عليه السلام.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ﴾ [لقمان: ١٢].

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء].

﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء].

ففي نحو عشرة مواضع في القرآن، لا يمكن أن تكون الحكمة هي السنة النبوية، بل هي ما يستفاد من التعاليم القرآنية، أي وضع الأمر في موضعه.

وهنا أقول: إن الميزان هو الناحية العملية، والحكمة هي الناحية النظرية في ذٰلك، مجموعة الآيات التي وردت فيها الحكمة والميزان، تعطينا منهجاً أن الأمة، لا بد أن يكون لها من الرؤية القرآنية التي تستنبطها أو تستدركها من مجموع الآيات سياسة قرآنية: كيف تحكم الشعب، وكيف تنزلها علىٰ واقع الناس، أي، كيف يُنزل الفكر القرآني علىٰ واقع عملي؟

□□ قد يرىٰ الإنسان كلمة «ميزان» تعني ـ فيما تعني ـ تنزيل الأمر علىٰ

واقع الناس، فالكتاب هو القيم والمبادئ الموحىٰ بها، والميزان هو التجسيد العملي، أو الواقع التنفيذي البرامجي لهٰذه القيم والمبادئ.

● نعم، لأن الميزان لا يمكن أن يكون معنىٰ حسياً، فقط، والتوازن الاجتماعي فيه المعنىٰ نفسه، فلا بد من الميزان. والميزان هنا يشترك فيه الأخلاقيون والقانونيون، وتشترك فيه شؤون مادية ومعنوية، الذي ألفت النظر إليه: أن الربط الذي يراه أحدنا في تفسير آية أو استنباط حكم، هو اجتهاد، لا يوجد إمام من الأئمة الكبار في فقهنا ألزم الناس باجتهاده، بل كلام أبي حنيفة واضح: كلامنا هٰذا رأي، من كان عنده خير منه فليأت به، ومالك كان يرفض أن يعتبر رأيه ديناً، بل معروف من حكمة الرجل أنه رفض وهو صاحب «الموطأ»، أن يفرضه علىٰ الناس لأنه قد تبدو للناس علوم أو معارف أخرىٰ، وهٰذا من صميم ديننا الإسلامي، والذي يُلزم الناس بأن ما عنده هو الدين، فهو إما جاهل أو قاصر أو مريض مصاب بجنون العظمة أو به شيء يُحاسب عليه أو يجب إصلاحه.

فجعل الاجتهادات ديناً، لا، إنما المهم أنه لا بد من إعمال النظر في تنزيل القرآن علىٰ واقع عملي.

وإذا لم يكن هٰذا هو الاجتهاد، فما هو الاجتهاد الذي نريده؟ وأنا رأيي الآن أن أفضل شيء للأمة أن يكون الاجتهاد جماعياً، ولا أزال أدعو إلىٰ إغلاق باب الاجتهاد في العبادات، يكفينا في أمور العبادات ما ورثناه من أقوال في الصلاة والحج والصيام وما إلىٰ ذٰلك، ويكون الاجتهاد بعد هٰذا في المعاملات الدولية، والمعاملات الاجتماعية والإدارية وغيرها، القرآن كتاب مفتوح يقول تعالىٰ:

﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

لٰكن، يبقىٰ المطلوب: كيف نعيش بهٰذا الإيمان؟ فلننقل منطق الإيمان إلىٰ كل شيء، ومنطق الإيمان منطق واسع، له مواصفات في العادة، وليس له شكل معين عملياً وإنما هي أوصاف معينة.

□□ وهٰذا ما يمكن أن نسميه «القيم»: فالقرآن جاء بقيم تحدد

المسارات العامة أو قواعد أو مبادئ عامة، ولم يجئ ببرامج إلا في القضايا التي لا تتطور ولا تختلف فيها الفهوم، كما أنها لا تختلف من زمان إلىٰ زمان، ومن بيئة إلىٰ أخرىٰ، ومن طبيعتها أن تكون توقيفية.

● نعم، ما عدا هٰذه القضايا فهو متروك للزمن ومتروك للناس.

□□ كأني أرىٰ الخلاصة في هٰذا: أن الأصل أن تبقىٰ القيم القرآنية هي الضابطة لمسيرة الحياة في إطار عريض، وأن الحركة والاجتهاد ضمن إطار القيم هو متروك لاجتهادات الناس بحسب ظروفهم ومشكلاتهم التي تتبدل بحسب الزمان والمكان، المهم أن لا تخرج الاجتهادات عن الإطار الذي رسمه القرآن. وفي ذٰلك متسع للزمان والمكان بمقتضىٰ الخلود والخاتمية.

● قلت في بعض كتبي: إن هناك وسائل ثابتة، فإذا قيل إن الصلاة لا بد لها من وضوء، يبقىٰ الوضوء وسيلة محددة، لٰكن، الأمة محتاجة للجهاد، كان رباط الخيل، يوماً ما هو وسيلة الجهاد، وانبنىٰ علىٰ ذٰلك أن الفارس يأخذ ضعفين أو ثلاثة أضعاف ـ علىٰ اختلاف المذاهب ـ ما يأخذه الراجل، وأقيمت الأوقاف في رباط الخيل، الآن، لا يمكن الأخذ بهٰذا الاجتهاد، لأن رباط الخيل انتهىٰ من عملية الجهاد، هناك إمكانات أخرىٰ هي: الدبابات والمدرعات وغيرها.

الوسائل تختلف؛ ليس فقط في الجهاد وإنما في العدالة أيضاً، العدالة قيمة لا بد أن تضبط الأمور بميزان العدل، الآن قد يمكن أن أجعل محاكم عسكرية، ومحاكم للقاصرين، ومحاكم للأحداث، وأجعل المحاكم في الوقت نفسه، درجات: محاكم ابتدائية، ومحاكم استئناف، ونقض وإبرام وتمييز، كل ما يعين علىٰ تحقيق العدالة، أجتهد فيه كيف أشاء.

كذٰلك التعليم، فكونك تقيم معاهد ومدارس لها مواصفات معينة لتعليم الأمة كلها، أو تجري إحصاءً عاماً للأمة كلها بحسب سني العمر كي تتعرف علىٰ أعداد الطلاب الذين لا بد أن تفتح لهم مدارس، فهٰذه كلها مسائل حضارية لا بد منها، وهي تدخل في إطار ما عندنا من قيم، وهي جزء من الحكمة والميزان الذي أشار إليهما القرآن الكريم، ولا بد منها لبناء المجتمع.

القيم تضبط، والقيم صفات، لا برامج وأعمال، وليست لباساً معيناً، فمثلاً، الإسلام يقول للمسلم: البس اللباس الساتر للعورة الذي لا يُشتمُّ من لابسه الكبر والخيلاء، لٰكن، لا يقول له؛ يجب أن يكون هٰذا اللباس: جلابية، أو جبّة، أو غيرها، وإنما يترك له التصرف.

فهناك مواصفات وضعها الإسلام للحياة الاجتماعية، وقد تحدث فيها القرآن باستفاضة دون نصوص خاصة، أو برامج خاصة لذٰلك، يمكن أن تتدخل الحكمة هنا لينشئ الناس قوانين تفي بالمطلوب للأمة.

ولذٰلك، أنا ممن يرون أن تكثر الاجتهادات ضمن الصورة الإسلامية، فمثلاً: الإمام أبو حنيفة يجتهد في أن تعطىٰ المرأة حق أن تعقد علىٰ نفسها ـ وغيره من المجتهدين يرىٰ غير ذٰلك ـ؛ وأن تعطىٰ الحق في أن تخالع زوجها، ويحكم القاضي بالحكم المناسب؛ وأن تعتلي القضاء.

هٰذه برامج واجتهادات، ومن هنا، أنا اخترت ترجيح مذهب المالكية في أن تقسيم الغنائم ليس تقسيماً ملزماً، أي أن «التخميس» هو صورة مما يمكن أن تقسم به الغنائم، والرسول ﷺ لم يلتزمه عندما وزع غنائم هوازن وثقيف، فقد حرم بعض الصحابة «الأنصار»، ورأيت أن هٰذا ما صنعه عمر رضي الله عنه عندما رفض أن تقسم الأرض المفتوحة، وفرض عليها الضرائب، وأعطىٰ الفاتحين أنصبة، أو مرتبات، من هٰذه الأرض المفتوحة.

وهٰكذا تجد أن الإسلام ليس مجموعة صور محددة ومعينة للنظام، وليس هو قوالب ثابتة، وإنما هو قيم ثابتة، علىٰ ضوئها ننتقي الشكليات، أي: نشكل ما نريد، وإدارة شؤون الدنيا، أعطانا الإسلام فيها فسحة: **«أنتم أعلم بأمر دنياكم»**[1]، أي: أنتم أعلم بالتنظيمات الدنيوية، والمهم أن تكون هٰذه التنظيمات ضمن سياج محكم من القيم والقواعد الموجودة في القرآن والسنة.

---

(١) الحديث رواه مسلم في «صحيحه» ـ عن عائشة، وعن ثابت، وعن أنس رضي الله عنه ـ في كتاب الفضائل، باب: وجوب امتثال ما قاله شرعاً، دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا، علىٰ سبيل الرأي.

هل اختلاف وجهات النظر الاجتهادية يعني تفريق الدين:

□□ الاجتهاد: تنزيل نص علىٰ حادثة معينة، ومن المجازفة أن يقال عن هٰذا التنزيل: هٰذا رأي الإسلام، أو الحل الإسلامي، أو ما إلىٰ ذٰلك، وأتصور أنه يمكن أن ينتج عن ذٰلك معارك واتهامات لا نهاية لها بسبب تنوع العقول، وتعدد الاجتهادات والآراء، واختلاف الناس في تنزيل النص علىٰ الحوادث.

فلو اعتبرنا الرأي، أو الاجتهاد، في فهم القرآن أو الحديث، ديناً، له قدسية الدين، والخروج عليه إثم كإثم الخروج علىٰ النص الشرعي نفسه، وما إلىٰ ذٰلك؛ فهٰذه قضية ستمزق الأمة، وستوقعها بنتائج نلمح بعض آثارها هٰذه الأيام.

نريد مناقشة هٰذه القضية الهامة، والإتيان - إن أمكن - بنماذج للاستشهاد حتىٰ لا يفسر بعض الناس من أصحاب العقول الكليلة، النصوص الواردة في النعي علىٰ الذين يفرقون دينهم بأنه يعني: بعض الاجتهادات، أو يحكم علىٰ بعض الاجتهادات بأنها لون من التفريق للدين، وأن الاجتهاد هو سبب افتراق الأمة إلىٰ ثلاث وسبعين شعبة، وما إلىٰ ذٰلك؟

● إن أئمتنا عندما اختلفوا، ما زعم أحدهم أنه أصاب الحق الذي يريده الله تعالىٰ، بل، كل منهم قال: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب. وبقي الخلاف، وبقي الود، وبقي التواضع في أني أبذل جهدي لمعرفة مراد الله، ولذٰلك، وفي عبادة كالصلاة، يرىٰ فيها أبو حنيفة أن قراءة المأموم للفاتحة حرام ويرىٰ الشافعي أنها واجبة ومع هٰذا فإن الشافعي وأبا حنيفة من أئمة المسلمين، ويُسأل الشافعي عن أبي حنيفة فيقول: الناس عيال في الفقه علىٰ أبي حنيفة، ومن زعم أن رأيه هو الدين وأن رأي غيره ليس بدين، فهو كاذب.

ويُشاع هٰذا الآن بين أتباع المذاهب المتنطعين الذين لا يعرفون المذاهب، فهو يرىٰ الرأي تبعاً لفكر اجتهادي لصاحب مذهبه، ثم يلغي جميع المذاهب الأخرىٰ ويرىٰ أنها حرام، هٰذا باطل، وقد شاع بين الجهّال والمتنطعين، وأفسد الأمة الإسلامية.

اخترت هنا أمراً من الأمور العبادية كمثل - والأمور العبادية لها طبيعتها - فكيف بالأمور غير العبادية؟ كيف بالأمور التي هي بطبيعتها محتاجة ومُحتملة لأن نختلف فيها؟ الإسلام لم يضع صورة معينة محددة لبعض القضايا كشؤون الشورىٰ، والجهاد، والعدالة، والتعليم، وما إلىٰ ذٰلك، كل هٰذه الأمور وردت في القرآن كقيم، وتُركت صُور التطبيق ووسائله إلىٰ الاجتهاد، وهٰذا ما جعل أبا بكر[1] مثلاً يقول: أستخلف واحداً، وعمر يقول: أستخلف ستة يختارون من بينهم، الرسول ﷺ لم يستخلف أحداً، وأخذ من هٰذا: أن مسألة اختيار الحاكم ليس لها نص معين، وليس هناك واحد يستطيع أن يقول: أنا أولىٰ بالحق من غيري، فكل منهم له سابقة يمكن الاستشهاد بها والاعتماد عليها.

إن الذين يحددون خطاً في الحياة من اجتهاد أحدهم أو بعض الناس، ليس لهم أن يقولوا: هٰذا الخط هو من عند الله، وإن من عصىٰ هٰذا الخط فقد عصىٰ الله. هٰذا كله نوع من الباطل.

□□ يبقىٰ: لا بد أن نعرض لمفهوم الآيتين اللتين وردتا في الإخبار عن تفريق الدين، والآثار المدمرة لذٰلك:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم].

ما هي أبعاد هٰذا التفريق المنهي عنه؟ وأعتقد أن القضية ليست في الإطار ولا الصورة التي يستخدمها بعض المسلمين اليوم.

---

(١) هو عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر. من تيم قريش، أول الخلفاء الراشدين، وأول من آمن برسول الله ﷺ. من أعاظم الرجال، وخير هٰذه الأمة بعد نبيها. ولد بمكة عام ٥١ قبل الهجرة، ونشأ في قريش سيداً، موسراً، عالماً بأنساب القبائل حرم علىٰ نفسه الخمر بالجاهلية، أسلم بدعوته كثير من السابقين. صحب رسول الله ﷺ في هجرته. ولي الخلافة بمبايعة الصحابة له. فحارب المرتدين، ورسخ قواعد الإسلام. وجه الجيوش إلىٰ الشام والعراق ففتح قسم منها في أيامه. توفي عام ١٣هـ.

● التفريق المنهي عنه إنما سيكون في أمرين: الأمر الأول: خلاف جذري في العقائد وما وراء المادة والمغيبات، لأن الكلام فيها ليس له سند عقلي عند الناس، ولٰكنه تطاحن علىٰ فهم بدا لصاحبه. كما يتحدث بعض الناس في الأمور التي نعتبرها من وراء المادة ولا مجال فيها للعقل: هل الصفات زائدة عن الذات، أو هي عين الذات أو غير ذٰلك؟ ما معنىٰ الاستواء علىٰ العرش؟ هٰذا كله كلام أرىٰ الخوض فيه يعتبر أولاً: كلاماً لا معنىٰ له ولا لزوم له؛ وثانياً: لأن الخوض فيه يؤدي إلىٰ انقسام ديني خطير، ومن الخير أن نوفر لأنفسها وحدة الأمة بأحد أمرين: إذا كان بعضنا قد أوّل التماساً لمعنًى سليم للتنزيل ـ وما من أحد إلا وأوّل، والسلف أنفسهم أوّلوا، وعندما أقرأ قوله تعالىٰ:

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة].

السلف يقولون: ملائكتنا، هٰذا تأويل، لٰكن المقصود هنا التنزيه، يريدون أن ينزهوا الله عن الحلول المكانية والزمانية، فالأمر يحتاج إلىٰ شيء من التوضيح، فلا يجوز أن أتهم الآخرين بالزيغ أو الكفر إلا إذا كان هناك فعلاً من يريد أن يصف رب العالمين بغير ما ينبغي له.

أما الخلافات الفقهية الفرعية، فأجمع المسلمون علىٰ أنه لا صلة لها بكفر أو إيمان. وقد اختلف الصحابة رضوان الله عليهم في قوله ﷺ: **«لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»**[1] هل يصلون العصر في بني قريظة أو يصلونه في الطريق؟ ولم ير الرسول عليه الصلاة والسلام في هٰذا الخلاف حرجاً، وجمعهم صفاً واحداً في مقاتلة اليهود، ولم يعلّق علىٰ هٰذا الموضوع، ولم يتوقف عند الأمر، فقد وجده أقلّ من أن يعلّق عليه.

كذٰلك الأمر بالنسبة لمن تيمموا وصلوا ثم وجدوا الماء قبل مضي

---

(١) الحديث رواه البخاري في «صحيحه» ـ عن عبد الله بن عمر ـ في كتاب صلاة الخوف، وفي كتاب المغازي، باب: مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلىٰ بني قريظة ومحاصرته إياهم.

الوقت، فتوضأ بعضهم وأعاد الصلاة، ولم يعدها بعضهم الآخر، فالذي أعاد الصلاة قال له ﷺ: «**نور علىٰ نور**»، والذي لم يعدها، قال له: «**أجزأتك صلاتك**»[1]، وانتهىٰ الأمر.

فالخلافات الفقهية الفرعية، لا يعتبرها أحد أبداً خلافاً دينياً وتفريقاً للدين، بل هي اجتهادات في فهم النص، يقول تعالىٰ في سورة آل عمران:

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ﴾ [آل عمران].

يريد الله سبحانه وتعالىٰ في هٰذه الآية أن لا نكون كاليهود والنصارىٰ الذين فرقوا دينهم، وأصبحوا مذاهب متعادية فيه مثل البروتستانت والكاثوليك والأرثوذكس، وكان خلافهم في أصول العقائد وليس في الاجتهاد، العقيدة عندنا واضحة ولا خلاف فيها، وليس هناك خلاف بين المسلمين أبداً في أصول العقائد، العقيدة تعني أن الله واحدا بلا شك؛ ليس كمثله شيء؛ له الأسماء الحسنىٰ.

إذا كان هناك كلام في بعض أحاديث النزول، فهي مسائل ليس الخلاف فيها حول تنزيه الله، فتنزيه الله ثابت عند الجميع، إنما حول الفهم اللغوي لبعض ما ورد: هل المراد الاستعارة؟ أو المراد الحقيقة؟ وهٰذا لا يمكن اعتباره خلافاً دينياً، كذٰلك قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

هٰذا كله جاء بعد الكلام عن أهل الكتاب، أما قوله تعالىٰ:

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم].

---

(١) الحديث رواه الحاكم في «مستدركه» ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ـ في كتاب الطهارة، باب: أحكام التيمم، بلفظ: «**فقال للذي لم يُعد: أصبت السنة وأجزأتك صلاتك، وقال للذي توضأ وعاد: لك الأجر مرتين**»، وقال: هٰذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين، وتابعه الذهبي.

فالآية تتصل بالدين كله بدءاً من قوله:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠].

لأن الآية الثانية:

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ..﴾ حال من الآية الأولىٰ: ﴿فَأَقِمْ﴾ والمقصود: أن نستقيم في مسالكنا، وفي أحوالنا مع تعاليم ديننا، والذين يريدون الانسلاخ عن الجماعة، وإحداث شغب قد يقسم الأمة، مسؤولون أمام الله عن تمزيقها وتفريقها.

ليس هناك من عقلاء المسلمين، بل حتىٰ من العامة، في الأقدمين، من قال: إن الخلافات الفقهية تفريق للدين، لم يقل بذٰلك أحد أبداً، الخلافات الفقهية خلاف في فهم نص، أو المعنىٰ المقصود وهو أمر يحتمله النص الديني نفسه، فهو واحد ويتحمل هٰذه المعاني. في آية مثل:

﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٣٤].

هل مطلق اللمس ينقض الوضوء؟ أو المقصود باللمس هنا لمساً معيناً وهو الاتصال الجنسي؟ من قال إن هٰذا له صلة بأصول الدين أو أنه يمس صلب الدين؟ لم يقل بذٰلك أحد.

□□ ما صلة ذٰلك بحديث: **«افترقت اليهود علىٰ إحدىٰ أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارىٰ علىٰ إحدىٰ أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي علىٰ ثلاث وسبعين فرقة»**[1].

● هٰذا الحديث ليس من الصحاح، وهو وارد في كتب السنن، وأغلب ظني أن المقصود به: الخلافات السياسية التي توهن قوىٰ الأمة، وتهلكها أمام غيرها.

□□ إذا اعتبرنا أن الخلافات السياسية هي التي عناها الرسول ﷺ

(١) الحديث رواه الترمذي في «سننه» ـ عن أبي هريرة ﷺ ـ في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هٰذه الأمة. وقال الترمذي: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح. كما رواه أبو داود في «سننه»، في كتاب السنّة.

«بالافتراق» فهل يمكن أن تؤدي الخلافات السياسية إلىٰ النار عدا فرقة واحدة؟ لماذا لا تكون: اجتهادات؟

● سؤال وارد، ويبقىٰ هنا أن يُفسر أن المقصود بالخلاف السياسي: أولاً، هدم الدول والخروج عليها، فرجل يرىٰ أنه يجب أن يكون هو رئيس الدولة، ولا يأبىٰ بأن يحدث شغباً يُقسِّم به الشعب قسمين، ويقاتل هٰذا بذاك، هٰذا نوع من الخلافات الذي أعتبره كأنه كفر: «**لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**»، أما الخلاف الآخر، وهو الاجتهادي، فاستبعدنا، باتفاق العقلاء، الخلافات الفقهية، لا بين الأربعة ولا بين الثمانية، إنما نستبعد كل خلاف سواء كان سياسياً أو دينياً، معه سوء النية والرغبة وعدم الاكتراث في بقاء وحدة الأمة، هٰذا ما نعتبره خلافاً حقيقياً وخطيراً.

وعندما أنظر لماضي الأمة الإسلامية أجد أن الفتنة الكبرىٰ كانت خلافاً، اتفق المسلمون علىٰ أن هٰذا الخلاف كان سياسياً، ولم يكفِّر أحدهم الآخر مع أنهم تقاتلوا، لٰكن اعتُبر ذٰلك كله فتنة، ثم تدخل العقلاء وقالوا: كان اجتهاداً، معاوية ومن معه كانوا علىٰ حق أو أخطأوا وهم معذورون، وعليّ ومن معه كانوا علىٰ حق أو أخطأوا وهم معذورون، أي أن هٰؤلاء العلماء ساروا بالأمور بطريقة لا تخلع الأمة والناس عن الإسلام. فإذا كان لا يمكن تطبيق الحديث علىٰ الفتنة الكبرىٰ، فكيف نطبقه علىٰ غيرها؟

□□ المشكلة أن بعض الناس بدأوا يطبقونه علىٰ بعض الخلافات الفكرية والفقهية والسياسية، ويسمون «الفرقة الناجية»، إلخ،

● هٰذا كلام باطل. فلو صحَّ الحديث، فالمقصود منه: الذين ساءت نيتهم وأرادوا تمزيق الأمة، أما الذين حسنت نياتهم ويريدون الخير للأمة فلا دخل لهم بالحديث، وقوله ﷺ في الحديث: «**... ما عليه أنا...**»، فقد فسرتها بما يأتي: بعض أهل الحديث يقولون: نحن الفرقة الناجية، وهٰذا الكلام فيه كثير من التجاوز والمجازفة، لأن أهل الفقه ليسوا دون أهل الحديث رغبة في إصلاح الأمة الإسلامية، وفهم الإسلام وتحقيقه، وقد يكون بعضهم من أهل الحديث والفقه في آن واحد مثل الشافعي وغيره، ويوجد من أئمة الإسلام

الكبار من يجمع في نفسه أو في علمه: الفكر الفلسفي، والأصولي، والفقهي، والحديثي، إلخ، لٰكن، لا يوجد في هٰذه الفرق ممن يشتغلون بالسنّة أو التفسير أو الفقه، من يطلب الدنيا بعلمه، أو تلتاث نيته؛ هٰذا هو الذي نعتبره خارجاً علىٰ الجماعة، ومع ذٰلك، لا أستطيع أن أعتبره كافراً، لأن الكفر ليس لديّ، وإنما يكون بنصوص، مثل ما قال الشارع: كفر بواح، عندكم من الله فيه برهان.

أما قوله ﷺ في الحديث: «... **ما عليه أنا وأصحابي**»، فأصحاب الرسول ﷺ كلهم علىٰ ما وقع بينهم من خلاف سياسي ووصل الأمر بهم إلىٰ التقاتل، مع ذٰلك نقول: إنهم كلهم ناجون، وذٰلك لأنهم أصحاب دين يجتهدون فيه لتحقيق مصلحة الإسلام، فمن كان لديه الدين أو الإيمان والإخلاص والرغبة في مصلحة الإسلام، لا أستطيع أن أدخله أبداً في الزمرة الكافرة، وأخرجه من الفرقة الناجية، إذن قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

هو حديث عن أهل الكتاب، وتحذير للمسلمين حتىٰ لا يقعوا بالعلل نفسها التي وقع بها أهل الكتاب، وأن المقصود: «بالتفريق»، التفريق بالعقائد، وليس التفريق بالمذاهب والاجتهادات التي تقع ضمن إطار القيم.

رد خبر الآحاد إذا خالف اليقين:

. □□ وهٰذا الأمر يقودنا إلىٰ التوقف، ولو قليلاً عند خبر الآحاد، أو أحاديث الآحاد، واعتمادها في إثبات العقائد، وما يمكن أن يترتب علىٰ الاختلاف فيها ـ من حيث الدلالة والثبوت ـ من افتراق واختلاف، لو أننا أثبتناها في أصول العقائد.. وشيء من الفرق بين حديث الآحاد وتباين وجهات النظر في قبوله ورده، وبين النص القرآني لأن عدم وضوح ذٰلك بشكل كامل سوف يؤدي إلىٰ تمزيق وحدة المسلمين.

فكثير من أحاديث الآحاد قبلها بعض العلماء، وردها بعضهم الآخر، وأعتقد أن فهمها والاستنباط منها يُشكل رأياً فردياً لا يمكن أن يرقىٰ ليصبح

ديناً ملزماً للآخرين من أهل النظر، وقد تكون المشكلة أن رد أحاديث الآحاد برأي ونظر فردي، أكثر ظنية وعرضة للخطأ، فكيف نرد خبر آحاد باجتهاد آحاد، أم لا بد للأمر من سند قرآني أو دليل نصي أقوىٰ؟

● علماؤنا فيما يرىٰ جمهورهم، يرون أن خبر الآحاد مصدر من مصادر الحكم الشرعي في الفروع، ولٰكن يُهمل إذا كان هناك دليل أقوىٰ منه. ما هو الأقوىٰ؟

يرىٰ الأحناف أن الأقوىٰ هو ظاهر القرآن مثلاً، أو القياس القطعي، ويرىٰ المالكية أن الأقوىٰ هو عمل أهل المدينة، وبالتالي تركوا أحاديث، أو ترك مالك أحاديث أكثر مما ترك أبو حنيفة، فمثلاً دعاء الاستفتاح في الصلاة، رفضه المالكية نهائياً، وليس لديهم استفتاح، صلاة تحية المسجد قبل الجمعة والإمام يخطب مرفوضة عند المالكية وعند الأحناف، الأحناف رفضوا أن يُقتل المسلم في كافر، كما رفض المالكية أن يُقتل الأصل في الفرع، حتىٰ إذا كان القتل عن ترصد وسابق إصرار، المالكية يرفضون الحكم بتحريم أكل بعض الحيوانات، فيقولون بأكل الكلب والخيل وغيره، ويرون أن نص القرآن ظاهر:

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

حتىٰ الشافعية رفضوا حديث أن البنت البكر تُستأذن، وقالوا إن أباها يزوجها.

الأئمة الأربعة رفضوا حديث رضاع الكبار، حديث إن الكلب يقطع الصلاة رفضه الأئمة الثلاثة ما عدا الحنابلة والظاهرية، والظاهرية لهم أشياء عجيبة في هٰذه المسألة، يقولون: إن المرأة إذا مرت أمام المصلي تقطع الصلاة ولٰكن إذا كانت مضطجعة أمامه فلا تبطل الصلاة.

الأحاديث التي تركها الأئمة لا حصر لها، بل هناك أحاديث كثيرة يرىٰ بعض العلماء أنها صحيحة، وَيرىٰ بعضهم أنها غير صحيحة، والشيخ رشيد رضا قال: إنه لا بد من إعادة النظر في أحاديث الفتن.

من الناحية العقلية، عندما يقول ابن عمر[١] رضي الله عنهما: **اعتمر النبي ﷺ أربع مرات إحداهن في رجب**، فتقول له السيدة عائشة رضي الله عنها: **ما اعتمر في رجب قط**[٢]. فكيف يقال: إن حديث الآحاد يفيد عقيدة؟! عندما يروي عمر رضي الله عنه الحديث: «**إن الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه**»، تقول عائشة: والله ما قال رسول الله ﷺ هٰذا، قال: «إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه، حسبكم القرآن: لا تزر وازرة وزر أخرىٰ»[٣].

فكيف يُقال في حديث الآحاد إنه يفيد عقيدة وهو لا يفيد حكماً بطريق اليقين؟ ولولا أن الأحكام الشرعية تؤخذ بالظن، ما كان يُعمل بحديث الآحاد، إنه يفيد الظن، ويؤخذ به لأننا إذا أتينا بشاهدين علىٰ القتل، هٰذا لا يفيد اليقين، لأنهما يحتمل أن يتواطآ علىٰ شيء، فكيف يقال إن حديث الواحد يفيد اليقين؟ هٰذا كلام باطل، ونحن ليست لدينا عقيدة مأخوذة من حديث آحاد، أبداً، ولٰكن، يمكن أن تؤخذ أحاديث الآحاد في العقائد إذا كانت شارحة لقرآن مثل أحاديث عذاب القبر وثواب القبر، وما إلىٰ ذٰلك. وهٰذا كلام موجود كله في القرآن، ولٰكن بطريقة القرآن في الإجمال، مثل قوله تعالىٰ:

---

(١) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، أبو عبد الرحمٰن. قرشي عدوي. صاحب رسول الله ﷺ. نشأ في الإسلام، وهاجر مع أبيه إلىٰ الله ورسوله. شهد الخندق وما بعدها، ولم يشهد بدراً ولا أُحداً لصغره. أفتىٰ الناس ستين سنة. ولما قتل عثمان عرض عليه ناس أن يبايعوه بالخلافة فأبىٰ. شهد فتح إفريقية. كف بصره في آخر حياته. كان آخر من توفي بمكة من الصحابة. وهو أحد المكثرين من الحديث عن رسول الله ﷺ. ولد عام ١٠ قبل الهجرة، وتوفي عام ٧٣هـ.

(٢) الحديث متفق عليه، رواه البخاري في «صحيحه» ـ عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما ـ في كتاب العمرة، باب: كم اعتمر النبي ﷺ. ورواه مسلم في «صحيحه»، في كتاب الحج، باب: بيان عدد عمر النبي ﷺ وزمانهن.

(٣) الحديث متفق عليه، رواه البخاري في «صحيحه» ـ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ـ في كتاب الجنائز، باب: قول النبي ﷺ: يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النوح من سننه، وما يرخص من البكاء في غير نوح. ورواه مسلم في «صحيحه»، كتاب الجنائز، باب: الميت يعذب ببكاء أهله عليه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣].

فماذا يعني اليوم، يعني أنه سيعذب اليوم ولن ينتظر إلىٰ يوم الساعة، ويبقىٰ هٰذا العذاب هو عذاب البرزخ، عذاب القبر، وكذٰلك الثواب، يقول تعالىٰ:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران].

فهٰذا كله من البرزخ، وكل أحاديث عذاب القبر وثوابه لا تفيد عقيدة بذاتها، ولٰكنها أفادت بعد أن مهد القرآن لها بحوالي خمس آيات قرآنية.

ولو فرضنا أن هناك من قال: إن ربنا لا ينزل إلىٰ السماء الدنيا، بل يتجلىٰ، فهٰذه ليست عقيدة، ولٰكنه يكشف معنىٰ عبارة وردت في حديث آحاد، ولا يمكن أن نعتبر هٰذا عقيدة، نزول الله ليس عقيدة، هناك أشياء كثيرة وسنن في الآحاد ولٰكنها تفسير أو لبنات في البناء الإسلامي تؤخذ في حدودها. وهٰذا ما مشىٰ عليه المسلمون. فما خالف اليقين من أحاديث الآحاد، مرفوض، ولذٰلك، القراءات الشاذة برغم أنها جاءت بأحاديث صحيحة، لٰكنها مرفوضة لأنها خالفت المتواتر الذي يفيد علم اليقين.

فالقول بأن أحاديث الآحاد تبني العقائد وتفيد اليقين، قول غير صحيح، وما يقوله بعضهم في هٰذا، مرفوض، ولا يمكن بناء عقيدة علىٰ أحاديث الآحاد، خاصة وأن العقائد قد تكفّل بها القرآن، وليست ـ عندنا ـ من صنع المجامع، كما هي في المسيحية، ولا من صنع مرويات آحادية إطلاقاً، وكما أسلفت، فإنه يمكن أخذ أحاديث الآحاد في العقائد، شارحة أو مبيِّنة لما تواتر في الكتاب والسنة.

□□ نريد هنا أن نؤكد علىٰ قضية وردت فيما سبق، لٰكن في مساحة صغيرة، فقد نرىٰ في بعض المصطلحات التي يعتمدها أو يستخدمها المجتهدون والمفكرون اليوم، بعض المجازفات الموهمة أن الاجتهاد هو الدين المعصوم، فالمجتهد أو المفكر عندما يحاول أن ينزل نصاً علىٰ حادثة

في عصر معين، يقول: رأي الإسلام كذا، حينما يريد أن ينظر لإعطاء حل أو وجهة نظره في قضية مطروحة يقول لك: الحل الإسلامي لها، كذا، وأعتقد أن هٰذا لون من المجازفة التي قد تحمل نتائج سلبية إضافة إلىٰ كونها اجتهاداً في فهم قد يعارضه اجتهاد آخر، فهل يجوز أن نعطي الاجتهاد قدسية الدين؟

● إذا كان هناك من يقول: رأي الإسلام، فإذا كان يقصد بالرأي: اجتهاد من الاجتهادات، يبقىٰ رأياً من الآراء الإسلامية، والأفضل أن يقول: الحل الإسلامي كما أراه، أو كما يراه مجتهدون أو مفكرون، هو: كذا وكذا.

والتعبير يحتاج إلىٰ ضوابط، وهٰذه الضوابط، يمكن أن ننظر إليها من عدة نواح:

أمر البرامج فيه سعة ـ كما أسلفنا ـ بشرط أن ننضبط بالقيم القرآنية، لقد سبقنا الأوربيون في العصور الأخيرة، أو الأربعة قرون الأخيرة، واستطاعوا ابتداع أنظمة اجتماعية، أو سياسية، يمكنني أن أتبناها لأنها أنظمة عامة. والإسلام أحياناً لا يمكن أن يخرج عن حدود ما يفترضه العقل البشري، بمعنىٰ أنه مثلاً: ورد في المُكره علىٰ قتل: ماذا نصنع فيه؟ بعض العلماء قال: يُقتل المُكرِه، وبعضهم يُقتل المُكرَه، وهناك من قال: يُقتل الاثنان، وهناك أيضاً من قال لا يقتل الاثنان بل يعزّران، هٰذه أربعة احتمالات موجودة، فهل للعقل الإنساني مجال بعد هٰذا؟ لم يبق احتمال.

فإذا كان الأوروبيون قد وصلوا بمنطق الفطرة للكسب العقلي، بشيء من التجارب لا يعارض القيم الإسلامية، وأنا تبنيته باسم الإسلام، فلا مانع عندي من هٰذا.

إذا كان الإسلاميون توارثوا شيئاً من اجتهادهم أو تقاليدهم، ويوجد خير منه عند الآخرين، فلا يجوز أن أقول: إن اجتهادنا هو الإسلام، بل هو فهم بشري، وقد يكون الرأي الآخر أفضل، وهو مستند إلىٰ فطرة، وهي الإسلام في هٰذه النواحي العامة المرنة.

قد يقع أنني أستعير عناوين عند القوم كالاشتراكية، أو الديمقراطية، أو ما إليها، والحقيقة أن المستعير قد يكون مخدوعاً بالعنوان، وأنا أكره

الاستعارات ـ وخاصة في المصطلحات ـ لٰكن قد يكون ما منها بد، عندما يكون التقصير الإسلامي واضحاً أو فاضحاً في مجال معين. وتبقىٰ مصطلحات لها مفهومات ودلالات معينة، لا بد من الانتباه لها.

فإذا قلنا إن الإسلام دين ديموقراطي، فكلمة ديموقراطية يونانية الأصل، والمحور الذي يدور عليه التطبيق هناك هو ضمان المصلحة بتحكيم أكبر قدر ممكن من أولي الألباب، وإشراكهم في اتخاذ القرار، ومنع الاستبداد الفردي، ومنع استطالة واحد علىٰ الناس بفضل مال أو غيره، فإذا كنا نحن لم نصل في اجتهاداتنا الإسلامية لوضع برامج ووسائل لتطبيق الشورىٰ، بل بقي عندنا للأسف من يقول إن الشورىٰ غير ملزمة للحاكم، فإن المصطلحات التي تجيء من الخارج ستنتصر، ما دمنا نحن ضد الفطرة وضد الأصل الذي هو عندنا وهو الشورىٰ.

والشورىٰ، لماذا كانت أصلاً عندنا؟ لأن الواحد لا يمكن أن يكون مصدراً لحكم معصوم، وإنما الجماعة هي التي لا تجتمع علىٰ ضلالة، فأن نأتي ونجعل الجماعة موقفها واحد فهٰذا لا يطاق، وقد يعارض قوله ﷺ: **«لا تجتمع هٰذه الأمة علىٰ ضلال أبداً»**[(1)]، ما رآه المسلمون حسناً فهو الحسن.

إدراك السنن الإلٰهية في الأنفس والآفاق:

وسيلة الشهود الحضاري:

□□ السنن هي القانون المطرد، فلقد تحدث القرآن عن السنن التي تسير الحياة والأحياء ـ وهي قوانين تحكم الحركة التاريخية والاجتماعية والنفسية ـ سنن سقوط الأمم ونهوضها، وغالباً ما يجيء ذٰلك في أعقاب القصص القرآني، وأكد أن هٰذه السنن جارية علىٰ الناس جميعاً؛ وأن اكتشافها والتعامل معها، أمر لا بد منه للشهود الحضاري (عمارة الأرض والقيام بأعباء الاستخلاف الإنساني)، الشهادة والقيادة للناس استجابة لقوله تعالىٰ:

﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

---

(١) الحديث رواه الترمذي والحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً، وفيه سليمان بن شعبان المدني وهو ضعيف. (تلخيص الحبير ٣/ ١٦٢).

واكتشاف السنن هو الذي مكَّن العالم المتقدم من التقدم والتحكم، وغفلة المسلمين عنها كان سبب الانحطاط والسقوط والتخلف، وأصبحوا مسخَّرين بدل أن يكونوا مسخِّرين.

فهل لنا أن نطرح القضية ونقدم شيئاً من النماذج لهٰذه السنن الواردة في القرآن، وعجز المسلمين اليوم عن تسخيرها «التعامل معها»، وكيف أن جيل القدوة أحسن إدراكها حتىٰ تمكن من بناء الحضارة، من مثل:

١ ـ سنة التدرج.

٢ ـ سنة الأجل.

٣ ـ سنة التداول الحضاري.

٤ ـ سنن المدافعة.

٥ ـ سنن التسخير.

٦ ـ سنن الله الأخرىٰ في الأنفس والآفاق والكون... إلخ؟ قال تعالىٰ:

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

● لفت نظري في تفسير كلمة «الحكمة»، تفسير لابن عباس رضي الله عنهما، يقول فيه: «أخذ الناس بصغار العلم قبل كباره»، هٰذا ما يستقر بذهني، ويمكن العودة لما يقوله.

«الحكمة» هي: أن أُحدِّث الناس بما يطيقون، فقد جاء في هٰذا الموضوع حديثان: أما الحديث الأول فهو: **«حَدِّثوا الناس بما يعرفون. أتحبون أن يُكذَّب الله ورسوله»**[1]. وأما الآخر فهو: **«إنك ما حَدَّثت قوماً بحديث لم تبلغه عقولهم، إلّا كان لبعضهم فتنة»**[2] وهٰذا يقتضي أن ننظر إلىٰ

---

(١) الحديث رواه البخاري في «صحيحه» ـ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ موقوفاً في كتاب العلم، باب: من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا.

(٢) الحديث رواه ابن عساكر في «تاريخه» عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بلفظ: **«ما أنت محدثاً قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»**. المناوي في «الجامع الصغير» برقم ٧٨٣٨ وقال: هو ضعيف.

حقائق الإسلام كلها، بعد جمعها في صعيد واحد، وهي شبكة من التعليمات تتصل بالفرد والجماعة والدولة، ثم: من الذين نخاطبهم، وما ظروفهم؟ وما أحوالهم التاريخية، والاقتصادية، والإجتماعية، والحضارية... إلخ؟.. فيكون المتحدث لبقاً بحيث ينزل تعاليم الإسلام وفق حاجات الناس وما يمكن أن تصلحه هٰذه التعاليم من أوضاعهم.

وقد لاحظت أن عدداً كبيراً من المسلمين يدخلون الآن ميدان الدعوة والإصلاح بأمور عقائدية من النوع الذي ثار الجدل حوله قديماً، وأذكر أني لقيت شخصاً ذاهباً إلىٰ مسجد، قلت له: إلىٰ أين؟ قال: لأحدث الناس في المسجد وأهاجم هٰؤلاء الزائغين من الأشاعرة، فقلت له: هل أدلك علىٰ أفضل من هٰذا؟ قال: وما أفضل من هٰذا؟ قلت له: تستمسك بالمحكم الذي هو لب الكتاب وأساسه، وتبعد عن هٰذا المتشابه وعن الخوض فيه سلباً وإيجاباً، هجوماً، أو رد عدوان، لأن الله وصف آياته المحكمة:

﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

فإذا كانت الأمة في أحوالها العامة مضطربة سقيمة، فما الذي يجعلك تذهب إلىٰ أمور، يحار العقل البشري في إدراك كنهها، لتبدأ الإصلاح من هناك؟ وإلّا يبدو أنك ستزيد الأمة سقاماً! وخير لك أن تعلم الناس ما يحتاجون إليه من الكتاب.

وقد رأيت فعلاً أن الخشوع في الصلاة، وهو ركن وهو روح الصلاة، ما يلتفت الكثيرون إلىٰ تعليمه أو التنبيه إليه، وتوفير أسباب وجوده في الصلاة، بقدر ما نرىٰ الكلام عن قضايا نواقض الوضوء، وكيفيات الوقوف في الصلاة.

لقد تحولت أركان الإسلام بهٰذا إلىٰ مجرد أشكال تتحرك، وأصبحت شؤونه الكبرىٰ تائهة مع هٰذا الغثاء الطافي فوق أفكار المتحدثين عنه.

نحن نريد أن نعلم الناس الإسلام كله فإذا كان الإسلام سبعين شعبة أو يزيد، فلنبدأ بالأهم فالمهم، ونأخذ الناس بطريق التدرج كما فعل القرآن، وهو يعرض تعاليمه علىٰ الناس، والتدرج سنة قرآنية، لها أبعاد تربوية لا بد

من إدراكها حتىٰ يمكن تبليغ دعوة وإقامة حضارة، إن تحريم الخمر جاء بعد غزوة أحد بسنتين تقريباً، أي أن ناساً ممن قُتلوا في أحد، ماتوا وفي بطونهم خمور، وهم شهداء، ما نقص هـٰذا من إيمانهم ولا أضاع ثوابهم عند الله، المهم أن الإسلام عندما عرض أخذوا بجملة ما عُرض منه، ما بقي لم يُكَلفوا به لأنه لم يطلب منهم.

نحن الآن نعرض الإسلام متدرجين في التطبيق، وأعتقد أن العرض في الجبهة الشرقية غير العرض في الجبهة الغربية، وأن الكلام عن الإسلام بين الهنود غير الكلام عن الإسلام بين الزنوج، غير الكلام عن الإسلام بين عرب يتبعون إحدىٰ الجبهتين، وهـٰكذا فلا بد من أن أُعطي الإسلام علىٰ مراحل بحيث أني سأصل إلىٰ الإسلام كله حتماً، ولـٰكن، بالطريقة التي أقر بها الإسلام في القلوب والمجتمعات، وهـٰذا ما يمكن أن أسميه سنة التدرج.

□□ يمكن أن نستعير هنا: ما عرَّف به العرب البلاغة من أنها: مطابقة الكلام لمقتضىٰ الحال، فنرىٰ أنه لا بد من دراسة أحوال المستفيدين من الخطاب، وعمرهم الحضاري، وعقلهم، والمشكلات التي يعانون منها، ثم بالتالي التفكير بما يُعرض عليهم، مع احتفاظ الداعي بالرؤية الشاملة للإسلام التي يجب أن ننتهي بالناس إليها.

وقد يكون المطروح: التدرج في التطبيق، أما التشريع فأمره استقر عند الحكم النهائي بعد أن أكمل الدين.

هل يمكن أن نعرض لبعض الآيات في مجال التدرج، غير آية الخمر الشهيرة؟ وكيف يمكن التعامل معها من خلال واقعنا المعاصر؟

● الربا نفسه، لم يتم تحريمه إلا في حجة الوداع تقريباً. لأن آيات البقرة من آخر ما نزل من القرآن الكريم. وأُلحق بموضوع الربا موضوع الزكاة في سورة البقرة، وكان أول ما نزل في سورة الروم:

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الروم].

ثم وجدنا حديثاً عن الربا في سورة النساء يتحدث عن أهل الكتاب:

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ [النساء].

فكان في هٰذا إشارة إلىٰ أن الربا محرم، ثم وجدنا ما نزل في سورة آل عمران:

﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠].

ثم جاء بعد ذٰلك ما نزل في البقرة، وكان حاسماً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة]. فهٰذا نوع من التدرج.

□□ في مجال التشريع، قد يلتقط المرء أمثلة كثيرة، لٰكن في مجال العقيدة والعبادة، هل يمكن أن نأتي أيضاً علىٰ ذكر بعض الأمثلة؟

● وفي عقيدة التوحيد، الله واحد، وقد حاول بعض الناس استبقاء شيء من عبادة الأصنام، فرفض النبي ﷺ رفضاً باتاً، فلا تدرج هنا، الله واحد، ولا يمكن قبول شيء يخالف هٰذا، كل ما في ذهني بالنسبة للعبادات أن ثقيف طلبت رخصة في الصلاة، فقال ﷺ: **«لا خير في دين بلا صلاة»**[1] لا بد من الصلاة، وعندما طلبوا رخصة في الجهاد، تهاون في ذٰلك قليلاً.

□□ نلمح أبعاداً لسنة التدرج في أركان الإسلام، بعد الإقرار بالتوحيد، لقد ذكر الرسول ﷺ: **«فإن استجابوا»** أكثر من مرة عندما أرسل معاذاً[2] إلىٰ

---

(١) الحديث رواه أبو داود في «سننه» ـ عن عثمان بن أبي العاص ﷺ ـ في كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب: ما جاء في خبر الطائف بلفظ: **«ولا خير في دين ليس فيه ركوع»** وقال المنذري ـ في سند الحديث ـ: قد قيل إن الحسن البصري لم يسمع من عثمان بن أبي العاص. [عون المعبود ٣/١٢٦].

(٢) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الرحمٰن. صحابي جليل. إمام الفقهاء وأعلم الأمة بالحلال والحرام، ولد عام ٢٠ قبل الهجرة. أسلم وعمره ثماني عشرة سنة، شهد بيعة العقبة، ثم شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. جمع القرآن علىٰ عهد الرسول ﷺ، وكان من الذين يفتون في ذٰلك =

اليمن، وبذٰلك علّم كيف يكون الانتقال من قضية إلىٰ أخرىٰ.

● التدرج في التعليم بداهة لأني لا أعرض الصلاة علىٰ من لم يؤمن بالله سبحانه وتعالىٰ، فإذا آمن بالله، بدأت بما يلي الإيمان وهو أول العبادات... ثم أجيء بعد ذٰلك بالزكاة، فأرىٰ أن هٰذا ترتيباً في تقديم الأدوية، لٰكن لا بد منها جملة.

□□ أي أن ما يلمح من قصة بعث معاذ هو تدرج تربوي وتعليمي مع أهمية الاحتفاظ بالقضايا الجوهرية؟

● هو يشبه التدرج في قصة إبراهيم عندما أراد أن يعلم عبدة الكواكب أن الله واحد، فتدرج معهم في أن تمثل الألوهية في النجم، ثم أبطلها، وتمثلها في القمر ثم أبطلها، وتمثلها في الشمس ثم أبطلها، ثم انتهىٰ إلىٰ أن خالق هٰؤلاء جميعاً هو الله سبحانه وتعالىٰ، هٰذا نوع من التعليم بطريق التدرج.

والقرآن نفسه، يُلمح فيه هٰذا التدرج التربوي والتعليمي، فقد كان لا بد أن ينزل القرآن مدرجاً، فالتدريج كان لا بد منه لتربية الناس.

□□ لأن الأمة تخضع للسنن الطبيعية في صياغتها وبنائها، والتدرج من الأمور الطبيعية، لذٰلك لا يمكن أن نخضع لسنن خارقة لأن ذٰلك يحتاج إلىٰ نبوة وإعجاز.

● هٰذا صحيح، وأنا كنت أتصور أن العرب ناسٌ فيهم سذاجة، أو أنهم بدو معرفتهم بالحياة محدودة، وأن الحروب قلّما تكون بينهم، لٰكن تبين لي بعد ذٰلك، أن أشنع الجرائم كانت موجودة في قلب الصحراء، وفي المدن البدائية، فالشذوذ الجنسي موجود الآن مع الحضارة الغربية المتقدمة جداً،

= العهد. بعثه النبي ﷺ بعد غزوة تبوك قاضياً ومرشداً لأهل اليمن. قدم من اليمن إلىٰ المدينة في خلافة أبي بكر ثم كان مع أبي عبيدة بن الجراح في غزو الشام، ولما أصيب أبو عبيدة في طاعون عمواس استخلف معاذاً وأقره عمر، فمات في ذٰلك العام، ١٨هـ.

لٰكن كان موجوداً بطريقة غير عادية في ديار لوط، في قرىٰ المؤتفكة، وهي قرىٰ في صحراء الأردن.

بخس المكاييل والموازين وحرص الإنسان علىٰ جشعه وأنانيته، كان موجوداً أيضاً في قوم شعيب، الكبرياء إلىٰ حد الجبروت الذي نأخذه الآن علىٰ قادة الحضارة الغربية، وهي حضارة لم تر حرجاً في أن تهلك نحو مليون شخص في اليابان بالقنبلة الذرية في حرب إبادة لا تخضع لأي مقياس خلقي، من أجل الانتصار، إنها أخذت الأخضر واليابس، والطفل والمرأة والرجل، هٰذا الكبرياء وهٰؤلاء الجبابرة وجدت نماذج لهم أيضاً في قوم عاد وقوم ثمود.

فيبدو أن الطبيعة البشرية هي الطبيعة البشرية، مهما اختلفت الوسائل في التنفيس عن الغرائز، وما أراه من ضراوة الشهوات اليوم، كان موجوداً بين بعض القبائل العربية.

لٰكن، المهم هو: أنه خلال ربع قرن أمكن علاج النفس البشرية كلها من الأمراض، لأن الأمراض هنا تشكِّل نماذج من الأمراض في القارات كلها، والخالدة في النفس البشرية علىٰ الزمن كله.

سنّة الأجل:

□□ سنّة الأجل قد تكون قريبة من سنّة التدرج، فلكل شيء أجل معلوم، ولا يمكن استعجال الأمور واختصارها قبل الأوان: يقول تعالىٰ:

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [يونس: ٤٩].

و﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

والأمور مرهونة بأوقاتها، وعلماء الاجتماع اليوم يقدرون عمر الجيل الذي يكون محلاًّ للتغيير بسنوات محددة، ولعلها من ٢٥ إلىٰ ٣٥ سنة. ولقد نظرت في الزمن الذي استغرقه نزول الإسلام من قوله تعالىٰ:

﴿اقْرَأْ﴾ [العلق: ١].

إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا

تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] فوجدتها ٢٣ سنة، هي عمر الدعوة التي أحدثت التغيير، ووضعت أساساً للإنسانية، ومع ذٰلك، يغفل بعض الدعاة اليوم عن سنة الأجل، ويغلب عليهم استعجال النتائج دون وضع المقدمات، وكأنهم يتعاملون مع سنّة خارقة!

● الله سبحانه وتعالىٰ، مع أنه يملك كل شيء، لٰكنه قال:

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر].

لماذا القدر المعلوم؟ لمصلحة الناس، تمشياً مع حكمة أن العطاء يكون علىٰ قدر ما يحتاج إليه الإنسان.. ودائماً، لا بد من التقدير، فالماء إذا كثر في الزراعة أماتها، وإذا كثر حول الناس، أغرقهم.. لٰكن، لا بد من الماء، ولا بد أن آخذ منه بالقدر الذي أحتاج.

□□ كأني أقصد بالأجل: العمر الذي يقتضي شروطاً معينة لنمو الفكرة التي تمهد للتغيير والوصول إلي النتائج المطلوبة؟

● ليس الفكرة فقط، وإنما شروط معينة لنفس البشر، ونفس النبات، لأن الله قادرٌ علىٰ أن يخلق الجنين بدل تسعة أشهر في تسعة أيام، في يوم، في لحظة، وقادر علىٰ أن يجعل الحبوب أو «حب الحصيد» كما ذكر، بدل أن يحتاج إلىٰ خمسة أو ستة شهور، كما في القمح، وشهرين أو ثلاثة في الذرة، كان من الممكن أن يقع هٰذا فجأة ودفعة واحدة.. لٰكنه، سبحانه، كما خلق الكون علىٰ عدة أيام، جعل التدرج هنا في أزمنة.. ولأمر ما كان الأستاذ حسن البنا رَحِمَهُ اللَّهُ يقول لنا: الزمن جزء من العلاج، والزمن هو في الحقيقة بُعدٌ رابع من الطول والعرض والعمق. ولا بد منه لاستكمال الصورة، ولقد رأيت الأستاذ ألكسيس كاريل، في كتابه «الإنسان ذٰلك المجهول» ـ وهو طبيب ـ يعتمد علىٰ نظرية أينشتاين[١] في علاجاته وفي وصفه لوظائف جسم الإنسان، كأن الزمن حقيقة حسية مع الطول والعرض والعمق.

□□ يلمح الإنسان من الآيات التي تحدد لكل شيء أجلاً معلوماً، أن

---

(١) انظر الصفحة ٢٣٣ الهامش رقم (٢).

الآجال أمر آخر غير الأقدار، فالأقدار قد تكون أقرب إلىٰ النوع والصفة، والآجال قد تكون أقرب إلىٰ الشروط والعمر الزمني المطلوب لإنضاج الفكرة بعد مراحل تربوية متتابعة.

كما يمكن أن نلمح أيضاً من سنة الأجل: ضرورة وضع الوقت المحدد كعنصر وقيمة لا بد منه في العمل حتىٰ لا تبقىٰ الخطة المأمولة سائبة وحتىٰ لا يكون المسلم خارجاً من إطار الزمن كما هو الحال.

● الزمان والمكان، كلاهما، موضع دراسة لعلماء الطبيعة، وهم حائرون في تحديد المكان والزمان. وهٰذا ما يجعلني سلفياً في أمر العقائد. لأننا إذا كنا حائرين في معرفة المادة، فكيف بما وراء المادة؟

عيوننا خلقت لترىٰ علىٰ مسافة معينة وعلىٰ جحم معين، فإذا نقص الحجم كثيراً، انعدمت الرؤية، وإذا زادت المسافة كثيراً عزَّت الرؤية، فيبدو أيضاً أن بصيرتنا العقلية علىٰ هٰذا النحو، لها طاقة معينة تستطيع أن تدرك بها الأمور، وبعد هٰذا تتلاشىٰ، ولا تستطيع أن تدرك شيئاً.

سنة التداول الحضاري:

□□ بعد أن قصَّ الله سبحانه وتعالىٰ قصة غزوة أحد، وما خضع له المسلمون من سنّة كان تجاهلها سبباً في سقوطهم أو في هزيمتهم قال:

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

عقب الله علىٰ ذٰلك بما يسمىٰ بـ«سنة التداول الحضاري»:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران].

وقد عبَّر بعض علماء الحضارة عن هٰذه السنّة بالدورات الحضارية، ووضعوا لذٰلك سمات وقوانين حاولوا تطبيقها علىٰ الحضارات الإنسانية في التاريخ، وقد صحَّ شيء من ذٰلك علىٰ الحضارة الإسلامية، وعزَّ شيء آخر عن الخضوع لحساباتهم في سنَّة التداول الحضاري أو الدورات الحضارية، لأن الأمة المسلمة لم تمت، والحضارة الإسلامية تجددت وتتجدد دائماً.

● عندما أنظر إلىٰ تواريخ العالم في الشرق والغرب، أجد أن الإمبراطوريات والدول كأنها تشبه البشر، لأنّ لها أعماراً تنتهي إليها، صحيح أن الحضارة ظهرت في الشرق الأوسط، ويبدو أن هٰذا هو السر في أن أغلب النبوات كانت في الشرق الأوسط لأن ازدهار الملكات الإنسانية كانت في حضارة مصر والشام والعراق وجنوب أوروبا في اليونان وإيطاليا، أي حوض البحر المتوسط تقريباً، وصحيح أن هناك حضارات كانت في الهند والصين، لٰكن لا أدري لأن هٰذه الحضارات التي كانت في أطراف العالم، كأنها كانت محلية، أو ما رأيت أنها بلغت في النمو العقلي ما بلغته حضارة الشرق الأوسط، هٰذا كله نوع من الحدس.

لٰكن الذي ظهر لي هو أن الحضارة أشرقت من مصر ثم انطفأت، وأشرقت من اليونان ثم انطفأت، وأشرقت من الرومان ثم انطفأت، وأشرقت من بلاد العرب بالإسلام ثم خبت، وبعد هٰذا يوجد الآن تحول حضاري يقولون إنه سيجعل الحضارة تشرق من جنوبي آسيا وشرقيها: اليابان والبلاد التي تقترب منها.

ويخيل إليَّ أن الذين يرون هٰذا، يؤمنون بالحضارة المادية فقط، لأن التقدم المادي الآن في اليابان، وتايوان، وكوريا، وغيرها من بلاد جنوب شرقي آسيا يكاد يضارع أوروبا وأمريكا، وينافسها في أسواقها الداخلية، لٰكن أعتقد أن العالم، قد تكون له عند الله مكانة تجعله سبحانه وتعالىٰ لا يربط كرامة البشر بأسواق السلع البراقة التي جاءت بها الحضارة الحديثة.

أنا أتصور أن هناك حضارة دينية، يكون الإسلام لبابها هي التي ترث العالم. وفي ظني أن هٰذه الحضارة الإسلامية ستعم العالم قبل أن ينقضي تاريخ الدنيا، ولي هنا في القرآن شاهدان: الشاهد الأول قوله تعالىٰ في سورة الروم:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم].

فكأن هٰذا الكتاب سيبقىٰ إلىٰ يوم البعث، ومعنىٰ بقاء الكتاب، بقاء رسالته وحضارته.

الشاهد الثاني من سورة آل عمران في قوله تعالىٰ:

﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥].

والذين اتبعوا عيسىٰ خصوصاً عندما يظهر بينهم هم المسلمون، أما المسيحيون الذي ألّهوا عيسىٰ فهم خصوم له وليسوا أتباعه، والدليل علىٰ هٰذا من القرآن نفسه، ومن سياق الكلام:

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١) ۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢)﴾ [آل عمران].

فالمسلمون هنا هم الذين يتبعون عيسىٰ عندما ينزل لتكذيب من ألّهوه، وهم الأتباع الحقيقيون له، وسيبقون إلىٰ يوم القيامة.

ورشح هٰذا المعنىٰ أيضاً ما رواه الإمام أحمد بن حنبل في «مسنده» **«والله ليبلغن هٰذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولن يبقىٰ أهل مدر ولا وبر إلا دخلوا في الإسلام، بعز عزيز، أو بذل ذليل»**[(١)].

فالتنقل الحضاري، أو التداول الحضاري، سنّة، لٰكن، هل يقع أن الأوروبيين يدخلون الإسلام ويحملون هٰذه الحضارة؟ ربما، هل يقع أن المسلمين يثوبون إلىٰ رشدهم ويتوبون إلىٰ الله ويقيمون هٰذه الحضارة؟ ربما، لا أدري بدقة ما الذي يقع، لٰكن أحياناً، أنظر إلىٰ أحاديث جاءت مفردة وغريبة في بابها، وتؤيدها دراسات بعض العلماء اليوم، فهناك عدد من العلماء يقول: سيحصل تغير كوني، وأن بلاداً خصبة ستجف، وأن بلاداً صحراوية ستعود مروجاً وأنهاراً، فهل هي بلاد العرب التي قيل إنها كانت أيام عاد وثمود مليئة بالخير.

وسمعت أن نجداً كانت مليئة بالزروع والثمار وأنواع الإنتاج الحيواني ـ

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في «مسنده» ـ عن المقداد بن الأسود ﷺ ـ بلفظ: **«لا يبقىٰ علىٰ ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز، أو بذل ذليل، إما يعزهم الله ـ عز وجل ـ فيجعلهم من أهلها، أو يذلهم فيدينون بها»**.

خف هٰذا مع ظهور البترول؟ لا أدري: لم؟ علىٰ كل حال قد تقع سنة التداول، لٰكن لا ندري بالضبط: أين ستنتقل بمنارة الحضارة العالمية ليكون شعب ما هو الشعب الرائد تتبعه بقية الشعوب، وتلك سنَّة الله في الكون.

□□ الناس الذين يعتنون بالجانب المادي، تكلموا عن الدورات الحضارية: ظهور الحضارة ثم ذبولها وانقضائها، ولو استقرأ الإنسان تاريخ الحضارات، لا يجد أن ما سمي بالدورات الحضارية ينطبق علىٰ حال الأمة الإسلامية، في سيادة الأمم وإبادتها، ترىٰ أن كثيراً من الحضارات في التاريخ، سادت ثم بادت وانتهت حتىٰ أصبح لا وجود لها، ولا قيمة عملية لها غير القيمة التاريخية فقط، بينما نجد عملية النهوض والسقوط بالنسبة للأمة الإسلامية ـ إذا استقرأنا التاريخ ـ لم تخضع تماماً في جوانب حياتها كلها لهٰذه السنّة من الدورات الحضارية.

خميرة النهوض موجودة في القرآن، وأسباب النهوض والسقوط في القرآن (السنن) هي أشبه ما تكون بمعادلات رياضية، وبمجرد أن أحسن المسلمون التعامل معها، أوجدوا حضارة، وعندما يتنكرون لها، يكون السقوط، لذا نرىٰ كل ما جاء علىٰ الحضارة من الفساد الداخلي والاستبداد السياسي، وما إلىٰ ذٰلك، ومن الموجات العارمة الخارجية المبيدة والسنين الطويلة التي عاشتها لإسقاط الحضارة الإسلامية، لٰكن مع ذٰلك استعصت الحضارة الإسلامية ولعل هٰذا يعطيها لوناً من الخصوصية بسبب الوحي، بسبب خلود القرآن ـ كما أسلفنا ـ وإن قابلية النهوض موجودة باستمرار، وإن عدم القضاء عليها دليل علىٰ عدم خضوعها للدورات الحضارية والمقاييس الحضارية الأخرىٰ بشكل صارم، ولعل ذٰلك لأن الأمة المسلمة هي الأمة الخاتمة التي ورثت النبوة، ولأن الإيمان الكامل هو خميرة النهوض وشرطه ولذٰلك قال تعالىٰ في أعقاب هزيمة أحد:

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران].

● هٰذا صحيح، وأنا أؤيد هٰذا، وهٰذه الأمة ـ كما قلت ـ تمرض ولا

تموت. والعلل التي تصيبها، يجيء أغلبها من اضطراب الحكم، فالعطب يكون دائماً في القشرة التي تغلف العود، وهي الحكم.

فساد الحكم، قشرة في النظام الإسلامي، لأن الإسلام ليس حزباً سياسياً، إنما هو مجموعة قيم وتعاليم، قد يكون الحكم حزاماً يشد التعاليم، لٰكن بقية التعاليم قائمة مع انقطاع الحزام، ويظهر هٰذا جلياً مع سقوط بغداد، فإن التتار دخلوا في الإسلام، رغم محاولات أوروبا العصيبة والشديدة في أن تجر التتار إليها، وأن تجعل منهم حرباً صليبية، بل كانت هي فعلاً كذٰلك، وتدرس في تاريخ أوروبا علىٰ أنها حملة تتارية صليبية معاً. إلّا أن الأندلس حقيقة، تعرضت لحملة إبادة تُشبه القنبلة الذرية، لأن الحقد الصليبي تجمع كله فيما يسمىٰ بمحاكم التفتيش فكانت التصفية الجسدية بتعبير العصر، هي الأساس في محو الإسلام من أسبانيا، وكان ينبغي علىٰ المسلمين أن يأخذوا من هٰذا عبرة، والأمر نفسه حدث في يوغوسلافيا.

□□ لا شك أن إثارة النزوع القومي وإيقاظ النعرات العرقية والقوميات التعصبية، هي محاولة لإلغاء الحس الإسلامي.

● هٰذا حق ويجب الالتفات له.

سنّة المدافعة:

□□ سنَّة المدافعة مأخوذة من قوله تعالىٰ:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

هٰذه السنَّة الاجتماعية التي تحكم التجمعات البشرية، يلمح الإنسان أثرها الفاعل في كل زمان ومكان حيث يسلط الله الظالمين بعضهم علىٰ بعض، وتكون بذٰلك فرصة لنجاة المستضعفين ونمو الخير، وحماية أهله، ولعل هٰذا الذي حمل بعض المفسرين إلىٰ القول: بأنه في غياب العدل والحكم الإسلامي لا يمكن أن يسلط الله علىٰ البشرية ظالماً واحداً يتحكم بها بل يوجد دائماً أكثر من ظالم، ومن خلال مواجهتهم وصراعهم تتحقق فرص

النهوض والبناء الحضاري، فإذا أحسن المسلم اليوم التعامل مع سنن المدافعة، يمكن أن يحقق كسباً وإنجازاً هاماً للقضية الإسلامية، علىٰ الرغم من الضعف والتبعثر، والحكمة هنا في التحرك هي: حسن اختيار الموقع الفاعل.

فكيف يمكن أن يستفيد المسلمون من سنَّة المدافعة حتىٰ تستمر حياتهم حينما لا تكون الغلبة لهم، ولا تكون الحضارة لهم، في مثل حالنا اليوم؟ وهل من شواهد قرآنية موضحة؟

● حينما أتأمل في قوله تعالىٰ:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

أشعر بأمرين:

الأمر الأول: أن الاختبار الإلـٰهي ليست له صورة محددة، فصوره كثيرة متعددة، وعلىٰ الإنسان أن يكون علىٰ استعداد دائم لكي يتحمل تبعات الدفاع عن معتقده وعن سيرته ومسلكه وقيمه، لـٰكن، كيف سيكون لون هـٰذا الاختبار؟ لا ندري.

الأمر الثاني: أن هـٰذا التدافع هو طبيعة الحياة الفردية والاجتماعية، بمعنىٰ أنه في داخل الجسم البشري، تفرض المناعة نفسها عندما تدخل جراثيم غازية، ويبدأ القتال حتىٰ يبقىٰ الجسم حيّاً.

الحياة الإنسانية، لا بد فيها من هـٰذا التدافع، هـٰذا اللون من التدافع، ربما تنشط أجهزة الإيمان، وتتحرك فيه قواه الداخلية إذا كانت فاترة عندما يشعر بالتحدي ويكون هـٰذا سبباً في إمداده بحياة جديدة، وهنا، سنن الله الكونية التي يجب أن يخضع لها المؤمنون والكافرون: أن الحياة، فيها هـٰذا التصادم المستمر بين قوًى ومبادئ مختلفة، وهـٰكذا الحياة، يحاول الكفر أن يفرض نفسه، فتنشط قوَى الإيمان لكي تبقىٰ، فيبقىٰ الإيمان بعد أن نمت قواه بضغط الكافرين عليه.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

هـٰذا التدافع الحضاري، جزء من الاختبار الإلـٰهي، وجزء من تمكين الخير من أن تزداد صلابته في مواجهة الشر.

□□ بعض علماء الحضارة، مثل توينبيّ[١] وغيره، يعتبرون التحدي والاستفزاز هو سبب هام في الاستجابة والنهوض الحضاري، وهو الذي يقضي علىٰ العناصر الشائخة ويستفز الأمة لتنهض، وتواجه ظروفها، وعدوها، وأن فترات التحدي هي فترات خير للأمة لأنها تعيد إليها شبابها ونهوضها وما إلىٰ ذٰلك.

هـٰذه القضية، لا شك أنها تقع ضمن مساحة ما أسميناه: سنة التدافع، لـٰكن هناك هامش آخر في سنّة التدافع، أرىٰ بأنه ـ أحياناً ـ في حالة ضعف المسلمين وعدم قدرتهم علىٰ المواجهة الكاملة ـ تكون هناك قوًى عالمية متناقضة تحمل العداوة للمسلمين، لـٰكنها في الوقت نفسه تحمل من التناقض فيما بينها ما يحملها علىٰ الاقتتال والمواجهة، فإذا أحسن المسلمون التحرك الحكيم من خلال الظروف المتاحة مستثمرين التناقض القائم، يمكن أن نقول: بأنهم أفادوا من سنة المدافعة التي وردت في القرآن وأدركوا أبعادها، فنعيم بن مسعود[٢] مثلاً، أحسن التحرك بين بني قريظة وقريش، في غزوة الخندق، علىٰ الرغم من حصار المسلمين وضعفهم المادي.

الكتل الدولية، في كل فترة من الفترات، لو استقرأنا ذٰلك، نلمح بأن الله سبحانه وتعالىٰ لم يسلط علىٰ البشرية ظالماً واحداً إلّا كان هناك ظالم يواجهه ويدافعه، فمن خلال الخصومات العالمية، والظلم العالمي، والمواجهات العالمية، يمكن أن تُفسح فُرج إذا أحسنا التعامل بما أسميناه: سنَّة المدافعة.

● هـٰذا معنًى جديد، ومعنًى صحيح ويستطيع الإسلاميون في هـٰذا

---

(١) توينبي، أرنولد Toynbee, Arnold مؤرخ بريطاني، ولد عام ١٨٨٩م، له نظرية في تفسير التاريخ علىٰ أساس من التحدي والاستجابة، وقد توفي عام ١٩٧٥م.

(٢) هو نعيم بن مسعود بن عامر، يكنىٰ أبا سلمة الأشجعي، أسلم ليالي الخندق، وهو الذي أوقع الخلف بين الحيين؛ قريظة وغطفان، في وقعة الخندق، فخالف بعضهم بعضاً، ورحلوا عن المدينة. وقد قتل ﷺ في أول خلافة علي كرَّم الله وجهه قبل قدومه البصرة في وقعة الجمل، وقيل: مات في خلافة عثمان ﷺ. والله أعلم.

العصر أن يستغلوا ما بين الجبهات المتصارعة في العالم من فروق ومن نقائض اجتماعية وسياسية لكي يظفروا بحق الحياة أولاً، ولكي يعرضوا أيضاً ما عندهم، ويُعرف ما فيه من خير، وأخيراً، لكي يستطيعوا أن يستردوا ما فقدوا من مساحة مكانية في الاستعمار، وما أصابهم من نكبات اجتماعية وسياسية كثيرة في الهزائم التي لحقت بهم، ويستعيدوا ما فاتهم، ممكن من خلال هٰذا كله، لٰكن، هٰذا يحتاج فعلاً إلىٰ أن الذي يُحسن الاستغلال، يجمع بين أمرين، بين الإخلاص العميق للعقيدة والمبدأ، والذكاء العميق أيضاً الذي يستطيع به أن يفتق الحيل حتىٰ يصل إلىٰ ما يريد.

□□ وإلّا في عصر الأذكياء، لا يستطيع التعامل مع سنّة المدافعة أصلاً، وإذا لم يكن علىٰ هٰذا القدر من الذكاء.

● هٰذا صحيح، وأخشىٰ أن أقول: إن غيرنا طبق هٰذا. ولعل اليهود استطاعوا أن يستفيدوا من سنَّة المدافعة أكثر منا، نحن الآن في حاجة ماسة لسنة المدافعة، وليس أمامنا في هٰذه الظروف إلا الأخذ بسنن المدافعة، فكيف تحتال لتشق بين الأقوياء طريقاً لك؟

□□ يلمح الإنسان أحياناً ـ كأنموذج تطبيقي معاصر لسنة المدافعة ـ أن أقلية أو نائباً في برلمان واحد مؤلف من كتلتين، قد يرجح الكفة إذا انضم لأحدهما، ويجعلها تفوز بتشكيل الوزارة، وكأنه هو المتحكم بالتوجه السياسي، بينما هو فرد واحد، لٰكنه استطاع أن يستفيد من سنن المدافعة، ويفعل ما لا يفعله حزب كبير.

● الحزب الديمقراطي «المسيحي» في إيطاليا، لم يحكم إلا فترات قليلة، علىٰ الرغم من الأكثرية، وكان يكسب الحكم حزب صغير، فيه رجل ذكي، كان رئيساً للوزراء قبل سنتين، استطاع أن يؤلف من مجموعة الأحزاب ما وقف به أمام الأكثرية الديمقراطية المسيحية عدة سنين.

سنة التسخير:

□□ السنن الموجودة في القرآن، هي ـ كما أسلفنا ـ أقرب للمعادلات

الرياضية: مقدمات ونتائج، وهي تؤكد نظرية السببية في نهاية المطاف، أي: ربط حصول المسببات بتعاطي الأسباب، ولعل من سنن الله في الكون، أيضاً ما يمكن أن نطلق عليه: سنَّة التسخير، وسنن التغيير في الأنفس.

● تقسيم الناس طبقات، من السنن التسخيرية، فهناك مهندس، وهناك عامل، ولا بد أن يُسخر المهندسُ العامِل، لأن المهندس كأنه يمثل الدماغ، والعامل كأنه الساعد في يده، القيادة والجند، القائد يبقىٰ في مكان يصدر منه الأوامر ولا يتلقىٰ الضربات وإنما يتلقاها الجند، والمعارك لا تدور إلا بهـٰذا، واحد يصدر الأوامر، والثاني ينفذ، هـٰذه سنن تسخيرية، وهي لا تدل علىٰ رضًى وسخط من الله بقدر ما تدل علىٰ أن الله خلق الناس هـٰكذا، والمواهب متفاوتة.

□□ مستحيل أن تقوم شبكة العلاقات الاجتماعية بدون هـٰذا التفاوت، وهـٰذه الفوارق الفردية.

● هـٰذا صحيح، وهـٰذا ما جاء في قوله سبحانه وتعالىٰ:

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف].

فهـٰذا تسخير، وهو سنة كونية، ولا أدري ما دخلنا نحن فيها؟

□□ أردت جانباً آخر من التسخير: إن الله سبحانه وتعالىٰ حينما سخر لنا البحر والأرض والشمس، لفت نظرنا إلىٰ أهمية اكتشاف قوانين التسخير الكونية، ولست أقصد الاجتماعية بين الناس، فمعرفتنا لهـٰذه القوانين التي تنتظمها، هي التي تمكننا من القدرة علىٰ تسخيرها، أي أن التقدم العلمي لا يمكن أن يتحقق إلا بفهم قوانين التسخير، الله لفت نظرنا إلىٰ قوانين التسخير.

● هـٰذا تعبير جديد لحقيقة أخرىٰ:

﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٩].

فنحن مكلفون بأن نرتفق ما سخره الله لنا.

□□ الأوروبيون، الآن، اكتشفوا قوانين التسخير، فأحسنوا تسخير الأرض والبحر، إلخ.

● هم طوّعوا الأدوات التي أتاحها العلم لهم في خدمة قضاياهم، وخدمة مبادئهم.

□□ ألا نستطيع أن نقول: بأن هٰذه القضايا لها قانون؟ المادة لها قانون، والتعامل معها لا يمكن أن يتم ما لم يتعرف الإنسان علىٰ هٰذا القانون، وأن القرآن عندما جعل هٰذه الأمور الكونية.

﴿مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فكيف نحقق التسخير والعمارة ما لم نكتشف السنن التي تحكمها؟

● ممكن، لٰكن الخلاف الذي بيني وبينك هنا، هو في أن «قانون التسخير» عنوان جديد، لٰكن المعنىٰ كنا ذكرناه في أن الإنسان خليفة الله في أرضه، ولا بد أن يستولي علىٰ كل شيء مسخر لخدمته.

□□ هٰذا لابد منه لتحقيق عمارة الأرض واستخلاف الإنسان وغير ذٰلك، لٰكن تسميتي لهٰذا القانون: بقانون التسخير، كانت حتىٰ يلتفت المسلمون لما ورد في القرآن من قوانين لإدراك كنه هٰذه القوانين.

● لا بأس، ملحظ يجعل المسلمين، وهم الآن مسخرون في الأرض، أن يعلموا أن الله سخر لهم الشمس والقمر، فلا يجوز أن يكونوا آلات بالطريقة التي يعيشون بها.

□□ هناك قضية لم تحظ بالدراسات المتوازنة في نظري، وهي العلاقة بين البعد الإيماني، والسنن التي تحكم عالم الشهادة، ودور البعد الإيماني في الهداية إلىٰ هٰذه السنن، والتفاعل الذي يحدثه الإيمان بين هداية السماء واستجابة الأرض لتحقيق الشهود الحضاري، وربط نتائج ذٰلك بقضية الإيمان، إن اكتشاف انتظام هٰذه القوانين، وعملها، يقود إلىٰ الإيمان بالله، والاستدلال بالأمور المادية والسنن الكونية علىٰ الأمور النفسية والإيمانية.

ودور الإيمان في التنبه لهٰذه السنن، وإعمالها، وما يهب الإيمان والتقوىٰ الفرد المسلم من استعدادات تدفعه إلىٰ الإنجاز، ولا تقعد به عاطلاً عن التعامل مع هٰذه السنن.

أقصد أن العلاقة بين البعد الإيماني والإنجاز الحضاري، تحتاج إلىٰ مزيد من النظر والتأمل، لذٰلك رأينا بعض المدارس الحديثة التي تتعامل مع المادة فقط، تقرر: أنه لا بد من إعادة صياغة المعادلة النفسية والاجتماعية للأمة، حتىٰ تصبح قابلة للتطور والإنجاز التكنلوجي، لأن التكنولوجيا تأتي ثمرة لفلسفة، وعقيدة، ومعادلة نفسية معينة، وبالتالي فلا يمكن أن تتطور في مجتمع عقيدتُه تغاير أو تختلف عن مجتمع نشوئها.

لقد ربط القرآن كثيراً من النتائج المتحصلة من إعمال هٰذه السنن بالتقوىٰ، فمثلاً: ربط بين التقوىٰ وما تؤدي إليه من بصيرة في النظر للأمور، والحكم عليها بالحق والباطل، والصواب والخطأ، يقول تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

وهناك ارتباط بين الإيمان والتقوىٰ وبين اكتشاف سنن التسخير وزيادة الرزق:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وهناك ربط بين الإيمان والصبر الإيجابي وبين تجاوز المحن:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة].

وربط أيضاً بين الاستغفار والتوبة وبين نزول المطر وتحقيق الخير:

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح].

وهناك ربط بين الانتصار في ميدان المبادئ، والانتصار علىٰ الشهوات وبين الانتصار علىٰ العدو:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد].

وهناك أيضاً الربط بين الظلم الاجتماعي ومنع الفقراء حقوقهم، وبين فقدان الثروة ودمارها:

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [القلم].

وأيضاً، الربط بين الفسق والترف وبين الهلاك:

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء].

نصيب الفرد من الخطاب القرآني:

□□ لا شك أن الخطاب القرآني، للناس بشكل عام، وللمسلم بشكل خاص، يحمل أبعاداً متعددة من التكليف، والتكليف، ابتداءً، إنما يكون بقدر الوسع، فهل نستطيع القول: بأن نصيب الفرد من الخطاب القرآني، يمكن أن يتحدد علىٰ ضوء إمكاناته ووسعه؟ نأتي بمثال لذٰلك: يقول تعالىٰ:

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨].

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢].

فهل يملك الفرد المسلم ـ وهو يحقق الاستجابة للخطاب القرآني ـ القيام بممارسة عمل القاضي والسلطة في قطع يد السارق، ورجم الزاني، وما إلىٰ ذٰلك؟ أم أن الخطاب هنا للسلطان ابتداءً، وأن الفرد معفي من ذٰلك بشكل مطلق؟ أم أن للفرد نصيباً من الخطاب القرآني، وهو العمل علىٰ إيجاد السلطان المسلم، لإنفاذ الأحكام، وبذٰلك لا نخرج الفرد من نطاق الخطاب القرآني؟

كثيرون يخلطون في هٰذه القضية، ويستشهدون لذٰلك بآيات قد لا يكون الاستشهاد بها في محله؛ فقد يكون من المفيد بيان ذٰلك، وكيفية التعامل مع هٰذه النصوص؟ فلقد وصل الأمر ببعضهم إلىٰ القول: بأنه يحق للفرد إنفاذ الأحكام علىٰ الناس عند غياب السلطة المُخاطبة بالموضوع!

● **الذي أعرفه في الفقه الإسلامي، وفي الأحاديث التي وصلت إلىٰ علمي: أن الحدود والقصاص وظيفة الدولة، ويستحيل أن يقوم إنسان بإنفاذ**

الحدود، وإنفاذ القصاص، وهو من عامة الشعب، هٰذه وظيفة الدولة، وليست وظيفة الأفراد، بل، في رأيي، أن تغيير المنكر، وهو مطلوب من الأمة، لا يعطي هٰذا الحق كل إنسان! لأن تعريف المنكر نفسه، يختلف فيه الغوغاء مع الفقهاء.

فقد يرىٰ بعض الناس أن تصوير شخص في ورقة، معصيةٌ، وكبيرة من الكبائر، وأن امرأة كشفت وجهها، جريمة.

لا بد من وضع حدود ليعلم كل إنسان الدائرة التي يمكن أن يؤدي فيها واجبه الديني.

وباستقراء أحوال الحكومات كلها، منذ بدء العالم إلىٰ الآن، وباستقراء أحوال الفقه الإسلامي وأحكامه، ما وجدت أحداً قال: إن القصاص أو الحدود يقوم بها الشعب. بل الذي جاء في السنن: أن من ارتكب جريمة كالزنا، ولم تنكشف، فإن له أن يتوب منها، وليس له أن يكشف عن نفسه، بل يحترم ستر الله الذي أسدل عليه ويتوب إلىٰ الله، وليس لأحد أن يبحث أو أن يجري وراء هٰذا أو ذاك ليتعرف إذا كان الناس ارتكبت جرائم أو لا، وحديث عبادة بن الصامت في هٰذا واضح: **«ومن أصاب شيئاً من ذٰلك فستره الله فأمره إلىٰ الله، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه»**[1]، وفي مسألة التوبة، أرىٰ أن كلام ابن تيمية في فتاواه أدق، وهو: قبول التوبة، والتوبة مسألة بين الإنسان وربه، دخول الغوغاء في هٰذا، مستحيل.

الجهاد وظيفة للأمة، والفرد ليس له إلا أن يقدم نفسه ليكون فرداً يتلقىٰ

---

(١) الحديث متفق عليه، رواه البخاري في «صحيحه» ـ عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ـ في كتاب الإيمان، باب: علامة الإيمان حب الأنصار. ورواه مسلم في «صحيحه»، في كتاب الحدود، باب: الحدود كفارات لأهلها، واللفظ لمسلم.

وعبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد: صحابي، من الموصوفين بالورع، شهد العقبة. وكان أحد النقباء، وبدراً وسائر المشاهد. ثم حضر فتح مصر. وهو أول من ولي القضاء بفلسطين. ومات بالرملة أو ببيت المقدس. روىٰ ١٨١ حديثاً اتفق البخاري ومسلم علىٰ ستة منها. وكان من سادات الصحابة. ولد عام ٣٨ قبل الهجرة (٥٨٦م) وتوفي عام ٣٤هـ (٦٥٤م).

الأوامر، أما عملية الجهاد، تمويلها، تقوم بها الأمة، صنع الأجهزة في البر والبحر والجو، تقوم به الدولة، وما يتصل بالجهاد كله، ليس قطاعاً خاصاً، هٰذا شيء يتصل بالدولة المسلمة.

□□ يمكن أن نوضح هٰذا، فنقول: هنالك بعض الأحكام موجهة للدولة، وهناك بعض الأحكام موجهة للفرد، وتقع في نطاقه، وهناك أحكام لا يمكن أن يتصور إنفاذها إلَّا عند وجود دولة، أي سلطة.

لٰكن، في حال غياب الدولة، تتعطل بعض الأحكام، ولا يحق للأفراد، بحال من الأحوال، أن يمارسوا سلطان الدولة.

● عندما يغيب سلطان الدولة لسقوط الدولة الإسلامية، فإنه من الممكن أن يتواصىٰ الناس بتكوين هيئة أو جهاز نائب مؤقت عن الدولة، ولا يُترك الحكم للأفراد.

□□ أردت هامشاً آخر: في الخطاب الموجه للسلطان، هل للفرد فيه نصيب؟ أنا أقول فيه نصيب ـ من وجهة نظري ـ ليس نصيباً تطبيقياً تنفيذياً، وقوله تعالىٰ:

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨].

أنا كفرد، مخاطب فيه أيضاً، لٰكن، ما هي حدود الخطاب بالنسبة لي؟ حدود الخطاب بالنسبة للحاكم هي إنفاذ الأحكام، لأن الأمر في وسعه، أما أنا، طالما ليس في وسعي إنفاذ الأحكام، فنصيبي من الخطاب أن أعمل، وأن أجتهد في إيجاد السلطة الغائبة، ومعاونة الحاكم المسلم إذا كان موجوداً ـ في إنفاذ الأحكام.

● هٰذا حق.

□□ إذا كان عندنا للقاضي شروطه وصفاته ـ كما هو معروف ـ وللقضية المقضي بها، وللشهود والبينات والقرائن مواصفات أيضاً، وهو باب طويل قد لا يصل إليه إلا نماذج معينة من الناس، فكيف يمكن أن نسلم مثل هٰذه

القضية لناس غير مؤهلين لها من الرِّعاع، فتنقلب الحياة الإسلامية إلىٰ لون من شريعة الغاب، والتناقضات، والاضطراب، والفوضىٰ، وما إلىٰ ذٰلك.

أنا أردت من كلمة «الخطاب القرآني للإنسان» أن لكل إنسان نصيبه من هٰذا الخطاب، الحاكم له نصيبه، والفرد له نصيبه كذٰلك.

● الشعب يعاون الحكومة في تطبيق الأحكام، أما العمل الذي تقوم به الدولة، فلا يترك للأفراد، ولا يُطلب منهم، فكيف أنظم الجهاد مثلاً؟ الجهاد لا بد له من أجهزة تشرف عليها الدولة، فمثلاً الأمر الإلٰهي: جاهدوا في سبيل الله، كيف يُنفّذ؟ لا يمكن للإنسان أن يخرج ويقاتل من نفسه، لا بد أن يسلم نفسه للدولة المسلمة، كذٰلك القضاء، الأمر يحتاج في تحقيق الجرائم وإثباتها ومعرفة الجدير بالعقاب أو من تاب الله عليه، كل ذٰلك يحتاج إلىٰ تخصصات وأجهزة تشرف عليها الدولة. فإذا سقطت الدول الإسلامية، فجهد الناس إقامة الدولة التي تقوم بوظيفتها، أي أن نصيبهم من الخطاب إقامة الدولة، وفي غياب الدولة، لا يمكن أن أعطي الأفراد حقوق الدولة.

هٰذا باب إذا فُتح، فُتحت معه أبواب الفوضىٰ كلها، وأبواب الهمجية، لأن كل إنسان سيدعي أنه يقيم حكم الله وهو لا يدري ما حكم الله، وتتعدد السلطة، إلخ، الحاكم يقول للزاني: «لعلك قبَّلت»، يريد إسقاط الحكم عنه، فإذا جاء من يريد إقامة الحكم بأي طريقة، فربما صادم التعاليم الإسلامية وأضاعها، ويوجد الآن ناس كثيرون لا يوثق بفقههم.

الإعجاز العلمي في القرآن:

□□ لقد شاع في الآونة الأخيرة مصطلح: «الإعجاز العلمي في القرآن» إلىٰ درجة إنشاء مؤسسات للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، حتىٰ وصل الأمر عند بعضهم إلىٰ محاولة تحميل الآيات ما لا تحتمل من النظريات والاكتشافات العلمية.

ومن الأمور المعروفة، أن العلم وصل إلىٰ آفاق وأبعاد متقدمة جداً جداً، وأن الإعجاز يعني استمرارية المعجزة وخلودها، لأن خلود المعجزة

ثمرة لخلود الإسلام، والقول بالإعجاز العلمي في القرآن، قول يحمل الكثير من المخاطر والمجازفات إذا نظرنا لبعض الإشارات العلمية التي وردت في القرآن بمقابل ما وصل إليه العلم الحديث.

فالكلام عن مراحل الخلق، وتطور الأجنة، وما إلىٰ ذٰلك مما أثبته العلم بعد آماد، لا شك أنه يدل دلالة واضحة علىٰ أن القرآن الذي أخبر بهٰذا ضمن الظروف العلمية السائدة، هو من عند الله، ولٰكن أن يصل الأمر إلىٰ تسميته إعجازاً، أظن أن ذٰلك يحمل كثيراً من المجازفة ـ كما أسلفنا ـ وقد يكون التعبير الأمثل عن ذٰلك أنه من دلائل النبوة.

ولا أشك أن القرآن، لفت نظر الإنسان إلىٰ الحقائق العلمية أيضاً، ووضع الإنسان في المناخ العلمي، حيث حثَّه علىٰ التأمل، والنظر، والاختبار، وملاحظة اضطرار القوانين والسنن، ليبتكر ويكتشف، ويخترع، ويسخِّر.

أما أن يسمىٰ ذٰلك إعجازاً علمياً بمعنىٰ استمرار الإعجاز وخلوده، فتلك قضية غير دقيقة وإن كان معجزاً في وقته، خاصة وأن محل القرآن هو الإنسان ابتداءً، والارتقاء به، ومجال الإنسان هو العلم، والكشف، والاختراع لأداء الاستخلاف الإنساني، وعمارة الأرض بالعلم.

● **يعجب الإنسان مما اكتُشِف أخيراً، فنحن في الطائرة مثلاً، نشعر وكأننا نمر بجبال، وقد نرىٰ صور السحب أمامنا وكأنها الجبال التي نراها من بعيد علىٰ ظهر الأرض علىٰ شكل سلاسل في الصحراء، وانفراد القرآن بهٰذا الوصف قبل أن يتمكن أحد من الصعود عشر كيلومترات في الجو، ويتعرف علىٰ ما فيه، لا شك هٰذا نوع من الإعجاز. قبل أن يكون هناك تصوير بالأشعة وقبل أن يكون هناك علم تشريح، أمكن معرفة أطوار التخلق البشري ونمو الجنين، والمراحل التي ذكرها القرآن وتفرد بها، ولم تعرف في كتاب لا ديني ولا مدني في الأيام السابقة، وجاء العلم فوثقها وكمَّلها، هٰذا، من دون شك يدل علىٰ الإعجاز.**

ما هو الإعجاز؟ الإعجاز هو أن يعجز الإنسان عن الإتيان بمثل هٰذا، هم عجزوا عن الإتيان بآيات تدانيه.

□□ الخلود يعني عجز البشر عن الوصول إلىٰ ما وصل إليه القرآن من الإشارة للحقائق والقوانين العلمية وما إلىٰ ذٰلك، إذا سلمنا بأن هناك شيئاً من الإعجاز العلمي، لٰكن، العلم الآن وقد وصل إلىٰ ما وصل إليه، أثبت ما وصل إليه، وأصبح ما أثبته القرآن غير معجز لعالم اليوم، لقد استطاع العلم كشف آفاق تجاوزت ما ورد من إشارات علمية في القرآن، لأن ما جاء به القرآن كان معجزاً في عصر معين، ولا يمكن أن نحكم بإعجازه إلا من خلال ذٰلك العصر، أما اليوم، فقد تجاوز العلم تلك الآفاق مما قد يدفعنا إلىٰ القول: بأن هٰذه الآيات ليست معجزة لعالم اليوم، وأنه كانت معجزة لعالم الأمس، والقرآن معجزة لها صفة الخلود، فلماذا لا نقول: إن هٰذا من دلائل النبوة؟

وقد يكون من المفيد، التفريق بين دلائل النبوة والإعجاز، الإعجاز هو: الأمر الذي لا يستطيع الناس الإتيان بمثله، فهو أمر خارق للعادة يعجز الناس عن الإتيان بمثله في كل العصور.

● كونهم الآن عرفوا تطور الأجنّة، ووصلوا إلىٰ ما هو أبعد من ذٰلك في هٰذا الأمر، وكون القرآن ذكر ذٰلك في فترة ماضية لم يكن العلم، ولم تكن الوسائل مؤهلة لإعطاء الإنسان هٰذه المعلومة؛ فذٰلك لا يعني إبطال الإعجاز.

الإعجاز، في أني استطعت بنظر غير طبيعي أن أعرف ما هنالك، فإذا كان الناس قد وصلوا من بعد إلىٰ هنالك، وعرفوا، بقي لي حق تاريخي.

□□ **خلود المعجزة، يعني: استمرارية العجز عن الإتيان بمثلها، فلو جاء في عصر من العصور، من استطاع أن يأتي، ولو جدلاً أو فرضاً، بمثل القرآن الكريم، أو بمثل آيات منه، لبطل خلود الإعجاز؟**

● **الخلود يعني الاستمرارية، والاستمرارية في أني، مثلاً، استطعت أن أصل بالطائرة ما بين فلسطين ومكة، في ربع ساعة مثلاً، هل هٰذا يعني أن الإسراء ليس معجزة؟**

□□ **لا، يعني: أن الإسراء معجزة مادية حدثت في زمن معين، لٰكن الإسراء، لم يُعتبر المعجزة الخالدة، المعجزة الخالدة هي القرآن.**

● معنىٰ إعجاز القرآن العلمي: أنه اكتشف كنه شيء ما كان الناس يستطيعون أبداً أن يعرفوه في حينه، كون، بعد قرون، عُرف أن ما اكتشفه القرآن، حق، فهٰذا دليل صدقه.

□□ أنا أقول بذٰلك. أقول: إنه دليل صدقه، ودليل نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام ودليل مصداقية القرآن، أما تسميته: «إعجازاً»، فهٰذا الذي أتوقف عنده، لأني أرىٰ ذٰلك يتعارض مع خلود المعجزة.

● القرآن هو المعجزة الخالدة، وإلىٰ الآن لم يستطع أحد أن يأتي بمثله، والخلاف بيني وبينك حول التسمية «بالإعجاز» خلاف لفظي، ليس له قيمة كبيرة، والقرآن ليس كتاب تاريخ، بمعنىٰ أنه لا يحدد مكان الميلاد ولا زمان المواليد بدقة، ولا يذكر تفاصيل الوقائع التي يعني التاريخ دائماً بذكرها، لٰكنه في نطاق ما يفيد العبرة، يذكر الوقائع في قصص الأولين، فلولا كتب التاريخ لما عرفت أن عاداً تقع في جنوب جزيرة العرب، إذ القرآن لم يذكر المكان والزمان التي وقعت فيه قصة قوم عاد، كل ما هناك خصال البشر التي يريد القرآن تهذيبها من غرور وكبرياء وتطاول علىٰ الآخرين وجبروت، إلخ هٰذا هو الذي يهم القرآن.

هناك بعض الناس يأتي إلىٰ الطب النبوي ويقول لك: «الطب النبوي»، وأنا لا أستطيع أن أقول أن هناك طباً نبوياً وطباً غير نبوي.

□□ بعض الناس يمكن أن يضع ذٰلك في طور الإعجاز أيضاً.

● الطب ـ كما يقول ابن خلدون أو غيره ـ من المسائل العادية، أو من الصناعات، والصناعة لا علاقة لها بالعبادة، وليس القرآن مصدراً لدارسة الطب، أو أنه كتاب طب، وأنكر «الشاطبي» في كتابه: «الموافقات»، الإعجاز العلمي، وتكلم في هٰذا، وقال عن الشريعة: إنها أميّة! ونقده الشيخ «ابن عاشور»[1] في

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور: رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس. مولده عام ١٢٩٦هـ (١٨٧٩م). عيّن عام (١٩٣٢م: شيخاً للإسلام مالكياً. وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، توفي عام ١٣٩٣هـ =

تفسيره، وقال: إن هٰذا الكلام مرفوض، الشريعة ليست أمّية، ولٰكنها إنسانية وراقية جداً.

يكفيني أنه منذ خمسة عشرة قرناً، أن القرآن تكلم عن أبعاد الكون، وقال عن النجوم:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [الواقعة].

فالمُنزل هنا، من غير شك، هو الذي تكلم هٰذا الكلام، الآن، أبعاد الكون، والأرقام الفكلية، تُعجز الخيال.

أنا اعتبرت أن كون عيسىٰ عليه السلام شفىٰ مريضاً، فذٰلك من الإعجاز، وكون هٰذا المريض يشفىٰ بالعلاج بأدوية الآن، فهٰذا لا يبطل إعجاز عيسىٰ عليه السلام.

□□ هٰذا صحيح، لٰكن، نحن نقول بأن المعجزة نوعان: معجزة مجردة، مستمرة ودائمة، وغير مرتبطة بأشخاص الأنبياء، خالدة مجردة عن حدود الزمان والمكان سيبقىٰ الناس عاجزين عن الإتيان بمثلها حتىٰ يوم القيامة، وهي القرآن، ومعجزة مجسدة مادية مرتبطة بأشخاص الأنبياء وجدت بوجودهم وانتهت بوفاتهم والرسول ﷺ له معجزات مادية مثل: الإسراء، نبع الماء، إلخ.

● ما في هٰذا شك، لٰكن قصة مثل هزيمة الرومان، وكانت هزيمة ساحقة، فهٰذا من غير شك تنبؤ يدل علىٰ شيء غير عادي، فالقرآن، دخل في مجازفة خطيرة، تقول الآية:

﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٣].

ويحدد:

﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٤].

= (١٩٧٣م). له مصنفات مطبوعة، من أشهرها: «مقاصد الشريعة الإسلامية» و«أصول النظام الاجتماعي في الإسلام» و«التحرير والتنوير» في تفسير القرآن وغيرها.

ثم يتم ما كان:

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾.

وقد جاءت القصة مع نصر الله للمؤمنين في بدر، وهٰذا كشف عن جانب غيبي هو من غير شك معجزة قرآنية، باقية لقيام الساعة، أن يحدِّث القرآن عن شيء أنه سيقع قبل أن يتبين أي شيء، فيقع، فتلك معجزة، وفي آية:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧].

إخبار عن شيء سيقع ووقع فعلاً.

ويمكن أن نجد في الأحاديث مثل ذٰلك: «**إذا هلك كسرىٰ فلا كسرىٰ بعده**»[١] وهٰذا وقع فعلاً. و«**ستفتحون مصر**»[٢] وهٰذا وقع أيضاً.

أما ما يسمىٰ بالإعجاز العددي، فهو ضرب من السخف يختلف من كاتب لآخر، أذكر أني قرأت كتاباً لأحد المؤلفين، سماه: «تسعة عشر» من قوله تعالىٰ:

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر].

وذكر المؤلف كلمات كثيرة قال: إنها قائمة علىٰ العدد تسعة عشر، وقال كلاماً كثيراً، من أين هٰذا؟ هٰذا نوع من السخف، ثم إن القول بأن ﴿**بسم الله الرحمٰن الرحيم**﴾ تتكون من تسعة عشر حرفاً، فهو كلام سخيف أيضاً، لأنه لكي نتحايل علىٰ هٰذا اعتبرنا الألف محذوفة وغير موجودة نهائياً، واعتبرنا الحرف المشدد حرفاً واحداً، وهٰذا كلام لا يقال، ففيه كثير من التعسف لقد ألف الرجل جملاً كثيرة وجملاً مضحكة، يتكون منها العدد تسعة عشر. ولا يدل هٰذا علىٰ شيء.

---

(١) الحديث متفق عليه، رواه البخاري في «صحيحه» - عن أبي هريرة رضي الله عنه - في كتاب الخُمس، باب: قول النبي ﷺ: «أحلت لكم الغنائم». ورواه مسلم في «صحيحه» - عن جابر بن سمرة رضي الله عنه - في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: لا تقوم الساعة حتىٰ يمر الرجل بقبر الرجل، فيتمنىٰ أن يكون مكان الميت، من البلاء.

(٢) الحديث رواه البخاري في «تاريخه» وقال: لا يصح. ولفظه: «**ستفتح مصر بعدي، فانتجعوا خيرها، ولا تتخذوها داراً، فإنه يساق إليها أقل الناس أعماراً**». كما أورده ابن الجوزي في «الموضوعات»، في باب ذم مصر ٢/٥٧.

□□ هناك جانب آخر من جوانب الإعجاز القرآني وهو: ذكر بعض الحقائق العلمية للفت نظر الإنسان، ودعوته إلىٰ الملاحظة، والتدبر والاختبار، ووضع الإنسان المسلم في مناخ علمي، ولم يقرر له علوماً معينة وإنما وضعه في مناخ علمي لينطلق في النظر إلىٰ الكون، ويستخدم حواسه.

● منابع الإيمان عندنا في ديننا، هي التأمل، وهـٰذا ما ذكره الدكتور راشد المبارك عندما قال: إن كلمة فكر ليس لها ورود في أكثر ما وصل إلينا من التراث الجاهلي، شعره ونثره، بينما امتلأ بها القرآن، بل إنه أكثر ما كلف الناس به:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ﴾ [سبأ: ٤٦].

القرآن، يجعل بناء الإيمان علىٰ دراسات كونية، ودراسة إيمانية نفسية، وهو يخالف بهـٰذا، الكتب السماوية السابقة التي يكاد يكون مصدر الإيمان فيها الرسول الذي جاء يحدث الناس عن الله، أما تكليف الناس بأن يرتبوا نتائج علىٰ مقدمات بفكرهم، هـٰذا هو الذي فرضه القرآن، ولذٰلك، مع التقدم العلمي الجديد الذي صدَّق وصف القرآن للكون، يجيء التلاقي بين العلم والإيمان.

وإذا كان هناك بعض الناس، يجعل الإيمان من أعمال الوجدان أو القلوب، إلا أن الإيمان هو أثر من آثار العلم ابتداءً، ولذٰلك قوله سبحانه وتعالىٰ:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ الْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِالْقِسْطِ ۚ﴾ [آل عمران: ١٨].

لا بد من عقل جبار قائم يكشف الحقائق، ويزيح عنها الستار، .ويتعرف علىٰ ما تلمسه الملائكة بحسها، ونعرفه نحن بعقولنا، العقل هنا أساس.

عظمة القرآن، من الناحية العلمية، أو ما نسميه الإعجاز العلمي، هي أن الكون هو الوعاء الذي يضم عناصر الإيمان الأساسية. بدأ قديماً الأمر بالنظر فيه، وتحول النظر فيه الآن إلىٰ عمل للناس، إن ما وضع الناس فيه أصابعهم واستيقنوا منه، كان القرآن يصوره قبل هـٰذا اليقين، كأنه فعلٌ ملموسٌ، وهـٰذه هي عظمة القرآن.

القرآن والكسب العلمي:

□□ المناخ الذي وضع القرآن الإنسان فيه، هو: النظر والكسب العلمي، وما إلىٰ ذٰلك مما يمكن أن تكون به عمارة الأرض، ويقوم الإنسان في ضوء ذٰلك، بأعباء الأمانة والاستخلاف.

ما هو - في رأيكم - السبب في تحول المسلمين عن المنبهات العلمية، والأوامر بالنظر التي وردت في القرآن الكريم، إلىٰ لون من التخلف، والجهل بقضايا القرآن والعدول، وعدم القدرة علىٰ العيش بمناخ القرآن، والاستجابة لدعوته، والتخلف في شعب المعرفة الكثيرة التي يمكن أن يُعتبر القرآن مصدراً لها؟

● هناك ثلاثة أسباب في نظري: لعل السبب الأول منها يرجع إلىٰ الطبيعة العربية، الطبيعة العربية طبيعة تهوىٰ صناعة الكلام، وكأن صناعة الكلام عند العرب هي الأساس في التقدم، وكما قال الدكتور راشد: الرياسة كلها، والعظمة كلها، في السيف والقلم، الآن أصبحت الزخارف الكلامية طبيعة عندنا، وأصبحنا نكتفي بزخارف الكلام وبيانه عن الحقيقة نفسها، فإلىٰ الآن، تجد أن مشروعاً يقام، فيكون أول ما يفكر فيه القائمون بأمر: كيف سيكتبون البيان الصحفي الذي يتحدث عن المشروع، وتجد أن البيان شيء، وحقيقة المشروع شيء آخر، فالاهتمام هنا بالبيان أكثر من المشروع نفسه، فهٰذه طبيعة رديئة في العرب.

□□ المشكلة أن مقتضيات الرياسة والشهود الحضاري اليوم: الحصول علىٰ القضايا العلمية، وكان يُفترض أن يدفعنا حب الرياسة إلىٰ الحصول أو القبض علىٰ مستلزماتها خاصة وأن العرب هم قاعدة الإسلام البشرية الأولىٰ وأن القرآن أعاد صياغتهم فالإمكان قائم لاستئناف الدور.

● صناعة الكلام تجعل أصحابها يهتمون بالبديع والزخارف أكثر مما يهتمون بالحقائق.

والسبب الثاني في تخلف المسلمين - وهٰذا قد يكون مسيئاً لبعضهم -

انشغال المسلمين أكثر من المطلوب بالمرويات، ما صح من السنن يمكن أن يكون عدة آلاف.

لٰكن، السنن التي انشغل المسلمون بها ولا يزالون، عدة مئات من الألوف، هٰذا جمد العقل المسلم، وجعله عقل نقول ومرويات أكثر من عقل بحث في الكون، سيدنا عمر ﷺ منع الاشتغال بغير القرآن، ولٰكن عُصي أمر عمر، ولو انشغل المسلمون بالمتواتر والصحيح فقط، لكان الأمر هيناً، لٰكن المشكلة، أن المرويات كثرت إلىٰ حد بعيد، والمساحة العقلية للبشر محدودة، فإذا أخذت المساحة هٰذه المرويات، فما بقي للعقل مساحات أخرىٰ يفكر فيها؟

□□ لو اقتصروا علىٰ المتواتر وما إلىٰ ذٰلك من الصحيح، لا يمكن عقلاً أن يعتبر ذٰلك من معوقات النظر في الكون، بل لساعد عليه، ونبه إليه، فالمتواترات تكمل الرحلة، ولا يمكن أن نعتبر النصّ معوقاً للعقل، ومانعاً له من التدبر والنظر، لٰكن المشكلة قد تكون في منهج التعامل مع النص، والتوقف عند الآفاق والأبعاد القريبة.

● قد تكون المشكلة التي حدّت من انطلاق العقل العلمي، أن هناك مرويات واهيات تصطدم بالعقل العلمي والعقل العملي، والناس يتهيبون من الإقدام علىٰ فحصها واختبارها. وكان من نتيجة ذٰلك أن العقل المسلم أصبح متخلفاً.

□□ الحقيقة، قد يكون من أسباب هٰذا، ما أتينا علىٰ ذكره من إلغاء نظرة السببية، ورد الأمور إلىٰ أسبابها، ونسبتها إلىٰ قوة علوية، مع أن الأمر لا يتعارض مع الإيمان كما توهموا، فالله هو الذي خلق الأسباب، وجعلها مقدمات لحصول النتائج والمسببات، لذٰلك، فمنهج إلغاء الأسباب، وعدم التعرف عليها، والتعامل معها، أوقع المسلمين في العطالة والعجز عن الفحص والاختبار، واكتشاف مواطن القصور، واستشعار المسؤولية، مع أن الله يقول:

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فأن تنقلب العقول والمؤسسات الإسلامية إلىٰ معوق للنهوض العلمي

ـ كما حدث في أوروبا في القرون الوسطىٰ عندما كان العلماء يحاولون كشف السبب لأي نتيجة، كانت تقوم الكنيسة علىٰ العالِم وتقول: إن النتائج من الله وليست من الأسباب التي تفعلونها، والقوانين التي تضعونها أنتم تضارعون الله بها، وتتعدون علىٰ سلطته ـ فهٰذا هو الموت العقلي، والشلل الفكري الذي نقضته الرؤية القرآنية.

● مثل هٰذا لم يقع إطلاقاً في محيطنا الثقافي، لأن نظرية الأشاعرة في أن السبب لا يؤثر، وإنما تجيء قدرة الله عند السكين، وأن السكين لا تقطع بنفسها، وأن النار لا تحرق بنفسها، إلخ، هٰذا الكلام، انتشر بين الأشاعرة، وفيه من مواريث اليونان، الكثير، ذٰلك أن اليونانيين قالوا بأنه: لا يوجد رباط عقلي بين السبب والمسبب، لٰكن، السلفيين رفضوا هٰذا الكلام، كما رفضه المعتزلة أيضاً، علىٰ ما أعتقد.

فهٰذه وجهة نظر لبعض الناس، لٰكن، أسباب انهيار الحضارة كثيرة، والذي يهمني الآن في ما يسبب تخلف المسلمين، ممكن نرجع إلىٰ الأسباب التي ذكرناها آنفاً، لٰكن، أولها ـ وهٰذا هو المعنىٰ الثالث الذي أريد أن أذكره ـ فساد الحكم.

محمد ﷺ الذي عاش فقيراً، حكم باسمه من يريد جمع القناطير المقنطرة من الذهب والفضة! محمد ﷺ الذي ألغىٰ الأنساب، وقال لقومه: **«لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم»**[1] وهو الذي قامت قبيلته بفرض نظام الأنساب، واستغلال الصلة بالأسرة النبوية، أو الأسرة نفسها، في حكم المسلمين.

ففساد الحكم، كان له دخل هائل، وليس عند الحاكم مانع في أن يشغل الناس أنفسهم بالمرويات التافهة، بل يضع لهم من يؤلف لهم «عنترة بن

(١) الحديث رواه الحاكم في «مستدركه» ـ عن رفاعة بن أبي رافع ﷺ ـ في كتاب معرفة الصحابة، باب: فضائل قريش، بلفظ: **«لا يأتيني الناس بالأعمال وتأتون بالأثقال فيُعرض عنكم»** وقد صححه الحاكم وتابعه الذهبي. (المستدرك ٤/ ٧٣).

شداد»، و«حمزة البهلوان» و«ألف ليلة وليلة» حتىٰ ينشغلوا عنه. وفساد الحكم، من أهم أسباب انهيار الحضارة الإسلامية.

□□ ألا تعتقدون هنا: أن إعطاء الحاكم هـٰذا القدر الكبير في القدرة علىٰ التغيير، وعلىٰ التحكم، والتعطيل وما إلىٰ ذٰلك، يمكن أن يلغي دور الأمة في قدرتها علىٰ التغيير، ويجعلها أسيرة في يد الحاكم مع أن القرآن يجعل أسباب التخلف ترجع إلىٰ عدة أمور؟

● هـٰذا ما حدث للأسف، وعندي، كمثال: الفقهاء الأربعة، فقد كانت صلتهم بالحاكم سيئة جداً، وعندما وقع البطش بهم، ما أغنت عنهم الأمة! فابن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ عُذب كثيراً، وأبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ مات في السجن، ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ظل حياته سجيناً، مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كسر ذراعه في فتوىٰ سياسية، فقد أفتىٰ بأن أيمان التواطؤ علىٰ البيعة لا قيمة لها، فكسرت ذراعه، وأصبح لا يخرج للناس في صلاة الجمعة، والشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لولا حنكته، لمات قتيلاً، فقد قُبض عليه مع تسعة آخرين قتلوا جميعاً.

فالفساد السياسي عندنا، له أثر أكبر من غيره، ولذٰلك أحب أن يلتفت المسلمون إلىٰ أن الفساد السياسي سيعيق نهضتهم ما بقي هـٰؤلاء الساسة المستبدون وما بقي حكم الفرد والاستبداد السياسي.

لـٰكننا حائرون! الرعاع الذين حكموا في العالم العربي باسم الثورة والاشتراكية والديمقراطية، كان لهم بطش لم يعرفه الأباطرة الظلمة من آل عثمان، ولا خلفاء السوء من العباسيين! والمؤسف أن ظلت تقاليد بعض الأسر الحاكمة، أشرف من الحريات التي ادعاها هـٰؤلاء الرعاع!

□□ يبقىٰ صعباً قبول المعادلة: أن يكون هـٰذا القرآن الذي ينشئ أمة ويحضها علىٰ التفكير، والنظر، والبناء، وارتياد الآفاق العلمية، ويحصنها ضد الاستبداد السياسي وما إلىٰ ذٰلك، أن تقع أسيرة في فترات من تاريخها لنماذج من الحكام الظلمة يتصرفون بشؤونها! أمة لها ميراث ثقافي وحضاري وتاريخي، حتىٰ في مجال الحكم، في الفترة الراشدة، تغتال هـٰذه المعاني فيها، وتقع من ثَمَّ أسيرة في قبضة حكام مستبدين، في فترات معينة، فتلك معادلة يصعب قبولها.

● دولة الخلافة الراشدة، لها قسمان: قسم معترف بأن لا نظير له (دولة أبي بكر وعمر). أنا أرىٰ أن عثمان[1] وعلي رضي الله عنهما، بالرغم مما حولهما من لغط كثير، يمثلون فعلاً الخلافة الراشدة، لأن عثمان رضي الله عنه لم يفكر قط، بتعبير العصر الحديث، بأن يأمر بإطلاق الرصاص علىٰ الجماهير، بل كان طيّعاً في أيدي الجماهير، وشاعراً بأنه لا يملك الاستئثار بالأمر برمته. ولعلي أظن أن العرب فوجئوا بهٰذا اللون من النظام الذي أعطاهم حريات ما كانوا يحلمون بها، فلم يحسنوا استغلالها، فكان رد الفعل أن سُلبوا الخلافة الراشدة، وجاءت الخلافة ـ باتفاق ـ غير راشدة، فالخلافة التي جاءت من بعد، سواء كانت أموية أو عباسية، كانت غير راشدة، لأنها جاءت بطريق: كسرىٰ عن كسرىٰ، الخليفة مات، فالحكم وراثي! ويتحايلون علىٰ ذٰلك بالمبايعة! ما قيمة المبايعة؟ مثلهم في ذٰلك مثل بني إسرائيل، عندما حُظر عليهم الصيد يوم السبت، حجزوه يوم السبت، وأخذوه يوم الأحد!

رأيت الشورىٰ في موضعين: كان يمكن أن تُلغىٰ الشورىٰ فيهما لو أن الإسلام نزاع إلىٰ حكم الفرد، في هزيمة أحد أكّد الرسول ﷺ علىٰ الشورىٰ مع أن الهزيمة ـ بحسب الظاهر ـ كان سببها الشورىٰ، هٰذه واحدة، الشيء الثاني: في سورة الشورىٰ وجدت أن الشورىٰ سابع خصلة من خصائل الإيمان التي لا أجد من بينها خصلة واحدة يمكن اعتبارها نافلة، يقول تعالىٰ:

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ

(١) هو عثمان بن عفان بن أبي العاص. قرشي أموي. أمير المؤمنين. وثالث الخلفاء الراشدين. وأحد العشرة المبشرين بالجنة من السابقين إلىٰ الإسلام. ولد عام ٤٧ قبل الهجرة، وكان غنياً شريفاً في الجاهلية، وبذل من ماله في نصرة الإسلام. زوجه النبي ﷺ بنته رقية، فلما ماتت زوجه بنته الأخرىٰ أم كلثوم، فسمي ذا النورين. بويع بالخلافة بعد أمير المؤمنين عمر. واتسعت رقعة الفتوح في أيامه. أتم جمع القرآن. وأحرق ما عدا نسخ المصحف الإمام. نقم عليه بعض الناس تقديم بعض أقاربه في الولايات. قتله بعض الخارجين عليه بداره يوم الأضحىٰ عام ٣٥هـ وهو يقرأ القرآن.

﴿ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورىٰ].

أي شيء في هـٰذه الخصال، نافلة؟ كلها فرائض، ومع ذٰلك استقر في الفقه، وفي التفسير، أن الشورىٰ غير ملزمة! مِن أين جاء ذٰلك؟ إنه أثر الحكم الفاسد، ثم، ما معنىٰ أن تكون الشورىٰ غير ملزمة؟ وما فائدتها إذن؟ ذٰلك تفكير عقيم وخطير.

● أرىٰ أن غيرنا استطاع، علىٰ عجل، أن يحل إشكاله ولو بالسيف: الإنجليز، والفرنسيون، والأمريكان، عانت الجماهير من الحكم والاستبداد، فقاومته، لذٰلك، أنا أرفض الاغتيال السياسي، لأن الاغتيال يدل علىٰ شجاعة فرد، وجبن أمة، ولذٰلك يذهب من يُغتال ويجيء بعده من يكون أسوأ منه، أو مثله، وانتهىٰ الأمر، لم يصنع هـٰذا الغربيون عندما استأصلوا الجرثومة من أساسها بثورات كبيرة.

أزمة فكر، لا أزمة منهج وقيم:

□□ هل يعاني المسلمون اليوم من أزمة في المنهج كانت سبباً في أزمتهم الفكرية، أم أنهم يعانون من أزمة فكر وفهم، ووسيلة فهم للمنهج الذي شرعه القرآن بقوله:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فالقرآن موجود بين أيديهم كما كان موجوداً بين أيدي الصحابة، ونصوصه محفوظة، لـٰكن، المشكلة، بالتعامل والفهم، ومالك ﷺ ـ وهو علىٰ رأس القرن الثاني من الهجرة ـ يقول: لا يصلح أمر هـٰذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

فهل نقول: بأن نهوض أي مجتمع، مرهون بتوفير ظروف وشروط ميلاده الأولىٰ، ومن ذٰلك: حسن الفهم للقرآن، وحسن التعامل معه؟ وقد تكون الخطورة كبيرة إذا سلمنا بوجود أزمة منهج مع وجود القرآن والسنّة!

● امتاز العرب الذين صحبوا النبي ﷺ، بأنهم تلقوا الرسالة بسليقتهم، ووصلوا إلىٰ أعماقها دون تكلف، وكانوا أشعة لها، فعندما أنظر إلىٰ بدوي مثل ربعي بن عامر يكلم قائد الفرس ويقول له: جئنا نخرج الناس من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله، من أين فهم الرجل هٰذا الكلام؟ من نضح القرآن علىٰ نفسه.

لقد أوجد القرآن ناساً استطاعوا أن يرتفعوا فوق مستوىٰ عقل الفرس، وعقل الروم، وهٰذه دول لها حضارة لا يمكن إنكارها لٰكنها تلاشت، وعندما تعامل العرب معهم ما كانت هناك عقدة نقص أبداً عند العرب، بل كان هناك استعلاء إيمان، والذي صنع هٰذا في نفوسهم، هو: القرآن.

بقي، أن القرآن حمَّال أوجه ـ كما يقال ـ وهٰذا جزء من إعجازه، وليس عيباً فيه، وكون الآيات مرنة، فذٰلك لكي تطاوع العصور كلها. لٰكن، مع حسن النية، وسلامة وشرف القصد، فإن المرونة تكون أساساً لسعة العصور كلها، لا أساساً للعب والعبث، ومع ذٰلك. فإذا كان هناك أساس للعبث من أنه حمّال أوجه، تأتي هنا السنَّة، ما تواتر منها وما صح، وهٰذا ما نستطيع أن نضمه للقرآن في تكميل المنهج.

ويبقىٰ بعد هٰذا، منطلق واسع للفكر الإنساني كي يبدع لأن المنقول من القرآن، أو التعاليم التي تصوغ قوالب محددة في القرآن الكريم، غير موجودة بالنسبة للسلوك السياسي، والاجتماعي، والدولي، وذٰلك لأنه عندنا مبادئ عامة وقيمٌ تضبط السير، وهٰذا يعطي القدرة علىٰ الإبداع، وأن يتحرك الإنسان ويعمل ويتحرىٰ ضمن حدود، وضوابط، وقيم معينة، ودون خوف من منزلقات، ولذٰلك أنا معك في أن المنهج قائم، وهو الكتاب والسنَّة، ويكاد يكون عدد كبير من الناس يرون أن الحل الأول والأخير ـ تبعاً لمالك في كلمته، وهو حديث مشهور: **«تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله تعالىٰ وسنتي»**[1]، المنهج من الكتاب والسنة، لٰكن هناك بعض الناس يأتي ويأخذ من سورة عاد:

(١) الحديث رواه الحاكم في «المستدرك» عن أبي هريرة ﷺ.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء].

ويعيب علىٰ الملوك في عهده أنهم جبابرة!

من قصص القرآن، آخذُ الفكر العَامَ: أن لا يكون الحاكم جباراً، وأن لا تكون السلطة قاهرة بمثل تلك الطريقة، وآخذ أيضاً من قوله تعالىٰ:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥].

ضرورة أن الإسلام متكامل، لا يقوم بعضه في غيبة بعضه الآخر، ولا بد من هٰذا التماسك.

كلمة عمر ﷺ عن حقوق الإنسان والتي هي أول بند في ميثاق الأمم المتحدة، لم يرتبها، ولم يجلس لصياغتها، وإنما استمدها من المناخ الذي وضعه فيه القرآن: (متىٰ استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً)، ونتيجة لتجاوبه مع القرآن وفهمه له.

انطلاق أبي بكر لضرب الفرس والروم، انطلاق من أن سطوة الحق في نفسه، دلته علىٰ أن الباطل لا يمكن أن يحكم بهٰذه الطريقة، وعرف رسالة الأمة العالمية، ومعنىٰ أن محمداً ﷺ رحمة للعالمين، أي أن يهدي هٰذه الشعوب التي حولهم، وإلحاق الرحمة بها، وفك إسارها، وإخراجها من السجن الكبير الذي تعيش فيه.

المنهج هو المنهج.

القرآن هو القرآن. لٰكن، إلىٰ الآن، أين المتدبرون؟! أنا أتأمل الآية في همس وأتأملها وأنا أخافها أحياناً، وأتأملها دون أن يتحرك لساني بشيء، أجد أنه قد نضجت معاني كثيرة منها في نفسي، الناس تنسىٰ هٰذا كله، وتتبع النغم من قارئ يُشبه المزمار الخنس، يريد أن يلحن القرآن بصوته، وانتهىٰ الأمر! أهٰكذا يُعامل الكتاب؟! الكتاب لا يُعامل بأن يُحوَّل إلىٰ موسيقىٰ!! الكتاب لا يُعامل بأن يحوَّل إلىٰ تراتيل دينية!! المعاملة التي عومل بها القرآن من جانب المسلمين، معاملة شاذة، المنهج قائم، في الكتاب، وما أجمله الكتاب، فقد أجمل عمداً حتىٰ تكون التفاصيل والاحتمالات عندي كثيرة، وأنا عندما قلت:

إن حق الطلاق عند الرجل يقابله حق الخلع عند المرأة، اعتمدت علىٰ آية، فليس هناك إهانة لأحد الجنسين، ولا هناك ضمانات لاستعلاء أحد الجنسين بما ينفّس الجبروت البشري في بعض الخلق، لا، المرأة إذا كرهت البيت مثل الرجل إذا كره البيت. وهو يطلق، والمرأة تخالع، ومن حقها ذٰلك، والآية التي اعتمدت عليها في ذٰلك هي قوله تعالىٰ:

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

فكلمة ﴿فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾، هي الشاهد، وقوله تعالىٰ: ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ يدل علىٰ أن الأسرة محكومة بحدود الله وشريعة الله، وكلمة ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ نفسها، تنبيه إلىٰ كل من عنَّ له أن يطلق، أن يراقب وأن يتريث، وذٰلك إلىٰ ضميمه: وجود حكمين وغيرها من المراحل التي تسبق عملية الطلاق.

□□ يمكن أن ننتهي الآن من هٰذه المناقشة إلىٰ: أن المنهج قائم، وأن المسلمين لا يعانون من أزمة منهج، وإنما يعانون من أزمة فكر، وتعامل، وفهم لهٰذا المنهج، فكان المفروض: إعادة النظر في أداة التوصيل، أو مناهج التفكير التي تصل المسلمين بالقرآن، أكثر من التفكير في ابتكار مناهج جديدة حملت بعض المسلمين إلىٰ استيراد مناهج من حضارات وأيديولوجيات أخرىٰ، ظنُّوا فيها الخلاص.

● المطلوب اليوم: وجود ضمانات شعبية، أو عقلية، أو مادية، أو قانونية، إلخ للعلماء والمفكرين والفقهاء، ذٰلك أني أرىٰ أن عقلاء هٰذه الأمة يُظلمون واحداً بعد الآخر، ويعيشون مشردين، وفي العصر الذي أنا منه الآن، رأيت خيرة قادة الفكر الإسلامي، إما ماتوا مظلومين، أو مضطهدين، أو مُضيقاً عليهم الخناق، أو إن ظفروا بعيش هادئ فلأسباب غير عادية، استثنائية، كأن الأساس هو: أن الإنسان طالما كان من فقهاء الإسلام ومفكريه، يُضرب حوله نطاق فلا يتصل بأحد ولا يتصل به أحد، أي يجب أن يبقىٰ مقطوع الاتصال بالناس، وإذا حدث أن حاول أن ينطلق هنا وهناك،

يعتقل، يسجن، جمال الدين الأفغاني[1] مثلاً، كانت عيشته سيئة، كذٰلك الشيخ محمد عبده، والكواكبي[2]، وحسن البنا، وسيد قطب، وعبد القادر عودة[3]، وآخرون غيرهم، كل من رأيت من إخواننا الذين لهم فكر، ويريدون العمل هنا وهناك، لا يعاملون إلَّا معاملة قطّاع الطرق، والأمة مسؤولة عن هٰذا، وما قيمة أن يقال: إن الناس قلوبهم مع الحسين[4]، وسيوفهم مع

(١) محمد بن صفدر الحسيني، جمال الدين: فيلسوف الإسلام في عصره، ولد في أسعد آباد عام ١٢٥٤هـ (١٨٣٨م) بأفغانستان، ونشأ بكابل، وتلقىٰ العلوم بها، وبرع في الرياضيات، وسافر إلىٰ الهند، ثم رحل إلىٰ الآستانة فجعل فيها من أعضاء مجلس المعارف. ونفي منها سنة (١٢٨٨هـ) فقصد مصر، فنفخ فيها روح النهضة الإصلاحية، في الدين والسياسة، وتتلمذ له نابغة مصر الشيخ محمد عبده، وكثيرون. ونفته الحكومة المصرية فرحل إلىٰ حيدر آباد، ثم إلىٰ باريس. وأنشأ فيها مع الشيخ محمد عبده «جريدة العروة الوثقىٰ» والتقىٰ بشاه إيران «ناصر الدين» ودعاه هٰذا إلىٰ بلاده، فسافر إلىٰ إيران. ثم ضيق عليه، فاعتكف في أحد المساجد سبعة أشهر، كان في خلالها يكتب إلىٰ الصحف، ومرض بعد هٰذا بالسرطان، في فكه، ويقال: دسَّ له السم. وتوفي في الآستانة عام ١٣١٥هـ (١٨٩٧م). له «تاريخ الأفغان»، و«رسالة الرد علىٰ الدهريين» وغيرهما.

(٢) عبد الرحمٰن بن أحمد بن مسعود الكواكبي. ويلقب بالسيد الفراتي. رحالة، من الكتّاب الأدباء. ومن رجال الإصلاح الإسلامي. ولد عام ١٢٦٥هـ (١٨٤٩م) وتعلم في حلب، وأنشأ فيها جريدة «الشهباء» فأقفلتها الحكومة. وجريدة «الاعتدال» فعُطلت، وأسندت له مناصب عديدة، ثم حنق عليه أعداء الإصلاح، فسعوا به، فسجن وخسر جميع ماله، فرحل إلىٰ مصر، وساح سياحتين عظيمتين إلىٰ بلاد العرب وشرقي إفريقية وبعض بلاد الهند، واستقر في القاهرة إلىٰ أن توفي ١٣٢٠هـ (١٩٠٢م). له من الكتب «أم القرىٰ»، و«طبائع الاستبداد».

(٣) عبد القادر عودة: محام من علماء القانون والشريعة بمصر، كان من زعماء جماعة «الإخوان المسلمين» ولما أمر جمال عبد الناصر بتنظيم «محكمة الشعب» كتب نقداً لتلك المحكمة. واتهم بالمشاركة في حادث إطلاق الرصاص علىٰ جمال (١٩٥٤م) وأعدم شنقاً علىٰ الإثر مع بضعة متهمين آخرين في نفس العام.
له تصانيف كثيرة، منها «الإسلام وأوضاعنا القانونية»، و«الإسلام وأوضاعنا السياسية»، و«التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي» جزءان، و«المال والحكم في الإسلام»، و«الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه».

(٤) هو الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو عبد الله الهاشمي، سبط رسول الله ﷺ =

يزيد[1]؟! ما يعنيني أن الشعب يحبني، إذا كان سيتركني أُقتل؟!

أنا رأيت بعض الناس ينصح واحداً من الدعاة الأقوياء ويقول له: يا أخي هوِّن عليك، فسيلقىٰ القبض عليك، وتأخذك الدولة، والذين استمعوا إليك سيذهبون إلىٰ بيوتهم، ليأكلوا أو يعاشروا نساءهم، وكأن شيئاً لم يقع! ولولا أن الذين يحملون الدعوات ـ كما قال شوقي[2]:

= وريحانته من الدنيا وأحد سيدي شباب أهل الجنة. ولد بالمدينة عام ٤هـ، وقيل بعدها، وكانت إقامته إلىٰ أن خرج مع أبيه إلىٰ الكوفة، فشهد معه الجمل ثم صفين ثم قتال الخوارج وبقي معه إلىٰ أن قتل، ثم مع أخيه إلىٰ أن سلم الأمر إلىٰ معاوية فتحول مع أخيه إلىٰ المدينة. أخرج له أصحاب السنن أحاديث يسيرة. كان فاضلاً عابداً. قتل بالعراق بعد خروجه أيام يزيد بن معاوية عام ٦١هـ.

(١) يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي: ثاني ملوك الدولة الأموية في الشام. ولد بالماطرون عام ٢٥هـ (٦٤٥م) ونشأ بدمشق. وولي الخلافة بعد وفاة أبيه (٦٠هـ) وأبىٰ البيعة له عبد الله بن الزبير والحسين بن علي، فانصرف الأول إلىٰ مكة والثاني إلىٰ الكوفة، وفي أيام يزيد هٰذا كانت فاجعة المسلمين بالسبط الشهيد «الحسين بن علي» سنة ٦١هـ. وخلع أهل المدينة طاعته (سنة ٦٣هـ) فأرسل إليهم مسلم بن عقبة المري، وأمره أن يستبيحها ثلاثة أيام وأن يبايع أهلها علىٰ أنهم خول وعبيد ليزيد، ففعل بها مسلم الأفاعيل القبيحة، وقتل فيها كثيراً من الصحابة وأبنائهم وخيار التابعين. ومدته في الخلافة ثلاث سنين وتسعة أشهر إلا أياماً. توفي بحوارين (من أرض حمص) عام ٦٤هـ (٦٨٣م).

(٢) أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي: أشهر شعراء العصر الأخير. يلقب بأمير الشعراء. مولده عام ١٢٨٥هـ (١٨٦٨م) بالقاهرة. نشأ في ظل البيت المالك بمصر. وتعلم في بعض المدارس الحكومية. وقضىٰ سنتين في قسم الترجمة بمدرسة الحقوق، وأرسله الخديوي توفيق سنة ١٨٨٧م إلىٰ فرنسة. فتابع دراسة الحقوق في مونبليه، واطلع علىٰ الأدب الفرنسي، وعاد سنة ١٨٩١م فعين رئيساً للقلم الإفرنجي في ديوان الخديوي عباس حلمي. وندب سنة ١٨٩٦م لتمثيل الحكومة المصرية في مؤتمر المستشرقين بجنيف. ولما نشبت الحرب العالمية الأولىٰ سافر إلىٰ إسبانية سنة ١٩١٥م وعاد بعد الحرب (في أواخر سنة ١٩١٩م) فجعل من أعضاء مجلس الشيوخ إلىٰ أن توفي عام ١٣٥١هـ (١٩٣٢م). عالج أكثر فنون الشعر: مديحاً، وغزلاً، ورثاءً، ووصفاً، ثم ارتفع محلقاً فتناول الأحداث السياسية والاجتماعية، في مصر والشرق والعالم الإسلامي، فجرىٰ شعره علىٰ كل لسان. وكانت حياته كلها «للشعر» يستوحيه من المشاهدات ومن الحوادث. اتسعت ثروته، وعاش مترفاً، في نعمة واسعة، ودعة. من آثاره: «الشوقيات» أربعة أجزاء، وهو ديوان شعره.

إن الذي خلق الحقيقة علقماً لم يُخل من أهل الحقيقة جيلاً

ولولا أن بعض الناس يرىٰ أنه لا بد أن يقول الحقيقة، ولو مات، ولو أن الموت في هٰذا يكسبه الشهادة، ما بقي للإسلام من يتحدث عنه وباسمه، يقول المتنبي:

حتىٰ رجعت وأقلامي قوائل لي المجد للسيف ليس المجد للقلم

اكتب به أبداً قبل الكتاب بنا فإنما نحن للأسياف كالخدم

فإذا كانت وظيفة القلم، أو الرأي، أن يخدم أصحاب السلطة، فإن الأمة الإسلامية ستكون آخر الأمم، بالطريقة التي تعيش بها.

والغريب أني لا أرىٰ هٰذا في العالم الآخر!

عندنا أزمة فهم، عندنا أزمة فقه، وعندنا مع هٰذا وذاك أزمة فكر، والمحزن أن الذين يملكون الفكر، يملكهم من يملكون السيف، فالمحنة كبيرة في العالم الإسلامي، ما بقي السيف قادراً علىٰ ضرب الفكر، وتحديد إقامته.

أنا قرأت الكتب التي تُسمىٰ سماوية، فوجدت أنها ينبغي أن تلقىٰ في أماكن القمامة، ليس فيها شيء، وكذٰلك الأمر بالنسبة لكثير من الفلسفات، فأنا أظلم ديني وكتابي عندما أرىٰ هٰؤلاء فعلوا شيئاً، بالنسبة لما عندنا، وأظن أن كلمة ابن حزم[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، التي يقول فيها: إن لكل مسلم الحق في طعام وشراب ولباس وبيت يقيه من الشمس وعيون المارة، وأن هٰذا حق يقاتل عنه، ما أظن اشتراكياً في أوروبا قال هٰذا الكلام، ولو قاله واحد من الاشتراكيين بهٰذا التحديد، لاشتريت كلماته بالذهب هناك، كما يقولون.

---

(١) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري. أبو محمد، عالم الأندلس في عصره. أصله من الفرس. كانت لابن حزم الوزارة وتدبير المملكة، فانصرف عنها إلىٰ التأليف والعلم. كان فقيهاً حافظاً يستنبط الأحكام من الكتاب والسنة علىٰ طريقة أهل الظاهر، بعيداً عن المصانعة حتىٰ شُبِّه لسانه بسيف الحجاج. طارده الملوك حتىٰ توفي مبعداً عن بلده. كثير التآليف. ولد عام ٣٨٤هـ. وتوفي عام ٤٥٦هـ.

من تصانيفه: «المحلىٰ» في الفقه؛ و«الإحكام في أصول الأحكام» في أصول الفقه؛ و«طوق الحمامة» في الأدب.

الكلمة عندنا ـ وأمور أخرىٰ كثيرة ـ أهيل عليها التراب، لسطوة الحكم الفردي!!

الاستبداد السياسي ووسائل التغيير في الخطاب القرآني:

□□ قلتم: إن السبب الرئيسي لمعظم المشكلات التي نعاني منها نحن المسلمون، فساد الحكم، أو الاستبداد السياسي الذي أتىٰ بدوره علىٰ قدرة الأمة علىٰ الامتداد في مختلف المجالات، وهٰذا صحيح من الناحية الواقعية، إلىٰ حد بعيد.

لٰكن، الشيء الذي يشغل البال حقيقة هو قدرة الحكم علىٰ غلبة الأمة ـ الجماهير ـ علىٰ امتدادها! كيف؟

لا شك أن ذٰلك إنما يكون بسبب وجود القابليات عند الأمة لهٰذا النوع من الاستبداد السياسي! فلولا هٰذه القابلية لما امتد الاستبداد، **«فكما تكونوا يولىٰ عليكم»**.

والأمر المحير: أن الأمة التي لها هٰذا الميراث الثقافي، وهٰذه القيم الهادية، إضافة إلىٰ تجربة الخلافة الراشدة، وما إلىٰ ذٰلك، يستطيع وبسهولة ـ فرد، أو نظام، أو طبقة، أو مجموعة، أو عشيرة، أو قبيلة، أن تلغي دور الأمة! هٰذه قضية ملفتة، خاصة والدراسات الحديثة تجعل التاريخ من صنع الأمم وليس من صناعة الأفراد، وهو كذٰلك حقيقة، لأن الأفراد في نهاية المطاف ينشأون في مناخ الأمة الثقافي وظرفها الاجتماعي.

إن الأمة يستأثر بها حاكم، أو ظالم أو مستبد، أمة لا يوثق بها أصلاً أن تكون قابلة للحياة والامتداد وصناعة حضارة.

هٰذا جانب، حبذا لو أمكن أن نلتقط له بعض مؤشرات من القرآن الكريم بأن الظلم والفرعنة والاستبداد والفسوق الذي هو ثمرة من ثمار الاستبداد السياسي، كان سبب سقوط كثير من الأمم؛ وكيف انتصر المستضعفون، والأسباب المادية والنفسية التي وراء انتصارهم علىٰ قوىٰ الظلم والاستبداد!

● في اعتقادي أن هناك أمرين:

أولاً: أحاديث الفتن التي شاعت بين الناس، فُهمت فهماً مغلوطاً، ولم تُشرح الشرح الصحيح، انضم إليها، أن بعض الذين مشوا مع ظاهر القرآن وظواهر تغيير المنكر، فشلوا كذلك، لأنهم ما استطاعوا أن يكونوا فقهاء أو ساسة يدرسون المعارك التي يخوضونها ضد دولة مستقرة. فكانت فرق الخوارج تخرج بدون وعي، ولأنها تمثل نوعاً من مقاومة الظلم، ولكن مقاومة بدائية صبيانية.

أحاديث الفتن أدت إلى اعتزال عدد كبير من الفقهاء لأنهم رأوا خدمة الجماهير عن طريق التربية والتعليم أفضل من الدخول في مغامرات لا تعرف نتائجها.

هذا كله انتهى إلى الوضع السياسي الذي شكونا منه.

الأمة نفسها، من غير شك، مسؤولة أمام الله، عن طريق فهمها للإسلام، لقد استطاع الإسلام أن يدخل الشعوب التي هزمته في الإسلام مثل التتار وغيرهم.

القصة، يمكن أن تكون فيها عدة عناصر. وأنا أرى: أن عدم قدرة الشعب العربي على رسم خطة معقولة وطويلة الأمد ليتخلص من مشكلاته، أضر بالأمة الإسلامية لأن العرب هم الذين قادوا الإسلام.

ولا أنسى أن هناك عادات جاهلية عند العرب تسربت إلى الحكم الإسلامي وإلى المجتمع الإسلامي نفسه، فقصة أن المرأة إنسان من الدرجة الثانية، وأنها لا تُعامل حتى فيما كفله الشرع كالمواريث، وفيما كفله الله من حق اختيار الزوج، ولا يلتفت إلى وضعها.

لقد غلبت هذه التقاليد على قيم الدين الإسلامي، ولا تزال غالبة عند بعضهم إلى الآن، فبالرغم من أن أمتنا في عصر نحن نقاتل حتى يستطيع الناس تغيير رأيهم فإن العادات عند هؤلاء تكاد تكون أهم من العبادات والتقاليد الروحانية التي جاء بها الإسلام.

تغيير الأفكار والنفوس، هو الأساس:

□□ كثير من الناس يرىٰ: أن التغيير المطلوب هو تغيير ثقافي نفسي، وأن التغيير الثقافي هو الذي يستتبع ويؤدي إلىٰ التغيير السياسي؛ ـ ذٰلك أن السياسة أحد مظاهر الثقافة ـ وأن مواطن التغيير الحقيقية والتشكيل الحقيقي في الإنسان، هي مواطن التربية والدعوة؛ وأن الحكم يمكن أن يأتي ثمرة لذٰلك، فهم يفكرون بأن الخلل الذي لحق بالأمة، يمكن أن يكون خللاً فكرياً أو ثقافياً وليس سياسياً، لأن الخلل السياسي إنما تربع وامتد في إطار الخلل الفكري، أو التربوي، أو الدعوي الذي شكل القابلية لامتداد الخلل السياسي. والله سبحانه وتعالىٰ يقول:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

حبذا لو أعطيتمونا من خلال بعض الآيات نماذج علىٰ نهوض الأمم من خلال التغيير الثقافي، وإصلاح عالم الأفكار؟

● قولك بأن الخلل قد يكون فكرياً ثقافياً، فهٰذا صحيح، وأنا لاحظت أن الثقافة الإسلامية، حدث فيها شيء من العوج. فمن ناحية التربية والتصور، انسحب الناس من الحياة، رأوا أن المجتمع فاسد، فانسحبوا وهربوا منه بدل أن يغيروه.

وإذا نظرنا في فقه المعاملات والعبادات، أنا لا أعرف أمة أطالت الوقت في الفروع الفقهية، كأمتنا، الوضوء مثلاً، يمكن أن يتعلم في دقيقتين فما الذي يجعل فيه مئات الصفحات والكتب بل والمجلدات، وتختلف المذاهب فيه؟ هٰذا شيء عجب! حتىٰ أني أسميت الوضوء: «علم تشريح الوضوء»!

لا شك أن هٰذه المساحة التي أخذها البحث في الفروع الصغيرة، كانت علىٰ حساب القضايا الكبيرة.

□□ نلمح من معطيات القرآن الكريم: أن التغيير هو تغيير النفوس:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

والتغيير يشمل كل الجوانب ـ النفسية والثقافية ـ التي فيها إعادة تشكيل الإنسان، بينما لم يطل في القضية السياسية ويعطيها البعد أو الحجم نفسه، واعتبرها ثمرة وليست مقدمة، فكوننا نعطي الأهمية الكبرىٰ للاستبداد السياسي علىٰ حساب موطن التغيير الأساسي وهو ميدان النفس، فكأننا ـ نحن المسلمون ـ افتقدنا ضبط النسب أو التوازن في النظر للقضايا!

بعضهم يرىٰ القضية السياسية أهم من القضية الثقافية، وبعضهم يرىٰ القضية الثقافية أهم من السياسية، وهٰكذا.

● عندما تحدث القرآن الكريم عن الأمة، تحدث عن فسادها وانهيارها بشيوع أخلاق معينة، وبانقسامها إلىٰ طبقات سيِّدة وطبقات تابعة، وبإصابتها بالتبلد العقلي الذي يجعل التقليد أساس الفكر.

لقد كان تعاملنا مع القرآن تعاملاً رديئاً.

لقد كان من الأفضل بدل أن يدرس الوضوء خلال ثلاثة شهور مثلاً، أن يُدرس: لماذا هلكت عاد؟ لماذا هلكت ثمود؟ هل المجتمع الآن يشبه مجتمع عاد وثمود أم لا؟ ما الفساد الذي حدث في بني إسرائيل؟ كيف تحولت الحقيقة إلىٰ شكل؟ كيف تحول الدين إلىٰ انتماء عنصري بدل أن يكون انتماءً إلٰهياً وزكاة نفسية؟ كل هٰذا كان ممكناً من خلال دراسة القصص القرآني، لٰكننا أهملناه إهمالاً تاماً، وابتعدنا عنه كما ابتعدنا عن دراسة آيات النظر إلىٰ الكون، فتبلدت العقول. وكان آخر شيء يُنظر إليه النظر في الكون.

كنت أتحدث وأقول: إن الزكاة فُرضت في مكة، فانتفض أحد شيوخ الإسلام وقال: لا، إن الزكاة فرضت في المدينة، أقول له: إن آية سورة الأنعام مكية، وفيها في زكاة الزروع والثمار:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ [الأنعام: ١٤١].

أقول له في سورة فصلت وهي مكية، ومن أوائل ما نزل:

﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ۝٧﴾ [فصلت].

وفي سورة المدثر وهي من أول ما نزل:

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤﴾.

مع هـٰذا، قال: لا، الفقهاء قرروا أن الزكاة كانت في المدينة! قلت: ربما تفاصيل الأنصبة: العشر، ونصف العشر، إلخ، كل هـٰذا كان في المدينة لا في مكة.

فأجد أنه حتىٰ بعض الشيوخ الكبار المؤلفين، قد تجمدت عقولهم، وكيف تجمد هـٰكذا؟ أنا تحيرت، وإلىٰ الآن، فإن هـٰذا الكلام الذي يقوله هـٰذا الشيخ موجود في أدمغة الشباب والناس الذين يأخذون الكلام كما يلقىٰ عليهم.

□□ هـٰذه القضية، هي ـ كما أسلفنا ـ نوع من إعطاء القدسية للآراء، وإضفاء صفة الدين عليها، بينما هي آراء اجتهادية في تنزيل النص علىٰ واقعة معينة، فإذا أخذت سمة الدين، وسمة النص النقلي، وسمة الوحي، أصبح صعباً التفكير بالخروج عليها أو مناقشتها.

● لاحظت أيضاً أن الرسول ﷺ حذرنا من اتباع اليهود والنصارىٰ، نحذر أن نكون كاليهود في تجسيد الله، وكالنصارىٰ في بنوة المسيح، لـٰكن قال: **«لتتبعنَّ سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع»**[1]، معنىٰ هـٰذا أن الأمة ستنحدر في سلوكها والسلوك نتيجة الخلق ونتيجة المعرفة والثقافة ومع هـٰذا، لم أر بحثاً في تتبعنا لليهود والنصارىٰ، في تفكيرنا، في أخلاقنا، في أعمالنا، بل ببساطة، انحدرنا وانتهىٰ الأمر.

□□ استطعنا أن نقلدهم بانهيارهم، ولم نستطع أن نقلدهم بنهوضهم،

---

(١) الحديث متفق عليه، رواه البخاري في «صحيحه» ـ عن أبي سعيد الخدري ﷺ ـ في كتاب الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل. ورواه مسلم في «صحيحه»، في كتاب العلم.

وانتقلت إلينا علل التدين، كان مقتضىٰ ذٰلك أن تنتقل إلينا من هٰذه الأقوام أسباب النهوض!

● أعتقد أن ما حدث اليوم في الأمة الإسلامية، هو ما حصل في الأمم الأخرىٰ تاريخياً، والعقاب الإلٰهي: أن الله نزع قيادة البشرية من أيدي المتدينين ووضعها في أيدي العلمانيين. وهٰذا ما حدث في العالم كله الآن: القيادات ليست للأديان، وإنما تستطيع بعض الديانات أن تستغل الجشع البشري العادي في النفوس لكي تعرض خدماتها لضرب الأمة الإسلامية لحساب الجشع العالمي في النفوس البشرية. فالفاتيكان اليوم يشتغل لحساب أمريكا وأوروبا الغربية ضد روسيا، وفي اعتقادي أن أهل الدين بحاجة أيضاً لأن تكون فيهم رجّات داخلية تجعلهم يتحركون من الداخل لإصلاح أنفسهم، ولعل الأمة الإسلامية، كُتب لها الخلود، لأن حقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا تزال حيّة فيها، بينما الأمم الأخرىٰ ماتت تماماً. في المجتمع الأوروبي، لا يرىٰ أن الزنا زِناً، وأن الربا رِباً، وأن الخمر حرام، فالمسألة طبيعية جداً عندهم! بينما المسلمون، لا تزال فيهم حساسية غير عادية ضد هٰذه الأمور.

عصمة عموم الأمة:

□□ الأمة: معصومة بمجموعها، ولا يمكن أن تتواطأ علىٰ خطأ، كذب واستبداد، وظلم، وما إلىٰ ذٰلك، فيمكن أن نقول: بأنه وُجد خلال فترات التاريخ الإسلامي، وخلال فترات الاستبداد السياسي، من يُعلن الحقيقة ويُشير إليها، ولو كانت مساحة المعارضة والمواجهة لم تشكل تياراً، في بعض الفترات إلَّا أنها لم تغب بشكل كامل، وكان ذٰلك مصداقاً لحديث الرسول ﷺ: بأن الأمة لا تتواطأ علىٰ خطأ، فتبقىٰ شعلة الإضاءة قائمة علىٰ مدىٰ العصور من خلال أفراد، أو جماعات أو مجموعات.

● علىٰ امتداد أربعة عشر قرناً، كان هناك مجدِّد ـ تقريباً ـ أو مجددون كل قرن، الأمة لم تبق في الظلام باستمرار دون أن يكون هناك من يذكّرها.

بل وُجد في كل عصر من وضّح أن القافلة تسير بطريقة فيها انحطاط. لٰكن، أين الخطأ بالتحديد؟ بعضهم يقول إنه: سياسي، وبعضهم يقول: إنه اجتماعي، أو تربوي، أو عقائدي، فهناك شعور بأن القافلة أخطأت، وتصايح بأن أوقفوا الخطأ، فالمصلحون يختلفون في تحديد أسباب الخطأ، ولٰكنهم ـ جميعاً ـ يعتقدون أن الإسلام هو الدين المعصوم، وأن الحقائق فيه، وأن الأمة نفسها تشعر بأنها مسيئة، وأن الحاكم منحرف.

□□ أي، كونهم استطاعوا أن يحتفظوا بنفسية الأمة بهٰذا الموقف ـ الموقف النفسي علىٰ الأقل، إن لم نستطع القول بأنه امتد إلىٰ الموقف العملي ـ فيمكن أن يكون لوناً من تواصل الحق.

● بل أيضاً، فيه حسّ عام لأن بعض علماء السلطة لا دين لهم، وأن الذين مشوا مع الموكب المعوج وطبلوا له، هم كلاب جهنم، وإن لم يكن لهم تأثير واضح في الأمة، بينما ظل العلماء الشعبيون هم الذين يقودون الجماهير، فلو مات الحاكم الظالم، وربما قُتل، ما أحسَّ به أحد، لٰكن عندما يموت أحمد بن حنبل، تخرج بغداد كلها حتىٰ لتكاد تعطل صلاة الجماعة، فهٰذا مما يدل أيضاً علىٰ أن الأمة معصومة بمجموعها، وأن المجددين فيها، يتحركون باستمرار. ولٰكن نوعاً من المقاومة التي تأبىٰ أجهزة المناعة في الجسم أنها تموت، في انتظار لحظة الصحة والعافية.

فهم متميز للخطاب القرآني:

□□ لقد أدرك بعض العلماء، كابن تيمية رحمه الله، جوانب متميزة من التعامل مع القرآن، الأمر الذي يمكن أن يشكل منهجاً لا يزال غائباً عن الواقع الإسلامي حتىٰ اليوم، فعندما تعامل مع العصر من خلال رؤية قرآنية، رأىٰ مثلاً في آية:

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

أن صفة القوة عند عدم القدرة علىٰ الجمع بينها وبين صفة الأمانة في شخص واحد، هي ألزم للقيادة العسكرية، وأن صفة الأمانة عند عدم إمكانية

الجمع بينها وبين القوة في شخص واحد كذلك، هي ألزم للأعمال المالية، وهكذا نرىٰ كثيراً من اجتهاداته وفهمه: في الطلاق مثلاً، في قوله تعالىٰ:

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

أوقع الثلاث واحدة، ولم يوقع الطلاق القسمي، وهكذا، وهناك موقفه من التتار المخمورين، لم يكن الفقه عنده يعني الحكم التشريعي والنظرة الجزئية بمقدار ما كان يعني الفهم العام وإدراك المقصد والتحقق بالرؤية القرآنية الشاملة.

حبذا لو أعطيتمونا نماذج قرآنية لذلك؟

● ابن تيمية ـ بلا ريب ـ من شيوخ الإسلام الأكابر... وقد قاتل في جميع الميادين التي فتحتها القوىٰ المعادية للإسلام ضد الإسلام، وكان فيها صلباً وقوياً.

وقد لاحظت مثلاً، أن رأيه في الشورىٰ هو آخر ما وصلت إليه الديمقراطية الغربية، لأنه رأىٰ أن اجتماع المسلمين في سقيفة بني ساعدة لاختيار أبي بكر، هو الأساس في أن يكون الحاكم حاكماً.

فهو رجل متفتح، من غير شك، من الناحية السياسية، ويدري جيداً أن الحكم ملك الأمة وهي التي تستأجر الحاكم لكي يؤدي عنها ما تريد، وإذا ضاقت به عزلته، كألوان من العقد الاجتماعي، فهٰذه هي نظرته في الحكم.

ونظرته في المال تشبه نظرة ابن حزم في أن الأمة يجب أن يكون الجهاز المالي فيها دواراً كالجهاز الدموي في الجسم الإنساني بحيث لا تبقىٰ أسرة ولا يبقىٰ مكان إلا وصلت إليه خيرات الله بحيث لا يضيع أحد ولا يجوع أحد.

ورأيته من ناحية المحافظة علىٰ الأسرة، رفض رأي الأئمة الأربعة في إمضاء طلاق البدعة، فكانت هٰذه جراءة هو لها أهل، لأنه فعلاً لا معنىٰ إطلاقاً لأن تكون الأسرة ألعوبة في يد طائش، وكأنما البيت ورق لعب، المسألة لا بد لها من ضوابط.

في الحقيقة أن الأسرة في القرآن الكريم وفي السنة النبوية، لها رسالة اجتماعية وتربوية، وهي أصل من أصول البناء الاجتماعي للأمة، فتعريض الزواج والطلاق لاجتهادات فقهية عجيبة حتىٰ بلغ العبث إلىٰ القول بأن من قال لامرأته أنت طالق نصف تطليقة، فهي طلقة واحدة!! وفي حالات الإكراه، يرىٰ الأحناف أن المكره يقع طلاقه؛ والسكران يقع طلاقه كذلك، دون أن يكون هناك تفكير في حال الأسرة والأولاد وتربيتهم، لقد كان الفقهاء ناسين ذلك، لكن الرجل الذي جاء فعلاً وفهم أن الأسرة لها دخل في المجتمع وبقائه، وهلاكه أو نجاته، هو ابن تيمية.

أحياناً أنظر إلىٰ سورة الطلاق في القرآن، فأجد أن نصفها الأول أو أكثر من النصف قليلاً، في أحكام الطلاق، والنصف الثاني مباشرة بقوله تعالىٰ:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطلاق].

ما صلة هٰذا الكلام بأحكام الطلاق التي قيلت، ووضع الأسرة، ومناشدة الناس أن يتقوا الله.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

ومناشدة الناس الرفق بهن:

﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٦].

من خلال السرد القرآني، يفهم: أن تدمير الأسرة هو باب الشر علىٰ المجتمع كله، وبنظري أنا شخصياً، فقد وجدت أن أكثر العقد التي تقع في نفوس الأولاد والتشرد والسفه، تكون من أن العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة سخيفة.

فابن تيمية جاء ورفض هٰذا الطلاق الجنوني فيما يتصل بإيقاع الطلاق، والعبث، فمثلاً لو أن رجلاً قال لجزَّار: عليَّ الطلاق لآخذ كيلو اللحم هٰذا، ثم لا يأخذه، فتطلق المرأة، دون أن يكون لها دخل في الصورة أو رغبة في الزوج للتطليق!

لا شك أن ابن حزم كان أسبق، وابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، استفاد كثيراً من ابن حزم، واستفاد ممن قبله، بل استفاد من الغزالي نفسه، وإن كان يخاصمه فيما يتصل بمذهبه في الصفات والأسماء.

و«ابن تيمية» هو أول من كتب في السياسة الشرعية: بل أنا لاحظت أن كتابته في السياسة الشرعية كانت في صدر شبابه، وهي حسنة وجيدة، لأنه تكلم في اختيار الحاكم، وواجبات الحاكم، والمصالح المرسلة، وأشياء كثيرة كانت مهملة من قبله.

وابن القيم، تلميذه، تحدث حتىٰ عن تسعير السلع، وتسعير المواهب والشهادات فيما يتصل بكادرات الوظائف، فهٰذا الكلام، كان يعتبر كلاماً جديداً، وابن تيمية وابن القيم، هما أساسه.

فهٰذه مدرسة، ارتفعت من الفقه المذهبي، فأخذت أفضل ما فيه، ونقدت أسوأ ما فيه، ولم تتقيد إلّا بما يتصل بالكتاب والسنَّة.

□□ **هل هناك ميزات واضحة في نظرة ابن تيمية التفسيرية، ونظرته إلىٰ القرآن؟**

● لم ينشغل «ابن تيمية» بالتفسير، لأنه يرىٰ أن معظم آيات القرآن واضحة، وما يحتاج إلىٰ تفسير منه شيء قليل، والمهم أنه يأخذ القرآن كله كمرجع للحكم والأخذ في الأمور.

لٰكني أعجب لأمرين فيه:

الأمر الأول: أنه أنكر المجاز في القرآن، وفي اللغة، وهو ليس من رجال الأدب واللغة! ويخيل إليَّ أن إنكاره للمجاز كان بدافع من إيمانه الراسخ بأن يجتاح كل شيء، لٰكن، هٰذا لا يجوز، لأن المجاز بديهي في القرآن، وعندما أقرأ قوله تعالىٰ:

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ [يس: ٩].

وقوله:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾ [يس].

لا أجد من يقول: إن هناك أغلالاً وسدوداً! لا سد الفرات، ولا السد العالي، فالمقصود سدود وأغلال معنوية، وتلك كلها مجازات، والمجازات موجودة في لغات الأرض، وليس في اللغة العربية وحسب.

الأمر الثاني: كاد هو وابن القيم، يقعان في التجسيد، وأذكر أني كنت أناقش رسالة ماجستير في الأصول الخمسة للمعتزلة، فوجدت الطالب يقول: هل لله جسم؟ ثم قال: نتوقف عن الإجابة؟ سكتّ حتىٰ أسمع ما يقول، قال: ما أذكره، نقلاً عن ابن القيم، قلت له: لا ابن القيم ولا ابن تيمية نقبل منهم التوقف، لأن كلمة جسم يعني: مادة، وخصائص المادة عرفت في الفيزياء الآن، القصور الذاتي، والمساحة والحيز، إلخ، فأنا أرفض أن يكون هناك توقف في هٰذا الموضوع، بل الإنكار، وهٰذا قوله تعالىٰ:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

فرفضت رفضاً باتاً هٰذا القول.

□□ هٰذا اللون من التفكير أو الاهتمامات، لا أدري: ماذا يكون مردوده العلمي للواقع الإسلامي؟

● **هٰذا اللون أساء للأمة الإسلامية، وهٰذا الكلام هو امتداد للبيزنطية التي أكلت الدولة الرومانية، وهو من الجدل المنهي عنه يقيناً.**

وهٰذه النزعة التي أُخذت علىٰ ابن تيمية، جعلت بعض المسلمين يبتعد عنه، ابتعد عنه الأزهر، كما ابتعدت عنه أعداد من جماهير المسلمين، لولا أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وأن الرجل عقل كبير، وكان ينبغي للأمة الإسلامية أن تلتفت إليه وأن تدرسه.

□□ وقد يكون من النِّعم أن كل إنسان، له وعليه، وإلَّا لقدس الأشخاص.

● **لقد رأيت كلاماً للغزالي في العدل الاجتماعي لم أر مثله، وبعض كتبه لم تصل إلينا.**

علىٰ كل حال، ابن تيمية، والغزالي وغيرهم من كبار الأئمة، لم يكونوا

كباراً لأنهم اعتمدوا علىٰ مذهب من المذاهب الفقهية أو مدرسة من المدارس الفكرية في الإسلام، إنما كان اعتمادهم علىٰ الكتاب، تأملاً في محاوره كلها، وآفاقه كلها، وميادينه كلها، وهٰذا ما جعلهم أئمة.

فالغزالي عندما تكلم عن تشريح العين، حدد عناصر التشريح بسبعة.

قال لي الدكتور محمد يوسف موسىٰ[1]: «إن التشريح يتكون من ثمانية عناصر». لذٰلك نرىٰ الخلاف في عدد العناصر محدود، ومعنىٰ هٰذا أن الرجل كان يتفكر في الكون، في النفس، في الجسم، يمشي مع القرآن في التدبر والتأمل.

وهٰذا شيء جميل، بينما نجد التفكير الفقهي هو الذي حبس العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر، حبسه في كيفيات الوضوء! وفي المسجد، وفي بعض الأسواق التي تبيع الأنعام، وبعض صور البيع الساذجة، والنخاسة! أما ما عدا هٰذا من آفاق تحدث الإسلام فيها، لم تأخذ الاهتمام المطلوب، ويُخيَّل إليَّ أن من كان يتلو قوله تعالىٰ:

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦١].

كان كمن يقول كلاماً من المريخ لا تعرف الأمة معناه، ولا مغزاه، ولا تمشي في هداه. لأن الأمر الذي تمشي في هداه تماماً، متون في بعض المذاهب الفقهية. وهٰذا شيء عجب! وعندما ألفتُ كتابي: «فقه السيرة» كانت هٰذه الفكرة تملكني، وأن القرآن أساس، والسيرة النبوية تطبيق قرآني، والرسول ﷺ، قرآن حيّ يمشي علىٰ الأرض، والسنن تسير في نطاق القرآن، والسنن العملية التي طبقها الرسول ﷺ في سيرته، هي الأساس، وهي التي

---

(١) د. محمد يوسف موسىٰ، متخرج من الأزهر الشريف، حصل علىٰ الدكتوراة من جامعة ليون بفرنسا، اشتغل بالتدريس في كلية أصول الدين ومعهد الدراسات العربية العليا. من مؤلفاته: «الفقه الإسلامي»، و«القرآن والفلسفة»، و«نظام الحكم في الإسلام»، و«التشريع الإسلامي وأثره في الفقه الغربي».

يسير عليها من تحدثوا عن الهدي النبوي كابن تيمية وابن القيم.

ابن تيمية، وابن القيم، مدرسة واحدة، ومن رأيهما: أن من ارتكب حدّاً تُقبل توبته، كان ذٰلك رأياً عند الشافعي في القديم، وتركه، وابن تيمية، كان مع رأي الأئمة، في صدر شبابه، ثم انفرد عنهم بقبول توبة مرتكب الحد، وأنها تسقط الحد عنه، وهٰذا شرحه في «الفتاوىٰ»، ولم يذكره في «السياسة الشرعية» بل كان ضده!

ويخيّل إليّ أن ابن تيمية، حينما كتب: «السياسة الشرعية»، كان في صدر حياته، لأني وجدتُ حديثاً منكراً في كتاب «السياسة الشرعية» لعله نقله عن كتاب «ذم الهوىٰ» لابن الجوزي[1]، وكتاب «ذم الهوىٰ» كتاب فيه إسفاف، وابن الجوزي نفسه قال: «أنا ترخصت في هٰذا الكتاب، ونزلت من البقاع إلىٰ الحضيض»، فعجبت من رواية ابن تيمية لهٰذا الحديث، صحيح أنه رواه بصورة التمريض، لٰكن ما كان ينبغي أن يرويه أبداً، والحديث هو: أن غلاماً جميل الوجه جاء في وفد، فقال له النبي ﷺ: كن ورائي، لأن فتنة داود كانت في النظر!

الاكتفاء بالتراث عن الكتاب والسنّة:

□□ من خلال ما ذكرتم، هل نستطيع أن نقول: بأن وقف الناس عند حدود الفقهيات، أو التراث الفقهي، أو الاقتصار عليه، واعتباره هو المساحة التي يجب التحرك عليها، يُشكِّل عائقاً بين المسلمين، وبين النهل من النص الأصلي الذي هو القرآن الكريم؛ وأن التراث بشكل عام والتراث الفقهي في

---

(١) هو عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي، أبو الفرج، نسبته إلىٰ محلة الجوز بالبصرة، كان بها أحد أجداده. قرشي يرجع نسبه إلىٰ أبي بكر الصديق. من أهل بغداد. حنبلي. علّامة عصره في الفقه والتاريخ والحديث والأدب. اشتهر بوعظه المؤثر وكان الخليفة يحضر مجالسه، مكثر من التصنيف. ولد عام ٥٠٨هـ. وتوفي عام ٥٩٧هـ.

من تصانيفه: «تلبيس إبليس»؛ و«الضعفاء والمتروكين»؛ و«الموضوعات» كلاهما في الحديث.

عصور معينة، بدل أن يكون مفاتيح مساعدة علىٰ فهم القرآن، والعودة إليه، كان حواجز في بعض المراحل اكتُفيَ بها، وحالت دون الوصول إلىٰ النبع الأصلي، والتحقق بالرؤية القرآنية الشاملة.

● كتبتُ هٰذا، تقريباً، في كتابي «فقه السيرة»، في «رسالة وإمام»، عندما تحدثت عن أن القرآن هو رسالة، وعن الإمام الذي طبَّق وقاد بها، قلت: إن الأمة الإسلامية حدث فيها، للعجب، أنها تركت الكتاب للسنة، ثم تركت السنة لأقوال الأئمة، ثم تركت أقوال الأئمة لمؤلفي المتون، تقريباً، لا أذكر الآن ما كتبت بالنص، لٰكن هٰذه هي الصورة التي سارت عليها الأمة، نحن طلاب في الأزهر، درسنا المالكية من: متن الدرديري، أو متن العشماوية، ودرسنا الأحناف من: متن نور الإيضاح، أو متن القَدوري، والشافعية من: متن الغاية والتقريب.

أما الاتصال بالقرآن نفسه والسنَّة نفسها كمصدر، فأُبعد هٰذا عن الثقافة الإسلامية.

□□ حتىٰ في المعاهد العلمية، نتعلم لنقرأ، لا نقرأ لنتعلم، لذٰلك يبقىٰ هم المتعلم: ضبط اللفظ، ومراعاة أحكام التجويد، وضبطها، فيؤسس علىٰ الاهتمام باللفظ والشكل، أما فلسفة الحياة في ذٰلك، فقلما تُدرك.

فالقضية مفزعة: أن يكون التراث الذي يُشكل في الأصل مفتاحاً لفهم القرآن والسنَّة، أو لاستجماع فهوم الآخرين، وكيف كانوا ينظرون للقرآن، والإفادة من فهومهم لإخصاب الرؤية في العودة إلىٰ القرآن؛ يصبح حاجزاً يحول بين المسلمين وبين مصادرهم الأساسية!! وكون تلك الفهوم تأخذ شيئاً من القدسية، فهٰذا يعني: أنه ضُرب بليل طويل بين المسلمين والقرآن من خلال عصور متطاولة.

وقد يكون الوجه المقابل ـ وقد يكون الأخطر في القضية ـ القفز من فوق التراث، ومحاولة الاتصال بالكتاب، وتقرير الأحكام دون التحقق بالشروط المطلوبة لذٰلك.

● هٰذا حق، ولذٰلك جهد المجددين الآن يجب أن يكون مضاعفاً،

وأن تكون ضرباتهم بحماس وقوة، وأن يكون معها أيضاً العقل الذي يقرر صعوبة أو غلظ الحجب الموجودة علىٰ بصائر الناس. أحياناً، كنت عندما أناقش المستشرقين، أتكلم بكلام فيه حدة أو احتقار شديد، وأنا أتعمد هـٰذا، لماذا؟ لأني وجدتُ بعض الناس ينظر إليهم كأنهم شيوخ في محاريب العلم، وهـٰؤلاء أفّاكون يشتغلون في وزارات الاستعمار لمحاربة الإسلام، فقلت: لا بد من تمزيق هـٰذا القناع وكشف نصوص العلم للناس علىٰ حقيقتها.

تأسيس منهج العودة إلىٰ القرآن:

□□ أتصور أن تأسيس، أو تدوين، منهج العودة للقرآن الكريم، يقتضي نزع فكرة القدسية عن فهم البشر ـ كمرحلة أولىٰ ـ وأن هـٰذه الفهوم ليست ديناً، وليست شيئاً ملزماً في الفهم، وإنما هي فهم من خلال ظروف معينة، لتنزيل النص القرآني في عصر معين علىٰ حالة معينة، فقد يتغير العصر، وقد يتغير الفهم، وقد يُدرك فهم آخر تُهيء له الكشوف العلمية، فإذا استطعنا نحن الوصول إلىٰ مرحلة القناعة بأن هـٰذا التراث ليس مقدساً، وإنما هو فهم بشري قابل للخطأ والصواب، وأنه يُستعان به، أو هو وسيلة للوصول إلىٰ النبع الأصلي وأنه لا يغني عن النبع الأصلي بحال من الأحوال أو عصر من العصور، ونبقىٰ مشدودين للقرآن باستمرار، مشدودين إلىٰ محاوره كلها، وسننه وقوانينه المطردة، أي: الوصول إلىٰ مرحلة الفكر القرآني، أو الفلسفة القرآنية، وبذٰلك يمكن أن نكون قد وضعنا الخطوة المطلوبة اليوم لمنهج العودة إلىٰ القرآن.

وقد أشرنا إلىٰ محذور، لا بد من مناقشته، لأن عدم الحذر قد يُساهم بالخبال، والتبعثر العقلي أيضاً، فكثيرٌ ممن يظن أنه جاء بالحل، وهو لا يدري أنه يؤزم المشكلة أكثر؛ وهـٰذا المحذور هو: الاغتراف من القرآن مباشرة، والقفز من فوق الفهوم البشرية دون امتلاك الوسائل التي تمكّن من الاغتراف من القرآن مباشرة، خاصة في القضايا الفقهية التي لم يدع الأئمة فيها زيادة لمستزيد.

● هٰذا آفة النهضة العلمية الحديثة في العالم الإسلامي: أن ناساً شعروا بالضيق من المتون الفقهية والسجن الذي وقع فيه الفكر الإسلامي فأرادوا أن يغترفوا من الكتاب والسنة مباشرة، وهم دون ذٰلك، من ناحية القدرة العقلية، فنشأ عن هٰذا الآن نوع من الخبل، وأنا نفسي قلت: التقليد المذهبي خير من هٰذا الذي يقع الآن، لأنه تجيء طفولات ليست لها ثروات علمية محترمة، ولا مواهب فطرية محترمة، وكل ما تملكه الجرأة، ونوعاً من المجازفة وتدخل وتهاجم الأئمة، وتهاجم التاريخ كله من أجل كلام فارغ تنتمي إليه، وفعلاً، هٰذا العمل مهما كانت دعاواه في التأسي والاقتداء، فهو في الحقيقة، نوع من الصبيانية، وما هٰكذا فعل التابعون، إني أفهم أن السلف هو أن أرجع إلىٰ أبي بكر وعمر ﷺ، وأنظر للآفاق التي بلغوها من استلهامهم للقرآن، قلت لواحد منهم: لماذا نظرت إلىٰ جلباب عمر ولم تنظر إلىٰ عقله، وكلامه؟ عمر الذي قال: لو عثرت بغلة في العراق لحسبتُ عمر مسؤولاً عنها، لِمَ لم يسو لها الطريق، هٰذه سنة عمر، هٰذه سنة الإسلام، عمر قال: لو عشتُ لهم لوصل الراعي في صنعاء حقه من هٰذا المال، والله ما أحد أحق بهٰذا المال من أحد، لو عشت لهم، هٰذه سنة عمر، ما الذي جعلك تنسىٰ السنن في الحكم، والمال، والعبادات، والحياة العامة، وكل ما لفت نظرك شكل ثوب عمر؟!

شيء عجيب!

هٰذه العقليات تندّر بها الأديب الإنجليزي «برنارد شو»[1] عندما تحدث عن معاصريه وسوء فهمهم، قال: امرأة تصف آخر، تقول له: «جنتل مان»، ما أعظم خلقه، ألا ترين إلىٰ حذائه اللامع! فهي حكمت بحذائه اللامع أنه إنسان رفيع، هٰذه العقلية هي التي تريد أن تقود الثقافة الإسلامية الآن، أنظرُ فأجدُ أطفالاً لا عقل لهم، بل رأيت أناساً ممن يشتغلون بالسنَّة ولهم جبروت في إدراك الأسانيد والمتون، لٰكن عقلهم الفقهي صفر! وعقلهم القرآني لا

---

(١) شو، جورج برنارد Shaw, George Bernard كاتب مسرحي إنجليزي، إيرلندي المولد، ولد عام ١٨٥٦م، اشتهرت كتاباته بالسخرية اللاذعة، وتوفي عام ١٩٣٢م.

شيء أيضاً! هٰؤلاء - في مجال الفقه - أخطر، وشرهم أكثر، وأرىٰ أن اتباع الأئمة القدامىٰ وتقليدهم أفضل من اتباع هٰؤلاء.

فقه سيدنا عمر ﷺ في تطبيق النص القرآني:

□□ بدا لي شيء الآن - قد لا يكون في صلب القضية المطروحة عند الكلام عن سيدنا عمر ﷺ: في هٰذا الوقت نرىٰ بعض الرؤىٰ الحسيرة التي أتينا علىٰ شيء من ذكرها، مثل: رؤية الثوب وعدم رؤية الأعمال العظيمة - وذٰلك في الداخل الإسلامي: كذٰلك نرىٰ من بعض الناس من الذين قد يكونون في الخارج الإسلامي إن صح التعبير - يلتقطون من اجتهادات عمر ﷺ، بعض القضايا التي يتراءىٰ لهم أن فيها خروجاً علىٰ النص القرآني، وما إلىٰ ذٰلك، ويروجون لها بحسب فهومهم، ولا يعنيهم من عمر إنجازاته كلها في الإطار الإسلامي، إنما الذي يعنيهم فقط من عمر، بعض الاجتهادات التي توافق زعمهم، ويظنون أنها تعطيهم الحق في الخروج عن النص القرآني.

هٰذه القضية، تشغل البال، وتشكل اليوم إشكالية فعلاً، وأرىٰ أنه لا بد من تصحيح النظر أولاً، ومن ثَمَّ وضع هٰذه الاجتهادات ضمن إطارها القرآني والاجتهادي في شخصية سيدنا عمر ﷺ.

● كان عمر ﷺ وقّافاً عند حدود الله، بل كان ظاهر القرآن يملكه.

ويستحيل ما يقال أنه عطّل نصاً، هٰذا نوع من العبث الفكري أو الفقهي، لأنهم نسبوا إليه أمرين: الأمر الأول أنه ألغىٰ حد السرقة في عام الرمادة، وألغىٰ سهم المؤلفة قلوبهم، وهٰذا كلام ذكرناه في كتابنا «دستور الوحدة الثقافية»، وقلنا: إنه كلام باطل، فسهم المؤلفة قلوبهم هو لمن نريد أن نتألف قلبه، وللموضوع قصة لا بد من معرفتها، فهناك ناس كان الرسول ﷺ قد تألف قلوبهم من مشايخ البدو مثل العباس بن برداس[1]،

---

(١) العباس بن برداس بن أبي عامر السلمي، من مضر، أبو الهيثم: شاعر فارس، من سادات قومه، أمه الخنساء الشاعرة، أدرك الجاهلية والإسلام، وأسلم قبيل فتح مكة، وكان من المؤلفة قلوبهم. وكان بدوياً قحاً، لم يسكن مكة ولا المدينة، وكان ينزل =

والأقرع بن حابس[1]، وبقي هٰؤلاء يأخذون السهم، وجاءوا لأخذه أيام عمر رضي الله عنه، فقال: من أنتم؟ قالوا: المؤلفة قلوبهم، قال: وهل نحن اليوم محتاجون لتأليف قلوبكم، فتحنا فارس والروم، والإسلام استقر وتوطد، فعمر لم يلغ السهم، ولٰكنه ألغىٰ استغلال بعض الناس للسهم، أي ألغىٰ استحقاق الناس له عندما وصلوا إلىٰ مرحلة معينة من الغنىٰ، فالكلام ليس في المبدأ، ولٰكن في محل تطبيقه، وذٰلك مثل قولك: إني خصصت جائزة لمن يحصل علىٰ ٩٠٪، فعندما لا يحصل أحد علىٰ ٩٠٪ تَحجب الجائزة، لٰكن الجائزة موجودة ولم تُلغ، فالمبدأ قائم إلىٰ قيام الساعة، لٰكن الاجتهاد في التطبيق.

كذٰلك من قال: إن الجائع تُقطع يده؟ من أكل وهو جائع فلا تقطع يده أبداً، بإجماع الأئمة، فكيف يقال: إن عمر ألغىٰ الحد؟ الناس جياع فيأكلون، فلا شيء إطلاقاً في ذٰلك، عمر لم يعطّل لا كتاباً ولا سنّة.

□□ قد تكون المشكلة كلها، محاولة لمحاصرة النص القرآني، فلا يكون له امتداد في حياة المسلمين، هٰؤلاء يريدونه للتبرك كما أراده الآخرون، لٰكن من وجه آخر، مع اختلاف في المقصد.

كيف نتعامل مع القرآن ليكون مَصدراً للعلوم الاجتماعية؟

كيف يمكن تأسيس، أو الوصول إلىٰ عصر تدوين للعلوم الاجتماعية، من خلال القرآن الذي يُعتبر مصدر هٰذه العلوم بالدرجة الأولىٰ؟ وكأني أرىٰ أن القرآن هو أكثر اهتماماً بالعلوم الاجتماعية التي تصنع الإنسان وتعيد تشكيله، منه بالعلوم التجريبية والمجالات الأخرىٰ، وأن استخدام السنن

= في بادية البصرة. وقيل: قدم دمشق، وابتنىٰ بها داراً. وكان ممن ذمَّ الخمر وحرَّمها في الجاهلية، ومات في خلافة عمر نحو عام ١٨هـ (٦٣٩م).

(١) الأقرع بن حابس بن عقال المجاشعي الدارمي التميمي: صحابي، من سادات العرب في الجاهلية. قدم علىٰ رسول الله ﷺ في وفد من بني دارم (من تميم) فأسلموا، وشهد حنيناً وفتح مكة والطائف. وسكن المدينة. وكان من المؤلفة قلوبهم، ورحل إلىٰ دومة الجندل في خلافة أبي بكر، وكان مع خالد بن الوليد في أكثر وقائعه حتىٰ اليمامة. واستشهد بالجوزجان عام ٣١هـ (٦٥١م).

النفسية والسنن الكونية معاً، لإثبات الحقائق التي لا بد منها لبناء الإنسان وعمارة الأرض. بل لعله جعل النظر في الآيات الكونية، وسيلة للوصول إلىٰ بناء الإنسان المؤمن.

والمشكلة اليوم: أن يقوم ما يسمىٰ بالإعجاز في العلوم التجريبية كمحاكاة للإنجاز العلمي غير الإسلامي، وتبقىٰ الدراسات ضامرة، بل متخلفة، في العلوم الاجتماعية، وعدم قدرتنا علىٰ اكتشاف مواطن وآفاق وأبعاد الرؤية القرآنية في العلوم الاجتماعية لأنها تخص بناء الإنسان الذي هو محل الأحكام الشرعية، فالأحكام الشرعية هي ثمرة لوجود الإنسان، لقد تقدمنا في العلوم الشرعية وتوقفنا في علوم الإنسان (العلوم الاجتماعية).

● في ظني: أنه بدأ الآن توجه إلىٰ تكوين علم اجتماع إسلامي. وعلم الاجتماع هو في حقيقته: العلم الذي يبحث في الأسرة، والأمة، وما يطرأ عليها من تغيرات، والقوانين التي تنتظمها، وغير ذٰلك. وهـٰذا كله، أصوله في القرآن، وله تطبيقاته في التاريخ الإسلامي. لـٰكن، لم تُجمع قواعده تحت عنوان معين مثل «علم النحو» و«علم الصرف»، إلخ. وللأسف ظل هـٰذا غير محدد في الدراسات الفقهية والتفسيرية والحديثية.

عندما كنا ندرس الحديث، كنا ندرس القانون الدولي أحياناً، كنا ندرس الأسرة، كنا ندرس انهيار الأمم والحضارات، كنا ندرس أشياء كثيرة في علم السنن وتفسير القرآن.

□□ لـٰكن، المشكلة المنهجية لهـٰذه الدراسة أنها بقيت عبارة عن إثارات هنا وهناك، لم تنتظم لتصبح علماً، أو يُلتقط الخيط الذي ينتظمها لتصبح علماً في إطار النفس، والاجتماع والتاريخ.

● لا تنسىٰ أن هـٰذه العلوم حديثة أيضاً في الحضارة المعاصرة، فعلوم النفس، والاجتماع، والاقتصاد، علوم جاء تأصيلها من نتاج الحضارة الحديثة، كان لها أصول قديمة، هي واسعة عندنا، لأن ديننا: دين ودولة، دين ومجتمع، دين وأسرة، دين وحضارة، فالمعالم كلها موجودة عندنا، لـٰكن في السديم الذي اختلط فيه كل شيء، تستطيع في حاشية من حواشي الأزهر

أن تستخرج عدة علوم من صفحة واحدة، فمثلاً، عندما كنا ندرس هٰذه العبارة: (حقائق الأشياء ثابتة، والعلم بها متحقق خلافاً للسفسطائية)، وجدت أن الأستاذ يدخل أولاً: الحقائق جمع حقيقة، والحقيقة ما به الشيء هو هو، يدخل من باب «ما به الشيء»، وهل التعريف بالحد أو بالرسم، ودرسنا المنطق كله في التعريف هنا، هل: «هو هو» مبتدأ وخبر؟ كيف يكون المبتدأ عين الخبر؟ الفرق بين الهوية والماهية والحقيقة والفاعل، فتدخل في مسألة أخرىٰ، وفي أدب البحث والمناظرة وتحديد المفاهيم، ولا نزال نتفرع من هٰذه الأمور حتىٰ نشعر بأننا درسنا نصف العلوم الإنسانية في جملة واحدة، طبعاً، هٰذه الدراسة فيها خير وفيها شر، خيرها أنها تتعمق وتجعلك تتعرض لعلوم كثيرة بهٰذا التعمق، وفي الوقت نفسه، فقدنا النظرة العامة للأمور.

وقد قلت لبعض المسؤولين: بدل أن تدرسوا الكتاب علىٰ هٰذا النحو المجزأ، فليقدم لنا واحد خلاصة مجملة للكتاب كله، ثم نتعمق في بعض الفصول، ثم نتعمق في بعض الجمل، أما هٰذه الدراسة التجزيئية التي نحيا بها فهي دراسة خطيرة، وقد عاش الأزهر في هٰذا اللون من الدراسة، وأحيا وأمات في إطار الجزئيات، وبدل أن يبدأ بالصورة الكلية وينتهي إلىٰ الجزئيات، بدأ بالطريق المعاكس، وإسقاطه جاء من هٰذه الناحية، والإنسان عندما يشعر بأنه أعمىٰ، فقد كيانه، بطريقة من طرق الغباء الدارسي والمنهجي، فإنه يكفر بالإسلام، وقد كفر به بعضهم فعلاً.

□□ أتصور، حتىٰ نصل إلىٰ مرحلة تأسيس، أو تدوين علوم اجتماعية، مطلوب منا لون من الرحلة مع التراث الإسلامي لاستخلاص أصول هٰذه العلوم المنبثة هنا وهناك، في إطار الرؤية القرآنية.. والأستاذ محمد المبارك[1] رحمه الله

---

(١) د. محمد المبارك، من علماء سوريا، كان عميداً لكلية الشريعة بدمشق، ثم رئيساً لشعبة الدراسات الإسلامية بجامعة أم درمان، ثم درَّس بالجامعات السعودية وبمعهد الدراسات العليا بمصر.

من مؤلفاته: «فقه اللغة»، و«خصائص العربية»، و«نظام الإسلام»، و«المجتمع الإسلامي المعاصر».

عنده نظرات دقيقة في هٰذا الأمر، ويمكن أن نقول: بأنه بدأ بوضع الخطوات الأولىٰ في هٰذا الاتجاه.. وله خطوات طيبة في الإطار التربوي والاجتماعي بحاجة لمتابعة السير.

● هو فعلاً وضع نظرات في علم الاجتماع، وهو رجل مسلم.. وبدأ يعمل البرنامج.. وأظن أنه مع بعض الناس وضع البرناج، وقد أعطاني مرة مذكرة نحو من عشرين صفحة، فيها البرنامج.. لٰكن لا أدري: أين ذهبت عني؟ ويمكن الاطلاع علىٰ هٰذه الورقة لنرىٰ كيف أن القرآن والسنة أيضاً مصدر للعلوم الاجتماعية. لٰكن المشكلة اليوم بتوقف العقل المسلم.

□□ هل نستطيع القول: بأن تأسيس هٰذه العلوم، أو صلة ما انقطع، أو بلورة وجمع هٰذه النظرات المنبثة هنا وهناك، لا بد تتبلور فتصبح علماً..

● الأمر هام، ويجب أن تقوم به جامعة إسلامية الآن، ويجب أن تختار هٰذه الجامعات رجالاً لهم خبرة بالعلوم الأجنبية، وفي الوقت نفسه، لهم اطلاع علىٰ التراث الإسلامي، ومعهم بعض الذين لهم خبرات قرآنية ودراسات قرآنية معمقة، كفريق عمل، ومن ثَمَّ فالكل، يمكن أن يطلعوا لنا بعدة علوم مرة واحدة: علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الاقتصاد، وعلم التاريخ، لأن علم التاريخ أيضاً عندنا مظلوم، حتىٰ كإحصاءات، لا يوجد.. ولذٰلك، عندما أريد قطع الأمة عن ماضيها، قُطعت، لأن التاريخ غير مربوط بالحاضر والرسول ﷺ كان يُعلِّم المغازي كما يُعلِّم السورة من القرآن، لكي يربط الأمة..

أثر الوراثة والاكتساب في حياة الأمم:

□□ المسؤولية في الإسلام فردية، والإسلام يحاسب الإنسان عن عمله... لٰكن الأمر اللافت للنظر عند الكلام عن اليهود وبيان فسادهم، أنه يُخاطب الأحفاد بجرائم الأجداد في القرآن، وكأنما الجرائم جبلة فيهم، وليست مقتصرة علىٰ جيل بعينه، ولذٰلك خوطبوا بجرائم آبائهم وأجدادهم، فالجرائم تنحدر إليهم في جبلتهم وطبيعتهم.. وعلماء الوراثة الآن، يقولون: بأن بعض الصفات المكتسبة بالمعايشة والممارسة، تنقلب إلىٰ صفات وراثية.. وهناك

دراسات لدىٰ بعض الماركسيين في هـٰذا الموضوع، حتىٰ أنهم يقولون: إذا استطعنا أن نصل بالمجتمع لأن يصبح شيوعياً، فيمكن ـ فيما بعد ـ أن نفرِّخ ـ في المستقبل ـ شيوعيين.. فالأمر عبارة عن توفير مناخ، ويُصنع جيل المستقبل.

● لماذا عُيِّر بنو إسرائيل، المعاصرون للنبي ﷺ بما فعل آباؤهم؟ فكان الجواب جواباً اجتماعياً، لأن الأمة كيان واحد ممتدة جذوره في القدم، وفروعه في الحديث، وما دام المحدَثون ينبعثون من الأصول القديمة، فهم يُحاسبون عليها.

عندما كان الدكتور محمد يوسف موسىٰ يدرّس لنا الأخلاق، وهو رجل مسلم حصل علىٰ شهادة الأكاديمية من السوربون في «ابن رشد» قال: يكاد العلماء الآن يستقرون علىٰ أن البيئة تغلب الوراثة. ولذٰلك يشير هنا الحديث: **«فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»**[1]، لـٰكن معنىٰ هـٰذا أن الصفات المكتسبة تورث. ويقول لك: إذا أردت ابناً صالحاً فذٰلك ممكن، ولـٰكن لا بد أن تكون أنت تسير علىٰ طريق صارم في سلوكك وأخلاقك ونظافتك وحياتك العامة، لأن هـٰذه الصفات والخصائص تنقلب إلىٰ مُورِّثات، وتظهر في الأولاد.. فهـٰذا يعطي فكرة.

لـٰكني أرىٰ أيضاً أن الأمم قد تتغير.. وربما يحدث هـٰذا التغيير بسبب التحدي، أو أية رجّات اجتماعية أخرىٰ.. فاليهود الذين قالوا لموسىٰ:

﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة].

رأيتهم الآن يقاتلون بضراوة! والأمة القرآنية التي قالت لرسولها: (لو خضت بنا البحر لخضناه معك)، أمة ـ الآن ـ مسترخية، وتكاد تموت في جلدها.. يقع في بلادنا ما لو وقع في أي بلد آخر، لأرغىٰ وأزبد، وفعل الأفاعيل.. ومع ذٰلك، الناس نائمة.. لقد تبلدت.. أو تحجرت.

---

(١) الحديث متفق عليه، رواه البخاري في «صحيحه» ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه ـ في كتاب الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين. ورواه مسلم في «صحيحه»، في كتاب القدر، باب: معنىٰ كل مولود يولد علىٰ الفطرة، وحكم أطفال الكفار وأطفال المسلمين. واللفظ للبخاري.

نماذج للاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي، وثواب الصمود والمواجهة (من خلال الرؤية القرآنية):

□□ تعقيباً علىٰ أثر الاستبداد السياسي في الأمم، وباعتبارنا نحاول أن ننهل من القرآن، وننطلق منه، خطر ببالي أنموذجان قرآنيان قد يكون من المفيد التوقف عندهما حتىٰ لا يكون السقوط الحضاري في مناخ الاستبداد علىٰ المستوىٰ الفردي والجماعي:

الأنموذج الأول: القرآن من قوم فرعون كأنموذج متصاعد للحاكم الظالم في التاريخ البشري في صراعه مع الحق الذي تمثله النبوة.. وكان فرعون، من بين سائر الظلمة، هو الأنموذج المتصاعد والذي بلغ من طغيانه ما لا يمكن أن يبلغه أي حاكم في أي عصر.. ويبقىٰ فرعون هو الأنموذج في الظلم والاستبداد السياسي: ممارساته في إطار الشعب، من تقتيل الأبناء، واستحياء النساء، حتىٰ لا يُنازع السلطة.. بل لقد وصل الأمر به إلىٰ مرحلة ادعاء الألوهية، وتوظيف الناس لأهوائه، والاستخفاف بهم، وما إلىٰ ذٰلك.

أما **الأنموذج الثاني**: وهو المقابل والموازي للأنموذج الأول، فهو «قارون»، من الناحية الاقتصادية والظلم الاجتماعي..

إن هذين الأنموذجين القرآنيين، لهما دلالات لا بد من التوقف عندها أثناء الكلام عن الاستبداد السياسي، وعواقبه، وكيفية مواجهته.. لا بد من التوقف عند الكيفية التي تم بها تقويض فرعون وحكمه والتي كانت من داخل القصر، حتىٰ لا يقع الإنسان، ولا يسقط علىٰ أقدام الاستبداد السياسي.. ففكرة ولادة سيدنا موسىٰ ﷺ؛ وقصته؛ وفراغ قلب أمه؛ وقصة أخته التي قصّته؛ وأمه التي أرضعته في القصر؛ وكيف أنه تربىٰ في القصر ليكون لهم عدواً وحزناً؛ وامرأة آل فرعون؛ ومؤمن آل فرعون الذي وقف في مواجهة السلطة والاستبداد السياسي من داخل السلطة ليعلن المثوبة إلىٰ الله علىٰ ملأ من الناس؛ وأن هٰذه الدنيا متاع؛ وما إلىٰ ذٰلك؛ وقصة السحرة... إلخ.

حبذا لو نقدم أنموذجاً قرآنياً لحماية الإنسان المسلم من الانكسار أمام

الاستبداد السياسي ومعالجة السبب الذي أوقع الدولة الإسلامية في الغياب الحضاري، وأهمية الصمود، وثواب المواجهة، ونأخذ نموذج «قارون» فيما يتهيأ لكم من ملامح في الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي..

● لاحظت في سورة القصص، وهي السورة التي تحدثت عن فرعون وعن بني إسرائيل، أن السورة بدأت الكلام عن الفرد المدعي للعظمة الذي يريد أن يحكم ضمائر الناس، ويجتاح حقوقهم، ويفعل كل ما تمليه عليه قرائن السوء في كيانه. ولاحظت أن آخر هٰذه السورة، هو الحديث عن فرعون من الناحية السياسية، وقارون من الناحية الاقتصادية.. أي فرعون كمثال الفساد السياسي، وقارون كمثال للفساد الاقتصادي.

ولاحظت أن الخلاصة التي أرادت السورة أن تقررها، من هٰذه الناحية:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص].

هٰذه هي الخلاصة التي ساقتها بعد مصرع قارون ومصرع فرعون. الله سبحانه وتعالىٰ لا يقبل أن يدخل جنته مستكبر وطاغية. بل لعلّي لاحظت قبل ذٰلك أن الطغيان الاقتصادي ذُكر مع بدايات الوحي الأولىٰ، فأيهما نزل قبل الآخر: سورة العلق أم سورة المدثر؟ الأغلب يرىٰ أن سورة العلق هي التي نزلت أولاً. وفي كلتا السورتين، تنبيه إلىٰ الطغيان الاقتصادي، في قوله تعالىٰ:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق].

وفي سورة المدثر:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴿١٦﴾﴾ [المدثر].

طغيان الاقتصاد قد يكون خادماً أو وزيراً للطغيان السياسي، وهو يمهد له، ويوطّن الصدور بكل قوة.

في الطغيان السياسي وجدنا أن فرعون لا يريد أن يحكم الإنسان فقط،

ولـٰكنه يريد أن يحكم الأرواح والضمائر. . ولذلك، عندما آمن السحرة، فهو يقول لهم باستكبار واستنكار:

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [طه: ٧١].

فهو ينتظر أن يكون الإيمان والكفر بإذن منه هو. . ثم وجدنا أن القرآن يحدّث العرب أن فيهم من مشىٰ وراء فرعون في ملكه، ولذلك يقول في سورة المزمل:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل].

ولعل هـٰذا السر في أن بعض المؤلفين القدماء ذكر أنّ «أبا جهل»[1] كان فرعون هـٰذه الأمة الإسلامية.

ليكن ما يكون، لـٰكن المهم أن تفصيل الحكم الفرعوني جاء في عدة نواح: الذين ألِفوا الانحناء لفرعون ظلوا فاسدين طيلة حياتهم. والقرآن يقول لنا: عندما بدأ موسىٰ بدعوته للحرية وإلىٰ الإيمان وإلىٰ طرح الخرافات لم يستجب له الكبار وإنما استجاب له الشباب:

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [يونس].

لقد بقيت للذين كبروا في الضلال والظلم، خصالهم هـٰذه، وتحدث عنها العهد القديم. . يقول تعالىٰ:

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء].

---

(١) عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي: أشد الناس عداوة للنبي ﷺ في صدر الإسلام، وأحد سادات قريش وأبطالها ودهاتها في الجاهلية. أدرك الإسلام، وكان يقال له «أبو الحكم» فدعاه المسلمون «أبا جهل» واستمر علىٰ عناده، يثير الناس علىٰ محمد رسول الله ﷺ وأصحابه، لا يفتر عن الكيد لهم والعمل علىٰ إيذائهم، حتىٰ كانت وقعة بدر الكبرىٰ، فشهدها مع المشركين فكان من قتلاها عام ٢هـ (٦٢٤م).

لٰكن العهد القديم يقول هنا: إن بني إسرائيل صرخوا في موسىٰ وقالوا له: ألم نحذرك من معاداة الفراعنة، ألم ننبهك.. كان أولىٰ بنا أن نموت في الوادي من أن نموت في هٰذه الصحراء.. فالقوم مردوا علىٰ الذل وعاشوا به. وهٰكذا استمر الذل في الحياة، في كثير من الأجيال..! إن الذل يطوي الظهور، ويُفسد الملكات.. وهٰؤلاء هم الذين رفضوا أيضاً أن يدخلوا الأرض المقدسة.

إن أثر الذل خطير في النفس البشرية، ولعل أحسن من كتب في هٰذا الموضوع، عبد الرحمٰن الكواكبي في كتابه «طبائع الاستبداد».

يرىٰ بعض الناس أن موسىٰ، لو رُبِّيَ في بيت إسرائيلي فإنه لن يكون عزيزاً أو نبياً كما حدث له عندما قدَّر له ربه أن يتربىٰ في قصر فرعون.. فموسىٰ في قصر فرعون أصبح كواحد من أبناء الملوك، في نفسه عزة الملك. وفي الوقت نفسه لم ير شيئاً من الذل الذي أصاب قومه. كان بمنأى عن الذل، بعيداً عن مناخ قومه.. عاش رفيع الرأس. واستنكر الذل علىٰ قومه فيما بعد لأنه لم يألف الذل. وكان من تعبيره، عندما حاجه فرعون في قتله لأحد أتباعه:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء].

أي، كونك تركتني حيّاً لأنك استعبدت بني إسرائيل، هل هٰذه منّة لك عندي، أم أن الجريمة أنك استعبدت أناساً ما كان ينبغي لك أن تستعبدهم؟

علىٰ كل حال، كانت طبيعة فرعون، كما لاحظنا في الفراعنة أو المستبدين في إنجلترا وألمانيا وكل مكان، وجدناهم يقسمون الأمة إلىٰ قسمين: قسم يستلحقه، كأتباع ويغريهم بالمال والحظوة، وقسم يستذله ويفرغ فيه سمومه. يقول سبحانه وتعالىٰ:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص].

وكما قيل: إن الفساد يجيء من أعلىٰ ويهبط إلىٰ أدنىٰ، والإصلاح يبدأ

من أدنىٰ ويصعد إلىٰ أعلىٰ. . فعلىٰ الذين استُضعفوا أو الذين استُعبدوا أن يتحرروا أو يبحثوا عن خلاص. . هٰذا واجب عليهم. . لأن الإصلاح يأتي من هٰذه الناحية وذٰلك الذي أشار إليه القرآن في قوله:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص].

لٰكن يبقىٰ سؤال: من الذي يقوم بهٰذه المهمة؟. . الشعوب ليس أمرها ـ كما يقول الشيوعيون ـ هي التي تصنعه. . الواقع أنه لا بد ممن يفجِّر الطاقة ويجمِّع القوىٰ، ويحرك الشعوب. . لا بد من عدسة تجمع الأشعة وتركزها. . ولذٰلك التعبير القرآني فيما بعد كان منبهاً:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧].

لأنه هو الذي سيقوم بهٰذه المهمة. . وعُرف أن موسىٰ ألقي في اليم، وتربىٰ في بيت فرعون. . إلخ القصة المعروفة.

لاحظت أيضاً أن أول ما اصطدم موسىٰ، كان حمية لواحد من بني جنسه، وقتل المصري الذي كان يهدد اليهودي. فلما تاب الله عليه، كانت دعوته موضع نظر أو موضع استغراب. . .

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص].

كأنه سيبقىٰ علىٰ العهد به، يحارب المجرمين والظلمة والمتكبرين، ويبقىٰ مع المستضعفين. وهي حقيقة وفَّىٰ بها، ولما تكررت المحنة، كاد يفعل ما فعله المرة الأولىٰ لولا أن الرجل قال له:

﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا﴾ [القصص: ١٩].

ومشىٰ خارجاً عن مصر كي يأوي إلىٰ الظل ويقول:

﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

وهي دعوة كلها رقة وتلطف في استنزال حب الله سبحانه وتعالىٰ. .

وتزوج. .

والواقع أنا أحياناً أنظر إلىٰ هـٰذا الزواج وأتساءل: هل الرجل الذي زوَّج موسىٰ كان شعيباً نفسه؟ ليس في القرآن ما يدل علىٰ هـٰذا، وليس فيه أيضاً ما يمنع هـٰذا، لـٰكن أكثر المؤرخين يرون أنه رجل صالح من قوم شعيب.. وترىٰ في هـٰذا المسلك الفطرة البشرية العادية التي لم يفسدها تكلف البشر عندما أقاموا مجتمعاتهم علىٰ التفاوت والتكلف.. عرض ابنته.. وروي أن عمر بن الخطاب عرض ابنته.. كأن الأمور بين الناس الكرام ليس فيها هـٰذا الوجه الذي يجعل بعضهم يخاف.. ولـٰكن أيضاً، عمر ﷺ عرض علىٰ أبي بكر ﷺ، فهو عرض علىٰ ناس كبار لهم شرف ومكانة لأن الإنسان قد يعرض ابنته علىٰ إنسان خسيس فتكون مأساة.. العرض ليس فيه شيء، ولـٰكن عندما تكون النفوس طيبة وعظيمة.

وقضية الجبروت في قصة فرعون، تُلحظ في عدة أمور من أماكن في القرآن الكريم.. الشيء الأول: أن المصريين قال بعضهم لبعض: لنذهب إلىٰ المبارزة بين السحرة وموسىٰ:

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء].

وهـٰذا شيء عجيب! فماذا لو غلب موسىٰ هل سيتبعونه؟ لقد فهموا أن الغالب لن يكون إلّا الفراعنة، أما إذا كان الغالب غيرهم فالله أعلم بمدىٰ اتباعهم له.. تلك رهبة القوة..

الشيء الثاني: الذين جاءوا لفرعون طلبوا أمرين اثنين: الحظوة والمال.. وفعلاً، كانت لهم الحظوة وكان لهم المال.. والغريب أن هـٰؤلاء السحرة تحولوا بين عشية وضحاها نماذج لأصحاب الفداء والتضحية والإيمان الصادق. ويعجب الإنسان كيف أنهم انقلبوا من الضد إلىٰ الضد! وقالوا لفرعون عندما هُددوا بأنهم سيستأصلون:

﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ﴾ [طه].

وهـٰذا مسلك لمصريين مستضعفين شرح الله بالإيمان صدورهم، فكانوا علىٰ هـٰذا المنوال.. وهم مصريون كانوا يخدمون الفراعنة..

المصري الآخر صاحب القصة العجيبة: بدأ متخفياً واصطنع لهجة الحياد، وبدأ يتحدث حديثاً فيه تعليم، وفيه ذكاء، وقال للناس:

﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر].

وعلىٰ الرغم من أنهم منتصرون في الأرض وأقوياء، لٰكنه حذرهم:

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر: ٢٩].

وكان رد فرعون من نفس العينة، وكأنه يقول لهم: إذا كان هٰذا يحاول بالعقل والتؤدة والبحث أن يوصلكم إلىٰ الطريق المستقيم، فالطريق الذي أهديكم إليه أنا هو الطريق المستقيم:

﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر].

وعاد المؤمن الذي يستر إيمانه، يحدِّث مرة ثانية ويذكرهم بأن موسىٰ جاء البلد ودعا إلىٰ التوحيد.. لٰكن أبىٰ فرعون! يقول تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر].

فهو يستخدم هنا كل ما يمكن أن يحارب به كبر، وجبروت، وطغيان، واستبداد سياسي.

وعاد مرة أخرىٰ يتحدث:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [غافر].

فكشف عن نفسه، ووجد أن المصارحة لا بد منها..

والغريب أن فرعون، ألحظُ فيه ما ألحظه في المستبدين، وهو أن فيهم كبرياء، وعناداً، وفسوقاً، وجحوداً، وقسوة قلب عجيبة.. وفيهم أيضاً إلىٰ جانب هٰذا كله، غباء يستدعي النظر! لأنه يطارد موسىٰ ومن معه، وجد البحر

يخضع لعملية تحول غير عادية.. الأمواج تنحدر يمنة ويسرة، ويبدو الطريق يبساً.. فكان ينبغي أن يفهم أن هناك حالة غير ما ألِفَ، وغير ما ينتظر، وهٰؤلاء - بعصا موسىٰ - عرفوا كيف يشقوا طريقهم إلىٰ البحر، فكيف يمضي وراءهم؟ إنه فهم أن البحر سيظل معجزة قائمة من أجله.. هٰذا هو الغباء، وهو غباء مألوف في المتكبرين.. بل لاحظت أن نهايات هٰؤلاء الجبابرة تكون من غبائهم الشخصي.. فهم حتىٰ آخر لحظة تكون لهم تصرفات فيها صلف، وعمًى ينسج علىٰ بصائرهم فلا يستطيعون أن يروا إلّا أهواءهم.

والغريب أن الله سبحانه وتعالىٰ يخص فرعون بخاصية إنه بعد أن يغرق هو ومن معه، يرمي جثته علىٰ الشاطئ:

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢].

ومع ذٰلك:

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس].

الذي كان يُسجد له بالأمس ويدّعي الألوهية، ها هو الآن أمامكم: ميتاً، مكشوف السوءة.. ومع ذٰلك، لا يزال الناس في طغيانهم وكبريائهم.

لاحظت أيضاً: أنه مجادل بطريقة المتكبرين. لأنه قال:

﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣].

ويقول العلماء: إن «ما» هٰذه تستخدم للسؤال عن الماهية والحقيقة. ولذٰلك أجاب موسىٰ بالأوصاف والخصائص:

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء].

فيرفض فرعون المضي في الجدل علىٰ أنه هو المقصود، ويكلم الحاشية:

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء].

كأنه هو أكبر من أن يكون الكلام موجهاً إليه..

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء].

هنا بدأ الصلف وانطلق الكبر بعد أن شعر من حوله بأن المسألة لا تعنيهم بقدر ما تعني فرعون نفسه. . .

□□ هٰذا الأنموذج الذي ورد في القرآن الكريم، ليكون عبرة للشعوب الذليلة، والمؤمنين في الصمود ومواجهة الظلم، ويكون عبرة أيضاً للمستبدين والطغاة في نهاياتهم ومصارعهم، وما إلىٰ ذٰلك؛ له أبعاد نفسية متعددة يمكن أن تؤصل لتكون منهجاً في تربية الشخصية الاستقلالية التي يحميها الإيمان من الظلم والسقوط واليأس. .

● لعل ذٰلك هو الذي جعل العرب يشتقون من الكلمة مادة لغوية: تفرعن، يتفرعن، تفرعناً. . فالفرعنة أصبحت مادة في اللغة العربية، وهٰذا معناه أن المسألة أصبحت شائعة في الأجيال. . ويدل هٰذا أيضاً، أن القرآن ما كرر قصة من قصصه الأولىٰ التي ذكرها كما كرر قصة بني إسرائيل وفرعون.

وقد رأيت هٰذا أيضاً في سورة البقرة:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

لماذا جادله في الله؟ ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ فكأن الملك هو السبب في إغراء الرجل بالكبرياء وادعاء الألوهية، وأنه نظير لله فيما يفعل في الأرض.

أعتقد أن القرآن الكريم، إنما قص هٰذه القصة عن فرعون وبني إسرائيل، ومصير المستبدين، سواء كانوا سياسيين أو اقتصاديين، أو ماليين، إنما فعل هٰذا لكي نأخذ عبرة: بأنه ما يجوز ترك حاكم يتفرعن. . يجب تقليم أظافر الذين ينزعون إلىٰ الاستعلاء علىٰ الخلق، وادعاء الألوهية. فإذا كانت السلطة أو الثروة من أسباب الشذوذ، فيجب أن تقيد السلطات بحيث لا تغري أحداً بهٰذا الاستبداد الأعمىٰ، وأن تقيد الأملاك، وأن تراقب، فلا تكون سبباً في أن يتألف من أصحاب الأموال طبقات من المترفين الذين يُفسدون في الأرض ولا يصلحون.

تدبر القرآن: عاصم من السقوط الحضاري:

يقول الشيخ رشيد رضا في «المنار»: إن موسىٰ ذُكر في القرآن ١٢٠

مرة.. فما ذكر اسم نبي ولا ملك كما ذكر اسم موسىٰ.. إن قصة موسىٰ لم تُذكر للتسلية، وإنما حتىٰ لا يتحول الخلفاء إلىٰ فراعنة، وحتىٰ تعرف الشعوب أيضاً أن عبادة غير الله جريمة، وأن الرضا بالذل ستكون عقباه الهوان في الدنيا والهوان في الآخرة. ولعل القرآن الكريم تحدث كثيراً عن أن الأتباع يلحقون متبوعيهم في جهنم، لكي يفطم النفوس عن هٰذه التبعية الذليلة..

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الصافات].

﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾ [ص].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ [سبأ: ٣٢].

إلىٰ آخر الآيات التي تحدثت عن هٰؤلاء ومنهم الفراعنة. لأنه بعد قصة فرعون مباشرة في سورة غافر، تجد قوله تعالىٰ:

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر].

هٰذا المعنىٰ، تكرر نحو خمس مرات في القرآن الكريم، حتىٰ لا يكون هناك في الأمة أتباع مسحورون بقوة السلطة، وحتىٰ لا يكون هناك من فقد ضميره، وإرادته، وعقله، وهو مخدوع بجبروت الجبارين. وبيَّن القرآن أن هٰذا الجبروت هالك في الدنيا ولن يغني عن أصحابه أبداً.

هٰؤلاء الجبابرة سيتبرأون من أتباعهم يوم القيامة وعندئذ يقول الأتباع المقهورون الأذلة:

﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة].

ولو أننا تأملنا في القصص القرآني، واستفدنا منه أحكاماً كما نستمد

الأحكام من آية الوضوء أو الغسل، ـ واستفادة الأحكام من الواقع العملي في تاريخ البشرية أهم وأجدر لأنها عامة، ولأنها تتصل بسنن حضارية لا تتخلف ـ كانت الأمة الإسلامية لا تقبل دنيَّة أبداً.

لم ننتَفع بالوحي وَلم نعتبر بالتاريخ:

□□ لو تدبر المسلمون القرآن تماماً، لما حلَّ بهم ما حلَّ من الاستسلام، والسقوط، والاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي.. لكانوا في مستوىٰ قرآنهم، وما قصَّ عليهم من قصص ليأخذوا العبرة، فتحول دون وقوعهم في ما وقع به الأقوام السابقون.. لـٰكن، المشكلة: أن القرآن بقي معزولاً عن حياة المسلمين، فلم ينتبهوا إلىٰ مثل هـٰذه القضايا..

● يمكن أن نطبق علىٰ هـٰذا، مغزىٰ حديث رسول الله ﷺ: **«لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع حتىٰ لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»**[1].. قالوا: اليهود والنصارىٰ.. قال: **«فَمَنْ؟»** فنحن مضينا علىٰ سنّة من لم ينتفع بالوحي، ولم يعتبر بالتاريخ!

وقبل قصة فرعون، في سورة غافر، تجد هـٰذا المعنىٰ:

﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ [غافر].

ما كان ينبغي أن نخشع للجبابرة أو الفراعنة، لأن الله أقوىٰ وأشد..

الله أعلم حيث يجعَل رسالته..

هل تنطبق علىٰ الأمة كما تنطبق علىٰ الفرد؟

□□ نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين. **فلقد أسماه الله قرآناً عربياً.** ولا شك أن العروبة المقصودة هنا هي: عروبة اللسان، وليست عروبة الجنس

---

(١) انظر تخريج الحديث الصفحة ١٨٠.

والقوم، وإن كان العرب هم مادة الإسلام وحملة رسالته إلىٰ العالم، حتىٰ أن الله سبحانه وتعالىٰ قال:

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف].

فذكر القوم هنا ملفت للنظر، كما أن الله سبحانه وتعالىٰ عندما تكلم عن هجر القرآن، جاء ذٰلك بلفظ:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان].

ووصف القرآن العرب بالضلال، وهٰذا لا يعني بحال من الأحوال ـ في نظري علىٰ الأقل ـ عدم الأهلية لحمل الرسالة.. بل قد يعني الأهلية، لأن الضال هو الذي يفتش عن شيء فلا يجده.. إنه ليس إنساناً سكونياً، ولٰكنه يبحث عن مثل أعلىٰ، ويحاول أن يجده.. فإذا لم يجده ويصل إليه، يُسمىٰ: ضالاً.. فهل يمكن أن نقول: بأنه كان بين العرب ـ بخصائصهم وصفاتهم ـ وبين الإسلام، تواعد ولقاء؟ وإلىٰ أي مدًى يمكن أن ينطبق قوله تعالىٰ:

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

علىٰ الأمم كما ينطبق علىٰ الأفراد؟

● الأستاذ موسىٰ سالم، يرىٰ أن العرب كأن القدر صنعهم كي يكونوا حملة الإسلام وغرس في كيانهم المعنوي مواهب نفسية وفكرية، بل جعل حياتهم كأنها استعداد لتكون أواني يصب فيها الوحي.

علىٰ كل حال، الذي لا شك فيه أنه كان لا بد أن تكون الرسالة في هٰذا الجنس، لأنه ما كان يمكن أن تكون في الفرس ولا في الروم. لأن السلطة المركزية الموجودة في فارس أو الروم، كانت ستلقي القبض فعلاً علىٰ مدّعي الرسالة وتنتهي منه في يوم. لٰكن، الحياة العربية التي كان يعيش فيها المجتمع العربي، حياة من لون خاص. فقد وفرت لأصحابها من الحرية، ما تعرفه الآن الولايات المتحدة وإنجلترا وفرنسا. أمكن أن ينتعش الفرد في هٰذه الأيام انتعاشاً يحس بشخصيته، وبقدرته، وبامتداده المادي والأدبي دون أن يكون هناك حد لهٰذا. فالقبائل العربية كفلت لأبنائها، بهٰذا التعصب أو

التجمع، ما جعل كل واحد منهم يفعل ما يريد. وهٰذا هو السر فيما أعتقد - وهو ما كتبته في كتابي «حديث إلىٰ الأمة العربية» - أن الله اختار العرب بمثل هٰذا ابتداءً. وهناك صفات أخرىٰ منها:

إن الحكم الذي يشيع بينهم، وفّر حريات لا نظير لها في الأرض. حتىٰ أن المُعارض يقاتل دون صاحبه حتىٰ يبدي رأيه:

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦].

فأبو طالب[١] وغيره من بني هاشم يرون أن ابن القبيلة لا بد وأن يقول ما عنده.. ونحن لا نتبعه، لٰكن من حقه أن يقول رأيه.. هٰذا نموذج من الحرية لم يُعرف في الأرض يومئذٍ، جعلهم مؤهلين لأهلية الرسالة.

الشيء الآخر: أن العربي في هٰذه الصحراء، أمكن أن تكون له خصائص، تحتاج الرسالات العظيمة إليها، مثل: اعتداده بنفسه، اكتفاؤه الذاتي بالقليل، أهم ما ننتظره من الخَلْق، من الناحية الأدبية والمعنوية، وجدناه عندهم.. حتىٰ، أن قاطع طريق مثل عروة بن الورد يرىٰ أنه:

أليس عظيماً أن تلم ملمة وليس علينا في الحقوق معوَّل

وكما يقول طرفة[٢]:

---

(١) عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم، من قريش، أبو طالب، والد علي ﷺ وعمّ النبي ﷺ وكافله ومربيه وناصره، ولد عام ٨٥ قبل الهجرة (٥٤٠م). وكان من أبطال بني هاشم، ورؤسائهم، ومن الخطباء العقلاء الأباة. وله تجارة كسائر قريش. نشأ النبي ﷺ في بيته، وسافر معه إلىٰ الشام في صباه. ولما أظهر الدعوة إلىٰ الإسلام هم أقرباؤه (بنو قريش) بقتله، فحماه أبو طالب وصدهم عنه، فدعاه النبي ﷺ إلىٰ الإسلام، فامتنع خوفاً من أن تعيره العرب بتركه دين آبائه، ووعد بنصرته وحمايته، وفيه الآية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ واستمر علىٰ ذٰلك إلىٰ أن توفي عام ٣ قبل الهجرة (٦٢٠م).

(٢) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد، البكري الوائلي، أبو عمرو: شاعر، جاهلي، من الطبقة الأولىٰ. ولد في بادية البحرين نحو عام ٨٦هـ (٥٣٨م)، وتنقل في بقاع نجد. واتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه. ثم أرسله بكتاب إلىٰ المكعبر (عامله علىٰ البحرين وعمان) يأمره فيه بقتله، لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها، فقتله المكعبر عام ٦٠ قبل الهجرة (٥٦٤م). أشهر شعره معلقته، ومطلعها:
«لخولة أطلال ببرقة ثهمد».

لو كان في الألف منا واحد فدعوا   من فارس؟ خالهم إياه يعنونا

إن الشعور بالذات. . الشعور بأن العربي، كان في شخصيته قوة، ولا تزال في البداوة إلىٰ الآن، بقايا من هٰذه النفسية التي تعتد أكثر من اللازم بما تملك من خصائص مادية وأدبية.

يقول التاريخ: إن الجيش الفارسي، وكذٰلك الرومي كانت وراءه عربات الأطعمة. . أما العربي، فيكفيه أن يضع في جيبه تمرات ويقاتل. . لم يألفوا ذل الخضوع لسلطة مطلقة. . الانحناء للملوك، والفساد الناشئ عن ترف، والانحلال والرخاوة، كل ذٰلك لم يكن موجوداً عند العرب. كانوا بعيدين عن ذٰلك.

□□ يبدو لي: أنه كانت هناك بعض التوجهات للأفكار المثالية أيضاً، وهو ما يمكن أن نلمحه في نقطتين:

الأولىٰ: وجود الحنفاء في المجتمع نفسه، وتأبيهم عن عبادة الأصنام، ومواقفهم منها. . فعبادة الأصنام لم تكن متعمقة في نفوسهم. . نجد شاعرهم يقول:

أَربٌّ يبول الثعلبان برأسه؟   لقد هان من بالت عليه الثعالب

ويعدل عن عبادة الصنم عندما يراه بهٰذه الحالة المخزية.

الثانية: كان هناك توجه نحو فضائل اجتماعية، مثل: تفكيرهم في حلف الفضول الذي اتفقوا فيه علىٰ أن لا يبقىٰ في مكة مظلوم إلَّا وترد له مظلمته، واجتمعوا علىٰ ذٰلك. . وعرفوا، أيضاً، نوعاً من الشورىٰ، وكانت عندهم دار الندوة. .

● إلىٰ جانب ما تقول: إباء «أبو سفيان»[1] ـ وهو مشرك ـ، أن يكذب!

---

(١) صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف: صحابي، من سادات قريش في الجاهلية. وهو والد معاوية رأس الدولة الأموية. ولد عام ٥٧ قبل الهجرة (٥٦٧م)، وكان من رؤساء المشركين في حرب الإسلام عند ظهوره: قاد قريشاً وكنانة يوم أُحُد ويوم الخندق لقتال رسول الله ﷺ وأسلم يوم فتح مكة (سنة ٨هـ) وأبلىٰ بعد إسلامه البلاء الحسن. وشهد حنيناً والطائف، ففقئت عينه يوم الطائف، ثم فقئت الأخرىٰ =

ومن كلمة هند بنت عتبة[1]: أوتزني الحرّة يا رسول الله؟! رفض الكذب، رفض الزنا.. كانوا يشعرون بأن التنزه عن الدنايا مطلوب، حتىٰ الذي كان يسرق، كان يسرق لأنه يريد أن يوزع بعض المال!

□□ لٰكن، قد تكون المشكلة هنا: أن بعض من يعملون علىٰ إلغاء النبوة، يعتبر الإسلام لوناً من العطاء العربي، وعبقرية العقلية العربية، وما إلىٰ ذٰلك.. فهناك من اعتبر الإسلام تطوراً، أو امتداداً طبيعياً لواقع العرب في مرحلة معينة، وأن العرب كانوا سيبلغون هٰذه المرحلة الحضارية بشكل طبيعي، لٰكن نزول القرآن سرَّع ذٰلك!

نجد هٰذا الكلام في طروحات بعض أصحاب الدعوة القومية، الذين يجهدون أنفسهم في أن تكون القومية فلسفة علمانية بديلة للإسلام.

● هٰذا الكلام نرفضه.. لأن العرب ـ لولا الإسلام ـ كان يمكن أن يبقوا علىٰ ما كانوا عليه طوال حياتهم.

□□ وأيضاً بدليل أن بعض العرب الذين لم يعتنقوا الإسلام ممن كانوا كباراً، ومؤثرين في الحياة العربية، انقطعت صورتهم، ولم يستطيعوا أن

= يوم اليرموك. فعمي. وكان من الشجعان الأبطال. ولما توفي رسول الله ﷺ كان أبو سفيان عامله علىٰ نجران. ثم أتىٰ الشام، وتوفي بالمدينة. وقيل بالشام عام ٣١هـ (٦٥٢م).

(١) هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف: صحابية، قرشية، عالية الشهرة. وهي أم الخليفة الأموي «معاوية» بن أبي سفيان. تزوجت أباه بعد مفارقتها لزوجها الأول «الفاكه بن المغيرة» المخزومي، في خبر طويل من طرائف أخبار الجاهلية. وكانت فصيحة جريئة، صاحبة رأي وحزم ونفس وأنفة، تقول الشعر الجيد، وأكثر ما عرف من شعرها مراثيها لقتلىٰ «بدر» من مشركي قريش، قبل أن تسلم. ووقفت بعد وقعة بدر (في وقعة أُحُد) ومعها بعض النسوة، يمثلن بقتلىٰ المسلمين، ويجدعن آذانهم وأنوفهم، وتجعلها هند قلائد وخلاخيل. وترتجز في تحريض المشركين، ثم كانت ممن أهدر النبي ﷺ دماءهم، يوم فتح مكة، وأمر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة، فجاءته مع بعض النسوة في الأبطح، فأعلنت إسلامها، ورحّب بها. وأخذ البيعة عليهن، وكانت لها تجارة في خلافة عمر. وشهدت اليرموك وحرضت علىٰ قتال الروم. وتوفيت عام ٢٤هـ (٦٣٥م).

يُحدثوا أثراً، وواجهوا الإسلام أيضاً.. ولو كان الإسلام تطوراً طبيعياً لما واجهوه، وبدا فيهم غريباً!

من مستلزمات التلقي القرآني والتعامل مع للنص:

معرفة معهود العرب في الخطاب:

□□ نعود إلىٰ قضية اللغة، ونزول القرآن بلسان عربي، وفهمه من خلال معهود العرب في الخطاب، وإعجازه البياني، ومسؤولية العرب في حمل رسالة الإسلام..

● لم تكن اللغات الحديثة (الإنجليزية، الألمانية، الفرنسية) موجودة عندما وجدت اللغة العربية.. فالإنجليز كانوا في الأصل قبائل الساكسون.. والألمان ينحدرون من أصول جيرمانية.. والفرنسيون من قبائل الوندال.. وكانت لغات هٰذه القبائل أشبه برطانات الحيوانات.. وكانت توجد اللغة اليونانية.. وهٰذه اللغة، إذا قيست، إلىٰ الآن باللغة العربية، يخيّل إليّ أن اللغة العربية تتميز بخصائص ليست موجودة في هٰذه اللغات جميعاً.

□□ وتأسيساً علىٰ ما قلنا من اختيار العرب ليكونوا مادة الإسلام الأولىٰ، لما يحملون من مؤهلات، فإن اللغة العربية، بما تمتلك من خصائص، كانت مؤهلة لأن تكون لغة الوحي..

● **كانت اللغة العربية في الحجاز، حيث نزل الوحي، أصفىٰ اللهجات.. وكان بعض الناس يشبهون الجزيرة العربية بالأبريق الذي يجعل العكار تحت والصفو فوق. فاللغة العربية، في الحجاز وشمال جزيرة العرب، كانت بلغت مستواها الكامل.. أما في أماكن أخرىٰ فلم تكن قد بلغت هٰذا المستوىٰ. فنزل القرآن بلغة قريش.. وقد حاول المستشرقون أن يطعنوا في هٰذا الأمر. وتكلم** طه حسين[1] حول انتحال الشعر، لكي يرد علىٰ هٰذا المعنىٰ. لٰكن الحقيقة،

---

(١) طه بن حسين بن علي بن سلامة، الدكتور في الأدب، وعميد الأدب العربي. أحدث ضجة في عالم الأدب العربي. ولد في قرية «الكيلو» بمغاغة من محافظة المنيا (بالصعيد المصري) عام ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م)، وأصيب بالجدري في الثالثة من عمره، =

أن اللغة العربية صُفيت وأخذت مداها الأحسن والأجمل في لغة قريش، وهٰذا ما جعل كتَّاب الوحي كلهم يكتبونه بلغة قريش، أو بلهجة قريش.

لاحظت، في اللغات الأخرىٰ، مثل: الإنجليزية، والفرنسية: أنه في كلتا اللغتين، لا بد أن تأتي مع المبتدأ أو الخبر، بفعل «يكون».. واللغة العربية تخلو من هٰذا.. ويخيّل إليّ أن فعل «يكون» أو «الكينونة» هنا أقرب إلىٰ الطفولة العقلية.. فمثلاً يقولون: محمد يكون واقفاً!! فما معنىٰ «يكون واقفا»؟ حذف هٰذا الفعل الوسيط «يكون» وجعل النسبة عقلية فقط ونقول: «محمد واقف»، يفهم مباشرة وقوف محمد من التركيب، يدل علىٰ أن اللغة العربية أنضج وأرقىٰ، وأبعد عن الطفولة في التعبير.. لقد أمكن، من خلال الشعر العربي، والبيان العربي، معرفة ضوابط اللغة بدقة..

□□ قد يعنينا من هنا نقطتين:

كون القرآن عربياً، بمعنىٰ أنه يُفهم من خلال معهود العرب في الخطاب.. لٰكن، هٰذا يقتضينا العودة إلىٰ قوله تعالىٰ:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤].

والرسالة جاءت عامة للناس جميعاً.. والأقوام الأخرىٰ لا تعرف العربية.. ولا بد من قراءة القرآن بالعربية، وفهمه من خلال معهود العرب في الخطاب ـ كما أسلفنا ـ..

= فكف بصره، وبدأ حياته في الأزهر ثم بالجامعة المصرية القديمة. وهو أول من نال شهادة «الدكتوراة» منها (١٩١٤) بكتاب «ذكرىٰ أبي العلاء» وسافر في بعثة إلىٰ باريس فتخرج بالسوربون وعاد إلىٰ مصر، فاتصل بالصحافة. وعيّن محاضراً في كلية الآداب بجامعة القاهرة. ثم كان عميداً لتلك الكلية فوزيراً للمعارف. وفي هٰذه البرهة تمكن من جعل التعليم الفني والثانوي مجاناً. وكان من أعضاء المجمع العلمي العربي المراسلين بدمشق ثم رئيساً لمجمع اللغة بمصر.

وأهم كتبه: «في الأدب الجاهلي» و«في الشعر الجاهلي» و«حديث الأربعاء» و«قادة الفكر» و«علىٰ هامش السيرة» و«مع أبي العلاء في سجنه» و«مع المتنبي» و«أحاديث» و«مع الأيام» و«مستقبل الثقافة في مصر» و«علي وبنوه». توفي بالقاهرة عام ١٣٩٣هـ (١٩٧٣م).

فكيف يمكن أن نوفق بين الآية: ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾، وعموم الرسالة؟

ترجمة معاني القرآن:

ونقطة أخرىٰ في التلقي، والبيان، والفهم والتعامل مع النص القرآني: ماذا عن ترجمة القرآن؟ وما علاقة التفكير بالتعبير؟ وكيف يمكن أن يكون التفكير إسلامياً، وأن يكون التعبير بأي لغة غير العربية؟ وهل يمكن إدراك أبعاد الفكر القرآني وتمثله فعلاً من غير اللغة العربية؟

□□ هناك الآن دعوة خطيرة وهي: التفريق بين لغة العلم ولغة الدين.. هناك لون من التآمر علىٰ القرآن لإزاحة اللغة العربية، وذٰلك باعتمادها لغة الدين.. أما العلم، فلا بد أن يكون بلغة أخرىٰ! بمعنىٰ: أن تكون هناك لغة للمعبد وهي العربية، ولغة للمعهد العلمي وهي الإنجليزية أو الفرنسية، أو ما إلىٰ ذٰلك.. وهٰذه قضية خطيرة جداً.. وشيئاً فشيئاً، سوف تنفصل العربية عن الحياة، ويحاصر عالم الدين نفسه في المسجد ليكون بعيداً عن أي استعداد لاستيعاب العصر.. وسوف يكون انقطاع عن التواصل اللغوي، وإدراك الميراث الثقافي، والتفاهم مع القرآن بالنسبة للأجيال القادمة.. فالقضية ذات أبعاد متعددة وخطيرة..

● اتفق علماؤنا علىٰ أن النظم العربي، جزء من النص القرآني.. جزء من الوحي.. ولا يمكن أن يسمىٰ وحياً أبداً لو تُرجم القرآن إلىٰ لغة أخرىٰ، مهما كانت الترجمة دقيقة، ومهما كان وفاؤها بالمعاني.. يستحيل أن يُسمىٰ هٰذا المنظوم قرآناً.. يُسمىٰ: معاني القرآن، يُسمىٰ تفسير القرآن باللغة الإنجليزية أو الفرنسية.. إلخ، لٰكن القرآن لا يكون إلا عربياً.

عالمية القرآن، تأتي بطريق ترجمة المعاني والأهداف للناس.. وما حاجة الناس إلىٰ أن يُترجم لهم القرآن كله، ناقصاً المعاني التي لا يمكن أن تُلحظ إلّا في الأصل العربي؟

بمعنىٰ: أن العلماء قالوا: هناك معان ثانوية غير المعاني التي تعطيها الكلمة.. عندي في اللغة العربية: تعريف الطرفين يفيد القصر.. أي «أنا الكاتب» تعني: أن غيري ليس بكاتب..

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥].

تقديم المفعول أعطىٰ قصراً.. فهٰذه المعاني الثانوية لا يمكن أن تُترجم أبداً مع ترجمة القرآن الكريم إلىٰ لغات أخرىٰ.

□□ الذين يشتغلون بالترجمة الآن، يقولون: مهما رقيت الترجمة، وتقدمت، لا يمكن أن تغني عن الأصل، وتنقل المعاني كاملة، لأن جزءاً من الحقيقة يضيع أثناء النقل من لغة إلىٰ أخرىٰ.. لذلك، نرىٰ كثيراً من الذين يحرصون علىٰ المعاني الدقيقة والأهداف المطلوبة، لا مندوحة لهم عن تعلم لغتها.. والتعامل السليم مع النص القرآني يقتضي فهم النص وإدراك مقاصده ومراميه..

● شعر شكسبير[1] إذا تُرجم إلىٰ اللغة العربية يفقد نصف قيمته الأدبية. لأن قيمته في أصله، وليست القيمة عندنا نحن.. وفي جميع اللغات للأصل قيمة خاصة، والترجمات تخضع لتحريفات كثيرة.

□□ نعود إلىٰ القول: بأن القرآن نزل عربياً، بلغة العرب.. ورسالة القرآن، رسالة شاملة وعالمية.. فكيف يمكن أن يكون الخطاب القرآني عالمياً، وهو باللغة العربية، مع أن الأقوام الآخرين لا يعرفون العربية؟

● أثار الزمخشري السؤال نفسه وأجاب عنه، قال فيما أذكر: إن التراجم تغني في هٰذه الحالة. لٰكن في البلاغ، لا بد أن ينزل بلغة من اللغات.. وكونه ينزل بجميع لغات الأرض دفعة واحدة، فهٰذا يعني أنه يحتاج إلىٰ مائة نبي مثلاً لكي ينزلوا ويتكلموا بلغات أقوامهم.

لا بد أن ينزل القرآن بلغة وحيدة، وعن طريق هٰذه اللغة الوحيدة، واستيعابها للمعاني، وقيام أهلها بالفهم، يصدر، عن طريق الترجمة والبيان لجميع اللغات الأخرىٰ. وبهٰذا يمكن أن أنقل للناس معاني القرآن..

---

(١) شكسبير، وليم Shakespeare William شاعر إنجليزي، ولد عام ١٥٦٤م، ويعتبر أشهر الشعراء الإنجليز بلا استثناء، وضع عدداً من المسرحيات الشعرية التي تمثّل علىٰ معظم مسارح العالم حتىٰ الآن، وتوفي عام ١٦١٦م.

القرآن فيه أمران: أهداف رئيسية، ومحاور، أو أحكام يمكن نقلها بدون حرج.. أما ما يصنع هـٰذه الأحكام من الأسلوب القرآني كله، يبقىٰ في الأصل.. فلا تحتاج الأمم الأخرىٰ إليه.. فأترجم مثلاً: المواريث، الحدود، خلاصة للقصة القرآنية.. أترجم خلاصات لأشياء كثيرة.. لـٰكن، الأساس يبقىٰ: أنه كيف ينزل للعالمين بلغات كثيرة عالمية؟ هـٰذا مستحيل.. ينزل بلغة واحدة، بقوم معينين، ثم يُنقل عنهم، ويُترجم، أو يفسر.. فلا أقدم للناس قرآناً مترجماً، ولـٰكن، أقدم لهم، وأصدِّر أحكاماً وقيماً، وبعض السلوكيات المطلوبة فقط.

● لم تنفصل اللغة العربية عن الإسلام مذ طلعت علىٰ العالمين شمسه، فقد أصبحت جزءاً منه يقوىٰ بقوتها ويضعف بضعفها! بل إن القضاء علىٰ العربية هو حكم علىٰ الإسلام نفسه بالموت..

وقد عمل الاستعمار العالمي علىٰ ذٰلك بدحرجة اللغة العربية إلىٰ أسفل السلم التعليمي، وإبعادها عن آفاق الحضارة الحديثة، وتشجيع ساسة أو أساتذة استعجمت ألسنتهم وأخلاقهم، وأمسىٰ حديثهم بالعربية مثار استهزاء..

والمعروف في تاريخنا من بدايته الأولىٰ، التسوية بين علوم الدين وعلوم اللغة، وتدريس هـٰذه إلىٰ جانب تلك، وتيسير التعريب لكل راغب فيه ورفع مكانته المادية والأدبية..

ومع أن الفرس بقوا في بلادهم محافظين علىٰ لغتهم القديمة، فإن من أراد منهم السيادة بين جماهير المسلمين تعرَّب، وتبوَّأ ما شاء من مناصب القيادة علىٰ أساس أن العربية لسان لا عرق..!

وشيء وحيد مؤسف وقع في تاريخنا ـ في ثلثه الأخير ـ فإن الأتراك وضعوا أيديهم علىٰ الخلافة الإسلامية الكبرىٰ، وأبوا إلا أن يبقوا تركاً بلغتهم الأولىٰ، ولما كان الإسلام عربي اللسان والثقافة فإن فجوة وقعت بين السلطات الحاكمة والشعوب المحكومة، كانت سبباً خطيراً في انهيار المسلمين جميعاً ديناً ودولة..

ثم إن العبادة في الإسلام تشمل العلم والعمل جميعاً، فليس هناك لغة العلم وأخرىٰ للعبادة.

كل فجّ للمعرفة في أرجاء السماء والأرض هو عبادة، وعلم الفقه ليس أقرب إلىٰ الدين من علم الحديد، فالحقيقة وسياجها شيء واحد.. ومحاولة المستشرقين والمبشرين وأعوانهم من جلدتنا أن يجعلوا الطب إنجليزياً، والهندسة إنجليزية، هي ذريعة للقضاء علىٰ علوم التفسير والحديث يقيناً، إن لم يتم اليوم فغداً..

واللغة العربية تستطيع استيعاب جميع علوم الحياة، وقد ظلت ألف سنة محيطة بكل ثقافة في العالم، علىٰ حين كانت الألسنة الأخرىٰ تخطو بخطىٰ الأطفال علىٰ ظهر الأرض..

ومعلوم أن الاشتقاق والنحت كفيلان باستقبال كل جديد مما يخترعه البشر هنا وهناك..

إن الهزائم النفسية والدينية التي محقت الشخصية العربية عند بعض الناس؛ هي التي أهانت اللغة العربية، وحطّت من قدرها، ويوجد الآن ساسة يجيدون كل رطانة ويلوون ألسنتهم بشتىٰ اللغات، فإذا تكلموا بالعربية وجدت أطفالاً يتعثرون، ويجمجمون ويلحنون، ولا يحسّون أدنىٰ حياء، لأنهم فقدوا عزة الإيمان، بل فقدوا كرامة الإنسان.

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

دور اللغة في إدراك مقاصد النص القرآني وصياغة وحدة الأمة:

□□ هناك قضية، أرىٰ من المفيد إثارتها، وهي: أن اللغة كسبية أصلاً، وليست قصرية.. وبمقدور أي إنسان أن يتعلم اللغة.. وقد تعلم كثير من غير العرب اللغة العربية، من أجل فهم القرآن، وإدراكه، ولهم في ذٰلك كسب رفيع.. لأنهم اعتقدوا أنه لا يمكن الوصول إلىٰ فهم القرآن إلّا بلغته الأصلية.. والآن، أي إنسان يريد فهم أي كتاب، لا بد له من تعلم لغته.. ولذٰلك أرىٰ أن من مستلزمات فهم الإسلام أن يتعلم الناس العربية.. وقد تُقبل الترجمة في المراحل الأولىٰ، لأنها يمكن أن تؤدي دورها لإفهام الناس أبعاد العقيدة، وأنماط الحياة، والسلوك، والعبادة، وما إلىٰ ذٰلك.. لٰكن،

بعد ذلك، لا بد أن يقود الإسلام إلىٰ تعلم العربية لإدراك مدلول الخطاب الإلـٰهي الذي نزل بلغة العرب..

ولا شك بأن الأمة الإسلامية، أمة واحدة، وأن اللغة المشتركة هي وعاء لشعور الأمة، وصياغة له، وهي أوعية تفكير الأمة.. فإذا تعددت اللغات، يُخشىٰ أن تتعدد الأوعية، وتتمزق وحدة الشعور، وبالتالي نفتقد بعض خصائص وميزات الأمة الواحدة نظراً لتشعب اللغات..

ونقطة أخرىٰ أراها في هـٰذه القضية الهامة:

إن علماء النفس يتكلمون طويلاً عن علاقة التفكير بالتعبير، وأن اللغة ليست مجرد قوالب تُصب فيها المعاني، وإنما تتأثر المعاني أيضاً بالألفاظ.. والألفاظ تتأثر بالمعاني.. فهناك علاقة جدلية بين التفكير والتعبير.. فالتعبير قوالب التفكير.. إن كلّاً منهما يتأثر بالآخر.. فإذا قبلنا الانتقال بالقرآن من اللغة العربية إلىٰ لغات أخرىٰ، فسوف يصاب التفكير، أي: يؤتىٰ التفكير من خلال التعبير..

ونقطة أخرىٰ أيضاً:

نرىٰ أن كثيراً من المسلمين، ومن بعض الذين يقومون علىٰ أمر العمل الإسلامي اليوم، بردت الهمم عندهم في تعلم العربية؟ واقتصروا علىٰ آيات يؤدون بها الصلاة فقط تحت شعار: (نحن نفهم القرآن من خلال الترجمات)، ويقولون ـ باللفظ نفسه تقريباً ـ: ليس المهم إسلامية التعبير، أو عربية التعبير، وإنما المهم إسلامية التفكير، وليكن التعبير بأي لغة!

فأنا أرىٰ: بإطار نشر الدعوة، وإبلاغ الإسلام للناس، والتكاليف الشرعية، ونظريات الإسلام، ومقاصد الشريعة في المحاور المتعددة؛ أن نأخذ بالترجمة.. وتشكل هـٰذه ابتداءً، مرحلة تعريف الشعوب بالإسلام.. لـٰكن، انتهاءً، لا بد من تعلم اللغة العربية، لغة الأصل، لوحدة الفكر، ووحدة التذوق والتعبير، والتفكير، وصياغة الأمة.. وإلّا، إذا سلمنا بالترجمة، وبأن الترجمات تغني عن المعاني، فسوف تقع المشكلة، بل الكارثة!

● الترجمات لا تغني أبداً.. وأنا أوافق علىٰ ما تقوله كله..

قضايا مطروحة للنظر والرأي:

□□ هناك بعض التعقيبات خطرت ببالي، أرجو أن أسمع رأيكم فيها:

أولاً: ما جاء في القرآن الكريم من قصص، إنما حققت الشهود التاريخي لرحلة النبوة.. ونرىٰ أن المقصد منها: تحقيق العبرة، والدرس للشهود الحضاري، وممارسته وبناء الفرد.

وعملية التغيير، من الكفر إلىٰ الإيمان، ذات أبعاد متعددة: تربوية، ونفسية، وعقلية، وهي عملية شاملة لجميع جوانب الحياة.. فلا يمكن أن يتم التعبير بالاعتماد علىٰ الجانب الفقهي، أو التشريعي فقط.. فلا بد لنا من رؤية قرآنية شاملة.

ثانياً: أهمية إعادة التصنيف الموضوعي للقرآن الكريم، بمعنىٰ: إعادة تصنيف الآيات بحسب موضوعها من العلوم الاجتماعية (غير المحاور التي يتكلمون عنها منذ فترة طويلة وهي: العقيدة، والأخلاق، والتشريع، والمعاملات)؛ ألا يمكن إعادة تصنيف الآيات علىٰ ضوء التفسير الموضوعي، أي: بحسب موضوعها من العلوم الاجتماعية؟

كيف يمكن جمع الآيات التي تتناول «القضية» لإلقاء مزيد من الأضواء عليها في مجالات متعددة ليكون القرآن هو المورد الثقافي، أو تكون له صفة مرجعية للعلوم الإنسانية، لأن موضوع القرآن هو الإنسان، وليست الأحكام التشريعية والصفات والتعاليم الأخلاقية جزءاً من الصورة؟

● لاحظت في القصص القرآني، أن أول عرض لقصة آدم ﷺ في سورة البقرة، أن ما ذكر عن آدم في السورة هو آخر ما ذكر في القرآن الكريم كله، لأن قصة آدم ذكرت في السور المكية: الأعراف، الكهف، الإسراء، ص، طه، وفي أماكن كثيرة.. لٰكن آخر ما ذكر عن آدم كان في سورة البقرة، وهو أول ما يبدأ به الإنسان عندما يتلو القرآن من المصحف الشريف.. آخر ما نزل، أول ما يقرأ.. وهٰذا من غير شك، ترتيب إلٰهي، لحكمة قد نعرفها الآن وقد لا نعرفها. لٰكن، المهم أنه عندما يتحدث بعض الناس عن قصة

موسىٰ في القرآن، أو عن المرأة في القرآن، عن الجزاء في القرآن، عن العمل الصالح في القرآن، . . . هي قضايا. . هٰذه القضايا، يمكن النظر إليها من خلال دراسة الآيات التي نزلت بها، تجمع أولاً.

□□ هٰذا ما أقصده: الجمع. . ففي علم الاجتماع، بعدما تبلور العلم وأصبح له أبعادٌ معينة، يمكن - من خلال فهمنا لهٰذا العلم ونظرنا في القرآن - أن نلمح آيات لها علاقة بالمسألة الاجتماعية فنجمعها. . ثم تدرس هٰذه الآيات متجاورة، مستفيدين أثناء الدراسة مما وصل إليه العلم الحديث من وسائل ومناهج وفهم، وأبعاد في الشخصية الإنسانية، لنكوّن من خلالها مرجعية معينة لعلم الاجتماع في القرآن. . وكذٰلك المسألة التاريخية. . وغيرها من المسائل. . لقد قدم لنا الكسب العلمي، قدرات إضافية علىٰ إدراك أبعاد الآيات القرآنية، كما أن الآيات تربط مسيرة العلم بأهداف إنسانية، وهو ما يُسمىٰ اليوم بفلسفة العلوم.

● التفسير: نقل بدايات القرآن إلىٰ ما يشغل الإنسان علىٰ ظهر الأرض حتىٰ لا تكون آيات القرآن بمعزل عن واقع الناس وحياتهم. .

□□ نريد خطوة أكثر: إلىٰ أي مدًى يمكن أن تشكل هٰذه الآيات مرجعية للإنسان، ومصدراً للمعرفة، ينطلق منها إلىٰ هٰذه المجالات؟

● يخيل إليّ أن الذي يجمع ويُفسر، هو الذي يكون جسراً لعبور البدايات إلىٰ الناس، بقدر ما أوتي من إدراك. لأن الناس يتفاوتون في فهم القرآن تفاوتاً عجيباً. ولذٰلك، فسّر بعض الناس، آية:

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧].

بأن هٰذه أوانٍ، دقتها وسعتها من عند الله، ينزل المطر فيملأ الآنية الصغيرة، والآنية الكبيرة. . وهٰذا سر ما جعل علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه يقول: إلّا فهماً يؤتاه رجل في كتاب الله. . فهناك من يستطيع أن يفهم في الكتاب أو في السنَّة أفهاماً يُهدىٰ إليها، ما يراها غيره، بل يستغربها عندما تُساق إليه، وهو إنما أخذها من الكتاب. . فالتطبيق الحسن يجيء من فهم جيِّد، ثم تنزيل هٰذا الفهم علىٰ واقع الحياة. .

التفسير بالمأثور.. والتفسير بالرأي:

□□ هناك مشكلة قديمة جديدة، وهي: مشكلة النهي عن التفسير بالرأي.. وهٰذا النهي أورث لوناً من التخوف، وأوجد حاجزاً نفسياً يحول دون النظر في القرآن، ومحاولة ارتياد آفاق حضارية تؤكد معنىٰ الخلود للقرآن الكريم من خلال استمرار القراءة القرآنية لقضايا العصر.. وحرص بعضهم في ضوء ذٰلك، علىٰ التوقف عند حدود التفسير بالمأثور، وعدم إتاحة الفرصة للعقل في التدبر والنظر.. كما أدّىٰ هٰذا إلىٰ لون من التجمد عند حدود الرؤية في عصر التنزيل.. وهٰذا، إن صحَّ في العبادات التوقيفية، التي لا تتطور، فلا يمكن أن يُقبل في شؤون الحياة الأخرىٰ المتطورة والتي لا بد لها من الانطلاق والامتداد علىٰ هدي القرآن الكريم، والاغتراف منه علىٰ مدىٰ الزمن، بكل إنجازاته، لأن ذٰلك من مقتضىٰ الخلود.. فقد تكون عملية تحريم الرأي بإطلاق الناتجة عن النظر والتفكر في القرآن، لوناً من المحاصرة لامتداد القرآن وخلوده! فالناس أصبحوا يتلون القرآن للتبرك، وأصبحت هناك حواجز بينهم وبين التدبر، كلون من الألوان السلبية للنهي عن التفسير بالرأي، وعدم القدرة علىٰ استبانة الرأي الصحيح.. ويبقىٰ التفسير بالمأثور مطلوباً ليكون من عواصم الزلل التي يمكن أن يقع بها التفسير بالرأي، من وجه آخر.

● أعتقد أن الرأي الذي نُهينا عن تفسير القرآن به هو الهوىٰ.. وهو أن يكون الإنسان سيئ النية أو متجهاً إلىٰ مأرب من المآرب فيتلو القرآن، ويلوي عنقه كي يخدم هٰذا المأرب وهٰذا الرأي.. وهٰذا هو المحرم شرعاً.. لا أن يكون للإنسان رأي في تفسير القرآن، مع ضوابط اللغة التي لا يمكن اختراقها، لأننا لا نحب أن ندخل في شطحات المتصوفين التي ليس لها ضابط، بل هي خطرات قلوب، أدت بهم إلىٰ أن يجعلوا للكلمات معانٍ أخرىٰ لا ضوابط لها، فمثلاً، فسروا قوله تعالىٰ:

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النازعات].

بـ: اذهب إلىٰ القلب (!) وهٰذا كلام لا يُقال...

لٰكن المهم: أنه يُمكن أن نفهم القرآن فهماً اجتماعياً وسياسياً في حدود ضوابط اللغة..

□□ قد يكون من المفيد أن نتحدث أولاً عن: أهمية التفسير بالرأي.. وثانياً عن: ضوابط التفسير بالرأي؟

● التفسير بالرأي، نوع من التفاسير، كالتفسير الأثري، والفقهي، والكلامي، والبياني، والصوفي، والعلمي... ولعل التفسير الذي بدأ به الشيخ رشيد رضا، نوع من التفسير الذي يجمع أنواعاً من الآراء.. فهو مدرسة متعددة المناهج في فهم القرآن... فأنا أرىٰ أن التفسير بالرأي لم يتوقف، بل بالعكس، فقد طغىٰ التفسير بالرأي علىٰ التفسير الأثري، وهناك عدد كبير من الناس يرىٰ أن الاقتصار علىٰ التفسير الأثري، يقيد الآيات..

التفسير الأثري لا يعرض للمشكلات البلاغية، والمشاكل الكلامية، وهناك أمور كثيرة، لا يتوقف عندها.. بينما التفاسير الأخرىٰ هي التي دخلت بالقرآن إلىٰ الحياة ومشكلاتها.. وأكاد أقول: إن التفسير الأثري أخضع الآيات للأحاديث.

□□ وهٰذا قد يكون طبيعياً في الأسانيد الصحيحة لأن الرسول ﷺ هو المبيّن عن ربه.

● لٰكن المشكلة: أن بعض الأحاديث التي جاءت في التفسير بالمأثور، تكون ضعيفة السند.. وهٰذا، أيضاً، في «تفسير ابن كثير» الذي نجد فيه بعضاً من المتضادات.. فعندما يفسر قوله تعالىٰ:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾.

يأتي بمتناقضات! يأتي بحديث ضعيف وخفيف الوزن.. ويأتي بأحاديث أخرىٰ تدل علىٰ أن الكحل في العين والحمرة في الخد، لا بأس بهما ولا مانع منهما.. فهو تفسير غير محقق، أو تفسير يحتاج إلىٰ ضوابط وإلىٰ تحقيق في صحة الآثار وتفنيدها.

ويؤسفني أن أقول: إن بعض التفاسير بالأثر، بلغ أحياناً درجة من

الإسفاف، فمثلاً ذكر قصة الغرانيق، وذكر قصة زينب بنت جحش على النحو الذي ذكر. . التفسير الأثري يحتاج رقابة دقيقة عليه. . أما التفسير بالرأي، حيث يكون الرأي بيانياً، أو علمياً، أو لغوياً، أو ما إلىٰ ذٰلك، فإنه يأتي ثمرة للنظر، والتدبر في القرآن. . والتدبر يعني: رأي، ويعني: فكر، واستنتاج.

والقرآن، كتاب عربي، يخضع للأساليب العربية في الفهم، ولا نسمح أبداً بالشطحات. . لا بد أن تبقىٰ الكلمة هي الكلمة. . لا بد أن يفهم القرآن من خلال معهود العرب في الخطاب، ومن دلالات الألفاظ كما كانت عند العرب. فكما تشرح أي قصيدة شعرية: الكلمات، والمجاز، الاستعارة، التشبيه، الكناية، كل هٰذا يبقىٰ في نطاق الاصطلاحات العربية لا نخرج عليها، فمعنىٰ أن القرآن عربي: هو أن يخضع للفهم بالأسلوب العربي. .

من ضوابط التفسير بالرأي:

□□ هنا مجموعة من الضوابط التي رأيتها للتفسير بالرأي:

الضابط الأول: الالتزام بفهم القرآن من خلال معهود العرب في الخطاب.

الضابط الثاني: استصحاب الصحيح من المأثور ليكون وسيلة معينة على الفهم، وضابطاً من خطرات القلوب ومجازفات الهوىٰ.

الضابط الثالث: التعرف علىٰ أسباب النزول لتكون وسائل إيضاح معينة لتعدد الرؤية وتنزيل النص علىٰ الواقع المعاش.

الضابط الرابع: عدم الخروج علىٰ قواعد المنطق، والعقل السليم، أو ما تقتضيه الفطر الصحيحة، ودلالة الألفاظ، والصيغ.

الضابط الخامس: عدم الخروج بالتفكير أو بالرأي عن المقاصد العامة التي حددت في القرآن علىٰ أنها مسلّمات.

الضابط السادس: الاستفادة من الكسب العلمي، والحقائق المعرفية في ميادين الحياة الاجتماعية وغيرها ـ والتي أصبحت حقائق ـ أثناء النظر للآيات؛ وفي الوقت نفسه جعل الآية قيمة عامة موجهة لحركة النظر والفكر. .

فالعملية هنا مزدوجة، إذ ليس الكسب البشري والمعارف هي التي تتحكم بالآية.. إنها تساعد على فهم الآية، في الوقت الذي تبقى فيه للآية قيمة التوجيه، وتحديد الهدف والمقصد من العلم.

أمية الأمة.. وأمية الشريعة:

● هناك قضية هامة وردت فيما سبق، وهي: قضية أميّة الأمّة، وأميّة الشريعة، التي أتى الشاطبي على ذكرها.. وهي قضية خطيرة إذا أخذناها على إطلاقها، تؤدي إلى محاصرة العقل.. فهل يُعقل أن تكون هذه «الأميّة» خالدة؟ أم أنها مرحلة مؤقتة، كان العرب عليها، ومن ثم انتهت وأصبحت الأمة تكتب وتحسب؟ وأرى أن الأمة، في مرحلة من حياتها، قد تكون أمية لا تقرأ، ولا تكتب ولا تحسب، ثم يتغير حالها إلى مرحلة أخرى، فتصبح أمّة عالمة قارئة.. فهل يمكن أن تبقى الأمة متوقفة على الوسائل الأمية في النظر والحكم والعلم؟ الأمة اليوم أصبحت تقرأ، وتكتب، وتحسب.. فالتقرير على أن الأميّة صفة قسرية، أو ملازمة للأمة، وأن الأحكام يجب أن تبقى مناسبة لمرحلة الأميّة؛ أظن أنه أمر يتعارض مع طبيعة الحياة، وسيرورتها، كما يتعارض مع خلود الرسالة وقدرتها على الاستجابة لدواعي العصر.

وأمر الإصرار من بعض العلماء على «الأمية» عجيب! وهو ما أدّى إلى التعسف والتوقف عند بعض المفهومات وعدم تجاوزها.. **«إنّا أمّة أميّة لا تكتب ولا تحسب»**[1]! لكن، هل هذا يعني أن تبقى الأمة أبداً لا تقرأ، ولا تكتب، ولا تحسب؟ وهل هذا يعني أيضاً أن نبقى بعيدين عن الكسب العلمي، وكانت أول آية نزلت، تفرض التعلم والتحول إلى القراءة والكتابة؟

والسؤال أيضاً: بعد نزول القرآن، هل تبقى الأمّة أميّة؟ لقد كانت أمّة

---

(١) الحديث متفق عليه، رواه البخاري في «صحيحه» ـ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ـ في كتاب الصيام، باب: قول النبي ﷺ: «لا نكتب ولا نحسب». ورواه مسلم في «صحيحه»، في كتاب الصيام، باب: وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال والفطر لرؤية الهلال، وأنه إذا غمَّ في أوله أو آخره أكملت عدة الشهر ثلاثين يوماً.

أمية. ثم جاء هـٰذا العلم المزدوج المضاعف الكثير في كتاب الله، فكيف تبقىٰ أمية بعده؟ هـٰذا مستحيل..

والسؤال هو: هل كلمة «أميّة» التي وردت في الحديث نسبة للجهل أو الأمّة؟ فاليهود يرون أن «النبي الأمي» تعني: النبي المبعوث من غيرهم، أو من بقية العالم..

● ويخيّل إليّ أن المقصود بـ«النبي الأمي» النبي الذي خرج بعيداً عن الدائرة التي كان يؤخذ منها الأنبياء، وهي إسرائيل، وإن كان هناك أنبياء عرب.

والمعروف أن القرآن علم، بل هو العلم.. والتعبير عن أنه العلم موجود في آيات كثيرة..

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ولمّا سأل الرسول ﷺ أبيّ بن كعب[١] عن أفضل آية عنده، قال: آية الكرسي. قال له: **«والله، ليَهْنِكَ العلم أبا المنذر»**[٢].

ويقول تعالىٰ:

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

فالعلم هو صفة القرآن.. وصفة المشتغلين به. فكيف يقال: إن الأمّة أميّة مع القرآن؟ هـٰذا مستحيل. والقرآن نفسه وجه لاقتحام أسوار الحياة

---

(١) أُبيّ بن كعب بن قيس بن عبيد، من بني النجار، من الخزرج، أبو المنذر: صحابي أنصاري. كان قبل الإسلام حبراً من أحبار اليهود، مطلعاً علىٰ الكتب القديمة، يكتب ويقرأ ـ علىٰ قلة العارفين بالكتابة في عصره ـ ولما أسلم كان من كتّاب الوحي، وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان يفتي علىٰ عهده، وكتب كتاب الصلح لأهل بيت المقدس. وأمره عثمان بجمع القرآن، فاشترك في جمعه، وله في «الصحيحين» وغيرهما ١٦٤ حديثاً. مات بالمدينة عام ٢١هـ (٦٤٢م).

(٢) الحديث رواه مسلم في «صحيحه» ـ عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه ـ في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل سورة الكهف وآية الكرسي.

والتغلغل في أسرارها، ومجال العلم الإلٰهي فيها والحكمة الإلٰهية فيها.
فكيف يُقال: إن الرسالة أميّة؟

□□ ألا يمكن أن يكون هناك أفق آخر للقضية، وهو: أن التكاليف والعبادات وما إلىٰ ذٰلك، يمكن أن تكون لها صفة العموم، وتشمل الناس جميعاً بمختلف مستوياتهم الفكرية والعلمية، والرسالة ميسرة لكل بحسب كسبه.

كأني ألمح من بعض الوجوه أن التعاليم الإسلامية كالأمر بالصلاة والصوم.. إلخ لا تستدعي سوية معينة من الكسب العلمي حتىٰ يستطيع الإنسان أن يدركها وإلا كيف يمكن أن نخرج ذٰلك من الأمّة الأمية.

● المدرسة التي تعلم المسلمون فيها هي الصلاة.

□□ وتعقيباً علىٰ ما ذهب إليه الشاطبي، أقول: إن العرب إذا كانوا في ذٰلك العصر، أمة أميّة، فالأميّة لا يمكن استمرارها.. هٰذا شيء..

والشيء الآخر: أن الخطاب ليس للعرب ولٰكنه للناس جميعاً ـ المتعلم وغيره ـ كما أنه ليس لزمان واحد فقط..

● كان العرب أمّة أميّة.. وكان الفرس والرومان هم المثقفون.. وعندما أنظر إلىٰ الفرس والروم أجد أنه كانت لديهم جهالات ربما لم تكن موجودة عند العرب.. وربما كان العرب أحسن أخلاقاً من الروم والفرس، في جاهليتهم تلك:

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

□□ قول الرسول ﷺ: **«إنّا أمّة أميّة»**، أي تجهل الكتابة والحساب في عصر معين ـ لا يقتضي أن تبقىٰ أميّة دائماً، والقرآن خطاب خالد مجرد عن حدود الزمان والمكان.

لا أدري: ما مدىٰ صحة حديث: **«نحن أمّة أميّة لا نقرأ ولا نحسب»**؟

● الحديث موجود في كتب الحديث.. لٰكن، لست خبيراً بالرجال، ولا بد من التحقيق في الموضوع، والجمع بين الآثار.. لٰكن، هناك أمر لا بد

أن أذكره من باب الأمانة، وهو: كان عندنا محمد أحمد عثمان، رئيس جمعية مكارم الأخلاق، ووكيل الجمعية الشرعية في مصر، ذكر حديث السحر، وقال: الحديث، سنده فيه كلام.. ووضّح أن فلان عن أبيه ضعيف.. أي أنه ضعّف السند الذي روىٰ به البخاري حديث السحر.. فأنا ارتبت فيما يقوله الرجل من ناحية الإسناد، حتىٰ وقع هٰذه السنة كتاب في يدي لجماعة من المغاربة يكتبون في السُّنة ومتخصصون في الكتاب والسُّنة، وهم جماعة الغماري (أحمد وصديق الغماري..) فوجدت بحثاً في الأسانيد استوقفني:

الحابس الأعور متهم عندنا بالتشيع، ونعتبره ضعيفاً، لا نقبل حديثه.. هو كان من بعض من طعن فيهم، الأعمش[1].. والأعمش كذّاب.. وطعن فيه، لأن الأعمش كان يعمل لحساب بني أمية، وكان الحابس ممن يفضلون علياً، لٰكنه لم يكن متشيعاً، وكان من الصدق حتىٰ أنه لم يتحدث أحد بأنه كان كذاباً.. وتكلم الكتاب عن الحابس وقال: إنه أفضل من عدد من رواة البخاري.. الأعور ما اتهم بوضع، ولا اتهم بكذا وكذا.. وجاء بأسماء: فلان عن فلان، وفلان متهم بأنه كذب ووضع، وفلان كذا.. إلخ.

أنا اندهشت مما جاء في هٰذا الكتاب.. واستبقيت الأمر في نفسي إلىٰ أن قابلت الشيخ عبد الفتاح أبو غدة وهو من علماء الحديث. قلت له: أريد أن أعرف منك حكاية قرأتها، وبحاجة لأن أعرفها.. الذهبي[2] عندما مرَّ بحديث:

---

(١) سليمان بن مهران الأسدي بالولاء، أبو محمد، الملقب بالأعمش، تابعي، مشهور. أصله من بلاد الري، ومنشأه ووفاته في الكوفة. كان عالماً بالكوفة. كان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض، روىٰ نحو ١٣٠٠ حديث. ولد عام ٦١هـ (٦٨١م)، وتوفي عام ١٤٨هـ (٦٧٥م).

(٢) هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز أبو عبد الله، شمس الدين الذهبي. تركماني الأصل من أهل دمشق. شافعي. إمام حافظ مؤرخ، كان محدث عصره. سمع عن كثيرين بدمشق وبعلبك ومكة ونابلس. برع في الحديث وعلومه. وكان يرحل إليه من سائر البلاد. وكان فيه ميل إلىٰ آراء الحنابلة، ويمتاز بأنه كان لا يتعدىٰ حديثاً يورده حتىٰ يبين ما فيه من ضعف متن، أو ظلام إسناد، أو طعن في روايته.
من تصانيفه: «الكبائر»، و«تاريخ الإسلام» في واحد وعشرين مجلداً، و«تجريد =

«**من عادىٰ لي ولياً فقد آذنته بالحرب**»[1] قال: لولا جلالة الحافظ أبي عبد الله البخاري[2]، النفس فيها شيء من هٰذا الحديث، لٰكني لا أكذبه.. فالذهبي لا يريد أن يقول إن في الحديث كلاماً، لٰكن هناك من قال: إن في رواة البخاري كلاماً.. وذكرت له فلان وفلان.. نفس الأسماء التي وردت في كتاب المغاربة.. فسكت قليلاً ثم قال: هٰذه الأسماء أثيرت حولها شكوك لٰكن تجاوزوها وليس لها قيمة.. قلت له: لماذا؟ إذا كان هناك شخص متهم بالوضع؟

وفي رأيي أن الكلام في بعض رجال الصحيحين، له أصل. والذين رفضوا بعض أحاديث في البخاري أو مسلم[3] لهم عذرهم.. كل القراء تقريباً وكل المصاحف تقول: إن المعوذتين سورتان مكيتان، وكلام البخاري يفيد إن المعوذتين مدنيتان، ومن آخر ما نزل!

ففكرة أميّة الأمّة، وأميّة الشريعة، والإصرار علىٰ بقاء المرحلة البدوية واستمرارها، مرفوض...

= الأصول في أحاديث الرسول». ولد عام ٦٧٣هـ، وتوفي عام ٧٤٨هـ.

(١) الحديث رواه البخاري في «صحيحه»، عن أبي هريرة ﷺ، في كتاب الرقاق، باب: التواضع.

(٢) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، أبو عبد الله، البخاري. حبر الإسلام، والحافظ لحديث رسول الله ﷺ. ولد في بخارىٰ، ونشأ يتيماً، وكان حاد الذكاء مبرزاً في الحفظ. رحل في طلب الحديث، وسمع من نحو ألف شيخ بخراسان والشام ومصر والحجاز وغيرها. جمع نحو ٦٠٠ ألف حديث اختار مما صح منها كتابه «الجامع الصحيح» الذي هو من أوثق كتب الحديث.
وله أيضاً: «التاريخ»؛ و«الضعفاء»؛ و«الأدب المفرد» وغيرها. ولد عام ١٩٤هـ، وتوفي عام ٢٥٦هـ.

(٣) هو مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري. من أئمة المحدثين. ولد بنيسابور، ورحل إلىٰ الشام ومصر والعراق في طلب الحديث. أخذ عن الإمام أحمد بن حنبل وطبقته. لازم البخاري وحذا حذوه. أشهر كتبه: «صحيح مسلم» جمع فيه ١٢٠٠٠ حديث انتخبها من ٣٠٠٠٠٠ حديث مسموعة. و«صحيحه» يلي «صحيح البخاري» من حيث الصحة.
من تصانيفه أيضاً: «المسند الكبير» مرتب علىٰ الرجال؛ وكتاب «العلل»؛ وكتاب «سؤالات أحمد»؛ وكتاب «أوهام المحدثين». ولد عام ٢٠٤هـ، وتوفي عام ٢٦١هـ.

فأمّة تستقبل القرآن لا بد أن تكون أميتها قد زالت بهٰذا القرآن نفسه. .
فإذا كان القرآن يدل علىٰ مصادر معرفة في أساس المنطق الحديث، وأساس حضارة أوروبا، فكيف تكون الأمة أميّة، هٰذا أمر مستبعد.

□□ القرآن، لم ينزل علىٰ العرب وحدهم، ولم ينزل لفترة معينة، وإنما هو خالد عبر الزمن. . فكيف يمكن أن ينفع أصحاب الكسب العلمي والمعارف العلمية، في المستقبل، إذا اعتُبر خطاباً أمياً للأميين؟ والأمر العجيب، أن الشاطبي، علىٰ الرغم من قدراته العقلية في تحديد مقاصد الشريعة، قال بهٰذا!

● ربما كان الشاطبي بقوله ذٰلك، يكابر ناساً من جماعة الإعجاز العلمي الذين يحبون إدخال القرآن في كل شيء. . فالرجل ربما قالها من باب توقيف هٰؤلاء، مثل عبد الرزاق نوفل[1] الذي جاء بمئات الآيات في إعجاز القرآن العلمي، ولا صلة لها به.

□□ يبدو لي والله أعلم، لو أسميناه: «التفسير العلمي»، لأنه، من خلال الكسب العلمي، يمكن للحقائق العلمية أن تعطي لنا بعض الإشارات التي تجعل الآية أكثر إدراكاً، وأكثر فهماً، من خلال قوله تعالىٰ:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ [فصلت: ٥٣].

فأتصور: القول: بالتفسير العلمي، أفضل من القول: بالإعجاز العلمي. .

● عندما تكلم عبد الرزاق نوفل عن أن أساس الفحم النباتي والبترول، أعضاء عضوية وحيوية، وجاء بالآية:

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [الأعلىٰ].

جعل من هٰذه الآية دليلاً علىٰ أن البترول والفحم النباتي، أساسه النباتات والحيوانات، وهٰذا كلام غير مفهوم وفيه تعسف. .

---

(١) عبد الرزاق نوفل، عالم مصري، مكثر في التأليف، من مؤلفاته: «بين الدين والعلم»، و«الله والعلم الحديث»، و«الإسلام والعلم الحديث»، و«الإسلام دين ودنيا»، و«أسئلة حرجة»، و«أسرار وعجب»، وغيرها.

ويستدل علىٰ كروية الأرض بقوله تعالىٰ:

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأعراف].

ويقول: إن الضحىٰ هنا هو الليل هناك.. وبالتالي فالأرض كروية! وهٰذا نوع من التكلف.

□□ بعض الآثار وردت في النهي عن الرأي في القرآن، كقول أبي بكر ﷺ: أيُّ أرض تقلني، وأي سماء تظلني إذا قلت في القرآن برأيي؟.. وحديث آخر: **«من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»**[1]، **«ومن قال في القرآن برأيه، فليتبوأ مقعده من النار»**[2].. هٰذه الآثار، ألا تلغي النظر في القرآن وتدبره إذا أخذت علىٰ ظاهرها؟

● الرأي هنا: النية السيئة، والرغبة في سوق القرآن إلىٰ هدف غير سليم.. هٰذا ما أعتقده..

القرآن والزمن:

□□ لو تتبعنا رحلة المفسرين حسب العصور، نرىٰ أن علماء كل عصر، من خلال معارفهم وكسبهم العلمي، عندما ينظرون في القرآن، يعودون بمردود إضافي متوافق مع آفاقهم العلمية والحضارية.. ولو أخذنا نماذج من المفسرين من كل عصر، لوجدنا أنه أضيفت معانٍ للرأي من خلال كسب البشر، والتقدم العلمي، وما إلىٰ ذٰلك.. فقدرة القرآن علىٰ عطاء الزمن، دليل

---

(١) الحديث رواه أبو داود في «سننه» ـ عن جُندب ﷺ ـ في كتاب العلم، باب: الكلام في كتاب الله بغير علم، وبلفظ: **«من قال في كتاب الله عز وجل برأيه فأصاب فقد أخطأ»**، ورواه الترمذي في «سننه» في كتاب تفسير القرآن، باب: ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه. وقال الترمذي: هٰذا حديث غريب، وقد تكلم بعض أهل الحديث في أحد رواته وهو سهيل بن أبي حزم. قال المنذري: وقد تكلم فيه ـ أي في سهيل بن أبي حزم ـ الإمام أحمد والبخاري والنسائي وغيرهم. (تحفة الأحوذي ٤/ ٦٦).

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في «سننه» ـ من حديث عبد الله بن عباس ﷺ ـ في كتاب تفسير القرآن، باب: ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه. وقال: هٰذا حديث حسن. وقد أخرجه أحمد من وجه آخر. (تحفة الأحوذي ٤/ ٦٥).

خلوده.. فالقرآن لا تنقضي عجائبه.. وكلما اكتشفت آية من آيات الآفاق والأنفس، دلت علىٰ خلود القرآن وحقائقه:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

بل، لعل المزيد من الاستدلال علىٰ أحقية الرؤية القرآنية، إنما تحقق في المكتشفات في مجال العلوم والنواميس الكونية والسنن والعلوم الإنسانية..

● أقسم الله سبحانه ثلاث مرات بالكون، علىٰ عظمة القرآن.. أقسم أولاً: بمواقع النجوم، أقسم ثانياً: بما نبصر وما لا نبصر، وأقسم ثالثاً: بالمجرات ودورانها..

□□ كل جيل، استطاع من خلال كسبه العلمي، أن يقرأ هٰذه الآيات، فيدرك فيها أبعاداً لم يدركها من سبقه.. ونخشىٰ إذا قلنا مع من يقول: بأن القرآن أدرك كله في جيل معين فقط، أن نحاصر القرآن، ونلغي خلوده!

فإمكانية العطاء متوفرة في كل عصر، علىٰ ضوء الموقع، والكسب العلمي الذي يصل إليه الناس، وما يظهر من علوم، وقد يكون السبب العلمي والمعرفي المتجدد، مفاتيح لفهم أدق، وإدراك لأبعاد الآيات ومراميها بشكل أفضل.. وأذكر: كيف تلقىٰ الصحابة القرآن، وكيف تلقاه التابعون ومن جاء بعدهم، وكيف أنه في كل عصر يغترف الناظر في القرآن ما يمكن أن يُسمىٰ معالجة للمشكلات التي يعانيها..

● هناك إجماع بين المسلمين علىٰ أن القرآن، من ناحية الطول، يستغرق الزمن كله، بل يتعدىٰ الزمن، يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: **«يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها»**[١] فكأن القرآن، امتداد للزمن تجاوز هٰذه الحياة، إلىٰ أنه سيقرأ في الجنة.

---

(١) الحديث رواه الترمذي في «سننه» ـ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ـ في كتاب فضائل القرآن، باب: ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وامتداده العرضي يشمل الأجناس كلها.. نحن الآن في القرن الخامس عشر للهجرة، لٰكن الأجناس متفاوتة في ذكائها، ومستواها العلمي. وممكن لكل من هٰذه الأجناس أن يصل إليه القرآن، ويتجاوب معه، ويفهم منه.

العبارة القرآنية فيها مرونة تجعل معان كثيرة تخرج منها أو تتحملها الآية.. وهٰذا ما أشار إليه الإمام علي كرّم الله وجهه عندما قام ابن عباس وجادل الخوارج: «لا تحاجّهم بالقرآن، فإن القرآن حمّال أوجه..» فكلمة «حمّال أوجه» هي في الحقيقة تشير إلىٰ طبيعة الصياغة القرآنية.. وكان لا بد أن تكون في الصياغة، هٰذه المرونة لكي تبقىٰ وتكون ممتدة مع الزمن.. ففيها مرونة ظاهرة بحيث أنه إذا تكلم في التاريخ أو تكلم في وصف أرض، أو تكلم في شيء، تنزل عبارة لها نسيج معين بحيث يمكن أن يستقبلها العبقري ويغوص فيها، ويمكن أن يصل إليها العامي ويستقر عند حدودها الأولىٰ. فهٰذا من خصائص القرآن الكريم. وقد لاحظ هٰذه الخصائص كل متذوق للقرآن. وأظن الشيخ دراز[١] كتب عن هٰذا في كتابه «النبأ العظيم».

فالكتاب لكي يكون للزمن كله، وللعقول كلها، وللقلوب كلها، كانت صياغته فيها هٰذه المرونة العجيبة التي تجعل كل الناس مهما تفاوتوا يستريحون إليه، وينبعثون عنه وهم راضون.. ولذٰلك، نرىٰ قفزة العلم في عصرنا هٰذا، وبالذات في الخمسين سنة الأخيرة، فقد تضاعف العلم البشري أكثر مما تضاعف خلال الزمن كله. ومع هٰذا يبقىٰ القرآن، ولو أن أينشتاين[٢] قرأه لما

---

(١) د. محمد عبد الله دراز، عالم مصري تخرج في الأزهر الشريف، وحصل علىٰ الدكتوراه من السوربون في (La Morale du Koran) وقد طبعت النسخة الفرنسية علىٰ حساب مشيخة الأزهر الشريف عام ١٩٥٠م وقد بدأ في الرسالة عام ١٩٤١م وتمت مناقشتها عام ١٩٤٧م تحت عنوان: «دستور الأخلاق في القرآن: دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن». ونشرت في الكويت ثم في لبنان. ومن مؤلفاته أيضاً: «نظرات في الإسلام»، و«النبأ العظيم»، و«مدخل إلىٰ القرآن الكريم»، وغيرها، توفي ١٩٥٨م.

(٢) أينشتاين، ألبرت Enstein, Albert فيزيائي أمريكي، ألماني المولد، ولد عام ١٨٧٩م، وهو صاحب نظرية النسبية، ومنح جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٢١م، وتوفي عام ١٩٥٥م.

وجد فيه ما يناقض العلم الذي اكتشفه في الكون بل لوجد أن خالق الكون كما رآه هو في ثنايا البحث المادي، هو منزل هٰذا القرآن الذي يشعر قارئه بأنه حكيم وعليم وعظيم، بقدر ما فهم هو من دراسته الكونية.

فأجد أن أي عبقري من علماء الحياة والكون، يقرأ القرآن يشعر بأن خلق الكون وإنزال القرآن من مصدر واحد.. هٰذه من خصائص القرآن.. بينما أنت تقرأ القرآن كأنك تتلقىٰ من مشرف عليك، وتسمع صوتاً كأنه صوت الملك.. بينما تشعر بهٰذا وأنت تقرأ القرآن، تقرأ الكتب الأخرىٰ التي تُنسب إلىٰ السماء، وتشعر بأنها دونك أحياناً، وأنك تُشرف عليها بقلمك الأحمر لتمحو وتثبت.. لتصحح تاريخاً أو واقعة أو قد تحذف أموراً يندىٰ لها الجبين.. مثلاً عندما أقرأ لسيدنا سليمان: أدهش! أنا لي أصدقاء من كتَّاب الأدب المكشوف، ما لديهم الجرأة علىٰ أن يقولوا الكلام المكتوب في بعض الكتب السماوية المعمول بها اليوم.. وهٰذا ليس كلاماً بشرياً عادياً فقط، لٰكنه دون كلام البشر العادي..

أضف إلىٰ ذٰلك: الجملة.. فمثلاً، أقرأ في أول جملة في القرآن:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١].

فأفهم في أول حياتي أن الكتاب ليست فيه ريبة.. لٰكن بعد أن أدرس قصة التواتر، وبعد أن عرفت كيف سطا الزمن علىٰ كتب أخرىٰ، وكيف نال منها، وكيف بقي هٰذا القرآن مصوناً، لم يتغير منه حرف، اطمأننت اطمئنان الموقن: أنه ليس لله وحي في هٰذه الأرض غير القرآن.

فكلمة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وسعتني وأنا صغير: أفهم أن الريبة: الشك وعدم الصحة. لٰكن وسعتني وأنا كبير أعرف الأصول التي يستند إليها الكلام لكي يكون مقبولاً، إن كانت في السند، أو كانت في المتن.. أنا مع المتن، أشعر بأن القرآن، لا تناقض فيه أبداً. بينما أشعر في السند بأنه تواتر القرون، فما أستطيع أن أجد مطعناً لا في ثبوته، ولا في دلالته ومعناه:

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء].

فهم القرون الأولىٰ:

□□ تبدو لي هنا أن مقولة: بأنه لا يمكن أن يتأتىٰ للفهوم القادمة ما تأتىٰ لفهم القرون الأولىٰ الذين عاصروا التنزيل، وأدركوا اللغة، وعايشوا الوحي، وجلسوا بصحبة الرسول عليه الصلاة والسلام، لا يمكن أن تقبل بإطلاقها.. ومن كل وجه، لا شك أن جيل الصحابة الذي اختير ليكون محل الرسالة، والقاعدة البشرية الأولىٰ، وعاصر التنزيل، وعايش الوحي، وصاحب الرسول ﷺ، وامتاز بسلامة اللغة، وصفاء السليقة، يتميز علىٰ القرون اللاحقة بإدراك مدلولات النص القرآني (الوحي).. وأن السلامة في فهم الوحي تتحصل، كلما اقتربنا من عصره واتجهنا صوب الماضي واتصلنا بالينابيع الأصلية، عكس المعارف العلمية الأخرىٰ، فقد تكون الصحة أكثر كلما اقتربنا من المستقبل حيث يصوّب العلم زلته التاريخية.

لٰكن، هٰذا لا يجوز أن يمنع من النظر، والامتداد بالرؤية القرآنية، وتعديتها علىٰ ضوء الكسب المعرفي، وألا يفتقد النص القرآني خلوده وقدرته علىٰ مخاطبة الزمن ومشكلاته.. ويبقىٰ فهم القرون الأولىٰ للقيم الضابطة للوحي هو الأصل الذي لا يجوز القفز من فوقه.. لٰكن، هل هو نهاية المطاف الذي لم يدع استزادة لمستزيد في مجال المعاملات، وامتداد الحضارات، وطوارئ المشكلات؟

القرآن، مطلوب النظر فيه..، والعلم يتقدم.. والفهوم تتقدم. ونحن نستصحب الفهم الأول ولا نخرج عليه.. لٰكن، هناك أبعاد أخرىٰ: نخشىٰ أن يفهم بعض الناس أن التوقف عند حدود الفهم الأول، وعدم الامتداد، وتعدية الرؤية، لون من التجمد للقضية الإسلامية، وللقرآن أيضاً؟!

● أظن أن النبي عليه الصلاة والسلام، حسم هٰذه القضية عندما قال: **«فربَّ حامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه»**.. وحامل الفقه من عصره، هو الذي كان يقول لهم: **«بلغوا عني»**، فقد تبلغون إلىٰ من هو أكثر منكم فقهاً.. **«فربَّ مبلّغ أوعىٰ من سامع»**.

القرن الأول يتميز بشيء، وهو: كثرة الذين صلحوا فيه، وكثرة الذين

انتفعوا بأنوار النبوة. لٰكن، العصور الممتدة التي جاءت بعد، فيها من غير شك، عمالقة في فهمهم لا يقلون عن العصر الأول.. لٰكن، هل المستوىٰ العام لهٰذه القرون، كان كالمستوىٰ الأول، أو كالعصر الأول؟ هنا يأتي التفاوت.. وهٰذا هو المعنىٰ الذي تحدث عنه القرآن عندما قال:

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤﴾ [الواقعة].

فالثلة من الأولين واضحة: صاحب الرسالة ومن معه، الذين غيَّروا الدنيا تغييراً حاسماً.. وهناك قلة من الآخرين. لٰكن هٰذه القلة تشعر بالغربة بالنسبة للمحيط الذي تعيش فيه.. وقد يكون المحيط من الناحية العلمية، متميزاً، لٰكن، الإنسان ليس عقلاً فقط، الإنسان قلب. وربما كان هناك علماء تغلب عليهم السجية، وربما كان هناك من دونهم ذكاء ولٰكن تغلب عليه الفدائية..

الكمال البشري يُنظر فيه إلىٰ جوانب متعددة.. ولهٰذا فإن عظمة القرآن تبقىٰ، يكتشفها إلىٰ آخر الدهر من يبقىٰ صاحب عقل مشرق ملهم مستنير، وكما جاء في الحديث: **«أمتي كالغيث، لا يُدرىٰ أوله خير أم آخره»**(١). فلعل في الآخرين مَنْ يدخل في النطاق الذي كان النبي عليه الصلاة والسلام يتشوق إليه ويقول: **«وددت أنّا قد رأينا إخواننا»** يقولون له: ألسنا إخوانك؟ قال: **«أنتم أصحابي»**(٢).. فمن هم الإخوان الذين يتطلع الرسول ﷺ إلىٰ أن يكونوا معه، ويحب أن ينظر إليهم؟ لا شك ناس كانت صلتهم بمعجزته العلمية والأدبية والبيانية التي هي القرآن، كانت صلة عميقة جداً، استدرجوا الوحي بين جنوبهم، واستطاعوا أن يفسروه في عصور المعرفة والتقدم العلمي بما يجعل الإسلام يمتد ويشتد. وهٰذا كسب كبير.

---

(١) الحديث رواه ابن عساكر عن عمرو بن عثمان مرسلاً، ورواه الطبراني في «الجامع الصغير» برقم ١٦٢٠، ورمز لحسنه. ولفظه: **«أمتي أمة مباركة، لا يدرىٰ أولها خير أو آخرها»**. [جمع الجوامع ١١/ ١٣٦٠].

(٢) الحديث رواه مسلم في «صحيحه» ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه ـ في كتاب الطهارة، باب: استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء.

□□ هٰذا جانب من القضية. . لٰكن، الجانب الآخر، وهو أقرب لأن يكون فلسفياً منه أن يكون استقراءً لواقع: إنه طالما أن القرآن خطاب الزمن كله، حتىٰ يرث الله الأرض ومن عليها، خطاب الأجيال، والأجناس، والعلماء، والمستويات الحضارية المتفاوتة؛ فلا يمكن منطقياً، بحال من الأحوال ـ وقد يتعارض هٰذا مع خلود القرآن وعالميته ـ أن نجمده عند فهم عصر معين. .

● التجميد غير وارد. لٰكن، الانطلاق لا بد أن تكون له ضوابط. . نحن لسنا مع ما يسمىٰ بأدب البرج العاجي، نحن مع الواقع البشري. . والقرآن يناسب الزمن والمكان كله. . كل ما هنالك أنني أحب أن أذكر وأؤكد أن القرآن كتاب عربي، وأن الخصائص العربية: الجملة والتركيب والمفردات، لا يمكن أن تتجاوز وتُمحىٰ.

□□ نحن، نستصحب فهم الجيل الأول، ولا بد من ذٰلك لأن تراكم المعارف، أمر ضروري جداً. .

● لا تنسىٰ أن هناك أموراً لا صلة لتراكم المعرفة بها. . هناك فرائض كالصلاة وغيرها من العبادات، لٰكن مما يتصل بالآفاق الأخرىٰ: الكون، والحياة، والعلوم الإنسانية، لا بد من أن نفهم أنه سيكون أكثر من العصر الأول، وأن العصر الأول وقف فيه عند حد، وأن العصور المتأخرة لا بد أن تزيد، ذٰلك أن القرآن تكلم مرتين عن المستقبل، وقال في آخر سورة النمل:

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النمل].

وفي أواخر سورة فصّلت يقول:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت].

فهٰذه الإراءة التي تكون في الأنفس والآفاق، مع الزمن المقبل وليست مع الزمن الماضي، يكسبها الله لمن شاء من عباده عن طريق تفسير هٰذا القرآن وعن طريق بيان تطابق القرآن مع الإبداع الأعلىٰ لهٰذا الوجود الذي نعيش فيه.

القرآن والعلم:

□□ لم يكن العلم بمعناه المدرسي، موضوع القرآن، وإنما كان موضوعه: الإنسان وهدايته.. فالقرآن محله الإنسان، والعلم هو الموقع الذي ينظر الإنسان إليه ويكسبه بهداية الله.. وهناك بعض الحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن، للفت النظر إليها ودفع الناس إلىٰ النظر والبحث والتجربة والملاحظة والكشف عن القوانين والسنن، وكيف يمكن الوصول إلىٰ إدراك قوانين التسخير التي تحقق عمارة الأرض، وتمكِّن من القيام بأعباء الاستخلاف.

ويبدو لي ـ والله أعلم ـ أن قدرة القرآن علىٰ العطاء حتىٰ نهاية الزمن، إنما جاءت من كونه ليس كتاباً علمياً.. ذٰلك أن العلم ـ بالمعنىٰ الدقيق للعلم التجريبي ـ في تقدم وتطور، ويبطل نظريات، ويثبت حقائق.. وهٰذه مهمة الإنسان.. أما القرآن، فمهمته: بناء الإنسان، وتجهيزه بالوسائل التي تعينه علىٰ الكشف العلمي من: الحواس، والعقل، والإدراك، ووضعه في المناخ العلمي الذي يدفعه للاكتشاف.. لذٰلك لا نجد تعارضاً بين الحقائق العلمية ومدلولات الآيات.. أما إذا أطلقنا العنان لمن يقول: بالتفسير العلمي، والتعسف بالتفسير العلمي، فسيثبت من العلم ما يبطل هٰذه التفسيرات، أو هٰذه الإعجازات التي توهمها بعضهم، أو حمل عليها الآيات في عصر معين..

● لنتفق أولاً علىٰ أن القرآن ليس كتاباً فنياً في علم من العلوم. فهو كتاب في هداية الإنسان، ولٰكن، كلامه عن الكون والإنسان، يتفق مع العلم، لأن موضوع العلم هو الكون والإنسان.. فوحدة الموضوع متحققة بين القرآن والعلم.

مثلاً الشيخ نديم الجسر تكلم عن: «قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن» وهٰذا الكتاب من الكتب الجديرة بالاحترام. فهٰذه الوحدة في الموضوع هي التي جعلت بعضهم يرىٰ إعجاز القرآن علمياً، ذٰلك أنه يكفي أنه مع تقدم العلوم، ما ذكر جملة لا يمكن أن يقف العلم عندها منكراً. وهٰذا هو المستوىٰ الأدنىٰ..

وهناك شيء نأخذه مما قررناه سابقاً وهو: أن القرآن الكريم، ينظر إليه

ربنا جل جلاله علىٰ أنه يُضارع الكون، كأن الكون إذا وضع في كفة، والقرآن وُضع في كفة، فكلاهما يوازي الآخر. ذكرتُ يوماً أنه عندما أراد ربنا أن يتكلم عن بركته وامتداد نعمه، ذكر مرة القرآنِ ومرةِ الكون:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ①﴾ [الملك].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ①﴾ [الفرقان].

وعندما أراد أن يذكر أنه أهل الثناء الحسن والحمد والشكران، قال:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١].

وقال:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١].

هـٰذا التوازن بين الكون والوحي، يبقىٰ لآخر الزمن، كلاهما يدل علىٰ الآخر.

بين فلسفة العلوم وآلات فهمها:

□□ هـٰذا قد يعطي أيضاً أنه لا يجوز أن يكون هناك انكفاء عن الكون بالنسبة للمسلم. فملكوت الأرض ليس بعيداً عن ملكوت الله.. بل هو جزء من ملكوت الله الواسع. وليس للإنسان المسلم المؤمن بالقرآن، أن يدير ظهره للكون وما فيه من الأسرار، بل الكشف عنها ضرورة شرعية لعمارة الأرض وللشهادة علىٰ الناس، والقيادة لهم.. والآيات الكونية جزء من أدلة الهداية، والنظر فيها دين، وطريق إلىٰ الإيمان الحق.. فالذي خلق الكون، هو الذي خلق الإنسان، وأنزل القرآن.. وما ذكرتم هو في مصلحة ما نقول: من أن القرآن وضع الإنسان في مناخ الكون.. حسسه بالزمان والمكان.. ولفت نظره للسنن الجارية في الحياة والكون المادي..

● أرىٰ أنه يكفي القرآن إعجازاً علمياً، أنه وضع الإنسان في المناخ العلمي، وفتح نوافذه كلها للنظر في المعارف.. وأنا لا أستطيع، مع هـٰذا، أن أقول: إن الكتاب كتاب فني في وضع قوانين علمية، لأنه ليس هناك قوانين علمية إسلامية، وأخرىٰ نصرانية.. قوانين الكشف العلمي واحدة.. فلا يجوز

التجاوز في التعبير، وليس لأحد أن يورِّط الوحي الإلٰهي في هٰذا.

□□ يبدو لي، في هٰذه النقطة، أنه لا بد من التفريق بين أمرين: هناك: تقنية العلم، وآلات فهمه، وهٰذا قدر إنساني، وكسب بشري مشترك.. وهناك هدف العلم ورسالته، وهي قضية أخرىٰ.. ويمكن أن تحكم العقيدة هدف العلم، وتحدده، وتجعل العلم في خدمته. فمن هٰذه الناحية، يمكن أن أقول: طب إسلامي.. إلخ.. وأتصور، عندما نقول: إسلامي فالمقصود هو: لون من التحكم بالأهداف، أي: توجيه هٰذه التقنية لتكون لها رسالة تنطلق منها، وتحقق أهدافاً لصالح البشرية، أي: أخلاق العلم نفسه..

فعندما يتحدثون في المعهد العالمي للفكر الإسلامي عن: إسلامية المعرفة، فالمعارف العلمية قد تكون واحدة، وآلات الوصول إليها قد تكون واحدة أيضاً. لٰكن، حينما نقول: إسلاميتها، أو نقول مثلاً: إسلامية العلم، فمعنىٰ ذٰلك تحديد المنطلقات الفكرية علىٰ ضوء القيم الإسلامية، والتوجه إلىٰ تصريف رسالة العلم لتحقيق أهداف معينة جاء بها الإسلام، والمطلوب توجيه النشاط العلمي في اتجاهها.. كأن المقصود: فلسفة العلم وليس آلياته..

● لا بأس.. لٰكن ضميمة أخرىٰ لما تقول: لاحظت في العلم المادي، أو العلم العادي: الإحالة إلىٰ مجهول! وكثيراً ما تجد في أصول الفيزياء والكيمياء: «س».. لٰكن، إسلامية العلم تأبىٰ هٰذا التجهيل في أصل الخلق.. نحن نضع البذرة في الأرض، فتنبت.. ما الذي ينبتها؟! في علم النبات، يقولون: الطبيعة! أو يقولون: العناصر، والشروط، والظروف..

وكل هٰذا.. يجعله غطاءً للقدرة العليا وما يصنعه الله.. أنا لا أتصور أن الأرض فيها صناعة حبة قمح.. تلك مشكلة! فكيف تضع مقادير نشا إلىٰ جانب مقادير من السكر، إلىٰ جانب مقادير من الفيتامينات والأملاح، وتلفها لفة في سنبلة فيها سبعمائة حبَّة! فهل التراب الأعمىٰ المطموس الذي لا يعي شيئاً، هو صانع هٰذا؟!

هناك عقل، وتدبير.. فكون العلم يغطي هٰذا ويمر ببرود، دون أن يتحدث عن الله، فهٰذا شيء فيه كنود..

□□ هـٰذا في المقدمات حيث لا يمكن أن يتحقق التفاعل من تلقاء نفسه، وإنما له قانون لا يتخلف.. من خلق هـٰذا القانون، وجعله جارياً علىٰ الشكل هـٰذا دون ذاك؟ لـٰكن، لا بد من لِفت النظر إلىٰ أمر آخر وهو: أنه لا يكفي الإيمان بأن الله هو واضع القانون، ونقف عند هـٰذه الحدود، بل لا بد من الامتداد إلىٰ مرحلة أن تكون النتائج والثمار محكومة بقيم وأهداف، شرعها للبشرية واضع قانون الإنبات نفسه..

فإذا كانت العلوم أو الحقائق العلمية واحدة في الدنيا كلها ـ كما أسلفنا ـ فإن القضية هي في: من خلق هـٰذا القانون الذي تسير عليه العلوم؟

الأمر الآخر: أن هـٰذه العلوم يجب أن تخرج من فرية مقولة: العلم للعلم، والفن للفن.. لا بد أن يكون للعلم رسالة وهدفاً.. ما هو هـٰذا الهدف؟ ومن يحدده؟ وما هو المنطلق لهـٰذا الهدف؟ هنا يأتي دور العقيدة لتضبط المسيرة العلمية، وتحدد المنطلق والهدف، فتجعل للعلم رسالة، وللحياة العلمية معنىٰ، وللسلوك العلمي خُلقاً.

هـٰذا هو المطلوب من عملية أسلمة أو إسلامية العلوم، فيما أرىٰ.. وعندما نقول: طب إسلامي، فلا بد أن يكون المقصود: التحكم بأهداف الطب.. مثلاً، لو قلت: بأن العقلية الآن التي توجد هندسة البيوت تتجاهل بعض المعاني التي هي من لوازم الحياة الإسلامية من الستر.. إلخ، فيمكن أن أقول: بأن الهندسة هندسة، من حيث: الخرسانة، والكميات والنسب، لـٰكن أهداف العملية ورسالتها يجب أن يُنظر فيها لتأتي التصاميم العملية الهندسية محققة لقيم اجتماعية معينة في الستر، والسكن، وعدم الإضرار بالغير، ومنع الهواء، والشمس عن الآخرين.. وهـٰكذا..

● لا شك أن الهندسة في العصور الوسطىٰ، كانت محكومة بأخلاق إسلامية. ولذٰلك كان المهندس عندما يرسم خارطة البيت، يضع في اعتباره أن العورات يجب أن لا تكشف، والمطلع ببصره من بعيد لا يرىٰ، ولذٰلك وجدنا مشربيات، وما يدخل الهواء ويمنع نظر المتلصص من أن يرىٰ ما وراءها.. الآن، لأن الأوروبيين فيهم حيوانية موروثة من آبائهم الذين لا يرون حرجاً في

أن يكون التمثال مكشوف السوءة! بل إن فلاسفتهم ما كانوا يرون حرجاً في الشذوذ، وربما في مجالسهم الأدبية كانوا يقومون بهٰذه العمليات علىٰ أنها عمليات تنفيسية عادية. . لٰكن، الإسلام عندما جاء سما بالقيم واحترمها. .

□□ هل يمكن أن نقول: بأن هناك علماً، وفلسفة علم، أو أخلاق العلم، أو القيم التي يخدمها العلم، أو تطبع مسيرته؟

● نعم. . العلم شيء غير أخلاقه وفلسفته التي ينطلق منها، وغير رسالته التي يؤديها في الحياة. . فعندما أقول: إن مجموع درجات زوايا المثلث ١٨٠°، فما دخل الدين في هٰذا؟ لٰكن، عندما ننقل هٰذه الحقيقة العلمية لتكون في عملية هندسة البناء، نُدخل فلسفة الإسلام في توظيف هٰذه الحقيقة واستثمار العلم. .

الشهود التاريخي.. والشهود الحضاري:

□□ لقد عرض القرآن للتجربة البشرية من لدن آدم عليه السلام إلىٰ الرسول الخاتم ﷺ من خلال القصص القرآني، بما يمكن أن نطلق عليه: الشهود التاريخي. . أي حقق شهوداً تاريخياً للأمة المسلمة، لرحلة البشرية، لكون ذٰلك رصيداً لا بد منه للأمة الوارثة التي انتهت إليها القيادة الدينية، لتعتبر به وتبني عليه، بما يمكن أن نطلق عليه: «الشهود الحضاري». .

فالقرآن، مصدق للكتب السماوية، ومهيمن عليها. . كما أن القرآن دعا للسير في الأرض لمعايشة الحاضر ـ ولم يكتف بما نقل ـ للتبصر بأحوال الأمم السابقة والنظر في سيرها، ومسالكها وتجاربها، لتحقيق الخبرة والدرس الميداني. . ولم يرض للمسلم أن يقتصر علىٰ تاريخه الخاص، بل لا بد له من الاطلاع علىٰ التاريخ العام للبشرية، وحسن إدراكه، لأن رسالته عالمية.

فخطاب القرآن، عالمي. . ورسالته خاتمة. . وله بعد في الزمان الماضي، والحاضر، والمستقبل. . وله بعد في المكان بحيث يشتمل العالم كله. . ولا بد من معرفة المخاطبين، ومعرفة التاريخ الذي يشكل مرآة حياتهم. . فنظرة المسلم، لا بد أن تكون إلىٰ العالم كله. . يستقرئ تاريخه،

ويقرأ حاضره، ليتمكن من أداء دوره في الشهود الحضاري الذي يمكن أن نسميه: الشهادة علىٰ الناس، والقيادة لهم.

كما أن القرآن طلب من المسلم ـ إلىٰ جانب الرحلة في التاريخ الإنساني، والتبصر بسنن الصعود والسقوط للمجتمع البشري ـ أن تكون له رحلة أخرىٰ في الكون، ورؤية سنن الله كما في المجتمعات والأنفس، لأن العدول عن النظرة في الكون، ومعرفة سنن الله في الآفاق، وحسن التعامل معها؛ موقع في الرؤية النصفية التي لا تؤهل صاحبها للشهود الحضاري.

وهنا، يمكن أن نرتب علىٰ ذٰلك نتيجة أخرىٰ، وهي:

أن القرآن بسط نماذج من حضارات الأمم السابقة، وتجاربها، وعقائدها، ومسالكها الأخلاقية، وأنظمتها السياسية، بمساحات كبيرة لتكوين الحكمة عند المسلم التي تجعله ينتفع بتجارب الآخرين.. فهل يمكن أن نعتبر ذٰلك مؤشراً علىٰ ضرورة التبادل الحضاري، وإباحة الإفادة مما عند الآخرين بما لا يتعارض مع القيم الإسلامية، وأمامنا اليوم تجارب بشرية بلغت الأوج في بعض النظم، ولا أقول القيم؟ فإلىٰ أي مدىٰ يمكن أن نتلمس في إشارات القرآن، دعوة للانفتاح علىٰ الثقافات والحضارات العالمية، والاستفادة منها؟ لأني أعتقد أن الغزو الفكري شيء، والتبادل المعرفي شيء آخر؟

● في كتابي: «المحاور الخمسة» ذكرت ما قاله شوقي في قصيدته:

مثل القوم نسوا تاريخهم كلقيط عيّ في الحيِّ انتساباً
أو كمغلوب علىٰ ذاكرة يشتكي من صلة الماضي اقتضاباً

القصص في القرآن، أوسع أبواب الكتاب الكريم، لأن هٰذا القصص هو ماضي الإنسانية.. ولو فقدت أنا ذاكرتي أكون نصف مجنون، وسينتهي الأمر بي إلىٰ الجنون.. والإسلام اعتبر أن التاريخ الماضي هو عقل الإنسانية، فاستصحبه بكل ما فيه.. والقرآن الكريم، ذكر الحضارات الماضية، وذكر الأمم الأولىٰ، وذكر أسباب الازدهار، وأسباب الانهيار، يقول تعالىٰ:

﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

لا بد أن أنظر إلىٰ الماضي كله، سواء كان هٰذا الماضي يتصل بي كتاريخ خاص، أو يتصل بالبشرية كلها، كتاريخ عام.. ثم أمر القرآن بالسير في الأرض، لأنه يريد عقلاً عملياً يستفيد من العصر الذي يعيش فيه ما يوسع آفاقه، ولذٰلك طلب السير في الأرض بكثرة، سياحة ورحلة:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦].

هٰذا عقل يتكون من السير في الأرض..

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [غافر: ٢١].

لا بد من الانفتاح علىٰ العالم.. الماضي انفتحنا عليه، بالقرآن وبالتاريخ الذي ثبت لدينا بمناهج التحقيق التاريخي، الحاضر يجب أن ننفتح عليه، بأمر وتكليف من القرآن.. وتقصيرنا في هٰذا الانفتاح اليوم، ملحوظ ومعيب..

أما إنه ملحوظ ومعيب، فأنا آسف إذ أقول إن العرب ظنوا أن القرآن لهم، ولم يخدموا عالميته كما يجب.. خدمة العالمية، قام بها بعض التجار، وبعض السياح، وبعض الذين يعبدون الله.. فخدمة القرآن من الناحية العالمية، جاءت شعبية ولم تجئ رسمية! وهٰذا خطأ بل بالعكس، حدث خطأ حكومي وهو أن الأمة الإسلامية استوردت ما عند الآخرين قبل أن تصدر ما لديها للآخرين.. وهٰذا خطأ.. كان يجب أن يتصدر لليونان والرومان، تعاليم أو خلاصات، أو علىٰ الأقل ترسل من يعلِّم اللغة العربية، حتىٰ تخدم عالمية القرآن! لا بد أن يكون القرآن للبشر جميعاً.. هٰذا حق.. والطريق أحد أمرين: إما أن تنقل التعاليم للغات الأخرىٰ، أو تنقل أهل اللغات الأخرىٰ إلىٰ لغتك.. لٰكن، قصرنا في الأمرين.

الأمم الأخرىٰ التي عاشت بعيداً عن معالم القرآن هم بشر، وفيهم طبائع البشر، ولهم رغبات يحبون أن يبلغوها.. هٰؤلاء بذلوا جهودهم واستطاعوا أن يصلوا إلىٰ فلسفات سلوكية، أو قوانين إنسانية، أو بحوث علمية، أو

اكتشافات كونية، مما لا نستطيع إنكاره.. إنهم غلبونا في بعض المجالات.
بل أستطيع أن أقول: إنهم غلبونا في أمرين:

الأمر الأول: اكتشاف قوىٰ الكون لأنهم استطاعوا أن يأخذوا عنا قوانين التجربة والملاحظة والاستقراء كما سميتها أنت «التسخير» وما إليه، وانتفعوا بها..

الأمر الثاني: عندنا علوم إنسانية، وسائلها جمدت عندنا وتطورت عندهم. فمن حق العقلاء أن ينظروا إلىٰ أفضل الوسائل هنا وهناك لخدمة المبادئ المشتركة والانتفاع بها.. هبني جمدتُ الشورىٰ عند سقيفة بني ساعدة، أو مشورة الحاكم لبعض جلسائه، أو وزرائه، أو أصفيائه، أو أئمة يقتنع بجدارتهم! لٰكن هم استطاعوا أن ينظموا الشورىٰ خيراً منا.. الوسائل عندهم كانت أحسن مما عندنا.. أنا لا أتعصب للقُصور عندي، بل الحكمة ضالة المؤمن.. أنا أنتقي الوسائل التي بلغوا فيها مبلغاً خيراً مني، وأنتفع بها في خدمة الأهداف المشتركة.. لأن الفطرة الإنسانية تتفق علىٰ أن العلم خير، والشورىٰ خير، والعدالة خير، والسلام خير.. فإذا كانوا هم يجتهدون ويصلون إلىٰ وسائل أفضل، أكون مثلي كمثل النبي ﷺ عندما قال: «**لقد شهدت حلفاً في دار عبد الله بن جدعان، لو دُعيت إلىٰ مثله في الإسلام لأجبت**»[1] وإذا كانوا هم قد وضعوا هيئة أمم، فلا مانع عندي من أن أشارك في الهيئة، وأن أنتفع بها كمنبر للسلام، وإن كانوا هم قد انتفعوا بها كمنبر للنصب والاحتيال.

وسائل الشورىٰ: يستطيع أي إنسان أن يقول للحاكم هناك: من أنت؟ ولِمَ تفعل هـٰذا؟ وصلوا إلىٰ هـٰذا بالأنظمة.. وأظن، طالبة قالت لرئيس جمهورية فرنسا ميتران: إنني انتخبتك، وربما أغير صوتي، إذا رأيتك

---

(١) حديث: أنه كان ﷺ في حلف الفضول، أخرجه البيهقي من حديث طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري، وفيه إرسال، ورواه الحميدي في «مسنده» عن سفيان عن عبد الله بن أبي بكر مرسلاً، ورواه الحارث بن أبي أسامة أيضاً. (تلخيص الحبير ٣/١١٨).

تغيرت.. قَبِل منها هٰذا، وقال لها: أنت جديرة بالاحترام..

فعندما يبلغ الأمر بأنظمة الشورىٰ هناك أن تعطي الفرد العادي القدرة التي كان الإسلام يعطيها للرجل العادي عندما وقف سلمان[1] يقول لعمر: لا سمع ولا طاعة، ملابسك أطول من ملابسنا التي أخذتها وأنت أطول منا.. فقال: قم يا عبد الله بن عمر فأجبه. هٰذا الكلام كان يُقال أيام التطبيق الصحيح للمبادئ الإسلامية. ثم اختفىٰ.. ووجد من يروِّج، ويسوغ الاستبداد.

فإذا حدث أن الوسائل الأوروبية أعطت الفرد العادي ما كان يعطيه عمر رضي الله عنه للفرد العادي، فهٰذه نماذج نتفق علىٰ أنها صالحة، ونقتبس ما لديهم من وسائل، ونترك جمودنا في أيام الانحلال والضعف. وعلىٰ هٰذا، لا بد من دراسة الأمم الأخرىٰ جميعاً: تاريخها وأخلاقها، وعاداتها، ومعرفة من منهم المؤمن بما عنده، والكافر بما عنده، وما سبب إيمانه، وما سبب إلحاده، ومن هم العلمانيون؟ وكيف يتسلطون؟ كل هٰذا أحاكمه إلىٰ ما عندي أنا من قرآن، وما عندي من ميراث النبوة.. وهنا ألاحظ أن هناك ميراثين للنبوة.. أنا أتجاوز الأحاديث الضعيفة لأنها ليست مصدراً معتمداً، والأحاديث المتصلة بالعبادات، لأن مجال العقل والاجتهاد فيها محدود، إنما عندي وظيفة للرسول مطلوب إدراك أبعادها، فكما أن موسىٰ كانت وظيفته تحريرية، يقول الله له:

---

(١) سلمان الفارسي: صحابي: كان يسمي نفسه سلمان الإسلام، أصله من مجوس أصبهان، عاش عمراً طويلاً. وقالوا: نشأ في قرية جيان، ورحل إلىٰ الشام، فالموصل، فنصيبين، فعمورية، وقرأ كتب الفرس والروم واليهود، وقصد بلاد العرب، فلقيه ركب من بني كلب فاستخدموه. ثم استعبدوه وباعوه، فاشتراه رجل من قريظة فجاء به إلىٰ المدينة. وعلم سلمان بخبر الإسلام، فقصد النبي ﷺ بقباء وسمع كلامه، ولازمه أياماً، فأعانه المسلمون علىٰ شراء نفسه من صاحبه. فأظهر إسلامه. وكان قوي الجسم، صحيح الرأي، عالماً بالشرائع وغيرها. وهو الذي دلَّ المسلمين علىٰ حفر الخندق، في غزوة الأحزاب، وكان بحراً لا ينزف وجُعل أميراً علىٰ المدائن، فأقام فيها إلىٰ أن توفي عام ٣٦هـ (٦٥٦م).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ٥].

كذلك، هناك رسالة تحريرية تنويرية لنبييّ أنا، بدأت بهٰذا الكلام نفسه:

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١].

ما هي الأنوار التي أنقل الناس إليها، والظلمات التي أنقلهم عنها؟ إنها ظلمات الجهل، والاستبداد، والرذيلة، والفوضىٰ، والتخلف.. إذا وجدنا أنواراً للشورىٰ أو للمعرفة أو للنظام، أو مسائل اقتصادية مرنة، استطاع القوم بها أن ينظموا شؤونهم، فأنا مكلف شرعاً بأن أدرس هٰذا كله، وأن أجعل هٰذا في نطاق الفطرة الإنسانية التي هي الصفة الأولىٰ لديني:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

وهٰذا هو الذي جعلني أدرس فعلاً فلسفات كثيرة، وأدباء كثيرين في الخارج، وأنظر إليهم علىٰ ضوء الإسلام، وربما وجدت نزعات أقول بها: هٰذا مسلم. فعندما رأيت «فيكتور هوجو»[1] يقول للكاهن الذي جاء إليه وهو يحتضر وينتظر أن يعترف، طرده «هوجو» وقال له: أنا أؤمن بالله الواحد ولا أحتاج إليك، وقد تصدقت بما أملك!! قلت: هٰذا عمل رجل مسلم.. بهٰذا المنطق هو رجل مسلم.. وهٰذا أيضاً ما جعلني أقرأ ما كتبه «ديل كارنيجي» في كتابه: «دع القلق وابدأ الحياة»، وأن أستخرجه من معالم الفطرة الإسلامية عندنا في الكتاب والسنة، وأدب الكتاب والسُّنة كما تلقّاه المربون ووضعه الفقهاء المسلمون..

فالعالم الآن، يمكن أن تنفتح عليه إلىٰ آخر مدًى، وتأخذ منه، وتتعامل معه أخذاً وعطاءً.. وكل ما هنالك أنني أفرق بين انحرافات الطبيعة البشرية.. وهٰذه الانحرافات موجودة بيقين.

---

(١) هوجو، فيكتور Hugo, Victor شاعر وروائي وكاتب مسرحي فرنسي، ولد عام ١٨٠٢م. أشهر كتبه رواية «البؤساء» (Les Misèrables) نشرها عام ١٨٦٢م، وتوفي عام ١٨٨٥م.

العلم الأمريكي وصل لاكتشاف الفضاء. لٰكن لكي تنتصر أمريكا فتهلك مليون شخص في اليابان، فهٰذا شيء لا يطاق.. الضمير الأوروبي قد يكون قاسياً كالحجارة، وهو في معاملته للشعوب التي بلغها، الفارق بينه وبين الإسلام، كالفارق بين السماء والأرض.. فهو دمر الناس (الجنس الأحمر في أمريكا وفي أستراليا)، وبعمليات صناعية اشمأز منها الأدباء الأوروبيون وأصحاب الفطرة.

فأنا أترك هٰذا الفساد الذي عندهم، وآخذ ما تقدموا فيه.

الإمكان الحضاري:

□□ لا شك أن السير في الأرض، والنظر في ما عند الآخرين، والانتفاع به، هو من إشارات القرآن الكريم، ومن عطائه.. والأمة بما لها من سابقة حضارية، يمكن أن نقول: بأنها تمتلك الإمكان الحضاري، وخميرة النهوض.. لٰكن، هل تعتقد، ونحن في ما نحن فيه اليوم من التخلف، والغياب الحضاري، قادرين علىٰ أن نميِّز بين ما يُنتفع به وما لا يُنتفع به مما عند الآخرين؟ فالأقوياء الذين يتمتعون بعقول وأبصار حديدية، ومعد هاضمة من الناحية الحضارية، هم القادرون علىٰ الانتفاع بأغذية الأمم الأخرىٰ، وما عندها.. أما الأمم المختلفة فستكون عاجزة عن التمييز بين الغث والسمين، بين ما يُؤخذ وما يُترك، لأنها افتقدت المقياس، ولأنها لو لم تكن كذٰلك لاستطاعت أن تتقدم فتفقه بما في تاريخها الحضاري، وما عند الآخرين كما كان حالنا عندما كنا نتمتع بالشهود الحضاري.

وتبقىٰ القضية المطروحة: كيف يمكن أن نحقق الشهود الحضاري، وأن نفيد من الإمكان الحضاري، وخميرة النهوض، ونحسن الاغتراف من القرآن؟

● الأمة الإسلامية، لم تفقد أبداً علىٰ امتداد تاريخها من يقوم لله بحجة، ومن يستطيع أن يعرف: ما الذي أخطأنا فيه نحن وجعلنا نتخلف؟ وما الذي أصاب فيه الآخرون وجعلهم يتقدمون؟ ويوم تعجز الأمة الإسلامية عن أن يتكون لديها جماعات قادرة علىٰ التمييز وكشف الخلل، فهي ليست جديرة بالاستمرار.

□□ معنىٰ ذٰلك: أنها مسؤولية الفقهاء والحكماء بشكل عام، الذين يشكلون خميرة النهوض في هٰذه الأمة، ومسؤوليتهم: أن يُبصِّروا، وهٰؤلاء لا ينقطعون أبداً في الأمة الإسلامية مصداقاً لِقوله عليه الصلاة والسلام: **«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتىٰ يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»**[١].

هناك نقطة أخرىٰ، وهي: أن معرفتنا بما عند الأمم الأخرىٰ: بأحوالها، وتاريخها، وتجاربها، وأفكارها، وعقائدها، هو أمر ضروري لدعوتها للإسلام.. فالإسلام عالمي الخطاب، وهم أمة الدعوة علىٰ كل حال.. فكيف يمكن أن يكون خطابنا الذي نحمله عالمياً، ولا نفهم ما عند العالم؟ فلعل السير في الأرض الذي حضّ عليه القرآن يحملنا المسؤولية المزدوجة: التبصر بأحوال الأمم للعبرة والدرس، والتعرف علىٰ أحوالها ليكون الخطاب الإسلامي مطابقاً لواقع الحال..

وقد يكون من خطأ الدعاة في الغرب اليوم، أنهم يحملون المؤلفات والتراث الثقافي الذي وُضع لعالم المسلمين، بمشكلاته، ومعاناته، إلىٰ أولٰئك الذين قد يتطلبون خطاباً من نوع آخر في ضوء اهتماماتهم..

● من لا يعرف: ماذا يريد، ولا من يخاطب، فليس له أن يتكلم.. ماذا أقول؟ لا بد أن أعرف العالم كله.. العالم الآن تستشري فيه ملل ونحل كثيرة.. ومخاطبة البوذي غير مخاطبة الهندوكي.. ومخاطبة هٰذا وذاك غير مخاطبة شيوعي في روسيا.. ومخاطبة هٰؤلاء جميعاً غير مخاطبة رأسمالي في الولايات المتحدة.. والكل، غير مخاطبة رجل في أوروبا الشرقية أو الغربية.. الدراسة لا بد أن تكون مستوعبة لطبيعة البيئة وطبيعة العقل الذي

---

(١) الحديث متفق عليه. رواه البخاري في «صحيحه» ـ عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ـ في كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: قول النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق، وهم أهل العلم». ورواه مسلم في «صحيحه» ـ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ـ في كتاب الإيمان، باب: نزول عيسىٰ ابن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ، بلفظ: **«لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون علىٰ الحق ظاهرين إلىٰ يوم القيامة»**.

سأتحدث معه، وطبيعة العلل التي استشرت في هٰذا المكان، ثم خصائص الخير الباقية من الفطرة الإنسانية في هٰذه البقاع كلها.. فمع ما ينتشر من فساد، هناك بقايا خير دائماً.. بل أنا أستطيع أن أقول: يجب دراسة الحاضر في هٰذه الأمم لمعرفة أصحاب الملكات، وأصحاب القدرات الفنية والعلمية، لأن هٰؤلاء قد يكونون أقرب إلىٰ الفهم والخطاب من غيرهم، ونستطيع أن نتعاون معهم ويتعاونوا معنا علىٰ قدر مشترك نتلاقىٰ عليه..

لا بد من أن الأمة الإسلامية تكون في حالة حضور وشهود حضاري ـ كما قلت ـ في العالم كله، ويكون له بعثات تزوِّد الوطن الأم أو الأمة العربية، بالزاد لأن العرب هم دماء الإسلام وقلبه، بوصف أن القرآن كتاب العربية الأول.. وتزوِّد بمعلومات عن المجتمع كله من نواحيه العلمية، والعملية، والخلقية، والحضارية، لكل ما يتصل به.. وأجهزة الدعوة عندما تكون عندنا جاهلة أو قاصرة فهي أجهزة فاسدة.

□□ هٰذا يقتضي السير في الأرض لمعرفة الرأي الآخر.. فكون القرآن يعرض لأنواع من العقائد، والملل، والأفكار، والاتجاهات، ويناقشها، ويدعوها إلىٰ المحاججة، والجدل، والمباهلة، فهٰذا دليل علىٰ أنه لا مانع من معرفة ما عند الآخرين.. حتىٰ العقائد، عرض لها القرآن، إذ كيف يعالج الإنسان قضية لا يعرفها؟ وكيف يحاور أناساً لا يطلع علىٰ ما عندهم؟ فالقرآن أباح للمسلم أن يطرح علىٰ الساحة الإسلامية عقائد الآخرين..

● لا يزال قوله تعالىٰ:

﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١١١].

قائماً.. وقد تكررت هٰذه الجملة أربع مرات في كتاب الله.. فالطلب لا يزال قائماً. ولا بد أن أقول للآخرين: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾.. وإلَّا، كيف أحاورهم؟! وكيف يتم إقناعهم دون أن أسمع إلىٰ ما عندهم؟! لا بد أن أعرف ما عندهم معرفة دقيقة، وصحيحة، دون تزييف.. وهم الذين يصورون وجهة نظرهم، لا أنا، حتىٰ أكون سامعاً لكل ما لديهم بدقة.. وهٰذا هو الإنصاف.. وديننا دين الإنصاف.

□□ يعني: أن القرآن الكريم، طلب إلىٰ المسلم الشهود الحضاري، ووجوب التعرف علىٰ الآفاق الثقافية والحضارية.. فمن خلال إشارات القرآن، يجب الانطلاق باتجاه الثقافات الأخرىٰ، والنظم الإدارية الأخرىٰ، والعقائد الأخرىٰ، والأحوال الاجتماعية الأخرىٰ، والتاريخ الآخر، وما إلىٰ ذٰلك..

● لا بد أن تتلاقىٰ تيارات الفكر العالمي عندنا.. وإذا لم يكن تيارنا قوياً، فنحن نستحق ما يصيبنا.. الإسلام، إنما يعلو - ولا يُعلىٰ عليه - ببقائه إسلاماً.. فإذا تحول الإسلام - وهو دين العقل - إلىٰ تقليد أعمىٰ في أرضه، فإنه لا يُسمىٰ إسلاماً.. لا بد أن تكون أصول الإسلام القرآنية، يانعة في مجتمعه، وأن تمتد ثمرته لتكون في آفاق الأرض كلها..



الخاتمة

الكلمة الأخيرة التي أتحدث بها إلىٰ إخواني:

اتفق المؤرخون علىٰ أن الانطلاقات السياسية أو العسكرية الكبرىٰ، لا بد أن يكون وراءها فلسفة (أيديولوجية) معنوية، أو أدبية، أو تشريعية، أو اجتماعية، أو غيرها..

وما يكون هناك من انطلاقات عسكرية محرومة من هٰذه الفلسفة، فإنها تشبه أن تكون غابة لصوص، وتنتهي.. التتار ملكوا العالم يوماً، ولٰكنهم ملكوه في معارك وحشية سريعة، وتخلص العالم منهم، خلال معارك سريعة أيضاً، ولم يتركوا أثراً لأنه ما كان يسيرهم شيء..

محمد علي باشا[1]، كاد أن يرث الخلافة التركية العثمانية ولٰكن،

---

(١) محمد علي «باشا» ابن إبراهيم أغا بن علي، المعروف بمحمد علي الكبير: مؤسس آخر دولة ملكية بمصر، ألباني الأصل، مستعرب. ولد في قولة (التابعة الآن لليونان، وكانت من البلاد العثمانية) عام ١١٨٤هـ (١٧٧٠م)، واحترف تجارة الدخان، فأثرىٰ، وكان أمياً، تعلم القراءة في الخامسة والأربعين من عمره، وقدم مصر وكيلاً لرئيس قوة من المتطوعة، كنجدة لرد غزاة الفرنسيين عن مصر، فشهد حرب أبي قير (سنة ١٢١٤هـ) وما زال حتىٰ كان والي مصر (سنة ١٢٢٠هـ) فعني بتنظيم حكومتها، وقتل المماليك (سنة ١٢٢٦هـ) بوسيلة تقوم علىٰ الغدر، وأنشأ السفن في النيل، وضم معظم السودان الشرقي إلىٰ مصر، وأنشأ في الإسكندرية دار صناعة «ترسانة» للسفن. وشارك في حرب «المورة» واستولىٰ علىٰ سورية ولم تلبث أن انتزعت منه بعد أن جعلت له الدولة العثمانية حكم مصر وراثياً (سنة ١٢٥٧هـ) وكثرت في أيامه المدارس والمعامل في الديار المصرية، وأرسل البعثات لتلقي العلم في أوروبة. وكان يحتم علىٰ من يدخل في خدمته من الإفرنج أن يتزيوا بالزي العربي (المصري) ويتكلموا اللغة العربية ويؤلفوا بها أو ينقلوا كتبهم إليها. واعتزل الأمور لابنه إبراهيم «باشا» سنة ١٢٦٤هـ (١٨٤٨م) وأقام بالإسكندرية مريضاً إلىٰ أن توفي بها عام ١٢٦٥هـ (١٨٤٩م).

لأن المسألة كانت ذات قوة عسكرية فقط، ما وصل إلىٰ شيء.

ويمكن أن ينطبق هـٰذا من بعض الوجوه، علىٰ الدولة العثمانية التي قامت بالإسلام في أولها.. فقد كان محمد الفاتح رَحِمَهُ ٱللَّهُ، رجلاً صوَّاماً، قوَّاماً، يوصي أولاده بقراءة القرآن، وبالعمل الصالح.. كانت هناك فلسفة (أيديولوجية)، لـٰكن انتهىٰ الأمر بعد ذٰلك، وأصبح الأمر ملكاً عادياً.

جاء الاستعمار الغربي ووراءه فلسفات اجتماعية، فالثورة الفرنسية، أو الثورة الشيوعية، وراءها كتب فكرية: كتابات جان جاك روسو[1]، وكتابات مونتسكيو[2]، وكتابات غيرهم من قادة الفكر الأوروبي، هي التي كانت من وراء الثورة الفرنسية، فبقيت الثورة.. كتابات كارل ماركس[3]، وزملائه، من وراء الثورة الشيوعية، فبقيت الثورة الشيوعية، أو علىٰ الأقل كان لها امتداد..

الانطلاق الإسلامي، أو الثورة الإسلامية، أو التغيير الإسلامي الكوني، كان وراءه القرآن الكريم.. وهـٰذا سر نجاحه الذي جعله، خلال القرن الأول، يمتد في العالم المعروف آنذاك كله.. ما ترك منه شيئاً.. أما بقية العالم، فبقي وكأنه في منطقة شبه الظل، يستظل من القرآن وتعاليمه، داخل الأمة الإسلامية.

أما بعد أن بدأت تتقلص فلسفة القرآن الكريم، وتتقلص دعوته، فإن الأمة الإسلامية انتهت إلىٰ أمم أشبه بالمغول والتتار، تقاتل بلا فلسفة، وبدون وعي، وانتهىٰ الأمر إلىٰ ما انتهينا إليه.

ولكي، نعود إلىٰ ديننا، لا بد أن نعود إلىٰ القواعد التي انطلقنا منها قديماً.. عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، الذي يقول لقائده: «متىٰ استعبدتم الناس وقد ولدتهم

---

(١) روسو، جان جاك Rousseau, Jean Jacques كاتب فرنسي، ولد عام ١٧١٢م، وكان لآرائه السياسية أثر كبير في تطور الديمقراطية الحديثة، توفي عام ١٧٧٨م.

(٢) مونتسكيو Montesquieu كاتب وفيلسوف سياسي فرنسي، ولد عام ١٦٨٩م، أشهر كتبه: «روح القوانين» (L'Esprit des lois) نشره عام ١٧٤٨م. وتوفي عام ١٧٥٥م.

(٣) ماركس، كارل Marx, Karl فيلسوف اجتماعي ألماني، ولد عام ١٨١٨م، أشهر كتبه: «رأس المال» (Das Kapital)، توفي عام ١٨٨٣م.

أمهاتهم أحراراً» فاهم للقرآن.. «لو عشت لهم لوصَل إلىٰ الراعي في صنعاء، حظه من هٰذا المال».. «ما أحد أولىٰ بهٰذا المال من أحد».. إنه فاهم للقرآن.

أيضاً: الرجل البدوي الذي يقول لقادة الفرس: جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله.. فهم الإسلام من القرآن..

فهٰذا الفهم القرآني هو من وراء انطلاق الإسلام الأول. الجزر الذي حصل بعد المد، إنما حدث من تقلص الفلسفة القرآنية، والأنظمة القرآنية، وشيوع عادات ومرويات ضعيفة، جعلت الأمة الإسلامية لا تتمثل كتاب ربها الذي نزل.. لكي نعود سيرتنا الأولىٰ، لا بد أن نعود لكتابنا، ننطلق منه بعد أن تشرب روحنا هدايته.. نتعرف علىٰ ما فيه..

القرآن الكريم، يجب أن يدرس تفسيراً موضعياً، وتفسيراً موضوعياً.. ويجب أن يُنظر إليه كلّاً وجزءاً علىٰ أنه دعامة أمة.. هو عقلها المفكر.. هو ضميرها الصاحي.. هو علمها المرفوع.. أما أن يُترك القرآن لأمور أخرىٰ، فلا يجوز.. كان عمر ﷺ، ينهىٰ وهو يُرسل الجيوش، عن الإكثار من رواية الأحاديث، ويقول: لا تشغلوهم عن القرآن.. والسبب: أنه من الممكن جداً أن يحدث قتال بين عدة جنود بسبب حديث لا يفهمون معناه، أو تختلف الأنظار في تحديد مدلوله، واستنباط الحكم الفقهي منه. وتضيع الأمة بهٰذه الخلافات، كما يضيع الآن المسلمون في الخلافات الفقهية التي مزعتهم، وجعلتهم مزعاً.. تستغرب حقاً حينما ترىٰ الذي يقاتل في أفغانستان، له سبعة أو ثمانية أحزاب! ما الذي قسم الأمة هٰذا التقسيم؟ خلافات فقهية، أو خلافات شخصية.. لٰكن، القرآن لا يعرف هٰذا أبداً.. إنه يعرف أمة موحدة علىٰ هدفه، تدور علىٰ محوره، وتنبعث من هدايته..

نريد أن نعود إلىٰ القرآن الكريم.. ننشغل به، ليكون محور حياتنا.. أما العدد الأكبر من السنن والاختلافات الفقهية، فهو للمتخصصين. ويمكن أن يدخل في القضاء، إعداد اللوائح، كما يمكن أن يدخل في التفاصيل التي تحتاج إليها الأمة في الشؤون التي تعنىٰ بالفروع والجزئيات.. الأمة لها

دستور.. والدستور غير لائحة الجمارك، غير قانون الضرائب.. إلخ فالدستور شيء، أما الأمور التفصيلية فشيء آخر يمكن أن يختلف الناس في نطاقها..

إن الأمة لا بد لها أن تنزع كلها إلىٰ الدستور الرصين، والأركان الكبرىٰ في هٰذا الدستور، لا بد أن تبنىٰ.. وكذٰلك تفعل الأمم الأخرىٰ.. فليس هناك من يقول: إن حزب المحافظين والعمل والأحرار في إنجلترا، تمثل كيانات مستقلة.. أبداً.. وإنما لهم جميعاً أمبراطورية يعبدونها من دون الله.. خدمتها تحتاج إلىٰ شيء من التفصيل، ربما يختلف حوله الناس، لربما يختلف حوله الرجل الذي قد يكون من المحافظين، مع زوجته التي قد تكون من العمال.. ولا حرج، طالما يجمعهم الدستور والهدف الأساسي.

فنحن، يجب أن لا يغيب عن بصائرنا أبداً: الهدف الأساس الذي لا بد منه وهو: كتابنا.. كتابنا يكاد يضيع منا، ونقرأه موسيقىٰ من كبار القارئين، ونسمعه بتبلد لأننا نريد أن نتلاقىٰ علىٰ مجالس تأوهات، وإعجاب بالأصوات، وانتهىٰ الأمر.. أما أن ينطلق القرآن كتاباً محركاً للحضارات، فقد غاب عنا هٰذا كله لأننا اشتغلنا بغيره، وهٰذا ما نرفضه.

والحمد لله ربّ العالمين

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

٦/ ١٢٧٩

الموضوع	الصفحة

١٢٨١/٦



الأعمال الفكرية الكاملة

تتمحور حول:

-التأكيد أن عقيدة التوحيد هي ميثاق التحرير والخلاص؛ وأن الغاية الأساس للنبوة الخاتمة إلحاق الرحمة بالعالمين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ وتبيين الآثار المدمرة لتحالف الاستبداد السياسي والكهانة الدينية (الجبت والطاغوت).

- التأسيس لمنهج التقويم والمراجعة وبناء العقل الناقد؛ وتحديد مواطن الخلل، وكشف أسبابه، واقتراح سبل علاجه.

-التدريب على التفكير الاستراتيجي وبناء الرؤية المستقبلية، والإفادة من التراث لبناء الحاضر ورؤية المستقبل؛ والتشجيع على الاجتهاد وإعمال العقل، في ضوء هدايات الوحي وضوابط الشرع.

-إحياء المنهج السنني، وبيان أهمية السير في الأرض، والتوغل في تاريخ الأمم، والتبصر في العواقب والمآلات لتحقيق العبرة.

-المساهمة في بناء «الطائفة القائمة على الحق»، الأنموذج التطبيقي لقيم الدين في واقع الناس، ودليل خلود الإسلام.

- المساهمة في تجديد أمر الدين، ونفي نوابت السوء، ومعالجة أسباب الغلو والتشدد، والعودة بالأمة إلى منهج الوسطية، والتميز بين قيم الدين المعصومة وصور التدين.

-اعتبار التشكيل الثقافي ومعاودة النظر في مواصفات الخطاب الإسلامي السبيل الأجدى للتغيير.

-التعريف بأهم مقومات النهوض التي تمتلكها الأمة، ووسائل تفعيلها.

-إحياء فكرة الفروض الكفائية، واستكمال الاختصاصات الغائبة، وإعادة بناء مفهوم «أهل الحل والعقد».

-بيان الدور الحضاري للأمة، ورسم معالم رسالة المسلم في حقبة العولمة، وتوسيع دائرة التفاهم، وتحويل الاختلاف إلى تنوع وتكامل.

-تحرير القول في إشكالية «الحاكمية»، وبيان أبعاد تطبيق الشريعة، وبيان أن التكليف منوط بالاستطاعة.

- التصويب لمنهجية الاقتداء، ووضع المشكلات المعاصرة في موقعها المناسب من مرحلة السيرة وفترة القدوة وجيل خير القرون.

-بيان أن عملية النهوض تتطلب فقه النص وفهم الواقع، والتعامل مع المشكلات من خلال الإمكانات المتوفرة والظروف المحيطة .

-صوابية الحل لمشكلات عصر معين، لا تعني بالضرورة قدرتها على معالجة مستجدات كل عصر.